تفسير الزهراوين

البقرة وآل عمران

١

محمد صالح المنجد

زاد

العبيكان
Obeikan

تفسير الزهراوين

تفسيرٌ أثريٌّ، تَرْبويٌّ، مُعاصِرٌ
تَسْهيلاً لِلتَّدَبُّرِ، والعَيْشِ مَعَ القُرآنِ

محمد صالح المنجد

مجموعة زاد
ZAD GROUP
للنشر

ⓒ مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

تفسير الزهراوين. / محمد صالح المنجد، ط١. - الرياض، ١٤٣٧هـ

٨٦٤ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥-٨٣-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. القرآن - تفسير أ. العنوان

ديوي: ٢٢٧,٣ ١٤٣٧/٤٧٠٥

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ/٢٠١٦م

الناشر

مجموعة زاد للنشر ZAD GROUP

المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان Obekan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

قصة كتاب: (تفسير الزهراوين)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلكلِّ كتابٍ قِصَّة، وقِصَّة كتابنا هذا تعود لأكثر من خمسة عشر عامًا؛ حيث بدأ الشيخ محمد صالح المنجِّد دروسَ التفسير بجامع (عمر بن عبد العزيز) بالخُبَر، شارحًا تفسيرَ الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعروف باسم (تفسير القرآن العظيم)، وانتظمَ في تدريسه لمدَّة تزيد عن ثلاث عشرة سنة.

ثم تطوَّر هذا الدَّرسُ إلى إملاء «تفسير» على الطلبة، مع الاعتِناء بجَمْع الفوائد، والنُّكَت، واللَّطائِف، والإشارات، من كُتُب التفاسير المختلفة، القديمة، والمعاصرة -والتي زادت عن الثلاثين- وترتيبها بأسلوبٍ سهلٍ، واضحٍ.

ومع اكتمال تفسير سورة (الفاتحة) و(الزَّهْراوَين) -البقرة وآل عمران- ونظرًا لعموم الفائدة، وحاجة الناس إلى مثل هذا التفسير الذي سيكون فيه إثراءٌ للمكتبة الإسلاميَّة -بإذن الله-؛ فقد عكفَ الفريقُ العِلميّ بمجموعة زاد على مُراجعة التفسير، وإعادة صياغة المادة العلميَّة، وترتيبها، وتهذيبها، وزيادة بعض الفوائد والاستنباطات من الآيات، مع تخريج الآيات، والأحاديث النبويَّة المرفوعة، والآثار الواردة عن السَّلَف.

ونرجو من الله تعالى أن يكون (تفسير الزَّهْراوَين) باكورة إخراجِ هذا المشروع الكبير إلى النور (تفسير المنجِّد)، وأن يكون إسهامًا من الشيخ في هذا البَاب من أبوابِ العلم؛ ويكون تحقيقًا عمليًّا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

ونسأل الله تعالى أن يوفِّقنا والمسلمين لِـما يحبُّه ويرضاه، وأن يرزقَ الجميع الإخلاص والقَبول.

مجموعة زاد

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشـهد أن لا إله إلَّا الله، وحدَه لا شريك له، وأشـهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين. وبعد:

فـإنَّ شرفَ العِلْـم إنَّما يُنالُ بشَرَف ما يتعلَّـق به، وبموضوعه، وغايته، وشِـدَّة الاحتياج إليه.

ولـذا، فتفسـيرُ القرآن الكريـم، وتعلُّمه وتعليمـه؛ من أشرَفِ ما تُـصرَف فيه الأوقات، وتُبذَل فيه الأموال، وأصحابُه هم كالتاجِ على الرُّؤوس، وكالشمسِ للدُّنيا.

فالقرآن الكريم هو كلامُ الله تعالى، ووحيُه إلى نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورسالتُه إلى خلقه.

وهـو هدًى، ورحمةٌ، ونورٌ، وبـلاغٌ، وبصائرُ، وذِكرٌ، وفرقانٌ، وموعظـةٌ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وأهـلُ القـرآن -تعلُّمًا وتعليمًا- هم خير الناس؛ كما ثبتَ في الحديـث: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١).

ومـن المعلوم أنَّ كُتُب التفسـير قد كثُرَت، وبُسِـطَت، واختُصِرَت، وتنوَّعت مشـارِبُها، واختلفَت مناهِجُ أصحابِها.

وقد جرَت المحاولة في هذا التفسير أن يكون تفسيرًا قرآنيًا -يفسِّر القرآن بالقرآن- أثريًّا، تَرْبويًّا، دَعَويًّا، عَصْريًّا، واقعيًّا، يُسَهِّل تدبُّـرَ كتابِ الله، والانتفاعَ بآياتِه ومواعِظِه، والعيشَ

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

مـع القرآن، ويَرْبِـط القرآن بواقع الناس، ويكـون -مع كلِّ هذا- مُصاغًا بأسـلوبٍ سـهلٍ ميـسَّرٍ، يَجْمَع بين الأصالـة والمُعاصَرة -أصالـة القديم، وجِدَّة الحديث- ومناسِـبًا لعُموم الراغبينَ من طبقات المجتمَع المختلفة.

أهدافُ هذا التَّفسير:

* رَبْط الناس بكلام ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.
* إبراز هدايات القرآن المختلفة للتي هي أقوَم، في جميع المجالات: العقائد، الأحكام، المعامَلات، الآداب، الرَّقائِق، فِقه الواقع... إلخ.
* التربية على استِنباط الفوائد، والنُّكَت، والأحكام، واللَّطائِف، والإشارات القرآنيَّة من الآيات، ورَبْط القرآن بالواقع، بطريقةٍ سهلةٍ، من خلال الفوائد، والاستِنباطات، واللَّطائف المبثوثة في ثنايا التفسير.
* الاهتِمام بأسباب النُّزول، واختيار أصَحِّ الرِّوايات الـوارِدة في الباب، واستِنباط الفوائد والعِبَر منها.
* الإشـارة إلى كثيرٍ من المستَجَدَّات؛ كربط القرآن بِفِقه الواقع، والرَّدّ على الشُّبُهات، ونحو ذلك.
* خِدمة الدُّعاة والمربّين من خلال ربط التفسير بالدعوة والتربية.

ونسأل الله تعالى التوفيق، والسَّداد، والقبول، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وآله، وصحبه.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

وهي سُورَة مكيَّة.

آياتها: سبعُ آيات -عند جميع علماء العدَد-؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجر: ٨٧].

لكن اختلفَ العلماءُ: هل البسملةُ آيةٌ منها -فتكون الآية السابعة هي قولَه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾- أم ليست منها -فتكون الآية السابعة هي قولَه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾-؟[1].

أسماؤها: تُسَمَّى (أمَّ الكتاب)، و(أمَّ القرآن)؛ لأنَّها اشتملت على مقاصد القرآن كلِّه، ولأنَّ معاني الكتاب العزيز ترجع إليها. وتُسمّى أيضًا: (السبعَ المثاني)[2].

فَضْل سُورَة الفاتحة: هي السَّبع المثاني التي تُثَنَّى وتكرَّر في كلِّ صلاة، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجر: ٨٧].

وسمَّاها النبي ﷺ صلاة؛ كما في الحديث: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٦)، تفسير القرطبي (١/ ٩٢)، تفسير ابن عطية (١/ ٦١)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٧٥).

(٢) وأُطلق عليها عدّة أسماء أخرى، كالحمد، والصلاة، والشفاء، وغير ذلك، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠١-١٠٢).

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هَذا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هَذا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١).

وهي أعظم سورة في القرآن، كما أخبر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سعيد بن المُعلَّى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بذلك، وقال له: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ»، ثم قال له: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(٢).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ»(٣).

والرُّقية بالفاتحة نافعةٌ، كما فعل أبو سعيدٍ الخُدريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأقرَّه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك(٤).

وقد فُتِحَ بابٌ من السماء، فنزل منه مَلَكٌ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَالَ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»(٥).

ولا تُجزئ الصَّلاة دون قراءتها؛ لِما في «الصحيح» عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ؛ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثلاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ»(٦).

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»(٧).

مقاصد السورة:

جاءت السورة كالمقدِّمة لكتاب الله؛ فحوَت جميع مقاصده وأغراضه على جهة الإجمال.

وهي منزَّلة من القرآن منزلة الدِّيباجة للكتاب، أو المقدِّمة للخُطبة.

ويحتوي أسلوب الفاتحة على ثلاث قواعد للمقدِّمة:

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) رواه الترمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٩١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٦٠).

(٤) رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).

(٥) رواه مسلم (٨٠٦).

(٦) رواه مسلم (٣٩٥).

(٧) رواه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

الأولى: إيجاز المقدِّمة؛ لئلَّا تملّ نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السُّوَر الطوال، مع أنَّها سُورَة قصيرة.

الثانية: أن تشير إلى الغرض المقصود، وهو ما يُسَمَّى «براعة الاستهلال»؛ لأنَّ ذلك يُهيِّئ السامعين لسماع تفصيل ما سيَرِد عليهم، فيتأهَّبوا لتلقِّيه.

الثالثة: أن تكون المقدِّمة من جوامع الكَلِم، وقد بيَّن ذلك علماء البيان، عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلِّم أن يتأنَّق فيها.

موضوعات السُّورَة:

الثَّناء على الله تعالى، والتوكُّل عليه، وتقوية الرجاء برحمته، والاستعانة به، واستمداد التوفيق منه سبحانه، وطلب الهداية والثبات منه وحدَه.

وترقُّب العبد للحساب والجزاء يوم القيامة.

وتخليص العِبادة مِن الشِّرك.

والاستقامة على الدِّين.

وطلب الأمان مِن غضب الله والضلال عن سبيله، ومجانبة اليهود والنصارى، وعدم التشبُّه بهم.

تفسير الاستِعاذة:

أَمر الله بها عند البدء بقراءة القرآن؛ فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وكذلك أمر بها إذا نزغ الشَّيطان الإنسان بمعصية، وإذا خشي مِن حضوره، وإذا وسوس له في الصَّلاة، وعند الغضب، كما ثبتت بذلك السُّنة.

والأمر بالاستِعاذة قبل قراءة القرآن لتُدرأ وسوسة الشَّيطان؛ وذلك ليحصل التدبُّر والاستمرار في القراءة، وكان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاته قبل أن يقرأ الفاتحة: «أَعوذُ بِالله السَّميع العَليم مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[١]، وهَمْزه: الجنون، ونَفْخه: الكِبر، ونَفْثه: الشِّعْر القبيح.

(١) رواه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٢/ ٥٤).

والاستِعاذة طهارة للفم مِن اللَّغو والرَّفث، والتجاء إلى الله، وطلب الحماية منه، مِن شرِّ الشَّيطان؛ لأنَّه عدوّ باطن خفيّ، لا ينفع معه المداراة والمصانعة.

و(**الشَّيطان**): مشتقٌّ مِن «شَطَنَ» إذا بَعُدَ، وهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيدٌ بِفِسْقه وكُفره عن كلِّ خير.

وقيل: هو من باب «شاط»، وهو أصلٌ يدلُّ على ذَهاب الشيء، إمَّا احتراقًا وإمَّا غيْرَ ذلك، ومنه: «استشاط الرَّجلُ» إذا احتدَّ غضبًا، والنون في «الشَّيطان» زائدة، على وزن «فعلان»[(١)].

و(**الرَّجيم**): فعيل بمعنى مفعول؛ أي: المرجوم المطرود عن الجنَّة، وعن الخير كلِّه.

تفسير البسملة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾:

افتتح الصَّحابةُ كتاب الله بالبسملة، واتفق العلماء على أنَّها بعض آية مِن سُورَة النمل، واختلفوا: هل البسملة آية مِن الفاتحة، أم لا؟

وثبت أنَّها نزلت للفصل بينَ السُّور، كما روى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كان لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ، حتَّى تنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[(٢)].

وقد ثبت أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يفتتح الصَّلاة بها؛ فقد سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، «يَمُدُّ بِـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ ﴿الرَّحِيمِ﴾»[(٣)].

وذهب كثيرٌ مِن العلماء -وهو الثابت عن الخلفاء الأربعة- إلى عدم الجهر بها قبل الفاتحة في الصَّلاة.

وقوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: أبتدئ قراءتي بـ (بسم الله)، أو: ابتداء القراءة بـ (بسم الله)؛ للاستعانة به عَزَّوَجَلَّ، والتماس البركة بتقديم ذِكْر اسمه قبل العمل.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١١٥)، تفسير القرطبي (١/ ٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٥٤).

(٣) رواه البخاري (٥٠٤٦).

﴿ٱللَّهِ﴾: لفظ الجلالة، اسم لا يُسَمَّى به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أكثر الأسماء ورودًا وتكرارًا في الكتاب والسُّنَّة.

وهو مشتقٌ مِن «أَلِهَ» يأْلَهُ، ومعناها: العِبادة بمحبَّة وذُلٍّ وخضوع، وأصل هذه اللفظة «الإله»، فلمَّا حُذِفت الهمزة والتقت اللام باللام؛ أُدغِمتا، فصارتا في اللفظ حرفًا واحدًا مشدَّدًا، وفُخِّم تعظيمًا.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، وكلاهما يدلَّان على ذاته، وعلى صفة الرحمة، وهي رحمة حقيقيَّة تليق بجلاله وعَظَمته.

وإذا اجتمع الاسمان -كما في هذا الموضع-؛ فـ«الرحمن» يدلُّ على الرحمة التي هي صفته، و«الرحيم» يدلُّ على فِعْله المتعدِّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

و(الرحمن) اسم مختصّ بالله سبحانه، لا يُسَمَّى به غيره، بخلاف «الرحيم».

وهذا الاسم: (الرحمن) هو الذي أنكره مُشركو العرَب؛ كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، لكنَّه إنكار جحود واستهزاء، لا جهالة واستبعاد، فقد كان الاسم معروفًا في أشعارِهم، كقول أحدهم:

عَجِلتم عَلَيْنا عَجْلَتَيْنا عليكُمُ ... وَمَا يَشَأ الرّحْمَن يَعْقِد ويُطْلِقِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾:

وقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إثبات كلِّ المحامد لله. و(الحمد) وصف المحمود بالكمال مع المحبَّة والتعظيم، واللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاص والاستِحقاق.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الربُّ): هو الخالِق، المالِك، المُدبِّر.

و(العالمين): جمع عالَم، وهو كلُّ ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، مِن الملائكة والإنس والجنِّ والطير وغيرها.

وقد وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم عَلَم على خالقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ففي كلِّ شيء من المخلوقات آية تدلُّ على الخالق: على قدرته، وحِكمته، ورحمته، وعِزَّته، وغير ذلك من معاني ربوبيَّته.

الفَرقُ بين المدحِ والحَمْدِ:

المدحُ: وَصْفُ الممدوح بالصِّفات الحميدة، لكن لا يلزم منه أن يكون محبوبًا معظَّمًا،

فقد يمدحُه مِن أجل أن ينالَ غَرَضًا له، وقد يمدحُه مِن أجل أن يتَّقي شَرَّه، لكن الحمد لا يكون إلا مع محبَّةٍ وتعظيمٍ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّناء على الله، وأنه تعالى مستحقٌّ للحمد؛ لجليل صفاته، حتى قبل أن يخلق الخليقة.

وفيها: تحقيق التوحيد، بإثبات اختصاص الله بجميع المحامد، وهذا لا يُشارِكه فيه غيره.

وفيها: إثبات رُبوبيَّة الله تعالى لجميع أصناف الخليقة.

وفيها: تقديم وصف الله بالألوهيَّة على وصفه بالرُّبوبيَّة؛ تنبيهًا على أهميَّة هذا النوع مِن التوحيد الذي أنكره المشرِكون وأكثر الأُمَم الذين بعث الله إليهم الأنبياء.

وفيها: تربية الله لخَلْقه عُمومًا؛ بهدايته لهم لِما فيه مصالحهم، وتربيته لأوليائه خصوصًا بهدايتهم، وتعليمهم وتوفيقهم لعبادته.

وفيها: أنَّ من أسماء الله (الربّ)، ولا يُطلَق على غير الله إلَّا بالإضافة -مثل: «ربِّ الدار»-.

وفيها: إثبات عظمة الله بخَلْقه للعوالم المختلفة في السماوات والأرض، التي لا يحصيها ولا يعلمها إلَّا هو.

وفيها: ثناء الله على نفسه، وحمده لنفسه، أمَّا البشر: فإنَّهم لا يُزَكُّون أنفُسَهم.

وفيها: تعليم العِباد حمدَه بالاقتداء به عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: فَضْل افتتاح الكلام بحمد الله.

وفيها: فَضْل التحميد، وهو أفضل مِن التسبيح، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الحَمْدُ لله»[(١)].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾:

وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: كلاهما مبالغة من «الرحمة»، فـ(الرحمن) يدلُّ على الرحمة التي هي صفته، و(الرحيم) يدلُّ على فِعْله المتعدِّي بإيصال الرحمة إلى المرحوم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٤).

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يدلُّ على ذاته، ويدلُّ على صفة الرحمة، وهو رحمن بجميع الخَلْق، وكلُّ النِّعَم مِن آثار رحمته، ولا يجوز أن يُطلَق هذا الاسم على غير الله.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: وهذه صيغة مبالغة، تُقال لِمن كثرت منه الرحمة، ويدلُّ على الرحمة المتعلِّقة بفعله، وهو رحيمٌ بالمؤمنين، بهدايته لهم ولُطفه بهم.

والرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

النوع الأول: رحمة ذاتيَّة، موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، كسائر صفاته.

والثانية: رحمة مخلوقة، أنزل الله عز وجل منها جزءًا يتراحم به الخلائق فيما بينهم.

وهذه الرحمة المخلوقة أثر من آثار رحمته، التي هي صفته الذاتيَّة الفِعليَّة.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إثبات هذين الاسمَين الكريمين لله تعالى.

وفيهما: بيان أنَّ ربوبيَّته عَزَّوَجَلَّ متضمِّنة ومبنيَّةٌ على رحمته الواسعة، وجارية على وَجه الرحمة والرفق واللِّيْن، لا على وجه الشِّدة والأذى والحَرَج.

وفي قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **بعد قوله** ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ترغيبٌ بعد الترهيب؛ لأنَّ الرَّب هو القادر القويّ، وهو السيِّد المالك المتصرِّف في خَلْقه من غير منازِع، وإتْباع الترهيب بالترغيب أعون على طاعته وعبادته.

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعاءٍ علَّمه صاحبَه معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رَحْمَنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا»(١).

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾:

وقوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: له المُلك التَّام في ذلك اليوم -يوم القيامة- لا يملك أحدٌ فيه حُكمًا مع الله.

وقراءة (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) صحيحة متواترة؛ فـ(مَلِكِ) صفة لذاته، و﴿مَٰلِكِ﴾ صفة لفعله.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ١٥٤)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٢١).

وفي الجمع بـين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أنَّ مُلكه جلَّ وعلا مُلك حقيقي؛ لأنَّ مِن الخلق مَن يكون مَلِكًا، ولكن ليس بمالك؛ يُسَمَّى مَلِكاً اسمًا، وليس له من التدبير شيء.

ومِن الناس مَن يكون مالكًا، ولا يكون مَلِكًا، كعامَّة الناس.

ولكنَّ الرَّبَّ عزّ وجلّ: مَالِكٌ مِلِك.

و﴿ٱلدِّينِ﴾: هو الحساب والجزاء، بالعَدْل والقِسط.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

إثبات المُلك المطلق لله تعالى يوم القيامة، ومَن مَلَكَ الزمان فَقْد مَلَكَ ما فيه، وأمَّا مُلْكه للدنيا: فهو داخلٌ في قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفيها: أنَّ من أسباب استِحقاق الله للحمد: مُلكَه التَّام يوم القيامة، وهو عَزَّوَجَلَّ يبعث كلَّ العوالم في ذلك اليوم -حتى الطير والدواب- ويكون القِصاص بينها مِن تمام الدِّين، وهو الجزاء وإقامة العَدْل.

وفيهـا: موعظـة العِبـاد بِذِكْر يوم القيامة؛ ليعمـل العبد بما يُنَجِّيه في ذلـك اليوم، ويأخذ حذره ويحتاط ويستعدّ.

وفيها: ظهور مُلْك الله جليًّا لجمع الخلائق.

وفيها: زوال مُلْك جميع المخلوقين يوم القيامة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

وقولـه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبـد إلَّا إيَّـاك. و(العِبادة): كمال المحبَّـة والخوف والذُّل والطاعة للمعبود.

والعبادة: اسم جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال، الباطنة والظاهرة.

وتُبنى على أركان ثلاثة:

كـمال الحُبِّ، وكـمال الرَّجاء، وكمال الخـوف من الله تعالى، وقد جمـع الله عز وجل هذه المقامـات الثلاثـة في قولـه: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نستعين إلَّا بك على طاعتك، وعلى أمورنا كلِّها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إخلاص العِبادة لله، والاهتِمام بإفراده بالعِبادة، والاستعانة الكاملة به سبحانه.

وقد دلَّ على هذا تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنَّ العِبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتِمام والحَزْم هو أن يقدَّم ما هو الأهمّ فالأهمّ.

وفيها: حَصْر العِبادة والاستعانة الكاملة بالله، كما دلَّ عليه تقديمُ ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفِعْل ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وفيها: البراءة مِن الشِّرك.

وفيها: التبرُّؤ مِن حَول العبد وقوَّته، وإعلان توكلُّه واعتِماده على ربِّه.

وفي تحوُّل الكلام مِن الغَيبة إلى المواجَهة بكاف الخِطاب: إشارة إلى اقتراب قارئ الفاتحة وحضوره بينَ يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ هذا الإقرار بالعبوديَّة لله والاستعانة به يؤهِّل العبد للطلب والدعاء؛ ولذلك يسأل بعدها ويقول: ﴿ٱهْدِنَا﴾.

وقد قال الله تعالى في الحديث القُدْسِيّ: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

وفيها: تقديم الأهمِّ على المهمّ؛ لأنَّه قدَّم العِبادة -وهي المقصودة- على الاستعانة -وهي الوسيلة-.

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾: إشارة إلى اجتماع المؤمنين على ذلك، وأنَّ قارئ الفاتحة ليس وحدَه في هذا الأمر، فيأنس في الوَحْشة وغُرْبة الدِّين، وتسهُل عليه العِبادة إذا شعر باشتراك إخوانه الأوَّلين والآخِرين معه فيها.

وفي قراءة الإمام لها: معنى الإعلان بذلك هو والمأمومون.

وفي نون الجمع أيضًا: إشارة إلى أنَّ العبد تَعْظُم منزلته ويَشْرُف مقامه عند ربِّه بالعِبادة والاستعانة.

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وفي نون الجمع في قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾: إشارة إلى أنَّ عبادة الصَّلاة مبنيَّة على الاجتماع.

وفيها: أنَّ العبد لا يتمكَّن من عبادة الله إلَّا إذا أعانه الله على ذلك، وفي هذا منعٌ للعُجْبِ والغُرور الذي قد يصيب بعض المُكثرين من العِبادة؛ فإنَّه إذا علم أنَّ اجتهاده هذا لم يكن ليحصل لولا إعانة الله؛ فإنَّه لا يقع في العُجْبِ والغُرور.

وفي هذه الآية: شاهدٌ لمعنى الحوقلة (لا حول ولا قوة إلَّا بالله)؛ فالعبد يستعين بالله تعالى في إنجاح حوائجه وأموره.

وفيها: إشارة إلى أنَّه لا ينبغي التوكُّل إلَّا على مَن يستحقّ العِبادة، كما قال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وفيها: ردٌّ على مذهبي الجَبْرِيَّة والقدَرِيَّة الضالَّين؛ فإن قوله ﴿نَعۡبُدُ﴾ يدلُّ على أنَّ للعبد اختيارًا للفعل وإرادة له في القيام بذلك، وهذا ردٌّ على الجبرية الذين يقولون: لا اختيار للعبد وأنَّه مجبور على أفعاله.

وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فيه: بيان أنَّ العبد لا يمكن أن يفعل إلَّا بعون الله ومشيئته وتمكينه، وفي هذا ردٌّ على القدَرِيَّة الذين يقولون: إنَّ العبد يَخْلُق فِعْلَه بنفسه، دون إرادة ومشيئة الله!

وفيها: حَصْر الاستعانة بالله فيما لا يقدِر عليه إلَّا الله، وأنَّ استعانة التفويض الكامل خاصةٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، وتجوز الاستعانة بالمخلوق فيما يقدِر على المعاونة فيه.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾:

وبعد الثَّناء على الله في الآيات المتقدِمة؛ نَاسَبَ أن يَسأل العبد حاجته؛ ولذلك قال: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي: أرشِدنا، ودُلَّنا، وألهِمنا.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق الواضح ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي لا اعوِجاج فيه، وجاء تفسيره بـ: كتاب الله أو القرآن، والإسلام، والنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والحقّ.

وكلُّ هذه التفسيرات ترجع إلى أمرٍ واحدٍ؛ وهو: طاعة الله، والمتابعة لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فمن اتَّبع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقد اتَّبع الحقَّ، ومن اتَّبع الحقَّ فقد اتَّبع الإسلام، ومن اتَّبع الإسلام فقد اتَّبع القرآنَ. فكلُّها صحيحة يُصدِّق بعضها بعضًا.

وقـال النبي ﷺ: «ضَرَبَ الله مَثَلًا صِراطًا مُسْـتَقيمًا»، ثم فسَّره فقال: «والصِّراطُ: الإِسْلامُ»(١).

وتَـكرارُ العبد للدُّعاء بطلب الهداية في قراءة الفاتحة في كلِّ صلاة -وإن كان مستقيمًا على الحـقِّ- ليـس تحصيل حاصل؛ فإنَّ تَـكرار طلب الهداية هو طلب الثبات عليها، والرسـوخ فيها، والازدياد منها، والاستمرار عليها، وزوال موانعها وصوارفها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المطلوب بعد العِبادة والاسـتعانة هو: اتِّباع الشريعة؛ ولذلك يَطلب العبدُ من ربِّه أن يدُلَّه عليها، ويوفِّقَه إليها.

وقولـه ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ أَبْلَغُ مِن قـول (اهدنا إلى الصِّراط)؛ لأنَّ العبارة الأُولى تعني هداية التوفيق، وليس مجرَّد هداية الدلالة، وتتضمن معنى (ألهِمنا) و(ألزِمنا).

وفيها: التحذيرُ مِن البِدَع، واتِّباع السُّبُلِ المنحرِفة.

ويؤخَذ منها: إثبات النبوَّة؛ لأنَّ الصِّراط المستقيم لا يمكن معرفته إلَّا بالوحي.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: أهميةُ الثَّناء على الله قبل سؤالِه ودعائِه.

وفي تـلاوة المُصَلِّي لهـذه الآية عِدَّة فوائد؛ منها: طلب المقصود -وهو الهداية- وحصول أَجْرِ العِبادة باللجوء إلى الله بالدُّعاء، وأجرِ تلاوة القرآن (لكلِّ حرفٍ عَشْرُ حسناتٍ).

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾:

ثم بيَّن تعالى الصِّراط المستقيم؛ فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بطاعتك وعبادتك، وتفسـير هذا موجودٌ أيضًا في قوله تعـالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهـم: اليهـود، الذيـن علِمُـوا الحقَّ وكتمـوه وجحدوه، فاستحقُّوا غضب الله.

﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم: النصارى، الذين فقدوا العِلْمَ، فهامُوا في الضلالة وتِيهِ الجهالة.

---

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

فهذا دعاءُ المؤمنين أن يَسلُكَ الله بهم صراطه المستقيم، صراط النبي ﷺ والمؤمنين، لا صراط اليهود المغضوب عليهم، ولا النصارى الضالِّين.

وقد جاء في الحديث الصحيح، في بيان حال الربِّ مع العبد إذا قرأ الفاتحة في الصَّلاة: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ...»، وفيه: «فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

ولهذا يقول العبد في آخر مسألته هذه: «آمين»؛ أي: اللهُمَّ استجِب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ عقيدة المؤمنين واحدةٌ، وليست سُبُلًا متفرِّقة.

وفيها: أنَّ الجهل والعناد مِن أسباب الخروج عن الصِّراط المستقيم.

وفيها: أنَّ كُفرَ اليهودِ أشدُّ مِن كُفر النصارى؛ لأنَّهم عرفوا الحقَّ وخالفوه وحاربوه، أمَّا النصارى: فقد جَهِلوه وعادوه، ولذلك كان الغضبُ مِن أخصِّ صفات اليهود، والضلالُ مِن أخصِّ أوصاف النصارى.

وفيها: أنَّ طريقة أهل الإيمان الذين أنعم الله عليهم هي: الجمْع بينَ العِلْم بالحقِّ، والعملِ به.

وفي هذه الآية: مثالٌ عظيمٌ لتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسُّنَّة، وهما أعلى أنواع التفسير:

فأمَّا تفسير القرآن بالقرآن؛ فهو ما تقدَّم مِن تفسير قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بقوله في سُورَة «النِّساء»: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وأمَّا تفسير القرآن بالسُّنَّة؛ فهو ما ورد مِن حديث عَديِّ بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ (الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ) الْيَهُودُ، وإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

وفيها: إيناس أهل الحقِّ وتثبيتهم في أوقات الغُربة؛ بالنصِّ على أنَّ طريقهم قد سلكه ويسلكه وسيسلكه الّذين أنعم الله عليهم.

وفيها: بيان نِعمة الله على المؤمنين، بسلوك الصِّراط المستقيم في الدُّنيا المُوصِل إلى جنَّته في الآخرة،وأنَّ مَن سلكه في الدُّنيا عبَر الصِّراط على متن جهنم سالمًا أيضًا.

وفيها: براءة أهل الإسلام -أصحاب الصِّراط المستقيم- مِن اليهود والنصارى.

وفي هذا: ردٌّ على القائلين بتقارب الأديان، أو إمكان الوَحدة بينَ الأديان؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ لا يمكن أن يقتربوا مِن أهل الغضب واللَّعنة.

ويؤخَذ منها: أنَّ العالِـم الفاجر فيه شَبَهٌ مِن اليهود، والعابد الجاهل فيه شَبَهٌ مِن النصارى.

وفيها: أنَّ الإنسان مهما بَلَغَ مِن مراتب الإيمان؛ فإنَّه لا يزال محتاجًا لطلب الهداية مِن ربِّه.

وفيها: تذكيرٌ بمُوالاة المؤمنين ومحبَّتهم، ومعاداة الكافرين وبُغْضِهم.

وفيها: تعليمُ العِباد الأدبَ مع الله، في عدم نسبة الأشياء المكروهة إليه مباشرة؛ مع أنَّه هو الذي شاءَها وقدَّرها وخَلَقها:

ففي قوله ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ نَسَبَ الضلال إليهم؛ مع أنَّه قال في آية أخرى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف ١٨٦]، وقال هنا أيضًا: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، مع أنَّه قاله في آية أخرى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [المجادلة: ١٤].

وهذا كما في الحديث: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»[(١)].

وفيها: إشارةٌ إلى وجوب اتِّباع أهل الحقِّ، والحذر من اتِّباع أهل الضلال.

وفي ختام هذه السورة، يُشرع لتاليها في الصَّلاة وغيرها أن يقول بعدها: «آمين»؛ ومعناها: اللهُمَّ استجِب.

والسُّنَّة الجهر بها إذا جهر بالقراءة؛ لحديث وائل بن حُجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فقال: «آمين»، وَمَدَّ بها صَوْتَه[(٢)]، وفي رواية: «رَفَعَ بِها صَوْتَه»[(٣)].

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٩٣٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٨٦٣).

وقد ورد في فَضْل التأمين:

حديث: «إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

وفي رواية: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ المَلائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَإِذَا قَالَ (يعني: الإمام) ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ؛ يُجِبْكُمُ اللهُ»(٣)، يعني: يستجِبْ دُعاءَكم.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا حَسَدَتْكُمُ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ»(٤).

وفيها: أنَّ اليهود مغضوبٌ عليهم مِن الله، ومِن عباده المؤمنين. وأنَّ غضب المؤمنين تَبَعٌ لغضب الربِّ.

وفيها: تقديم نِعمة الدِّين؛ وهي التي رزقها عبادَه المؤمنين.

وفيها: الحثُّ على الاطِّلاع على سِيَر الذين أنعم الله عليهم مِن الأنبياء والصالحين؛ لأجل الاقتداء بهم.

---

(١) رواه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).

(٢) رواه البخاري (٧٨١).

(٣) رواه مسلم (٤٠٤).

(٤) رواه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٥).

سُورَةُ البَقَرَةِ

وهي سُورَة مدنيَّة -بلا خلاف- وهي مِن أوائل ما نزل بالمدينة، وقد تأخَّر نزولُ بعض آياتها.

آياتها:

ستٌّ وثمانون ومائتان -على خلافٍ بين علماء العدَد-.

قال بعضُ العلماء: «وهي مشتملة على ألف خبَر، وألف أمر، وألف نهي».

أسماؤها:

تُسَمَّى (البقرة) و(الزَّهْراء)؛ لحديث: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ...» الحديث(١).

وتُسَمَّى سَنَام القرآن؛ لحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ»(٢). والسَّنام: الرِّفْعة.

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورَة: إقامة الدَّليل على أنَّ القرآن الكريم هُدًى للناس، ليُتَّبَع في كلِّ حال.

وأعظم ما يهدي إليه: الإيمانُ بالغيب، ومَجْمَعه: الإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٨)، مرفوعا، وموقوفا، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٥٨٨).

بالبعث، الذي أعربَت عنه قِصَّة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغَيب، فلذلك سُمِّيت بها السُّورَة، وكانت بذلك أحقَّ من قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّها في نوع البشر.

من موضوعات السُّورَة:

مَدْح المتَّقين ومؤمني أهل الكتاب، وذَمُّ الكفَّار -ومنهم كفَّار مكة- والمنافِقين -ومنهم مُنافقو المدينة-.

والرَّدُّ على مُنكري النبوَّة، والتحدِّي بالإتيان بمِثل سُوَر القرآن.

وقصَّة خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعليمه وتلقينه.

وذمُّ علماء اليهود -في مواضع عِدَّة-.

وقصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستسقائه، ومواعدته ربَّه، وقيادته لبني إسرائيل، وشكواه منهم، وحديث البقرة.

وتحريم السِّحْر، وقِصَّة سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهاروت وماروت.

والرَّدُّ على النصارى.

وابتلاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبناء الكعبة، ووصيَّة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأولاده.

وتحويل القِبلة.

وبيان الصَّبر على المُصيبة وثوابها.

والأمر بالحَجِّ والعُمرَة، ووجوب السعي بينَ الصفا والمروة فيهما.

وبيان حُجَّة التوحيد.

والأمر بصيام رمضان.

وحُكم القتال في الأشهر الحُرُم.

وذِكر بعض أحكام الحَيْض، والطلاق، والأنكحة، والعِدَّة.

وذِكر الصَّدَقات والنَّفقات، والأمر بالإخلاص في الإنفاق وذِكر أجره.

وتحريم الرِّبا.

وبيان المُداينات.

واستِسلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لخبر الله، ونزول التخفيف في حديث النفس، والخطأ، والنسيان.

وغير ذلك.

فَضْل سُورَة البقرة:

سورة البقرة تمنع دخول الشَّيطانِ البيت، وتطرُده إذا كان في البيت؛ لحديث: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»(١).

والملائكة نزلت لسماعها؛ كما جاء في حديث أُسَيْد بن حُضَيْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، يقول: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا». وأنَّه لـمَّا حدَّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك قال له: «تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ»(٢).

وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بتعلُّمها**؛ فقال: «اقْرَءُوا -وفي رواية: تعلَّموا- سُورَةَ البَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»(٣)، والبَطَلَة هم: السَّحرة.

وتُظِلُّ صاحبَها يوم القيامة مع سُورَة «آل عمران»؛ كما في الحديث: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»(٤).

والمعنى: يأتي ثوابها كأنَّه سَحابتان تُظلَّان صاحبَها عن حرِّ الموقف، أَوْ كَأَنَّهما طائفتان من طَيْر واقفة على الصَّف، أو باسطة أجنحتها متصلًا بعضُها ببعض، تُدافِع وتُجادِل عن أصحابِها.

---

(١) رواه مسلم (٧٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

(٣) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٥٧).

(٤) رواه مسلم (٨٠٤).

وفي حديثٍ آخر: «يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآل عمران»[١].

وكان مَن يحفظها مع آل عمران يَعظُم في أعين الصَّحابة، كما قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: البَقَرَةَ وَآل عمران؛ جَدَّ فِينَا -يَعْنِي عَظُمَ-»، وفي رواية: «عُدَّ فينا ذا شأن»[٢].

وربما جُعِل أميرًا على البُعُوث بسبَبِ ذلك[٣].

وفي الحديث: «مَن أخذَ السَّبْعَ الأُوَلَ؛ فهو حَبْرٌ»[٤]؛ أي: عالِم.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ»[٥].

والسَّبْع الأُوَل هي: السَّبْع الطوال، وهي: البقرة، وآل عمران، والنِّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة.

﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾:

﴿الٓمٓ﴾: في هذه الأحرُف المُقطَّعة أقوالٌ عِدَّة؛ منها: أنَّ لها معنى، فقالوا: أسماءٌ للسُّور، وقالوا: أسماءٌ لله تعالى، وقيل: مفاتيح لأسماء الله، وقالوا: أقسامٌ أقسم الله بها.

ومنها: أنَّ لها معنى لا يعلمه إلَّا الله. فتوقَّف بعض العلماء في هذه الأحرُف.

وقيل: لا معنى لها؛ لأنَّها ليست بكلمات، ولا تُقرأ على حسب الكتابة، ولكن على حسب اسم الحرف، فلا يقال «أَلَمَ»، وإنما يُقال: «ألف لام ميم»؛ فدلَّ هذا على أنَّه ليس لها معاني.

ولكن لها مَغْزَى؛ وهو: أنَّ الله تعالى لـمَّا تحدَّى العرَب بالإتيان بمِثل هذا القرآن؛ بيَّن أنَّه نـزل بلُغتهم، وبهذه الحروف التي يعرفونها من كلامهم، وليس بحروف خارجة عن نطاق البشر، فلم يأتِ القرآن بجديد من الحروف، فهاتوا مِثله -يا معشر كفَّار العرَب- لكن أهل اللُّغة البُلَغاء الفُصَحاء لم يستطيعوا الإتيان بمثله.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٥).

(٢) رواه أحمد (١٢٢١٥، ١٢٢١٦)، وابن حبَّان (٧٤٤ -إحسان).

(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٦)، وقال: «حسن»، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترغيب (٨٦٤).

(٤) رواه أحمد (٢٤٤٤٣)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠٥).

(٥) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان (٢١٩٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٩).

وقوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هذا القرآن ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ لا شكَّ. و(الرَّيب): هو الشَّكّ المُقْلِق للنَّفْسِ.

﴿فِيهِ﴾ لا ريب في مصدره، ولا في أحكامه، وأخباره، فآمِنوا ولا ترتابوا.

﴿هُدٗى﴾ نورٌ وتِبْيان وهداية مِن الضلالة، وخروجٌ مِن الظُّلُمات إلى النُّور.

﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بفعل ما أَمَر به، واجتناب ما نهى عنه، واتقوا الشِّرك وما حرَّم الله.

والوَقف على قوله ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أَوْلَى وأَبْلَغ مِن الوقف على قوله ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾؛ لتكون ﴿هُدٗى﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ وهو: القرآن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإشارة إلى الكِتاب بأداة البعيد؛ دالَّةٌ على عُلُوِّ مكانة القرآن، وشرف منزلته.

وفي وصف القرآن بـ (الكتاب)، بمعنى: مكتوب؛ إشارة إلى العِناية به؛ لأنَّ الله كتبه عنده في اللَّوح المحفوظ، وجعله مكتوبًا في صُحُف الملائكة، وفي المصاحف التي بأيدي الناس كذلك.

وفيها: أنَّ القرآن هدايةٌ للمتَّقين، وليس للكفَّار المعاندين، والمنافِقين المرتابين؛ فإنَّ هؤلاء يكون القرآن عليهم عمًى، وربما ازدادوا به ضلالة، فَهُم في ريبهم يتردَّدون.

وفيها: أنَّ هداية القرآن تزداد بازدياد التَّقوى؛ لأنَّ الحُكم -وهو (الهداية)- إذا عُلِّقَ بوَصْفٍ -وهو (التَّقوى)- فإنَّه يزداد بازدياده؛ ففي الآية فضيلة التَّقوى.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾:

ثم ذكرَ تعالى صفةً عظيمةً للمتَّقين، وهي إيمانهم بالغَيب؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ يُصدِّقون ويعملون ويخشون ربهم ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بما غاب عنهم؛ ممَّا أخبر الله به عن نفسه، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وقَدَرِه، وجنَّته، وناره، ونحو ذلك.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يُتِمُّونها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحبَّاتها، فرضًا ونفلًا.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم، ووهبناهم، وأنعمنا عليهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ يُخرجون النَّفقات المستحبَّة والواجبة، كالزكاة، والإنفاق على الأهل والعيال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الإيمان بالغَيب ودرجته العظيمة؛ فإنَّ التصديق بالمُشاهَد المحسوس لا يحتاج إلى إيمان؛ لكونه لا يمكن إنكاره، أمَّا التصديق بما غاب: فيحتاج إلى قوَّة إيمان.

ولذلك أثنى النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوم يأتون مِن بعد أصحابه يؤمنون به، فلمَّا سألوه: يَا رَسُولَ الله، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا، أَسْلَمْنَا مَعَكَ، وَجَاهَدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يُؤْمِنُونَ بِي، وَلَمْ يَرَوْنِي»[(١)].

ويمكن أن يؤخذ من الآية: أنَّ صدَقة الغاصِب والسَّارِق باطلةٌ؛ لأنَّه لا يملِك المال الذي تصدَّق به.

وفيها: أنَّ الإنفاقَ ليس له حدٌّ محدودٌ إلَّا ما عيَّنته الشريعة، وما لم تُعيِّنه يُرجَعُ فيه إلى العُرف، وكلَّما كان أكثر كان خيرًا وأطيب.

وفيها: ذمُّ البخل، وأنَّه يُنافي التَّقوى.

وفيها: أنَّ الأموال ودائعُ عند بني آدمَ، يوشك أن يدَعوها.

وفيها: أنَّه لا يجب إنفاق كلِّ المال؛ لأجل (مِن) في قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

وفيها: منع التبذير والإسراف.

وفيها: أنَّ من صفات المتَّقين: عبادة الحقِّ عَزَّوَجَلَّ، والإحسان إلى الخَلْق.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾:

ثم ذكر تعالى صفةً رابعةً للمتَّقين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصدِّقون ويوقنون ﴿بِمَآ أُنزِلَ

(١) رواه أحمد (١٦٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٩٠٧).

﴿إِلَيۡكَ﴾ مِن عند الله، وهو القرآن والسُّنة ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ على الأنبياء السابقين، كالتوراة، والإنجيل، والزَّبور، وصُحُف إبراهيم، وغيرها، يؤمنون بها إيمانا مجملًا، وإن لم يعلموا تفاصيلها.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سُمِّيت (الآخرة)؛ لأنَّها بعد الدُّنيا ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ يؤمنون بلا ريبٍ ولا شكٍّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الإيمان بجميع كتب الله المنزَّلة، ومِن فوائد ذلك: إدراك أنَّ الله لم يترك البشريَّة هَمَلًا؛ بل أنزل عليهم كتبًا، وأنَّ البشرية لا تصلُح بغير حُكمٍ إلهيّ، يحكُمُ بينَهم.

ومِن فوائد الإيمان بما أُنْزِل على مَن قبلنا: استجلاب قُلُوب أهل الكتاب لهذا الدِّين، الذي يُوجِب الإيمان بما أُنْزِلَ على أنبيائهم.

وفي الآية مع ما سبقها: بيان أنَّ كلَّ صفة مِن صفات المتَّقين المذكورة تَستلزم الأخرى، وشرطٌ معها؛ فلا يصح الإيمان بالغيب وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة إلَّا مع الإيمان بما أُنْزِل على النبيِّ ﷺ، وعلى الرُّسل مِن قبله، مع اليقين بالآخرة.

وفيها: فضيلةٌ للّذِين يدخلون في الإسلام من أهل الكتاب، ويؤمنون بما أُنْزِل إلينا، وما أُنْزِل إليهم، فَيُؤْتَونَ أجرَهم مرتين.

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ، وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»(١).

وفيها: فضيلةٌ وشرفٌ لكلِّ مؤمن عربيّ وعجميّ، وإنسيّ وجنيّ.

وفيها: أنَّ عدم معرفة تفاصيل كُتُب الله السابقة لا يمنع من الإيمان بها.

وقد قال النبي ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ، وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٥٤٢).

ويُؤخذ مِن الآية: أنَّ الّذِين يؤمنون ببعض الكِتاب ويكفرون ببعض، أو يُفَسِّرونه بغير المقصود منه، ويُحَرِّفُون الكَلِمَ عن مواضِعه: ليسوا مؤمنين حقًّا بما أنزل الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾:

ثم بيَّن تعالى جزاء مَن اتَّصَفَ بالصِّفات الخَمْس المتقدِّمة؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهذه إشارةٌ إلى البعيد؛ وذلك لِعُلُوِّ مرتبتهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ على عِلْم ونور وبصيرة وتوفيق ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ بيان مصدر الهُدى، وأنَّه مِن تسديد الله إيَّاهم، وتوفيقه لهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في الدُّنيا والآخرة. و(الفلاح): هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الهُدى الحقيقي مِن الله، لا مِن غيره.

وفيها: أنَّ الوسيلةَ لنيل الفلاح هو ما تقدَّم ذكرُه مِن الاعتقاد والعمل.

والتعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الذي فيه معنى الاستعلاء والفوقية: يُبيِّن تمكُّن هؤلاء من الطريق الذي يسيرون عليه، وهو طريق الهُدى الواضح المستقيم، وهذا يدلُّ على سلامة منهجهم.

وفيها: حَصْرُ الفلاح فيمَن اتصف بالصِّفات المتقدِّمة، وفي الثَّناء عليهم إظهارٌ لقَدْرهم، وترغيبٌ للاقتداء بهم.

وفيها: أنَّ غير المتَّصفين بهذه الصِّفات ليسوا على هُدًى، ولا ينالون الفلاح.

وفيها: أنَّ الفلاح غايةٌ، والاعتقاد الصحيح والعمل الصالح وسيلة للفوز به.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾:

وبعد أن بيَّن تعالى حال المتَّقين المؤمنين، ذكَرَ ما يقابلهم -وهم الكفَّار- فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما يجب الإيمان به، وغطَّوا الحقَّ وجحَدوه ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يستوي الأمر عندهم ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ عذاب الله ﴿أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ ذلك. و(الإنذار): هو الإعلام المقرون بالتخويف.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك، ولا بما أُنْزِل عليك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله بنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتخفيفه عنه وتسليته؛ حتى لا تَذهب نفسه عليهم حسرات، ولا يهلك ويحزن من أجلهم، ولا يغتمّ إذا رآهم مُصِرِّين على الكُفر.

وفيها: أنَّ الدَّاعية إلى الله إذا بلَّغ الحقَّ، وقام بما يجب عليه من البيان والإنكار؛ فإنَّه لا يضرُّه إصرار مَن أصَرَّ على الباطل.

وفيها: أنَّ الدَّاعية مُكلَّفٌ بالبيان والدَّعوة، لا بالنتائج وهداية قُلُوب الخَلْق.

وفيها: أنَّ مَن كتبَ الله عليه الشقاء فلا فائدة تُرجى من إنذاره.

وليس في الآية تيئيس الدُّعاة، ولا أَمْر بتَرْك الدَّعوة؛ بل عليهم القيام بالواجب الشرعيّ في ذلك، فإذا أصَرّ المدعُوُّون على الباطل: تولَّوا عنهم، ووكَلُوا أمرهم إلى الله.

ويؤخَذ من الآية: أنَّ مَن لا يشعر بالخوف عند الموعظة، فيه شَبَهٌ مِن الكفَّار مِن هذا الوجه.

وفيها: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره لا يعلمون ما هو مكتوبٌ على مَن يدعونهم، من الشقاوة والسعادة.

وليس معنى الآية: تَرْك دعوة الكفار؛ فإنَّه من فوائد دعوتهم إقامة الحُجَّة وبيان الحقِّ، وأجر الدَّاعية في الصَّبر على دعوتهم، وعلى الاقتداء بالأنبياء في ذلك -كنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ- ثم قد تكون هداية هؤلاء تدريجيَّة؛ فيتأثَّرون شيئًا فشيئًا، ثم يُسلمون.

وقد تأخَّر إسلام عدد مِن الكفَّار المُصِرِّين على الكُفر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إنَّ الدَّاعية لا يَعلم ما جرى في عِلم الله السابق، ولا ما هو مكتوب على هؤلاء مِن الهداية أو عدمها؛ ولذلك فهو يقوم بالدَّعوة ويستمرُّ عليها، فإذا أصرَّ المدعُوُّون على الباطل وعاندوا: تولَّى عنهم، واشتغل بغيرهم.

وفيها: تزويد الدَّاعية بما يحتاج إليه مِن معرفة أحوال المدعُوِّين عند مواجَهتهم.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾:

ثم بيَّن تعالى سبَبَ إعراض المُعرضين وعناد المعاندين مِن الكافرين؛ فإنَّهم لـمَّا زاغوا وأعرضوا ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ فلا يدخل إليها خير، ولا يخرج منها خير.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ ختم عليها أيضًا؛ فلا تستمع خيرًا تنتفع به.

والوقف هنا تامٌّ؛ لتمام المعنى في الجملة السابقة.

ثم تبدأ جملة جديدة: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي: غطاء يَحُولُ بينها وبَيْن النظر إلى الحقِّ؛ فَهُم لا يرونه نتيجة ظُلُمات الكُفر التي يعيشون فيها.

﴿وَلَهُمْ﴾ هؤلاء الكفَّار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّه لا عذاب أشدّ منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة الخَتْم على القَلْب، والطَّبْع عليه، وأنَّه أخطر مِن الران الحاصل بتراكم الذُّنوب، فإذا طُبِعَ عليه صار لا يعقل الحقَّ ولا يقبله، والقَلْب مَلِكُ الأعضاء، وهي جنوده، وتَبَعٌ له.

وهؤلاء استحقُّوا الطبع على قُلُوبهم؛ لإعراضهم وتكبُّرهم على الحقِّ لـمَّا دُعوا إليه، وهذا جزاءُ الله العادلُ فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فَقَلَبَها؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بالحقِّ أول مرة لـمَّا عُرِض عليهم.

وفيها: خطر الذُّنوب؛ فإنَّها إذا تتابعت على القَلْب أغلقته، فإذا أغلقته أتاها الطَّبْع والخَتْم مِن الله تعالى، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَكٌ ولا طريقٌ.

وفيها: شرف السمع؛ ولذلك قدَّمه على البصر، وهو مِن أحوج الحواس للتعلُّم.

وفيها: خطر القَلْب، وقد سُمِّي (قَلْبًا) مِن تقلُّبه، والخَتْم إحدى العقوبات الواقعة عليه إذا اتّبع هواه، فلا يَعْقِل الحقَّ ولا يقبله، وإذا قسا القَلْب وعلاه الران صار قَلْبًا مُنْكِرًا للحقِّ.

وفيها: خطر حميَّة الجاهليَّة والنِّفاق؛ فمَن ابتُلي به يصرفه الله عن الحقِّ، ويُزيغه، ويَحُول بينه وبين صاحبه، ويطبع عليه بخَتْم لا ينفكّ، فيموت القَلْب حينئذٍ -نسأل الله السلامة-.

وهذا الخَتْم عليه بسبَبِ كُفرهم، كما قال تعالى ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:

١٥٥]، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، فلم يكن الخَتْم من الله عليها بلا سببٍ منهم.

وفيها: ذِكْر العذاب العاجل -وهو ختمه والغشاوة- وذِكْر العذاب الآجل -وهو عذاب النَّار العظيم-.

وفيها: أنَّ عُقوبة الله للكفَّار في الدُّنيا شاملة؛ فعطَّل عليهم مركز الانتفاع وآلاته.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى في أول هذه السُّورَة المؤمنين الخُلَّص، ثم ذكرَ بعدهم الكفَّار الخُلَّص، ثَلَّثَ بذِكر المنافِقين الَّذين وافقوا في الظاهر الطائفة الأُولى، وفي الباطن الطائفة الثانية؛ ولأجل خفاء أمرهم، زادت الآياتُ في وصفهم.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أربع آيات مِن سُورَة البقرة في نَعْتِ المؤمنين، وآيتان في نَعْتِ الكافرين، وثلاث عشرة في المنافِقين»[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس، وأصلها «الأُناس» مِن «الأُنس»؛ لأنَّ بعضهم يأنس بعضًا ويركَن إليه، ويحبون الاجتماع.

﴿مَن يَقُولُ﴾ بلسانه: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ صدَّقنا وأيقنا، ولكنَّهم كاذِبون؛ ولأجل ذلك نفى الله عنهم هذه الدَّعوة، فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ في حقيقة الأمر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبيه على خطر المنافِقين، وفَضْحِهم، ووصفهم؛ ليكون المؤمنون على بيِّنةٍ مِن أمْرِهم.

وقد كان ذِكْرهم في القرآن المدنيّ مبكرًا جدًّا؛ فإنَّ سُورَة «البقرة» مِن أول ما نزل بالمدينة، وهذا أعون للمسلمين على معرفة أعدائهم، واكتشافهم مبكرًا للحذَر منهم.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٩).

والنِّفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشرّ، ومنه اعتقادي يُخَلَّدُ صاحبهُ في النَّار لكُفره، ومنه ما هو عمليّ من كبائر الذُّنوب.

قال ابن جُرَيج: «المنافِق يُخالِفُ قولُه فِعْلَه، وسِرُّه علانيتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه»(١).

وقد ذُكِرَ المنافِقون في السُّوَر المدنية؛ لأنَّه لم يكن بمكة نفاق؛ فالمؤمنون كانوا فيها مستضعَفين، والنِّفاق يوجد عادة في مكان قوَّة المسلمين.

فلـمَّا تمَّت الهجرة النبويَّة، وانتصر المسلمون في بدر، وأظهر الله كلمته وأعلى الإسلام وأهله؛ أظهر عبدُ الله بنُ أُبيٍّ -رأس المنافِقين- الدُّخول في الإسلام، وأبطن الكُفر، وصار معه عدد مِن أهل المدينة والأعراب على طريقته؛ لحفظ دمائهم وأموالهم، ولذلك لم يكن في المهاجرين منافِقٌ واحدٌ.

وفي الآية مع ما سبقها وما يليها من فوائد:

حُسن التقسيمِ في عرض أحوال الناس، وذِكرِ أنواعهم؛ لمعرفة كيف يكون التعاملُ معهم.

وفيها: أنَّ القول باللِّسان وحدَه دون اعتقادٍ بالقَلْب لا ينفع الإنسانَ، وأنَّ الإسلام الحقيقي: هو استِسلام الظاهر والباطن، وإسلام القَلْب والبدَن.

وفيها: أنَّ المنافِقين يُظهِرون الإيمان عند الناس، فإذا خلا بعضهم ببعض صار له شأنٌ آخر.

وفيها: لُطْفُ الله بالمؤمنين في كشف عدُوِّهم.

وفيها: نفي الإيمان بالجملة الاسميَّة في قوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، مع الإخبار عن ادِّعائهم الإيمان بالجملة الفعليَّة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ لأنَّ النفي بالجملة الاسميَّة أقوى وأبْلغ.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٧٠).

وفي هذا تأكيدُ تكذيبهم، وعُمومه يشمل نفيَ إيمانهم بكلِّ ما يجب الإيمان به.

وفيها: ردٌّ على بعض المبتَدِعة، الَّذِين يقولون: إنَّ الإيمان قول باللِّسان فقط.

وفيها: أنَّ القول والفعل لا يكفيان للإيمان؛ بل لا بُدَّ مِن الأساس، وهو إيمان القَلْب.

وهذا معنى قول العلماء: الإيمان مُرَكَّبٌ مِن قول القَلْب (وهو التصديق الجازم)، وعمل القَلْب (من الخوف والرجاء والمحبَّة ونحوها)، وقول اللِّسان (وهو النُّطق بالشهادتَين)، وعمل الجوارح (كإقامة الصَّلاة وغيرها).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾:

ثم قال تعالى في وَصْفِ حال المنافِقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بإظهار الإسلام وإبطان الكُفر، ويظنُّون أنَّ هذا ينفعهم عنده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأنه يَخفى عليه أمرهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُخادعون بذلك أيضًا، تقيَّة؛ للنَّجاة مِن القَتْل والسَّبْي والعذاب العاجل بأيدي المؤمنين، ولكي يعصموا دماءهم وأموالهم.

﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾ في حقيقة الأمر ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لأنَّهم يَضرُّونها ويُورِدونها العذاب ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يَفطِنون، ولا يُحِسُّون بأنَّ الضرر راجع عليهم، وأنَّ الله سيفضحهم في الدُّنيا قبل الآخرة.

وقد صحَّ عن قتادة قوله: «نَعْتُ المنافِق: خَنِع الأخلاق، يُصدِّق بلسانه، ويُنْكِر بقَلْبه، ويُخالِف بعمله، ويُصبح على حال ويُمسي على غيره، ويُمسي على حال ويُصبح على غيره، يتكفَّأ تكفُّؤَ السفينة، كلَّما هبَّت ريحٌ هبَّ معها»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقين أهل مكر وخديعة.

وفيها: أنَّهم لا يشعرون بأنَّهم يضرُّون أنفُسَهم بنفاقهم، ويحسبون أنَّهم على شيء، وليسوا على شيء.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٣).

وفيها: تنبيه المؤمنين بضرورة الحذر من المنافِقين، وعدم الاغتِرار بمخادعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وأنَّ الحذَرَ منهم يكون بتتبُّع أقوالهم وأفعالهم، وموازنتها مِن حيث التطابق، والتناقض، والانتباه لسقطاتهم، وما يزِلُّون به في لحن القول؛ لأنَّ الله أمر بذلك؛ بقوله: ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، ولأنَّ في كشفهم فائدة عظيمة للإسلام والمسلمين.

وفيها: أنَّ المكر السيِّء لا يحيق إلَّا بأهله؛ فإنَّ مخادعتهم هذه رجعت عليهم.

وفيها: أنَّ النِّفاق يُعمي البصيرة، فلا يشعر صاحبه أنَّه يضرُّ بنفسه مِن حيث يظن أنَّه ينفعها.

وفيها: جهل المنافِقين بربِّهم؛ لأنَّهم لو قدَروه حقَّ قَدْره لعَلِموا أنَّ الخبير بالبواطن والنيَّات لا يمكن أن يُخدَع.

واستعمال صيغة المفاعَلة في قوله ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ يقتضي: الاشتراك في حصول الفعل مِن الطرَفين، وهذا معناه: أنَّ الله يخَدع المنافِقين. وسيأتي ذِكر خداعِه لهم -إن شاء الله-.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾:

قوله ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هذا الوَصف يدلُّ على تمكُّن المرض من قُلوبهم واستقراره فيها، وليس المقصود مرض الأجساد؛ وإنَّما هو مرضٌ مُركَّبٌ من الشُّبهةِ والشهوةِ، وهو شكٌّ، ورياءٌ، وجحودٌ، ونفاقٌ.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: لـمَّا أرادوا الكُفرَ عاقبهم بزيادة مرضهم، وزيادتهم رِجسًا إلى رجسهم، وشرًّا إلى شرِّهم، وضلالة إلى ضلالتهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُوجِعٌ شديدٌ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ بسبَبِ كَذِبهم فيما يدَّعونه من الإسلام، وتكذيبهم لله ولرسوله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ سببَ إضلال الله للعبد هو من العبد نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكما قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرضوا عن الحقِّ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي المُقابِل: فإنَّ الله يزيد المؤمنين إيمانًا وهدًى بسببِ إيمانهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

وفيها: أنَّ الكُفر والنِّفاق والفسوق يزيد وينقص؛ لقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾.

وفيها: أنَّ العقوبات لا تكون إلَّا بأسباب، ولا يُعَذِّب الله أحدًا إلَّا بذنب وسبَب؛ كما قال في آخر هذه الآية: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

وفيها: خطورة الكَذِب، والتكذيب للحقِّ، وأنَّه من أسباب العذاب الشديدِ.

وفيها: أنَّ مرض النِّفاق يُضعِف الدِّين؛ كما يُضعِف المرضُ البدَنَ.

وفيها: جواز الدُّعاء على المنافِقين، كما قال بعضُ المفسِّرين في قوله ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾: أنَّه دعاءٌ عليهم.

وفيها: أنَّ كذِب المنافِقين متجدِّدٌ ومستمرٌّ؛ كما يدلُّ عليه قوله: ﴿كَانُواْ﴾.

وفيها: أنَّ المنافِق قد تتألم نفسُه بسبَبِ نفاقه؛ لأنَّ الله سمَّاه ﴿مَرَضٗا﴾، وهذا مِن عاجل العذاب له في الدُّنيا.

وفيها: أهميَّة اعتناء المؤمن بقَلْبه، بحيث يكون عارفًا بالحقِّ، مُريدًا له، محبًّا له، وعاملًا به.

وفيها: أنَّ مرض المنافِقين يتجدَّد ويزداد كلَّما أنعم الله على المؤمنين بمزيد مِن النِّعَم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾:

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ القائل: اللهُ ورسولُه والمؤمنونَ الناصحونَ العارفونَ بهم.

﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكُفر والنِّفاق وموالاة الكفَّار، وإفشاء أسرار المسلمين إليهم، والتفريق بينَ المؤمنين، وتنفير الناس عن الحقِّ، وعمل المعاصي في الأرض، وإفساد أهلها.

﴿قَالُوٓاْ﴾ في ردِّ التهمةِ عن أنفُسهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ أي: ليس حالُنا إلَّا

الإصلاحُ، وليس فينا فسادٌ ولا إفسادٌ إطلاقًا، وما غرضُنا إلَّا التقريبُ، وإزالةُ الخلافِ بينَ الفُرَقَاء المتخاصِمين مِن المؤمنين وأهل الكتاب وغيرهم، فنُدارِي الفريقين!

ودَعْواهم هذه تشتمل على الكَذِب من جهة، وعلى أنَّ بعض ما يظنُّونه إصلاحًا هو عينُ الفساد -من جهة أخرى-.

وجوابهم هذا هو من دعاواهم الكاذِبة الكثيرة؛ كقولهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

ولذلك كذَّبهم الله وردَّ دعواهم، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾؛ فكأنَّ الفسادَ مُنحصِرٌ فيهم؛ لشِدَّة ضررهم. أو لأنَّه لا فسادَ أعظم من فسادهم، فقد فاقوا كلَّ المفسِدين.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ مِن جهلهم وبَلادتهم، وغِلَظ حجاب قُلُوبهم، وانطماس بصائرهم، لا يشعرون بفسادهم، مع أنَّ الفساد أمرٌ حِسِّيٌّ يُدرَك بالشعور والإحساس.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أن النِّفاق من أعظم الفساد في الأرض.

وفيها: أنَّ من البلايا العظيمة: أن يُزَيَّن للإنسان سوءُ عمله فيراه حسنًا.

وفيها: خطورة انقلاب الأفهام، بحيث يظنُّ المفسِدُ أنَّه مُصلِح.

وفيها: قِصَر نظر المنافِقين، وأنَّهم لا يُدْرِكون الأبعاد الحقيقيَّة للأمور.

وفيها: أنَّ من سياسة المنافِقين وتلبيسهم وخداعهم: ادِّعاءَ الإصلاح، والتظاهُرَ برفع لوائه ورايته؛ فقد يُقرِّرون ويُنفِّذون أمورًا، في العمل بها إفسادٌ للدِّين والأخلاق، وإشاعةُ الفاحشة بينَ الناس، وإيقاعُ العداوة والبغضاء بينهم، وحصولُ الفساد الإداريّ والاجتماعيّ والنفسيّ.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ مَن ادَّعى شيئًا يُصدَّق في دَعواه.

وفيها: أهميَّة الردِّ على أهل الباطل، وكَشف حقيقة ما هم عليه، وتبيين كَذِبهم، وقوَّة الرَّدِّ عليهم؛ كما يتضحُ في المؤكِّدات المتعدِّدة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾.

ويؤخَذ من الآية: أنَّه لا صلاح في الأرض إلَّا بطاعة الله.

وفيها: توعية المؤمنين بعدم الانخداع لدَعاوى المنافِقين العريضة، والجميلة في الظاهر.

وفيها: أنَّ المنافِقين قد لا يشعرون بانفضاح أمرهم، وانكشاف حالهم عند المؤمنين.

وفيها: أنَّ أهل الباطلِ يُسَمُّون الأشياءَ القبيحةَ بالأسماء الحسنة؛ لنشر الفساد وترويجه بينَ الناس، كما يُسَمُّون الشِّرك توسُّلا، والرِّبا فوائدَ، والغناء المحرَّم فنًّا، والمسكرات مشروبات روحيَّة، والرِّشْوة حلاوة وإكراميَّة، والتَبرُّج والاختلاط المحرَّم تحرُّرًا، وفِعْل المُنكَرات حريَّات شخصيَّة!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصحًا وموعظة: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر وقدَره، الذين صدَّقوا بالوحي، وأطاعوا وامتثلوا.

﴿قَالُوٓا۟﴾ في ردِّ الناصحين: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ الاستِفهام للنفي والتحقير، والمعنى: لا نؤمن ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون -لعنهم الله- أصحابَ رسول الله ﷺ.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: جمع «سفيه»، وهو: الجاهل بلا رُشد ولا عقل، الذي لا يميِّز بينَ المصلَحة والمفسدة، ضعيف الرأي، قليل المعرفة.

فَرَدَّ الله عليهم، بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ تأكيدًا وحصرًا للسفاهة فيهم ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مِن تمام جهلهم وعماهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقين لا تنفعهم دعوة الخير غالبًا، وأنَّ إعجابهم بباطلهم يدعوهم إلى رفض الحقِّ.

وفيها: تنبيه المؤمنين على عدم التأثُّر بالدِّعايات الباطلة التي يُطْلقها المنافِقون.

وفيها: دفاع الله عن الصَّحابة والمؤمنين.

وفيها: إثبات جهل المنافِقين.

وفيها: عِناية الله بالمؤمنين؛ حيث أطلعهم على ما يقول المنافِقون في الخفاء.

وفيها: أنَّ كلَّ صاحب باطلٍ لا يُدْرِك بُطلان ما هو عليه: فهو سفيه.

وفيها: أنَّ من طريقة أهل الباطل رَمْي المؤمنين الصادِقين بالصِّفات السيِّئة؛ لتثبيط هِمَمِهم، وتنفير الناس عنهم، ومهاجمتهم بتشويه سُمْعَتهم؛ لإشغالهم عن فَضْحِ المنافِقين، والتصدِّي لهم.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾:

ثم قال تعالى في فَضْح المنافِقين: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قابلوهم أو جلسوا إليهم؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال المنافِقون للمؤمنين: ﴿ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم، وصدَّقنا، فأظهروا لهم الموالاةَ والمتابعةَ نِفاقًا وتَقيَّة، ولِيعصموا دماءهم، ويشاركوا المؤمنين في الغنائم.

﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ انصرفوا، وانفردوا بسادتهم وكُبرائهم، وقادة الشرِّ والشِّرك المتعاونين معهم، من اليهود والمشرِكين. و(الشياطين): جمع «شيطان»، وهو المتمرِّد العاتي البعيد عن الخير، ويكون مِن الجِن والإنس.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ على الكُفر وحَرْب المسلمين ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: نُظهِر ما نُظهِره؛ سخريةً وخديعةً ولَعِبًا بالمؤمنين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنّ ذُلَّ المنافِقين وخوفَهم، وطمعَهم في الدُّنيا، هو الذي يحملهم على النِّفاق.

وفيها: أنَّ كلَّ مَن استعملَ التقيَّة وتَستَّرَ بغير حقٍّ؛ فهو ذليلٌ.

وفيها: تعاون المنافِقين مع بقيَّة أعداء الإسلام من الكافرين، واشتراكهم في المكر والحَرْب على الإسلام.

وفيها: حِرْصُ المنافِقين على طَمْأنة الكفَّار أنَّهم تَبَعٌ لهم، وأنَّ تظاهُرهم بالإيمان مزيَّفٌ، وفي هذا: تحقيق مُوالاة المنافِقين للكافرين.

وفيها: فضيحةُ الله للمنافِقين؛ بكَشف ما يقولونه في الخَلْوة والسِّرّ.

وفيها من بلاغة القرآن: استعمالُ الجملة الفعليَّة عند ذِكْر إيمانهم، وهي أضعف من الجملة الاسميَّة في التقرير والإثبات؛ حيث إنَّ إيمان المنافِقين مزيَّفٌ، بينما استعمل الجملة الاسميَّة في قوله ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لتقرير مُوالاة المنافِقين للكفَّار، وإثبات استهزائهم بالمؤمنين.

وفيها: خطورة الاستهزاء بالمؤمنين، وأنَّه من صفات أهل النِّفاق والسخرية واللَّعِب.

ومن أنواع الكُفر المُخرجة عن المِلَّة: الاستهزاء بالله، أو برسوله، أو بشيء مِن دينه، أو بعباده المؤمنين لأجل إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾:

ثم قال تعالى في مُجازاتهم على صنيعهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يسخر بهم؛ للانتقام منهم، واستهزاء الله بالمنافِقين صفة كمال لا صفة نقص؛ لأنَّها على سبيل الانتقام والمُقابَلة بالعَدْل والمجازاة، وليست لَعِبًا وعَبَثًا.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يزيدهم استدراجًا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ (الطُّغيان): مجاوزة الحدِّ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتمادَون في ضلالتهم، ويتردَّدون حيارَى في كُفرهم، لا يُبصِرون رُشْدًا، ولا يهتدون سبيلًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مُقابَلة الاستهزاء بمِثْله في المجازاة والمعاقَبة هو كمالٌ، وليس نقصًا، وكذلك يُقال في المكر، والخديعة، والكيد، والسخرية.

وفيها: أنَّ الجزاءَ من جِنس العمل؛ فكما يستهزِئون بعباد الله المؤمنين فإنَّ الله يستهزئ بهم، وهذا يدلُّ على عُلُوِّ شأن المؤمنين، وعِظَم قَدْرهم عند ربِّهم؛ حيث إنَّ الله يستهزئ بأعدائهم.

وفيها: أنَّ الله يمُلي للظالم؛ ليأخُذَه أخذًا أليمًا.

وفيها: أنَّ من الناس من يحُدِث الله لهم نِعمة كلَّما أحدثوا ذنبًا؛ لتكون نِقمةً عليهم.

وفيها: التحذير من الاغترار بالنِّعَم؛ لأنَّها قد تكون استدراجًا لمزيد من الطغيان، وإذا كان الشخص مستقيمًا كانت زيادة الله له في النِّعَم وتواليها عليه خيرًا، وجزاءً في الدُّنيا قبل الآخرة، وإذا كان مقيمًا على معصية الله كان توالي النِّعَم استدراجًا ونِقمة.

وفيها: أنَّ صاحب الطغيان يُعميه هواه، ويحْجبه طغيانُه عن معرفةِ الحقِّ.

وفي التعبير عن الاستهزاء بالفعل المضارع ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾: إفادة لتَكراره وتجدُّد حدوثه، وفي هذا زيادةُ عُقوبةٍ وإيلامٍ لهؤلاء المنافِقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾:

قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنافِقون ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾ اختاروا واستحبُّوا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ العمى والكُفر ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾: بذلوا الهُدى ثمنًا للضلالةِ، فأخذوا الضلالة واستحبُّوها، وتركوا الهُدى وعَدَلُوا عنه.

فإن قيل: وكيف اشترى هؤلاء القومُ الضلالةَ بالهدى، مع أنَّهم إنَّما كانوا منافِقين، ولم يتقدَّم نِفاقَهم إيمانٌ، فيُقال فيهم: باعوا هُداهم الذي كانوا عليه بضلالتهم، حتى استبدَلوها منه؟

فالجواب: أنَّ المراد هنا: أنَّهم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى؛ وذلك أنَّ كلَّ كافر بالله فإنَّه مستبدِلٌ بالإيمان كُفرًا، باكتسابه الكُفرَ الذي وُجِد منه، بدلًا من الإيمان الذي أُمِرَ به، وهذا هو معنى الشِّراء؛ لأنَّ كلَّ مشترٍ شيئًا فإنَّما يستبدل مكانَ الذي يُؤخذ منه -من البدل- آخرَ بديلًا منه.

فكذلك المنافِقُ والكافر، استبدلا بالهُدى الضلالةَ والنِّفاق، فأضلَّهما الله، وسلبَهما نورَ الهدى، فتركهم جميعًا في ظُلُمات لا يُبصرون.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾: ما زادت، ولا نجحت صفقتُهم في هذه البَيعة.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: ليسوا براشدين في صنيعهم؛ بل هم خاسرون في تجارتهم. ويدخل في هذا: المنافِقون الذين حصل لهم الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكُفر، وكذلك الذين استمرُّوا في الضلالة واستحبُّوها على الهُدى، ولم يدخلوا في الإيمان أصلًا، بل تظاهروا به نفاقًا.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد والله رأيتموهم خرجوا من الهُدى إلى الضلالة، ومِن الجماعة إلى الفُرْقةِ، ومِن الأمن إلى الخوف، ومِن السُّنَّة إلى البِدعة»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان سَفَه المنافِقين بتقديمهم الضلالة على الهدى، ومن السَّفَه أن يدفع الإنسان الثمن النفيس ليقبض ويأخذ سِلْعة رديئة!

وفيها: شَغَف المنافِقين بالضلالة وتعلُّقهم بها؛ فإنَّ المشتري في العادة شغوفٌ بالسِّلعة محبٌّ لها، وقد مثَّلت الآيات حالهم بتجارة فيها بيع وشراء، وثمن مدفوع وسلعة مقبوضة.

والباء في قوله ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هي باء الثمن والعِوض، فالهُدى مبذولٌ مدفوعٌ، وهذا يدلُّ على كُرْههم له، والضلالة عندهم مرغوبة مطلوبة.

وفيها: أنَّ المنافِقين يظنُّون أنفُسَهم رابحين بهذه الصفقة، والتاجر يرجو الرِّبح من وراء تجارته، بينما هم في الحقيقة خاسرون أشدَّ الخَسارة!

وفيها: بيان أنَّ الهُدى هو الرِّبح الحقيقيّ، فالمهتدي رابحٌ، ومَن خالفه خاسرٌ، وبما أنَّ التجارة فيها ثلاثة احتمالاتٍ: أن يربح التاجر، أو يخسر، أو لا يربح ولا يخسر؛ فإنَّه بيَّن هنا أنهم لم يربحوا بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، وأكَّد خسارتهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣١٧)

ورأس المال الذي خسروه في تجارتهم: الفِطرة التي كانوا عليها قبل النِّفاق، والعقل الذي أُوتُوه.

وقيل: الأعمال الظاهرة، كالصَّلاة، والشهادتين اللَّتَين دخلوا بها الإسلام في الظاهر، أو الإيمان الذي بدءوا به إذا كانوا ممَّن أسلم ثم ارتدَّ.

وفيها: ضَرْبُ المَثَل بما يفهمه الناس ويتعاملون به، ويُقبِلون عليه ويَرْغبون فيه، وهو هنا البيع والشراء، والتجارة والرِّبح.

وفي الإشارة إلى المنافِقين باسم الإشارة المستعمَل للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: تنبيهٌ على شِدَّة دونيَّتهم، والبُعد عنهم، والبراءة منهم.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يهتَدون غالبًا.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾:

ثم ذكرَ تعالى مَثَلًا ناريًّا للمنافِقين؛ فقال: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ وصفُهم وحالُهم ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ طلبَ والتمسَ إيقادَها في أرضٍ مُوحشةٍ مظلمةٍ، وهو خائفٌ ممَّا فيها.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ وأنارت؛ انتفع بها، وأَنِسَ واطمأن برؤيةِ ما حوله؛ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ وأطفأ ما يستفادُ منها، ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾ شديدة في سواد اللَّيل، ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ ممَّا حولهم شيئًا.

فشبَّه الله تعالى المنافِقين في محبَّتهم للضلال، وتقديمه على الهُدى، وكُفرهم بعد إيمانهم، بالذي استوقد نارًا، فاستفاد منها، وأنارت طريقه، فهذا مَثَلُ المنافِق في حال إيمانه قبل أن يكفر.

فلمَّا كفرَ في الباطن، وبقيَ على الإسلام في الظاهر؛ ذهب النُّورُ، وبقيَ في ظُلُمات الشَّكِّ والكُفر والنِّفاق، لا يُبصِر حقًّا، ولا يهتدي سبيلًا.

وقال ابن عبَّاس رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «هذا مَثَلٌ ضربه الله للمنافِقين، أنَّهم كانوا يعتزُّون بالإسلام (يعني: يتظاهَرون بذلك)، فيُناكِحهم المسلمون، ويُوارِثونهم، ويُقاسِمونهم الفَيْء، فلمَّا

ماتوا سلبَهم الله ذلك العزَّ، كما سُلِبَ صاحب النَّار ضوءَه، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾أي: في عذابٍ»[١].

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذلك حين يموت المنافِق، فيُظلِم عليه عملُه -عملُ السوء- فلا يَجِد له عملًا من خيرٍ عَمِلَ به، يُصَدِّق به قول (لا إله إلا هو)»[٢].

وجاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا أنَّه قال: «ضرب الله مَثَلًا للمنافِقين، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: يبصِرون الحقَّ ويقولون به، حتى إذا خرجوا به من ظُلمة الكُفر أطفأوه بكُفرهم ونفاقهم فيه، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾: الكُفر؛ فهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ هُدى ولا يستقيمون على حقٍّ»[٣].

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن بضرب الأمثال، للتفهيم وترسيخ المعاني.

وفيها: أنَّ المنافِق الذي كان مؤمنًا ثم ارتدَّ؛ قد ذهب نفاقُه بأثر إيمانه ومحاه، فلم يعُد لتلك المدة من حياته الأُولى فائدةٌ وأثرٌ بعد الرِّدَّة والنِّفاق.

وفيها: أنَّ المنافِقين يندسُّون بينَ المؤمنين ويُظهرون الإسلام لمغانم الدُّنيا، ولِيدرءوا عن أنفُسِهم العذاب فيها، وأنَّ الموت يُذْهِب تلك العِزَّة والمصالح، ويرُدُّهم إلى عذاب أشنع ممَّا فروا منه في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يستفيدون شيئًا من ضوء الوحي، ونور نصوص الشريعة، وإذا حضروا مجلسًا يُرشدهم ويهديهم أذهبوا كلَّ فائدة فيه بكُفرهم ونفاقهم.

وفيها: أنَّ معرفة الحقِّ لا تُغني شيئًا إذا لم يحصل الإذعانُ والطاعةُ والاتِّباعُ والامتِثالُ.

وفيها: معاناة المنافِقين وتألُّمهم في الدُّنيا والآخرة، ولذلك قال الله في الآية: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (بنارهم)، فأخَذَ الفائدةَ وترَكَ لهم الإحراق.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢١)

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٩)

(٣) تفسير الطبري (١/ ٣١٢)

وفيها: عذابُهم أيضًا بالحَيرة، وأنَّ نفوسهم في ظُلُمات وليس في ظُلمةٍ واحدةٍ.

وفيها: أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، كما ذكره بصيغة المفرد في قوله: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، والباطل سُبُلٌ كثيرة ومختلفة، كما ذكره بصيغة الجمع في قوله: ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾.

وفيها: تخلِّي الله عن المنافِقين، وحرمانهم من مَعِيَّته وبركته وتأييده، كما يدُلُ عليه قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، ومَن تخلَّى الله عنه حُرم التوفيقُ والعودة إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ المنافِقين -وإن أوقَدوا نار الفِتنة بينَ المؤمنين-؛ فإنَّ الله يُطفئها ولو بعدَ حين، كما فَهِم بعضُهم من هذه الآية.

وفيها: أنَّ المنافِقين لا يستفيدون من مخالطة الصالحين؛ بل إنَّ نفاقهم يمنعُهم من التأثُّر بهم.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾: «أمَّا إضاءة النَّار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى»[1].

وفيها: أنَّ المنافِقين قد يميِّزون بينَ الحلال والحرام، والخير والشرّ، ويعرفون هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾، لكن هذا العِلْم لا يُفيدهم.

وفيها: أنَّ الله ينتزع الفَضْل ممَّن لا يستحقُّه، كما قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾.

وفيها: أنَّ قول المنافِقين في الدُّنيا: لا إله إلَّا الله، لها إضاءة وفائدة، ويأمن بها على نفسه بينَ المؤمنين، لكن يُسْلَبُها عند الموت؛ لأنَّها لم يكن لها أصلٌ في قَلْبه، ولا حقيقةٌ في عمله؛ ولذلك فإنَّ نور الشَّهادة بالنسبة للمنافِق ليس أصليًّا داخليًّا؛ وإنَّما هو ظاهريّ خارجيّ، كما دلَّ عليه قوله: ﴿أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾، فالضوءُ عارضٌ والظُلمة أصليَّة؛ ولذلك ذهب النُّور، ولو كان أصليًّا لَما ذهب ولبقيَ يُضيء.

وفيها: أنَّ الذي يعرف الحقَّ ثم يتركه، أسوأُ من الذي لم يعرفه أصلًا، كما أنَّ انطفاءَ الضوء بعد حصوله أسوأُ أثرًا على النفس ممَّا لو كانت معتادةً على الظلمة.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٢٣)

﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾:

ثم وصف الله هؤلاء المنافِقين بقوله: ﴿صُمٌّ﴾ عن الحقِّ، لا يسمعونه سماعَ قَبولٍ واستجابةٍ.

﴿بُكۡمٌ﴾: لا ينطقون بالحقِّ؛ لكراهيتهم له، وعدم إقرارهم به.

﴿عُمۡيٞ﴾: لا يرَونه رؤية بصيرة وانتفاع.

فهؤلاء المنافِقين يملكون الحواسَّ، لكنهم لا ينتَفِعون بها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ عن غيِّهم، ولا يرجعون إلى الإسلام والحقِّ، ولا يتوبون، ولا هم يذكَّرون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عدم انتفاع المنافِقين بما وهبهم الله من الحواس.

وفيها: أنَّ عمى القَلْب والبصيرة أشدُّ من عمى البصر، وأنَّ المنافِقين لا يرجعون عن الباطل؛ لاستحسانهم له.

وفيها: جواز نفي الشيء لانتفاء الانتفاع به.

وفيها: أنَّ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات في الدُّنيا؛ عوقِب في الآخرة بعُقوبةٍ من جِنسها، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وفيها: أنَّ رجوع مَن ترك الحقَّ بعد معرفته، أبعدُ من رجوع مَن لم يعرِفه أصلًا.

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾:

ثم ضرب تعالى مَثَلًا آخر مائيًّا للمنافِقين في حَيرتهم وتردُّدهم وشكِّهم واضطراب قُلُوبهم، وهم صِنْفٌ آخر يظهر لهم الحقُّ تارةً، ويشكُّون تارةً أخرى.

فقال: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ أي: صِفتهم وحالهم في التردُّدِ والحَيرة كحال أصحاب صَيِّب.

و(الصيِّب): هو المطر، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا رأى المَطَرَ قال: «اللهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا»(١).

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العُلُوِّ نازلٌ ومنحدِرٌ، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ﴾: ظلمة اللَّيل في إطباقه، وظلمة السحاب في تكاثُفه، وظلمة المطر في تتابعه، ﴿وَرَعۡدٞ﴾: الصوت القاصف الشديد، وهو صوت المَلك إذا زجر السَّحاب، ﴿وَبَرۡقٞ﴾: وهو النُّور الذي يلمع في السَّحاب.

وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبلوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ واتَّبَعْناكَ.

فكان منها: قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: «مَلَكٌ من مَلائِكَةِ الله عَزَّوَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ -أَوْ فِي يَدِهِ- مِخْرَاقٌ من نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ»، قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «صَوْتُهُ»، قَالُوا: صَدَقْتَ(٢).

والمِخْراق: هُوَ فِي الأَصل عِنْدَ العَرَبِ ثَوْبٌ يُلَفّ وَيَضْرِبُ بِهِ الصبيانُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَراد أَنها آلَةٌ تزجُر بِهَا المَلَائِكَةُ السَّحَابَ وتسُوقه(٣).

فهذا مَثَلُ المنافِقين في ظُلُماتِ الشَّكِّ والكُفر والنِّفاق، التي أَظْلَمت منها قُلُوبهم، ورَعْدِ الخوف من وعيد القرآن الذي يُزعِجهم من جهة السمع، وبَرْقٍ من وَعْدِ القرآن يلمع فيها، ويُخيفها من جهة البصر.

وهكذا المنافِق يخشى انكشاف أمره، فهو فَزِع خائف، كما قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤]، وكما قال ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

ثم إنَّ هؤلاء القوم المُمَثَّل بهم، الذين أصابهم هذا الصيِّب بما فيه ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ المراد: يجعلون أناملهم ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ خوفَ الصواعق، و(الصواعق): جمع

(١) رواه البخاري (١٠٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٧٢).

(٣) لسان العرب (١٠/ ٧٦).

صاعقة، وهي: قطعة نار تنفصل من مخراق المَلَك، والمخراق: هي الآلة التي بيده يزجر بها السحاب، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مخافة الهلاك من صوتها.

وهذا المَثَل يبيِّن إصرار المنافِقين على إحكام إغلاق المنافذ التي يصل الحقُّ عبرها، كما قال تعالى عن الكفَّار من قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بعِلْمه وقُدرته، فلا يفوته منهم شيء، وهم تحت مشيئته وإرادته، ولن ينفعَهم الحذر.

و(الإحاطة): تأتي بمعنى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

ثم قال تعالى في تتمة المَثَل: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: يقرب أن يختلسها بسرعة من شِدَّة ضوئه، وضَعف البصر؛ فتعمى.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ لأصحاب الصَيِّب، ولو شيئًا يسيرا؛ ﴿مَّشَوْاْ فِيهِ﴾: انتهزوا الفرصة وتقدَّموا على حَسَب الرؤية.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾: انطفأ الضوء، وأظلم الطريق؛ ﴿قَامُواْ﴾ أي: وقفوا في أماكنهم مُتحيِّرين.

وهذا مَثَل ضربه الله للمنافِقين في موقفهم من القرآن، الذي فيه وعيد وزَجْر كالرعد، وحُجَج تبهرهم كالبرق، فيكاد ضَوءُ الحقِّ يُذْهِب أبصارهم، ويكاد مُحكَم القرآن أن يدلَّ على عوراتهم.

وهؤلاء كلَّما أضاء لهم الحقُّ، وكلَّما تكلَّموا بما يُظهِرونه منه، وكلَّما أصاب أهل الإسلام عِزٌّ ونصرٌ؛ اطمأنوا ومشَوا مع المسلمين، وكلَّما نزلت تكاليف شرعيَّة يكرهونها -كالجهاد والزكاة- وكلَّما أتاهم ما لا يُوافِق هواهم، وكلَّما أصاب الإسلام نكبة، أو أصابتهم فِتنة وبلاء؛ قاموا متحيِّرين، ووقفوا يريدون الرُّجوع إلى الكُفر.

وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: لو أراد أن يأخذ أسماعَهم التي في الرأس، وأبصارهَم التي في العين؛ لأخذها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تركِهم، أو الانتقامِ منهم ﴿قَدِيرٌ﴾: ذو قُدرة عظيمة.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ مَن تَرَكَ الحقَّ بعد معرفته؛ استحقَّ ذَهاب سمعه وبصره.

وفيها: أنَّ الله قادرٌ على أن يأخذ السمع والبصر بدون أسباب، فَيُذْهِب السمعَ دون صواعق، والبصرَ دون بَرْق.

وفيها: تهديد الكفار.

وفيها: أنَّ من طبيعة الإنسان اجتناب ما يُهلكُه؛ لقوله ﴿قَامُواْ﴾، ولقوله ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾.

ولذلك قيل: ينبغي الحذَرُ من النظر إلى البَرْق الشديد؛ لئلَّا يخطف البصر.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويسألَه أن يُمتِّعه بسمعه وبصره، كما ورد في دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا»[(١)].

وفي قوله ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾: تذكرة بحال المنافِقين يوم القيامة، عندما يذهبون مع المؤمنين إلى الصِّراط، وتُقَسَّم الأنوار على المؤمنين على حَسَب أعمالهم، ولا يُعطى المنافِقون شيئًا من النُّور، فيسيرون وراء المؤمنين ليستنيروا بنورهم في عبور الصِّراط المظلِم، فيُقال لهم: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي قُسِّمت فيه الأنوار، فالتمسوا نورًا هناك، فيرجعون، فيضرب الله بينهم وبين المؤمنين بسُورٍ يحجزهم عنهم، ويمنعهم من اللَّحاق بهم، فيقعون في النَّار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وفيها: شِدَّة ظُلْمة قَلْب المنافِق، وأنَّها ظُلُمات بأسباب متعدِّدة.

وفيها: أنَّ من المنافِقين مَن تكون فيه شعبة إيمان، وشعبةُ نفاق اعتقاديّ، فحُكمه بما غلب عليه منهما، وفرقٌ بينَ المنافِق الخالص، والمنافِق المتردِّد.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨).

وفيها: أنَّ من الناس مَن لا يرى نور الحقِّ بالرغم من قوَّته، وأنَّ نفسه لا تتحمَّل الحقَّ، كما أنَّ البصر لا يتحمَّل لمعانَ البرق الشديد.

وفيها: أنَّ نور العِلْم والإيمان للمؤمن ذاتيٌّ لا يفارقُه، فهو يُنير طريقَه، بخلاف المنافِق؛ فإنَّه لا يرى الطريق.

وفيها: أنَّ الإعراض عن سماع الحقِّ لا يُنجِّي، ولا يعني أنَّ صاحبَه معذورٌ في عدم إقامة الحُجَّة عليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾:

ولـمَّا ذكَرَ تعالى أصناف الخَلْق، وبيَّن أنَّ منهم المؤمنين والكافرين والمنافِقين المذبذَبين بينَ هؤلاء وهؤلاء؛ دعا الناس جميعًا إلى توحيدِه، وعبادته وحدَه لا شريك له، وذكَّرهم ببعض نِعَمه عليهم؛ فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المكلَّفون من الإنس والجن ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: تذلَّلوا له بالطاعة، امتثالًا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه، مع المحبَّة والتعظيم. و(الربُّ): هو الخالِق، المالِك، المدبِّر لشُؤون الخَلْق، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من العَدَم، وابتدعكم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأُمَم الماضية.

فاعبدوه؛ لخَلْقه إيَّاكم ومَن سبقكم؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فتجعلوا عبادته وقايةً لكم من عذابه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنبيهُ بالنِّداء في تبيان المقاصد العظيمة.

وفيها: العِناية بالعِبادة؛ إذ كان النِّداء بها لجميع الناس.

وفيها: أنَّ الإقرار بالرُّبوبيَّة يستلزم توحيدَ الألوهيَّة؛ لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

وفيها: بيان علَّة الأمر بالعِبادة؛ وهي أنَّه تعالى الربُّ والخالِق.

وفيها: أنَّ التَّقوى مرتبةٌ عاليةٌ، لا تُنالُ إلَّا بإخلاص العِبادة.

وفيها: أنَّ نِعمة الخَلْق أعظمُ النِّعَم الدنيويَّة، وكلَّ النِّعَم الأخرى مترتِّبة عليها.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى تَتِمَةً لبعض نِعَمه، وعلّة الأمر بعبادته، وبعض خصائص ربوبيَّته؛ فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ صيَّرَ ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: بساطًا، تقعدون وتنامون عليه، وسُمِّيت (الأرض) أرضًا؛ لأنَّها تتأرَّض؛ أي: تأكل ما في بطنها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: سقفًا مبنيًّا فوق الأرض.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (السماء): كلُّ ما علاكَ وأظلَّك، من (السُّموِّ) أي: العُلُوّ، وهو المراد هنا، وتُطلق أيضًا على السماء المبنيَّة التي لها سُمْكٌ وأبواب وزينة وحرسٌ وسكانٌ. وهي السماوات السبع التي تقدَّم ذِكْرُها.

﴿مَآءً﴾: المطر النازل من السَّحاب من جهة العُلُوِّ.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ وأنبتَ بقُدرته ﴿بِهِۦ﴾ بسبَبِ ذلك الماء ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: المأكولات، من الحبوب والفواكه وغيرها ﴿رِزْقًا﴾: غذاءً وقوتًا ﴿لَّكُمْ﴾ من الله تعالى، أنعم به عليكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: لا تتخذوا شُركاء معه في عبادته، وعُدلاء ومشابهين بزعمكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ هذه الأنداد لا تَخْلُق ولا تَرْزُق، وأنَّ الله هو الخالِق الرَّازِق.

وفي «الصحيحَين»، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[(١)].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾: «الأنداد هو الشِّرك، أخفى من دبيب النمل، على صفاة سوداء (الحجارة الملساة) في ظُلمة اللَّيل»[(٢)].

وقال أيضًا في معنى الآية: «لا تُشركوا بالله غيره من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضرُّ،

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه، وقد علمتُم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من توحيده هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه»[١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله تعالى بخَلْقه، وبيان قُدرته العظيمة.

وفيها: إثبات الأسباب؛ كما دلَّت عليه الباء السَّبَبيَّة في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بسبَبِ ذلك المطر.

وفيها: أنَّ الأسباب لا تكون مُؤثِّرةً فاعلةً إلَّا بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾.

وفيها: بيان قُدرة الله تعالى في إحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

وفيها: أنَّ الله يرزق الناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم.

وفيها: تحريم اتِّخاذ الأنداد لله، وقد يكون شِركًا أكبر أو أصغر، جليًّا أو خفيًّا، بحَسَب اعتقاد صاحبه.

وقد قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير الأنداد: «هو الشِّرْك، وهو أن يقول: والله، وحياتك يافلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البَطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان -لا تجعل فيهما «فلان»-؛ هذا كلُّه به شِرْك»[٢].

وفيها: أدلَّة عظيمة لمواجهة الملاحدة الذين يُنكرون وجود الله تعالى؛ فإنَّ الخَلق يدلُّ على الخالِق، كما أنَّ البَعَرةَ تدلُّ على البَعير، والأثر يدلُّ على المسير.

وفيها: دليلٌ على استعمال الحُجَج في المناظرات.

وفيها: ذمُّ مَن ارتكب الحرامَ وهو يعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بتوحيده، ونهى عن الشِّرك به؛ انتصر لوحيه وكتابه ونبوَّة نبيِّه محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحدَّى الطاعنين في القرآن، والشاكِّين فيه؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾: في شكٍّ وقلق واضطراب عظيم ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ وهو القرآن ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإضافةُ هنا للتشريف.

﴿فَأْتُوا﴾ هذا أمر تعجيز ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة، و(السُّورَة): الطائفة من القرآن، مأخوذة من «السُّور»؛ لأنَّها محيطة بآيات الله وما فيها، كما يحيط سُور المدينة بأبنيتها ومافيها ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: من مِثْل هذا القرآن الذي نزَّلناه على عبدنا، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾: واستعينوا على ذلك بأعوانكم، وفصحائكم، وحُكمائكم الذين يحضُرون مشاهدكم، وآلهتكم التي تعبدونها ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. فتحدَّى العابدَ والمعبودَ.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إنَّ هذا القرآن مُفْترى، أو إنَّه كذِبٌ، أو إنَّ نبيَّنا تقوَّله من عنده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قوَّة الحقِّ.

وفيها: تحدِّي صاحب الشريعة لفُصَحاء العرَب الكافرين.

وفيها: أنَّ أعظم معجِزة للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدَّى بها المُعَانِدِين هو هذا القرآن.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا من الأَنْبياءِ نَبيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّما كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وليس في الكتب السابقة كتابٌ مُعْجِزٌ غير القرآن، وليس هناك معجِزةٌ مستمرَّةٌ إلى قيام الساعة غير القرآن.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

وفي هذه الآية: الانتصارُ للنبيِّ ﷺ.

وفيها: إشارةٌ إلى كلمة التوحيد الثانية (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله)، بعدما أشارت الآيتان السابقتان إلى كلمة التوحيد الأُولى (أشهد أن لا إله إلَّا الله).

وفيها: تشريفُ النبي ﷺ، كما تقتضيه الإضافةُ في قوله: ﴿عَبۡدِنَا﴾.

وفيها: شرفُ مرتبة العبوديَّة، ولذلك وَصَفَ نبيَّه ﷺ بها، وأضافه إليه في قوله: ﴿عَبۡدِنَا﴾.

وفيها: إثباتُ عُلُوِّ الله تعالى في قوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾؛ لأنَّ التنزيل لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفي هذه الآية: آخِر منزلة للتدرُّج في التحدِّي؛ فإنه قال لهم في مكة: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [القَصص: ٤٩]، ثم قال لهم: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣]، ثم قال لهم هنا: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾.

فتحدَّاهم أن يأتوا بسُورَة تُشبِه سُوَر القرآن في حُسنِ النَّظم، وجمالِ الأسلوب والبلاغة والفصاحة، وتفصيلِ أنباء ما قد سبَق، والإخبارِ بالغَيب الذي وقع وسيقع، وحِكْمةِ التشريع من الأمرِ والنهيِ والأحكام، والوَعْدِ والوَعيدِ، والقَصصِ والأنباءِ.

فقال لهم: هاتوا سورةً مِثْلَ هذا، لا يقعُ فيها تحريفٌ ولا تبديلٌ إلى قيام الساعة!

وفي الآية: اضطرابُ الكفَّار في شأن النبي ﷺ، وما أُنزِل عليه، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿فِي رَيۡبٖ﴾؛ ولذلك اختلفت أقوالُهم وعباراتُهم فيه؛ فتارةً يقولون: ساحرٌ، وتارةً: كاهنٌ، وتارةً: مُعلَّمٌ، وتارةً: به جِنَّةٌ، وتارةً: مجنونٌ، وغير ذلك.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾:

ولـمَّا عجزَ الكفَّار عن الإتيان بما تحدَّاهم به، رغم ما في التحدِّي من استثارة هِمَمهم؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ ما تحدَّيناكم به، من الإتيان بسورةٍ من مِثْلِه، ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ ذلك أبدًا في المستقبَل؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: اجعلوا بينكم وبين عذاب النَّار وقاية، بالإيمان بالله

وكتابه ورسوله، فقد أُقيمت الحُجَّة، وثبتَ عَجْزُكُم، فإن لم تؤمنوا: فالنَّارُ مصيرُكم، ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ تلتهب بهم، و(الوقود): ما يُلقَى في النَّار لإضرامها.

﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «هي حجارةٌ من كبريت، خلقَها الله يوم خلق السماوات والأرض، في السماء الدُّنيا، يُعِدُّها للكافرين»[1].

وهذه الحجارة العظيمة السوداء، الصَّلبة، المُنتنة، هي أشدُّ الأحجارِ جَمْرًا إذا حَميَت.

وقيل: المرادُ بـ(الحجارةِ): الأصنامُ والأندادُ التي كانوا يعبدونها من دون الله، وفي هذا خزيٌ لعابديها، إذا رأوْها تحترق معهم، ويحترقون بها.

﴿أُعِدَّتْ﴾: أُرصدت وهُيِّئت، و(الإعداد): التهيئة للشيء. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله وكتبه ورُسُله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإخبارُ بعَجْز الكفَّار عن الإتيانِ بمِثْل القرآنِ إلى يوم الدِّين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وفيها: صِدْق خبر القرآن، ومعجِزةٌ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ كلَّ مَن حاول الإتيان بمثله فضحَه الله، وكان فِعْلُه سخريةً عليه.

وفيها: أنَّ النَّار مخلوقةٌ وموجودةٌ الآن، كما دلَّ عليه قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾، وكما ورد في الأحاديث، مثل: تحاجُج الجنَّة والنَّار، واستئذان النَّار، والإذن لها بنَفَسين في الصيف والشتاء، وصوت الحَجَر الذي أُلقيَ من شفير جهنم فوصل إلى قعرها في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع صوته الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ جميع سُوَر القرآنِ معجِزةٌ -طويلها وقصيرها- لايمكن الإتيان بمِثْلها.

وفيها: أنَّ المُعَانِد كافرٌ، وأنَّ جزاء المعاندين النَّار؛ لأنَّهم إذا عجَزُوا عمَّا تحدَّاهم به ثم لم يؤمنوا؛ فلا يكونون إلَّا معانِدين.

---

(١) رواه الطبري (١/ ٣٨١)، والحاكم (٣٠٣٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

ويؤخَذ من الآية: بقاء القرآن إلى آخر الزمان، حتى يأذن الله برَفْعه قُبيلَ قيام الساعة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ولـمَّا كانت طريقةُ القرآن الجمعَ بينَ الترغيب والترهيب، والوَعْد والوَعيد؛ فقد ذكرَ عَزَّوَجَلَّ جزاءَ المؤمنين بعد جزاءِ الكافرين؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (البشارة): الإخبار بما يَظهر أثره على البشرة، ويكون غالبًا في الخبر السارّ، الذي يظهر أثرُه والسرور على صاحبه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَا كُلَّ مَن يصلُح له الخِطاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء عن الله ورسولِه، تصديقًا وقَبولًا وإذعانًا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليلًا على صِحَّة إيمانِهم، قاموا بالأعمال مخلِصين لله، متابعين لسُنَّة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ (الجَنَّة): البستان ذو الأشجار المُثْمِرة الكثيرة، التي تَستر ما فيها.

و(الجنَّة): اسم دار الثواب التي أعدَّها اللهُ للمؤمنين، وهي مراتب ودرجات وجِنَان، وأعلاها وأوسطُها: «جَنَّةُ الفردوس».

﴿تَجْرِى﴾ تسيلُ ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: تحتَ أشجارها ومساكنها على وجه الأرض، من غير أخاديد، وجريان النهر من أسباب طيبِ طَعمه.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنهارُ الجنَّةِ تَخْرُج مِن تَحْتِ تِلالِ -أو: من تحتِ جِبالِ- مِسْكٍ»(١).

وطِينُها المِسكُ الأذفرُ، ذو الرائحة الطيِّبة، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهرُ، وهي أنهارٌ متعدِّدةٌ، وقد جاء في القرآن ذِكرُ بعض أنواعها، من الماء العَذب، واللَّبَن، والخَمْر، والعَسَلِ.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ أُعطوا وأُطعِموا ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الجَنّاتِ ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ من الأنواع المختلفة ﴿رِّزْقًا﴾ (الرِّزق): ما يُنتفعُ به.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٧٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٢١).

﴿قَالُواْ﴾ للملائكة والوِلدان: ﴿هَٰذَا﴾ الـذي أتيتمونا به ﴿ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ مِثْلُه ويُشْبِهُهُ، هكذا يظنُّون أنَّ الذي أُتُوا به لاحِقًا كالذي أُتُوا به سابقًا، ولكنَّه في الحقيقة -وإن تَشابه اللونُ والشَّكلُ- فإنَّ الطعم مختلفٌ، والتنويع تكريمٌ، ونعيمُ الجنَّةِ متجدِّدٌ، يزيد باستمرار.

وما في الجنَّة من الثِّمار لا يُشبه ما في الدُّنيا إلَّا في الاسم، كما قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لا يشبه شيءٌ ممَّا في الجنَّةِ ما في الدُّنيا إلَّا الأسماء»[(١)].

﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾: جيء به إليهم ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا، في اللون، والمنظر، والجودة، لكنَّه يختلف في الطعم، فإذا طَعِمُوه وجدوه ألذَّ وأطيبَ.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ في الجنَّة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾: جَمْع «زوجٍ»، ويشمل: الحُور العِين، والمؤمنات من نساء الدُّنيا ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ قد جَمَعْنَ بينَ طهارة الظاهر -فلا بولَ ولا غائط ولا حَيض ولا قذر- وطهارة الباطن، من الغِلِّ والحقد والبغضاء والغَيرة المُؤْذِيَةِ، ونحو ذلك.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ماكثون أحياء، وهذا من تمام النعيم، أنَّه لا ينقطع، ولا ينقضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة تبشير الإنسان بما يسُّره، والبِشارة من سُنن المرسَلين.

وفيها: أنَّ الجنَّات لا تكون إلَّا لمن جمعَ بينَ الإيمان والعمل الصالح.

وفيها: أنَّ جزاء أهل الجنَّة أكبرُ وأعظمُ من أعمالهم.

وفيها: كمال قُدرة الله.

وفيها: تمام نعيم أهل الجنَّة، بما جعل الله فيها من الأمور المتنوعة المتجدِّدة في زيادة.

وفيها: ذِكر ألوان من النعيم الحِسِّيّ في الجنَّة، من الأكل والنِّكاح؛ لتشتاق إليها نفوسُ أهل الدُّنيا.

وفيها: ترغيب النفوس بالجنَّة؛ لِيَسْهُل العمل، وتَخِفَّ مشقَّة التكاليف والعِبادات.

---

(١) رواه الطبري (١/ ٣٩٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، بإسناد صحيح.

وفيها: شرف الجنَّة؛ فإنَّ المُبشِّر بها هو: الله عَزَّوَجَلَّ، والمُبشَّر: عباد الله المؤمنون، وناقل البِشارة: أعظم رسول مَلكيّ، وأعظم رسول بشريّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: اجتماع نعيم أهل الجنَّة من جميع أطرافه؛ فلهم نعيم جسدي -ومنه الطعام- ونعيم نفسي -ومنه الأزواج- ونعيم القَلْب بما يعلمونه من الخلود وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

ولـمَّا ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ للمنافِقين في أول هذه السُّورَة، وردَّ على مَن طَعَنَ في الوحي، وحَصَلَ أنَّ بعض أهلِ الضَّلالِ استنكروا واستهزأوا من ضَرْبِ المَثَلِ في القرآن بالذباب والعنكبوت؛ ردَّ الله عليهم هنا وانتصر لكتابه؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ لا يمنعه الحياءُ ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ من أن يضرب مَثَلًا، ولو بشيءٍ حقيرٍ ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما هو أكبر منها -كالذباب- أو ما هو أدنى منها وأصغر -كالذَّرِّ وصغار النمل- مادام في التمثيل بذلك فائدةٌ وعِبْرةٌ.

وكما أنَّه تعالى لم يستنكف من خَلقِها، وفي خَلْقها فوائد، فكذلك لم يستنكف من ضَرْبِ المَثَل بها.

ويضرب اللهُ الأمثالَ لإيضاح المعاني والحقائق للناس؛ لعلَّهم يعقلون ويتفكرون فيها.

ولكن لا يَعْقِلُ هذه الأمثالَ إلَّا العالِمون، ولذا قال بعضُ السلف: «إذا سمعتُ المثَلَ في القرآن فلم أفهمه؛ بكيتُ على نفسي؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»[١].

والخلاصةُ: أنَّ الله تعالى يضرب الأمثالَ بالأشياء، صغيرها وكبيرها؛ فيؤمن المؤمنون، ويستهزيء المكذِّبون.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٨).

وينقسمُ النَّاسُ في هذا الأمر إلى قسمَين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: المَثَل المضروب ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ فيعقلون، ويتفكرون، ويزدادون إيمانًا.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود والمشركين والكافرين وغيرهم، فإنَّهم يستهزؤن، ويستنكرون، ويقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾، فَيُعْرِضُونَ، ويجادِلون بالباطل، وتنصرف قُلُوبهم عن الحقِّ.

وقد اقتضت حِكْمةُ الله أن يضرب المثَلَ؛ ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ من النَّاس، من أهل الكُفر والنِّفاق، ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ﴾ بهذا المَثَل ﴿كَثِيرٗا﴾ من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدىً وإيمانًا.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ﴾ بالمَثَل المضروب ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الخارجين عن الإيمان إلى الكُفر والنِّفاق، كما جاءت أوصافُهم في الآية التي بعدها.

قال قتادة: «فسَقوا، فأضلَّهم الله على فِسْقِهم»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثباتُ صفة (الحياء) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته، وحياؤه ليس كحياء المخلوق.

وفيها: خطورة الاستهزاءِ بكلام الله تعالى، والاعتراضِ عليه.

وفيها: أنَّ الله لا يخلق شيئًا عَبَثًا، حتى البعوضة مع كونها من أحقر المخلوقات، فلله في خَلْقها حِكَمٌ؛ فإنَّها تَقُضُّ مضاجعَ الجبابرة، ويُذِلُّ الله بها الظَّلَمَة، وتصلُح مَثَلًا لأهل الدُّنيا؛ فإنَّها تحيا إذ جاعت، وتموت إذا شَبِعَت! وهكذا أصحابُ الدُّنيا إذا استغنَوا طغَوا، فأخذهم الله.

والبعوضة من آيات الله في الخَلْق؛ فإنَّها على صِغَرِها يغوص خُرْطُومها في جلد الفيل والجاموس والجمل، حتى إنَّه ربما يموت من قَرْصتها؛ بما تنقلُه إليه من الوَباءِ بإذنِ الله.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠٩).

وفي هـذا تقوية لقُلُـوب ضُعَفاء الناس بذِكْـر ضُعَفاء الأجناس؛ فالبعوضـة تُدْمِي مُقلة الأسد، وهي -على صِغَرِها- أجرأ من الأسد!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الحقَّ الثابت من الله لا يجوز إنكارُه.

وفيها: أنَّ الشيء الواحد يكون سببًا لهداية أُناس، وسببًا لضلال آخرين.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار ومَـن شـابههم يَقِفون عنـد ظواهر الأشـياء، ولا يُدرِكـون الحقائق، ولا يعرفون الحِكَم.

وفيها: خطورةُ الجدال بالباطل؛ كما قال هؤلاء: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

وفيها: أنَّ فَهم أمثال القرآن من أعظم أسباب الهداية.

وفيهـا: أنَّ أهل الهدى -وإن كانوا قِلَّة- لكن كثرتَهم في خيرهم ونفعهم للناس، وأهل الضلال -وإن كانوا كثيرين في العَدد- لكنَّهم قليل من جهة الخير والبرَكة.

وفيها: فَضْل الإيمان، وأنَّه يمنع صاحبه من معارضة ما أنزل الرحمن.

وفيها: أنَّ الاعتراض على حُكمِ الله يُنافي الإيمانَ.

وفيها: أنَّ مَن فَسَقَ وخرج عن طاعة الله؛ استحقَّ الإضلال.

وفيها: أنَّ فِسْق الكافر هو خروجٌ كليٌّ عن طاعة الله، بينما يكون فِسْق العاصي خروجًا جزئيًّا.

وفيهـا: أنَّ عـلى الدَّاعيـة إلى الله ألَّا يمنعه الحيـاءُ مِن بيان ما فيه حـقٌّ وفائدة، ولو كان في ذلك مجالٌ لِطَعْن الطاعنين.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٢٧﴾:

ثم ذكرَ تعالى صفات هؤلاء الفاسقين؛ فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾: يُخالِفون ويَتركون ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾: ميثاقَهُ المؤكَّد، و(النقض): هو حلُّ الشيء بعد إبرامه ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: توكيده وإيجابه.

و(عهد الله) يشمل: الأمرَ بطاعته، والنهيَ عن معصيته. ونَقْضُه: مخالفة ذلك.

ويشمل: ما أخذه الله على أهل الكتاب في التوراة من العملِ بما فيها، واتّباعِ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُعِثَ. ونَقْضهم: تركُهم العملَ وتكذيبُهم النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكِتمانُ أمره.

ويشمل عهدُ الله أيضًا: ما أخذه على جميع العِباد من توحيده، وما جعل في فِطَرِهم من موافقة ذلك. ونَقْضه: الوقوعُ في الشِّرك.

ويشمل العهد كذلك: ما أخذه الله على ذريَّة آدم، من الإقرار بربوبيَّته. ونَقْض ذلك: تَرْك الوفاء بهذا الميثاقِ.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: «هي ست خصال في المنافِقين، إذا كانت فيهم الظَّهَرةُ (الغلبة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وَعَدُوا أَخلفوا، وإذا ائتُمِنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصِل، وأفسدوا في الأرض.

وإذا كانت الظهرة عليهم؛ أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وَعدوا أخلفوا، وإذا ائتُمِنوا خانوا»[1].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من القرابات النسَبيَّة: بقطع الأرحام- والقرابات الدِّينيَّة: بِتَرْكِ نُصْرَةِ الرُّسل، وإيذاء أهل الحقِّ بقطع الولاء للمؤمنين، وإيذاء آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحو ذلك.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي والفتن، والصدّ عن سبيل الله، وهذا من الفساد المعنوي. ويُفْسِدون كذلك إفسادًا حِسِّيا، بتخريب الدِّيار، وقَتْل الأنفس، ونحو ذلك.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: جمع «خاسرٌ»، وهو: الذي فاته الربح. والمراد به هنا: الذي فاتته المثوبةُ والجنَّةُ، وصار إلى العُقوبةِ والنَّارِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ الوفاء بعهد الله الذي أخذه على عباده، ووجوبُ الوفاء بما عاهد عليه العبدُ ربَّه من الطاعات، ووجوب الوفاء بالمعاهَدات المباحة مع الخَلْق.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١١)

وفيها: خطورة المعاصي، ومن أشدِّها: التي يتعدَّى ضررُها وينتشر أثرها.

وفيها: خطورة الفِسْق؛ لأنَّ الله حَصَرَ الخسارة فيه.

وفيها: التحذيرُ من كِتمان ما أوجبَ اللهُ بيانَه، وهذا من الميثاق الذي أخذه الله على العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفيها: الأمر بصلة الرحم، والإصلاح في الأرض؛ لأنَّ النهيَ عن الشيء وذمَّهُ يقتضي الأمرَ ووجوبَ العملِ بضِدِّه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨﴾:

وقوله ﴿كَيْفَ﴾: استِفهامٌ للإنكارِ والتَّعجُّبِ ﴿تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾: تجحدونه، وتُكذِّبون به، وتستكبرون عن عبادته، وتُنكرون بعثَه لكم يوم القيامة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ عدمًا أو ترابًا، أو في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئًا حتى خَلَقَكُم، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾: بإخراجكم إلى الوجود، وخَلْقِكم، ونَفْخِ الأرواحِ في أجسادكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ موتةَ الحقِّ، بِقَبْضِ أرواحكم، وخروجكم من الدُّنيا، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بنفخة البَعْث، وعودة الأرواح في أجسادكم.

وهاتان الميتتان والحياتان في هذه الآية هما المذكورتان أيضًا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: بعد بعثِكم تُردُّون إليه للحساب والجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاستنكار والتَّعجُّب من كُفر مَن يعلم حاله ومآله.

وفيها: توبيخُ الكفَّار.

وفيها: أنَّ الموتَ يُطلَقُ على ما لا روح فيه، وإن لم يسبقه حياةٌ؛ ولذلك يَصِحُّ أن يُوصف الجمادُ بأنَّه ميِّتٌ، كما قال تعالى عن الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١].

ويؤخذ منها: أن الجنين إذا سَقطَ قبل نَفْخِ الرُّوح فيه فليس له حُكم الحيِّ، ولهذا لا يُغسَّلُ ولا يُكفَّنُ ولا يُصلى عليه، ولا يرث ولا يُورَث.

وفي الآية: تمامُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ البَعْث، وأنَّ مصير الخَلْق كلِّهم الرُّجوعُ إلى الله.

وفيها: أنَّ نِعمة الإيجاد من العدَم تستوجب شُكرَ المنعِم، بعبادته، لا بالكُفر به.

ويُستفاد من الآية: مُناظَرة الكفارِ، وتنبيهُ الجاحِدِين على أول نِعمة على الإنسان، وهي الإيجاد من العدَم.

وفي الآية: التنبيهُ على الاستعداد للرجوع إلى الله، وذلك بالتَّزوُّد بالصالحات، وتَرْك المعاصي.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى بعض آياته في الأنفُس؛ ذكرَ بعض آياته في الآفاق، ولـمَّا ذكَّرهم بنِعمة إيجادهم ذكرَ نِعمة خَلْقِ السماوات والأرض؛ فقال تعالى -ممتنًّا على عباده-:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ لأجلِكم، ومنفعتكم ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يَعُمُّ كلَّ ما في الأرض من المخلوقات، من الأشجار، والزروع، والمعادن، والحيوانات، ونحو ذلك.

وهذا يدلُّ على أنَّ الأصل فيها جميعًا الحِلُّ والإباحة، حتى يَرِد الدليل على تحريم شيء منها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ قَصدَ وأراد ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وكانت دُخانًا، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: خَلقَهُنَّ وأتمَّهنَّ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ طِباقا، مُحْكَمة، متينة، لا شقوق فيها، ولا تفاوت.

﴿وَهُوَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: قد أحاط به، فلا يَخفى عليه منه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ خَلْقَ الأرض كان قبل خَلْقِ السماوات، كما دلَّت عليه الآية الأخرى في سُورَة «فُصِّلت»: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، إلى أنْ قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلت: ١١-١٢].

ولا يتناقض هذا مع قوله تعالى في سُورَة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]؛ لأنَّ الذي حَصَلَ بعد خلق السماوات والأرض هو دَحْي الأرض، وإخراج الماء والمرعى، وليس خلق الأرض وإيجادها؛ فإنه كان قبل خلق السماوات، كما جاء ذلك عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وفي الآية: أنَّ الأصلَ في الأشياء الإباحةُ والحِلُّ، ولا يَحْرُم شيء ممَّا في الأرض إلَّا ما قام عليه الدليل، كما تقدَّم.

وفيها: التنبيه على أنَّ مَن سَخَّر الله له الدُّنيا، لا ينبغي له أن يُسَخِّرَ نفسه لها؛ فإنها جُعِلَت لتخدمَه لا ليخدمَها، ومَن كانت الدُّنيا أكبرَ همِّه هَلَكَ.

وفيها: التذكير بنِعَم الله؛ ليقومَ العِباد بشُكره.

وفيها: سَعَة عِلْم الله وعُمومه.

وفيها: تنبيه العِباد على التذكُّر والاعتبار بما خَلَقَه الله تعالى؛ ليستدلُّوا بذلك على عظمته ووحدانيته؛ فيطيعوه ويعبدوه لا يشركون به شيئًا.

ويُفهَم من الآية: تحريم الخبائث، وتناول منع كلِّ ما يضُرُّ؛ لأنَّ الله لا يمتنُّ على عباده بها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى خَلْقَ المسكنِ أرضًا وسماءً، أَتْبَعَ ذلك بذِكر خَلْقِ الساكنِ، وذِكرِ مِنَّةٍ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥)، (٨/ ٣١٦).

أخرى من نِعَمه على العِباد، وهي: خَلْقُ أبيهم آدم، واستخلافه في الأرض؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ وَهُمْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ، خَلَقَهُم الله من نورٍ، وَأَمَرَهُم بأعمالٍ، و(الملائكة): جَمْعُ «ملأك»، مشتقٌّ من «الألوكة» وهي: الرسالة. ثم نُقِلَت حركةُ الهمزة إلى اللام، وحُذِفَت الهمزةُ تخفيفًا، فصارت: «مَلَك».[1]

﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ خالِقٌ ومُصَيِّرٌ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَيْ: قَومًا، يَخْلُفُ بَعضُهُم بَعضًا، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

وقيل: يَخْلُفُون مَن سبقهم من المخلوقات التي كانت في الأرض مِن قبلهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكةُ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وهذا سؤالُ استعلامٍ واستكشافٍ عن الحِكْمة، وليس سؤالَ اعتراضٍ واستنكارٍ؛ فإنَّ الملائكةَ لا يعصون الله.

﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالشِّرك والمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فيقتلُ ظلمًا وعدوانًا.

وقولُ الملائكة هذا عن شيء لم يحدث بعد؛ إمَّا لأنَّ الله أطلعهم على شيءٍ ممَّا سيفعله البشرُ في الأرض من الفساد، فلذلك سألوا مستغرِبين.

أو أنهم قاسوا البشرَ على مَن كانوا يسكنون الأرض قبلهم من الجنِّ، الذين كانوا قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فظنَّت الملائكةُ أنَّ هؤلاء سيكونون مِثلَ أولئك.

وقال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾: «كان اللهُ أعلَمَهم أنَّه إذا كان في الأرض خلقٌ أَفسدوا فيها وسفكوا الدماء؛ فذلك قوله ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾»[2].

وقوله ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ أي: والحال أننا نُنَزِّهك عن كلِّ ما لا يليق بك، وعمَّا افتراه عليك أهل الشِّرك، وعن كلِّ نقص.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٦٢)، تفسير النيسابوري (١/ ٢١٣)، الدر المصون (١/ ٢٤٩)، المصباح المنير (١/ ١٨).
(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٦٤).

﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: تسبيحًا مصحوبًا بالحمد، مقرونًا به، فيحمدونه على كماله، وجليل صفاته، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: ونُعَظِّمُك، ونُكبِّرُك، ونصلِّي لك، ولا نعصيك، ونَصِفُك بما يليق بك.

و(التقديس): التطهير، أي: نُطَهِّر أنفسنا لطاعتك، ولا يَعْلَق فيها شيء ممَّا لا يليق بك.

﴿قَالَ﴾ عَزَّوَجَلَّ جوابًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من الحِكْمة والمصلحة في خَلْقِ آدم وذريَّته، وما سأجعل منهم من الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصالحين، الذين يعبدونني في الأرض، ويجاهدون في سبيلي، ويعمرونها بشَرْع الله، وما سيكون من إبليس من المعصية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يبتلي مخلوقاته، وأنَّ الملائكة ابتُليت بخلق آدم، فتَبيَّن لهم بعد ابتلائهم عدمُ عِلْمهم بما عَلِمَه الله من المصلحة في خلق آدم وبَنيه.

وفيها: استِحقاق الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ للتقديس، كما تفيده «اللام» في قوله ﴿لَكَ﴾؛ فهو عَزَّوَجَلَّ أهل أن يُقدَّس.

وفي الآية: أنَّ الملائكة ذوو عقول، وأنَّهم سألوا ربَّهم؛ فأجابهم، وخاطبهم.

وفيها: حِكْمة الله في جَعْلِ البشر خلفاء يتناسلون؛ ليبقى جِنسُهم.

وفيها: الثَّناء على مَن يَستحقُّ الثَّناء، وإظهار فَضْل صاحب الفَضْل، وخصوصًا عند مَن لا يعرفه، كما أثنى الله تعالى على آدم.

وفيها: أنَّ مَن يُقدِّس الله لا يعترض على حُكمِه ويُسَلِّم لأمره.

وفيها: كراهة الملائكة للإفساد في الأرض.

وفيها: أنَّه يجوز أن يُخْبِرَ الشخص عن نفسه بما يفعله من الخير للحاجة؛ إذا كان المقصود الإخبار وليس الافتخار، كما قالت الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وكما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، وفي حديثٍ آخر: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ..»(٢).

وفيها: جواز السؤال عن حِكْمة الله في خَلْقه؛ إذا كان المقصود التعَلُّمَ، وليس الاعتراض والاستنكار.

وفيها: إزالةُ حَيرَةِ المُحتارِ، وهدايةُ السائلِ إلى مايريدُ معرفتَه.

وفيها: عدمُ انتهارِ السائلِ المستفيد.

وفيها: أنَّ الملائكةَ لاتعلمُ الغَيب.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾:

ثم ذكر تعالى فَضْلَ آدم، وما شرَّفه به من العِلْم، وما فاق به الملائكةَ في هذا، وإخباره إيَّاهم بما لم يعلموه، وهذه الحادثةُ وإن كانت بعدَ أَمْرِ الله للملائكةِ بالسجود لآدم، لكنها قُدِّمت هنا للمناسبة؛ ولتعلُّقِها بعِلْم الله، وما خُتِمت به الآيةُ السابقةُ من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ءَادَمَ﴾ اسمُ عَلَمٍ لأبي البشرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهو اسمٌ أعجميٌّ -كآزر- وقيل: هو مشتقٌّ من الأديم؛ فعن سعيد بن جُبَير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سُمِّي آدم؛ لأنَّه خُلِقَ من أديم الأرض»(٣)، وأديمُ الأرض: هو وجهُها. وقيل: من الأُدْمة، وهي السُّمرة.

﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماءَ الأشياء جميعًا، التي كانت موجودةً في العالَمِ في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: الأسماء والمسمَّيات، و(العرْض): إظهارُ الشي للغير.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى (١/ ٢٣).

﴿فَقَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأشياء الحاضرة، فإذا عجَزُوا عنها فَهُم عن تسمية الغائبِ أعجزُ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّكم أفضل من هذا الخليفة، أو في ظنِّكم أنَّ هذا المخلوقَ لا يكون منه إلَّا الفساد.

وقوله ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ سؤالُ امتحانٍ، وتعليمٍ، وكَشْفٍ للحقيقة.

وقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «يَجْتَمِعُ المُؤْمِنونَ يَوْمَ القِيامَةِ، فيَقولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنا إلَى رَبِّنا، فيَأْتُون آدَمَ، فيَقولُونَ: أنْتَ أبو النَّاسِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وعَلَّمَكَ أسْماءَ كُلِّ شَيْءٍ، فاشْفَعْ لَنا عِنْدَ رَبِّكَ؛ حَتَّى يُرِيحَنا من مَكانِنا هَذا...» الحديث[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله علَّم آدمَ مباشرةً بلا واسطة، وهذا يدلُّ على شَرَفه، فآدمُ نبيٌّ مُكلَّمٌ، كما ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[2].

وعن مجاهدٍ رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله ﴿بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال: «بأسماء هذه التي حدَّثتُ بها آدمَ»[3].

وفي الآية: أنَّ أسماء الأشياء -وكذلك أصل اللغات- توقيفيَّة، من تعليم الله، وليست تجريبيَّة من اختراع البشر، ولكن وإن كانت اللغاتُ مبدؤها توقيفيّ، فإنَّ كثيرًا منها كسبيٌّ تجريبيٌّ يضعُه الناس، ويستعملونه ويشيع بينهم.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾:

فلمَّا تبين للملائكةِ عَجْزُهم، وتبيَّن لهم عظمةُ الربِّ وقُدرتُه وسَعةُ عِلمه؛ ﴿قَالُواْ﴾ مُنزِّهين له عن النقائص: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ لا اعتراض على حُكمك ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ اعترافٌ بالعَجْزِ، وثناءٌ على الله بما علَّمهم.

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه ابن حبَّان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٤٨٩).

﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ أسلوبُ تأكيدٍ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: الذي أحاط علمُه بكلِّ الأشياء، فلا تخفى عليه خافية.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: ذو الحِكْمـةِ البالغةِ، في شَرْعِه وقَدَرِه. و(الحِكْمة): وضعُ الشيء في موضعه اللَّائِق به.

و(الحكيم) أيضًا: ذو الحُكمِ، لامُعقِّبَ لِحكمه، يحكمُ ما يشاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

امتحانُ ادِّعاءات الأشخاص فيما يزعمون الإجادةَ فيه.

وفيها: جوازُ امتحان الإنسان بما لم يعلمه؛ ليتواضع ويتبيَّن له قدْرَ عِلْمه.

وفيها: أدبُ الملائكة مع الله وتعظيمهم له؛ حيث اعترفوا بعِلْمه وكماله، وأقرُّوا بأنَّ عِلْمَهم محدودٌ، وأنَّ الفَضْلَ فيما يعلمون لله وحده.

وفيها: الرُّجوعُ إلى الحقِّ، والاعترافُ بالعَجْز، وعدم المُكابَرة.

وفي تقديم العِلم على الحِكْمة: إشارةٌ إلى أنَّ الحِكْمة من آثار العِلْم، ومترتِّبةٌ عليه.

وفيها: أنَّ المسئولَ إذا سُئِلَ عن شيء لا يعرفه؛ فإنَّ عليه ألَّا يستحي من قول: الله أعلم، أو: لا أدري، أو: لا عِلم لي، ونحو ذلك؛ ولذلك قال العلماء: «لاأدري: نِصفُ العلم»[(١)].

وفيها: ردُّ العِلم إلى الله، وأنَّه لا يَحصُل عِلمٌ صحيحٌ إلَّا بما أتى منه عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ كل عِلْم لدى البشرِ هو من تعليم الله إيَّاهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

وفي الآية: دليلٌ لتفضيل الأنبياء على الملائكة.

وفيها: قُدرة الله تعالى على تعليم الشيء الكثير في الوقت اليسير.

وفيها: أنَّ من حُسن التعليم: أن يكون بالتدريج؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾، الذي يُفيد إعطاء العِلم على مراحلَ.

---

(١) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ٣٦٨)، جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٤١).

وفيها: الاهتِمام بعِلْم اللُّغة؛ لأنَّه يحوي أسماء الأشياء.

وفيها: أنَّ الله عَلَّمَ آدمَ الاسمَ والمسمَّى، والربطَ بينهما، وأنَّ هذا الاسمَ لهذا المُسمَّى.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾:

ولـمَّا عجزَت الملائكةُ عن الإتيانِ بالأسماءِ؛ ﴿قَالَ﴾ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾ أخبِر الملائكةَ وأعلِمْهُم ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ التي عجزُوا عن الإتيانِ بها.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، وسمَّى لهم كلَّ شيءٍ باسمه على التفصيل؛ تبيَّن للملائكة فضْلُ آدمَ وشرفُه.

﴿قَالَ﴾ لهم ربهم عند ذلك: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ، أي: قد قلتُ لكم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ ما تُظهرون، كقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ تُسرُّون في أنفسكم: أنَّ الله لن يخلق خلقًا أعلمَ ولا أكرمَ منهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله، وسَعةِ عِلْمه ببواطن الأمور وظواهرها.

وفيها: فَضْل آدمَ على الملائكة.

وفيها: شرفُ العِلْم، وارتفاعُ منزلة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: جواز عتاب مَن ادَّعى دعوى غيرَ مُتأهِّلٍ لها.

وفيها: امتِثالُ آدمَ لأمرِ الله وطاعتُه له.

وفيها: تقريرُ المخاطَبِ بما لا يمكنه دفعه.

وفيها: أنَّ الملائكة لها إراداتٌ، وأنها تُبدي وتُخفي.

وفيها: عِلمُ الله بالمكنونات، وما في الصدور.

وفيها: تبليغُ العِلْم ونشرُه.

وفيها: فَضْل العالِم العابد على الجاهِل العابد، وأنّ الجَمْع بينَ العِلْم والعِبادة هو المطلوب من المؤمن.

وفيها: اختصاصُ الله بعِلْم الغيب.

وفيها -مع ما قبلها-: عدمُ الاستعجال بالحُكم على الأشياء؛ حتى لا يقف المتعجِّلُ موقف النَّدَم.

وفيها: أنَّ فوق كلِّ ذي عِلْم عليمٌ، وأنَّ على الإنسان ألَّا يغترَّ بنفسه، ولا يزدري غيره؛ فلربما كان أعلمَ منه وأفضلَ.

وفيها: تبيينُ فَضْل صاحب الفَضْلِ، وإظهارُ شَرَفِه عند مَن انتقصه.

وفيها: أنَّ عِلْم الملائكة يقبلُ الزيادة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

ولـمَّا تبيَّن فَضْلُ آدمَ، وشَرَفُه، وعِلْمُه؛ أُمر الملائكة بالسجود له، كما قال بعض المفسِّرين.

وقال بعضُهم: إنَّ الأمر بالسجود بعد خَلْقِ آدمَ وقبل التعليم.

وقد وردَ في آياتٍ أخرى أنَّ الأمر بالسجود كان قبل خَلْقِ آدم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحِجْر: ٢٩، ص: ٧٢].

وقد ذكرَ تعالى هنا في سُورَة «البقرة» أَمْرَهُ الملائكةَ بالسجود لآدم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ قلنا، وضمير الجمع للتعظيم، والقائل: هو الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ظاهرُه أنَّ الأمر لجميع الملائكة.

﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ (السجود): وضعُ الجبهة على الأرض ﴿لِءَادَمَ﴾ سجودَ تحيَّة وإكرام، وليس سجودَ عبادةٍ؛ فإنَّ سجودَ العِبادةِ لا يجوز لغير الله، وقد كان سجودُ التحيَّة جائزًا في الأُمَم قبلنا، كما فعل أهل يوسف له: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ثم صار في شرعنا ممنوعًا لغير الله على أيّ وجه كان.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ على الفور، من غير تأخيرٍ؛ امتِثالًا لأمر الله.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وهو الشَّيطان، سُمِّيَ بـ (إبليس)؛ لأنَّه أبلسَ؛ أي: أيس من رحمة الله.

﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾: امتنع معاندة، وأظهر كِبْره، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كما هو في عِلْم الله السابق. أو (كان) بمعنى: صار؛ فدخل في جملة الكافرين بسببِ إبائه واستكباره.

ومع أنَّ إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلَّا أنَّه أُمِرَ مع الملائكة بالسجود.

وقد جاء التصريحُ بأمره بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

كرامةٌ عظيمةٌ لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وذريَّته.

وفيها: بيان كُفر إبليس، واستكباره عن الحقِّ، وعلى الخَلْق.

وفيها: أنَّ بعضَ المعاصي قد يكون كُفرًا، وبعضَ الإباء والامتناع يُخرِج عن دائرة الإسلام.

وفيها: فَضْل الملائكة بالمسارعة إلى الامتِثال والطاعة.

وفيها: أنَّ الله يحكم ما يريد، فيأمر مَن شاء بالسجود لمن يشاء، ويمنع مَن شاء من السجود -كما منعَه في هذه الأُمَّة-.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على كُفْرِ تاركِ الصَّلاة، وأنَّ الذي لا يسجد لله البتة فهو من الكافرين الخارجين عن مِلَّة الإسلام.

وفي الآية: وجوب امتِثال أمر الله، عُرِفَت العِلَّةُ، أم لم تُعْرَف.

وفيها: وجوب اتِّباع أمر الله، سواءً وافق هوى النفس، أو خالفه.

وفيها: الإشارةُ إلى وجوب سُرعة تنفيذ أَمْرِ الله؛ اقتداءً بالملائكة.

وفيها: بيانُ فَضْل السجود، وأنَّه أفضلُ ما تُقُرِّبَ به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الكِبْرَ على طاعة الله سببٌ للكُفر.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾:

ثم أكرمَ اللهُ آدمَ بعدما خَلَقَ له زوجَه بكرامةٍ أخرى؛ وهي: إسكانُه الجنَّةَ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ وهذا يدلُ على أنَّ اللهَ كلَّمه بلا واسطة، وهذا شرفٌ عظيمٌ لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقد سأل رجلٌ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنبيٌّ كان آدمُ؟ قال: «نعَم، مُكَلَّمٌ»[(١)].

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾: أقِم وامكُث، واتخِذ الجنَّةَ مَسكنًا. و(المَسكن): محلُّ السُّكون. والأمر؛ للإذن والإباحة، فأكرمَ اللهُ آدمَ وزوجه حوَّاء بالجنَّة.

وهذا السياقُ يقتضي أنَّ حواءَ خُلِقت قبل دخول آدم الجنَّة، وهذا من النِّعمة: أن يُدخِلَها معه لتؤنِسَه، فلا يَستوحِش.

وأكثرُ العلماءُ على أنَّ المقصودَ بالجنَّةِ: هي جنَّةُ الخُلدِ المعروفةُ، ودارُ ثوابِ المؤمنين.

وقد كان دخولُ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الجنَّةَ يومَ الجمعةِ؛ كما دلَّ على ذلك الحديث الصحيح: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»[(٢)].

﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ من ثمارها، والأمرُ؛ للإباحة والإكرام ﴿رَغَدًا﴾: أكلًا واسعًا، طيِّبًا، هنيئًا، لا تنغيص فيه ولا عناء. وقال مُجاهِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا حساب عليهم»[(٣)].

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: من أي مكانٍ من الجنَّةِ أردتُما، فوسَّعَ عليهما في الأكل، مكانًا، ومقدارًا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: نهاهما عن الأكل من شجرة معيَّنة، ومنَعَهما من قُربانها، مبالغةً في اجتنابها.

ولا يضرُّ الجهل بنوع هذه الشجرة، ولو كان في تعيينها فائدة لنا، لبيَّنه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الَّذين يَظلمون أنفُسَهم بمعصية الله.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٦١٩٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في الصحيحة (٢٦٦٨).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٥١٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مِنَّةُ الله على الأبوَين.

وفيها: سُنَّة الله في النِّكاح بينَ البشر.

وفيها: أنَّ ثمار الجنَّة موجودة في كلِّ وقت.

وفيها: ابتلاء الله لعباده بالممنوعات.

وفيها: أنَّ الأصلَ في النَّهي التحريم، ما لم تكن هناك قرينة تَصْرِفه إلى غيره.

وفيها: أنَّ الشريعة إذا حرَّمت شيئًا مَنعت كلَّ ما يُوصِلُ إليه، وهذا ما يُعْرف بـ (سدِّ الذرائع)، وهو من احتياط الشريعة، وكمالها، ومحاسنها.

فالنهي عن قُربان الشيء معناه: النهيُ عن تعاطيه وارتكابه، وتَرْكُ كلِّ سبَب وطريق يؤدِّي إليه.

وفيها: أنَّ على العبد أن يَحْذَرَ من المعصية، ومن أسباب الوقوع فيها.

وفي عدم تعيين الشجرة: الكفُّ عن البحث فيما لا فائدة منه، ولا طائل من ورائه، وفي الحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1].

وفيها: تساوي الذَّكر والأنثى في الخِطاب الشرعي، أمرًا ونهيًا، إلَّا ما دلَّ الدليلُ على التفريق بينهما فيه.

وفيها: أنَّ المسكنَ والمطعمَ من أعظم النِّعَم.

وفيها: أنَّ المباحات أكثر من المحرَّمات.

وفَهِمَ بعض العلماء أنَّ: في النهي عن شيء من الجنَّة إشارة إلى أنَّهما لا يُخلَّدان فيها؛ لأنَّ المُخلَّد فيها لا يُمنع من شيء منها.

وفيها: أنَّ المعصيةَ ظلمٌ للنَّفْس.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي.

وفيها: ردٌّ على المُبتدِعة الذين يقولون: إنَّ الجنَّة غير موجودة، وسَتُخْلَق يوم القيامة.

وفي الآية: الترغيب في النِّكاح.

وفيها: أنَّ التّعيينَ يكون بالإشارة، كما يكون بالنَّصِ على اسم الشيء؛ لقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أي: أوقعَهُما في الزَّلل، فأزالهما وأبعدهما ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

والشيطان فِي لُغَةِ العَرَبِ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ، إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ البَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ(١).

﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنَّةِ بوسوسته، وتزيينه للمعصية. ولا يمنعُ أن يقدِرَ على الوَسْوَسة لهما وهو خارجَ الجنَّةِ، وهما داخلَها.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم.

وقد ورد تفصيلُ هذه الوسوسة، واستدراج إبليس لآدم وزوجه، كما في سُورَة «طه» وغيرها.

وقد كان إخراجُ آدم من الجنَّة يومَ الجمعة، كما ثبت في الحديث: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»(٢).

﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وحواء وإبليس: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ انزلوا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي هذا: تقريرُ العداوةِ بينَ آدمَ وزوجِه من جهة، وإبليسَ من جهةٍ أخرى.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾: قرارٌ وتمتُّعٌ بالنِّعَم، لكنَّه مؤقتٌ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ انقضاءِ الآجالِ، بالموتِ، وقيامِ السَّاعة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١١٥).

(٢) رواه مسلم (٨٥٤).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحذرُ من الوقوعِ في المعاصي والزلل، وهذا ما يسعى إليه إبليسُ.

وفيها: تذكيرُ العِبادِ بعداوة الشَّيطان، وحِرْصِه على زوال النِّعمة عن ابن آدم.

وفيها: أنَّ الجنَّة أعلى من الأرض؛ لقوله: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾، والهبوطُ: لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: أنَّه لا يمكن لبني آدم العيش إلَّا في الأرض، وأنَّ كل محاولات العيش على الكواكب الأخرى ستبوء بالفشل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾، ولقوله: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفي الآية: أنَّه لا دوام لبني آدم في الدُّنيا، وأنَّ عيشهم فيها مؤقَّت؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾.

وفيها: رحمة الله بأن أعدَّ السكن للساكن قبل إنزاله، وأنَّ آدم لـمَّا هبط إلى الأرض كانت جاهزةً لمعيشته عليها، بل قد ثَبت عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «إنَّ الله حين أَهْبَط آدمَ من الجنَّة إلى الأرض، علَّمه صَنْعة كلِّ شيء، وزوَّده من ثمار الجنَّة، فثمارُكم هذه من ثمار الجنَّة، غير أنَّ هذه تتغيَّر وتلك لا تتغيَّر»[1].

وفي الآية: أنَّ الإخراج من دار الراحة -وهي الجنَّةُ- إلى الأرض؛ للعمل والتَّعَب.

وفيها: خطورةُ الذنب وعقوبتُه، وعدمُ الاستهانة بالمعصية؛ فإنَّ آدمَ وزوجَه أُخرجا من الجنَّة بذنب واحد.

وقد ورد في بعض الآثار: ذِكْرُ افتتان آدمَ بزوجته، واستمالة إبليس لحواء في إغواء زوجها.

ويؤخذ منه: التحذير من فِتنة الزوجة، وأنَّ الشَّيطان يستعين بها على تزيين المعصية للرجل، وإذا زيَّنت المرأةُ المعصيةَ لزوجها فوافقها على ذلك واستجاب لها؛ عُوقِبا جميعًا، كما قال الله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٢)، بإسناد صحيح.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا جرى عليه قَدَرُ الله، بالانتقال من معيشةٍ رغيدةٍ، إلى معيشةٍ شاقَّةٍ؛ فإنَّه يُوطِّنُ نفسه على التعامل مع الواقع الجديد، ويَرضى بقضاء الله تعالى.

وفيها: أنَّ من شُؤْمِ المعصيةِ: الحِرمانَ من رَغَد العيش.

وفيها: أنَّ العداوةَ بينَ آدمَ وذريَّته مع إبليس هي عداوةٌ دينيَّةٌ، فلا ترتفع ما بقي الدِّينُ.

وفيها: تهييجُ النفوس لاسترجاع الإقامة في الجنَّة، بامتِثال أوامر الله، وهذا هو الطريقُ في دَفْعِ الحَسْرةِ الناتجةِ عن فُقدان الجنَّة؛ بسبَبِ ما حَصَلَ من إيقاعِ الشَّيطان بالأبوَين.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَحَـيَّ عَـلَى جَنَّـاتِ عَـدْنٍ فَإِنَّهَـا ... مَنَازِلُـكَ الأُولَى وَفِيهَـا المُخَيَّـمُ
وَلكِنَّنَـا سَـبْيُ العَـدُوِّ فَهَـلْ تُرَى ... نَعُـودُ إِلَى أَوْطَانِنَـا وَنُسَـلَّمُ[1]

ويؤخَذ منها: أنَّ هبوط آدم إلى الأرض، قَدَرٌ جَرَى عليه من الله، وليس أمرًا تكليفيًّا.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾:

ثم ذكَرَ تعالى توبته على آدم، وكان ذلك بعد خروجه من الجنَّة، وبعد الأمر بالهبوط، وقبل أن يحدث الهبوط؛ فقال تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ أي: استقبل بالأَخْذ، والقبول، والعمل ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ هذه الرُّبوبيَّة الخاصة، الدَّالة على المحبَّة ﴿كَلِمَٰتٖ﴾ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ قَبِلَ توبته، ورجع عليه بالمغفرة والفَضْل والرحمة؛ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة على مَن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: كثير الرحمة الواسعة، الواصلة إلى مَن يشاء من عباده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مِنَّةُ الله تعالى على أبينا آدمَ، حين علَّمَه كيف يتوب، ووفَّقه للتوبة، ولم يتركه للذنب.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧١).

وكذلـك مِنَّةٌ أخرى عندما قَبِلَ توبته؛ فكانت المِنَّةُ الأُولى قبل توبـة آدم، والمِنَّةُ الثانية بعد توبته.

وفيها: أنَّ للكلمات التي يقولها العبد في التوبة أثرًا بالغا في قَبولها.

وفي الآية: أنَّ المذنِب إذا صدق في توبته قَبِلَ اللهُ منه ولم يؤاخِذْه بذنبه.

والتوبـة الصادِقـة: ندمٌ على ما كان، وتَرْكُ الذنب الآن، والعـزمُ على عدم العودة إليه في مستقبَل الزمان، وردُّ مظالمِ العِبادِ -إن كان الذنب متعلِّقًا بآدميّ- واستدراكُ ما فات.

ويؤخَـذ مـن قِصَّـة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إمكان وقـوع الصغائر مـن الأنبياء، وذلـك لا يَقدحُ في نبوَّتهم، بل يدُلُّ على بَشَريَّتِهم.

وأمَّـا عصمتُهـم من الخطأ في تبليغ الوحي، وعصمتهم مـن الشِّرك والكُفر، وعِصمتهم من الكبائر؛ فهي باقية.

ثـم إنَّ الذنـبَ إذا حصـل منهم فهو نـادرٌ، وسَرْعان ما يستغفرون ويتوبـون، وذُنوبهم مشمولةٌ بمغفرة الله، ويحتَفُّ بها ما يُخَفِّفها في حالة وقوعها منهم.

فمعصيـة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانـت مع النِّسيان، ولأنَّه لـمَّا سَـمِع إبليس حَلَفَ لـه؛ ظنَّ أنَّه لا يمكـن أن يحلـف أحدٌ كَذِبًا، ولعلَّـه أراد بالأكل أن يخلَّـد أو يصبح ملَـكًا، فيُقرَّب من ربِّ العالمين، واجتمـع مع ذلك تزيينُ الزوجـة، وربما ظن أنَّ مصلحة الأكل من الشـجرة تزيد على المفسدة، ونحو ذلك من الأعذار.

وفي الآية: درسٌ للدُّعاةِ إلى الله في تعليم المذنِبين التوبةَ، ودعوتِهم إليها، وهذا أعظم من التوبيخ.

وفي الآيـة: أنَّ التوفيـق إلى التوبـة مِنَّـةٌ من الله، فيجب عـلى التائب ألَّا يغـتَرَّ ولا يُعجَب بنفسه؛ لأنَّه لولا توفيقُ الله لَـما تاب.

وفي هذه الآية: تقويةُ رجاءِ المذنِبين في الله، وحُسنُ الظَّنِّ به جلَّ وعلا إذا تابوا إليه؛ فإنَّه ذكر فيها توبته على آدم، ثم ختمها بتلك الجملة الاسـمية الدَّالة على تحقيق حصول توبته: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أَيْ: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ.

وفي الجَمْعِ بينَ التوبة والرحمة، وضمير الفصل (هو) في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: دلالةٌ على اختصاص الله تعالى بالتوبة والرحمة العظيمتَين الشاملتَين، اللَّتين لا يقدِر عليهما غيرُه.

وفيها: إعانةُ الله للتائبين، وحفظُهم ورَفْعُ منزلتهم؛ فإنَّ آدم بعد الذنب والتوبة صار خيرًا وأرفعَ منزلةً ممَّا كان قبل الذنب، فما أهبطَه إلَّا ليرفعَه، وما كتب عليه الذنب إلَّا ليقرِّبَه، وما قدَّر عليه المعصية إلَّا ليرحَمَه، ولم يشأ له المُخَالفَة إلَّا ليعلِّمَه.

وفي الآية: أنَّ وقوعَ الشَّرِّ قد ينقلبُ إلى خير عظيم، وأنَّه قد يَحْصُلُ من الفوائد بعد المعصية ما لا يعلمه إلَّا الله.

ويؤخَذ من إغفال ذِكْرِ حواءَ: أنَّ المرأة تَبَعٌ للرجل، وأنَّ أمرها مبنيٌّ على السِّتر والحُرمة؛ ولذلك جاءت أغلبُ الخِطابات في القرآن بصيغةِ المُذَكَّرِ.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾:

تَكرار الأمر بالهبوط في قوله تعالى ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ يدُلُّ على تحتُّمِه وتحقيقِه لا محالة، واستبعادِ أمنيَّة العودة السريعةِ إلى الجنَّة.

كما أنَّ الأمرَ الأولَ مقرونٌ بِذِكْرِ العداوة بينَ آدم وإبليس، والاستقرار في الأرض، والهبوط الثاني مقرونٌ بما سَيحْصُلُ من التكليف، وثواب مَن أطاع، وعُقوبة مَن عصى.

﴿مِنْهَا﴾ من الجنَّة إلى الأرض ﴿جَمِيعًا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والذُّريَّة.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الأنبياءُ والرُّسُلُ والبيان من الله تعالى.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾: أطاعَ رُسُلي، وعمل بما أنزلتُ؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أيِّ مكروه في المستقبَل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء مضى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الهُدى من عند الله؛ ولذلك لا يُطلَب ولا يُسأل إلَّا منه سبحانه.

وفيهـا: أنَّ اتِّباع الهُدى يؤدِّي إلى حصـول الأمن والطمأنينة النفسـيَّة، فلا يَخشـى مُتَّبعُ الهُدى المكروهات، وكذلك لا يحزن على ما مضى؛ لأنَّه اغتنمَه بالأعمال الصالحة، فلا يخاف ممَّا هو آتٍ، ولا يحزن على ما فاتَ.

وفيها: أنَّ الله تعالى ابتلى عباده بشَرْعِهِ؛ ليَظهر مَن يتبعه، ممَّن يَكْفُر به ويُكذِّب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾:

ثم بيَّن تعالى عاقبةَ المُعرِضينَ؛ فقال: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا.

﴿**وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ**﴾ الشرعيَّة التي أنزلناها، فجمعوا بينَ الكُفر بالأمر، والتكذيب بالخبر.

و(الآيـات): جمـع «آية»، وهي: العلامـةُ الظاهـرةُ، والدليل البيِّنُ. وقـد تكون شرعيةً، وهي: ما أَنزَل الله في كتبه، أو كونيةً، وهي: الدَّالةُ على ربوبيَّته وعَظَمته، ممَّا خلقَه في الكون.

﴿**أُوْلَٰٓئِكَ**﴾: إشارةٌ إليهم باسـم الإشارةِ الدَّالةِ على البعيدِ؛ لانحطاط رتبتهم ﴿**أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ**﴾ المُلازمون لها لا يفارقونها، و(الصاحب) لا بُدَّ أن يلازم صاحبه ﴿**هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ ماكثون دائمًا وأبدًا، لا محيد عنها، ولا محيص.

قـال النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّـا أَهْـلُ النَّـارِ الَّذِينَ هُـمْ أَهْلُهَـا؛ فَإِنَّهُـمْ لَا يَمُوتُـونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مـن أسـباب الخلود في النَّار: التكذيب بآيـاتِ الله، والكُفر بها، ومَـن كان كُفرُه كُفرًا أكبرَ فهو خالدٌ في النَّارِ، وأمَّا أصحابُ الكُفرِ الأصغرِ: فغيرُ مخلَّدين.

وفيهـا: أنَّ مَـن كذَّب بآيات الله الشرعيَّـة يَكْفُر، حتى لو آمن بآياتـه الكونيَّة؛ فإنَّ بعض الكفَّار يؤمنون بأنَّ من آيات الله: اللَّيل والنهار والشمس والقمر، ولا يمنع هذا من الحكم عليهم بالكُفر.

---

(١) رواه مسلم (١٨٥).

وفي الآية: سوءُ مَصير المُكَذِّبينَ بالقَلْب، والمُكَذِّبِينَ باللِّسان.

وفيها -مع الآية التي قبلها-: ذِكْرُ مَصير الفريقين المتقابلَين؛ للجمع بينَ الترغيب والترهيب؛ وذلك أكثرُ أثرًا في النفوس، وأظهرُ في بيان المقصود.

وفي الآية: دليلٌ على بقاءِ النَّار، وعدمِ فنائها؛ لأنَّ الكفَّار إذا كانوا خالدين فيها فلا بُدَّ أن تبقى.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾:

ولـمَّا تقدَّمت دعوةُ النَّاس جميعًا للعبادة؛ بدأ بالتفصيل بدعوة بني إسرائيل بالإيمان بالنبي ﷺ؛ حيث إنهَّم يعرفونه، ومكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل.

ولـمَّا كانت الحِكْمة في الدَّعوة تقتضي التلطُّفَ مع المدعُوّ، وحُسنَ مناداتِه، وذِكْرَ منزلتِه؛ ناداهم باسمٍ محبَّبٍ إليهم، وبيَّن نِعمته عليهم، وأنَّ لهم مكانةً تاريخيَّةً وشأنًا فيما مضى من الزمان. فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (إسرائيل): هو نبيّ الله يعقوب عَلَيهِ السَّلَامُ.

والمقصود: يا أبناء العبد الصالح المطيع لله، كونوا مِثل أبيكم في اتِّباع الحقِّ.

وقد روى الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ عصابةً من اليهود حضروا نبيَّ الله ﷺ؛ فقال لهم: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنزلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ﷺ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا...»، قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم»[1].

وقوله ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنَتكم ﴿نِعۡمَتِيَ﴾، وتدارَسوها، ولا تغفُلوا عنها. واذكروها بقُلُوبكم بالاستيقاظ والانتباه إلى المُنعِم؛ لتتنبَّهوا له سبحانه فتشكروه. واذكروها بجوارحكم؛ أي: قوموا بشُكرها عمليًّا.

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ مثل: تخليصِهم من فرعون وقومه، وبَعْثِ الأنبياء والملوك منهم،

(١) رواه أحمد (٢٥١٤)، وحسَّنه محقِّقو المسند.

وإنزال الكتب المعظَّمة عليهم، والتظليل بالغمام، والرزق بالمَنِّ والسَّلْوى، وتفجير الحَجَر عيونًا لمشربهم، ونحو ذلك.

وقوله ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه النِّعَم فَضْلٌ محضٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أتِمُّوا ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ وهو ما عَهِدَ به إليهم، من الإيمان به وعبادته وحدَه لا شريك له، والقيام بما أمرهم به، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

وقيل في (العهد): هو التوراة، وما أخذه الله عليهم من لزوم الإيمان بالنبي الذي سيبعثه، وهو محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهذا العهد المجمَلُ هنا، جاء تفصيلُه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [المائدة: ١٢].

وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [المائدة: ١٨٧].

فإذا قَبِلْتم هذا الميثاق، وأوفيتُم به، واتَّبعتُم محمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي: أُتمّ لكم جزاءكم بحسن الثواب والقبول، وتكفير السيِّئات، وإدخالكم الجنَّة.

و(العهد): هو الميثاق والوصيَّة، والوفاء به: حفظه ومراعاته في كلِّ الأحوال.

وبالجملة: فإنَّ قوله ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ أي: اُدخُلوا في الإسلامِ.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: فاخشوني وخافوني، ولا ترهبوا وتخافوا غيري.

وتقديمُ لفظةِ (إيَّايَ) على لفظة ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ يُفيد الحَصْر؛ أي: لا ترهبوا إلَّا إيَّايَ. والرَّهبة: شِدَّة الخوف، ورهبتُه تعالى عبادةٌ عظيمةٌ، فأمر الله بها وأمر بإخلاصها.

وهذا انتقالٌ من الترغيبِ إلى الترهيبِ، والجَمْع بينهما يؤثِّر في النفوس.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تذكير العبد بنِعمة الله عليه أَقْوَم للحُجَّة عليه، وأدعَى لاتِّباع الحقِّ.

وفيها: نِعمة الله العظيمة على بني إسرائيل.

وفيها: أنَّ النِّعمة على الأجداد هي نِعمة على الأحفاد. والخِطاب في الآية وإن كان لليهود المتأخِّرين، إلَّا أنَّ النِّعمة على أسلافهم وصلَ أثرُها إليهم، فلولا نجاة أولئك ما جاء هؤلاء.

وكذلك من نِعمة الله على بني إسرائيل المتأخِّرين: التاريخ الذي شرفوا به، من مجيء الرُّسُل من آبائهم المتقدِّمين، وإنزال الكتب عليهم، ولو أنهم آمنوا بمحمَّد ﷺ لاكتملت النِّعمة عليهم من كلِّ وجه؛ فالنِّعمة على هؤلاء المتأخِّرين ببعثة النبيِّ ﷺ عظيمة.

وفيها: وجوب إخلاص الرهبة لله، وأنَّها عبادة من عبادات القَلْب. وأمَّا الخوف الطبيعي الجِبلِّي -كالخوف من سبع وعدُوّ-: فلا يُنافي ذلك.

وفيها: نداء المدعُوِّين بالأسماء المحبَّبة إليهم، وإن كانوا كفَّارًا؛ استجلابًا لقُلُوبهم، وتأليفًا لنفوسهم.

وفي الآية: التذكيرُ بشُكر النِّعَم، فالذِّكْر شُكر، والنِّسيان كُفران.

وفيها: وجوبُ وفاء الإنسان بنذره، وبما عاهد الله عليه.

وفيها: الجَمْعُ بينَ الترغيب والترهيب في الدَّعوة.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾:

ولـمَّا أمرهم بالوفاء بالعهد، وأن يَرهبوه وحدَه عَزَّوَجَلَّ؛ أَمَرهم بعد ذلك بالإيمان بالقرآن الذي أنزله؛ فقال:

﴿وَءَامِنُواْ﴾: صدِّقوا يا أهل الكتاب، واعملوا ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ من القرآن، الذي أنزلته

على محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافِقًا ومؤكِّدًا ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، المكتوب فيهما صفة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبِعْثته، ووجوب الإيمان به، والأمر بالتوحيد، وشاهدًا بالصِّدق على نزول الكتب المتقدِّمة، وتحقَّق بنزوله ما جاء فيهما من الإخبار عن صفةِ مبعَثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ يا معشر أهل الكتاب ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ من الناس؛ أي: لا تُسارِعوا إلى الكُفر بالقرآن، ولا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن كفرَ بالقرآن فقد كفرَ بالنبيِّ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن كفرَ بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كفرَ بالقرآن.

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بهذا القرآن؛ لأنَّ الواجب عليكم أن تكونوا أول مؤمنٍ به، حيث إنَّ صفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكتوبةٌ عندكم في التوراة والإنجيل؛ فلا يليق بكم وأنتم تعلمون الحقَّ أن تكذِّبوا به؛ لأنَّكم إذا كفرتم كَفَرَ منَ بعدكم، وصِرتم قُدوةً سيِّئةً لذريِّتكم، فتبُوءوا بإثْمِكم وإثمِهم؛ فإنَّ وِزْر المقتدِي يكونُ مثله على المُبتَدي -بالاضافة إلى وِزْر المُبتدي-.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى﴾: لا تأخذوا على كِتمانها وتحريفها ثمنًا قليلًا من الرياسة، أو المال، أو غير ذلك، ولو كان هذا الثمن هو الدُّنيا كلها؛ فإنَّها كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

أي: لا تكفروا بما أنزلتُ خشيةَ فواتِ عَرَضِ الدُّنيا الذي تأخذونه من أتباعِكم، وتخافون فَقده إذا آمنتُم، وتخافون على جاهكم ورئاستكم.

وقد كان رؤساءُ اليهود وعامَّتهم يُعطون أحبارهم نصيبًا من الزروع والثِّمار، ويُهدون إليهم الهدايا، وأحيانًا يكون ذلك مقابل الإفتاء بالباطل، وتغييرِ بعضِ الشرائع بتحريفِ الكَلِم، فخاف الأحبارُ إذا آمنوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفقدوا ذلك المال، وتلك الرياسة والمكانة، فكتموا أمرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحرَّفوا ما في كتبهم من صِفته ومبعثه؛ لئلَّا يفوتهم هذا النصيب من الدُّنيا!

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اتقوا عذابي، بالإيمان بما أنزلتُ، واتِّباع الحقِّ، وإظهاره، وعدم كِتمانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الكفَّار جميعًا مخاطَبون بالإسلام.

وفيها: أنَّ تصديق القرآن لِـما تقدَّم من الكتب كان بالموافقة والمطابَقة لـمَا فيها، وبتحقيق ذلك عمليًّا، وحصوله في الواقع.

وفيها: أنَّ مَن كَفَرَ أولًا صار قُدوةً سيِّئةً لذريَّته ولغيره، فيبوءُ بإثمِه وإثمِهم.

وفيها: أنَّ مَن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود.

ومَـن قصد بتعلُّمِـهِ العلومَ الشرعيَّة أو تعليمهـا المالَ ومتاعَ الحياة الدُّنيـا؛ فإنَّه داخلٌ في الوَعيـد الذي أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «مَـنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا ممَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله عَزَّوَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا من الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا[١].

فمن جعلَ تعلُّمه للدين لنيل شـهادة يفتخر بها على الناس، أو جعل تعلُّم الدِّين وسـيلة لتحصيل الدُّنيا فقط؛ فهو على خطر عظيم.

أمَّـا إذا كان قصـدُه نفـعَ المسـلمينَ، وخدمةَ الدِّين مـن خلال ما يكون فيـه من المنصب الشرعيّ، وأنَّ ما يحصل له من المال إنَّما هو تبَعٌ وليس بأصل، وليتمكَّن به من التفرُّغ لتعليم الدِّين؛ فهذا مأجور على نيَّته، ولا يدخل في الوَعيد.

ومـن أُعطِـيَ مـن بيت المال مـا يقـوم بحاله وعيالـه، ليتفـرَّغ للتعليم، ولا ينشـغل عنه بالتكسُّب؛ فلا بأس عليه؛ لأنَّ قصده نشرُ العِلْم، وما يُعطاه وسيلة لتحقيق ذلك.

وعـلى هذا، فيجوز أخـذ الأُجْرة على تعليم القرآن، إذا لم يُفـرض للمُعلِّم شيء من بيت المـال، وكان التعليمُ يقطعُه عن التكسُّـب، وكان ممَّن يتعيَّن عليه ويجبُ هذا التعليم، فمِثْلُه يدخلُ في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»[٢].

ففَـرْقٌ بـينَ مَن يتعلَّم الشريعة ليأخذ عَرَضًا من الدُّنيـا، وبين مَن يأخذ لأجل أن يتمكَّن

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٥).

(٢) رواه البخاري (٥٧٣٧).

من التعلُّم والتعليم؛ فالأول جعَلَ الأَخْذَ من الدُّنيا هو الغايةَ وتَعَلُّمَ الدينِ وتعليمَه وسيلة، والثاني جَعَلَ خدمةَ الدِّينِ غايةً والأَخْذَ من الدُّنيا وسيلةً.

وفي الآيـة: وجوبُ بيان الحقِّ، وتحريمُ كِتمانِه، ويشتدُّ التحريمُ إذا أَخذَ على الحقِّ عَرَضًا من الدُّنيا.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

ولـمَّا نهاهم تعالى عن الكُفر المناقض للإيمان، وأن يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا، وهو يناقض الإخلاص؛ نهاهم عَزَّوَجَلَّ عن أمرين عظيمَين، كلُّ واحدٍ منهما جريمة عظيمة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿**وَلَا تَلْبِسُوٓا۟**﴾: ولا تخلطوا ﴿**ٱلْحَقَّ**﴾ المنزَّل من عند الله ﴿**بِٱلْبَٰطِلِ**﴾ المخترَع من عندكم، والصِّدقَ بالكذب، ولا تستعملوا أساليب التمويه والتضليل لتحسين الباطل وتقبيح الحقِّ، وأدُّوا النصيحة لعباد الله، ولا تشوبوا الصِّدق بالكذب.

وصحَّ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال في الآية: «لا تَلْبِسوا اليهوديَّة والنصرانيَّة بالإسلام؛ إنَّ دين الله الإسلام، وإنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة بِدعة ليست من الله»[(١)].

وفي هذا: ردٌّ على بعض الخُبثاء في عصرنا، الذين يُنادون باحترام جميع أصحاب الأديان، والمساواة بينها، وأنَّ الأديان الموجودة اليوم كلَّها صحيحة!.

وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله ﴿**وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ**﴾ أي: لا تتعمَّدوا إخفاءَه، والسكوتَ عن تبليغه؛ بل عليكم البيان. ومن الحقِّ: نبوَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصِفته التي يجدونها مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل.

﴿**وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾: لا تقوموا بالتلبيس والكِتمان، وأنتم عالمون بالحقِّ.

أي: لا تكتموا نبوَّةَ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنتم تعرفونه حقًّا، وتجدون وصفه مكتوبًا عندكم، وتعلمون أنَّه هُوَ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٨)، بسند صحيح.

فعليكم بالنصيحة وهي ضدُ التلبيس، وعليكم بالبيانِ وهو ضد الكِتمانِ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ بيان الحقِّ، وتمييزه عن الباطل، وتحريمُ كِتمان الحقِّ.

وفيها: وجوبُ القيام بإزالة الإشكالات والشُّبُهات التي تُشَوِّش على الناس؛ لأنَّ هذا من لوازم البيان، وأنَّ مَن تعَيَّنَ عليه أداءُ عِلْمٍ لحاجة الناس إليه، ولايستطيعه إلَّا هو؛ فإنه يجب عليه أداؤه.

وقد جاء الوَعيد على مخالفة هذا، فقال الرسول ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

وفيها: تحريم زخرفة الباطل بالقول لتحسينه، وتحريم إيراد الشُّبُهات على الحقِّ لتقبيحه.

وفيها: أنَّ من أساليب اليهود، خَلْطَ الحقِّ بالباطل؛ تلبيسًا على الناس، كما فعلوا في خَلْطِ صفة النبي ﷺ، بصفة المسيح الدَّجَّال.

ويؤخذ من الآية: النهي عن خَلطِ أيِّ نوع من الحقِّ بأيِّ نوع من الباطل، كخَلْطِ العَدْلِ بالجَور، والصِّدقِ بالكذب، والحُكم بالرِّشْوة، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز الامتناع عن قول الحقِّ وكِتمانه، خوفًا أو هَيبة من أحد، ولا طمعًا في دُنيا.

وفيها: بيان الأثر السيء لعلماء الضلالة على الناس.

وفيها: أهميَّة إعلان الحقِّ وبيانه وتوضيحه؛ لهداية الضالِّين، وإقامة الحُجَّة عليهم.

وفيها: تحريم ترويج الباطل في صورة الحقِّ؛ لينخدع الناس ويأخذوا به، كما يُقدِّم اليومَ كثيرٌ من المنافِقين والمفسِدين على أنَّهم من المُصلِحين المتنوِّرين، وكما تفعله وسائل الإعلام في إخفاءِ حقائقِ الحوادث، وتنفيرِ الناس عن الحقِّ وأهله، بنَعْتهم بالصِّفات القبيحة، وتزيين الباطل وأهله، بالثَّناء عليهم، وهذه طريقة اليهود المغضوب عليهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾:

ولـمَّا أمَرَ الله بالإيمان في قوله ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾، ونهى عمَّا يناقضه، وأمَرَ ببيان الحقِّ، ونهى عمَّا يناقضه؛ أمَرَ بلزوم الشرائع، وأداء العِبادات؛ فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وإقامتها: باعتقادِ فَرْضِيَّتها، وإقامتها بشروطها وأركانها وواجباتها، والاهتِمام بسُنَنها وآدابها. والصَّلاة تشمل: الفريضة والنافلة، فيكون الأمر بها للفريضة للوجوب، والنافلة للاستحباب.

والمقصود بأمر اليهود والنصارى بالصَّلاة، أي: صلاة المسلمين التي شَرَعها في هذا الدِّين، لا صلاة اليهود والنصارى.

﴿وَءَاتُواْ﴾ أعطوا ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم، وهي النصيب المُعَيَّن في أموال مخصوصة، وتُدفع لأهلها ومستحقِّيها الذين عَيَّنَهُم الله. وسُمِّيت (زكاة)؛ لأنَّها تُزكِّي النفس وتُطهرها.

ويدخل في الآية: زكاة الفطر أيضًا.

ولم يبيِّن هنا مقدار الواجب، ولا الأموال الزكويَّة، ولا أهل الزكاة الذين تُدفَع إليهم، ولكنها مبيَّنة في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: كونوا مع المؤمنين في أفضل أعمالهم -وهي الصَّلاة- وصَلُّوا مع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه.

وقد استدلَّ كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة.

وخصَّ الله سبحانه وتعالى (الرُّكوعَ) بالذِّكر لفَضْله، ولأنَّ اليهود لا ركوع في صلاتهم، ولكونه ثقيلًا على أهل الجاهليَّة.

ولا يُتعبَّد لله بالرُّكوع المجرَّد، وإنَّما سُمِّيت (الصَّلاة) ركوعًا؛ لأنَّ الركوع من أفضل أركانها، وهو علامة خضوع لله؛ ولذلك جاء الأمر به.

فأمرَ في هذه الآية بالصَّلاة تطهيرًا للنفوس، وبالزكاة تطهيرًا للنفوس والأموال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان يَتْبَعه القيام بالعِبادات.

وفيها: أَمْر اليهود بالدُّخول في الإسلام، والصَّلاة مع المسلمين، مع أنَّ الصَّلاة التي فُرِضت عليهم في شريعتهم فيها ركوع وسجود، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وهذا يدلّ على أنَّ الإسلام ناسخٌ لِما قبلَه من الشرائع.

وفي الآية: كمالُ الشريعة وحُسنُها؛ بمجيئها بما يُطهِّر النفوس والأموال.

وفيها: امتحان الله لعباده، بإخراج بعض أموالهم، وعلاج بُخْلِ النفوس.

وفيها: جواز التعبير عن الشيء بذِكْر بعض أجزائه، كما وَصَفَ الصَّلاة بـ (الركوع).

وفيها: فَضْل صلاة الجماعة.

فيها: أنَّ العبد يُضَاعَف أجره بمشاركته لإخوانه المصلِّين، مع أنَّ صورة العمل واحدة، وأنَّ اجتماع المؤمنين بعضهم إلى بعض في العِبادة يُضاعِف أَجْرَ كلِّ واحد منهم.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾:

ولـمَّا أَمَرَ تعالى أهل الكتاب بإقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة، والصَّلاة مع الجماعة؛ وبَّخهم على ما كان منهم من أمرِ الناس بالبرِّ مع تركهم له، ونهيِ الناس عن المعاصي مع وقوعهم فيها؛ فقال:

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾: وهذا الاستِفهامُ للإنكار والتقريع، والخِطاب لبني إسرائيل، وخصوصًا أحبارهم ورهبانهم؛ فقد كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وتقواه، و﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ وهو جميع خصال الخير.

وقوله ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾: تتركونها من الخير، ولا تحملونها عليه، ولا تمنعونها من المعاصي. أفيليق بكم أن تفعلوا ذلك، ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: حال كونكم تقرأون كتاب

الله، وهو التوراة التي كانت في أيدي أحبارهم ورهبانهم، الذين يأمرون وينهون، ويخالفون، مع أنَّ الواجب البدء بالنفس أولًا في إلزامها بالبرِّ ومنعها من الشرِّ.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢]، وقال نبي الله شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ من نارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الخُطَبَاءُ من أُمَّتِكَ، يَأْمُرونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟»(١).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ(٢) فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٣).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ العَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ ويَنْسَى نَفْسَهُ؛ كَمَثَلِ السِّرَاجِ، يُضِيءُ لِلنَّاسِ ويَحْرِقُ نَفْسَهُ»(٤).

وقال الشاعر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

ابدأ بنفسِكَ فانْهَها عن غيِّها ... فإذا انتهَتْ عنه فأنتَ حكيمُ

وقوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: الاستِفهام للتوبيخ؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تُدرِكون بها خطأكم وضلالكم؟!

والعقل عقلان: عقل الإدراك: وهو فَهْم الأشياء، ويترتَّب التكليف عليه.

---

(١) رواه ابن حبَّان (٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٢٧).

(٢) أي: تخرج أمعاء بطنه من مكانها.

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣١)، وأُعِلّ بالوقف.

وعقل الرُّشْد: وهو الذي يحمل صاحبه على ما ينفعه، ويحجزه عمَّا يضرُّه. وهو المقصود هنا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي على المسلِم أن يكون إمامًا بفِعْله قبل قوله.

ويؤخَذ من الآية: أهميَّة التربية بالقُدوة.

وفيها: خطورة مخالفة القول بالفعل.

وفيها: توبيخ علماء السوء.

وفيها: أنَّ المخالِف الذي يعلم الحُكم، أشدُّ في اللَّوم من الجاهل الذي لا يعلمه.

وفيها: أنَّ مراتب الناس في الأمر بالمعروف والعمل به متفاوتة:

فمنهم مَن يأمر بالمعروف ويعمل به، وينهى عن المُنكَر ويتركه، وهذا أشرف المنازل.

ومنهم مَن لا يأمر بالمعروف ولا يفعله، ولا ينهى عن المُنكَر ويقع فيه، وهذا أحطُّ المنازل.

وبينهما الذي يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المُنكَر ويأتيه، فهذا مؤاخَذٌ مذموم، ولكنَّه أقلُّ سوءًا ممَّن تحته؛ ولذلك يُقال له: مُر بالمعروف وجاهِد نفسك في فعله، وانهَ عن المُنكَر وجاهِد نفسك في تركه.

وفي الآية: أنَّ العقل يمنع صاحبه من إتيان القبيح، وهذا عقل الرُّشْد، وأنَّه إذا قويَ عَوّضَ بعضَ نَقْصِ العِلْم.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾:

قوله تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ أي: على أمور الدُّنيا والآخرة، وما يحدث لكم.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة على مرضاة الله، واعلموا أنَّهما من طاعة الله»[(١)].

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٥).

وهذا الخِطاب -وإن كان موجَّهًا لأحبار أهل الكتاب وبني إسرائيل-؛ فإنه عامٌّ لجميع الناس.

﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾: حَمْل النفس على الطاعة، وكفّها عن المعصية. والصوم من الصَّبر.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فرْضها ونفلها، و«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»[1].

ونُعِي إلى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قُثَم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق فأناخ راحلته وصلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[2].

وغُشيَ على عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غشية، حتى ظنُّوا أنَّه فاضت نفسُه فيها، فخرجت امرأته أمُّ كلثوم -وكانت من المهاجرات الأوائل- إلى المسجد، تستعين بما أُمرت بالاستعانة به من الصَّبر والصَّلاة[3].

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصَّلاة، وقيل: الاستعانة، أو الوصيَّة بما تقدَّم ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقَّة ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ المتواضعين لله، الخاضعين لطاعته، الخائفين منه، المستكينين لأمره، المصدِّقين بما أنزل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِظَم قَدْر الصَّلاة، وأنَّها عظيمة لكنَّها يسيرة على مَن يسَّره الله عليه.

وفيها: أنَّ الصَّلاة شاقَّة صعبة الاحتمال، إلَّا على المُخبِتين لله، الخائفين من عقابه، فإنَّها سهلةٌ عليهم، وقال النبي ﷺ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[4].

وفي الآية: أنَّ مَن كان لله أخشع، فهو له أطوع.

وفيها: الاستعانة بالعِبادات على شُؤون الحياة، وأنَّ ذلك لا يُنافي قصدَ وجه الله بهذه العِبادات، ورجاءَ ثواب الآخرة مع خير الدُّنيا.

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) شعب الإيمان (٩٢٣٣).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٨).

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

وفيها: أنَّ الصَّبر والصَّلاة يُسَلِّيان عند المصائب، ويخفِّفان الأحزان.

وفيها: أنَّ التصديق بوعد الله وخشيته والخوف منه، يخفِّف ثِقل العِبادة على النفس.

وفيها: أثر الخشوع في حصول لذَّة العِبادة، والاستمتاع بها.

وفيها: فضيلة الصَّبر، وهذا يشمل: الصَّبر على طاعة الله، والصَّبر عن معصية الله، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة.

وفسَّر مجاهد وغيره الصَّبر في الآية بالصوم[(١)]، فالصوم يزهِّد في الدُّنيا، والصَّلاة تُرغِّب في الآخرة.

وفيها: أنَّ الصَّلاة لا تكمل إلَّا بالصبر.

وفيها: أنَّه ينبغي تحصيل الخشوع؛ لتحقيق ما أمر الله به.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾:

ثم بيَّن تعالى مَن هُم الخاشعون، الذين يَسهلُ عليهم الصَّبر والصَّلاة؛ فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يُوقنون، ويَعلمون، ويَعتقدون اعتقادًا جازمًا. و(الظَّن) يأتي بمعنى اليقين، ويأتي حاملًا لمعنى الشَّكّ، والمرادُ به هنا الأول.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ بعد الموت، ويوم البَعْث، وسيرونه، وسيُحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم؛ ولذلك سَهُلت عليهم الصَّلاة، وتنفيذ الوصية.

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾: صائرون ومنقلِبون إلى الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اعتقاد ملاقاة الله، يجعل المسلِم يُحسِن العمل الذي يَلقى الله عليه، ولا يسيء فيه؛ فيرضى الله عنه.

وفيها: أثر الاعتقاد بالرُّجوع إلى الله في جميع الأمور، وهذا يستلزم الخوف منه، والحياء، ومراقبته، بحيث لا يفقدُك حيث أمَرَك، ولا يجدُك حيث نهاك.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥١).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾:

ثم أعاد تعالى تذكير بني إسرائيل بنِعمته عليهم؛ فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الخِطاب لليهود: ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنتكم وقُلُوبكم، قولًا وعملًا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وتشمل: جميع النِّعم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، مثل: أن جَعَلَ فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكًا، وأنزَل عليهم كتبًا عظيمة، ونجَّاهم من عدوِّهم، وأطعمهم المنَّ والسَّلوى، وظلَّل عليهم الغمام، وفَجَّر لهم الماء من الحَجَر، وغير ذلك.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ (الفَضْل): الزيادة في الخير، والمقصود: فَضَّلتُ آباءكم، أي: في ذلك الوقت -زمن آبائهم- حيث كانت أمَّتُهم أفضلَ الأُمَم في العالم، وأمَّا بعد بعْثة النبي ﷺ، فقد صارت هذه الأُمَّة أفضل من بني إسرائيل، ومن غيرهم ممَّن سبق، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

وقال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ -وفي رواية: تُتِمُّون- سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله»(١).

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (العالمون): جَمْع عالَم، والمقصود: عالَم ذلك الزمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يجب على بني إسرائيل شُكر نِعمة الله عليهم، ومِن ذلك: أن يَتَّبِعُوا نبيَّنا محمَّدًا ﷺ.

وفيها: أنَّ تفضيل بني إسرائيل هو تفضيلٌ في زمن مخصوص؛ لِـمَا كان عليه كثير منهم وقتَ ذاك من العِلْم والإيمان والعمل الصالح.

ولـمَّا عصَوا وخانوا واحتالوا على شَرْع الله، وقتلوا الأنبياء، ونقَضوا العهد، ضرب الله عليهم الذِّلَّة، ولعنهم، وباءوا بغضب على غضب، وفضَّل غيرَهم عليهم، ونَقَل الرئاسة الدِّينية منهم إلى غيرهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وفيها: أنَّ النَّاسَ يتفاضلون، وأنَّهم درجات، وأنَّ كلَّ سبَب مشروع من أسباب التفضيل هو نِعمة من الله.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

لـمَّا ذكَّرَ تعالى بني إسرائيلَ بنِعمه عليهم؛ حذَّرهم من يوم القيامة، فقال:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: اتخذوا وقايةً من عذابِ ذلك اليوم، بطاعةِ ربِّكُم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾: لا تُغني، ولا تَدفعُ عنها شيئًا من عذابِ الله، ولا تَقضي عنها حقًّا من حقوقها، وتزولُ الأسبابُ وتنقطعُ العَلاقاتُ، ويأتي كلَّ واحدٍ ما يُشغِلُهُ عن ولدِه ووالدِه والنَّاسِ أجمعين.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ (الشفاعة): طلب الخيرِ للغيرِ، فلا يُقبَل يومَ القيامة من نفسٍ -ولو كانت مؤمنةً- شفاعةٌ، عن نفسٍ إذا كانت كافرةً.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾: لا يُقبلُ منها فداءٌ من عذابِ الله.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (النصر): الإعانة لِدفعِ الضرر. والمعنى هنا: لا أحد يُنقِذهم من عذاب الله، ولا يَدفعه عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

شِدَّة يوم القيامة، الذي تبطُل فيه منفعةُ الأنساب، وتتقطع فيه الأسباب -بمنع العذاب أو تخفيفه- وهي ثلاثة: الشفاعة، أو الفِدْية، أو النصر، وكلُّها ممنوعة في ذلك اليوم.

وفيها: بيان الفرق بينَ الدُّنيا والآخرة في أداء الحقوق؛ ففي الدُّنيا تجوز مجازاة الواحد عن صاحبه، أما يومَ القيامة فلا.

وفيها: نفي الشفاعة للكفَّار. أمَّا الشفاعة المقبولة فقد دلَّت الأدِلَّة على حصولها يوم القيامة بإذن ربِّ السماوات والأرض، لمن شاء سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

وفيها: تذكير الأحفاد بأنَّهم إذا كفَروا فلا ينفعهم صلاح الأجداد.

وفيها: بُطلان قياس أمور الآخرة على أمور الدُّنيا؛ فإن الدُّنيا يحصل فيها شفاعات وتَناصُر وفِدْية، بخلاف الآخرة، والدُّنيا يمكن فيها فِكاكُ الأسيرِ ومُستَحِقِّ القَتْل في القِصاص بالأموال -من دِيَة وفِدْية- بخلاف الآخرة.

وفيها: بُطلان المحاباة يوم القيامة، وأنَّ الحُكم يصير إلى الجبَّار العَدْل، الذي لا ينفع لديه الشُّفَعاء والنُّصَراء.

وفيها: قَطْع الطريق على النفوس المراوِغة، التي تُؤمِّل إذا أساءت في الدُّنيا وفرَّطت، بأنَّها ستنجو في الآخرة، بمِثْل ما تستعمله في الدُّنيا من أسباب النجاة والفكاك.

وفي هذا: تحذيرٌ بليغ للعُصاة والمفرِّطين، وبيان أنَّه لن ينجو في الآخرة إلَّا مَن عمل صالحًا.

وفيها: عدم السكون إلى المخلوقين من نُصَراء وشُفَعاء؛ لأنَّهم لا ينفعون يوم الدِّين، والتوكُّل لا يكون إلَّا على القويّ المتين، وحدَه لا شريك له.

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾:

ولـمَّا ذكَرَ تعالى ما أنعم به على بني إسرائيلَ في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ شَرَعَ بعدها في تفصيل ذلك؛ فقال:

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: أنقذناكم، وخلَّصناكم، والمقصود: نجَّينا آباءكم، وإنجاءُ الآباء نِعمةٌ على الأبناء؛ لأنَّ ذلك سببُ وجودِهم.

﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾: يُذيقونكم، ويُورِدُونكم، ويُكلِّفونكم، ويُولُونكم ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾: أشدَّه وأسوأه. وقيل: ما ساءَهم من العذاب.

فإن قال قائل: وما ذلك العذاب -الذي كانوا يَسُومونهم- الذي كان يسوؤهم؟

قيل: هو ما وصفه الله تعالى هنا وفسَّره بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ يُبالِغُون، ويُكثِرون من قَتْلِ

﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ أي: الذكور من الأولاد. ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾: يتركونهنّ على قيد الحياة للخِدمة، ولِيَلِدْن الخدَم في المستقبَل.

وكان هذا التعذيبُ قَبْلَ بعْثة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وبعده، كما قال تعالى على لسان قوم موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لكنَّه بعد بعْثته عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أشدُّ؛ لقوله تعالى حكايةً عن فرعون وهامان وقارون: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ [غافر: ٢٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾: ابتلاءٌ بالمكروه بهذا العذاب، أو ابتلاءٌ بالخير في الإنجاء الذي حَصَلَ بعده، وفي تخليصِكم ممَّا كنتم فيه نِعمةٌ عظيمةٌ عليكم من ربِّكم.

و(البلاء): الاختبار والامتحان، وتارةً يكون بما يَسُرُّ؛ ليشكُرَ العبدُ ربَّه، وتارةً بما يضُرُّ؛ ليصبرَ، وتارةً بهما معًا؛ لِيَرغَبَ ويَرْهَبَ.

وقد كان في تعذيب قوم فرعون لبني إسرائيل ابتلاءٌ بالمكروه، وفي إنجائِهم وتخليصِهم بلاءٌ بالخير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الابتلاء بتسليط الأعداء، وأنَّ الإنجاء منهم نِعمةٌ عظيمةٌ.

وفيها: مَكْرُ قومِ فرعون؛ فإنَّهم أرادوا تحديد نَسْل بني إسرائيل، وتقليل عدَدِهم.

وفيها: أنَّ بقاءَ البنات في حال الامتهان، عذابٌ عظيمٌ على الآباء.

وفيها: أنَّ مِن شأن الطُّغاة إذلالَ الناسِ، وتسخيرَهم للخِدمة.

وفيها: قُدرة الله على تخليص الضُّعفاء والمظلومين، من الأقوياء الظالمين.

وفيها: أنَّ الرَّبَّ تبارك وتعالى له مُطلَقُ التَّصرُّفِ في خَلْقه بالخير والشرِّ؛ فلا اعتراضَ على حُكمِه وقَدَرِه.

وفيها: نسبةُ النِّعَم إلى مصدرها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٠﴾:

ولـمَّا ذكَّر أحفادَ الناجين بنِعمته على وجه العُموم؛ فصَّل بعد ذلك؛ فذكَّرهم بكيفيَّة إنجائهم؛ فقال:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾: شققنا، وفلقنا ﴿بِكُمُ﴾ لكم و بسببكم ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ ليتيسرَ لكم سلوكُ الطريقِ فيه؛ ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ من فرعون وجنوده، وأخرجناكم إلى السَّاحل، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ في البحر ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وَقعَ هذا، وأنتم تُشاهِدونَ وتُبْصِرُونَ آيةَ الله البالغة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عظيمُ فَضْلِ الله على بني إسرائيل، وأنَّه أقرَّ أعينهم بإهلاك عدُوِّهم، وقد كانت النِّعمةُ على بني إسرائيل مضاعَفةً.

وكذلك، فإنَّ رؤية عدُوِّهم يَهْلَكُ فيه شفاءُ صدورهم، وذهابُ غيظِ قُلُوبهم.

وكان ذلك يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عبَّاس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدِمَ المَدِينَةَ، فَوَجَدَ اليَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟». فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا؛ فَنَحْنُ نَصُومُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»؛ فَصَامَهُ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[١].

وفيها: قُدرة الله العظيمة؛ حيث جَعَلَ البحرَ ينفلق إلى فِرْقَين، كلٌّ منهما كالجبل العظيم.

وفيها: بيانُ قُدرة الله تعالى على تغيير أحوال الطبيعة، وما اعتاده الناسُ؛ فقد سَلَبَ الماء خاصِّيَّةَ السيلان، فتَجمَّدَ على جانبي الطريق الذي سلكه موسى وبني إسرائيل؛ ليعودَ بعد ذلك وينطبق على فرعون وقومه، فالذي خلقَه أثبته ثم ردَّه.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) واللفظ له.

وفيها: بيانُ كيف سَخِرَ اللهُ من فرعونَ؛ حيث أَهْلَكَه بما كان يفتخر به، وهو الماء، كما قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وفي الآية: ردٌّ على الذين بَهرتْهم صنائعُ أعداءِ الله اليومَ، حتى ظنُّوا أنَّهم لا يمكن الانتصارُ عليهم؛ فهذه الآية في إهلاك قوم فرعونَ دالَّةٌ على قُدرة الله في إهلاك الكفَّار، مهما كانت قوَّتهم.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾:

ولـمَّا أَغْرَقَ اللهُ فرعونَ وقومَه، ونجَّى بني إسرائيل؛ قادَهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتهيَّأوا لقَبول أوامرِ الله، في الموعد الذي أخبر الله عنه، بقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ أي: واذكروا يابني إسرائيل قِصَّةَ وعدِنا ﴿مُوسَىٰٓ﴾؛ حيث صَدَرَ الوَعْدُ له من الله؛ ليوحي إليه بالأوامر إلى بني إسرائيل.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يكون في نهايتها الموعد، وكانت ثلاثين، ثم أتمَّها الله بعشرٍ، تَفرَّغ فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للعبادة والتهيُّؤ لتلقِّي وحي الله والتوراة التي سَينزِّلها عليه.

وقد جاء بيانُ المواعدة في سُورَة «طه»؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]، وكان مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سبعون رجلًا منتخبًا لحضور هذا الموعد.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: جعلتم تمثالَ الذَّهب الذي صنعه السامريُّ إلهًا تعبدونه، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: من بعد ذهابِ موسى لميقات الله. ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في حال كونكم ظالمينَ لأنفسكم، بوضع العِبادة في غير موضعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التهيُّؤ لتلقِّي كلام الله، وما يأمر به من التكاليف.

وفيها: ضَرْبُ الموعِد لتلقِّي العِلْم.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا معذورين أبدًا في الشِّرك الذي وقعوا فيه، وأنَّ من سوءِ بني إسرائيل: انتهازَ فرصة غياب نبيِّهم؛ ليكفروا ويُفسِدوا في الأرض وينحرِفوا.

وفيها: أنَّ غيابَ العالِـم عن الناس من أسباب ظهور الشِّرك والبِدعة فيهم.

وفيها: افتتانُ بني إسرائيل بتماثيلِ الذَّهب.

وفيها: فِتنةُ الصُّوَرِ لذوات الأرواح؛ ولذلك حرَّمَ الشَّرْعُ اتِّخاذَها.

وفيها: أنَّ عبادة غير الله ظلمٌ عظيمٌ.

وفيها: اشتمالُ المواعدة بينَ موسى وربِّه على الوَعْد من الله، بإيتاء موسى التوراة وتكليمه، ووَعْد موسى لربِّه بتلقِّيها وقَبولِها والعملِ بها.

وفيها: التأريخ بالليالي؛ لأنَّها تسبقُ الأيَّامَ، فتأتي ليلةُ اليوم قبلَه، ويبدأ الشهرُ باللَّيلة.

وفيها: أنَّ مواصلة العِبادة تُهيِّئ النَّفسَ لتلقِّي العِلْم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾:

وبالرغم من قُبْح جريمة بني إسرائيل؛ فإنَّ الحليمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُعاجِلْهم بالإهلاك؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: تجاوزنا عن عقوبتِكم، وقَبِلْنا توبتكم، ومحونا عنكم جريمتكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الشِّرك الذي حَصَلَ منكم، باتِّخاذكم العجل إلهًا، وبقَتْل أنفسكم بعدها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تقومون بواجبِ شُكر النِّعمة، إيمانًا بالقَلْب، وتحدُّثًا واعترافًا باللِّسان، وقيامًا بالطاعة بالجوارح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظهورُ أثر اسمٍ من أسماء الله، وهو العَفُوُّ.

وفيها: سَعَة حِلْمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ العفوَ مُوجِبٌ للشُّكر، وكما أنَّ حدوثَ النِّعمةِ يستوجبُ الشُّكرَ، فكذلك زوال النِّقم.

وفيها: أنَّ الله يغفر الشِّرك لمن تاب منه.

وفي مجيء اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المستعمَلُ للبعيد: تنبيهٌ على الابتعادِ عن الشِّركِ.

وفيها: أنَّ العفو تأخَّر عن بني إسرائيل حتى قتلوا أنفُسَهم.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

ثم أَمَرَ تعالى بني إسرائيل أن يَذْكروا من نِعَمه عليهم أيضًا: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ أعطينا وأنزَلنا عليه، وأوحينا إليه ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: الفارقَ بينَ الحقِّ والباطل، والحلال والحرام.

والفرقانُ: الكتاب الذي فرّق اللهُ به بينَ الحقِّ والباطل، وهو نَعْتٌ للتوراة وصفة لها. فيكون تأويل الآية حينئذٍ: وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح، وفرَّقنا بها بينَ الحقِّ والباطل.

أو المراد هنا: الحُجَجُ والمعجِزاتُ التي أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، من العصا واليدِ وغيرهما.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لتهتدوا بما أَنزَلَ الله، من الضلالة إلى الحقِّ والهدى، وهذه هدايةُ العِلم والتوفيق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحِكْمةُ الإلهيَّةُ العظيمةُ في إيتاءِ بني إسرائيل التوراةَ، بعد النجاةِ من فرعونَ وقومِه؛ ليُقيموا مجتمعهم على الشريعة الإلهيَّة، وتكونَ لهم رسالةٌ يَحْيَونَ بها ويعملون بها.

وفيها: أنَّ الوحيَ بالكتب المُنَزَّلةِ نِعمةٌ عظيمةٌ من الله.

وفيها: فَضْلُ التوراة التي أنزَلها الله، هدىً ونورًا وفرقانًا.

وفيها: أنَّ إنزَالَ الكتب الإلهيَّة هو من أَجَلِّ هدايات البشريَّة، فلا تُطلَبُ الهدايةُ من الأساطير ومناهج البشر الوضعيَّة، وغيرها من الأباطيل.

وفيها: أنَّ إيتاءَ الشَّرْع -كقوله ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾- أفضلُ من إيتاء الدُّنيا، كقوله عن قارون ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ [القَصَص: ٧٦].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾:

ثم عاد السياقُ لتفصيلِ ماحصلَ بينَ الذنب والتوبة؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل قولَ موسى لقومه؛ تودُّدًا، أو تحبُّبًا ونُصحًا: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا أصحابي، ﴿إِنَّكُمْ﴾ للتأكيد ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾: أنقصتم حقَّها، بإيقاعها في الشِّرك ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ -وهو ولدُ البقر- إلهًا يُعبَد من دون الله.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: ارجعوا من معصية الله إلى طاعته، ومِن الشِّرك به إلى توحيده. و(البارئ): الخالِق، الذي خلق جميع الموجوداتِ، وبرَأها، وأنشأها من العدَم إلى الوجود.

وفي هذا تنبيهٌ على عِظَم جُرمهم؛ أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتُم معه غيرَه.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: هذا تفسيرٌ لطريقة التوبة، فسلِّموا بذلك، وارضَوا به، واصبِروا عليه، فليقتُل بعضُكم بعضًا، ولتأخذوا أسلحتكم، فيقتُل كلُّ واحدٍ مَن يَلقاه -من قريبٍ وغيرِه-.

وقيل: البريءُ الذي لم يَعبد العِجل، يقتُل المجرِم الذي عبدَه.

وقد قيل: إنَّ الله ألقى عليهم ظُلمة ليحصلَ القَتْلُ فيها، وقيل: إنَّهم أُمِروا أن يَقتُلَ بعضهم بعضًا عِيانًا، وهذا أبلغ في صِدْق التوبة(١).

وقوله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبةُ التي أُمِرْتُم بها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تَرْكِ التوبة، وتَرْكِ القَتْلِ ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لِما في تنفيذِ أمره من الثواب والتطهير، ولِما في الامتناع من العذاب والعقاب.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبِلَ توبتكم، وعفا عنكم؛ لـمَّا فعلتم ما أمركم به.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة، يُوَفِّق إليها المذنِبين، ويَتفضَّل بقَبولها منهم.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: واسعُ الرحمة، حيث تَقَبَّل المقتولين شُهَداء، وكفَّر عن القاتِلين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمالُ الدَّاعية لأسلوب التودُّدِ والتلطُّفِ، الذي يَستميلُ به نفوسَ الناس إليه؛ ليسمعوا كلامه.

وفيها: أنَّ عبادة الأصنام ظُلمٌ عظيمٌ للنفس.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٢).

وفيها: وجوب التوبة مباشرة بعد الذنب.

وفيها: أنَّ الأُمَّةَ كالنفس الواحدة، وكان مَن قتلَ من بني إسرائيل غيره في التوبة كأنَّما قتلَ نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ الله يتوب على التائبين مهما عَظُمَ الذنبُ.

وفيها: أنَّ الذي أنشأهم من العدم يَحِقُّ له تشريعُ قَتْلِهم.

وفي ذِكْرِ اسم (البارئ) في الآية مرَّتين: تحذيرٌ لهم من كُفران نِعَمه، وعبادة غيرِه، وقد خلقَهم وأحسن صُوَرَهم.

وفيها: تذكيرُ المذنِب بما يُشْعِره بإساءته؛ فإنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكَّرهم بأنَّ الله بَرَأهم، فاعتنى بخَلْقِهم وجعلَهم في أحسن تقويم، ورزقهم العقول والحواسّ.

وفي الآية: تذكيرٌ لهذه الأُمَّة بوضع الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلا تَستلزمُ التوبةُ من الشِّرك في هذه الأمة قَتْلَ النفس؛ وإنَّما يكفي: صدقة التوبة والإنابة.

وفيها: أنَّ من علامات صِدقِ التوبة القيامَ بما تقتضيه، مهما كان شاقًّا على النفس.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى محاورةَ موسى لقومه، ودعوتَهم للتوبة من عبادة العِجل؛ أعقبَ ذلك بذِكْرِ محاورتِهم له؛ كِبْرًا وعنادًا، وطلبِهم ما لا يحقُّ لهم، ولا يمكن حصوله في الدُّنيا؛ فقال:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي: واذكروا نِعمتي عليكم أيضًا، لـمَّا ذهب السبعون مع نبيِّهم موسى إلى الطور، للاعتذار إلى الله عن عبادة العِجْل.

والقول الآخر: أنَّ الذين طلبوا ما لا يحقُّ لهم وعاندوا هم قوم موسى، لـمَّا رجع إليهم بالتوراة من عند الله؛ فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نُصدِّقك بأنَّ هذا كتابُ الله، ولن نُقِرّ بما تأمرنا به، ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ علانية عِيانًا، لا ساتر بيننا وبينه!

﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: صوتٌ عظيمٌ، وصيحةٌ من السماء. وقيل: نار، فماتوا جميعًا. ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾: ينظر بعضكم إلى بعض، تتساقطون أمواتًا. وكان ذلك عُقوبة لهم.

ثم بيَّن تعالى مِنَّته على بني إسرائيل - وهذا هو الإنعام السادس -؛ فقال:

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾: أحيَيْناكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ موتًا حقيقيًّا بالصاعقة، فجعل بعضهم ينظرُ إلى بعض، وهو يحيا، وعاشوا بعد ذلك؛ ليستَوفوا بقيَّة آجالهم وأرزاقهم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ربَّكم على نِعمة إحيائِه لكم بعد موتكم، فتؤمِنوا بما أُنزِلَ عليكم، وتشكروا نِعمةَ كتابه الذي أنزَله.

وفي الآيتين من الفوائد:

عُقوبةُ الله لهؤلاء المتمرِّدين من بني إسرائيل، بالصاعقة المُميتة، ثم بعثُهم ليرتَدِعوا، وليكونَ ذلك كفَّارة لهم.

وفيها: أنَّ مَن سأل ما لا يمكن، فهو حريٌّ بالعُقوبة.

وفَرْقٌ بينَ سؤال هؤلاء العُصاة وبين سؤال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾؛ لأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك شوقًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ وليتلذَّذ برؤية ربِّه، وليزدادَ إيمانًا. أمَّا هؤلاء: فقد جعلوا الرؤية شرطًا للإيمان، والفرق كبير بينَ الحالَين.

وفيها: أنَّ وَقْعَ العُقوبة على النفس أشدُّ إذا كانت تنظر إليها، كما أنَّ وقع النِّعمة على النفس أكثر تأثيرًا إذا حصلت وصاحبها ينظر.

وفيها: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى، وهو مثالٌ لتوحيد الرُّبوبيَّة.

وهذا الإحياء أحد الأمثلة الخمسة المضروبة في سُورَة «البقرة»، وهي: إحياء القتيل ببعض البقرة، وقِصَّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموتِ فأماتهم الله، ثم أحياهم، وقِصَّة الذي مرَّ على قرية، وقِصَّة إحياء الطير لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا الإحياء لبني إسرائيل.

وفي قولهم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾: أنَّ تَرْكَ النِّعمة لأجل طلب الزيادة كُفرانٌ بها.

وفيها: أنَّ الله لا يُرى في الدُّنيا، ولذا أخذتهم الصاعقة لـمَّا سألوا ذلك عُقوبةً لهم.

وفيها: مكانة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ربِّه، لـمَّا أحيا قومه له.

ويؤخَذ من هذه المواقف لبني إسرائيل وما شابهها: فَضْل صحابة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحاب موسى؛ فإنَّ أصحابَ نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسألوا ويتعنَّتوا ويُعانِدوا كهؤلاء، ولم يشترطوا للإيمان مِثل ما اشترط قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما دفع عن بني إسرائيل من العذاب، ذكرَ الإنعامَ السابعَ عليهم في هذه السُّورَة؛ فقال تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: جعلناه ظلًّا عليكم من الشمس، يقيكم حرَّها. و(الغَمام): هو السَّحاب الرقيق الذي يُبرِّد الجو.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: جعلناه رزقًا نازلًا على محلَّتكم وأشجاركم ﴿ٱلْمَنَّ﴾: طعامٌ حُلوٌ لذيذٌ، يسقط عليهم في كلِّ يوم ما يكفيهم. وقال بعضهم: إنه شرابٌ.

وقيل: كلُّ ما امتنَّ الله عليهم به، من طعام وشراب وغير ذلك، ممَّا ليس لهم فيه عملٌ ولا تعبٌ؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَمْأةُ من المنِّ»[(١)]؛ لأنهَّا تحصُل في الأرض بغير زرع ولا ماءٍ ولا تعاهُدٍ.

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: طائرٌ لذيذُ اللحم، يأتيهم سهلًا فيذبحونه، ويأخذون منه حاجتهم.

فَحَصَلَ لهم الظِّلُ والشراب، وكان ذلك في وقت التِّيه -ظلُّوا أربعين سنة يتيهون في الأرض- فرَحِمَهم ربُّهم، ورزقهم هذه النِّعَم.

﴿كُلُوا۟﴾ الأمر للإباحة والامتنان ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ﴾ (الطيِّب): ما لا تعافه النفس طبعًا، وليس بمحظور شرعًا. ﴿مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ أعطيناكم، وأنعمنا عليكم.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

ولم يكونوا في حاجة للادِّخار، فلمَّا ادَّخروا اللَّحم صار ينتِن ويفسُد، ولذلك قال النبي ﷺ: «لَوْلاَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ»(١)، أي: ينتِن.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: ما نقصونا شيئًا بمعصيتهم؛ لأنَّ الله لا تضرُّه معصيةُ العاصين، كما أنَّه لا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(٢).

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: يضرُّونها، بتعريضها لعذاب الله في الآخرة، وفي الدُّنيا بقطع الرِّزق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الظِّلَّ البارد، والطعام المفيد، والشراب الهنيء، من أعظم نِعَم الله.

وفيها: أنَّ لحم الطيور من أفضل اللَّحم؛ ولذلك كان لحم أهل الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

وفي الأمر ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾: أنَّ مَن تعفَّف عن الشيء المباح الطيب، ومَن امتنع من أكل الطيِّبات من غير سبب -كمرض-؛ فهو مذمومٌ.

ويُفهَم من الآية: تحريم أكل الخبيث؛ لأنَّ الأمر بالشيء ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ نهيٌ عن ضده -وهو تناول الخبائث- سواء كانت خبيثة في ذاتها -كالمَيتة والخنزير- أو خبيثة في كسبها -كمال الرِّبَا والمأخوذ بالغش-.

وفيها: كمال ذات الله، واستغناؤه عن مخلوقاته.

وفيها: كثرة ظُلْم بني إسرائيل لأنفُسهم؛ لقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وهذا بخلاف أصحاب محمَّد ﷺ الذين صبروا وثبتوا، ولم يتعنَّتوا بسؤال نبيِّهم ﷺ المعجزاتِ وصرفَ العادات.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (١٤٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أنَّ مُقابَلة النِّعَم بالمعاصي ظُلمٌ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بالوحي الذي أوحيناه إلى النبيِّ الذي كان يقودهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: بيتَ المقدِس، وهي التي كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أمرَهم بدخولها، بقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ الأمر للإباحة، أي: أبحنا لكم الأكل منها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: في أيِّ مكان كنتم من البلد، تأكلون ما تشاءون ﴿رَغَدًا﴾: هنيئًا مُطمئنين.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب البلد، وكانت المدن لها أسوار وأبواب لحمايتها. ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوها راكعين، أو: اسجدوا إذا دخلتموها سجودَ الشُّكر. أو: صلُّوا لله بعد دخولها، شُكرًا على نِعمة الفتح، والأول أصحّ.

فأُمِروا أن يتواضعوا بالفعل، كما أُمِروا بالخضوع لله بالقول أيضًا.

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنا ذُنوبَنا، واغفِر لنا خطايانا. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم به من الخضوع والتواضع، وطلب المغفرة، والشُّكر على النصر؛ فإنَّنا سنستُر ذُنوبكم، ونتجاوز عنها، ولا نعاقبكم عليها.

﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾: جمع «خَطِيئة»، وهي: ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عمدًا، فيكون خاطئًا، بخلاف ما يرتكبه خطأً دون عمدٍ، فيُسَمَّى مخطئًا.

﴿وَسَنَزِيدُ﴾ على المغفرة أجرًا وثوابا، ونِعَمًا أخرى، هؤلاء ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الذين يُحْسِنون عبادة ربِّهم، ويُحسِنون إلى خَلْقه في المعاملة وبَذْلِ المعروف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله شكورٌ، يزيد عباده المحسِنين.

وفيها: وجوب شُكر النِّعَم بالقول والفعل.

وفيها: خضوع الفاتحين لله تعالى، وشُكره على نِعمة الفتح؛ ولذلك جاء أنَّ النبي ﷺ دخل مكة يومَ الفتح خاضعًا لربِّه، مطأطئًا رأسه، متواضعًا لله، حتى كادَت رأسُه أن تمسَّ رَحْلَه[١].

وفيها: الصَّلاة لله شُكرًا -أو سجود الشُّكر- عند فتح البلاد، والانتصار على الأعداء.

وفيها: أنَّ الجهاد مع التواضُع لله سببٌ للمغفرة.

وفيها: أنَّ الإحسانَ سببٌ للزِّيادة من الخيرات والنِّعَم.

وفيها: أنَّه يجب على المجاهدين في سبيل الله إذا انتصروا ألَّا يغترُّوا بأنفُسِهم، ولا يُعجَبوا بأعمالهم.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٥٩﴾:

ثم ذكر تعالى عن عنادِ بني إسرائيلَ ومعصيتهم، أنهم لـمَّا أُمِروا بالخضوع، بالقول والفعل عند دخول الأرض المقدَّسة، أَبوا ذلك:

﴿فَبَدَّلَ﴾: خالف وحرَّف وغيَّر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بمعصية الله ﴿قَوْلًا﴾ آخر قبيحًا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقد بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «قيلَ لبَنِي إسْرائيلَ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، فبَدَّلُوا، فدَخَلُوا يَزْحفُونَ على أسْتاهِهِمْ، وقالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَة»[٢]، وفي رواية: «بَدَّلُوا فقَالُوا: حِنْطَةٌ في شَعَرَةٍ»[٣].

فبدلًا من أن يقولوا: «احطُط عنَّا ذُنوبنا»، استهزءوا، وبدّلوا ما أمرهم الله به.

ولـمَّا حصلت منهم هذه المخالفةُ والمعاندةُ في القول والفعل -استخفافًا بأمر الله تعالى-؛

---

(١) انظر: المستدرك (٧٨٨٨)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٠٥)، زاد المعاد (٣/ ٤٧٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٣) رواه أحمد (٨١١٠)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

أنـزَل الله بهم بأسَـه؛ فقال: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ أي: بعـد التبديلِ والتحريـفِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفُسَهم، بفِسْقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿رِجْزًا﴾: عذابًا وغضبًا وبلاءً، ومنه الطاعون، كـما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ، أُرْسِـلَ عَـلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ -أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ-»[1].

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من فوقهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾: بسـبَبِ فِسْقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى. فهلكَ منهم العددُ العظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ظُلمَ بني إسرائيل كان كبيرًا؛ فقد وصفهم بالظُّلْم مرتين، وبالفِسْـق أيضًا؛ دلالةً على أنَّ مافعلوه هو من الكبائر، ولم يكتفوا بالتبديلِ والتحريفِ في ذلك الموقف؛ بل أضافوا إليه أيضًا فِسْقًا من قبلُ ومن بعدُ.

وفيها: قُبْح تحريفِ كلام الله، سواء كان بتحريف اللَّفظ، أو بتحريف المعنى.

وفيها: أنَّ تبديل كلام الله ظُلمٌ عظيمٌ.

وفيها: موعظة الذين يتلاعبون بكلام الله، وأنَّهم يستحقُّون عذابًا من السماء.

وفيها: عَدْل الله تعالى ورحمته؛ لأنَّ العذاب كان مخصوصًا بالذين ظلموا.

وفيها: خطورة الاستهزاء والاستخفاف بكلام الله، وأنَّ ذلك ظُلمٌ وفِسْقٌ عظيمٌ.

والفِسْـق نوعان: فِسْـق أكبر، يخرِج من الدِّين، ويوجِب الخلود في النَّار. وفِسْـق أصغر، وهو ما دون ذلك من أنواع المعاصي.

وفيهـا: أنَّ تبديل بني إسرائيل كان كليًّا غـيَّر المعنى تمامًا، وليس جزئيًّا؛ ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

ويؤخَذ من ذلك: أهميَّة الإتيان بالألفاظ كما هي، في العِبادات -من الأذكار والصلوات وغيرها-.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) واللفظ له.

وفيها: إثبات حِكْمة الله في العذاب؛ كما في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

وفيها: إثبات الأسباب، وتأثير السَّبَب في النتيجة، كما في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

ثم ذكَّرهم الله سبحانه بنِعمته عليهم في إجابة طلبِ السُّقيا؛ فقال:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ طلب السُّقيا ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾. والمعنى: واذكروا نِعمتي عليكم في إجابتي لنبيِّكم موسى، حين استسقاني لكم.

وذلك أنَّهم عَطِشوا في التِّيه، فسألوا موسى أن يستسقيَ لهم، ففعل، وأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك الحَجَر، كما قال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾: إمَّا حَجَر مخصوص معلوم عنده، وإمَّا اسم جنس، يشمل أيّ حجر كان.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، لكلِّ سِبطٍ منهم عَين، وكانت قبائل بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾: كلُّ سِبطٍ من بني إسرائيل الاثني عشر ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: مكان شربهم؛ لئلَّا يضايقَ بعضهم بعضًا.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الأمرُ للإباحة ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ وفَضْله وعطائه، يأتيكم من غير كدٍّ منكم ولا تعب.

ولـمَّا كان توفُّر الأكل والشرب قد يؤدِّي للطغيان والإفساد؛ نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: لا تعتدوا فيها بالمعاصي، وتنشروا فيها الفساد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة الاستسقاء عند الحاجة إلى الماء، وقد جاء شرعُنا بموافقة ذلك على صفة مخصوصة، بصلاة، أو دعاء.

وفيها: أنَّ السُّقيا تكون بما ينبع من الأرض، كما تكون بما ينـزل من السماء.

وفيها: أنَّ الله هو المَلجأ للخلق، إذا مسَّهم الضُّرُّ فإليه يجأرون.

وفيها: رحمةُ الرُّسُل بأقوامهم، ورأفةُ موسى بقومه بإجابة طلبهم.

وفيها: كرمُ الله تعالى وقُدرته؛ فإنَّ العاجز لا يسقي، والبخيل لا يُعطي.

وفي الآية: معجِزةٌ ظاهرةٌ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بخروج الماء من هذا الحَجَر الأصَمِّ، من عدَّة وجوه:

أنَّه حجر يابس منفصل عن الأرض.

وأنَّه لا يمكن أن يكون الماءُ مخزونًا فيه عادة.

و أنَّه يخرج بمجرَّد ضربه بالعصا، لا يحتاج إلى حفرٍ ولا تنقيبٍ.

وأنَّه موزَّعٌ على هذه العيون الاثنتي عشرة -عدد قبائل بني إسرائيل-.

وأنَّه يخرج منه ماءٌ كثيٌر، يتدفَّق بقَدْرِ حاجتهم، ويكفي القوم جميعًا، ثم ينقطع عند استغنائهم عنه.

وفي ذلك شاهدٌ عظيمٌ على قُدرة الله تعالى؛ فإنَّه أخرجه بهذه الكميَّة الكبيرة من غير حَفْرٍ ولا تعبٍ، فأين كان الماء مخزونًا؟!

وفيها: حُسنُ تنظيم القوم عند ازدحامهم، أو وجود العصبيَّة بينهم؛ لئلَّا يتنازعوا، ولئلَّا يَضِيعَ الوقتُ بالانتظار الكثير.

وفيها: اتِّخاذُ الأسباب التي تَدفعُ العداوةَ والنِّزاع.

وفيها: أنَّ من أعظم كُفرانِ النِّعَم مُقابَلتَها بإشاعة الفساد في الأرض.

وفي الآية: تعليمُ العِباد الأَخْذَ بالأسباب؛ فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أنْ يُخرج الماء من الحَجَر بغير ضربه بالعصا، ولكن أمرَ بضربه بالعصا -مع كونه سببًا ضعيفًا، ولا يُخرِج الماء في العادة-؛ تعليمًا للعباد، وربطًا للمسبّبات بالأسباب، وليكون ذلك على يد موسى -عبدِه وكليمِه- تكريمًا له.

وفيها: أنَّ من حُسنِ إدارة القوم وقيادتهم: تقسيمهم وتوزيعهم، وتعليم كلِّ فريق حِصَّته وما يخصُّه، وأنَّ التخصيص بالتوزيع يمنعُ التداخلَ المؤدِّي إلى الفوضى والاعتداء والظلم.

وفيها: أنَّ رزق الله قد يحصل للعبد بغير عمل منه ولا تعب، وما كان بعملٍ وتعبٍ فهو من رزق الله أيضًا.

وفيها: اشتهار اليهودِ بالفساد في الأرض، ولا يزالون؛ ولأجل ذلك نهاهم عنه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

ولـمَّا كان بنو إسرائيل لا يشكرون النِّعَم؛ أصابهم البَطَر، وملُّوا من الطعام الطيِّب السهل -وهو المنّ والسَّلوى- وبَلَغَ من انحراف أمزجتهم أن يطلبوا من موسى الأطعمة الدَّنيَّة -من البقول وغيرها- ولعلَّهم تذكَّروا عيشَهم الأول بمصر، وقد كانوا في عهد فرعون يأكلون الثوم والبصل والعدس ونحوه؛ فطلبوا ذلك من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل إذ كنتم في التِّيه، فقلتُم لنبيِّكم: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وهو المنُّ والسَّلوى.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ اسأله ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يُوجِدْ ويُظْهِرْ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾: من النباتِ الذي ليس له ساقٌ، كالكرَّاثِ والسلقِ والفجلِ ونحوِها.

﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: نبات معروفٌ، يشبه الخيار، وقيل: خضروات، كالبِطِّيخ والقرع ونحوِ ذلك. فالبقولُ: ما يُؤكَل ساقه، والقِثَّاءُ: ما يؤكَل ثمره.

﴿وَفُومِهَا﴾ (الثومُ) المعروف، وقيل: الحنطة، أو الحمّص. ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾: طعامان معروفان.

فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجَد في مكانهم.

﴿قَالَ﴾ لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستِفهامُ للإنكار، والمعنى: أتسألون تبديلَ ﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أي: أردأ، فتأخذونه لأنفسكم، وتختارونه وتفضِّلونه ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني: أحسنَ وأنفسَ. والمعنى: تأخذون الذي هو أدنى، بدلًا عن الذي هو خير؟!

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ أيَّ مِصرٍ من الأمصارِ، وأيَّ بلدٍ من البُلدانِ. وقيل: هي مِصرُ فرعونَ. ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: يَحصُل لكم ما تطلبونه، فبيَّن لهم أنَّ طلبهم ليس بأمرٍ عزيزٍ، وإنَّما يكفي أن يهبطوا أيَّ بلدٍ؛ ليجدوا مطلوبهم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾: لزمت بني إسرائيل إلى قيام الساعة، وأحاطت بهم بلا انفكاك ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الهوان، فلا يُقاتِلون عدُوًّا إلَّا مع الخوف الشديد منه، والشقاق فيما بينهم، كما قال الله عنهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤]. ومن الذِّلَّة: ما حَصَلَ من أخْذِ الجِزْية منهم.

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر، سواء كان فقر النفس، أو فقر المال، فليس عندهم كرمٌ، حتى قيل: لا أبخل من يهوديّ؛ فإنَّه وإن كَثُرَ ماله فهو شديدُ الطمع لا يَشبع، فقير القَلْب، يده مغلولة.

ولزوم الذُّلِّ والصَّغار لهم حقٌّ على الحقيقة، وخبرُ صدق ويقين، ومَنْ أصدقُ من الله قيلًا؟ فإنَّهم كانوا عَبْرَ التاريخ مقهورين أذِلّاء -ولا يزالون- قد تسلَّطت عليهم الأُمَم، حتى أَخَذَ المجوسُ الجِزْيَةَ منهم!.

فإن قال قائل: فما بالهم اليومَ قد صارت لهم دولة وصَوْلة، وعِزٌّ وقوَّة؟!

فالجواب: أنَّهم وإن طَغَوا وبغَوا فهم غُثاء كغُثاء السَّيل، والذُّلُّ مكتوبٌ عليهم، ظاهرٌ لمَن تأمَّله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ثم إنَّ العِبرة بالأعمِّ الأغلب؛ فإنَّ أكثر تاريخ اليهود حتى الزمن القريب ظاهرٌ فيه تشريدُهم في الأرض، وتقطيعُهم، وكُرهُ الأُمَم لهم، ومهما بَلَغَ اليهودي من مال وسلطان،

فإنَّه لا يزال عند أغلب أهل الأرض منبوذا مُحتَقَرًا خبيثًا، بل إنَّ الشعوب من حولهم ترفض -في الجملة- مخالطتهم ومصادَقتهم والعيش معهم.

ومن جهةٍ أخرى: لايزالون جُبَناء، يبنون الأسوار، ولا يعيشون إلَّا في المستوطَنات المحصَّنة -ولو كانوا أقوى سلاحًا- ولو صارت مواجَهة حقيقيَّة لفرُّوا؛ من ذُلِّهم، وجُبْنهم، وهوانهم عند أنفُسِهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: انصرفوا، ورجعوا، وتحمَّلوا غضب الله، كما وصفهم بـ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

وأمَّا عن سبَب حصول كلِّ ذلك لهم وتقديره عليهم: فقد بيَّنه الله تعالى؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ فيُكَذِّبون بآياته الشرعيَّة، ويجحدون آياته الكونيَّة، وفيها: معجِزات نبيِّهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ كيحيى وزكريّا وغيرهم، وقد حاولوا قَتْل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فرفعه الله إليه، وتسبَّبوا في موت نبيِّنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ بدسِّهم السُّم له، في قِصَّة الشاة المعروفة، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا...»[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجرائم السابقة، وسبَب ما نَزَل بهم؛ ﴿بِمَا عَصَواْ﴾: خالَفُوا ما نُهُوا عنه، ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ بتجاوزهم حدودَ الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهةُ بني إسرائيلَ؛ حيث اختاروا الأدنى، وفضَّلوه على الأعلى.

وفيها: جفاؤهم، في قولهم: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولم يقولوا: «ادعُ لنا ربَّنا».

وفيها: أنَّ مَن اختار الأدنى على الأعلى؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود، ومِن ذلك: الذي يختارُ الحرامَ كالزِّنا ويسلُكه سبيلًا، بدلًا من الحلال وهو النِّكاح.

---

(١) رواه أحمد (٣٨٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠٠).

وفيها: أنَّ على المرء أن يرتفعَ بهِمَّتِه ويَطلب معالي الأمور.

وفيها: إباحةُ التوسُّع في المآكل والمشارب، ما لم يؤدِّ إلى إسرافٍ أوضرَرٍ.

وفيها: حِلُّ البقولِ والبصلِ والثومِ ونحوِها؛ لقوله تعالى: ﴿**ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**﴾.

وفيها: اتصافُ اليهودِ بفقرِ القُلُوبِ، وشدَّةِ الطمَعِ، وأنَّهم لايشبعون.

وفيها: أنَّ اليهودَ لايثبُتون أمامَ المسلمين، إذا حاربوهم بصدقٍ وإيمانٍ.

وفيها: أنَّ من صفات اليهودِ: تعدِّي حدود الله، والاعتداء على عباد الله.

وفيها: خطورةُ احتقارِ نِعَم الله، وأنَّ فاعلَ ذلك قد يُعَاقَبُ بالحِرمان منها.

وفيها: جوازُ التوسُّلِ بدعاء مَن تُرجى إجابته من الأحياء، كالصالحين والوالدَين.

وفي الآية: عدم الاغترار بما يَحْصُل لليهود من قوَّةٍ أوسلطانٍ في الظاهر؛ فإنَّ الذُّلَّ في قُلُوبهم، والهوانَ مضروبٌ عليهم.

وفيها: أنَّ تعدِّي حدود الله ومخالفة أوامره، يدلُّ على ضَعف هَيبته تعالى في قَلْب المعتدِي والمخالِف؛ فيكون أهلًا للعُقوبة بالذُّلِّ والهوان.

وفيها: تعويدُ النفس على تَرْكِ المألوفات؛ لتكون مستعدَّة لمواجَهة الطوارئ والأحوال المختلفة.

وفيها: أنَّ خِسَّة الطبع تؤدِّي إلى دُنُوِّ الهِمَّة، حتى في أمور الدُّنيا، كالمآكل.

﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٢**﴾:

ولـمَّا ذكَرَ تعالى ما فعلـه باليهود من العقوبات؛ لـمَّا تعدَّوا حدودَه، وعصَوا وخالَفوا أوامره، وانتهكوا حُرماتِه؛ رَغَّبَ تعالى في الإيمان به، وإحسانِ العملِ، وبيَّن ما للمؤمنين عنده من الجزاء في الدُّنيا والآخرة؛ فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وكتبه ورُسُله، وصدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح. فقيل: هم مؤمنو هذه الأُمَّة، وقيل: مَن آمن بالأنبياء الماضين قبل بِعْثةِ محمَّدٍ ﷺ، وكان على التوحيد، كقُسِّ بن ساعدة، ووَرَقة بن نَوْفَل، وبَحِيرَى الراهب وغيرهم.

وقيل: هم الذين صدَّقوا النبيَّ ﷺ واتبعوه من أهل الدِّيانات الأخرى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: من «الهوادةِ»، وهي: المودَّةُ. وقيل: من «التهوُّد»، وهي: التوبة. وقيل: نسبة إلى (يهودا) وهو أكبر أولادِ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع «نصراني». وقيل: «نصران» -كما في «سكارى» و«سكران»، و«نشاوَى» و«نشوان»-. سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم نصروا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو لأنَّهم كانوا معه في بلدةِ الناصرة. أوسُمُّوا بذلك؛ لتناصُرهم فيما بينهم[٢].

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ «صبأَ»: خرج من دِينٍ إلى دِينٍ. وقيل: هم قومٌ على الفِطرة يعرفون الله، وليس لهم دِينٌ معيَّنٌ يتَّبعونه.

وقيل: إنَّ دينَهم مُرَكَّبٌ من أديانٍ أخرى كاليهوديَّة والمجوسيَّة. وقيل: يقرَأون الزَّبُور. وقيل: يعبدون الملائكة. وقيل: يُصلُّون إلى غير القبلة. وقيل غير ذلك[٣].

ويوجد في العراق إلى اليوم فِرقةٌ تُسَمَّى «الصابئة»، يعبدون الكواكب، ويعتقدون أنَّ للنجوم تأثيرًا في الأرض، وفي حياة الناس!

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء جميعًا ﴿بِٱللَّهِ﴾ ربًّا، واتَّبَعَ ما أنزله، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وما فيه من البَعْث والحساب والجزاء، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ خالصًا لله،وعلى سنة رسوله ﷺ خاتم النبيين؛ صار عملُه مرضيًّا مقبولًا.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وثوابُ أعمالهم، مدَّخرا لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحفظه ويضاعفه لهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة يومَ الفزع، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يوم يحزنُ المُقصِّرون

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥)، التبيان في إعراب القرآن (١/ ١٠٥).

(٣) انظر: زاد المسير (١/ ٧٣)، تفسير القرطبي (١/ ٤٣٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٦).

علـى تضييع العمـر، وتفويت الثواب، فلا يحزنون على ما خلَّفـوا وراءهم من الدُّنيا؛ لطيب عَيشهم، وما سيكونون فيه من النعيم المقيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتِمام بدعوة أهل الأديان الأخرى.

وفيها: أهميَّة بيانِ حُكم الله تعالى في أهل المِلَل الأخرى من غير المسلمين.

وفيها: بيانُ مصير مَن بقيَ على التوحيد، ولم تَبْلُغْه دعوةُ النبيِّ الجديد.

وفيهـا: فَضْـل الإيـمانِ والعمـلِ الصالـح، وأنَّ صاحبـه يأمَن مـن الخوف ممَّا يكون في المستقبَل، والحزن على ما مضى.

وفيها: فَضْل مَن تَركَ دِينَه الباطل إلى دِينِ الحقِّ.

وفيها: بيانُ ضمان الأجر؛ ولذا أضافه إلى الله، في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وفيها: أنَّ مَن اتَّبعَ الحقَّ فلا يضرُّه ما كان عليه في ماضيه من ديانةٍ باطلةٍ.

وفي الآيـة: طريقـةٌ حسـنة لمخاطَبة أهل الكتـاب ودعوتهِم، بِذِكْرِ مَن هو أحسـن منهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومَن هو أسوأ منهم: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾.

ويؤخَذ من الآية: أنَّ من اليهود والنصارى قومًا ناجينَ فائزينَ، سواء مَن آمنوا بالتوحيد الـذي كان عليه أنبياؤهم، وعمِلوا بما وصل إليهم من شرائع أنبيائهم، وماتوا قبل بعثة نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الذين أدركوا الإسلام فدخلوا فيه، وتركوا دينَهم الأول.

وفيها: أنَّ العملَ الصالحَ شرطٌ للنَّجاةِ.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾:

ثم ذكرَ تعالى جنايةً أخرى لأسلافِ بني إسرائيلَ؛ فقال مخاطبًا أحفادَهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾

أي: واذكروا وقتَ أَخْذِنا ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: العهد على آبائكم بقَبولِ التوراةِ، والعمل بما فيها، وعبادة الله وحدَه لا شريك له، فأَبَيْتُم الإقرارَ بذلك العهدِ الثقيلِ المؤكَّدِ، فرفع الله الجبلَ على رؤوسهم؛ ليُقِرُّوا ويأخذوا العهدَ بقوَّةٍ وهِمَّةٍ وامتِثالٍ:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو: الجبلُ المعروفُ، حتى قَبِلْتُم وأعطيتُم الميثاقَ؛ وذلك أنَّهم لـمَّا رفضوا قَلَعَ اللهُ الطورَ من أصله، وَجَعَله فوقهم، فعَلِموا أنَّهم إذا لم يمتثلوا فسيَهْوِي عليهم.

فلما رَأَوا أنَّه لا مهربَ لهم قَبِلوا وسجدوا، فرَحِمَهم الله وكشف عنهم، وقال لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب -وهو التوراة- واعملوا بما فيه ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بِجدٍّ وعزيمةٍ واجتهادٍ، ﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾ ادرُسُوا واقرَأوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من المواعظِ والأحكامِ، ولا تنسوه وتغفُلوا عنه؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تنجون من العذاب.

ولكنَّهم لم يثبُتوا على ذلك؛ فقال الله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: أعرضتم عن الميثاقِ العظيمِ، ونقضتموه، وتولَّيتم، بعدما رأيتم ما رأيتم!.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذاب، وقَبولِ التوبة، ومُوالاةِ إرسالِ النبيِّين عليكم؛ ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ جميعًا في الدُّنيا والآخرةِ.

وفي الآيتين من الفوائد:

بيانُ قُدرةِ الله العظيمةِ وقوَّته، بِقَلْعِ الجبل من مكانه، ورَفْعِهِ وإمساكه فوقهم مُعَلَّقًا، كما في الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وفيها: أنَّ الواجبَ على المؤمنين العمل بغير ضَعْفٍ ولا مُداهنةٍ ولا فتُورٍ.

وفيها: أنَّ الفلاحَ والنجاحَ لا يَحْصُلُ إلَّا بتوفيق الله وفَضْله.

وفيها: استعصاءُ بني إسرائيلَ وتمرُّدُهم وعنادُهم؛ فإنَّهم لم يُعطوا الميثاق إلَّا مُكرَهين.

وفيها: لؤمُ بني إسرائيل وخُبثُ نفوسهم، فإنَّهم تولَّوا وأعرَضوا بعد أن رجع الجبلُ إلى مكانه، ولم يعلموا أنَّ الذي رفع الجبلَ فوقهم ثم ردَّه إلى مكانه، قادرٌ على أنْ يرفعَه مرة أخرى ويهوِي به عليهم.

وفيها: محبَّة الله لهداية عباده؛ فإنَّه أراهم من آياته الشرعيَّة والكونيَّة ما يهتدون به.

وفيها: سَعَة رحمةِ الله تعالى، وأنَّه لم يُهلِك بني إسرائيل بالرغم ممَّا حَصَلَ منهم.

وفيها: توبيخُ اليهودِ في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وما بعده؛ لسلوكِهم السَّبيلَ الذي سلكه أجدادُهم، من الإعراض عن الحقِّ، والتولِّي عن العمل به.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾:

ثم خاطب الله تعالى اليهودَ، مذكِّرًا لهم بأمرٍ يعلمونه جيِّدًا، ممَّا فعله أسلافُهم، من الاحتيال على شَرْع الله؛ وذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كان قد حرَّم العملَ على اليهودِ يومَ السبتِ، ومِنْ ضِمنه الصيد؛ ليتفرَّغوا للعبادة.

فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ والمعنى: لقد علمتُم عِلمًا يقينيًّا، بخبر أهل هذه القرية، ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟﴾ تجاوزوا حدودَ الله؛ ظلمًا وطغيانًا ﴿مِنكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وهو اليومُ من الأسبوع الذي حرَّم اللهُ عليهم العملَ فيه؛ ليتفرَّغوا للعبادة، ونهاهم عن صيد الحيتان فيه، وابتلاهم بقدوم الأسماك إلى الساحل في هذا اليوم، ورجوعها في بقيَّة الأيَّام، فاحتالوا على شَرْعِ الله، فنصبوا الشِّباك وحفروا الحُفَر، وأخذوا ما علِق فيها من الأسماك يومَ الأحدِ، وقالوا: ما صِدْنا في السبت!

وقد فَصَّلَ الله قِصَّتهم في سُورَة «الأعراف»، في قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣].

فلمَّا فعلوا ذلك غضِبَ الله عليهم ولعنَهم، وقال: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟﴾ قهرًا ورغمًا عنكم، وهذا أمْرُ تكوين وتصيير، وليس أمْرَ إيجاب؛ أي: صِيروا رغمًا عنكم ﴿قِرَدَةً﴾؛ فتحوَّلوا من أشكال الآدميِّين، ومُسِخوا على أشكال القِرَدة، ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ ذَليلِينَ صاغرين.

وقد روى ابن مسعود، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنَّه ذُكِرَت عِندَه القِرَدَة والخنازيرُ من مَسْخٍ؛ فقال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ القِرَدَةُ وَالخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).

ويؤخَذ من هذا الحديث: أنَّه لا يُطلَقُ على اليهود «أحفاد القِرَدة والخنازير»، ولكن يُقال لهم: «إخوانُ القردة والخنازير»، كما أطلَق عليهم الصَّحابةُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريمُ التحايلِ على شَرْعِ الله، وأنَّ هذه الحِيَلَ اعتداءٌ، وهي أشدُّ تحريمًا من إتيان المُحَرَّمِ على وجْهٍ صريحٍ؛ لأنَّ فيها جمعًا بيْنَ المعصيةِ والخِداعِ.

كما أنَّ المنافِقين أشدُّ جُرْمًا من الكفَّار الصُّرَحاءِ.

وقد اشتهر اليهودُ بالحيَل، كما فعلوا في أنواع الرِّبا وشحوم المَيتة؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ؛ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بِأَدْنَى الْحِيَلِ»[(١)].

وفي الآية: مناسبةُ العُقوبةِ للذنبِ، فلمَّا كانت صورةُ ما فعلوه مباحةً، والحقيقةُ أنَّها غيرُ مباحةٍ، كذلك صارت صورتهم الظاهرةُ قِرَدَةً، وفي الحقيقة لا يزالون آدميِّين.

وفيها: عظمةُ أَمْرِ الله؛ فإنَّهم تحوَّلوا إلى قِرَدَةٍ بمجرَّد قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾، وقد كان المسخُ حقيقيًّا، لا معنويًّا فقط.

وفيها: أنَّ من أنواع العذاب الأليم في الدُّنيا: أن يعيشَ الإنسانُ بصورةِ القِرْد القبيحة، ويَبقى معه عقلُ وإدراكُ الإنسان.

وفي الآية مع الحديث المتقدِّم: إبطالٌ لنظريةِ التطورِ والارتقاء، التي قال بها دارون وغيره -قاتلهم الله- حيث زعموا أنَّ جنسَ البشرِ متطوِّرٌ عن القردة!

ويكفي المسلِم أن يعلم أنَّ الله تعالى خاطبنا بـ(بني آدم)، وأخبرنا عن خَلْق آدم، وأنَّ آدم هو أبونا.

أما غير المسلمين فيُقال لهم: هذه نظريَّة قاصرة فاشلة؛ فهي لم تفسِّر جميع ظواهر الحياة؛ فلم تقدِّم تفسيرًا لأصل نشأة الحشرات، مع أنها تمثل ٨٠٪ من مجموع الحيوانات، فهل تطوَّرت الحشرات أم بقيَت على ما هي عليه؟ ولِمَ لم يجرِ عليها قانون التطور؟

---

(١) رواه ابن بطَّة في إبطال الحيَل (ص٤٧)، وحسَّنه ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في تفسيره (١/ ٢٩٣)، والألبانيُّ في الضعيفة (١/ ٦٠٨)، لكنَّه مال إلى ضَعْفه في الإرواء (١٥٣٥).

ولذا: فقد ماتت هذه النظريَّة أو كادت، وتبيَّن للعالم أنها مجرَّد خدعة، لا حقيقة لها!.

وفي الآية: محُاجَّة أهلِ الكتابِ، ووعْظُهم بما يعلمونه من الحقائق.

وفيها: تحذيرُ الجيل اللاحق من مُشابهة الجيل السابق في التمرُّدِ، والعناد، والتحايل، والمعصية.

وفيها: أنَّ الذِّلةَ والصَّغارَ من عقوبات المتحايلين على شَرْعِ الله؛ لأنَّهم يُلَبِّسُون على الآخَرين، ويستهزِئون بالدِّين؛ ولذلك قال العلماء عنهم: «إنَّهم يُخادِعون الله كما يخادعون الصِّبْيان»[1].

وفي ذِكْرِ قَصصِ هؤلاء المتحايلين موعظةٌ لهذه الأُمَّة؛ حتى لا تَسلُكَ سبيلَهم.

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما أنزل بأهلِ تلك القرية من العُقوبة البليغة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ أي: صيَّرنا هذه القرية بعد مَسْخِ المعتَدين من أهلها قِرَدة ﴿نَكَالًا ﴾: عِبْرَةً، تَرْدَعُ غيرهم من فِعْل مثل ما فعلوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي: لِما حَوْلَها من القرى، الَّذين وَصَلَ إليهم خبرهم ﴿وَمَوْعِظَةً ﴾ عِبرةً وتذكرةً لِمَن يأتي بعدهم من الأُمَم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ الَّذين يخافون أن ينزِل بهم من عذاب الله مِثْلُ ما نَزَلَ بتلك القرية.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ القَصصِ للاعتبار.

وفيها: أنَّ العقوبات الإلهيَّة تكون رادعةً لمن وقعت عليه؛ حتى لا يعود، ولغيره؛ حتى لا يتشبَّه به.

وفيها: أنَّ الذي ينتفع بالمواعظ هم المتَّقون.

وفيها: أنَّ المواعظ كما تكون شرعيَّةً -بالآيات، والأحاديث، والكلام النافع للقَلْب-؛ فمنها ما يكون كونيًّا قدريًّا، كذلك منها ما يكون بعقوبات تقع، وعذاب ينزل.

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ٩٩).

فأمَّـا عبادُ الله المؤمنـين: فإنَّهم ينتَفِعون بالمواعظ الشرعيَّة، وأمَّـا غيرهم: فقد لا يتأثَّرون إلَّا بالمواعـظ الكونيَّة؛ اضطرارًا، وإكراهًا، كما يحدث للكفَّـار إذا جاءهم قاصفٌ من الرِّيح في البحر.

وفيها: الاطِّلاع على أخبار الماضين؛ لأخْذِ العِبرة.

وفيهـا: أنَّ العُقوبـةَ تأتي على الذنب الجديد، وما تقدَّم مـن الذُّنوب، وأنَّ تراكم الذُّنوبِ سببٌ للعُقوبة عليها جميعًا.

وفيها: أنَّه يستفيد من المواعظ المتَّقون من كلِّ أُمَّةٍ.

وفيها: تحذيرُ هذه الأُمَّة من العقوبات الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ بعض مَن لم يُمْسَـخ جسـده من المذنبين قد مُسِـخَ قَلْبُه، فصار مشـابهًا لبعض البهائم -كالكلب في الخِسَّـة، وكالخنـزير في عدم الغَيرة، ونحو ذلك- ومِن علامات مَسْخِ القُلُوب: ألَّا يجد حلاوةَ الطاعة، ولا يخاف من المعصية، ولا يعتبر بموت أحد.

وفيها: التحذيرُ لهذه الأُمَّة من التحايل على شَرْعِ الله، ومن ذلك:

التحايُـل عـلى الرِّبا، والتحايُـل في نـكاح التحليل إذا طَلَّـقَ ثلاثًا، والاحتيالُ لإسـقاط الشُـفعة، وإسـقاط صاحبِ الحقِّ في الميراث، وإسـقاط الحدودِ الشرعيَّـةِ، والاحتيالُ لأكلِ المال بالباطل، والاحتيالُ في الوصيَّة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعـالى قبائحَ بني إسرائيل، من نَقْضِ المواثيقِ والاعتـداء؛ أردفه بنوعٍ آخرَ من مساوئهم، في تكذيبهم لأنبيائهم، ومخالفتهم لهم، وعدم مسارعتهم في امتِثال أوامرِ الوحي، مع كثرة اللِّجاجِ والعناد؛ فقال تعالى:

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ**﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّةَ موسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ قال لقومـه -وإذا كان الشـخصُ من قـومٍ؛ فإنه يَنصحُ لهـم أكثرَ ممَّا ينصـحُ لغيرهم-: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ**

﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، وسبَبُ هذا الأمرِ: أنَّه كان قد قُتِلَ قتيلٌ فيما بينهم، فتخاصَموا فيه وتدافَعوا، حتى كادت تثورُ بينهم فِتنةٌ.

فلـمَّا رجعـوا إلى نبيِّهـم يسـألونه، ليخبرهم مـن الوحي عـن القاتل؛ أوحـى الله إليه أن يأمرَهم بذبحِ بقرة.

وقد جاء ذِكْرُ السَّبَبِ متأخِّرًا في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾؛ من باب التفنُّن في العرض، والتجديد، والتشويق، وشحذِ الذهن؛ لمعرفة السَّبَبِ الذي سيُذكَر لاحقًا.

﴿قَالُوا﴾ -جوابًا لنبيِّهـم عـلى أَمْـرِه لهـم-: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: تجعلنا مكانًا للهُـزْءِ والسخريةِ، وتلعبُ بنا. وهذه جهالةٌ عظيمةٌ منهم، وسوءُ أدبٍ مع نبيِّهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأجابهـم نبيُّهم بقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فإن الجاهلَ هو الذي يتكلّم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزِئُ بالناس.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الأصلَ في الأمرِ الوجوبُ، وأنَّه يجبُ تنفيذُه فورًا، وأنَّ التراخي في التنفيذ معصيةٌ.

وفيها: أنَّ بعضَ الأوامر قد لا يعلم العِباد الحِكْمةَ منها، فعليهم الاستِسلامُ والتنفيذُ.

وفيها: أنَّ من حِكْمة الشَّرْع أن يأتيَ بما يقضي على المُخاصَمات بينَ الناس.

وفيها: بيانُ سوء أدبِ بني إسرائيل مع نبيِّهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الاستهزاء بالناس جهلٌ وسَفَهٌ وحماقة.

وفيها: التجاءُ موسى إلى ربِّه، محتميًا به من إيذاء قومه.

وفيهـا: صبرُ موسـى على إيـذاء قومـه، وأنَّه لم يقابِـل إيذاءَهـم بالإيذاء؛ وإنَّـما وعَظَهُم وذَكَّرهم بالله لـمَّا استعاذ به.

وفيهـا: أنَّ عـلى الدَّاعيـة أن يُضيـفَ الأوامرَ والنواهي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا إلى نفسـه، ليُبيِّن المصدَر، وليكون أقرب إلى قَبول الأمر والامتِثال له، واطمئنان النفوس له.

وفيها: الإشارة إلى أنَّ الإجابة على السؤال بما لا عَلاقةَ له به جهلٌ، وفي ردِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعريضٌ بجهل قومه.

وفيها: أنَّه يجب حَمْلُ أوامر الأنبياءِ وأحوالهم على الجِدِّ، وفي هذا ردٌّ على بعض مَن يظنُّ في أحكام الشَّرْع وإطلاقاته أنَّها من المزاح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

وفيها: أنَّه لا يجوزُ المِزاحُ والهُزْءُ عند تبليغ أحكام الله.

وفيها: أنَّ على المدعو والمستفتي أن يستقبلَ أوامر الله بالإجلال والتوقير.

وفي الآية: أنَّ ذبحَ البقرةِ أفضلُ من نحرِها، فالذبح يختصُّ بالبقر والغنم، والنحر يختصُّ بالإبل.

ولعلَّ في أمرهم بذبحِ البقرة؛ معالجةً لنفوسهم التي عظَّمت العجلَ بعبادته من دون الله.

وفي القِصَّة: أنَّ مَرجِعَ النَّاسِ عند حدوثِ الإشكالات إلى الأنبياء، وورثتِهم -وهم العلماء-.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

ولـمَّا عَلِمَ القومُ أنَّ ذَبحَ البقرةِ عزمٌ وجِدٌّ لا بُدَّ منه، ووحيٌ من الله؛ لجأوا إلى التعنُّتِ والتشدُّدِ، وهذا من كثرةِ سؤالهم المذموم، واختلافِهم على أنبيائهم.

﴿قَالُوا۟﴾ يا موسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ اسأله لأجلنا ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾: يُوضِّح ويُعيِّن ﴿مَا هِىَ﴾، أي: ما سِنُّها؟ صغيرةٌ أم كبيرةٌ؟ وهذا تشديدٌ منهم على أنفُسِهم، فلمَّا شدَّدوا شدَّد اللهُ عليهم، ولـمَّا ضيقوا ضيَّق الله عليهم.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ أي: المأمور بِذَبْحِها ﴿لَّا فَارِضٌ﴾: ليست مُسِنَّةً هَرِمَة، انقطعت عن الولادة لكِبَر سِنِّها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ وهي الصغيرةُ التي لم تلدْ، أو التي ولدت مرةً واحدةً؛ بل هي ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: وسَطٌ بيْنَ الكبيرةِ والصغيرةِ، وهي أقوى ما يكون من الدوابِّ والبقرِ، وأحسنُه.

﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ من ذَبْحِها، ولا تُكثِروا السؤال ولا تتعنَّتوا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التنطُّعَ في الدِّين والتشدُّدَ يؤدِّي إلى التشديد على صاحبه في الأحكام.

وفيها: أنَّ الطبيعةَ السيِّئةَ لبني إسرائيل جعلتهم يسألون عن أمور لا وجه لها؛ فإنَّ البقرةَ معلومةٌ، واللفظ المُطلَق لا يحتاج إلى بيانٍ؛ لوضوحِ معناه، ولكنَّهم لم يكتفوا بما طلبه الله منهم.

وفيها: أنَّه لا يجوز البحثُ والسؤالُ عن قيودٍ في الأمور المُطلَقة، في وقتِ نزول الوحي؛ لأنَّ مَن شدَّدَ شدَّد اللهُ عليه، وقد يتَسبَّب في التشديد على باقي الأُمَّة، وهذا من أعظمِ الناسِ جُرْمًا عند الله؛ ففي الحديث: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا: مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ من أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[1].

أمَّا البحثُ عن قيودٍ للأمور المُطلَقة في النصوص الشرعيَّة بعد انقطاع الوحي؛ فلا بأس به؛ فإنَّ ما أُطلِقَ وأُجمل في مكانٍ، يمكن أنْ يُفصَّلَ ويُقيَّدَ في مكانٍ آخر.

وفيها: تذكيرُ المتعنِّتين المتنطِّعين بوجوب فِعْلِ ما أُمِروا به، وإعادةِ تذكيرهم بذلك، كما قال موسى عَلَيۡهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أراد أن يبحث عن الأكمل في ذبحِ القرابينِ -كالأضحية والهَدي والعقيقة- وما يُخرِجه للزَّكاة؛ فإنه يختار الأوسَط سِنًّا بينَ الهَرِمة والصغيرة.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾:

ولـمَّا كان القومُ أهلَ عنادٍ وتعنُّتٍ؛ لم يكفِهم ما تقدَّم من الوَصف، ولو أخذوا أيَّ بقرةٍ لأجزأتهم، لكنَّهم جعلوا يزيدون في السؤال والاستفصال، فانتقلوا بعد السِّنِ إلى اللونِ:

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، ولا وجه لسؤالهم هذا، ولو أنهم أخذوا بقرةً بأيِّ لونٍ فذبحوها لأجزأهم ذلك.

﴿قَالَ﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾ المأمور بذبحها ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾: شديدُ الصُّفرةِ، صافٍ لونُها، لم يخالطْه لونٌ آخر؛ فهي ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾: تُعجِبهم، وتُدخِلُ البهجةَ والسرورَ على نفوسهم؛ لِحُسنِ صورتها، وتمامِ خِلقتِها، وتَوسُّطِ سِنِّها، وصفاءِ لونِها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بعض ألوانِ القرابينِ أفضلُ من بعضٍ؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَمُ عَفْرَاءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن دَمِ سَوْدَاوَيْنِ»(١)، والعفراءُ من الغَنَم: البيضاءُ المائلة إلى حُمْرَة، والمراد: أنَّ التضحية بعفراء خيرٌ من التضحية بالسوداء.

وفيها: أنَّ الأصفرَ من الزينةِ؛ ولذلك تُمنعُ المُحادَّةُ من لُبْسه.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠﴾:

وعلى الرُّغم من كلِّ هذا البيانِ في السِّنِّ واللَّون، لم يتوقَّف بنو إسرائيلَ عن تعنُّتِهم ومجادلتهم؛ فـ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما حالُها؟ هل هي عاملةٌ تَسقي وتَحرثُ، أم هي سائمةٌ كريمةٌ عند أهلها، لا يستعملونها في الأعمال الشاقَّة؟

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾ الموصوفَ سابقًا ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾: أَشْكَلَ، واشتبهَ أَمْرُها من كثرة البقر، فلم ندرِ ما هي المأمورُ بذبحها؟

وقد كذَبوا في هذا، فأين التشابُه وقد أخبرَهم عن سِنِّها ولونِها؟! ولكن هذا من عنادهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى هذه البقرة، وسنعرفها في النهاية. وقيل: مهتدون إلى القاتل. وقيل: إلى الحِكْمة من وراءِ ذَبْحِ البقرة.

---

(١) رواه أحمد (٩٤٠٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٦١).

قال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أخذ بنو إسرائيل بقرةً لأجزأت عنهم، ولولا قولهم: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ لَمَا وجدوها»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بني إسرائيل لـمَّا زادوا نبيَّهم أذًى وتعنُّتًا؛ زادَهم الله تضييقًا وتشديدًا، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ السؤال عن الأمر الواضح الذي لا يحتاج إلى سؤالٍ، هو عَبَثٌ وتنطُّعٌ.

وفيها: أنَّ الاستثناءَ بذِكر المشيئة يُعِين على تحقيق المقصود.

وفيها: أنَّ الهدايةَ لا تحْصُلُ إلَّا بمشيئة الله.

وفي الآية: مثالٌ لِذِكْرِ معاناة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيلَ، وما لقيَه منهم من كثرةِ سؤالِهم واختلافِهم عليه، وهذا هو الاستِفهام الرابع لهم في هذه القِصَّة.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾:

ولـمَّا زاد بنو إسرائيل نبيَّهم أذًى وتعنُّتًا؛ زادهم الله تضييقًا وتشديدًا؛ فـ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: ليست مُذَلَّلَةً عند أهلها بالعمل في إثارة الأرضِ، وتقليبها للزراعة. ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾: غيرَ مُعَدَّةٍ للسقي بالسواقي، وحَمْلِ الماء لسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٞ﴾: سليمةٌ من جميع العيوب.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾: لم يخالط لونَها الأصفرَ الفاقعَ لونٌ آخرُ، لا بياض، ولا سواد؛ بل هي صافيةٌ خالصةٌ، لا عيبَ فيها.

﴿قَالُواْ﴾ -عندما سمعوا هذه النعوت والتفصيلات-: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ في إجابتك هذه الأخيرة ﴿جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ والوَصفِ التامِّ، الذي يُوصِلُنا إلى البقرة المطلوبة.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٠٤).

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾: وقد كادوا ألَّا يذبحوها، وأوشكوا على المعصية والامتناع وعدم التنفيذ. فمع كلِّ البيانِ السابق والأسئلة والأجوبة والإيضاح، ما ذبحوها إلَّا بعد الجَهْد!

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذمُّ بني إسرائيل؛ لسوء قَصْدِهم؛ فلم يكونوا يريدون ذبحها في الحقيقة؛ ولذلك تعنَّتوا وكَثُرت أسئلتُهم؛ لأنَّهم كانوا يريدون الامتناع.

وذَمُّهم؛ لعدم مطاوعتهم نبيَّهم، واستعصائِهم عليه، ومراوغتِهم، وتسويفِهم، فلم يُطيعوه اختيارًا ورضًا، وإذا فعلوا فلا يكون إلَّا بعد رأيٍ وجَهْدٍ، فيُحمَلون على فِعْلِ الأمر قَصْرًا، فَهُم بطيئون في طاعة الله، سريعون في معصيته سبحانه.

وهذا أَولى من أن يقال: إنَّهم ما كادوا يذبحونها لأجل غلاء ثمنها، أو خشية الفضيحة بمعرفة القاتل.

وفي الآية: دليلٌ لِمَن ذهب من العلماء إلى صِحَّة بيع السَّلَمِ في الحيوان، وهو تقديمُ الثمنَ كاملًا في مجلسِ العقدِ، لحيوانٍ يمكن وصفه وصفًا منضبطًا، يكون في ذِمَّةِ البائع، يُسَلِّمه في وقتٍ محدَّدٍ، فالآية تَدُلُّ على أنَّه يمكن وصفُ الحيوان وضبطُ صفاته وتعيينُه[1].

وفيها: أنَّ الدِّينَ الذي يُكَلِّفُ اللهُ به عبادَه يُسْرٌ، ولكنَّ عبادَه هم الذين يتكلَّفون ويتنطَّعون ويتشدَّدون.

وفيها: درسٌ للدُّعاةِ إلى الله؛ للتعرُّفِ على نفسيَّاتِ العُصاةِ المراوغين، وطرائِقِهم في التهرُّبِ من القيام بالتكاليف الشرعيَّة.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يُنَفِّذَ أوامرَ الله عن رضا وطواعية، وإقبالِ نفسٍ، وأمَّا المنافِقُ: فإنه إذا رضخ فعلى مَضَضٍ وكُرْهٍ؛ كما قال تعالى فيهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) انظر: الذخيرة للقرافي (٥/ ٢٤٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٠١).

وفيها: جَهْلُ بني إسرائيل، وسوءُ أدبهم مع نبيِّهم، عندما قالوا: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ فكأنَّه ما جاءهم بالبيان الشافي إلَّا الآنَ! مع أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جاءهم بالبيان الشافي من البداية.

﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾:

ثم ذكرَ تعالى سببَ الأمر بذبح البقرة. وهو أول القِصَّة؛ لأنَّ ترتيب أحداثها: أنهم وجدوا قتيلًا بينهم، لا يَدْرون مَن قَتَلَهُ، فأتَوا نبي الله موسى؛ ليكشفَ لهم القاتل، فأمرَهم بذبح البقرة؛ ليُضرَب القتيل ببعضها؛ فيَحيا بأمر الله؛ ليُخبِرَ عن قاتِله.

فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل قِصَّة قَتْل بعض أسلافكم نفسًا محرَّمة ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾: تدافعتُم، واختلفتُم، واختصمتُم ﴿فِيهَا﴾: في شأن قتْلِها، وتحديد القاتل.

ولـمَّا تخاصَموا فيها؛ صار كلُّ واحد من الخُصَماء يدافع الآخر، فيدفع عن نفسه، ويرمي التهمة على غيره، ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ﴾: مُظْهِر الحقيقة، ومُبيِّن مَن هو القاتل، لا محالة. ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾: تُخْفُونه، وتَسترونه من تعيين القاتل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ظُلْم بني إسرائيل بكَتم الحقائق.

وفيها: أنَّ تبادل الاتهامات يؤدِّي إلى الفِتنة، وتبيين الحقيقة يَقْطَع ذلك.

وفيها: أنَّ الله قادر على إظهار المكنونات، وكشف المخفيَّات.

قال المسيَّب بن رافع رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عمل رجلٌ حسنة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وما عمل رجلٌ سيِّئة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله، وتصديق ذلك: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾»(١).

وقد قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ [الأنعام: ٦٧].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٤٤).

وفيها: إحاطة عِلْم الله بما يُظْهِره العِباد وما يُخفونَه على حدٍّ سواء، وفي ذلك التحذير من المعاصي الظاهرة والخفيَّة كلِّها.

وفيها: أهميَّة البحث والتحرِّي في الجرائم الغامضة لكشف الحقيقة؛ حتى ترتفع الفِتن، ولا يتفاقم الأمر.

وفيها: أنَّ التوصُّل إلى كشف أسرار الجرائم نِعمة من الله.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى فائدة ذبح البقرة، وعلاقته بكشف القاتل؛ فقال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي: اضربوا هذا القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: بجزء من أجزاء البقرة.

ولم يُبيِّن لنا ما هو: هل كان الرأس، أو الفخذ، أو اللِّسان، أو غير ذلك؟ ولو كان في تعيينه فائدة لنا لبيَّنه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه كريم، لا يُمسِك عن عباده ما يستفيدون منه.

ثم إنَّ المعجِزة حاصلة بإحياء القتيل عند ضربه بأيِّ جزء من أجزاء البقرة، وهذا يكفي للاعتبار.

وفي الكلام حذْف يُفهم من سياق الآية، تقديره: فضربوه ببعضها، فقام القتيل حيًّا بإذن الله، فأخبر عن قاتِله.

وقيل: إنه عاد وسقط ميِّتًا بعدها.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا هذا القتيل؛ فنبَّه تعالى على قُدرته على البَعْث، بما شاهده بنو إسرائيل من إحياء ذلك القتيل، وهو قادر على بَعْث الأموات بكلمة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾: يُظهر لكم الدلائل البيِّنات على قُدرته؛ لأنَّ مَن أحيا نفسًا واحدة بعد موتها، قادرٌ على إحياء جميع النفوس.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لأجل أن تعقلوا عن الله آياته الكونيَّة والشرعيَّة، وتعلموا قُدرته سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تربية النفس على عدمِ التطلُّع والاشتغالِ بمعرفة ما لا فائدة لها من معرفته.

وفيها: أنَّ من التكلُّف والتعمُّق: البحث عن المسكوت عنه، والاستقصاء عن الأشياء الغامضة، وعمَّا لا فائدة من ورائه، وعمَّا لم نؤمَر به، كالسؤال والبحث عن اسم كلب أصحاف الكهف، ولونه، واسم الغلام الذي قتلَه الخَضِر، وخشب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: من أيِّ شجر هو، وكم طول السفينة، وعرضها، وكم فيها من الطبقات، إلى غير ذلك ممَّا لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على قولٍ فيه.

يقول العلَّامة الأمين الشنقيطي: «ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبيِّنها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء، والبحث عنها لا طائل تحته، ولا فائدة فيه»(١).

وفي الحديث: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قالَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا(٢).

وفيها: حُجَّة على مُنكِري البَعْث.

وفيها: نقْل لمن حضر القِصَّة من بني إسرائيل من مرتبة عِلْم اليقين إلى مرتبة عين اليقين؛ فإنَّهم وإن كانوا يُقِرُّون بإحياء الموتى، إلَّا أنَّه أراد أن يُرِيَهم ذلك عِيانًا.

وفيها: التركيز على المعاني والمقاصد الأساسيَّة للقِصَّة، وعدم الاشتغال بتتبُّع الجزئيَّات التي تَصرف عن المقصود، وتُوقِع في التكلُّف، والكلام فيما لا دليل عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي إحياء القتيل بهذه الطريقة عِدَّة فوائد -وكان بالإمكان أن يحيا بأمر الله، دون حاجة إلى ذبح البقرة- فمنها:

أولًا: أنَّ ضرْب ميِّت بميِّت ليحيا بأمر الله؛ أبلغ في بيان قُدرته تعالى، وتوجيه الأمر لبني إسرائيل بذلك أبلغ في نفوسهم، وأقوى في إقامة الحُجَّة عليهم.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٢٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٠).

ثانيًا: التقرُّب إلى الله بذبح القُربان؛ لزيادة الطاعة، والتوسُّل إليه بها.

ثالثًا: إزالة ما عَلِق في نفوس القوم من تقديس العِجْل الذي عبدوه.

رابعًا: في ذلك فائدة لأصحاب البقرة، إذا كانوا فقراء أو يتامى؛ بما حصل لهم من الغنى بشراء البقرة منهم؛ فقد ذُكر أنهم اشتروها منهم بمال كثير.

وفيها: بركة تنفيذ أمر الله، ولو لم يُدرِك العقلُ الحِكْمةَ منه؛ وذلك بحصول الفوائد المتعدِّدة، وظهور الأوامر الباهرة، وزيادة الإيمان، ورؤية العجائب.

وفيها: العمل بالأسباب المؤدِّية إلى ظهور الحقائق، وكشْف الجرائم.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

وعلى الرُّغم من ظهور آيات الله العظيمة، والحِكَم الباهرة، والمعجِزات الخارقة؛ فإنَّ بني إسرائيل لم تَلِن قُلُوبُهم، ولم تستقِم نفوسهم؛ فقال تعالى موبِّخًا لهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾: صارت غليظة صلبة، لا تتأثر، ولا تُذعِن، ولا تقبل المواعظ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: ممَّا منَّ الله به عليكم من الآيات الباهرة في قِصَّة البقرة، وإحياء القتيل، وكذلك بعد نقْضِ الميثاق، وطول الأمد.

﴿فَهِىَ﴾ أي: قُلُوبكم ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾: مثلها في الشدَّة والقسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: أَزْيد قساوة وصلابة من الحجارة، فإن لم تكن أشدَّ منها، فهي مثلها، لا أقلَّ من ذلك. أو: إنَّ قُلُوبكم على الحالَين. أو: بعضكم قَلْبه كالحجارة، وبعضكم قَلْبه أشدُّ من الحجارة.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الحجارة خيرٌ من قُلُوب هؤلاء في الفائدة والخشية؛ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ في منفعته ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: يتدفَّق منه الماء بكثرة وسَعَة، فيسيل أنهارًا ينتفع بها الناس، فيشربون، ويَسقون زروعهم ودوابَّهم.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾: يتفتَّح، ويتشقَّق بالماء طولًا أو عرضًا، ولكن دون الأول،

﴿فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ أي: يَسيل، ولكن دون الأول، كالآبار والعيون والينابيع، ويُفيد الناسَ بعذوبة مائه.

﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾: ينزل ويتردَّى بسبَبِ خشية الله، وانقيادًا لأمره. و(الخشية): هي خوف مع عِلْم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾: نفى عَزَّوَجَلَّ الغفلة عن نفسه؛ لكمال عِلْمه وإحاطته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال التشبيه لتقريب المعنى؛ فشبَّه قُلُوب بني إسرائيل في قسوتها وعدم تأثُّرها بالمواعظ، ورفضها للحقِّ، بالحجارة في صلابتها وغِلَظها وشِدَّتها.

وفيها: عَقد المقارنة بينَ القُلُوب القاسية والحجارة، وقُلُوب اليهود لا تلين ولا تخشع، ولا تتحرَّك من خوف الله، والحجارة تنزاح عن أماكنها من خشية الله وتتحرَّك، وتنقاد لأمره سبحانه!

وفيها: أنَّ الجمادات تنفعل وتتأثَّر بقُدرة الله، فتكون فيها الخشية كهذه الحجارة، ولو نزل القرآنُ على جبلٍ لظهر عليه الخشوع وتصدَّع من خشية الله، وهذه السماوات السبع والأرض وما فيها تسبِّح بحمد الله، وإن لم يفقه الناس ذلك.

وكان الإباء والإشفاق من السماوات والأرض والجبال عند عرض الأمانة عليها، وكان القول الصحيح: «أتينا طائعين» إجابةَ السماوات والأرض لنداء ربِّ العالمين.

والجمادات تسجُد لله، وتكون فيها المحبَّة لأولياء الله -كجبل أُحُد- ويكون فيها الحنين لفقد الذِّكر -كما حَصَلَ للجِذْع الذي كان يخطب عنده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأنطق الله بعض الحجارة بالسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينطق الحَجَر الأسود يوم القيامة، فيشهد لمن استلمه بحقّ، والله يجعل ما يشاء من الصِّفات فيما يشاء من المخلوقات، وهو على كلِّ شيء قدير.

وفيها من بلاغة القرآن: تشبيه المعقول بالمحسوس.

وفي الآية: تهديد الغافلين؛ بأنَّه تعالى عليمٌ بما يفعلون، ومعنى ذلك: أنَّه سيُجازيهم على أفعالهم.

وفيها: أنَّ الحجارة أقصى شيء يُضرَب به المَثل في القسوة، فهي أقسى من الحديد الذي ينصهِر بالنَّار، والحَجَر يتفتَّت ولا ينصهِر.

وفيها: أنَّ إعراض القَلْب بعد رؤية الآيات، أسوأ من إعراضه قبل رؤيتها.

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى عِناد اليهود، وعدمَ انقيادهم لأمره عَزَّوَجَلَّ، وتعنُّتهم مع أنبيائهم الذين مضَوا؛ أردف ذلك بذِكْر قبائح أخرى ارتكبوها مع رسوله محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه، وخاطب تعالى الصَّحابة، يُيئِّسُهم من إيمان اليهود؛ فقال:

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أنت وأصحابك، وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ شديد الحرص على هداية أهل الكتاب، فقصَّ الله عليه ما يُسلِّيه في إعراضهم عنه، وقلَّة قبولهم واستجابتهم. و(الطمع): هو الرجاء المقرون بالرغبة الأكيدة.

والاستِفهام في قوله ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾ إنكاريّ واستبعاديّ.

﴿أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾: يُصدِّقوكم، ويُقرُّوا لكم، وينقادوا معكم.

والمعنى: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، ثم تطمعون في إيمانهم؟!

وذكَرَ الله تعالى بعض أحوال اليهود؛ فقال: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ طائفة، وهم علماؤهم، وأحبارهم ﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهي: التوراة التي سمعوها من نبيِّهم موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ويتلونها فيما بينهم.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: يغيِّرونه، ويبدِّلونه، ويكتُمونه، وهذا يشمل تحريف اللفظ: بالزيادة والنقصان، وتحريف المعنى: بتفسيره على غير مراد الله.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾: فَهِموه وضبطوه، ولم يبقَ لهم شُبهة فيه، ولا إشكال.

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّهم يفعلون الباطل، ويقولون الكَذِب، ويكتُمون الحقَّ، ويعلمون ما في تحريف الكلام من العُقوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَطْع أطماع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن إيمان اليهود، وكأنَّه قال لهم: لا تطمعوا فيما لا مَطْمَع لكم فيه؛ فإنَّ هؤلاء اليهود الذين معكم لن يُسْلِموا.

وفيها: بيان ما يَعْسُر على الدُّعاة؛ لئلَّا يُنفقوا فيه الجهود والأوقات، فيُصابوا باليأس والإحباط.

وفيها: أنَّ اليهود إذا كانوا يتعمَّدون تحريف كتابهم، فقيامهم بتحريف كُتب الأديان الأخرى من باب أَولى؛ فكم حاولوا تحريف القرآن، وهم المسئولون عن أكثر التحريف الذي حصل للإنجيل.

وفيها: أنَّ المعصية إذا ارتُكِبَت عن عِلْم وفَهْم؛ فإنَّها أخطر وأسوأ من المعصية التي تُرتكَب عن جهل.

وفيها: حِرْص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على هداية الخَلْق وأهل الكتاب -ومنهم اليهود-؛ ولذلك بيَّن الله لهم أنَّهم لا يستجيبون ولا يؤمنون؛ لقطع أطماعِهم في إيمانهم.

وفيها: جريمة أحبار اليهود الذين كانوا يحُرِّفون الكتاب، ويأخذون الرِّشْوَة، ويأكلون المال بالباطل.

وفيها: تسلية الدُّعاة بما يُذهِب عنهم الأسى والأحزان.

وفيها: أنَّ صاحب العِلْم لا ينفعه عِلْمه، ولا يمنعه من المحرَّمات، إذا لم يُؤتَ إيمانًا وزكاءَ نَفْسٍ.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾:

ثم قال تعالى عن مَكْر اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إذا قابلوا المؤمنين

واجتمعوا بهم؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال منافِقو اليهود بألسِنَتهم ﴿ءَامَنَّا﴾: دخلنا في الإيمان كما آمنتم، وصِرْنا مسلمين مثلكم. وهذا ادِّعاء كاذِب وخديعة.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾: رجع الذين نافقوا من اليهود إلى الذين لم يُنافِقوا منهم، وانفردَ الأتباع بأحبارهم ورؤسائهم؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لبعضهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ الاستِفهام للإنكار والتعجب، أي: كيف تحدِّثون المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: بما بيَّنه لكم في التوراة من نبوَّة محمَّد ﷺ وصِفته، وبما قضى على أسلافكم من العذاب والعقوبات؛ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾، فيلوم بعض اليهود بعضًا على كشف الحقِّ الموجود في التوراة للمسلمين؛ لا يستعمله المسلمون في مُخاصمة اليهود، وإقامة الحُجَّة عليهم، وإفحامهم؛ فيكونوا أولى بالله منهم، وينتصروا عليهم في المُخاصَمة عند الله يوم القيامة.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: أين عقولكم، وأنتم تكشفون أمورًا ستُعين المسلمين عليكم؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ في اليهود منافِقين، وأنَّهم يتجسَّسون على المسلمين، وأنَّهم يحذرون من اطِّلاع المسلمين على شيء يستخدمونه حُجَّة على اليهود، وأنَّهم يتواصَون بكَتْم الحقيقة.

وفيها: تآمُر اليهود على المسلمين في مجالسهم الخاصَّة، وعقد الاجتماعات لذلك.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود يُحاسِب بعضهم بعضًا على طريقتهم مع المسلمين، فإنَّ الدُّعاة إلى الله عليهم أن يتناقشوا فيما بينهم، ويُراجِع بعضهم بعضًا في طريقتهم مع المدعُوِّين.

وفيها: أنَّه إذا كان اليهود لديهم مرجعيَّة، برجوعهم إلى كبرائهم وأحبارهم؛ فالمسلمون أَولى بأن يرجعوا إلى علمائهم ودُعاتهم؛ للاستفادة منهم، والتشاور معهم.

وفيها: أنَّ البيان من الله يُسَمَّى فتحًا؛ لأنَّه قبل أن يُبيَّن كان مُغلقًا على الناس.

وفيها: تهرُّب اليهود من الحقيقة، وحَذَرُهم من استعمال أقوالهم في إدانتهم، وحِرْصُهم على عدم الإدلاء بأيِّ تصريح يُفيد المسلمين، وتوبيخ بعضِهم بعضًا لو حصل ذلك.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾:

ثم وعظ الله هؤلاء اليهود، وذكَّرهم بأنَّه يعلم ما يُظهِرونه وما يكتُمونه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾: ما يُخفونه من النِّفاق، والكُفر بمحمَّد ﷺ، والكَيد للمؤمنين. وهذا يشمل ما يُسرُّه الواحد منهم في نفسه، وما يُسرُّه لأصحابه المقرَّبين منه.

والهمزة في قوله ﴿أَوَلَا﴾ للاستِفهام. وهو استِفهامٌ إنكاري، يتضمَّن توبيخ هؤلاء اليهود. وهو أيضًا استِفهامٌ تقريري؛ لحمل المخاطَب على الإقرار والاعتراف بأنَّ الله يعلم السِّرَّ والعلَن.

والمعنى: إذا كان عِلْم الله محيطًا بالظاهر والباطن، فكيف يُنافِق هؤلاء، فيُظهِرون شيئًا، ويُبطِنون ضدَّه، ثم يُؤنِّب بعضُهم بعضًا على كَشْف أشياء من التوراة؟!

﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: يُظهرونه لأصحاب النبي ﷺ، من الموافقة والإيمان في الظاهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سَعَة عِلْم الله تعالى، وإحاطته بعالم السِّر والعلانية.

وفيها: تهديد المنافِقين، وأنَّ المنافِق بنفاقه يكون قد نزَّل نفسه منزلة الجاهل، فلو كان عالمًا باطِّلاع الله عليه ما نافق.

وفيها: لُطف الله بالصَّحابة والمؤمنين؛ فإنَّه أطلعَهم على ما يفعله عدوُّهم في الخفاء.

والمؤمنون في هذا الزمان يقيسون ما يفعله أعداء اليوم على ما فعله أعداء الأمس، فقد تشابهت قُلُوبهم، ويعرفون عن أهل النِّفاق ما تزِلُّ به ألسِنَتُهم، وما يكون من لحن قولِهم، ويكونون على حذر من هؤلاء، ويستعينون بالله عليهم.

وفيها: ذَمُّ الذين نافقوا من عامَّة اليهود، والذين لم يُنافِقوا من خاصَّتهم وأحبارهم؛ فالذي أسرَّه منافِقوهم: الكُفر، والذي أعلنوه قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، والذي أسرَّه وكتمَه أحبارُهم وخاصَّتُهم: هو صِفة محمَّد ﷺ ونبوَّته، والذي أعلنوه: جَحْدُهم بذلك، وتكذيبُهم به.

وفي تقديم لفظة ﴿يُسِرُّونَ﴾ على لفظة ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ في الآية: إيذان بفضيحتهم، وكَشْف أسرارهم.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى بعضَ جرائم كُبَرائهم وأحبارهم؛ قال عن عامَّتهم وجَهَلَتهم: ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ أي: من اليهود، رهطٌ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يعرفون القراءة والكتابة.

و(الأُمِّيُّ): منسوب إلى أُمِّه؛ لأنَّ هذا في النِّساء أكثر من الرِّجال، وكذلك كانت حاله حين ولادتها له، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨].

﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: لا يدرون ما في التوراة، وإذا قرأوا لا يفهمون المعنى، ومَن كان كذلك كان بمثابة الأُمِّيّ.

وهؤلاء ليس عندهم إلَّا التقليد والأماني الكاذِبة؛ كما قال الله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وهو: الكلام الذي لا أساس له، والادِّعاء الكاذِب،كقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنَّ الله لا يعذِّبهم بذُنوبهم، وأنَّهم إذا دخلوا النَّار فلن يمكثوا إلَّا أيَّاما معدودات!

وقد ردَّ الله كلَّ ذلك بقوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهؤلاء حظُّهم من كتابهم السماع، دون القراءة والفهم: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ غير الحقِّ، ويكذِبون.

وهذه الأماني التي يتمنَّاها هؤلاء الأميُّون قد تكون مِن تلقاء أنفُسِهم، وقد تكون من وحي أحبارِهم وعلمائهم، كما يَعِدونَهم بالمغفرة والعفو والجنَّة؛ ليبقوا ملتفِّين حولهم، سائرين خلفهم؛ ولذلك يَكثر في كلام هؤلاء الرؤساء والمضلِّين ذكرُ الأجور الخياليَّة لمن سلك طريقهم، واعتنقَ مذهبهم، وعمل به، ويفعلون ذلك ليبقوا منتفِعين من أتباعهم، بالمال والجاه والرياسة عليهم.

بينما علماء أهل السُّنَّة والتوحيد لا يُمَنُّون مَن حضر عندهم وجلس إليهم بالأمانيِّ

الكاذِبة؛ وإنَّما يُعَلِّمونهم العيش بينَ الخوف والرجاء، وعدم الأمن من مكر الله، ولا اليأس من رحمته، ولا يقطعون لهم بالمغفرة والجنَّة، إنما يُعَلِّمونهم سُبُل تحصيلها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذَمُّ مَن لا يعتني بمعرفة معاني كتاب الله.

وفيها: أنَّ مَن لا يفهم المعنى فليس عنده إلَّا الظن، وأنَّ الظنَّ لا يُغنِي من الحقِّ شيئًا، والظنّ لا يُسَمَّى عِلْمًا.

وفيها: ذَمُّ الذين يُفَسِّرون الكتاب والسُّنَّة بآرائهم الشخصيَّة، ويخوضون في الأحكام الشرعيَّة دون الرُّجوعِ إلى العلماء، والأَخْذِ عنهم، ودون معرفةِ قواعد الدِّين، ودراسةِ ما يَلزم من علوم الآلة، ونحو ذلك.

وكلام مثل هؤلاء لا يعدو أن يكون ظنًّا، ولا يُطلَق عليه عِلْمٌ بحال.

ويُستفاد من ذلك: أنَّ القراءة والكتابة إذا لم يُصاحِبها فَهم وعقل ومعرفة للمعنى واستيعاب له، لا تكون مدحًا، ولذا نجد بعضَ مَن لا يقرأ ولا يكتب ربما يكون فَهمُه وعقلُه أحسنَ من غيره، ممَّن يقرأ ويكتب.

ولذا، فمكافحة الأميَّة لا تكون فقط بتعليم القراءة والكتابة؛ وإنَّما بتعليم المعاني وتفهيمها.

وفي الآية: أن المقلِّد ليس بعالم، قال ابن عبد البرّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقلِّد لا عِلْمَ له، ولم يختلفوا في ذلك»[1].

وفيها: أنَّ تعلُّم القراءة والكتابة من أهم الطُّرُق لنيل العِلْم، ويؤخَذ أيضًا بالسماع والمشافَهة.

وفي هذه الآية مع ما قبلها: عَرْضٌ لأقسام اليهود، وهذا مفيدٌ في فَهْم القوم والتعامل معهم؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ ذكر علماءَهم وعوامَّهم، ومُنافقيهم ومَن لم يُنافِق منهم، ولذلك تختلف

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٩٢).

طريقة التعامل والأحكام مع كلِّ طائفة؛ فنفرِّق في المبتدِعة -مثلًا- بينَ أئمَّتهم وعوامِّهم، وبين الدَّاعية إلى البِدعة وغير الدَّاعية.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

ثم تهدَّد الله الكَفَرة من أهل الكتاب -وهم اليهود- الذين حرَّفوا كتاب الله الذي نزَّله عليهم، وغيَّروا صِفة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكتوبة عندهم؛ ابتغاءَ عرضٍ من الدُّنيا، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَوَيْلٌ﴾: كلمة وعيد، ودعاء بالهلاك. وقيل: وادٍ في جهنم، أو: صديد، يسيل في أصل جهنم.

﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وهم: أحبار اليهود، الذين حرَّفوا التوراة، واختلَقوا مِن عندِ أنفُسِهم كلامًا موافقًا لهواهم، وكتبوه بأيديهم، وقدَّموه للناس على أنَّه كتاب الله.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لأتباعهم الجهلة، ومُشركي العرب: ﴿هَٰذَا﴾ المُحرَّف المُبدَّل ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنزلَه الله؛ ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ﴾ ليأخذوا مُقابِلًا عليه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عِوَضا زائلًا من الدُّنيا، من المال، أو الجاه.

وذلك أنَّ رؤساء اليهود لـمَّا قَدِمَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرَفوا نبوَّته؛ خافوا من زوالِ رياستهم، وانقطاعِ ما يأخذونه من أتباعهم من الأموال، إذا هُم اتَّبعوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعمِدوا إلى صِفته في التوراة فغيَّروها؛ حَسَدًا وبغيًا.

قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «عمِدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نَعْت محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحرَّفوه عن مواضعه، يَبْتَغون بذلك عَرَضًا من عَرَض الدُّنيا»(١).

ثم أعاد تعالى تهديدَهم بالعذاب الشديد؛ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾؛ وذلك لثبوت العُقوبة العظيمة عليهم يوم القيامة ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبَبِ ما كتبته أيديهم من التحريف.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧١).

﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ أي: سيحصل لهم العذاب الشديد، من أجل أخذِهم الحرام، وكسبِهم له، وكذلك اكتسابهم السيِّئات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الوَعيد بالعُقوبة، والعذاب الشديد، والهلاك، والفضيحة، والحَسْرة، لمن بدَّل كلام الله، أو كذبَ على الناس، بتقديمه المُحرَّف لهم على أنَّه كلام الله؛ ليأخذ على ذلك نصيبًا من الدُّنيا.

ولذلك كرَّر ذِكر (الويل) ثلاث مرَّات؛ ليُفيد استِحقاق العذاب لمن فعل أيَّ فِعْل من الثلاث؛ وهي: تحريف الكتاب، والكذِب على الله، وأَخْذ الثمن على ذلك.

وفيها: أنَّه مهما حَصَلَ لصاحب الباطل من العِوَض الدُّنيويّ -من مال أوجاه- فهو قليل، حتى لو أخذ الدُّنيا كلَّها عِوَضًا؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]؛ أي: بالنسبة للآخرة.

وفيها: أنَّ حُبَّ الدُّنيا يحمل على الجرائم العظيمة، كتحريف كلام الله، وخِداع الناس به.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل، وأنَّ العُقوبة نتيجة للمعصية، كما يُفيده قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الرُّؤساء الدِّينيِّين لأهل الكتاب لا يُؤتَمنون على ما أنزل الله؛ فقد حرَّفوه وبدَّلوه؛ ولذلك لا يجوز سؤالهم بقصد الاستفادة ممَّا عندهم، بل سؤالهم على وَجه الإنكار عليهم.

كما قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ! كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الكِتابِ بَدَّلُوا كِتابَ الله وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتابَ، وَقالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلا يَنْهاكُمْ ما جاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لا والله ما رَأَيْنا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ»(١).

---

(١) رواه البخاري (٧٣٦٣).

وفيها: أنَّ المُبتدِع في دين الله يشمله هذا الوَعيد.

وفيها: عُقوبة العالم المعانِد.

وفيها: أنَّ أخذ المال على تحريف الدِّين، أعظم إثمًا من السَّرِقة والغَصْب؛ لأنَّه حرامٌ من جهة أنَّه كَسْب محرَّم، ومن جهة مخادعة الناس والتلبيس عليهم وتضليلهم.

وأنَّ أخْذ المال بغير حقٍّ باسم الدِّين، أو لأجل المكانة والمرجعيَّة الدِّينيَّة هو من أعظم الباطل.

وفيها: أنَّ مَن عملَ عملًا محرَّمًا ترتَّب عليه كَسْب دُنيويّ؛ فإنَّ صاحبه يأثم على عمله، ويأثم على ما أخذه من الكَسْب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى بعض ادِّعاءات اليهود من الأمانيّ الكاذِبة؛ فقال:

﴿وَقَالُوا۟﴾ هؤلاء المحرِّفون من اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ لن تصيبنا نار الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ قلائل محصورة، قيل: بعدد أيَّام عبادة العِجْل.

وقيل: إنَّ اليهود كانت تقول: مدَّة الدُّنيا سبعة آلاف سنة، والعذاب يوم واحد في النَّار على كلِّ ألف سنة من أيَّام الدُّنيا، فإنَّما هي سبعة أيَّام، ثم ينقطع العذاب، كما رُوي عن ابن عبَّاس[(١)].

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرَّدِّ عليهم: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾، وهو استِفهام تقريريّ؛ لإلجائهم إلى الاعتراف بأصدق الأمرين.

و(العهد): هو الميثاق والالتزام المؤكَّد، و(الإخلاف): نقض العهد.

والمعنى: هل لكم مَوْثِق وأمان عند الله ألَّا يعذبكم إلَّا هذه الأيَّام المعدودة، بحيث لا يُخلِف وعده لكم بذلك؟!

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٧٧)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٥).

وحيث إنَّ هـذا ادِّعـاء كاذِب، وأنَّهم ليس لهم عند الله أمان وعهـد فيُنجِزه لهم، وحيث إنَّ هـذا كـذب وافتراء على الله؛ قـال تعـالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل تكذبون عليه.

ولذلـك جـاء في «الصحيـح»، عـن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال لليهود لـمَّا فُتحت خيْبَر: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُـمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَأُوا فِيهَا، والله، لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود يُقِرُّون بالآخرة، وأنَّ فيها النَّار، ولكن إقرارهم لا ينفعهم عند الله؛ لتكذيبهم بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: حُسن مجادلة القرآن لليهود.

وفيهـا: تحريـم القول على الله بلا عِلْـم، والقول على الله بلا عِلْم من شـأن اليهود، فإنَّهم يفعلونه كِبْرًا أو جهلًا.

وفيها: أنَّ الله لا يُخلِف الميعاد، وهذا يتضمَّن صفتَين عظيمتَين؛ وهما: الصِّدق، والقُدرة.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾:

ولـمَّا ادَّعـى اليهـود ذلك الادِّعـاء الباطل، من أنَّهـم لن يُخلَّـدوا في النَّـار، وأنَّ عذابهم سـيكون أيَّامًـا معدودة؛ ردَّ الله عليهم ذلـك بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا إثبـات لِـما بعد النفي؛ أي: بلى، ستمسُّكم النَّار، وتخلَّدون فيها أبدًا.

ثم بيَّن تعالى مَن الذي ستمسُّه النَّار، ومَن الذي لا تمسُّه النَّار؛ فقال:

﴿مَن كَسَبَ﴾ عمـل وارتكـب ﴿سَيِّئَةً﴾ المقصود بها هنا: الـشِّرك أو الكُفر، كما جاء

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٩).

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من أئمَّة التفسير[١]؛ لأنَّ مَن وقع في ذلك يستوجب الخلود في النَّار.

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ﴾: صارت كالحائط والسُّور عليه، واكتنفته من كل جانب، واستولَت عليه في قَلْبه ولسانه ويده. و(الإحاطة): هي الشمول.

﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ (الخطيئة) هنا: ما دون الكُفر، من الكبائر الموجبة لدخول النَّار.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: يُلازِمونها وتُلازِمهم، كما يُلازِم الصاحب صاحبَه ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: ماكثون فيها دائمًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الثواب والعقاب لا يترتَّب على الأشخاص بحَسَب النَّسب أو الانتماء؛ وإنَّما هو بحَسَب العمل.

وفيها: أنَّ مَن ارتكب سيِّئة دون الشِّرك ولم تُحط به خطيئته؛ فإنَّه لا يخلَّد في النَّار، وإنَّما يكون تحت مشيئة الله، إن شاء عذَّبه على سيِّئاته، وإن شاء عفا عنه.

وفيها: ردٌّ على اليهود الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾؛ فبيَّن لهم أنَّهم إذا بَقوا على سيِّئة الشِّرك فلن يخرجوا منها أبدًا.

وفيها: أنَّ مَن أحاطت به خطيئته ولم يكن له حسنة، فإنَّه يكون ممَّن لا يخرجون من النَّار.

وفيها: أنَّ بعض مرتكبي الخطايا تُوثِقهم خطاياهم، وتغشَى قُلُوبهم، وتحيط بهم إحاطة العدو، وتسُدُّ عليهم مَسالِك النجاة، ويموتون مُصِرِّين عليها. فإنْ كانت خطاياهم شِركًا أو كُفرًا؛ فخلودهم دائم في النَّار، وإن كانت دون الشِّرك فيكون خلودهم في النَّار -إن دخلوها- بمعنى: الإقامة واللُّبث الطويل، ثم يخرجون منها يومًا من الأيَّام.

وفي كلَّام أئمَّة التفسير -كابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره- في تفسير (السيِّئة) بالشِّرك: ردٌّ على الخوارج الذين احتجُّوا بهذه الآية على خلود صاحب الكبيرة في النَّار.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٨٠)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥).

وفي الآية: الرَّدُّ على المزاعم الباطلة للطوائف الضالَّة، وعدم السكوت عن ذلك؛ ليتبيَّن الحقُّ، ولا يغترَّ أهلُ الباطل بباطلهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾:

ثم قابل تعالى ذِكر أصحاب النَّار بذِكر أصحاب الجنَّة؛ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورُسُله، وقامت أركان الإيمان في قُلُوبهم، فأدَّى إيمانهم وتصديقهم إلى الإذعان والتسليم والانقياد.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ العمل يُصدِّق القول، ولا يكون العمل صالحًا إلَّا بأمرَين: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: مُلازِموها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا بُدَّ من العمل الصالح لدخول الجنَّة، وأنَّ العمل وحدَه لا يكفي حتى يكون صادرًا عن إيمان.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣﴾:

ثم بيَّن تعالى ما هي الأعمال الصالحة التي أعلَم بها بني إسرائيل؛ ليدخلوا الجنَّة؛ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، و(الميثاق): هو العهد المؤكَّد باليمين، فهو يوثِق المُعاهِد كما توثَق الأيدي والأرجل بالحبال؛ وذلك للزومه.

و(الميثاق) هنا: ميثاق النبوَّة والرسالة؛ وذلك تأكيدًا لعهد الخليقة والفِطرة الذي أخذه الله على بني آدم في عالم الذرِّ، وفَطَرهم عليه.

ثـم فصَّل تعالى هذا الميثاق؛ فقـال تعالى: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مخلِصين له، لا تُشرِكون به شيئًا، و(العِبادة): اسم يجمع كمال الحبّ لله تعالى، مع كمال الذلّ[1].

ولـمَّا ذكرَ تعالى حقَّه؛ أتبعَه بذِكرِ حقوق عباده، وأولها: حقُّ الوالدَين، فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدَين، وهذا يشمل جميع طُرُق الإحسان، من القول، والفعل، والمال، والجاه، وكلّ ما يُسَمَّى إحسانًا.

فعَطْفُه تعالى حقَّ الوالدَين على حقِّه؛ يُعظِّم حقَّهما؛ فهما سبَب وجود الولد، ولهما الفَضْل عليه في التربية والعِناية والإنفاق.

ثم أتبعَ ذلك بالأمر بصِّلة الرحم وبقيَّة الأقارب؛ فقال: ﴿وَذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إليهم، وهذا يشمل القرابة من جهة الأب ومن جهة الأم، ويقدَّمون في البِرّ بحَسَب درجاتهم في القرابة.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: أحسنوا إليهم. و(اليتيم) من الآدميِّين: مَن فقد أباه قبل بلوغه، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»[2].

والإحسان إليه يكون بـ: كفالته، وحُسن تربيته، والعطف عليه، والرأفة به، وحفظ حقوقه؛ وذلك لضَعفه، وذهاب مَن كان يقوم عليه.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ أي: أحسنوا إلى المساكين. و(المسكين): هو الذي أَسكنه الفقر، وقَعدَت به الحاجة.

والإحسان إليه: يشمل إعطاءَه من الزكاة والصَّدَقة، والسعي في قضاء حوائجه، ومواساته وتصبيره؛ ليرضى بالقضاء ويخفَّ ألـمُه.

وقد قال النبي ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ؛ كالمُجاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ»[3].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٤١)، (١٠/ ١٩)، (١٥/ ١٦٢)، مدارج السالكين (١/ ٩٥).
(٢) رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٢٤٤).
(٣) رواه البخاري (٦٠٠٦)، ومسلم (٢٩٨٢).

ولـمَّا أمر بالإحسان بالفِعْل؛ أتبعَه بالأمر بالإحسان بالقول؛ فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: ألينوا لهم القول، وتلطَّفوا معهم في الكلام.

ولـمَّا كان المال لا يسَع الكلَّ؛ كان من حُسن المعاملة ألَّا يُحرَموا منك قولًا جميلًا، وكلامًا طيِّبًا، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(١)].

وقال أبو العالية في الآية: «قولوا للناس معروفًا»[(٢)]، ويدخل في القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر -كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-[(٣)].

ولـمَّا بدأ تعالى الميثاق بالأمر بعبادته على وجه الإجمال، وذكر الإحسان إلى الخَلْق؛ أتبع ذلك بذِكر أشرف العِبادات البدَنيَّة، وأشرف العِبادات الماليَّة، فقال:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدُّوها تامَّة، قويمة بلا نقص. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أعطوها لمستحقِّيها عن طِيب نفس؛ تبتغون الأجر من الله.

فكانت هذه التكاليف الثمانية هي مقتضى الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، ولكنَّهم لم يلتزموا بذلك، ولم يقوموا به، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بعد قَبولكم للميثاق. و(التولِّي): تَرْك الشيء وراء الظهر، علامةً على الاستخفاف والرفض. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾؛ فإنَّهم قَبِلوا الحقَّ، وعملوا به.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: الذين تولَّوا كانوا في حالٍ من الإعراض، بالبدَن والقَلْب، فكيف يُرْجى أن يُقْبِل هؤلاء؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن الكلام مع الناس، حتى مع الكافر، لكن دون أن يُداهِنَه، أو يقرَّه على باطل.

وفيها: مراعاة الأَولى فالأَولى في المعاملة.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الترغيب (٣١٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٩٦).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٦١).

وفيها: أهميَّة الإحسان في التعامل مع الخَلْق، وهذا يقتضي عدم الإساءة؛ لأنَّ الأمر بالشيء في القرآن والسُّنَّة يتضمَّن النهيَ عن ضِدِّه.

وفيها: انتقاء الكلام، واختيار الحَسَن منه، وأنَّ الأفضل تَرْك الكلام الذي ليس بحَسَن ولا سيء.

وفيها: أنَّ القواعد العامَّة في المعاملة مع الله وخَلْقه موجودة في سائر شرائع الأُمَم مِن قبلنا.

وفيها: تذكير اليهود في زمن النبي ﷺ وما بعده، بما فعله أسلافهم من السُّوء؛ ليَحْذروا من متابعتهم في ذلك، وأنَّ الخَلَف لا يجوز له أن يتَّبع مَن سَلَفَه في الشرِّ.

وفيها: أنَّ مَن تولَّى بجسمه وأعرض بقَلْبه؛ فهو من شرِّ الخليقة.

وفيها: تقديم حقِّ الوالدَين على حقوق سائر الناس، كما دلَّ على ذلك اقترانُ حقِّهما بتوحيد الله؛ وذلك أنَّ النشأة الأُولى من الله، والنشأة الثانية- يعني في الدنيا- من الوالدَين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى طائفة من الأوامر التي أمر بها بني إسرائيل؛ أتبعَ ذلك بِذكر طائفة من النواهي التي نهاهم عنها، وكان قد أمرَهم في الميثاق بصيانة حقوق الله، وحقوق عباده.

وكان ممَّا أخذه عليهم أربعة أمور: ألَّا يَسفِك بعضُهم دماء بعض، ولا يُخرِج بعضُهم بعضًا من ديارهم، ولا يُعاوِن بعضُهم بعضًا على الإثم والعدوان، وإن وَجد بعضُهم بعضًا أسيرًا فداه -ولو بجميع ما يملك-.

فذكَّر الله تعالى اليهود بهذا الميثاق، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا أيُّها اليهود، وقتَ أن جعَلْنا العهد على آبائكم في التوراة ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾: لا تُريقونها ظلمًا وعدوانًا. وهذا يشمل نهي الواحد منهم عن قَتْل نفسه، ونهيه عن قَتْل أخيه من أهل مِلَّته.

﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: لا يُخرِج بعضكم بعضًا من داره ووطنه. وكلُّ أهل دين كنَفس واحدة، فإذا أَخرج أخاه فكأنَّما أخرج نفسه.

و(الدِّيار): جمع دار، وهو منزل الإقامة، بخلاف منزل الارتحال. ويدخل في هذا: لا تُسيئوا جوار جيرانكم؛ فتضطروهم للرحيل.

﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ﴾ بهذا الميثاق، وقَبِلْتموه، فلا يزال مأخوذًا عليكم، كما أُخِذ على أسلافكم. ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ عليه.

ويدخل في هذا: إقرار مَن كان في زمن النبي ﷺ بالميثاق الذي أقرَّ به أسلافُهم، وهم يشهدون على أسلافهم بهذا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل المِلَّة الواحدة كالنفس الواحدة، وهذا في المسلمين أيضًا، كما قال النبي ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[(١)]، وقال النبي ﷺ: «ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ»[(٢)].

وفي الآية: أنَّ إخراج الإنسان لأخيه من داره ووطنه، فيه إيذاء عظيم، ومشقَّة على النفس؛ ولذلك حرَّمه الشَّرْعُ الحنيف.

وفي الآية: أنَّ مَن اعتدى على أخيه في الدِّين، فكأنَّما اعتدى على نفسه.

وفيها: تحريم الانتحارِ وقَتْلِ الإنسان نفسه، مهما أصابه من الشِّدَّة والبلاء.

وفيها: عِظَم جُرْم بني إسرائيل؛ لأنَّهم نقضوا عهد الله وميثاقه، بعد أن أقرُّوا على أنفُسِهم بالميثاق، وشَهِدَ بعضُهم على بعض بذلك.

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٠)، ومسلم (١٣٧٠).

بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ
بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾:

ثم بيَّن تعالى كيف خالف بنو إسرائيل هذا الميثاق الذي أخذه عليهم؛ فقال:

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يا معشر اليهود ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ كما قاتل بعضهم بعضًا، قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة، ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾: تُجلُون إخوانكم عن ديارهم وأوطانهم. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم﴾ مستعينين بحلفائكم من المشركين ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: متلبِّسين بالمعصية والذنب، ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: التجاوُز في الظلم، والاعتداء على الغير بغير حقٍّ.

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ﴾ أي: إذا جاء إليكم إخوانكم الذين اعتديتم عليهم ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: قد استولى عليهم حلفاؤكم من المشركين وأوثقوهم؛ ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾: تقومون بفكِّهم من الأَسر، بفِدية تدفعونها، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡ﴾ أي: قد نصَّ كتابكم على تحريم إخراجهم من ديارهم، فأنتم تخالفون -من جهةٍ- بالاعتداء عليهم، وتوافقون -من جهةٍ- بفدائهم!

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾: وهذا الاستِفهام، للإنكار والتوبيخ، فكيف يسفِكون دماء إخوانهم، ويُخرجونهم من ديارهم، ثم يقومون بدفع الفِدية عنهم لفكِّهم من الأَسر؟!

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ بني قَيْنُقاع من اليهود كانوا حلفاء الخزرج، وبني النضير وقُريظة كانوا حلفاء الأوس، فإذا نشبت الحَرْب بينَ الأَوْس والخَزْرَج قاتل كلُّ فريق من اليهود مع حلفائهم، فيؤدِّي ذلك إلى أنَّ يقتُل اليهوديُّ أخاه في الدِّين، ويُخرِج بعضُهم بعضًا من بيوتهم، وينهبون ما فيها، وهم يعلمون أنَّ ذلك محرَّم عليهم في التوراة.

فإذا وضعت الحَرْبُ أوزارها؛ قام اليهود الذين قاتلوا مع الفريق الغالب بفكِّ أسر

اليهود الذين قاتلوا مع الفريق المغلوب؛ تطبيقًا لما في التوراة -بزعمهم-! فأنكر الله عليهم هذا التناقض، ووبخَّهم عليه؛ فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1].

وهذا من اتِّباع الهوى؛ لأنَّ الإيمان بالأحكام لا يجوز أن يتجزَّأ.

ثم هدَّدهم على هذا؛ فقال: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: ليس ثوابه ومُقابَلته على عمله ﴿إِلَّا خِزْىٌ﴾: ذُلٌّ وهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بما يحصل لهم من الفضيحة، والإجلاء، والقَتْل، وتسليط العدُوّ، وأخْذ الجِزْية، ونحو ذلك؛ بسبَبِ مخالفة شَرْع الله وأمْره.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سُمِّيَ بذلك؛ لقيام الناس من قبورهم فيه لربِّ العالمين، ولقيام الأشهاد فيه، ولأنَّه يُقام فيه بالعَدْل. ﴿يُرَدُّونَ﴾ من ذُلِّ الدُّنيا وخزيها، وعذابِ القبر ﴿إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وأعظمِه في نار جهنم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾: نفى عن نفسه صفة الغفلة؛ لكمال عِلْمه وإحاطته ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح والمُنكَرات.

ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: اليهود الذين نقضوا العهد، ومَن شابههم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: استحبُّوها على الآخرة، واختاروها، فالدُّنيا مرغوب فيها عندهم -مع أنها دنيَّة- والآخرة مزهود فيها عندهم -مع أنها خيرٌ وأبقى-.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: لا يُهوَّن عليهم في الزمن، ولا في الشِّدَّة، فلا ينقطع ولا يَقِلّ؛ مع كونهم يرجون ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]؛ فهُم يائسون من الخروج، ويائسون من التخفيف.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: ليس لهم ناصرٌ، يدفع عنهم عذاب الله.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ الأمّة كالنفس الواحدة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩).

وفيها: أنَّ الكُفر ببعض الشريعة كُفر بجميعها.

وفيها: تحذير هذه الأُمَّة ممَّا وقع فيه اليهود.

وفيها -مع التي قبلها-: ذِكر الميثاقَين اللَّذَين أخذهما الله على بني إسرائيل، وفي الأول الأوامر، وفي الثاني النواهي؛ وذلك لأنَّ التكاليف الشرعيَّة مبنيَّة على الأوامر والنواهي.

وفيها: البدء في الدَّعوة بالأوامر -وهي تتضمَّن أفعالًا- ثم بالنواهي -وهي تتضمن تروكًا- والأفعال أشقُّ من التروك، وتُقَدَّم الأوامر لأنَّها أوجب.

وفيها: توبيخ مَن اختار الدُّنيا على الآخرة؛ لأنَّ مَن اختار الفاني على الباقي فهو مغبون.

وفيها: أنَّه يجب الأَخْذ بجميع الدِّين؛ لأنَّه حقٌّ وصدق.

وفيها: التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأنَّه إذا انتفى تخفيفُ العذاب، فانتفاء رفعه من باب أَولى.

وفيها: التحريم الشديد للاستعانة بأعداء الدِّين على الإخوان في الدِّين.

وفيها: أنَّ اتِّباع الهوى يؤدِّي إلى التناقُض، كما حصل لبني إسرائيل من مقاتلة إخوانهم، وإخراجهم، ثم افتدائهم!

وفيها: العذاب الشديد لمن جمع بينَ الإثم اللازم، والإثم المتعدِّي.

وفيها: وجوب صيانة دم المسلِم، وتأمينه في داره وبلده، وفكِّه من الأَسر، ولو بدفع المال الكثير.

وفيها: أنَّ بعض عقوبات المعاصي معجَّلة في الدُّنيا -كالخزي- وبعضها مؤخر في عذاب النَّار.

وفيها: أنَّ الله كتب على اليهود العذابَين، وضاعفَ العُقوبة عليهم، وجعلهم يوم القيامة في أشدِّ العذاب.

وفيها -مع التي قبلها-: أنَّ الإيمان يقتضي فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

وفيها: أنَّ مَن قام ببعض الشريعة فقط لا يستحقُّ المدح؛ بل يستحقُّ الذَّمَّ؛ فإنَّ الله قد أمر اليهود بتَرْكِ قَتْل إخوانهم، وتَرْكِ إخراجهم من ديارهم، وتَرْكِ المُظاهَرة بالآخَرين عليهم،

وافتدائِهم إذا وقعوا في الأَسر، فخالفوا ثلاثًا، وقاموا بالرابعة؛ فذمَّهم أشدَّ الذَّمِّ، وجعلهم في أشدِّ العذاب.

وفيها: أنَّ الاشتغال بالدُّنيا عن الآخرة يؤدِّي إلى تضييع الأوامر، وارتكاب النواهي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾:

ولـمَّا كانت مخالفة أمر الله ونهيه دَأْبًا وعادةً لازمةً لليهود؛ ذكَّرهم بذلك، وأنَّهم قد كفَروا نِعمة الله عليهم، بمخالفةِ وتحريفِ ما أُنزل عليهم من الكتب، وتكذيبِ وقَتْلِ من أُرسل إليهم من الرُّسُل؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾: أعطينا، وهذا يشمل: الإنزال، والتفهيم ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، التي أنزلها عليه جملة واحدة. وأكدَّ تعالى هذه النِّعمة بـ(لام التأكيد، و(قد)، والقَسَم المقدَّر.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أتبعنا وأردفنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿بِٱلرُّسُلِ﴾ كيوشع، وداود، وسليمان، وزكريّا، ويحيى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: أعطيناه ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي: الآيات الظاهرات، الدالَّة على صدْقِه ونبوَّته. وهي شرعيَّة كالإنجيل، وكونيَّة كإحياء الطير والموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرَص، وتنبئة الناس بما يُخْفون.

وأُضيف (عيسى) إلى أمِّه (مريم)؛ لأنَّه ليس له أب، وردًّا على مَن يقول: إنَّه ابن الله.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قوَّيناه وأعنَّاه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و(القُدُس): الطاهر، وهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسَّان بن ثابت: «اللهُمَّ أيِّدْهُ برُوحِ القُدُسِ»[١].

(١) رواه البخاري (٤٥٣)، ومسلم (٢٤٨٥).

وكان تأييـد عيسـى بجبريـل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمـور؛ منهـا: حمايتـه من الشَّـيطان عنـد الولادة، والنـزول بالإنجيل عليه، وتلقينه الحُجَّة، ورَفْعه إلى السماء حين أراد اليهودُ قَتْلَه.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ مـن عنـد الله. والاسـتِفهام للإنـكار والتوبيـخ. ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾: لا تُريده، ولا يوافِق هواها. ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تعالَيْتم عليه. و(الكِبْر): رَفْض الحقِّ، واحتقار الناس.

﴿فَفَرِيقًا﴾ طائفـة مـن الأنبيـاء ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كـما فعلوا مع عيسـى ومحمَّد عليهـما الصَّلاة والسـلام. ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كما فعلوا مع زكريّا ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكذلك وضعوا السُّمَّ لمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمات متأثِّرًا به شهيدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُوالاة الأنبياء؛ لتثبيت الحقِّ.

وفيها: أنَّ الملائكة تؤيِّد مَن أمرهم الله بتأييده.

وفيها: استعمال المؤكِدات في مخاطَبة المنكِر والمتردِّد في تصديق الخبر ذي الأهميَّة البالغة.

وفيها: أنَّ مَن ليس له أب؛ فإنَّه يُنسَب إلى أمِّه.

وفيها: أنَّ الكِبْر يدفع إلى التكذيب.

وفيهـا: أنَّ بني إسرائيـل لم يكونوا يريدون الحقَّ، وما كانوا يقبلـون إلَّا ما وافق هواهم، وإنَّما سُمِّيَ الهوى بذلك؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وفيها: أنَّ بني إسرائيل استمرُّوا في قَتْل الرُّسل، حتى كان وضع السُّمِّ لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمات متأثِّرًا بذلك، حتى قال لعائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مرضه الذي ماتَ فيه: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي من ذَلِكَ السُّمِّ»[1].

وفيها: أنَّ كلَّ مَن استكبر عن الحقِّ؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٨) معلقـا، ووصلـه الحاكـم (٤٣٩٣)، وصححـه الألباني في صحيـح الجامع (٧٩٢٩). و(الأبهر): عِرق متصل بالقَلْب، إذا انقطع ماتَ صاحبُه.

وفيها: أنَّ من أسباب التكبُّر عن الحقِّ: مخالفته لهوى المتكبِّر.

وفيها: أنَّ الناس لا يزالون يحتاجون إلى مواصلة تذكيرهم بالخير، ونهيهم عن الشَّرِّ.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى ما قالته اليهود، الذين رفضوا دعوة النبي ﷺ، مقتدين في ذلك بأسلافهم، في إصرارهم على رَفْض الحقِّ:

﴿وَقَالُواْ﴾ لمن دعاهم للإسلام: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ في غِطاء، وعليها طابع وغشاوة، فلا تفقَه، وبعيدة عن الخير. وقيل: المعني: قُلُوبنا غُلُف، وأوعية مملوءة عِلْمًا، فلا تحتاج إلى عِلْم محمَّد، ولا غيره.

وكلُّ هذا الكلام حُجَّة باطلة عند رب العالمين؛ ولهذا قال ﴿بَل﴾ وهذا يدلُّ على إبطال حُجَّتهم ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: طردَهم، وأبعدَهم عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبَبِ كُفرهم؛ لأنَّهم اختاروه وقدَّموه على الإيمان، فخذلَهم الله تعالى، وتخلَّى عنهم.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمن منهم إلَّا القليل، أو: إيمانهم قليل، وهو مع ذلك لا ينفعهم؛ لأنَّهم خَلَطوه بالكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

محاولة الكفَّار للإتيان بحُجَج لتقوية موقفهم، ولو كانت حُجَجُهم باطلة.

وفيها: أنَّ من أساليب العُتاة المتمرِّدين من المدعُوِّين: تيئيس الدَّاعية، وإخباره أنَّه لا فائدة من كلامه، وأنَّه مهما دعاهم فلن يستجيبوا ولن يتأثَّروا.

وقد استعمل أعداء الرُّسُل هذا الأسلوب؛ فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلت: ٥].

وفيها: استكبار اليهود، وفرحُهم بما عندهم من العِلْم، حتى صرَّحوا أنَّهم مُستغنون عمَّا عند النبي ﷺ من الهدى والعِلْم.

وفيها: أنَّ مَن أعرض؛ أعرضَ الله عنه، واستحقَّ اللَّعنة.

وفيها: تفنيد حُجَج الكفَّار وشُبُهاتهم؛ ليَهْلِك مَن هلك عن بيِّنة.

وفيها: أنَّ القُلُوب في أصلها وفِطرتها تتقبَّل الحقَّ، ولكن أهل الباطل يُفسِدونها، ويُوجِدون فيها موانع التأثُّر.

وفيها: أنَّ الهداية لا تتمُّ إلَّا بوجود أسبابها، وانتفاء موانعها.

وفيها: أنَّ ممَّا أهلك اليهود: تزكية أنفُسِهم، ومدحها المدحَ المذموم، والاغترار بما عندهم.

وفيها: أنَّ الغُرور يمنع التعلُّم.

وفيها: تفنيد حُجَج المدعُوِّين من أهل الباطل؛ حتى لا ييأس الدُّعاة، ولا تلتبس عليهم الأمور.

وفيها: أنَّ اليهود أقلُّ الناس دخولًا في الإسلام، وأقلُّ الناس إيمانًا بما في أيديهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى تكذيبَ اليهود بمحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أُنزل عليهم؛ فقال: **﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ﴾** أي: اليهود في زمنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **﴿كِتَٰبٞ﴾** وهو القرآن **﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾** وصفَه بذلك تشريفًا وتعظيمًا، وأنَّه كتاب جدير بالقَبول والعمل بما فيه؛ لأنَّه نازل من عند الله.

﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾: موافق لما معهم من التوراة، المذكور فيها صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك فإنَّ هذا القرآن يشهد بأنَّ ما أُنزِل على أنبياء بني إسرائيل -من التوراة والإنجيل والزبور- حقٌّ من عند الله.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: اليهود **﴿مِن قَبۡلُ﴾**: قبلَ البِعْثة النبويَّة ونزول القرآن **﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾**: يطلبون من الله الفتح والنصر على مُشركي العرَب، ويقولون في دعائهم: «اللهُمَّ انصرنا على أعدائنا، بالنبيِّ الأُمِّيِّ المبعوث في آخر الزمان».

وكانوا يقولون لأعدائهم العرَب، من الأوس والخزرج وغيرهم من المشرِكين قبل البِعْثة: «إنَّه سيُبعَث نبيٌّ في آخر الزمان، نقتُلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم».

وقال أبو العالية: «كانت اليهود تستنصِر بمحمَّد ﷺ على مُشركي العرَب، يقولون: اللهُمَّ ابعث هذا النبيَّ الذي نجده مكتوبًا عندنا، حتى يعذِّب المشرِكين ويقتُلهم»(١).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ أي: محمَّد ﷺ، على الصِّفة المذكورة عندهم؛ ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾: جحدوا نبوَّته؛ بغيًا وحَسَدًا.

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ وهي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحِلُّ عليهم اللعنة، وتنزِل بهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود كانوا يعرفون أنَّ النبي ﷺ سيُبعَث، وتكون له الغلَبة.

وفيها: أنَّ اليهود لم يخضعوا للحقِّ الذي أقرُّوا به سابقًا.

وفيها: شِدَّة كُفر اليهود؛ لأنَّهم كفَروا وكذَّبوا بالنبي ﷺ، مع عِلمهم بنبوَّته.

وفيها: أنَّ الكافر مستحقٌّ للعنة الله، وأنَّها نازلة به لا محالة إذا مات على الكُفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١].

وفيها: جواز لَعْن جِنس الكفَّار، أو الكافر غير المعيَّن.

وفيها: أنَّه يجب على الإنسان أن يعرف الحقَّ بالحقِّ، لا بالرِّجال.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنتَ وحدَك»(٢).

وقال الفُضَيل بن عياض رحمه الله: «عليك بطريق الحقِّ، ولا تستوحِش لقلَّة السالكين، وإيَّاك وطريقَ الباطِل، ولا تغترَّ بكثرة الهالِكين»(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٣٥)، هداية الحيارى (٢/ ٣٧١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للالكائي (١٦٠).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ١٣٦)، مدارج السالكين (١/ ٤٦).

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾:

ثـم ذمَّ الله تعـالى اليهود على ما فعلوه؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِئْسَمَا﴾، و(بئس): فِعْل يُستعمل للذمِّ.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ المعنى: قَبُحَ الشيء الذي اختاروه لأنفُسِهم؛ حيث دفعوا الإيمان وأخذوا الكُفر، ودفعوا الحقَّ وأخذوا الباطل، والذي يبيع الإيمان ويشتري الكُفر فهو مغبون؛ قد ضيَّع حقَّ نفسه.

﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: أنَّ هؤلاء اليهود كفَروا بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدلًا من أن يؤمنوا به، وكفَروا بالقرآن الذي أنـزله الله.

﴿بَغْيًا﴾ أي: كان البغيُ سببَ كُفرهم، وهو: الظُّلْم والحَسَد والعدوان.

وكان الكِبْر أيضًا من أسباب رفضهم الحقَّ، والحاسد باغٍ وظالم؛ لأنَّه يريد أن ينتزع لنفسه ما آتى اللهُ المحسودَ من الفَضْل.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (الفَضْل): هو زيادة العطاء، والمراد به هنا: الوحي والقرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨].

فالمعنى إذن: بئس البيع عندما أعطَوا الإيمان وأخذوا الكُفر؛ حَسَدًا للمسلمين على ما أنـزل الله إليهم من فَضْله.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم: الأنبياء، الذين يصطفيهم ويختارهم.

﴿فَبَآءُو﴾: استوجب هؤلاء اليهود الجاحدون واستحقُّوا، ورجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ من الله ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ آخرَ فوق الأول؛ بسبَبِ توالي كُفرهم، من عبادة العِجْل، والكُفر بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والإنجيل، إلى كُفرهم بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن. فبهذا الكُفر اللَّاحق مع الكفر السابق استحقُّوا لعنةً من الله وغضبًا، في إثر لعنةٍ وغضب.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: ذو إهانة وإذلال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

العُقوبة الشديدة لمن كفرَ بنبوَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورفضَ وحيَ الله والقرآن.

وفيها: أنَّ الحَسَد والكِبْر من أعظم أسباب الكُفر، وأنَّ مَن ردَّ الحقَّ بسببِهما فهو متشبِّه باليهود.

وفيها: معرفة نِعمة الوحي والنبوَّة، وأنَّها أعظم نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ مَن آتاه الله منه فَضْلًا، فينبغي أن يكون من أعبد الناس، وأكثرهم تواضعًا.

وفيها: أنَّ الله أعلَمُ حيث يجعل رسالته، وأعلَمُ بمَن يتحمَّل أعباءَها، ويصلُح لها.

وفيها: أنَّ توالي الذُّنوب وتراكمها يؤدِّي إلى لعنات الله وغضبه، على مُقترفيها.

وفيها: أنَّ المستكبِر يُعاقَب بنقيض حاله، وكما رفض الحقَّ تكبُّرًا في الدُّنيا، فإنَّ الله يُذيقه الهوان والصَّغار والذُّلَّ في عذاب الآخرة.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[1] فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ من كُلِّ مَكَانٍ»[2].

وفيها: أنَّ المراتب الدِّينيَّة من فَضْل الله تعالى، ولا يجوز الاعتراضُ على تفضيل الله، ولا حَسَدُ مَن فضلَّه الله، إلَّا من باب الغِبطة.

وفيها: إثبات الغضب لله عَزَّوَجَلَّ، على الوَجه اللَّائِق به سبحانه.

وفيها: أنَّ موافقة الجيل المتأخِّر للجيل المتقدِّم في الكُفر؛ يؤدِّي إلى اشتراكهم في العذاب، ونـزول اللَّعنة والغضب على الجميع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾:

ثـم قال تعـالى -في إفحام اليهود، وبيان تناقُضِهم، وكذبِهم، والرَّدِّ عليهم-: ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(١) أي: أمثال النمل الصغير، في الصِّغَر والحقارة.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاريُّ في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

﴿لَهُمۡ﴾ في دعوتهم ومجادلتهم: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يشمل القرآن الذي أنزله الله على محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا جميع الكتب الإلهيَّة.

﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾: نستمرُّ على الإيمان بالتوراة، ونكتفي بذلك، ولا نؤمن بسواها، ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: وحالهم أنَّهم يجحدون بما أُنزل بعد التوراة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي: مع أنَّه منزَّل من عند الله، وهو صِدْق يُوافق التوراة في أمور الإيمان والعقيدة وغير ذلك، وفي التوراة الإشارة إليه أيضًا.

﴿قُلۡ﴾ يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ داعية يُجادِل اليهود بالحقِّ، فيُخاطِبهم إلزامًا وبيانًا: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادِقين في ادِّعائكم الإيمانَ بالتوراة التي أُنزلت عليكم، فلماذا قتلتُم الأنبياء الذين جاءوكم يحكمون بالتوراة؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان لا يَصِحُّ إلَّا بالإقرار بجميع ما أنزل الله من الكتب، وعدم التفريق بينها في الإيمان.

وفيها: أنَّ اليهود أهل بغي واعتداء، فيقتُلون مَن خالف هواهم، ولو كان من أنبياء الله، مع أنَّه مكتوبٌ عندهم في التوراة تحريمُ القَتْل بغير حقٍّ، ومكتوبٌ عندهم الإيمانُ بجميع أنبياء الله.

وفيها: بيان كذِب اليهود في قولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾؛ لأنَّه مكتوبٌ عندهم في التوراة صفةُ الرسولِ النبيِّ الأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك كفَروا به.

وفيها: وجوب قَبول الحقِّ من كلِّ مَن جاء به.

وفيها: مثالٌ عظيم لإفحام اليهود، وإقامة الحُجَّة عليهم، وبيان تناقُض أصحاب الباطل.

وفيها: ذِكر حَيْدة اليهود عن الإقرار بالحقِّ، وإجابتهم المُلتويَة.

وفيها: أنَّ موافقة المتأخِّرين على جريمة المتقدِّمين، يُعتبَر مشاركة فيها.

وفيها: أنَّ مَن رضيَ بالمعصية فكأنَّما فعلَها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

ثم ذكرَ تعالى أنَّ اليهود كفَروا مع وضوح الآيات أمامهم، وقيام المعجِزات فيهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: مصحوبًا بالدلائل القاطعة على أنَّه رسولٌ من عند الله.

ومن هذه البيِّنات: الطُّوفان، والجرَاد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والرُّعاف بالدَّم، أو انقلاب الماء دمًا، والعصا التي تصير ثعبانًا، واليد التي تُنزَع بيضاء من غير سُوء، وفَلْق البحر، وتظليلهم بالغَمام، وإنزال المنِّ والسَّلْوى، وتفجير العيون من الحَجَر، وغير ذلك ممَّا شاهدوه وعاينوه بأنفُسِهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ معبودًا من دون الله، و(العِجل): ولدُ البقر، صنعه السَّامِريُّ الضالُّ المُضِلُّ من الحُليِّ والذهَب، على هيئة هذا الحيوان، ودعاهم لعبادته، فأطاعوه.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: اتخذوه إلهًا، من بعد أن ذهب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الطُّور لمناجاة الله.

﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: والحال أنَّكم ظالمون لأنفسكم، بوقوعكم في الشِّرك، وبوضع العِبادة في غير موضعها. والشِّرك ظُلْم عظيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

سفاهة اليهود الذين عبدوا شيئًا مصنوعًا بأيديهم.

وفيها: أنَّ طول العَهد وبُعد المدَّة من النبيِّ والعالِم والمربِّي، يُقسِّي القَلْب، ويُوقِع في الشِّرك والبِدعة والمعصية.

وفيها: هَيبة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنَّهم لم يكونوا يستطيعون في وجوده وحضوره أن يُشرِكوا.

وفيها: أنَّه ينبغي على الدَّاعية أن يحرص على مُلازَمة المدعُوِّين ما أمكن؛ حتى تضيقَ فُرصة الشَّيطان في إضلالهم.

وفيها: أنَّه يجب التعلُّق بالحقِّ لا بالأشخاص، وأنَّه مهما غاب النبيُّ أو العالم أو القُدوة؛ فلا يجوز تَرك الواجبات أو فِعْل المحرمات في غيابه.

وفيها: أنَّ اليهود وقعوا في الشِّرك عن ظُلْم وعِلْم، وليس عن جهل وغفلة.

وفيها: بيان كذِب اليهود في ادِّعاءاتهم، ومنها قولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾.

وفيها: أنَّ من خصال اليهود: مُقابَلة النِّعَم بالشِّرك والكُفران.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى مثالًا آخر لمعاندة اليهود، وإصرارهم على الشِّرك، وكذِبهم في ادِّعائهم؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العَهد المؤكَّد للعمل بما في التوراة. ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾: قلعنا ذلك الجبل، وحبسناه فوق رؤوسكم؛ تهديدًا بسقوطه عليهم، إذا امتنعوا عن الاستجابة للحقِّ، وأبوا اتِّباع ما أمرهم الله به.

وقال عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾: اعملوا بالكتاب الذي أعطيناكموه ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجدٍّ واجتهادٍ، وعزيمةٍ ونشاط. ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: سماعَ قَبولٍ واستجابةٍ وطاعة.

فكان ردُّهم: الإعراض والتولِّي، فعلًا وقولًا: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: سَمِعنا بآذاننا فقط، وعصَينا بأفعالنا، وخالَفْنا. و(العصيان): هو الخروج عن الطاعة، بتَرْك المأمور، أو فِعْل المحظور.

ولعلَّهم قالوا ذلك بعد رجوع الجبل إلى مكانه، وزواله من فوق رؤوسهم!

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: تَغَلْغَل حُبُّ العِجل في قُلوبهم، وامتلأت به.

قال قتادة: «أُشرِبوا حبَّه، حتى خلَصَ ذلك إلى قُلُوبهم»[1].

﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي: بسبَبِ كُفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما بقيَ في قُلُوبهم من الآثام السابقة، فُتِنُوا بالعِجْل لـمَّا صنعَه لهم السَّامِريُّ.

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٠).

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد ﷺ، ومَن يجادل هؤلاء اليهود: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ (بئس): من أفعال الذَّم، أي: بئسما يأمركم به إيمانكم عبادة العِجل، فإذا كان مقتضى الإيمان عندكم أن تعبدوا هذا العِجل، فبئس هذا الإيمان. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: صادِقين في دعوى الإيمان، والمقصود: إن كنتم مؤمنين حقيقة، فكيف يأمركم إيمانكم بالعمل القبيح؟

و(الإيمان) في الأصل: ضدُّ الشِّرك والكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ بني إسرائيل ما آمنوا إلَّا عن كُره، وما أظهروا الطاعة إلَّا حين صار الجبل فوق رؤوسهم.

وفيها: عظيم قُدرة الله؛ بقَلْع الجبل من مكانه، وإمساكه في الهواء.

وفيها: وجوب تَلَقِّي شريعة الله بالنشاط والجدِّيَّة، وليس بالكسل والفتور.

وفيها: وقاحة بني إسرائيل وعِنادهم، في قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وفيها: أنَّ سماع الإدراك لا يَعني الاستجابة، والمؤمن إذا سمع استجاب.

وفيها: أنَّ المؤمن الحقَّ لا يأمره إيمانه بالمعصية والشرِّ.

وفيها: أهميَّة تطهير القَلْب من الأدران السابقة، والآثام الماضية؛ حتى لا يُصبح قابلًا للافتتان.

وفيها: أنَّه ينبغي على مَن تاب إلى الله وأناب، أن يتخلَّص من كلِّ شوائب الجاهليَّة، سواءً كانت كُفرًا أو بِدعة أو معصية؛ حتى لا يعود إلى ما كان عليه، ولا يَفْتَتِن بما يجِدُّ ويُعرَض عليه من أنواع الشِّرك والمعاصي.

وفيها: أنَّ مَن تشرَّب قَلْبُه حبَّ شيء؛ فإنَّه يُعميه عن رؤية عيوبه، ويُصِمُّه عن سماع ما يَطعَن فيه، وهذا معنى قولِهم: «حُبُّك الشيء يُعْمِي ويُصِمُّ».

وفيها: أنَّه ينبغي تقوية إيمان مَن أسلم خائفًا؛ حتى لا يعود إلى الكُفر، بإزالة ما يُخيفه.

وفيها: التهكُّم بمَن ادَّعى الإيمان وهو كاذِب؛ لينكشفَ أمرُه أمام نفسه، وأمام الآخرين.

وفيها: أنَّ مريض القَلْب مهما رأى من الآيات، فإنَّه لا يؤمن حقيقة؛ بل تكون طاعته مؤقَّتة ظاهرة، حتى إذا زالت الآيات رجع إلى ما كان فيه.

وفيها: تعلُّم الأدب مع الله، في عدم نسبة فِعْل الشرِّ إليه مباشرة، مع أنَّه خالِقه ومقدِّره، كما يُفيده بناء الفعل للمجهول في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾، والذي أَشربهم إيَّاه في قُلوبهم حقيقةً: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا كقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[١]، وقول مؤمني الجنّ: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

ولـمَّا ادَّعى اليهود -عليهم لعنة الله- أنَ الجنَّة خالصة لهم من دون الناس، وأنَّ النَّار لن تمسهم إلَّا أيَّامًا معدودات، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه؛ بيَّن الله تعالى كذِبهم، وتحدَّاهم بهذه الآية؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهؤلاء اليهود: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ المقصود: نعيم الآخرة، وهو الجنَّة ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي: خاصَّة بكم، وسالمة من مُشاركة غيركم لكم فيها، ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾: بقيَّة الأُمَم، بما فيهم المسلمون.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: أَريدوه، واشتَهوه بقُلوبكم، واطلُبوه وادْعُوا به بألسِنتكم؛ لأنَّ مَن اعتقد أنَّه من أهل الجنَّة؛ كان الموتُ أحبَّ إليه من الحياة الدُّنيا.

ولذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ الجنَّة خالصة لكم.

ولم يجرؤ اليهود على ذلك، ولم يتمنَّوا الموت ولا سألوه، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوْا المَوْتَ لَمَاتُوا، ورَأَوا مَقَاعِدَهُم من النَّارِ»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٨٧١).

وقال بعض المفسِّرين: المقصود بالآية: المباهَلة، وهي أن يقوم اليهود بالدُّعاء على الكاذِب من الفريقين (أي: هم والمسلمون)، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

ولكنَّهم لم يستجيبوا لهذا؛ لأنَّهم يعلمون في قرارة أنفُسِهم أنَّهم هم الكاذِبون، والحياة عندهم عظيمة عزيزة، فكيف يَدْعُون بشيءٍ يكرهونه، وهم يعلمون أنَّه سيرجع عليهم، وينزل بهم، وليس بالمسلمين؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

تفنيد مزاعم الكافرين، وإفحام اليهود الملعونين، وتزويد المؤمنين بالحُجَج والبراهين، وطُرق مُناظَرة هؤلاء اليهود المُفسِدين.

وهذا من تَولِّي الله للمؤمنين، وتأييده لهم.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

ولـمَّا تحدَّى اللهُ اليهود أن يتمنَّوا الموت إن كانوا صادِقين؛ قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وفي سُورَة «الجمعة»: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ [الجمعة: ٧].

أي: لن يحدث ذلك منهم في المستقبَل كلِّه، وفي طول الدُّنيا؛ لأنَّهم يعلمون كذِبهم، وما لهم بعد الموت من العذاب.

وأمَّا في الآخرة: فإنَّ جميع أهل النَّار -بما فيهم اليهود- يتمنَّون الموت؛ لينتهي عذابُهم، وما هم بميِّتين، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقوله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبَبِ ما عَمِلته أيدي هؤلاء اليهود وأنفُسِهم، من المعاصي الموجِبة للخلود في النَّار، كالكُفر بمحمَّد ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: محيطٌ عِلمُه بهم، وبالظَّلَمة من بني آدم -على اختلاف مِلَلِهم- وبما قالوه وفعلوه. وفي هذا تهديدٌ وتخويفٌ لهم؛ لأنَّه سيُجازيهم على أعمالهم التي أحاط بها علما.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من إعجاز القرآن الكريم: إخباره عن أمر مستمرٍّ في المستقبَل، وهو أنَّ اليهود لن يتمنَّوا الموت، وهذا ما تراه فيهم حتى الآن.

وفيها: نِسبة العمل إلى الأيدي؛ لأنَّها أكثر ما تُكتسَب به الأعمال.

وفيها: أنَّ مَن ساء عملُه خاف من الموت، ومَن حَسُن عملُه لا يكون أمره كذلك.

وفيها: أنَّ سببَ عدم تمنِّي اليهود للموت، يختلف عن سبَبِ عدم تمنِّي المؤمن للموت.

فالمؤمن حالُه كما في الحديث: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم المَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»(١)، أي: يتوب ويرجع عن الإساءة، ويطلب رضا ربِّه بالتوبة.

أمَّا إذا قدِمت الفِتنة، وخشيَ المؤمنُ على دِينه؛ فإنَّه لا بأس أن يتمنَّى الموت حينئذٍ، كما في دُعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»(٢).

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦﴾:

ثم قال تعالى في وصف هؤلاء اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ متأمِّل في حالهم إلى قيام الساعة ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ﴾: أشدَّ الناس حِرْصًا، مؤمنهم وكافرهم. و(الحِرْص): الطمع في الشيء، مع الخوف من فواته، مع بذل الجهد في تحصيله، وشِدَّة الطلب له.

﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: أيَّ حياة كانت، ولو لحظة!

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي: أنَّ اليهود أحرص من المشرِكين على البقاء أحياء؛ وذلك لأنَّ المُشرِك المنكِر للبعث يحرص على هذه الحياة الدُّنيا؛ لأنَّها فرصته الوحيدة في اعتقاده، فهو يريد البقاء في الدُّنيا للاستمتاع أكثر ما يمكن.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٦٨٤).

وأمَّا حرص اليهود على الحياة -وهم يؤمنون بالبَعث والنشور، وحياة الآخرة-؛ فذلك لأنَّهم يعلمون في قرارة أنفُسِهم ما لهم من العذاب في الآخرة.

والذي يتوقَّع عذابًا بعد الموت، أشدُّ حرصًا على الحياة ممَّن لا يتوقَّع شيئًا أصلًا.

﴿يَوَدُّ﴾: يتمنَّى ويحب جدًّا. و(الود): خالص المحبَّة. ﴿أَحَدُهُمْ﴾: أحد هؤلاء اليهود أو المشركين. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أن يمتدَّ به العمر والبقاء في الدُّنيا هذه المدَّة.

﴿وَمَا هُوَ﴾: وليس تعميره وطول حياته ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾: بمُبْعِده ومانعه ومُنَحِّيه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: عذاب الله بعد الموت، وفي الآخرة ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ هذه المدَّة الطويلة.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: ذو إبصار بما يعملون، عليمٌ بأعمالهم، في السِّرِّ والعلانية، لا يخفى عليه شيء من ذلك. و(البصير) بالشيء في لغة العرَب: المُبصِر، العالِم به، و(البَصَر): العِلْم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهودِيَّ يكره الموت؛ لِـما يعلم من سوء العاقبة.

وفيها: أنَّ الناس يتفاوتون في الحِرْص على الحياة.

وفيها: أنَّ المسيء اللاهي يريد طول العمر؛ لمزيد من الاستمتاع بالدُّنيا، وخشية العقاب في الآخرة.

وفيها: أنَّ طول العمر لا يُفيد صاحبَه شيئًا، إذا كان في معصية الله.

وفي ذلك الإشارة إلى تقييد الدُّعاء بطول العمر والبقاء، بأن يقول -مثلًا-: «أطال الله عمرك وبقاءك في طاعة الله»، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ مَن أحبَّ اللُّبث في الدُّنيا لعمل الشرِّ، فتعميره وَبالٌ عليه. وقد سُئل ﷺ: أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[1].

وأمَّا مَن أحبَّ البقاء في الدُّنيا لعمل الصالحات، فنِعِمَّا هو.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

ثم قال تعالى في جواب اليهود الذين صرَّحوا للنبيِّ ﷺ بعداوتهم لمن يَنْزِل عليه بالقرآن، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: من أضمرَ عداوته؛ فليمُت غيظًا؛ لأنَّ مَن عاداه فقد عادى الله، وقد جعله الله واسطةً بينه وبين رُسُله. وقيل: معنى (جبريل): عبد الله.

﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: جبريل الأمين ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمَّد ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمره ومشيئته، فلا وجه للعداوة؛ لأنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مأمور.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ومطابقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهيَّة المتقدِّمة، ﴿وَهُدًى﴾ هاديًا ودليلًا إلى الحقِّ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بالجنَّة والنعيم. و(البِشارة): هي الخبر السارُّ. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله وملائكتِهِ وكتبِه ورسلِه، وكلِّ ما يجب الإيمان به.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: ما رواه الإمام أحمد، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبَلوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يَا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ، واتَّبَعْناك.

فكان منها: فَإِنَّهُ لَيْسَ من نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالحَرْبِ وَالقِتَالِ وَالعَذَابِ، عَدُوُّنَا! لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالقَطْرِ؛ لَكَانَ! فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

دفاع الله تعالى عن عبده ورسوله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

وفيها: أنَّ القَلْب محلٌّ للحفظ؛ ولذلك كان نـزول القرآن عليه، كما في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

وفيهـا: المـوالاة بـينَ المؤمنـين، ويدخل فيهـم الملائكة، وعـلى رأسـهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموالاته تقتضي الإيمان به، ومحبَّته، ونصرته، وبيان منـزلته، والدِّفاع عنه.

وفي الآية: بيان كُره اليهود لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّه كان ينـزل بالقرآن المشتمل على فَضْحهم والـرَّدِّ عليهـم؛ ولأنَّه كان ينـزل مع الملائكة لنُصرة المؤمنـين في قتال اليهود، وهو الذي أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمضيَ بعد الخندق لقتال بني قُريظة.

وفيهـا: أنَّ الملائكـة التـي تنـزل بأمـر الله وإذنه، بالوحي والعذاب وغـير ذلك، لا وجه لبُغضهم؛ لأنَّهم إنَّما يتنـزَّلون بأمر ربهم.

وفيها: أنَّ القرآن بُشرى للمؤمنين؛ لأنَّهم قَبِلُوه وانتفعوا به.

وفيها: أنَّ مَن عادى رسـولًا فقد عادى جميع الرُّسُـل. وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»(١).

وفيهـا: أنَّ الملائكـة لا تتنـزَّل إلَّا بأمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الآيـة مع الأدلَّة الأخرى: أنَّ جبريـل عَلَيْهِ السَّلَامُ يتلو الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يسمعَه، فيَعْقِلَه بقَلْبه.

وفي الآية: فَضْل القَلْب؛ لأنَّه موضع العقل والعِلْم، وأشرف ما في الجسد.

وفيها: تأييد الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواجَهته مع اليهود، بتلقينه الحُجَج، وماذا يقول لهم عند مجادلتهم ومناظرتهم.

وقد قرأ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية على عبد الله بن سـلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لـمَّا سـأله عن أسئلة لا يعلمهـا إلَّا نبيٌّ، وأجابه عنهـا، وقال له: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًـا»، قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

«نَعَمْ»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ من المَلائِكَةِ. فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨﴾:

ثم بيَّن تعالى حُكم مَن يُعاديه ويُعادي رسلَه -أو واحدًا منهم-؛ فقال:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾: بمخالفة أمره عنادًا، ومعصيته مكابرةً، والاستكبار عن عبادته، أو معاداة أوليائه، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾: عالَم غيبيّ، خلقَه الله من نور، يعبدونه ويطيعونه.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: صفوة الخَلْق، الذين أوحى إليهم بشَرْعه، وأمرهم بتبليغه، ويدخل فيهم الرسول الملكي، والرسول البشري، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾: أفردهما بالذِّكر -مع كونهما داخلين في (الملائكة)-؛ لبيان شَرَفِهما وفَضْلِهما، وعُلُوِّ منزلتهما عنده سبحانه.

وقرنَ (ميكال) بـ(جبريل) للرَّدِّ على اليهود، وبيان أنَّ مَن عادى أحدهما فقد عادى الآخر، وعادى الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا.

وجبريل موكَّل بإبلاغ الوحي من الله إلى أنبيائه ورُسُله، وميكال هو ميكائيل، وهو الموكَّل بالمطر والنبات، فجبريل موكَّل بما تحيا به القُلُوب، وميكائيل موكَّل بما تحيا به الأرض والأبدان.

وهما مع إسرافيل -الموكَّل بالنفخ في الصور- أفضل الملائكة، وقد ذكرَهم النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دُعائه في استفتاح قيام اللَّيل؛ فكان يقول: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ من الحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٠).

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط السابق؛ أي: مَن كان عدوًّا لله، فالله عدوٌّ له، ومَن عاداه وعادى رُسُلَه وملائكته، فإنَّه كافر بالله العظيم، وقد قال تعالى في الحديث القُدْسِيّ المتقدِّم: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

ارتباط أركان الإيمان بعضها ببعض، وأنَّ مَن كفرَ بواحد منها فقد كفرَ بالجميع.

وفي الآية: بيان تناقُض اليهود في زعمهم مُوالاةَ ميكائيل ومحبَّته، ثم كُرْه جبريل ومعاداته، مع أنَّهما ملَكان مأموران.

وفيها: إثبات صفة (العداوة) من الله لمن يُعاديه، أو يُعادي أولياءه.

وفيها: انتصار الله لأوليائه.

وفيها: أنَّ كلَّ كافر فالله عدوٌّ له.

وفيها: إشارة إلى أنَّ غذاء القَلْب مقدَّم على غذاء البدَن.

وفيها: التحذير من أن يتسبَّب العبد في معاداة الله له؛ لأنَّ مَن عادى الله فهو مخذول لا يُفلِح، وعذابه أليم، وعاقبته وخيمة.

وفيها: أنَّ مَن عادى رسولًا فقد عادى الذي أرسلَه، وما أُرسِلَ به.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾:

ولـمَّا زعمت اليهود أنَّ النبي ﷺ لم يأتِه من ربِّه آيةٌ بيِّنة دليلًا على صدقه، ليتبعوه؛ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ (اللام) في ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ للقَسَم، والمعنى: «وعزَّتي وجلالي، لقد أنزلنا» ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾: جمع «آية»، وهي: العلامة والدليل والبرهان، والمقصود: آيات القرآن العزيز. ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: واضحات في ذاتها، وفي دلالاتها، مفصَّلات بالحلال، والحرام، والأخبار، والعِظات، والأحكام.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ﴾: يجحدها ويُنكِرها، ويكذِّب بها ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن طاعة الله. والمراد بـ (الفِسْق) هنا: الفِسْق الأكبر الموجِب للخلود في النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله تعالى لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الرَّدِّ على مزاعم اليهود.

وفيها: دليل على عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لأنَّ الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها: ذِكر أحد نوعي الآيات، وهي الآيات الشرعيَّة، وما أنزل الله على أنبيائه. والنوع الآخر: هي الآيات الكونيَّة من مخلوقات الله، كالشمس والقمر واللَّيل والنهار، واختلاف الألسُن والألوان.

وفيها: أنَّ اليهود حاولوا إطفاءَ نور الله، والتنقيصَ من قَدْرِ كتابه؛ لأنَّه يكشف حقيقتهم، ويبيِّن مخازيهم، ولكن يأبى الله إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، وينتصِرَ لكتابه.

وفيها: أنَّ من الفِسْق ما يكون سببا للخلود في النَّار، وهذا هو الفسق الأكبر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ فهذا من إطلاق الفاسق على الكافر.

وفيها: أنَّه كلَّما ازداد الإنسان طاعة لله، وابتعد عن الفِسْق؛ كانت آيات الله في قَلْبه أَبْيَن وأَوضَح.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾:

ثم ذكر تعالى خَصلة ذميمة في اليهود توجَد فيهم دائمًا؛ وهي الخِيانة، ونقض العهود والمواثيق؛ فقال تعالى:

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ (الهمزة) للاستِفهام، وهو إنكاري، و(الواو) للعطف على ما تقدَّم، و(كلَّما): أداة شَرْط تفيد التَّكرار.

﴿عَٰهَدُواْ﴾: أَعطوا الميثاق المغلَّظ المؤكَد باليمين ﴿عَهۡدٗا﴾ مع الله عَزَّوَجَلَّ، أو مع رُسُله، كما عاهدوا باتِّباع ما أنزله الله، والإيمان بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بُعِث، ونصرته، والقتال معه.

أو عهودهم مع الخَلْق، كالمعاهَدات التي أبرموها مع المسلمين في المدينة النبويَّة.

﴿نَّبَذَهُۥ﴾: طرحه ونقضه، وترَكَ العمل به، وخالفَ ولم يوفِّ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾: طائفة وجماعة.

قال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الأرض عَهد يُعاهِدون عليه إلَّا نقضوه ونبَذوه، يُعاهِدون اليومَ، وينقُضون غدًا»[(١)]!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فلا يُرجى إيمانهم؛ لأنَّ الضلال قد استحوذَ عليهم، ولو كانوا يؤمنون ما نقضوا العَهد.

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[(٢)].

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ مالك بن الصيف اليهوديّ، قال حين بُعِثَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكرَ لهم ما أخذَ الله عليهم من الميثاق، وما عَهِدَ الله إليهم فيه: والله، ما عَهِد إلينا في محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أخذَ له علينا ميثاقًا!.

فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الغدر والخِيانة من طبيعة اليهود، وأنَّه لا بُدَّ أن يوجد فيهم مَن ينقض العهود، وأنَّهم لا يؤمنون حتى بكتابهم، وأنَّه لا يوثَق بهم في شيء، وأنَّهم ينقضون العهود حتى مع غير المُسْلمين.

وفي الآية: أنَّ المؤمن يفي بالعَهد، ولا ينقُضه.

وفيها: أنَّ من العَدْل أنَّه إذا حصل الإثم من بعض القوم، ألَّا يُعمَّم جميعًا بالحُكم؛ لقوله: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

وفيها: أنَّ المستخِفَّ بالعَهد مُشابهٌ لليهود.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٤).

(٢) رواه أحمد (١٢٣٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٠)، تفسير الطبري (٢/ ٤٠٠)، وإسناده ضعيف.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾:

ثم ذكر تعالى امتناعَ اليهود عن الإيمان بمحمَّد ﷺ، بالرَّغم من أنَّ العهد قد أُخِذ عليهم بالإيمان به، واتِّباعه ونُصرته إذا بُعِث؛ فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾: أُرسل إلى اليهود وأتاهم ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمَّد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة وغيرها من كتبهم المذكور فيها صِفتُه، ووجوبُ الإيمانِ به واتِّباعِه.

﴿نَبَذَ﴾: ألقى ورمى ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: طائفة من هؤلاء اليهود، وهم أحبارهم وكبراؤهم ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي عندهم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا يدلُّ على الإعراض التامِّ، وعدم الالتفات، والاستغناء، والكُرْه والإهمال، فجعلوه كالشيء المنبوذِ المرميِّ المُحتقَر.

قال الشَّعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو بينَ أيديهم يقرأونه، ولكن نبذوا العمل به»[1]، وقال سُفيان ابن عُيَينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدرجوه في الحرير والدِّيباج، وحَلَّوْه بالذهب والفِضَّة، ولم يُحِلُّوا حلاله ولم يحرِّموا حرامه؛ فذلك النَّبْذ»[2].

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: تظاهرًا بالجهل به، وكأنَّهم ليس عندهم عِلْم بصفة هذا النبيِّ، ومَبعثه، وحقِّه.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أنَّ القوم كانوا يعلمون، ولكنَّهم أفسدوا عِلْمهم، وجحدوا، وكفَروا، وكتموا»[3].

وفي هذه الآية من الفوائد:

كُفر اليهود بالنِّعمة، فبدلًا من أن يؤمنوا بهذا القرآن -لأنَّه مؤيِّد لما معهم- كفَروا به.

وفيها: مثالٌ لكُفر الإعراض والتولِّي.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٤١).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٤٠٤).

وفيها: أنَّ الرسول محمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد أخبرَت به الكتب السابقة.

وفيها: شِدَّة كراهية اليهود للقرآن، واستهانتِهم به.

وفيها: موافقة القرآن لما قبله من الكتب السماوية في أمور كثيرة؛ منها: توحيد الله، وأركان الإيمان، وذِكر اليوم الآخر، والمواعظ من الله لخَلْقه، والقواعد العامَّة للتشريع، والأمر بأعمال البرِّ والخير، ووجوب الإيمان بالنبيِّ محمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصِفته، وصِفة أصحابه، وأخبار الأُمَم الماضية، وغير ذلك.

وفي الآية: قُبح التظاهر بالجهل مع كِتمان العِلْم.

وفيها: خطورة تَرْك العمل بكتاب الله.

وفيها: أنَّ تَرْك بعض الكتاب كتَرْكه كلِّه.

وفيها: سوء مَن ردَّ الحقَّ بعد العِلْم به.

وفيها: أنَّ مَن لا يعمل بعِلْمه؛ فهو كالجاهل، أو أشدّ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾:

ولـمَّا اتفقت التوراة والقرآن، وطابق وصفُ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما هو مذكور عند اليهود في التوراة؛ نبذوا كتاب الله، وأخذوا بكتب السِّحْر، وأعرضوا عن كتاب الله الذي بأيديهم؛ وقد قال الله تعالى عنهم:

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: اليهود ﴿مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: ما تأخذ به، وتتبِّعه، وتقدِّمه، وما ترويه وتخبر به كاذبة. ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: في زمنه وعهد مُلكه، وما أقحموه وزادوه من

السِّحْر والكُفر في الكتب التي كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يكتب فيها ممَّا نـزل عليه من الوحي، وما خلَطوه من الكَذِب، مع الأخبار التي كانوا يستَرِقُونها من السماء.

وقد صَحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّه كان لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كاتبٌ يكتب كلَّ شيءٍ بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيِّه، فلمَّا مات سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أخرجته الشياطين، فكتبوا بينَ كلِّ سطرَين سِحرًا وكُفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به. قال: فبرئ جهّال الناس من سليمان وأكفروه، حتى بعث الله محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه هذه الآيات(١).

ويُحتمل أن يكون هذا ممَّا أخذه ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أهل الكتاب.

وجاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا: أنَّ الشياطين كان يستَرِقون السمع من السماء، فيأتي أحدُهم بكلمة حقٍّ قد سَمِعَها، ويَخْلِط معها سبعين كِذبة، فيُشرِبُها قُلوبَ الناس؛ فأطلع الله عليها سليمان، فدفنها تحت كرسيِّه، فلمَّا مات سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ دلَّ شيطانٌ الناسَ عليه، وقال: ألَا أدُلُّكم على كنزِه المُمَنَّع الذي لا كنزَ مثله؟ فأخرجوه -وهم اليهود- وقالوا: هذا سِحْر، واتَّبَعوه وعَمِلُوا به، فأنزل الله عُذر سليمان في هذه الآية(٢).

فقد ظنَّ بعضُهم أنَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأخذ بالسِّحْر ويعمل به، وحيث إنَّ السِّحر كُفر لا يمكن لنبيِّ الله أن يعملَ به؛ لذا فقد برَّأ الله نبيَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّا افتراه عليه هؤلاء الشياطين واليهود؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بتعلُّم السِّحْر، أو تعليمه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بتعليم السِّحْر، والإعانة عليه.

وبيَّن سبَبَ كُفرِهم بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، و(السِّحْر) في اللُّغة: كلُّ شيءٍ خَفِيَ سبَبُهُ. والسِّحر المذموم شرعًا: هو العُقَد والرُّقى التي يَنْفُثُ فيها الساحر، فينتج عن ذلك تأثيرٌ في بدن المسحور، أو عقله.

ومنه ما يقتُل، ومنه ما يُمرِضُ، ومنه ما يُزيل العقل، ومنه ما يُغيِّر الحواس، فيرى الشيء المتحرِّك ساكنًا والساكن متحرِّكًا ونحو ذلك -وهو سِحْر التخييل والتمثيل-.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٤١٥).

ومنه ما يغيِّر مشاعر الإنسان، فيقلب الحبَّ بُغضًا، والبُغض حبًّا -وهو الصَّرْف والعَطْف- فيصرِف الرجل عن أحبِّ الناس إليه كزوجته وأولاده وأبوَيه، ويُكرِّهه فيهم، ورُبَّما كَرِه نفسه، أو يحبُّ نتيجةَ السِّحْر شخصًا، ويميل إليه ميلًا قويًّا وينقاد له؛ حتى لا يستطيع الخروج عن أمره!

والسِّحْر قديم في البشر؛ فقد كان معروفًا في قوم صالح، وقوم فرعون.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾، قال كثير من المفسِّرين: (هاروت) و(ماروت): اسمان لملكَين أنزلهما الله في أرض بابل بالعراق؛ لـمَّا خلطت الشياطين الأمور على الناس، ونشروا السِّحْر والكُفر فيهم، فميَّز الملَكان للناس بينَ السِّحْر والنبوَّة؛ لتوضيح ماهيَّة السِّحْر، وصارا يُعَلِّمان الناس ذلك، ويحذِّرانهم من العمل به، وفي هذا ابتلاء وامتحان من الله، وكان تبيينُ الشرِّ لتوقِّيه، لا للعمل به[1].

ولكن هؤلاء اليهود صاروا يتَّبعون الشياطين فيما نشرته من السِّحْر، ويعملون أيضًا بما جاء الملَكان من التحذير منه.

ومن رحمة الله: أنَّه أمر هذين الملَكين ببيان حكم هذا للناس؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ أي: هاروت وماروت ﴿مِنۡ أَحَدٍ﴾ من الناس ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ له: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ﴾ أي: ابتلاءٌ واختبارٌ من الله؛ ليتبيَّن مَن يريد السِّحْر ويعمل به، ممَّن يَحذره ويرفضه.

ويحذِّرانه بقولهما: ﴿فَلَا تَكۡفُرۡ﴾ أي: بتعلُّم السِّحْر، والعمل به.

وقال بعض المفسِّرين: إنَّ المعنى: أنَّ اليهود اتَّبعوا ما تتلو الشياطين من السِّحْر، وزعَموا أنَّ الملكَين قد نزلا بالسحر وَحْيًا من الله لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فبرَّأ الله سليمان وبرَّأ الملكَين. ويكون المعنى على هذا: وما كفرَ سليمان، ولا أنزل الله السِّحرَ على الملكَين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾، ومنهم هاروت وماروت.

والقول الأول أَولى؛ لموافقته لظاهر الآية.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٤٢٠-٤٣٦)، تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٤-٣٦٥)، التحرير والتنوير (١/ ٦٤٣-٦٤٥)، تفسير ابن عثيمين (٣/ ٣٤٥).

وقد وردت قصص كثيرة في افتتان هاروت وماروت، ووقوعهما في الكبائر، لكن لا يَصِحُّ منها شيء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما جاء عن الصَّحابة والتابعين في ذلك مصدره كتبُ بني إسرائيل، وما رواه كعب الأحبار وغيره منها، وهذه الإسرائيليَّات لا يحتجّ بها[١].

وقوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي: فيتعلَّم الناس من هاروت وماروت ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: السِّحْر الذي يصرِف الزوج عن زوجته، والزوجة عن زوجها، فيؤدِّي إلى التفريق بينهما، وهذا عند إبليس من أعظم إنجازات جنوده؛ كما في حديث جابر ابن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا! ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»[٢].

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾: ليس المتعاملون بالسِّحْر قادرين على إلحاق شيء من الضَّرَر بأحد من الناس، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته وإرادته.

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يضرُّ هذا السِّحْرُ إلَّا مَن دخل فيه»[٣].

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الدُّنيا والآخرة، ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾: هذا بيان بأنَّ السِّحْر ضَرَر خالص، ودليلٌ على أنَّ تعلُّم السِّحْر ضررٌ لا منفعة فيه أبدًا، فهو أسوأ من الخمر والميسر، فقد قال الله عنهما: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: علمَ أهلُ الكتاب أنَّ من اختار السِّحْر وأخذه ورَغِبَ فيه، رغبة المشتري في السِّلْعة، واعتمده بدلًا من الإيمان والوحي؛ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: ليس له حظٌّ ونصيب في الآخرة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٠)، البداية والنهاية (١/ ١٠٩)، السلسلة الضعيفة للعلاَّمة الألباني (١٧٠، ٩١٠، ٩١٢، ٩١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٩٣).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد علم ذلك أهلُ الكتاب في عهد الله إليهم: أنَّ الساحر لاخلاق له عند الله يوم القيامة»[١].

وقال: «ليس له في الآخرة جنَّة عند الله»[٢]، وقال الحسن: «ليس له دِين»[٣].

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾: هذا الكلام يحمل معنى القَسَم المؤكَّد، والتقدير: «والله، لبئسَ ما شرَوا به أنفُسهم». ومعنى ﴿شَرَوْاْ﴾ هنا: باعوا؛ لأنَّهم لـمَّا اشتَروا السِّحْر أُعطوا مقابِلَه خسارةَ أنفُسِهم، فباعوها بهذا الكُفر، فبئس البيع هو ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا يعلَمون مآل أمرِهم عِلمًا يقينيًّا؛ لَـمَا تعلَّموا السِّحْر ولا عَمِلوا به، فهم لـمَّا لم يعمَلوا بما عَلِموا؛ فكأنَّهم لم يعلَموا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عمل اليهود بالسِّحْر، واتِّباعهم له، وتَرْك ما أنـزل الله عليهم.

وفيها: سَعْي الشياطين في إضلال الناس.

وفيها: دفاع الله عن أنبيائه، وتبرئة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السِّحْر.

وفيها: أنَّ السِّحْر من الكُفر، ومن أعمال الشياطين، وأنَّ تعلُّمه كُفر، وأنَّ الساحر كافر.

والتحقيق: أنَّ تعلُّمَ السِّحْر وتعليمه حرامٌ بإطلاق، فإن تضمَّن ما يقتضى الكُفر كفرَ، وإلَّا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضى الكُفر؛ عُزِّر، واستُتيبَ منه.

وفيها: إرسال الملائكة لابتلاء البشر، وقد حصل مثل ذلك في قِصَّة الأبرص والأعمى والأقرع.

وفيها: أنَّ الله يبيِّن الحِكَم مع قيام الابتلاء؛ لينجوَ مَن يريد النجاة.

وفيها: أنَّ الله تعالى قد يهيِّئ لبعض الناس أسباب المعصية؛ فِتنةً وابتلاءً لهم وامتحانًا،

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٥١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٤).

وهذا كما مرَّ أيضًا في قِصَّة أصحاب السَّبْت، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

فعلى المسلِم ألَّا يعصي ربَّه، ولو توفرت له أسباب المعصية.

وفيها: الإثم العظيم للإفساد بينَ الزوجَين والتفريق بينهما، بالسِّحْر، أو النَّميمة والتخبيب، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ سِحْر يضرُّ.

وفيها: أنَّه لا يحدث ضرَر إلَّا بإذن الله.

وفيها: تحريم تعلُّم العلوم التي تضرُّ ولا تنفع، ومثله ما كانت مفسدته أكبر من منفعته.

وفيها: أنَّ العِلْم النافع يأبى على صاحبه تعلُّم العِلْم الضارّ.

وفيها: وجوب النصيحة للناس وتبيين الحقِّ، كما قال الملَكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وفيها: أنَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر إيمانًا صحيحًا؛ فإنَّ إيمانه يصرفه عن الشرِّ.

وفيها: أنَّ السِّحْر من أعمال الشياطين.

وفيها: أنَّ اليهود يتلقَّون عن الشياطين، والعَلاقة بينهم وطيدة.

وفيها: خطورة عمل الساحر؛ ولذلك كان الراجح في حُكمه القَتْل، واختلف العلماء في قَبول توبته، والراجح: أنَّه إن صدق فيها تُقبل بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا في أحكام الدُّنيا: فيُرجَع في قَتْله إلى اجتهاد الحاكم -بناءً على القواعد الشرعيَّة-.

وفيها: أنَّ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق الأسباب.

وفيها: أنَّ الأصل في كُفر الساحر أنَّه كُفرٌ أكبر، مخرج من المِلَّة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

والتحقيق: أنَّ في المسألة تفصيلًا: فقد يكون كُفرًا، وقد لا يكون كُفرًا -بل معصيته كبيرة-: فإن كان فيه قولٌ أو فِعْلٌ يقتضي الكُفر كفرَ، وإلَّا فلا.

وفيها: أنَّ الشياطين تآمرت بالسِّحْر في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصنعت الخُطَّة؛ ليفتنوا الناس بعد موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: اتِّهام اليهود لأنبيائهم بالباطل.

وفيها: أنَّ السِّحْر كُفرٌ، حتى في شريعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ السِّحْر له حقيقة وتأثير، وليس مجرَّد خداعٍ للبصر.

وفيها: تبرئة الملائكة من العصيان.

وفيها: أنَّ من العلوم ما يكون فِتنة للناس.

وفيها: أنَّ مَن فسد إيمانُه يشتهي ما يضرُّه.

وفيها: أنَّ اليهود جعلوا السِّحْر إمامًا يأتمُّون به، ويسعَون خلفه.

وفيها: أنَّ مَن ترك الاشتغال بما ينفعه؛ ابتُلِيَ بما يضرُّه.

وفيها: بيان الفرق العظيم بينَ معجِزات النبوَّة، وخوارق السَّحَرة.

وفيها: أنَّ الشياطين تُعاوِن مَن يتشبَّه بهم، بنجاسة القول والعمل والاعتقاد.

وفيها: أنَّ السحر مضرَّة في الدِّين والدُّنيا.

وفيها: تحريم أخذ المال أو دفعه من أجل السِّحْر.

وفيها: أنَّ من أثر السِّحْر على الزوجَين الانفصال التامّ، أو عدم القُدرة على الإتيان والوطء.

وفيها: وجوب التحقُّق فيما يُنسَب إلى الأنبياء، ونفي المسائل الباطلة عنهم.

وفيها: أنَّ الكتب الباطلة قد تُنسَب إلى بعض الصالحين زورًا وبهتانًا.

وفيها: أنَّه لا يجوز التعرُّض للفِتنة؛ بل على المسلِم أن يبتعد عنها، ويسأل الله العافية.

وفيها: الحذر من كتب الضلال والسِّحْر، ووجوب إتلافها، ومنع وقوعها في أيدي الناس.

وفيها: أنَّ المسلِم لا يحتاج إلى تعلُّم السِّحْر كي يتقيَه؛ لأنَّ عنده من المعوِّذات الشرعيَّة ما يكفيه.

وفيها: خطورة تَرْك الوحي، والاستعاضة عنه بالعلوم الأخرى.

وفيها: أنَّ غياب المُصلِحين سببٌ في انتشار البِدعة والفساد والشِّرك في الأرض؛ فقد نشطت الشياطين بعد وفاة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: مَكْر شياطين الإنس والجنّ.

وفيها: تحايل شياطين الجنّ؛ لإيقاع الناس في الشرِّ بكلِّ وسيلة.

وفيها: أنَّ من رحمة الله بعباده: أنَّه لم يسلِّط السَّحرة على الناس لتفعلَ فيهم ما تشاء، فقد يكيد سَحَرةٌ كثيرون بأسحار متعدِّدة لشخص واحد، لكن لا يضرُّونه بشيء.

وفيها: خطورة الميل ومحبَّة وتقديم علوم الكفَّار على عِلْم الوحي، ومن ذلك: افتتان بعض المسلمين في هذا الزمن المتأخِّر بنظريَّات الشرق والغرب، واتِّباعها بدلًا من الوحي.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: ولو أنَّ اليهود -الذين تركوا وحيَ الله، واتَّبعوا ما تتلو الشياطين، وتعلَّموا السِّحْر- ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أي: بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبما أُنزِل عليه، بقُلُوبهم، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرَّمه الله -ومنه السِّحْر- فآمنوا بقُلُوبهم، واتقَوا بجوارحهم، واجتنبوا الكُفر؛ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ أي: لأجرٌ وثواب ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أضاف (الثواب) إلى نفسه ليطمئنَ العبد إلى حصوله، وليعلم أنَّه كثيرٌ وافرٌ؛ لأنَّ عطيَّة الكريم كثيرة. و(الثواب): هو الأجر والجزاء على العمل.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أنَّ ثواب الله في الآخرة خيرٌ لمن آمن واتقى في الدُّنيا، أو: خيرٌ من السِّحْر. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ عِلمًا ينفعهم. أي: لو كانوا من أصحاب العِلْم؛ ما قدَّموا السِّحر على الإيمان بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتِّباعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَعْظ المذنِبين بعَرْض الإيمان والتَّقوى عليهم، وبيان أنَّهما سببان لنَيْل ثواب الله.

وفيها: أنَّ الشيء القليل من ثواب الله خيرٌ من الدُّنيا وما فيها.

وفيها: ضمان الثواب للمؤمن المتَّقي؛ لقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فيطمئن المؤمن لحصوله؛ لأنَّ الله لا يُخلِف الميعاد.

وفيها: أنَّ العِلْم النافع يحمل صاحبه على تَرْك المحرَّمات، وهو العِلْم المتصل بالقَلْب، وليس العِلْمَ النظريَّ المجرَّد.

وفيها: أنَّ مَن لا يعمل بما عَلِمَ فإنَّه جاهل، وأنَّ العِلْم الذي لا يَعمَل به صاحبه: وجودُه كعَدَمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾:

وبعد تناولِ الآيات السابقة اليهودَ، وما قابلوا به نِعَمَ الله عليهم من أفعالهم القبيحة؛ توجَّه الخِطاب للمؤمنين، فنادى الله المؤمنين في **أول نداءٍ من نوعه في القرآن في ترتيب المصحف**؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقد ورد هذا النِّداء في القرآن في تسعة وثمانين موضعًا.

وتصدير الحكم بالنِّداء دليلٌ على الاهتمام بهذا التوجيه وتنفيذ هذا الحكم؛ لأنَّ النِّداء يوجب انتباه المنادَى، وأنَّ صاحب الإيمان يتلقَّى أوامر الله تعالى ونواهيه بالطاعة والامتِثال.

وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمعتَ الله يقول: (يا أيُّها الذين آمنوا)؛ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنَّه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه»[1].

فقال لهم -معلِّمًا إيَّاهم أدبًا من الآداب مع نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحذِّرًا لهم مشابهة الكفَّار واليهود في أقوالهم وأفعالهم-: ﴿لَا تَقُولُواْ﴾ لنبيِّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: أَرْعِنا سمعك، وراقِبنا، والتفِت إلينا، من (المراعاة)، وهي: العِناية بالشيء والمحافظة عليه. أي: تأنَّى بنا يا رسول الله، وأمهِل في الإلقاء حتى نفهَمَ كلامك.

وقد كان بعضُ المسلمين إذا أراد حاجة من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له هذه الكلمة، وكانوا أيضًا إذا ألقَى عليهم شيئًا من العِلْم، وتابع فيه، وصعُبَت عليهم الموالاة، وأرادوا الإمهال والتأنِّي في الإلقاء ليحفظوا؛ قالوا: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: أمهِلْنا وأنظِرْنا.

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد (٨٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠).

ومع أنَّ هذا المعنى جيِّد، والمقصود منه طيِّب، لكن جاء النهيُ عنه؛ حذرًا وتلافيًا من الاستعمال السيِّء لهذه الكلمة، الذي كان يفعلُه اليهود بقَصْد سبِّ النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم كانوا يقولون: «رَاعِنا يا محمَّد»، ويريدون معنى فاسدًا، من (الرُّعونة)، وهي: الحُمْق والطَّيْش، وكانوا إذا أرادوا أن يحمِّقوا إنسانًا قالوا له: «راعِنا»، بمعنى: «يا أحمق». فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة؛ سدًّا لهذا الباب.

وقيل: إنَّها كانت كلمة عِبرانيَّة، لها معنى عندهم في السبِّ والشتيمة، فاستعملوها قاصدين إيذاءَ النبيِّ ﷺ، فنهى الله المسلمين عنها تفويتًا للفُرصة على اليهود باستعمال هذه الكلمة بمقصودهم القبيح، وقد كان بعضُ المسلمين يظنُّون أنَّ الأنبياء كانوا يُفَخَّمون بهذا، فنهاهم الله عنها.

وقيل: كانت لغةً في الأنصار في الجاهليَّة، فنهاهم الله عنها.

وأرشد الله المسلمين إلى كلمة أخرى بديلة، تؤدِّي المقصود المباح، دون أن يكون لها وجهٌ آخر قبيح؛ فقال تعالى: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ أي: انتظِرنا وأَمْهِلنا، حتى نفهم عنك ونعيَ كلامك، وراعِ حالَنا، وتفَقَّدنا بنظرك، وانظر في مصالحنا، ونحو ذلك من المعاني والمقاصد التي كان المسلمون يَرْجُونها من النبيِّ ﷺ.

وأمرَ الله المؤمنين -في المُقابِل- بالاستماع وحضور الذهن، حتى لا يحتاج النبيُّ ﷺ إلى إعادة الكلام، ولا تكثُر مُراجعتُهم له؛ فقال: ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي: سماع استجابة وقَبول، بآذان واعية، وقُلُوب حاضرة، فأطيعوا، واستَجيبوا له.

ثم حذَّر مَن يخالف ذلك، وذَكَّر بعقوبته؛ فقال: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء اليهود، وغيرهم من الذين يؤذون النبي ﷺ ﴿عَذَابٌ﴾ أي: عُقوبة ﴿أَلِيمٞ﴾: مؤلِم مُوجِع.

ووَصْف اليهود هنا بـ(الكافرين) يدلُّ على أنَّ تعمُّد سوء الأدب في مخاطَبة النبي ﷺ كُفرٌ، يستحقُّ صاحبه عليه العذاب الأليم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهى الشديد والتهديد والوَعيد للمتشبِّهين بالكفَّار، في أقوالهم وأفعالهم، ويدخل في ذلك: لباسهم وأعيادهم وعاداتهم.

وفيها: لُؤْم اليهود، وحِرْصهم على إيذاء النبي ﷺ، والتلاعُب بالألفاظ لأجل ذلك، كقولهم أيضًا عند التحية: «السام عليك» أي: الموت.

وفيها: استعمال الأدب في الألفاظ، خاصَّة في مخاطَبة الله ورسوله، وتَرْك الكلام الذي لا يناسب ذلك.

وفيها: استعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلَّا الحُسنَ وعدمَ الفُحْش، وتَرْك الكلام المُشْكِل الذي يحتمل معنًى سيِّئًا، أو يحتمل معنيَين أو أكثر، فيها الحَسَن، وفيها القبيح، أو الألفاظ التي فيها نوعُ تشويشٍ أو احتمالٍ لأمرٍ غير لائق، والعدول عن كلِّ ذلك إلى الكلام البيِّن الواضح، الذي لا يحتمل إلَّا وجهًا واحدًا صحيحًا حَسَنًا.

وفيها: تجنُّب الألفاظ التي تُوهِمُ سبًّا وشتمًا، خاصَّةً للكبراء والعلماء.

وفيها: النهي عن الأمر الجائز أو التوقُّف فيه، إذا كان وسيلةً إلى محرَّم.

وفيها: مراعاة الأخلاق الفاضلة.

وفيها: الإرشاد إلى البدائل الحسنة، وأنَّ الذي ينهى الناس عن شيء فإنَّ عليه أن يدُلَّهم على بدَله من المشروع والمباح قَدْرَ الطاقة.

وفيها: ارتباط الأخلاق الفاضلة بالإيمان.

وفيها: أنَّ مَن آذى النبيَّ ﷺ فهو كافر.

وفيها: إرشاد الطلاب إلى الانتباه للمعلِّم؛ حتى لا يَشُقوا عليه بكثرة طلبَ إعادة الكلام.

وفيها: أنَّ بعض الألفاظ العربيَّة قد تكون موجودة في لغات أعجميَّة، ولكن بمعانٍ مغايرة لها، فينبغي الانتباه لهذا عند الحديث مع أولئك القوم، أو تلقِّي حديثهم.

وفيها: العدول عن بعض الاستعمالات اللفظيَّة؛ تفويتًا للفرصة على الكفَّار والمنافِقين بالطعن في الدِّين، والاستهزاء بعباد الله المؤمنين، وحَسْمًا ومنعًا لطُرُق الشرِّ والفساد.

وفي الآية: دليلٌ لباب «سَدِّ الذرائع»، وهو من أبواب أصول الفقه المهمَّة.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾:

ولـمَّا نهى تعالى عن التشبُّه بالكافرين، ونهى عن تلك الكلمة التي استعملها اليهود قاصِدين بها معنى سيئًا؛ ذكر السَّبَب الباعث لهم ولغيرهم من الكفَّار على مثل هذا، فذكرَ عداوتهم للمؤمنين؛ ليأخذوا الحذرَ منهم، ويتنبَّهوا لكيدهم وشرِّهم، ولا يسلكوا مسلكَهم، أو يتشبَّهوا بهم.

فقال تعالى: ﴿مَّا﴾ نافية ﴿يَوَدُّ﴾ (الوُدّ): خالص المحبَّة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أُنزل على محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء به ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، من كفَّار العرَب وعبدَة الأوثان وغيرهم.

وكان بعض أهل الكتاب يزعمون أنَّهم يحبُّون المسلمين، ويودُّون لهم الخير، فبيَّن الله كذبَهم في هذه الآية، وأخبر أنَّهم لا يحبُّون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمَّته ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يشمل: أيَّ خير، دينيّ أو دُنيويّ، قليلًا، أو كثيرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (من) هنا لبيان مصدر النِّعمة وابتدائها، وأنَّها من الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

فهؤلاء اليهود والكفار يرَون أنفُسهم أحقَّ بالنبوَّة والوحي، وأحقَّ بالخير والثَّرْوات، فحسَدونا على ما آتانا الله من فَضْله، ولا يزالون يفعلون، ولا يتمنَّون الخير للمسلمين، وإن قالوا ذلك بأفواههم، ولو أمكنَهم أن يمنعوا القَطْر من السماء عن المسلمين لفعَلوا! ولذلك فهم يسعَون بكلِّ سبيل إلى نَهْب ثَرْوات المسلمين.

وكان اليهود قد حسَدوا المسلمين على هذا النبيِّ، وهذا القرآن، وكانوا لا يريدون أن تتعدَّى النبوَّة بني إسحاق، فلمَّا صارت النبوَّة والخير في محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -من بني إسماعيل- حسَدوا وبغَوا. وكذلك المشركون قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن ليس هؤلاء يَقْسِمون رحمة الله، وإنَّما الأمر كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فهو سبحنه يخصُّ بوحيه ونبوَّته ورسالته ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بحِكمته؛ أي: مَن يختار من عباده ويَصْطَفِي، ومشيئته سبحانه مقرونة دائمًا بالحِكْمة، فاختصاصه مَن يشاء بالرَّحمة مبنيٌّ على حِكمته سبحانه.

و(رحمته) تشمل رحمة الدِّين والدُّنيا.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: صاحب المَنِّ الكبير، والعطاء الواسع الكثير، فَضْله واسع غير محدود، وفَضْلُ غيرِه محدود.

وتُطلَق (الرحمة) على النبوَّة، كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وكما هو الراجح في قوله تعالى عن الخَضِر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات رحمة الله، ومشيئته، وإرادته، وفَضْله.

وفيها: أنَّ الذي لا يَوَدُّ الخير للمسلمين فيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى والمشرِكين.

وفي الآية: بيان عداوة صِنفَين من الكفَّار للمسلمين، وهما: أهل الكتاب والمشرِكين؛ حَسَدًا وبغيًا، ولا يزال الكفَّار إلى اليوم يحسُدون المسلمين على ما آتاهم الله من النِّعَم والثَّرْوات الدُّنيويَّة، ويَوَدُّون لو لم تكن بأيدينا، فيسعَون في نَهْبها بكلِّ سبيل.

وفي الآية: تحذير المسلمين من الاغترار بما يُطلِقه الكفَّار من العبارات المعسولة، التي يزعمون فيها إرادة الخير للمسلمين.

وفيها: أنَّ اختصاص شخص أو طائفة بنِعمة؛ من أسباب حَسَد الآخرين له.

وفيها: أنَّ كلَّ خير ناله عبدٌ في دينه ودنياه؛ فمَصْدره من الله، وهو محضُ تفضُّلٍ منه تعالى ومِنَّة.

وفيها: أنَّ المتسخِّط على قِسمة الله تعالى للفَضْل والعطاء بينَ عباده، غير مؤمنٍ بحِكْمة الله ومشيئته، وهو في الحقيقة معترِضٌ على قضاءِ الله وقدَرِه.

وفيها: التحذير من الثقة بالكفَّار؛ فلا يجوز تسليمُهم مُهِمَّات القيادة أو الريادة أو التخطيط للمسلمين؛ لأنَّ كُرْهَهم لنا يجعلُهم يمنعوننا من التقدُّم في أيِّ مجال.

وفيها: أنَّ فَضْل الله لا يمنعُه كُرْهُ كاره.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

ولـمَّا بيَّن تعالى حقيقةَ الوحي، وذكر تعالى الردَّ على اليهود في أمور متعدِّدة؛ أتبعَ ذلك بالرَّدِّ على الطاعنين في الوحي والكارِهين له -ومنهم اليهود والمشرِكون- الذين كانوا يُثيرون الشُّبُهات حول القرآن وناسخه ومنسوخه، واغتاظوا من القرآن الذي نَسخ التوراة، وكانوا يقولون: ألَا ترون إلى محمَّد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولًا ثم يرجع عنه غدًا، ونحو ذلك من مقالات الطاعنين.

فقال تعالى -دفاعًا عن كتابه-: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، وقوله ﴿مَا نَنسَخْ﴾: أي ما نُبدِّلْ ونمحُ.

و(النَّسْخ): رَفْع حُكم دليل شرعيّ متقدِّم، أو لفظه، بدليلٍ شرعيٍّ متأخِّر، وقد يكون الرفع للفظ النصِّ وحُكمه معًا، أو لأحدهما دون الآخر، وسواءً كان النَّسْخ من أثقل إلى أخفّ -كنَسْخ خمسين صلاة إلى خمس- أو من أخفّ إلى أثقل -كنَسْخ فرض صوم عاشوراء إلى فرض صوم رمضان- أو النَّسْخ إلى شيء مساوٍ في الثِّقَل والخِفَّة -كنَسْخ استقبال القبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة- أو كان نَسْخًا إلى بدلٍ -كالأمثلة السابقة- أو نَسْخًا إلى غير بدلٍ -كنَسْخ وجوب الصَّدَقة قبل مناجاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما يقول به كثيرٌ من العلماء.

فإنَّ كلَّ هذا النَّسْخ بجميع أنواعه صادرٌ عن مشيئة الله تعالى وحِكمته، وأنَّه إذا نسخ شيئًا أتى بخير منه، أو بمثله.

وقوله ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾: من (النِّسيان)، وهو ذهول القَلْب عمَّا كان معلومًا. فمعنى ﴿نُنسِهَا﴾ أي: نُذْهِبها من قُلُوبكم.

وفي قراءة (نَنْسأها) أي: نؤخِّرها، ومعناه: تأخير إنزالها، أو تأخير حُكمها، أو إبقاؤه مع رَفْعِ تلاوتها ونَسْخِ لفظها.

وقوله ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ أي: ما هو أفضل للعباد وأرفق بهم وأسهل عليهم، وأكثر أجرًا وثوابًا. ﴿أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ أي: مثل المنسوخة في النفع والثواب والعمل.

وقوله ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ (الهمزة) للاستفهام، والمراد به التقرير؛ أي: أنَّ الله يقرِّر المخاطَب بحقيقةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: لقد علمتَ قُدرة الله على كلِّ شيء، ومن ذلك: قُدرته على النَّسْخ؛ فلا يُداخِلك شكٌّ ولا ريب.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾:

قوله ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فمُلكهما وما فيهما وما بينهما له لا لغيره، يحكم فيهما، وفيما بينهما، بما شاء من أمرٍ ونهيٍ، ونَسْخٍ وتبديلٍ، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فالذي يملك الشيء يَقْدِر على التصرُّف فيه.

والنَّسْخ من أفعال الله، يفعله متى شاء، كيف شاء، وليس للعباد إلَّا السمع والطاعة.

وقوله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما لكم سوى الله ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ أي: ناصر أو قريب أو معين، يتولَّاكم ويجلب لكم خيرًا. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر، يدفع عنكم شرًّا، ويقيكم عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها تقوية للمؤمنين في وَجْه شُبُهات اليهود حول النَّسْخ وغيره. فاعتصموا بالله أيها المؤمنون، ولا تَهُولَنَّكم شُبهات اليهود، وتوكَّلوا على الله؛ فهو وليُّكم من دونهم، وناصرُكم عليهم.

ومما يُرَدُّ به على هؤلاء اليهود أيضًا: أن يُقال لهم: إنَّ النسخ موجود عندكم في شريعتكم والشرائع السابقة، فلماذا تُنكِرون وجوده في شريعتنا؟!

ألم يكن تزويج آدم لبناته من بَنيه مباحًا، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

ألم يكن نكاح الأختَين مباحًا ليعقوب وبنيه، ثم حُرِّمَ بعد ذلك؟

ألم يؤمَر إبراهيم بذَبْح ولده، ثم نُسخ هذا الأمر وجاء الله ببَدله، وهو الكبش العظيم؟!

إلى غير ذلك من الأمثلة.

وفي الآية: أنَّ القادر على تغيير الأمور الحِسِّيَّة في السماوات والأرض، قادرٌ على تغيير الأمور المعنويَّة في الأحكام والشرائع.

وفي النَّسْخ حِكَمٌ ومصالح؛ ومنها: اختبار امتِثال المكلَّف بهذه الأحكام.

ومنها: الترفُّق مع المكلَّفين، بالتدرُّج في فرض الأحكام عليهم، كما حصل في الصَّلاة والصيام وتحريم الخمر.

وقد يكون النَّسْخ جزاءً حَسَنًا من الله على الامتِثال والطاعة، كما حصل في قِصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكما حصل في موقف الصَّحابة من قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فلمَّا خضعوا لله وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أنزل الله التخفيف في عدم المؤاخذة على الإكراه والنِّسيان والخطإ(١).

وقد يكون النَّسْخ عُقوبة، كما حصل مع بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾:

وقوله ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ أي: محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخِطاب للمؤمنين والكافرين؛ فهو رسول الله إلى الجميع، من اليهود والنصارى والمشرِكين والمسلمين وغيرهم.

وقيل: المقصود بهذه الآية: اليهود، لـمَّا سألوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤال المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقيل: المقصود: المشرِكون، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رافع بن حُرَيْملة

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

ووَهـب بن زَيد وَوَهْبُ لرسـول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ائتنا بكتاب تُنَزِّله علينا من السـاء نقرأه، وفَجِّر لنا أنهارًا؛ نتَّبِعك ونصدِّقك»؛ فأنزل الله هذه الآية[1].

وقوله ﴿ أَمۡ تُرِيدُونَ ﴾: إمَّا أن تكون ﴿ أَمۡ ﴾ بمعنى (بل)؛ أي: بل تريدون، وإمَّا أن يكون المراد بها الاستِفهام، والمقصود: الاستِفهام الإنكاري؛ أي: الإنكار على مَن يُكثِرون سؤالَ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقـد ورد أنَّ أصحـاب النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ امتنعوا عن سـؤاله، كما قـال أنس ابن مـالك: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ العَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ»[2]، وورد أنهَّم سألوه عن مسائل.

والجَمـع بينهما: أنَّ ما سـألوا عنـه غيرُ الذي كَفُّوا عنـه، فما كفُّوا عنه هو أسـئلة التعنُّت والمعانـدة، والتـي يُقصَد بها ردُّ الحقِّ، والتلكُّؤ في تنفيذ الأمر، كـما كان بنو إسرائيل يفعلون مع أنبيائهم.

ومثلـه: كَفُّ الصَّحابة عن السـؤال عن الأُغْلُوطات، وعمَّا يُقصَد به إحراج المسئول لا الاستفادة منه. وكَفُّوا أيضًا عن السؤال عمَّا لا يقع عادة؛ لأنَّه تكلُّفٌ وإضاعة وقت.

وقد كَفُّوا أيضًا عن السـؤال عمَّا سـكت الله عنه؛ لأنَّ الله تعالى لا ينسـى، وسـكوته عن شيء يـدلُّ عـلى إباحته، ولذلك حذَّر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المسـلمين في عَهْده من هذا النوع من الأسئلة؛ فقال: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا: مَنْ سَـأَلَ عَـنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُـرِّمَ من أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[3]. ونحو ذلك من الأسئلة المكروهة.

لكنَّهم كانوا يسألون رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الأمور التي تقع لهم، وما يُفيدهم في أمر دِينهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

والمقصـود مـن هذه الآية: أنَّ الله ذمَّ مَن سـأل الرسـول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن شيء على سـبيل التعنُّت والاعتراض، واقتراح المعجِزات -فإنَّ أمرها إلى الله-.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٠).

(٢) رواه مسلم (١٢).

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

وقوله ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: كما سـأله بنو إسرائيل أن يُريهم الله جَهْرَة، وقد سأل كفَّارُ قُريش النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل الله لهم الصفا ذهبًا.

وقولـه ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: يأخذ الكُفر، ويختـاره بديلًا عن الإيمان؛ ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: انحرف وتاه ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الوسَـط المسـتقيم -طريق الحقِّ والهدى-.

والمقصـود: أنَّ مَـن ترك الثقـة والإقبال على الآيات البيِّنات المنـزَّلة، واسـتبدلها بأسـئلة التعنُّـت التي يُقصَد منها التكذيـب والمُعانَدة، وطلبَ حصـولَ معجِزات أخرى يقترحها على الله، وكأنَّ ما رآه لا يكفيه؛ فقد ضلَّ طريق الإيمان ووقع في الكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسـلِم في زمن الوحي مطالَبٌ بأن يسـكت عمَّا سـكت الله عنه؛ حتى ينـزِّل الله عَزَّ وَجَلَّ ما أراد -من أمرٍ أو نهيٍ-.

وفيها: النهي عن مشابهة اليهود والمشرِكين.

وفيها: أنَّه لا ينبغي إلقاء السؤال على العالِم إلَّا لمصلحةٍ أو فائدةٍ.

وفيها: أنَّه يجب على السائل أن يعملَ بما أُجيب به.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾:

قيل في سبب نزول الآية: أنَّ عددًا من أحبار اليهود ورؤساءَهم -ككعب ابن الأشرف، وحُيَيِّ بن أخطَب، وأبي ياسر بن أخطَب- كانوا قد حَسَدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين على النِّعمـة العظيمة التي آتاهم الله، من الإسـلام والقرآن ونبوَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فصار هؤلاء اليهـود يتمنَّون ويـوَدُّون أن يرتدَّ هؤلاء المسـلمون، ويَرجعوا إلى الكُفـر، فصاروا يقومون بكلِّ ما يقدِرون عليه لصَرْف المسلمين عن التوحيد والإسلام؛ فأنزل الله هذه الآية(١).

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤٩٩).

وقولـه ﴿حَسَدًا﴾ أي: الباعث لهم على هذا هو الحَسَد، وهو الـذي حملهم على الكُفر بنبيِّنا وشريعتنا؛ فوبَّخهم الله عَزَّوَجَلَّ، وعيَّرهم، ولامَهم أشدَّ اللَّوم.

وقولـه ﴿مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي: ليس من عند الله؛ وإنَّما من قِبَلِ أهوائهم وزَيْغهم وخُبْثِ نفوسهم، المنطوية على الحَسَد، وتمنِّي زوال النِّعمة عن الآخَرين.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي: ظهر بما لا يَدع مجالًا للشكِّ ﴿لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء اليهود ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: دين الإسلام، الذي اشتمل على الصِّدق في الأخبار، والعَدْل في الأحكام. وقد تبيَّن لهم الحقُّ من خلال الأوصاف الموجودة في كتابهم، ومن خلال الآيات والمعجِزات البيِّنات الظاهرات التي حدثت للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمامهم.

ولـمَّا بيَّن خُبثَ هؤلاء اليهود الذين لا يريدون اتِّباع الحقِّ، ولا يريدون لغيرهم الدُّخولَ فيه، ولا الاستمرار عليه؛ ذكرَ تعالى طريقةَ معاملة هؤلاء، في مرحلةٍ زمنيَّـةٍ معيَّنةٍ، فقال: ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ أي: اتركوهم، ولا تنتقموا منهم. و(العفو): تَرْك المؤاخذة على الذنب. ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ أي: أَعرِضوا عنهم، واتركوا لومَهم، من غير رضا بفِعْلهم، ولا حالهم. ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: يأذن بقتالهم.

ومن هنا قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وغيره من المفسِّرين: إنَّ قوله تعالى ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ منسوخٌ بآية السَّيف؛ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍ﴾، وما شابهها، كقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩](١).

وقد روى البخاري عن أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ الله، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى... وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ الله بِهِ، حَتَّى أَذِنَ الله فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بَدْرًا، فَقَتَلَ الله بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايِعُوا الرَّسُولَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٣)، تفسير القرطبي (٢/ ١٧).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٦٦).

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: عنده كمال القُدرة في الانتقام من هؤلاء الأعداء، بالقَتْل أو الإجلاء لو شاء، أو هدايتهم إذا أراد، لا يَعتَريه عَجْزٌ، ولا يَلْحَقه نقصٌ، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان شِدَّة عداوة اليهود والنصارى للمسلمين.

وفيها: أنَّ الكُفر بعد الإسلام يُسمَّى (رِدَّة)؛ لقول الله تعالى: ﴿لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾.

وفيها: تحريم الحَسَد، وأنَّ صاحبه متشبِّه باليهود.

وفيها: بيان خُبث طويَّة أهل الكتاب.

وفيها: مراعاة الله لأحوال المؤمنين.

وفيها: جواز مُهادَنة الكفَّار إذا لم يكن للمسلمين قوَّة.

وفي الآية: بِشارة للمؤمنين، أنَّ الله سيغيِّر حالهم إلى حالٍ يستطيعون فيه الجهاد؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾:

قوله ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أدُّوها بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُننها، على وَجه الكمال.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ادفعوها بطِيب نَفْسٍ إلى مصارفها. وسمِّيت (زكاة)؛ لأنَّها تزكِّي الإنسان وتطهِّره.

وقوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ (ما): أداة شرط، والمعنى: أيُّ شيء تفعلونه لمصلحة أنفسكم. ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أيّ خير وعمل صالح كان. ﴿تَجِدُوهُ﴾: جواب الشرط؛ أي: تجدون ثوابه وجزاءه، وتلقَونه يوم القيامة مدَّخرًا لكم، مضاعفَ الأجر.

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: هذا يبيِّن شَرَف هذه الأعمال؛ لأنَّها ما دامت محفوظة عنده فلن تضيع، وسيُضاعَف لفاعلها الأجر؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ شكورٌ كريمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: من الخيرات ﴿بَصِيرٞ﴾ أي: عليم بنيَّاتكم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان ما ينبغي أن يكون عليه حالُ المسلمين في زمن الاستضعاف، من الاهتِمام بالعِبادات، وإعداد النفس بالطاعات، مع الاستعانة بالله والصَّبر، واستصحاب الأمل بتغيُّر الحال، والقُدرة على جهاد الكفار.

وفي الآية: إقامة الفرائض والنوافل.

وفيها: أنَّ الصَّلاة آكد من الزكاة؛ لأنَّه قدَّمها عليها.

وفيها: أنَّ إقامة هاتَين الشعيرتَين -الصَّلاة والزكاة- من أسباب النصر والتمكين في الأرض.

وفيها: أنَّه ينبغي للمسلم أن يشتغل بالأهمِّ فالأهمّ من الدِّين.

وفيها: أنَّ كلَّ عمل يعمله المسلِم -مهما كان صغيرًا- فإنَّه يُثاب عليه.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾:

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: أهل الكتاب، مثل: يهود المدينة، ونصارى نَجْران في العهد النبويّ: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: قالت اليهود: «لن يدخل الجنَّة إلَّا يهوديّ»، وقالت النصارى: «لن يدخل الجنَّة إلَّا نصرانيّ».

وقوله ﴿تِلۡكَ﴾ أي: المقالة الباطلة، والزَّعْم بغير مستنَد ﴿أَمَانِيُّهُمۡ﴾ جمع «أمنيَّة»، وهي: ما يتمنَّاه الإنسان بدون اتِّخاذ سبَبٍ يُوصِلُهُ إلى ما يتمنَّاه. فزَعْمُ اليهود والنصارى هذا تمنٍّ كاذِب، وشهوة باطلة، وغرور وضلال وأحلام.

ثـم قال تعالى في الـرَّدِّ عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يـا محمَّد ﷺ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: أحـضِروا دليلكـم، وحُجَّتكم على اختصاصكـم بالجنَّة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في مقالتكم وزَعْمكم، وهذا أسلوبُ تحدٍّ لهؤلاء من أهل الكتاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان تعصُّب اليهود والنصارى، وتحجيرهم رحمةَ الله الواسعة.

وفيها: أنَّ مَـن طمع في المنـازل العالية بـدون عمل؛ فهو مُغـترٌّ بالأمانيّ، وفيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

وقولـه ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جـواب، يُفيد إبطالَ النفـيِّ المتقدِّم في قول أهـل الكتاب: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾. فكأنَّهـم لـمَّا قالـوا: لـن يدخـل الجنَّـة غيرنـا؛ أُجِيبوا: بلى يدخل الجنَّة غيركم، وزَعْمكم باطل!

ثم بيَّن تعالى صفات الذين سيدخلون الجنَّة؛ فقال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، و(إسلام) الشيء للشيء: جَعْلُه سالمًا له، بحيث لا يكون لأحدٍ آخر حقٌّ فيه، فمَن جعلَ اتجاهه وقصده وإرادته خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ كان مسلِمًا له.

وجاء التعبير بـ(الوجه)؛ لأنَّه يدلُّ على قصد الإنسـان. وهذا هو الإخلاص، الذي هو الركن الأول من رُكنَي العمل الصالح.

والركـن الثـاني هو: إحسـان هـذا العمـل، وهو جعلـه موافقًا لسُـنَّة النبي ﷺ، ولـذلك قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في حال كونه محسنا.

فإذا كان عمله خالصًا صوابًا؛ كان جزاؤه ما ذكره الله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ أي: ثوابه. وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ يُفيـد تعظيـم هذا الأجر؛ لأنَّه من عنـد الله، وأنَّ هذا الأجر محفوظ لا يضيع؛ لأنَّه عند الله الحفيظ الكريم.

وقوله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في المستقبَل في الآخرة، فمَن خاف اللهَ في الدُّنيا أَمِنَ يوم القيامة.

والخوف إنَّما يكون ممَّا يُتوقع في المستقبَل، كما أنَّ الحُزن يكون على ما وقع سابقًا، ولذلك نفاه عنهم بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: فيما مضى من أمرهم.

فلمَّا جمع هؤلاء بينَ الإخلاص لله واتِّباع شَرْعه؛ جمع الله لهم بينَ الأمن وعدم الحزن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ إخلاص النِّيَّة وحدَه لا يكفي، وأنَّ العمل إذا كان مُبتدَعًا لا يقبله الله، ولو كان العامل مخلِصًا لله، وهذا مِثل عمل الرُّهبان؛ فلا يُتقبَّل منهم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى تباغُض أهل الكتاب فيما بينهم، وتعانُدَهم، ومُعاندةَ بعضهم بعضًا؛ فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: من الحقِّ والصواب، ولذا: كفَروا بعيسى والإنجيل.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ فكفَروا بموسى والتوراة.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: قالوا قولهم هذا في حال كونهم يقرأون التوراة والإنجيل.

وقد قيل في سبَب نزول هذه الآية: أنَّ وفد نصارى نَجْران قد اجتمعوا مع أحبار اليهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا، فقال رافع بن حُرَيْملة اليهوديّ للنصارى: «ما أنتم على شيء»، وكفرَ بعيسى والإنجيل، فقال رجلٌ من أهل نَجْران من النصارى لليهود: «ما أنتم على شيء»، وجحدَ نبوَّة موسى، وكفرَ بالتوراة، فأنزل الله هذه الآية[1].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٥١٣)، تفسير البغوي (١/ ١٣٨).

والحقُّ: أنَّ أوائل اليهود والنصارى كانوا على دين صحيح، ولكنَّهم ابتدعوا وتفرَّقوا بعد ذلك.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ يشمل: قولَ كلِّ جاهل، من اليهود، أو النصارى، أو مُشركي العرَب، أو غيرهم؛ فإنَّ بعض كفَّار العرَب قالوا: ليس محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على شيء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك القول الذي قالت به اليهود والنصارى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: من مُشركي العرَب وعبَدة الأصنام، وطوائف أخرى من الجهلة والأُمَم السابقة ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يفصل ويقضي في هؤلاء المختلِفين، فيبيِّن عَزَّ وَجَلَّ مَن هم أهل الحقِّ، ومَن هم أهل الباطل، ثم يجازيهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: وهو يوم الجزاء والفَصْل. وسُمِّي بذلك؛ لأنَّ الناس يقومون فيه من قبورهم لربِّ العالمين، ولقيام الأشهاد فيه، ويُقام فيه العَدْل.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أمور الدِّين، وتعيين الحقِّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المِلَل الباطلة يُكفِّر بعضها بعضًا، وأنَّ الإسلام عدُوٌّ مشترَك لجميع الكفار.

وفيها: شِدَّة قُبح مَن خالف الحقَّ وهو يعلم.

وفيها: إثبات الحُكم لله عَزَّ وَجَلَّ.

وحُكم الله: منه ما هو شرعيّ -كأحكام الحلال والحرام- ومنه ما هو كونيّ -كما في قوله تعالى حكايةً عن أخي يوسف: ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]؛ فهو القضاء والقدَر- ومنه ما هو جزائي، وهو ثمرة الحُكم الشرعيّ، كما هو المقصود في هذه الآية.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾:

وقوله ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظلم وأشدَّ تعدِّيًا ﴿مِمَّن مَّنَعَ﴾ أي: مِن الذي منع ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾: أضافها إليه جلَّ وعلا تشريفًا لها؛ لأنَّها محلُّ عبادته.

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾: هذا يشمل كلَّ أنواع ذِكر الله، من الصَّلاة، والذِّكر، والأذان، والاعتكاف، ومُدارسة العِلْم، وتدريسه، ونحو ذلك.

﴿وَسَعَىٰ﴾ أي: جدَّ واجتهد ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ يشمل: التخريب الحِسِّي والمعنويّ.

والتخريب الحِسِّي مثل: هدمها، أو قَصْفها، أو إزالتها، أو تحريقها، أو تحويلها إلى متاحف أو دُور لَـهْو أو مستودَعات أو كنائس، ونحو ذلك.

والتخريب المعنويّ مثل: تعطيل الصَّلاة، ومنع الدُّروس، أو الاعتكاف، ونحو ذلك من أنواع ذِكْر الله.

وبعض الظلمة يبني المساجد وينقشها ويزيِّنها ويُطوِّل مناراتها -ابتغاءً للشهرة والمفاخرة والرِّياء والسُّمعة- ثم يجعلها خلْوًا من أنواع ذكر الله! وهذا تعطيلٌ لوظيفة المسجد، ونوعٌ من التخريب بلا شكٍّ.

ومن الظُّلْم: أن يُجعَل دَورُ المسجد قاصرًا على أنواعٍ من الذِّكر، دون أنواع أخرى مُهِمَّة.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هؤلاء الذين منعوا مساجدَ الله أن يُذكَر فيها اسمه:

فقيل: هم النصارى؛ فكانوا يطرَحون في بيت المقدِس الأذَى، ويمنعون الناس أن يُصَلُّوا فيه، وقد قام بُخْتَنَصَّر -الملك المجوسيّ- بتخريبِ مسجد بيت المقدِس وحَرْقِه، وقَتْلِ العُبَّاد فيه، وجعلَه محلًّا للجِيَف والقاذورات، في قِصَّة مشهورة حدثت في التاريخ.

وقيل: هم مُشركو قُرَيش؛ حيث منعوا رسول الله ﷺ من إتيان البيت الحرام، كما وصفهم الله بأنَّهم يصُدُّون عن البيت الحرام في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

والآية -على كلِّ حالٍ- تشمل بلفظِها كلَّ نوع من أنواع التخريب الحِسِّيّ والمعنويّ لبيوت الله، في كلِّ عصر ومصر.

ثم قال الله تعالى عن هؤلاء المانعين من ذكر اسمه في المساجد، الساعين في خرابها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة يعود إلى الذين منعوا مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، وسعَوا في

خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ أي: من المسلمين أن يَبْطِشوا بهم. وقال قتادة: «لا يدخلون المسجد إلَّا مُسارَقة»(١).

وقيل: المعنى: ليس لهم حقٌّ أن يدخلوا المساجد إلَّا خائفين.

وقيل: إنَّ الخبر هنا يحمل معنى النهي، أي: لا تَدَعُوهم أيُّها المؤمنون أن يدخلوها -إذا تغلَّبتم عليهم- إلَّا خائفين.

وقيل: إنَّ هذه الآية بِشارةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، بأنَّهم سينتصرون على المشرِكين الذين منعوهم من دخول المسجد الحرام، فلا يدخل هؤلاء المشرِكون عندئذٍ المسجدَ إلَّا خائفين، ترجُف قُلُوبهم.

﴿لَهُمۡ﴾ أي: لهؤلاء المانعين ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي: ذُلٌّ وعار وهوان، بالقَتْلِ، والسَّبي، وضربِ الجِزية عليهم.

وقيل: الخزي بخروج المهديّ، ونزول عيسى ابن مريم؛ فإنَّ الشِّرك ودين أهل الكتاب سينتهي من الأرض.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: عُقوبة عظيمة أشدُّ ممَّا حصل لهم في الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إضافة المساجد إلى الله -تشريفًا لها- يقتضي تطهيرَها وتعظيمَها، وألَّا يُوضَع فيها ما يكون سببًا للشِّرك بالله -كضريح ونحوه-؛ لأنَّ في ذلك إخراجًا لها عن موضوعها، فلا تصبح لله حينئذٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨].

وفيها: أنَّ الناس في المساجد سواء؛ لأنَّه لـمَّا قال ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، والناس عبادُ لله؛ فكلّ مَن أتى إلى هذه المساجد فلا فرق بينه وبين الآخَرين.

وبناء عليه؛ فلا يجوز حَجْزُ الأماكن في المساجد ليقضيَ أصحابُها الوقت الطويل خارج المساجد -لتجارة، أو نوم، أو طعام، أو استمتاع عند الأهل- فيكون قد منع ذِكر الله فيها، ومنعَ شخصًا أحقَّ منه بالذِّكر في تلك البُقعة المحجوزة.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٧).

ويمكن أن يؤخذ من الآية: أنَّه كما يَحرم إغلاق المساجد في وجه الذاكرين لله، ويَحرم منعهم من الذِّكر فيها، فإنَّه في الجانب المقابِل يجوز إغلاقها لمصلحة شرعيَّة، كالمحافظة على مُقتنياتها الموقوفة من السَّرقة، وصيانة لأجهزتها من العَبَث، أو إغلاقها جزئيًّا أو مؤقَّتًا للترميم ونحوه، أو إغلاقها في أوقات الفِتَن إذا خُشِيَ عليها الاعتداء والتحريق ونحو ذلك.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى إثمَ تخريب المساجد، أتبعَه ببيان أنَّ العِبادة تكون في كلِّ مكان -وإن لم يوجد مسجد- وأنَّ العِبادة ليست خاصَّة بالمساجد.

وهل هذه الآية منسوخة، أم مُحكَمة غير منسوخة؟ قولان للمفسِّرين:

فقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أول ما نُسِخَ من القرآن فيما ذُكر لنا -والله أعلم- شأنُ القبلة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، فاستقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلَّى نحو بيت المقدِس، وتركَ البيت العتيق، ثم صرفَه الله إلى بيته العتيق، ونسخَها؛ فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٥٠]»[(١)].

والقول الآخر: أنها مُحكَمة غير منسوخة، وأنَّ المراد بها: صلاة النافلة على الراحلة في السفر؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ»، قال: وفيه نزلَتْ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾»[(٢)].

ويدخل في هذا أيضًا: الصَّلاة إلى أيِّ جهة كانت، عند العَجْز عن استقبال القِبلة، كحال الالتحام بالعدوّ، واشتباك الجيشَين، وكذلك الأسير، والمريض الذي لا يستطيع التوجُّه إلى القِبلة، وليس هناك مَن يُوَجِّهه.

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) للاختصاص أي: أنَّ الله مختَصٌّ بمُلك المشرق والمغرب؛ فهما له وحدَه، لا لغيره.

---

(١) رواه النسائي (٣٤٩٩) مختصرا، والطبري (٣/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٢١٢) -واللفظ له-.
(٢) رواه مسلم (٧٠٠).

و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: مكان شروق الشمس، ﴿وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾: مكان غروب الشمس؛ فله الأرضُ كلُّها؛ لأنَّ المشرق والمغرب يشملان جميع نواحي الأرض.

﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ أي: أينما توجَّهتم للصلاة، وذلك في حال عدم القُدرة على التوجُّه إلى القِبلة -كما تقدم-؛ ﴿فَثَمَّ﴾ أي: هناك ﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾: قال بعض المفسِّرين: يعني: الجهة. وقال بعضهم: بل المراد: وَجْه الله الذي هو صفة من صفاته تليق بجلاله وعَظَمته.

والمعنى: أنَّكم في أيِّ مكان كنتم من الأرض، فتوجَّهتم في صلاتكم؛ فإنَّكم تتوجَّهون إلى الله.

وفي الحديث، في وصايا يحيى بن زكريّا عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل: «فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»(١).

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أي: واسع الإحاطة، وواسع العِلْم والقُدرة، وواسع الرحمة والفَضْل، يسَع خلقَه كلَّهم بجُوده وفَضْله.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو عِلْم، وعِلْمه محيط بكلِّ شيء، ومن ذلك: أعمال العِباد، لا يغيب عنه منها شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُموم مُلك الله تعالى للمشرق والمغرب وما بينهما، وانفراده بهذا المُلك، ولأنَّه يملك الجهات؛ فهو الذي يأمر باستقبال أيِّ الجهات شاء، لتكون قِبلةً في الصَّلاة، فلا يجوز لأحد الاعتراض على الله في هذا -كما فعلت اليهود-.

وفي الآية: إثبات (الوَجْه) لله تعالى، والوَجْه صفة عظيمة نعتقدها لله، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل.

وفي الآية: أنَّ لله تعالى مكانًا، كما دلَّ عليه قوله: ﴿فَثَمَّ﴾، وهي إشارةٌ إلى المكان، وهو عَزَّ وَجَلَّ فوق سماواته على عرشه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٥٢).

ولـمَّا اختبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجارية، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّـمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَـا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُـولُ اللهِ؛ قَالَ لمولاهـا: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(١)، فصدَّقها وشـهد لها بالإيمان. وهذا يدلُّ على بُطلان قول مَن قال: إنَّ الله في كلِّ مكان.

وفي الآية: أنَّ مَن اشتبهت عليه القِبلة، ولم يجد مَن يسأله ممَّن يعرفها، فاجتهد وصلَّى؛ فلا إعادة عليه، وإن تبيَّن له أنَّه صلَّى إلى غير القِبلة.

وفيهـا: أنَّ العِبـادة والصَّلاة لا تختصُّ صِحَّتها ببقـاعٍ معيَّنة من الأرض؛ بل كلُّ الأرض شرقًا وغربًا تصلُح للصلاة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾:

وقوله ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: اشـتملت هذه الآية الكريمـة على الرَّدِّ على النصارى واليهود ومُشركي العرَب وغيرهم، ممَّن زعم الولدَ لله.

وهـذا الولـد المزعوم قد جـاء مفصَّلًا في آيـاتٍ أُخر، كقولـه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ عن مُشركي العرَب: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ﴾ [النحل: ٥٧].

وقـد كذَّب تعالى هؤلاء في مَزاعِمهم، ونزَّه نفسـه عـن كُفرهم هذا، بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، وهذه كلمة تنـزيه، فتعالى الله أن يكون له ولد؛ لأنَّه لا يحتاج إلى ولد كما يحتاج المخلوق، والولد يتولَّـد مـن ذكر وأنثى، والله ليس له نظير ولا زوجة، والولد يكون عادة من جِنس والده، والله أحـدٌ فردٌ لا يُشْـبِهه شيء؛ فكيف يكـون له ولد، وليس كمثلـه شيء؟! والولد يكون عادة عن جِماع بينَ الزوج والزوجة، وهذا يقتضي شهوة ووطأً، والله تعالى منزَّه عن كلِّ هذا.

ولهـذا كان من الشَّـتيمة العظيمة للرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: ادِّعاءُ الولـد له، ولأجل ذلك أوردَ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»، في تفسير هذه الآية، الحديثَ القُدْسِيَّ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ: فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ. وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»[(١)].

وقوله ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: يبيِّن أنَّ جميع الأشياء مربوبة مخلوقة، فكيف يكون منها ولدٌ لله تعالى؟ وهل الذي له مُلك السماوات والأرض يحتاج إلى ولد؟ فعُموم مُلكه يستلزم استغناءَه عن الولد، وكيف يكون المخلوقُ ولدًا للخالق؟!

وقوله ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: خاضعون ذليلون. و(القنوت): هو الطاعة والاستكانة لله.

والقنوت منه ما هو شرعيٌّ خاصٌّ، يفعله المؤمن اختيارًا وطاعةً لربه.

ومنه نوعٌ قدَرِيٌّ عامٌّ، قَهَرَ الله العِباد عليه، ومنه: قنوت الأشياء لله تعالى في هذا الكون، ومنه قنوتُ الكافرِ، بمعنى: الخضوع تحت أمر الله الكونيِّ، وعدم القُدرة على الخروج عن قضائه وأمره، إذا قال للشيء: «كُن»؛ فكلُّ ذرَّةٍ في بدن هذا الكافر وفي الكون تخضع لله عَزَّوَجَلَّ.

والكافر أيضًا تظهر يومَ القيامة طاعتُه لله وقُنوتُه وخضوعُه له.

وقوله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مُبْدِع السماوات والأرض. والمُبدِع: هو الذي يأتي بشيءٍ لم يسبقه إليه أحد، أو يصنع شيئًا ليس له مماثل سابق، ولهذا سُمِّيَ المبتدِع في الدين مُبتدِعًا؛ لأنَّه أحدثَ قولًا وفعلًا لم يأتِ به أحدٌ سبقَه، ولا دليل عليه، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(٢)].

والله تعالى أبدعَ الأشياء، وأحدَثها وأنشأها على شكل فائق، ليس له مثال سابق. وهو الأول في فِعْله، فلم يوجَد أحدٌ قبله ليفعلَ أو يخلقَ شيئًا أصلًا.

وإذا كان هو الذي خلق السماوات والأرض من غير أصل ولا مثال؛ فكيف يكون له ولدٌ؟ تعالى وتقدَّس سبحانه.

وقوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أي: إذا قدَّر أمرًا وأراد أن يقضيَه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢)، باب: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٤٥٥).

وقوله ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لَهُۥ﴾ أي: لذلك الذي أراد إيجاده: ﴿كُن﴾ أي: أُحدُث، يقولها مرَّة واحدة؛ ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: يَحْدث ذلك الأمر كما أراد الله، من غير توقُّف ولا إباء ولا تأخُّر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

و(الفاء) في قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تدلُّ على الترتيب والتعقيب، وهو الحدوث الفوريّ، فعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -مثلًا- هو كلمة الله، أي: مخلوقٌ فورًا بكلمة «كُن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إبطال دعوى الكفَّار الكاذبة بأنَّ لله ولدًا، من ستة أوجه:

١. أنَّه نزَّه نفسه عن النقص، بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، والولد في حقِّه نقصٌ.

٢. وأنَّه ذكر عُمومَ مُلكه، بقوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وعُموم مُلكه يستلزم استغناءَه عن الولد.

٣. وأنَّ الملك في قوله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يترتَّب عليه أنَّ المملوك لا يكون ولدًا للمالك.

٤. وأنَّ قوله ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ ما سوى الله خاضعٌ ذليلٌ له، فكيف يكون العبدُ الخاضع الذليل ولدًا للرَّبِّ؟!

٥. وأنَّ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي أوجدَها من غير مثال سابق، قادرٌ على أنَّ يخلق عيسى من غير أب.

٦. وأنَّ قوله ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يدلُّ على كمال قُدرته، التي لا يستحيل معها أن يُوجِدَ ولدًا بدون أب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾:

قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قيل: هم اليهود، وقيل: هم النصارى، وقيل: هم كفَّار العرب.

﴿لَوۡلَا﴾ أي: هلَّا ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: عِيانًا مباشرة، بأنَّك يا محمَّد رسولٌ من عنده. ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ أي: حُجَّة ومعجِزة، تدلُّ على صِدقك؟!

وقد اقترحوا وحدَّدوا أمورًا من ذلك؛ مثل: أن يَفْجُرَ لهم من الأرض ينبوعًا، أو يُسْقِط السماء عليهم كِسَفًا -أي: قِطَعًا- أو يأتيهم بالله والملائكة قَبيلًا -أي: مُجتَمعين- أو يكون له بيت من زُخرُف -أي: ذهب- أو يرقى بسُلَّم في السماء حتى يدخلَ فيها وهم يرونَه! ونحو ذلك مِن تقدُّمهم على الله بآرائهم واقتراحاتهم، وهذا من عِنادهم وتمرُّدهم وعُتُوِّهم.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا القول الشنيع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: من كفَّار الأُمَم الماضية لأنبيائهم ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ أي: مثل هذه الاقتراحاتِ وطلبِ الآيات.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: تماثلَت وتوافَقت. والمعنى: أنَّ قُلُوب الكفَّار الأوَّلين والآخِرين متشابهة في رفض الحقِّ والعِناد والجحود، فَهُم -وإن اختلفت أساليبهم، والأشياء المطلوبة من قِبَلِ كلٍّ منهم- لكنَّ قُلُوبهم قد تواطأتْ واجتمعتْ على العمَى والعِناد ورفض الحقِّ.

وقوله ﴿قَدۡ بَيَّنَّا﴾ أي: أظهرنا ووضَّحنا ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الدالَّة على الحقِّ ﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي: يَطلبون اليقين. و(اليقين): هو أبلغ العِلْم وآكده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل الباطل يُجادِلون بالباطل.

وفيها: أنَّ الذي لا ينقاد للحقِّ فهو جاهل.

وفيها: إثبات المشرِكين لكلام الله، ومن العجيب أنَّ بعض المبتدعة من هذه الأُمَّة يُنكِره!

وفيها: أنَّ أقوال أهل الباطل تتشابه على مرِّ العصور.

وفيها: أنَّ تشابه القُلُوب يؤدِّي إلى تشابه الأقوال.

وفيها: أنَّه لا ينتفع بالآيات إلَّا الموقِنون، وأمَّا أهل الشَّكِّ والرَّيْب: فلا ينتفعون.

وفيها: أنَّ اليقين يزيد العِلْمَ، ويزيد بالعِلْم.

وفيها: مَدْح هذه المرتبة -وهي مرتبة اليقين- والحثُّ على بلوغها.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾:

وقوله ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: حقيقة مؤكَّدة بـ(إنَّ)، وهذه الحقيقة هي بِعْثة النبي ﷺ.

وذِكَرَ المُرسِل والمُرسَل، ولم يذكر المرسَل إليه؛ لإفادة عُموم الرِّسالة، وأنَّ محمَّدًا ﷺ مُرسَل إلى العالمَين، وإلى الناس كافَّة.

وقوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ (الباء) للمصاحَبة والملابَسة؛ أي: أرسلناك متلبِّسًا بالحقِّ، حاملًا له، مبلِّغًا إيَّاه، فبَعثتك حقٌّ في نفسها، ورسالتك مصحوبةٌ بالحقِّ، والدِّين الذي أُمِرتَ بتبليغه حقٌّ أيضًا؛ فهو حقٌّ، وصِدق في الأخبار، وعَدْلٌ وقِسْطٌ في الأحكام.

وقوله ﴿بَشِيرٗا﴾ أي: مبشِّرًا للمؤمنين بالثواب العظيم وجنَّات النعيم. ﴿وَنَذِيرٗا﴾ (الإنذار): الإعلام بالمكروه وبما يُخَافُ منه. والمقصود: أرسلناك مُنذِرًا ومخوِّفًا للكافرين من العقاب الأليم، وعذاب الجحيم.

وقوله ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: لا يسألك الله عنهم لماذا لم يؤمنوا، مادُمْتَ بَيَّنت وبلَّغتَ، فإنَّما عليك البلاغ، وعلى الله الحساب.

و﴿أَصۡحَٰبِ﴾: جمع (صاحب)، وهو الملازِم. و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: النَّار العظيمة، وهذا أحد أسمائها.

ووَصْفُ النبيِّ ﷺ بأنَّه بشير ونذير موجود في التوراة بالنصِّ، كما جاء في حديث عطاء بن يَسَار، قال: لقيتُ عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قلتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي التَّوْرَاةِ، قَالَ: «أَجَلْ، والله، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[١].

---

(١) رواه البخاري (٢١٢٥).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾:

قوله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ٱلْيَهُودُ﴾، ولن يُحِبُّوا دينك ولو خليَّت شأنهم، ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (لا) للتأكيد، أي: أنَّ كلَّ طائفة لن ترضى.

وهذا يُشبِه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ولعلَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما هاجر إلى المدينة كان يطمع في أهل الكتاب أن يوافقوه، وأن يرضوا عن مِلَّته،ولذلك كان كثيرًا ما يتألَّفهم ويحاول استجلابهم، فأيأس الله نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رضاهم عنه وعن المسلمين، وما داموا لن يرضوا عنه فليَترْك محاولاتِ إرضائِهم، والطمعَ في موافقتهم، وليُقبِل على الاشتغال برضا الله عَزَّ وَجَلَّ.

لكن هذا الأمل المفقود في رضا الطائفتَين عُمومًا، ليس مفقودًا في هداية بعض أفرادهم؛ ولذلك فقد بقيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو أفرادهم، ولم يَعُد يطمع فيهم مجتَمِعين.

وستبقى عداوةُ اليهود والنصارى للمسلمين قائمةً في الأرض، حتى يتمَّ الخلاص منهم جميعًا على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: تدخل في دينهم، وتصلِّي إلى قبلتهم. وفي ذكر (المِلَّة) بصيغة المفرد دليلٌ على أنَّ الكُفر كلَّه مِلَّة واحدة، كما قال تعالى عن طوائف الكفَّار كلِّهم في سُورَة «الكافرون»: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾.

وهذا البيان من الله عن موقف اليهود والنصارى: أنَّهم لن يرضوا عن أيِّ مسلِم حتى يُصبح يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ فيه ردٌّ على الذين يُحاوِلون التقريب بينَ الأديان، ويؤمِّلون الوصول مع اليهود والنصارى إلى حلٍّ وسَط، أو ميثاقٍ مشترَك يلتزم به الجميع؛ فالآية واضحة أنَّه لا سبيل إلى الاتِّفاق معهم أبدًا على شيء يُرضيهم، ويجعلُهم يكُفُّون عن عداوتنا وحَرْبنا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم مجيبًا يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: دين الإسلام الذي أُنزِل وخُتِم به ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: هو الصِّراط المستقيم والحقّ، وليس ما أنتم عليه يا أيُّها اليهود والنصارى.

ثم قال تعالى مخاطبًا نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خطابًا فيه تهديدٌ ووعيدٌ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ أي: على سبيل الفرض والتقدير. وهذه جملة شرطيَّة فيها قَسَمٌ؛ تقديره: «وعزَّتي وجلالي، لئن اتبعتَ»، أي: وافقتَ وسايرتَ.

﴿أَهْوَآءَهُم﴾ جمع (هوى)، وهو الرأي الصادر عن شهوة، والخالي من الدليل، والمؤدِّي إلى الضلال، يهوي بصاحبه إلى الهاوية.

والإتيان بصيغة الجمع في قوله ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ لبيان أنَّ كل طائفة لها هوى غير هوى الأخرى؛ بل هم في أنفُسِهم مفترِقين مختلِفين!

وقوله ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحي الذي أنزله الله عليك، المتضمِّن لدين الإسلام، وبيان بُطلان ما عليه أصحاب المِلَل والأهواء من هؤلاء.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (ما) نافية ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ أي: قريب يحفظك ويمنعك، و(الولي): هو الذي يتولَّى غيره بالحفظ والصيانة، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولا ناصر ينصرك ويَدْفَع عنك العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عِناد اليهود والنصارى، وأهميَّة الحذر منهم، وتحريم اتِّباعهم.

وفيها: القيام بالرَّدِّ على الكفَّار، وبيان أنَّ ما هم عليه ليس دينًا، وإنَّما هوى.

وفيها: أنَّ مَن اتبع الهوى بعد العِلْم أشدُّ ضلالة ممَّن اتَّبعه بغير عِلْم.

وفيها: وجوب طلب النصر من الله، والاعتماد عليه في الحِفظ.

والخِطاب في الآية -وإن كان للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فإنه يشمل أُمَّته.

وقوَّة الأسلوب في الآية -بما اشتمل عليه من التهديد والوَعيد- مع أنَّ الخِطاب للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يمكن أن يتَّبع مِلَّة الكُفر؛ **يؤخذ منه**: القوَّة في التحذير من الباطل، وعدم المجامَلة في ذلك، وإذا كان الله قد هدَّد نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إن اتبع أهواءهم- وهو أحبُّ الخَلْق إليه، ومعلوم أنَّه سيثبُت على الحقِّ-؛ فكيف بهؤلاء المنحرِفين من أُمَّته اليومَ، الذين

يُطالِبـون بالتقريب بينَ الأديان، ويطمَعون في اسـترضاء الكفَّـار، والالتقاء معهم على حلٍّ وسَطٍ بزعمهم؟!

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى بعضَ قبائـح المُعانِدين من المغضوب عليهم والضالِّـين؛ أتبعَ ذلك بمدح مَن آمن بما أنـزل الله واتبعه؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهذا يشمل جميع المؤمنين، سـواءً من أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم ونبيِّهم، ثم آمنوا بكتابنا ونبيِّنا -كعبد الله بن سـلَام وورَقة بن نَوْفَل والنَّجاشيّ وغيرهم- وأيضًا أصحابَ رسـول الله ﷺ، وكلَّ مسـلِم من هذه الأُمَّة؛ فهم يؤمنون بالكتب المنزَّلة على الأنبياء من قبل، وبالكتاب المهيمِن وهو القرآن.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: وهـذا يشـمل تـلاوة اللفـظ، وهي: القـراءة، فيقرأونه سـالمًا من تحريـف اللفظ والمعنى، ويعرفون تفسـيره، ويبيِّنونه لغيرهم. ويشـمل تلاوة الحكم، وهي: اتِّباعـه والعمل به، فيُحِلُّون حلاله ويحرِّمون حرامـه، ويتدبَّرون معانيه، ويقفون عند آياته، فيسألون ويستفيدون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بكتابهـم، المسـتلزِم بالإيمان بنبيِّنا وما أُنـزِل عليه، إن كانوا من أهل الكتاب. وإن كانوا من هذه الأُمَّة؛ فيؤمنون به: أي بالقرآن الذي أُوتوه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: يجحـد ويكذِّب بالكتب السـابقة، أو بهذا القرآن، والذي نُزِّل عليه -وهـو محمَّد ﷺ-؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: المنقوصـون المَغْبونون، الذين خَسِروا أنفُسَهم يوم القيامة، فصاروا هالِكين في النَّار.

وقـد ذكـر النبيُّ ﷺ هـلاك وخُسـران مَن لم يؤمـن به مـن أهل الكتـاب؛ فقال: «وَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْـمَعُ بِي أَحَدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُـودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِـلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ من أَصْحَابِ النَّارِ»[1]، وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكر نِعمته تعالى ومِنَّته على أصحاب الكتب المنزَّلة عليهم، وأنَّه آتاهم إيَّاها لتلاوتها، والعمل بما فيها.

وفيها: أنَّ للإيمان علامة، وهي: العمل.

وفيها: التحذير من الكُفر الاعتقاديّ والعمليّ.

وفيها: أنَّ مَن خالف شيئًا من القرآن؛ فإيمانه ناقص.

وفيها: فَضْل مُؤمني أهل الكتاب، الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ، وهو محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل؛ فيؤتَون أجرَهم مرَّتَين.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب إذا أقاموا كتابهم الحقيقيَّ؛ فلا بُدَّ لِزامًا أن يؤمنوا بكتابنا ونبيِّنا.

وفيها: وجوب الإيمان بجميع الكتب، وجميع الرُّسُل.

وفيها: عُلُوُّ مرتبة المؤمنين؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وفيها: وجوب اتِّباع القرآن لفظًا ومعنى، وتحريم تحريفه لفظًا ومعنى.

وفيها: فَضْل الصَّحابة ومؤمني هذه الأُمَّة؛ لإيمانهم بجميع الكتب الإلهيَّة وجميع الأنبياء والمرسَلين.

وفيها: معرفة قَدْر هذا الكتاب المنزَّل، وشُكر نِعمة الله، بتلاوته، والعمل به.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾:

ولـمَّا ابتدأ تعالى قِصَّة بني إسرائيل في هذه السُّورَة بتذكيرهم بنِعمته التي أنعم بها عليهم؛ ختم قَصصهم أيضًا بالتذكير بتلك النِّعمة، وذلك من تمام التذكرة والموعظة، وإيذانًا بنهاية القِصَّة.

فناداهم بنسبتهم إلى أبيهم إسرائيل -وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ- فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهي نِعَم كثيرة، دينيَّة ودُنيويَّة، ومنها: إنجاؤهم من فرعون، وإيتاؤهم

التوراة، وغيرها كثير. ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ في ذلك الوقت؛ لتشكروا هذه النِّعَم، ومن شُكرها: الإيمان والعمل، والتصديق بمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -المكتوب عندهم في التوراة-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أساليب دعوة المُعرِضين: تذكيرهم بنِعَم الله عليهم؛ لعلَّهم يرجعون، ويقومون بشُكر تلك النِّعَم.

وفيها: أنَّ مِن شُكر كُتُب الله المنزَّلة: الإيمان بنبوَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المذكور فيها، واتِّباعه.

وفيها: تذكير الدُّعاة بأهميَّة تذكير الناس بنِعَم الله عليهم؛ لترقيق قُلُوبهم، وكذلك تذكيرهم باليوم الآخر.

ولذلك قال تعالى بعدها:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

وقوله ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أي: خافوا عذابَ يوم رهيب، واجتنبوا عقاب الله فيه، وهو يوم القيامة.

﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾: لا تدفع ولا تقضي ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ أُخرى ﴿شَيْـًٔا﴾ من الحقوق التي وجبَت عليها لله، وللمخلوقين في الدُّنيا، فلا تستطيع أن تتحمَّلها عنها يوم القيامة.

وكذلك لا تؤخَذ نفسٌ بذنبِ أخرى، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يؤخَذ منها فِدْية تنجو بها من النَّار، ولا تجد ما تفتدي به أصلًا. و(العدل) معناه: الشيء المعادِل.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ فتُنجيها من العذاب. و(الشفاعة): هي التوسُّط للغير؛ بدفع مضرَّة أو جلب منفعة. سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ الشافع إذا انضمَّ إلى المشفوع صار شَفعًا، بعد أن كان وِترًا.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمَن يمنع عنهم عذاب الله. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سَلِينِي مَا شِئْتِ من مَالِي، لاَ أُغْنِي عَنْكِ من الله شَيْئًا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وفي هذه الآية من الفوائد:

موعظة المعانِدين بتذكيرهم باليوم الآخر، وبيان أنَّه لا يؤدِّي فيه أحدٌ عن أحد شيئًا، وإنَّما فيه أداء الحقوق ورَدُّ المظالم إلى أصحابها، والقِصاص فيه يكون بالحسنات والسيِّئات.

وفيها: أنَّ بعض الناس -كالخالِدين في النَّار- لا تنفعهم شفاعةُ الشافعين، ولا تنال الشفاعة إلَّا مَن أذِن فيه أرحمُ الراحمين، ولا يستطيع أن يشفع إلَّا مَن أذِنَ له سبحانه.

وفيها: أنَّ رأس جَلْب المنفعة في ذلك اليوم هو دخول الجنَّة، وأعظم دَفْع المضرَّة فيه هو النجاة من النَّار.

وفيها: أنَّه لا يجزي أحدٌ عن أحد، حتى الوالد لا يجزي عن ولده، ولا المولود يجزي عن والده شيئًا، وأنَّ كلَّ إنسان يؤدِّي بنفسه ما عليه من الحقوق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفيها: أنَّ أهل النَّار يريدون يوم القيامة النجاة بكلِّ وسيلة، فيطلبون تقديم الفِداء، ثم الاستنجاد بالشُّفعاء تارة، وتارةً يطلبون الشُّفعاء قبل الفِداء، إذا لم ينفع الأول.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حالَ أهل الكتاب؛ أشاد بذِكر عبدِه وخليلِه إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ، الذي يزعم أهلُ الكتاب محبَّته وتعظيمه، ويَنتَحِلون مِلَّته، مع أنَّهم ليسوا عليها.

فذكر تعالى حالَه ومنزلته؛ فقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لقومك المشرِكين، ولأهل الكتابَين، قِصَّة ابتلاء الله لإبراهيم. و(الابتلاء): الاختبار والامتحان.

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ وفي قراءة (إبراهام)، وهو اسم أعجميٌّ، قيل معناه: الأب الرحيم.

﴿رَبُّهُۥ﴾ وهو المُبتَلِي عَزَّ وَجَلَّ. وهذا الابتلاء؛ ليظهَر عِلْمُه تعالى في الواقع، ولِتظهَر منزلةُ الخليل عَلَيهِ السَّلَامُ وأحوالُه؛ فيَحصل الاقتداء به.

﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ شرعيَّة كلَّفه بها -من أوامر ونواهي- وقدَريَّة كتبَها عليه. فقام بالكلمات الشرعيَّة وأتمَّها ووفَّاها، وصبر على القدَريَّة واحتسبَ.

فمن الأمور الشرعيَّة: ما صَحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية، قال: «ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قصّ الشارب، والمَضْمَضة، والاستنشاق، والسِّواك، وفَرْق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونَتْف الإبط، وغَسْل أثرِ الغائط والبَول بالماء»[1].

ومن ذلك أيضًا: الإسلام، والحج، والإحرام به، والطواف، والسعي، ورمي الجمار.

وأمَّا ما ابتلاه به ممَّا كتبه وقدَّره عليه: فمخالفة أبيه وقومه، ومناظرته قومَه، ومحاجَّة النُّمْرُوذ، وإلقاؤه في النَّار، والهجرة من بلده العراق إلى الشام، وابتلاؤه بذبح ولده، ثم تركه مع أمِّه هاجر بوادٍ غير ذي زَرْع.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: أدَّاهُنَّ أحسنَ التأدية، وقام بهنَّ حقَّ القيام، من غير تفريط ولا تقصير ولا تأخير، فقام بالكلمات الشرعيَّة ووفَّى بها، وصبر على القدَريَّة واحتسب، وصبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله؛ ولذلك رفع الله منزلتَه، وكافأه على ذلك في الدُّنيا قبل الآخرة.

فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يأتمُّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون إلى يوم القيامة؛ فتكون قدوة لهم في الدِّين، يهتَدون بهديك، ويستنون بسُنَّتك. و(الإمام): هو مَن يُقتدَى به.

فلما رأى إبراهيمُ ما في ذلك من الخير العميم والثواب العظيم؛ رَغِبَ أن يكون هذا في ذريَّته أيضًا -وهذا من محبَّته الخيرَ لهم-؛ فقال طالبًا من ربِّه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل منهم أئمَّة.

فاستجاب الله دُعاء إبراهيم، مقيَّدًا ومشروطًا، فقال: ﴿لَا يَنَالُ﴾ أي: لا يُصيب ولا يحصُل على ﴿عَهْدِي﴾ أي: النُّبوَّة، والإمامة في الدِّين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي: لأنفُسهم، ولغيرهم.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٨٩)، تفسير الطبري (٢/ ٩).

فدلَّت الآية على: أنَّ الظالمين لا يكونون أئمَّة وقدوةً للناس، وفي هذا تنفيرٌ من الظلم.

وفسَّر بعض المفسِّرين (العهدَ) في قوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأنَّه: الأمان والأكل والعيش، كما صحَّ عن قتادة وإبراهيم، قالا: «لا ينال عهدَ الله في الآخرة الظالمون، فأمَّا في الدُّنيا: فقد ناله الظالم، فأمِنَ به، وأكَلَ، وأبصرَ، وعاش»(١).

وفسَّر بعضهم (العهد) بأنه: الدِّين، فقال الرَّبيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: «عَهْد الله الذي عَهِدَ إلى عباده: دينُه، يقول: لا ينال دينُه الظالمين»(٢).

وقال بعضُهم: إنَّ معنى الآية: أنَّه لا عهد عليك لظالم أن تطيعَه في ظُلْمه، فلو عاهدتَ أميرًا أو إمامًا على السمع والطاعة، ثم أمرَك بمعصية؛ فلا يجوز لك أن تُطيعَه في ذلك؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالِق(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

منزلة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيها: أنَّه بالصبر واليقين والعمل بالشَّرْع المتين، تُنال الإمامة في الدِّين.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يدعوَ لذريَّته بالصلاح والهداية، وأن يكون منهم قادةً في الخير.

وفيها: أنَّ الظالم لا يصلُح أن يكون خليفة، ولا حاكمًا، ولا مُفتيًا، ولا إمامَ صلاةٍ، ولا راويًا للعِلْم والحديث.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ ذريَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الحقِّ؛ بل منهم ظالمون، كما قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقد استجاب الله بعضَ دعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٣).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٣)

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٩٣)، تفسير الماوردي (١/ ١٨٥).

وفيها: فَضْل الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعُلُوُّ منزلته، حتى اجتمع أهلُ الأديان على تعظيمه.

وفيها: مكافأة الله لأهل الصَّبر واليقين، بأبواب الأجر التي يكتبها لهم، بجعلهم أئمَّة يَقتدي بهم الناس.

وفيها: عاقبة الظُّلْم الوخيمة، وأنَّ الظُّلم ينزل بأهله إلى أسفل سافلين.

وفيها: أنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

وفيها: أنَّ النَّسَب لا ينفع الظالم ولا يرفعه، فاستثنى الله من الخير الظَّلَمة، ولو كانوا من ذريَّة الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لقومك أنَّنا صيَّرنا ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ وهو: الكعبة، بيت الله عَزَّوَجَلَّ. وقد أفادت (الـ) في قوله ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ أنَّه البيت المعهود الذي لا يُجْهَل.

جَعلَه الله ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعًا ومعادًا، كلَّما انصرفوا منه اشتاقوا إليه، فعادوا وثابوا إليه في الحجِّ والعُمرة والعِبادة، فلا ينقضي منه الوطَر، ولا تشبع منه النفوس. ويثوبون إليه أيضًا في الصَّلاة بقُلُوبهم، ويتوجَّهون إليه بأجسادهم، ويتذكَّرونه في كلِّ يوم وليلة.

وقوله ﴿وَأَمْنًا﴾ أي: جعلناه آمنًا، يأمَن فيه الناس على دمائهم وأموالهم، ويأمَن فيه حتى الصيد والأشجار أن تُقطع. وهو محلُّ أمنٍ لمن يسكنه، وكان الرجل في الجاهليَّة يرى قاتل أبيه أو أخيه في الحَرَم فلا يتعرَّض له، وكانوا لا يُغِيرونَ على مكة مع شِرْكهم.

ولأجل توفير الأمن فيه؛ نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن حمل السلاح في مكَّة؛ فقال: «ولَا يُحْمَلُ فيها سِلاحٌ لِقِتالٍ»(١).

وقوله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾ أي: اجعلوا ﴿مِن مَّقَامِ﴾ أي: مكان القيام، وهو الحَجَر الذي

---

(١) رواه مسلم (١٣٧٤).

قـام عليه نبيُّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لبنـاء الكعبة ﴿مُصَلًّى﴾ أي: مكانًا للصـلاةِ، وأداءِ ركعتي الطواف خلفَه.

وقـد عَمِـلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهـذا؛ فلمَّا فرغ من الطـواف اتجه إلى مَقـام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وصلَّى ركعتَين[1].

وقيل: (مقام إبراهيم) هو الحَرَم كلُّه. وقيل: الحجُّ كله، أي: المشـاعر وأماكن المناسك، واتِّخاذها مصلًّى: يعني: الدُّعاء فيها.

قوله ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وأوصيناهما، و(العهد): هو الوصيَّة بما هو مُهِمّ. ﴿أَن طَهِّرَا﴾ هذا تفسير (العهد) ﴿بَيْتِىَ﴾ أضاف (البيت) إليه؛ لبيان شرفه.

فأمرهمـا الله وأوجـبَ عليهما أن يؤسِّسـا البيـتَ ويَبنيـاه على التوحيـد والإخلاص لله، ويُطهِّراه من الأوثان والأرجاس الحِسِّـيَّة والمعنويَّـة، وأن يحفظاه فلا يُنْصَب حولَه شيءٌ من الأوثان، ويُصان عن النجاسات، وعن اللَّغو والرَّفَث وقول الزُّور، والتنازُع عنده.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: حولَه، فيكون التطهير لأجلهم، ولإعانتهم على عبادتهم، وكثير منهم قد جاء من غُرْبةٍ، ومكانٍ بعيد.

وبدأ بـ (الطائفين)؛ لأنَّ عبادتهم خاصَّة بالمسـجد الحرام. ثم ثنَّى بـ ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ أي: المقيمين عندَه، المعتكِفين فيه، المجاوِرين له، لا يرتحلون منه ولا يذهبون. فالطائفون غرباء، والعاكفون أهل المكان.

ثم ثلَّث بـ ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: المصلِّين، وهذا يشمل القريب والبعيد من الكعبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الـرَّدُّ عـلى مُشركي قُريـش والعرَب، الذين كانـوا يعبدون الأوثان عنـد الكعبة، بأنَّ الله تعالى قد أمر الخليل وابنه أن يؤسِّسـاه على توحيد وإخلاص، ابتغاءَ وَجْه الله، ويصونـاه عن الشِّرك، فخالفتُم ذلك أيُّها المشرِكون.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨)، في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في وصف حَجَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: اشتراط طهارة مكان الطواف، واشتراط طهارة لباس الطائفين؛ فلا يجوز للطائفِ أن يطوفَ بثَوبٍ نَجِسٍ، كما لا يجوز أن يطوفَ في بُقْعَة نَجِسة.

واستفاد بعض العلماء من الآية: أنَّ الطواف لا يكون إلَّا حول الكعبة، وداخل المسجد الحرام، فلو طاف خارجَ المسجد لم يُجْزِئه.

وفيها: فَضْل الطواف، والاعتكاف، والرُّكوع، والسُّجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾:

وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر يا محمَّد ﷺ إذ قال إبراهيم، أي: في دُعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ أي: الوادي المهجور الخالي، الذي ليس فيه زرع ولا ماء ولا بناء ﴿بَلَدًا﴾ (البلد): اسم لكلِّ مكان مَسْكون، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا. ﴿ءَامِنًا﴾ أي: ذا أمن، يأمن أهله فيه من القَحْط، والخَسْف، والقَتْل، والسَّلْب، والنَّهب، والرُّعب والخوف، والمَسْخ، والجوع، ونحو ذلك.

وقد استجاب الله دعاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فجعل مكة بلدًا آمنًا، وهذا في الأعمِّ الأغلب على مرِّ العصور وكَرِّ الدُّهور. ولا يُنافي ذلك ما وقع في مكة من حوادث قليلة تُعَكِّر هذا الأمن، والقاعدة تبقى قاعدة وإن وُجِد لها شواذّ؛ لأنَّ الحكم للأعمِّ الأغلب؛ فإنَّ مكة -شرَّفها الله- كانت آمنةً في غالب الأزمان التي مرَّت عليها. هذا من الناحية القدَريَّة.

وأمَّا من الناحية الشرعيَّة؛ فإنَّ الله أوجب علينا أن نحفظ الأمن في مكة، ولا نُخِلَّ به، ونعتنيَ به أكثر ممَّا نعتني به في الأماكن الأخرى.

﴿وَٱرْزُقْ﴾ أي: أعطِ ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أي: ساكِنيه والمقيمين فيه ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بأنواعها، فيؤتى بها إلى مكة من سائر أنحاء العالم.

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾: أراد الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تكون هذه الدَّعوة للمؤمنين؛ ليستعينوا بالرّزق على طاعة الله.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: سأرزقه أيضًا، ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ أي: أمدُّ له من الدُّنيا ﴿قَلِيلًا﴾ أي: من الزمان، وهو مدَّة حياتهم، والمتاع -بل الدُّنيا كلُّها- لو حصلت لشخص فهي قليلة، كما قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ أي: أُلجِئه وأسوقه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي: الذي لا محيص له عنه، ولا منجَى له منه. وهذا جزاءً وِفاقًا على كُفره. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع الذي يصير إليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا غنى للإنسان عن دُعاء الله، مهما كانت مرتبته.

وفيها: أنَّ الدُّعاء سببٌ في حصول المقصود.

وفيها: رأفة إبراهيم الخليل بمَن يؤمُّ البيت الحرام.

وفيها: احتياطه في الدعاء؛ لـمَّا طلب أن يكون الرِّزق لمن آمن بالله واليوم الآخر.

وفيها: أنَّ الله يرزق المؤمن والكافر.

وفيها: أنَّه لـمَّا كانت الإمامة نِعمة دينيَّة استثنى الله الظالمين منها؛ لأنَّهم لا يستَحِقُّون هذا الشَّرَف. أمَّا الرِّزق: فنِعمة دُنيويَّة؛ فأعطاه الله المسلِم والكافر، ولم يستثنِ الكافر منه؛ لأنَّ متاع الدُّنيا قليل، ولا يُساوي عند الله جَناح بعوضة، فلذلك يُعطيه مَن يُحِبُّ، ومَن لا يُحِبُّ.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾:

وقوله ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يرفع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ٱلۡقَوَاعِدَ﴾ في بناء البيت، وهي جمع (قاعدة)، وقاعدة الشيء: أساسه. ﴿مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: الكعبة.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ ابنه، يُشارِك أباه في رفع القواعد.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾ أي: يدعو كلٌّ منهما الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ بقبول عملهما، وأن يتلقَّاه بالرِّضا،

وهـذا كأنَّه اعـترافٌ من الخليل وابنه بقلَّـة العمل، والتقصير فيه. و(تقبُّـل) الله للعمل أي: تلقِّيه بالرضا والإثابة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي: لدُعائنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالنا، وتقصيرنا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعاونة في فِعْل الخير.

وفيها: بِرُّ الابن لأبيه.

وفيهـا: نظَر العبد المؤمن لعَمَله بعَـين النقص مهما كان؛ تواضعًا لله، وفِرارًا من الاغتِرار والعُجْب.

ومن فوائد الآية: أنَّ من إِحكام البناء تأسيسه على قواعد.

وقـد فَهِمَ بعض العلـماء من الآية: أنَّ أسـاس البيت كان موجودًا قبـل إبراهيم الخليل، فجاء فرفعَه. لكن لا يلزم من الآية وجود القواعد قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهو الذي وضعَها، وهـو الذي رفعَها، وقد كان تحديد مكان البيت وحدود البنيان بوحي من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: عيَّنا له محلَّه وعرَّفناه به.

وقـد روى البخـاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحـه»، عـن ابـن عبَّـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن إبراهيم قال لإسـماعيل: «يَا إِسْـمَاعِيلُ، إِنَّ الله أَمَـرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَـعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَـالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ.

قَـالَ: فَـإِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِـيَ هَا هُنَا بَيْتًا -وَأَشَـارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَـا حَوْلَهَا- قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ من البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْـمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قَـالَ: فَجَعَـلَا يَبْنِيَـانِ حَتَّى يَدُورَا حَـوْلَ البَيْـتِ، وَهُمَا يَقُـولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤).

وقد رأت هذه الأُسسَ قُريشٌ لـمَّا بنوها، بعدما هدمَها السَّيْل، وكانت القواعدُ حجارةً خضراء متماسِكة.

وثبت في «صحيح مسلِم»[1] أنَّ عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لـمَّا أعادَ بناءَها كشف عن أساساتِها، حتى نظر إليها العُدولُ من أهل مكة، ثم بنى عليها البُنيان وجعلَها على قواعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أُعيدَت إلى ما كانت عليه بعد مقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾:

ثم قال تعالى في دُعاء الخليل وابنه: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ﴾ أي: مُنقادَين لحُكمك ﴿لَكَ﴾ أي: مخلِصين بالتوحيد والعِبادة. ولا شكَّ أنَّهما كانا مخلِصَين مستَسلمَين، ولكنَّهما أرادا طلب المزيد والتثبيت.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ أي: واجعل من أولادنا ﴿أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ أي: جماعة مُنقادة لأمرك، مُخلِصة. و(ذريَّة) الإنسان: مَن تفرَّع منه.

ويدخل في دُعاء الخليل وابنه: العرَب؛ لأنَّهم من ذريَّة إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغير العرب أيضًا، وَقدْ كَانَ فِي وَلَد إبرَاهِيم: العَرب وَغير العَرَب.

وقوله ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمنا مواضع نُسُكنا وعباداتنا، وبَصِّرنا بأفعال الحجِّ ومواقيته، ومواضع العِبادة فيه. و(المنسك): مكان العِبادة.

ويؤخذ من هذا: أنَّ العِبادات توقيفيَّة، لا تَصِحُّ إلَّا بما شرَعَه الله، وتتوقَّف على الدليل الشرعيّ.

﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ أي: وفِّقنا للتوبة فيما فرطْنا فيه، وسامِحنا فيما قصَّرنا فيه من طاعتك، وتجاوَزْ عنَّا. وفي هذا تواضُع الخليل وابنه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير الرحمة بمَن يشاء من عباده.

---

(١) صحيح مسلم (١٣٣٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريَّته بالدُّعاء.

وفيها: أنَّ الأصل في الإنسان الجهل، فيحتاج إلى تعليم من ربِّه.

وفيها: أنَّ الأصل في العِبادات المنع، حتى يأتيَ الدليل على مشروعيَّتها.

وفيها: أنَّ الناس مُفتقِرون إلى توبة الله، حتى الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾:

ثـم قال تعالى في دُعاء الخليل أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ﴾ أي: أرسِـل ﴿فِيهِمۡ﴾ أي: في الأُمَّة المسلِمة من أولادنا، والمقصود هنا: العرَب ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من أنفُسِهم ونسَبهم ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقرأ عليهم ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ أي: يُملي عليهم آيات القرآن؛ ليأخذوها منه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: معاني القرآن، وما فيه من دلائل التوحيد، والنُّبُوَّة، والأخبار الصادِقة، والأحكام العادلة. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: السُّنة، وحقائق الشريعة، والفَهم في الدِّين.

﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: يُنَمِّـي فيهم طاعة الله، والإخلاص، والأخـلاق الفاضلة، ويطهِّرهـم من دَنَس الشِّرك، وأنواع المعاصي والرذائل.

ولـمَّا دعـا إبراهيمُ الخليل بهـذه الدعوات الثـلاث؛ ختمها بالثَّناء عـلى الله؛ لأنَّه أرجى لقبـول الدُّعـاء؛ فقـال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالـب الـذي لا يُغلَـب، منيـع الجانـب. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: من له الحكمة التامة. و(الحِكْمة): وضع الأشـياء في مواضعها المناسبة لها، فتصدُر أفعاله عن حِكمتِه، ومراعاةِ مصالح عباده.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حاجة الناس إلى الرُّسُل، وقيامهم بتعليم الوحي.

وفيها: أهميَّة تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾:

ثـم قال تعالى، ردًّا على الكفَّار فيما أحدثـوه من الشِّرك بالله، وعلى اليهود والنصارى فيما ابتدَعوه من الكُفرِ بالله، والمخالفةِ لِملَّة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء: ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾: وهذا استِفهام إنـكاري توبيخي، المراد بـه النفي؛ أي: لا يَرغـب ولا يُعرِض ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ (المِلَّة) هي: الدِّين والشريعة.

ومِلَّـة الخليـل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائمة عـلى التوحيد، والبراءة مـن الشِّرك، وإخـلاص العِبادة لله، والـبراءة ممَّا يُعبَد من دون الله، والشُّـكر لِنعَم الله، والصـلاح في النفس، والإصلاح للغير، وإنـكار المُنكـر، كـما جاء في آيـات كثيرة في وصـف مِلَّة الخليـل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ومنها: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقوله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (السَّـفه): ضد الرُّشد. والمعنى: لا يترك مِلَّة إبراهيم إلَّا مَن أذَلَّ نفسه، وأهلكَها، وظلَمها، وضيَّعها، وأيُّ سَفَهٍ أعظم من الوقوع في الشِّرك؟!

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي: اخترنـاه، وجعلنـاه صفيًّا من الخلـق ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اتخذناه خليـلًا، وبعثنـاه بحَمْـل أعباء الرِّسـالة، والقيام بالدَّعـوة والبـلاغ. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من الفائزين بالرِّضا والكرامة يوم القيامة، المشـهود له بالخير والاسـتقامة على رؤوس الأشهاد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المخالِفـين لدعوة الرُّسُـل سـفهاء، وإن كانوا أذكيـاء في الدُّنيا، مهـما كان عندَهم من العِلْم بالصناعة، والخبرة بالسياسة والإدارة، ومهما أُوتُوا من قوَّة وهَيمنة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾:

وقولـه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ أي: واذكـر يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمَّتـك، إذ قال الله لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْ﴾ أي: أخلِـص دينَـك وعملَـك لله؛ فاسـتجاب، وأجـاب قائـلًا: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أخلَصتُ ديني له، وفوَّضتُ أمري إليه. وهذا يشمل إسلام الباطن والظاهر.

وما أكثر الذين أُمِرُوا بالإسلام، ولم يُسْلِموا!

وقوله ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالِك الخلائق ومدبِّرها. وهذا يتضمَّن: توحيد الرُّبوبيَّة والأسماء والصِّفات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل إبراهيم الخليل؛ حيث لم يستكبر عن تنفيذ الأمر، بل أذعنَ وأقرَّ.

وفيها: أنَّ الذي يستحقُّ الاستِسلامَ له: هو الرَّبُّ الخالِق.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾:

وقوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ (التوصية): هي العَهد المؤكَّد في الأمر الهامِّ ﴿بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة، وهي: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهذه المِلَّة -وهي مِلَّة التوحيد والإسلام-. ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ أي: وصَّى بهذه الكلمة يعقوبُ بَنيه، كما وصَّى بها جدُّه إبراهيمُ -من قبلُ- بَنيه.

والظاهر -والله أعلم- أنَّ يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وُلِدَ في حياة إبراهيم وسارَة؛ لأنَّ البِشارة به وبأبيه جاءت لإبراهيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾، وهذا يقتضي أنَّ يعقوب وُجِدَ في حياة جدِّه.

﴿يَٰبَنِيَّ﴾ أي: يا أبنائي. وإنَّما ناداهم بهذا اللِّين؛ ليكون أقربَ إلى القَبول والاستجابة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ﴾ أي: اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دين الإسلام، اصطفاه لكم من بينَ سائر الأديان. و(الدِّين) أيضًا هو: العِبادة والعمل.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ أي: لا يأتيكم الموت وينزل بكم ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: وحالُكم البقاءُ والاستمرارُ على الإسلام.

ومعنـى هـذه الوصيَّة: اثبُتوا على الإسـلام حتى تموتـوا عليه، وأحسِـنوا في حال الحياة، والزَمـوا هـذا الدِّيـن؛ ليرزقكـم الله الوفاة عليه؛ فـإنَّ المرء يمـوت غالبًا على مـا كان عليه، ويُبعَث على ما مات عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاهتِـمام بالأولاد، والحِرْص على صلاحهم، وأهميَّة الوصيـة إليهم قبل الموت، وحثُّهم على التمسُّك بالدِّين.

وفيها: أنَّه ينبغي للإنسـان أن يتعهَّد نفسـه دائما بالحقِّ والصَّبر؛ حتى لا يأتيَه الموت وهو غافل.

وفي الآية: أنَّ الأعمال بالخواتيم.

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٣﴾:

ثـم بـيَّن تعالى تفصيلَ ما قال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لبنيـه؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ﴾ أي: يا أهل الكتاب، ويا أيُّها اليهود، ويا أيُّها المجادِلون في التوحيد، الواقعون في الشِّرْك، يا مَن تنسبون إلى الأنبيـاء أقـوالًا لم يقولوهـا. هـل ﴿كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾: جمع (شـهيد) أو (شـاهد)، بمعنى: حـاضر. أي: هـل كنتـم حاضرين وصيَّته؟! وهـم بالتأكيد لم يحضروا، فليَسْـمعوها من الله الشهيد، الذي يُخبِر بأنباء الغَيب، وما حصل في الماضي.

﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسـباب المـوت ومقدِّماتـه ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ الاثنـي عشر: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي﴾ أي: مَن هو إلهكم الذي تعبدونه من بعد موتي؟ وإنَّما قصد العِبادة الصحيحة المشروعة فقط.

وهـذا مـن باب أخْذ الميثاق عليهم؛ وليتأكَّد الأب من رسُـوخ ما ربَّى عليه أبناءه في حياته، وليؤكِّد عليهم عند مماته، وليكون ذلك ردًّا على مَن سيفتري عليه من أهل الكتاب بعد ذلك.

فكأنَّ في الآية محاجَّةً لليهود، مَفادها: إذا كنتم لم تحضروا وصيَّة يعقوب؛ فكيف تنسبونه إلى دينِ اليهوديَّةِ الباطل؟!

وقوله ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يشمل جميع أنواع العِبادة، من الأقوال والأفعال، التي يتوجَّه بها العابد إلى ربِّه.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ ربّ الأوَّلين والآخِرين. ثم بيَّنوا هؤلاء الآباء، فقالوا: ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، وإبراهيم هو الجَدُّ، ويُطلَق على الجَدِّ أب ولو كان بعيدًا، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

وقدَّموا (إسماعيل) على (إسحق) -مع أنَّه عم-؛ لأنَّه كان أكبر سنًّا من إسحق. وإطلاق الأب على العم من باب التغليب، كما تُطلق الأُمّ على الخالة.

﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾؛ للتأكيد على توحيد الألوهيَّة، وصرف العِبادات إلى الله وحدَه لا شريك له. ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُطيعون، خاضعون، مُنقادُون. فحَصروا العِبادة في ربِّهم عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التوحيد وصيَّة الأنبياء.

وفيها: أنَّ الموت حقٌّ على الأنبياء وغيرهم.

وفيها: أنَّ أبناء يعقوب -وهم إخوة يوسف- كانوا على التوحيد.

وفيها: أهميَّة الوصيَّة عند حضور الأجل، ومن شرْط صِحَّتها: أن يكون المُوصِي يَعي ما يقول.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾:

وقوله تعالى ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ﴾ أي: إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، وأبناؤهم، و﴿أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: مضت وسلفَت بالموت.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ أي: جزاء ما فعلته من الخيرات ﴿وَلَكُم﴾ أي: يا أيُّها المتأخِّرون، أو: يا معشر اليهود والنصارى ﴿مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ من العمل. ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا

تُؤاخَذون بسيِّئاتهم، ولا تُسألون عن أعمال مَن سبقكم، فلا تنالون ممَّا كسبوا شيئًا، ولا ينالون ممَّا كسبتُم شيئًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الاعتماد على أعمال الآباء لا يُجدي شيئًا، ومَن أبطأ به عملُه لم يُسْرِع به نَسَبُه.

وفيها: أن الآخِر لا يُسأل عن عمل الأَول.

وفيها: إثبات سؤال الناس يوم القيامة عن أعمالهم.

ويُستفاد من الآية: الإمساكُ عمَّا حصل من الفِتَن بينَ الصالحين؛ لأنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى الوقيعة في بعضهم، ونقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، ولا نُسأل عمَّا عَمِلوه.

وفي الآية: إثبات عَدْل الله تعالى.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أنَّ مِلَّة إبراهيم هي الحنيفيَّة السَّمْحة؛ دعا أهل الكتاب إلى اتِّباعها، وردَّ على دعواهم: ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: اليهود والنصارى -يخاطِبون المسلمين-: ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾ أي: على مِلَّة اليهود ﴿أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: على مِلَّة النصارى؛ ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ أي: تكونوا مُهتَدين، وتصِلوا إلى الخير، وتظفَروا بالسعادة!

وقد ورَدَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال عبد الله بن صُوريَا الأعور لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الهُدى إلَّا ما نحن عليه، فاتَّبِعْنا يا محمَّد تهتدِ! وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الآية[1].

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جوابهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: لا نتبع إلَّا مِلَّة إبراهيم؛ فالهُدى فيها، ونحن أولى به.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٠٢)

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة إلى دين الحقِّ، فهو مستقيم مخلِصٌ.

وخُصَّ إبراهيم بالذِّكر هنا دون غيره من الأنبياء؛ لمكانته عند أهل الكتابَين، وإمامته، ومنزلته من رب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: هذا تأكيدٌ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تبرئة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشِّرك الأكبر والأصغر.

وفيها: تعريض بأهل الكتابَين؛ للإشارة إلى ما هم عليه من الشِّرك.

وفي الآية: أنَّ أصحاب الأديان الباطلة، وكذا أصحاب البدع، يدَّعون دائمًا أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ اتِّباعهم يؤدِّي إلى الهداية.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدِّقوا بكُتُبه كلِّها، وبرُسُله، ويؤمنوا بما أَنزل على أنبيائه المتقدِّمين على وجه الإجمال، وألَّا يُفرقوا بينَ أحدٍ منهم في الإيمان، وأن يقولوا ذلك لليهود والنصارى؛ ردًّا على دعواهم المتقدِّمة.

فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ﴾ والخِطاب للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّته جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: تصديقًا بالقَلْب، ونطقًا باللِّسان، وعملًا بما يترتَّب على ذلك. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي: من القرآن، وبيانه -وهو السُّنَّة-. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ أي: في صُحُفه -كما في سُورة «الأعلى»- ومما جاء فيها: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ فهو نبيٌّ منزَّل إليه قطعًا، ﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ كذلك، وإن لم نعلم ما أُنزِل عليهم بالتحديد والتفصيل.

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ جمع (سِبط)، وهو: ولد الولد، والقبيلة من اليهود، والمراد بهم هنا:

أولاد يعقوب -وهو إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ- وكان عددهم اثني عشر، منهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد خرجت منهم قبائلُ وشعوبُ بني إسرائيل.

وقوله ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي: من الآيات الشرعيَّة في التوراة، والآيات الكونيَّة -كاليد والعصا-. ﴿وَعِيسَىٰ﴾: الذي أوتي آيات شرعيَّة في الإنجيل، وآيات كونيَّة -كإحياء الموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرص بإذن الله-.

﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ عُمومًا. وهذا من باب عطف العامِّ على الخاصّ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾؛ فالجميع أنبياء الله، ولا نفرِّق في الإيمان بينَ أحدٍ منهم، كما فعلت اليهود والنصارى -فآمنوا ببعضٍ وكفَروا ببعضٍ- وهذا يُبيِّن فَضْلَ المسلمين على غيرهم.

وقوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُستسلِمون، مُنقادُون ظاهرًا وباطنًا، له سبحانه، لا لغيره.

ومن فضائل هذه الآية: ما رواه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ[١] عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الفَجْرِ، فِي الأُولَى مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ الَّتِي فِي البَقَرَةِ، وَفِي الآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾».

وفي رواية: أنَّه «كان يقرأ في رَكْعَتَي الفَجْرِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾»[٢].

وهذا الحديث يبيِّن سُنَّة أخرى في القراءة بعد الفاتحة، في ركعتَي الفجر، بالإضافة إلى سُورتَي «الكافرون» و«الإخلاص».

ومن فضائل هذه الآية أيضًا: ما رواه البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ

(١) صحيح مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

(٣) صحيح البخاري (٧٥٤٢).

أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ؛ فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ».

وفي هذه الآية من الفوائد:

تقديم الأهمِّ، وإن كان متأخِّرًا في الحدوث؛ فإنه قال: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ فقدَّم ذِكر (ما أُنزِل إلينا) على ذِكر (ما أُنزِل على إبراهيم وإسماعيل).

وفيها: أنَّنا أُمِرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل والكتب المتقدِّمة، مع أنَّنا لا نعمل بما فيها.

وفيها: الإشارة إلى رباط الأُخوَّة الإيمانيَّة بيننا وبين جميع المؤمنين المتقدِّمين.

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾:

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ أي: الكفَّار -من أهل الكتاب وغيرهم- ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورُسُله، إيمانًا مماثلًا لإيمانكم.

﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ أي: فقد أصابوا الحقَّ والرُّشد، وسلكُوا سبيل التوفيق، فحَصَل بينكم الاتِّفاق، وصاروا مسلمين مثلكم.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: عن الحقِّ إلى الباطل، وأعرَضوا بعد قيام الحُجَّة عليهم؛ ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ﴾ أي: في الحقيقة ﴿فِي شِقَاقٖ﴾ أي: فراق وخلاف عظيم، وبُعد عن الحقِّ، وعداوة لكم. و(الشِّقاق): خلافٌ، مع ابتغاء المشقَّة على الخَصْم، وتباعُد كُلِّي، بحيث يكون أحد الطرَفَين في شِقٍّ، والثاني في شِقٍّ آخر.

و قوله ﴿فِي شِقَاقٖ﴾ يُفيد: أنَّ الشِّقاق محيط بهم من كل جانب، وهم مُنغَمِسون فيه.

وهذا يحسم الأمر في الموقف مع أهل الكتاب؛ فإمَّا أن يؤمنوا بمثل ما آمنَّا به فيكونوا مؤمنين مثلنا، وإمَّا أن يتولَّوا فيُصبح بيننا وبينهم عداوةٌ وتباعُدٌ، ممَّا يؤدِّي إلى المواجهة.

وبما أنَّ هذا قد يُلقي في قُلوب بعض المسلمين الرَّهبة من هؤلاء الكفار؛ فَقَد طمأن الله

المؤمنين بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيكفيك بأسهم وشرَّهم، ويُبطِل مكرهم، ويخذُلهم، وينصرك عليهم عاجلًا غير آجل، كما تفيده (السِّين) في قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾؛ فإنَّها تفيد تحقُّق وقوع الكفاية والحماية، وقُرب الوقوع أيضًا.

وقد أنجز الله وعدَه؛ فكفى نبيَّه ﷺ شرَّ اليهودِ وأهلِ الكتاب، ونصر نبيَّه عليهم؛ فقتلَ بني قُريظة وسباهم، وأجلى بني النَّضير وأخرجَهم من ديارهم، وفتح خَيبر وانتصر على أهلها، وغَنِمَ المسلمون غنائم عظيمة منها، ومكَّن نبيَّه ﷺ من نصارى نَجْران وسلَّطه عليهم، وجعلَهم في ذُلٍّ، يؤدُّون الجِزْية إلى نبيِّه ﷺ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال الكافرين، ودُعاء المؤمنين، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال الجميع، ونيَّاتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه لا يمكن أن يلتقي المسلمون وأهل الكتاب في منتصف الطريق، ولا أن يتَّفقوا.

وفي هذا: بُطلان دعوة التقارب بينَ الأديان، فإمَّا أن يُسلِموا، وإمَّا أن يتولَّوا، فتقوم العداوة، ثم المواجَهة، فيأتي نصر الله للمسلمين الصادِقين.

وهذا هو طريق الحقِّ، فلا تمييع لحقائق العقيدة، استرضاءً لهؤلاء الكَفَرة من أهل الكتاب، وهم لن يرضوا عنَّا أبدًا، مهما تنازلنا، حتى نتَّبعَ مِلَّتهم، ونكونَ على دينهم.

وفي الآية: أهميَّة التوكُّل على الله، وأنَّه يكفي المسلمين عدُوَّهم، ويحفظهم من شرورهم.

وفيها: موعظةٌ بمراقبة الله تعالى في السِّرِّ والعلَن، وإصلاح الظاهر والباطن؛ لأنَّه سميع للأقوال، عليم بالبواطن والنِّيَّات.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: فسَّرها ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره بـ: دين الله[١]. وسُمِّي الدِّين صِبغة؛ لظهور أثره على صاحبه، مثلما يَظهر أثر الصَّبغ في الألوان في الأشياء

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١١٨)، تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٤)، تفسير البغوي (١/ ١٥٧).

المصبوغـة، فكذلـك المتديِّـن بدين الله يظهر أثـر الدِّين عليه في صفحة وجهه، ومسـلكه، وسَمْته، وهيئته.

وبـما أنَّ الصِّبغة تَلزَم الشيء المصبوغ وتَبقَى عليـه؛ فكذلك المتديِّن يَثبُت على هذا الدِّين ويستمرُّ عليه، ويلزمه كلزوم اللَّون للشيء المصبوغ.

ومن جهة أخرى: فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صبغَ الأشـياء في الطبيعة بالألوان المختلفة، وشـتَّان بينَ اللَّون الطبيعيِّ الذي خلق اللهُ الأشياء عليه، وبين ألوان البشر الصناعيَّة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: اسـتِفهام بمعنـى النفـي؛ أي: لا أحدَ أحسـن من الله صِبغة، ولا أحدَ أحسن منه دينًا وشِرْعة ومنهاجًا؛ لأنَّ دين الله يشتمل على تحقيق المصالح، ودرء المفاسد، بما لا يوجد مثله في أيِّ دين ومِلَّة أخرى من أهواء البشر.

والنفي بطريقة الاستِفهام أبلغ من النفي المجرَّد؛ لأنَّه يحمل معنى التحدِّي؛ فكأنه يقول: هاتوا أحسن من الله صِبغة، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغ في الإقناعِ.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ (العِبادة): التذلُّل إلى الله بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه، فمَن كان على صِبغة الله ودينه لَزِمَ العِبادة، وزيَّن نفسه بطاعة الله.

وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ يدلُّ على حَصْر العِبادة واختصاصها بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

وقوله ﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكلِّ مَن يقوم بدعوة هؤلاء الكفَّار من أهل الكتـاب: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ يا أيُّها اليهود والنصارى، تقولون -مثلًا-: إنَّ دينكم أقدم، وإنَّكم على الحقِّ، وإنَّ أكثر الأنبياء منكم، وإنَّ الأنبياء على دينكم، ولن يدخل الجنَّة غيركم، ونحو ذلك؟!

و(المحاجَّة): أن يُدْلِي كلُّ خَصْم بحُجَّته؛ ليدحض حُجَّة الخَصْم الآخر.

فمعنـى قولـه ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أي: أتُناظِروننا في توحيـد الله والإخلاص له. ﴿وَهُوَ رَبُّنَا

﴿وَرَبُّكُمۡ﴾ أي: خالِقنا وخالقكم، والمتصرِّف فينا وفيكم، وهو أعلم في تدبير خَلْقه، وبمَن يصلُح للرِّسالة، وبما يَنسخ من الدِّين؟

﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ أي: نُجازَى عليها -خيرًا أو شرًّا- ولا تُسألون عنَّا. ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: التي كَسَبتموها، وستُحاسَبون عليها، ولا نُسأل نحن عنها. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ أي: في عبادته والتوجُّه إليه. و(الإخلاص): تنقية الشيء من كلِّ شائبة. والمعنى: أنَّنا نُخْلِص العِبادة لله، ولا نشوبها بشيء من الشِّرْك.

ومن تعريفات الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، فالعمل لأجل الناس شِرْك، وترك العمل الصالح من أجل الناس رياء، والإخلاص: المعافاة منهما.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب البراءة من أعمال الكفَّار؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلِم أن يفتخر بالحقِّ؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾.

وفيها: أنَّه لا يجوز التشبُّه بأعداء الله، وأنَّه يجب التميز عنهم؛ لقوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾:

وقد انتقل السِّياقُ القرآني من توبيخ هؤلاء الذين يحاجُّون في الله ويجادلون في توحيده، إلى توبيخٍ آخر، وهو: دعواهم أنَّ رُسل الله هؤلاء كانوا هودًا أو نصارى، فزعَمت اليهود أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، وزعمت النصارى أنَّه كان نصرانيًّا!

قال تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ (أم) هنا: للانتقال من موضوع إلى موضوع.

وقد نفى الله هذه المزاعم في سُورَة «آل عمران» بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وكانت الحُجَّة في إثبات بُطلان دعواهم هي استعمال التاريخ؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، فموسى والتوراة كانا بعد إبراهيم بزمَن، وعيسى والإنجيل كانا بعد إبراهيم بزمَن، فكيف يكون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؟!

وقوله ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وهو: أكبر أولاد إبراهيم ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: أخو إسماعيل -الولد الثاني لإبراهيم- ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو: ابن اسحق، ويُسَمَّى إسرائيل أيضًا ﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ وهم: أبناء يعقوب الاثنا عشر.

وقوله ﴿كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي: تزعمون أنَّ كلَّ هؤلاء كانوا على الدِّيانة اليهوديَّة أو النصرانية؟!

وبالإضافة إلى استعمال حُجَّة التاريخ في الرَّدِّ على مزاعمهم؛ فقد أبطل الله تعالى دعوى اليهود والنصارى هذه بطريق آخر؛ فقال هاهنا: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ولا يستطيعون أن يقولوا: إنَّهم أعلم من الله. فمن المعلوم أنَّه أعلَم. وهذا كقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وهذا الاستِفهام من أجل إفحام الخَصْم وإلزامه، فإذا قال الله شيئًا، وقال هؤلاء شيئًا يُعارِضه، فكلام مَن المعتبَر والمصدَّق؟! لاشك أنَّه كلام الله. فكأنَّه يقول للمُجادِلين: أأنتم أعلم بدِين هؤلاء الرُّسُل، أم الله أعلم بدِينهم؟!

وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ﴾ أي: لا أحد أشدَّ ظلمًا في باب كِتمان الشَّهادة، ممَّن أخفى وستر عن الناس شهادةً ثابتةً عنده، في كتاب دِينه. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صادرة منه عَزَّوَجَلَّ.

قال قتادة وأبو العالية في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: «هم اليهود والنصارى، كتموا الإسلام وهم يعلمون أنَّه دين الله، واتخذوا اليهوديَّة والنصرانيَّة، وكتموا محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يعلمون أنَّه رسول الله، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل»(١).

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٦).

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لا يغفل ولا يسهو سبحانه عن عمل هؤلاء الكاتمين المشرِكين؛ فهو عالِـم بهم، وسوف يحاسِبهم عليه.

وقوله ﴿تِلۡكَ﴾ الشخصيَّات المذكورة -من إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه- ﴿أُمَّةٞ﴾ أي: جماعة ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: مضت وسلَفَت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: من الأعمال -خيرًا أو شرًّا- ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: في الدُّنيا.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إبطال الدَّعاوى الكاذِبة، والرَّدُّ عليها.

وفيها: عِظم جريمة مَن كتم العِلْم.

وفيها: مسئوليَّة العامل عن عمله.

وفيها: وَعْظ اليهودِ وكلِّ مَن يتكل على فَضْل الآباء وشَرَفهم، وأنَّه لا ينفع الإنسانَ إلَّا عملُه.

﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾:

لـمَّا ذكَر تعالى في الآيات السابقة ادِّعاءَ اليهود والنصارى، أنَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه من الأنبياء هم على مِلَّتهم ودينهم، وكانت قِبلةُ اليهود على قِبلة الأنبياء، إلى بيت المقدِس، وكان النبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مأمورًا بالتوجُّه إلى بيت المقدِس، وكان اليهود يُعجِبهم ذلك ويفرحون بهذه الموافقة في قِبلتهم، فلمَّا نزل الأمر بتحويل القِبلة؛ استاءَ اليهود، وقاموا بالطعن والتشكيك، وانطلقت ألسِنتُهم بإثارة الشُّبُهات، هم وأهل النِّفاق.

وكان من المعجِزات النبويَّة: أنَّ الله أخبر نبيَّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بما سيقوله اليهود قبل أن يقولوه، ولقَّنه الحجَّة الدامغة ليرُدَّ عليهم، بعد أن يُعِدَّ نفسه لتحمُّل أذاهم.

فقال عَزَّ وَجَلَّ -مخبِرًا نبيَّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمسلمين بأقوالِهم-: ﴿سَيَقُولُ﴾ أي: سيقع هذا

القول يقينًا عمّا قريب ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اليهود»[(١)]، و(السُّفهاء): جمع «سفيه»، وهو: كلُّ مَن لا يُحسِن التصرُّفَ ويُخالِف الحِكْمة فيه. فهؤلاء الكفَّار سُفهاء في دينهم، وإن كانوا يُحسِنون التصرُّف في الأموال. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: بيان لنوع هؤلاء السفهاء.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾: استفهام للإنكار، يعني: ما الذي صرفَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين إلى جِهة الكعبة ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ وهي: بيت المقدِس. و(قِبلة) المصلِّي: هي الجهة التي يستقبلها في صلاته، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُقابِله ويُقابِلها.

وجاء في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لـمَّا صُرِفت القِبلة عن الشام إلى الكعبة، في رجب على رأس سبعةَ عشر شهرًا من مَقدَم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة؛ أتى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعةٌ من اليهود -سمَّاهم- فقالوا: يا محمَّد، ما ولَّاك عن قِبلتك التي كنتَ عليها، وأنت تزعم أنَّك على مِلَّة إبراهيم ودينه؟! ارجِع إلى قِبلتك التي كنتَ عليها نتَّبِعك ونصدِّقك! وإنَّما يريدون فتنته عن دينه؛ فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾»[(٢)].

﴿قُل﴾ أي: يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في إجابة هؤلاء: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: الذي صرفنا هو المِلك القهَّار، مالِك جميع الجهات، ومنها المشرق والمغرب.

وقوله ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يُفيد الحَصْر، أي: أنَّ مُلك الجهات له، لا لغيره، لا يُشارِكه فيها غيره، وإذا كان مالكًا لها فإنَّه يتصرَّف في توجيه عباده لأيِّها شاء، ولا يحِقُّ لأحدٍ أن يعترِض عليه.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يدُلُّه ويوفِّقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح قويم واسع، يَسهُل سلوكه، وتَظهر علاماته، وهو طريق الإسلام والقرآن. واستقبال الكعبة مَعلم من معالم هذا الطريق.

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَهدِيهم إلى المخرج من الشُّبُهات والضلالات والفِتنة»[(٣)].

---

(١) وكذا قال البراء بن عازب ومجاهد والحسن، انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٣٠)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ١٣٢).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٨).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كلَّ مَن اعترض على حُكم الله؛ فهو سفيه.

وفيها: إعداد نفوس الصَّحابة للمواجَهة، وتجهيزهم بالرَّدِّ القويّ القاطع الذي سيَسْتَعمِلونَه في الرَّدِّ على الشُّبُهات.

وفيها: أنَّه يكفي للإيمان والانقياد معرفة أنَّ الحُكم الشرعيّ مِن عند الله، وإن لم تظهر عِلَّته وحِكمتُه للعَبْد.

وفيها: أنَّ الهداية بيد الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جعلناكم مُهتَدين إلى الصِّراط المستقيم، وهديناكم إلى هذه القِبلة العظيمة؛ فكذلك ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ أي: صيَّرناكم يا أُمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خِيارًا عُدولًا، ممدوحين بالعِلْم والعمل، مُؤهَّلين ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ﴾ أي: تشهَدون على الناس والأُمَم، بأنَّ رُسُلَهم قد بلَّغتهم رسالاتِ ربِّهم.

وقد روى البخاريُّ[1]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيامَةِ، فيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يا رَبِّ، فيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فيَقُولُ: نَعَمْ، فيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فيَقُولُونَ: ما أتانا مِنْ نَذِيرٍ! فيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ، فتَشْهَدُونَ أنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، فذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

وقوله ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: يشهد

(١) صحيح البخاري (٤٤٨٧).

بعدالتكم وصِدْقكم في شهادتكم على الأُمَم الأخرى، وكذلك يشهد على أُمَّته يوم القيامة بأنَّه بلَّغ البلاغ المبين، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي: اتجاهك لبيت المقدِس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهَر عِلمُنا في الواقع، فيترتَّب عليه الجزاء، وتقوم الحُجَّة على الناس، والله يعلَم مَن يزيغ ومَن يثبت قبل تحويل القِبلة، وقبل أن يَخلُق العِباد أصلًا، فَشَرَعَ تحويل القبلة؛ ليتحقَّق عِلمُه في الواقع، ويظهَر للناس.

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ في التوجُّه إلى القِبلة الجديدة ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرجع كافرًا مرتدًّا شاكًّا في الدِّين، فيتميَّز أهلُ اليقين من أهلِ الشِّرك والرِّيبة، ويظهَر حال مَن يتَّبع ويُطيع ممَّن يزيغ وينقلِب.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: هذه التولية، وهي: صَرْف التوجُّه عن بيت المقدِس إلى الكعبة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي: شاقَّة على النفوس، ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّها يسيرة خفيفة؛ لتوفيق الله لهم باتِّباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتثبيتهم على الإيمان.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ﴾ أي: يُذهبه سُدًى، ويتركه بدون جزاء ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم نحو بيت المقدِس، وتصديقكم بالقِبلة الأولى.

فسمَّى الله الصَّلاة (إيمانًا)، **وهذا يدلُّ على أنَّ العمل من صميم الإيمان.**

ولعلَّ مِن مَكْر اليهود: أنَّهم لـمَّا اغتاظوا من تحويل القبلة؛ صاروا يقولون للمسلمين: إنَّ الذين صلَّوا منكم إلى القِبلة الأولى، وماتوا قبل التحويل إلى القِبلة الثانية، ضاعت صلاتهم، وليس لهم ثواب عليها! فجاءت الآية ردًّا عليهم.

وقد صحَّ في سبَب نزول هذه الآية: عن البَراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّهُ مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ أي: كثير الرأفة ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الرحمة، فلا يمكن أن يُضيِّع إيمان مَن آمن، وثوابَ مَن عَمِلَ صالحًا.

و(الرحمـة) أعـمُّ من (الرأفة) -كما قال بعضهم-؛ لأنَّ الرأفة تختصُّ بدفع المكروه وإزالة الضرر، والرحمة تشـمل -بالإضافـة إلى ذلك- جلب المنفعة، وتحقيـق المصلحة، والتفضُّل بالنِّعم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حَسَـد اليهـود لهـذه الأُمَّة، ومِن ذلك: حَسَـدُهم لنا على هـذه القِبلة التـي هدانا الله لها، وضلُّوا عنها.

وفيها: أنَّ الشاهد يجب أن يكون عدلًا، أي: مستقيمًا على دين الله.

وفيها: وجوب متابعة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾:

صَحَّ في سبب نزول هذه الآية: عن البَرَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ؛ فَأَنْزَلَ الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ»(١).

وقولـه ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: حقًّـا نـرى تحوُّلَ وَجْهك إلى السـماء، وتَردُّدَ نظرِك فيها، طالبًا قِبلة تتمنَّاها.

ذلـك أنَّ النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرجو -وهو في المدينة- أن يُوحَى إليه بتحويل القِبلة من بيـت المقـدِس إلى الكعبة؛ لأنها قِبلـة أبيه إبراهيم، ولأنَّ هذا أقرب إلى اسـتجابة العرَب من قُريـش وغيرهـم. ولِـما في ذلك أيضًا من مخالفة اليهـود، ولكنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كمال أدبه مع ربِّه انتظر ولم يسأل، فحقَّق الله رجاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقـال ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: فَلَنُوجِهَنَّـك، ولَنُحوِّلَنَّـك إلى ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: تحبُّهـا، وتطمئن إليها.

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩).

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أنَّ الكعبة كانت أحبَّ القِبلتَين إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يُقلِّب وَجْهَه في السماء، وكان يَهْوَى الكعبة، فولَّاه الله قِبلةً كان يهواها ويرضاها»[1].

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ أي: استقبِل بوَجْهك، وببَدنك أيضًا ﴿شَطْرَ﴾ أي: جهة ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: تلقاء الكعبة، فيستقبل ذاتَ الكعبة وعَينها إذا كان قريبًا منها، وجِهَتها إذا كان بعيدًا عنها.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾: في أيِّ جهة من جهات الأرض، برًّا أو بحرًا أو جوًّا؛ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي: فاصرِفوا وجوهكم جهة الكعبة.

ولا يُستثنَى من هذا شيءٌ سوى: النافلة على الراحلة في السفر، وحال الالتحام في القتال مع الأعداء، ومُطاردة العدوّ والهرب منه، في صلاة الطالب والمطلوب.

وكذلك مَن جاز له الاجتهاد في معرفة جهة القِبلة فأخطأ، فصلَّى إلى غير جهتها؛ لا تجبُ عليه الإعادة.

وكذا مَن صلَّى داخل الكعبة؛ صلى إلى أيِّ جهة شاء.

ومَن عجَزَ عن استقبالها لحال مرض، أو توثيق بقَيْد، أو نحو ذلك من حالات العَجْز عن الاستقبال؛ صلَّى على حسب حاله.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن قَبلكم، من اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي: استقبال المسجد الحرام بعد بيت المقدِس ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الأمر الثابت، والحُكم العادل، والخبر الصادِق ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ممَّا أوحاه الله إلى أنبيائهم، وما وجدوه في كتبهم، من صِفة نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخبره، وأنَّه يصلِّي إلى القبلتَين، وأنَّ آخرهما الكعبة.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ (الغفلة): هي اللهْو والسَّهْو عن الشيء -تعالى الله عن ذلك-. ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عن أيِّ عمل يعملونه، بجوارحهم أو بقُلُوبهم، وما قاموا به من التكذيب والتشكيك والكِتمان، وسيجازيهم عليه. وهذا تهديدٌ لهم بالعقاب.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٥٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات صفة (الرؤية) لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ النظر إلى السماء قد يكون عبادة، كما لو كانَ لتمييز القِبلة، أو للتفكُّر في خلق السماء، أو التماس الفرج من الله.

وفيها: أدبُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ربِّه؛ حيث إنَّه لم يسأله تغيير القبلة ولكنه انتظرَ الوحيَ.

وفيها: أنَّ الوجه أشرفُ الأعضاء؛ لقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾.

وفيها: مظهر من مظاهر وَحدة المسلمين، في توجُّههم جميعًا إلى قِبلة واحدة.

وفيها: أنَّ مِن أسباب كُفر أهل الكتاب: معاندتهم الحقَّ، مع عِلْمهم بأنَّه حقٌّ.

وفيها: دليلٌ لِصحَّة تقسيم صفات الله تعالى إلى: صفات نفي وصفات إثبات، وأنَّ قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ مثالٌ للصفات المنفيَّة، وهذا كقوله: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن المواضع التي اجتمعت فيها صفةٌ مُثبَتة وأخرى منفيَّة: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن الفوائد التي تُؤخذ من قِصَّة تحويل القبلة أيضًا:

١. اهتمام الصَّحابة بتعليم إخوانهم.

٢. الحِرْص على نقل العِلْم.

٣. العمل بخبر الواحد الثقة.

٤. حُجيَّة خبر الآحاد؛ فالصَّحابة الذين كانوا يُصَلُّون بمسجد قُباء، عندما جاءهم الأمر بتحويل القبلة من شخص عَدْلٍ؛ نفَّذوا الأمر ولم ينتظروا خبرًا آخر.

٥. يطعنُ أعداءُ الله بالقول بالنَّسْخ في الدِّين.

٦. فِقه الصَّحابة، الذين داروا في الصَّلاة كما هم، حتى استقبلوا جهة الكعبة، وفي هذا سُرعة امتِثال الأمر، والاستجابة له.

٧. من رأفة الله ورحمته: تثبيت أجور مَن نفَّذوا الأمر الأول باستقبال بيت المقدِس، وعدم تضييعها عليهم؛ لأنَّه لاذنب لهم؛ بل هم ممتثِلون مخلِصون.

٨. كمال إيمان النبي ﷺ، لـمَّا استمرَّ على تنفيذ الأمر بالتوجُّه إلى بيت المقدِس بعد الهجرة، مع أنَّه كان يهوى غيرَه.

٩. على المسلِم أن يعمل بالحُكم الشرعيِّ، ولوخالف هواه.

١٠. السفاهة في الدِّين أسوأ من السفاهة في المال؛ فقد يكون الشخص ذكيًّا في التصرُّف في المال، لكنَّه سفيه في أمور الدِّين -كاليهود-.

١١. شَفقة الصَّحابة على إخوانهم المسلمين الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، وسؤالهم عن حالهم، واهتِمامهم بأمرهم.

١٢. في فَرَح أعداء المسلمين بموافقة المسلمين لهم في قِبلتهم قبل تحويلها؛ تأكيدٌ على أهميَّة مخالفة الكفَّار، وعدم التشبُّه بهم.

١٣. تزويد الدُّعاة بالحُجَج، وإعلامُ المسلِم بما يُتوقَّع ليكون مستعًّدا له؛ ومن ذلك: وصيَّة النبيِّ ﷺ لصاحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه لـمَّا بعثه إلى اليمن، فقال له: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله...» الحديث[1].

١٤. الاحتجاج بمشيئة الله تعالى على مَن سأل: لماذا شرَعَ الله كذا؟ ولماذا أمر بكذا؟ فيُقال له: ربُّك يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد.

١٥. على الدُّعاة والعلماء استخدام الأساليب القرآنية في الرُّدود على الشُّبهات، والدِّفاع عن الدِّين.

١٦. مِن أشدِّ ما يغيظ أعداءَ الله: اجتماعُ المسلمين على شيء واحد، كاجتماعِهم على القِبلة، والتأمين، وصلاة الجماعة، والجُمعة، والعيدَين، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

١٧. مِنَّة الله تعالى على عباده المسلمين، بهدايتهم وتثبيتهم على الحقِّ، بخلاف غيرهم من المنافِقين وأهل الشَّكِّ والارتياب.

١٨. نَسْخ الحُكم الشرعيّ يزيد المؤمنين إيمانًا وتثبيتًا، ويزيد المنافِقين شكًّا وارتيابًا، فإذا كان في القَلْب إيمانٌ استقبل الحكمَ الجديد بالاستِسلام والامتِثال، وإذا كان في القَلْب مرضٌ استقبل الحكمَ الجديد بالاعتراضِ والارتيابِ والرفضِ والتشكيك.

١٩. أهميَّة اتِّباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتأسِّي بأفعاله وأقواله.

٢٠. خطورة وعِظَم شأن الثبات على الدِّين، وأنَّه لا يُرزَقُه إلَّا مَن وفَّقه الله وثبَّته وأعانَه.

٢١. ابتلاء الله للعباد بالأحكام والشرائع.

٢٢. الحذَر من حملات تشكيك أعداء الدِّين في أحكام الإسلام؛ فقد يتأثر بها بعضُ ضُعَفاء الإيمان، فيَزيغون ويسقطون.

٢٣. الحُكم الواحد قد يكون ثقيلًا على قوم، خفيفًا على آخرين، بحَسَب حال كلٍّ من الطرَفين.

٢٤. إنَّ الله يرزق أهل الإيمان قوَّة تُسهِّل عليهم تنفيذَ أمره، فيصبح عليهم سهلًا ميسورًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٥﴾:

ثم أخبر تعالى عن مزيدٍ من كُفر اليهود ومُعاندتهم، بأنَّه لو أُقيمَت عليهم كلُّ الأدلَّة على نبوَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصِحَّةِ ما جاء به؛ فلن يتَّبعوه، ولن يُسلِموا له.

فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ أي: جئتَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي: مصطحِبًا كلَّ حُجَّة ودليل وعلامة تدلُّ على صِدقك؛ ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ أي: الكعبة، ولا دخلوا في دينك؛ لعِنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

فيه: بيان استحالة اتِّباع النبي ﷺ لدين أهل الكتاب وقِبلتهم، وفي هذا قَطْعٌ لأطماعهم في استمالته.

والنفي في قوله ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يحمل معنى النهي؛ أي: ينهى الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين عن اتِّباع قِبلة اليهود والنصارى، ويطلب منهم الدوام والاستمرار بالبقاء على القِبلة التي وجَّههم الله إليها.

﴿وَمَا بَعْضُهُم﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي: لن يتَّبع اليهود قِبلة النصارى -وهي مطلع الشمس- ولن يتَّبع النصارى قِبلة اليهود -وهي بيت المقدِس-.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾: هذا يحمل معنى القَسَم، وتقدير الكلام: «وعِزَّتي وجلالي، لئن اتبعتَ يا محمَّد ﷺ» ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما يشتهونه ويحبُّونه ويميلون إليه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الوحي بدين الإسلام، وتحويل القِبلة إلى الكعبة؛ ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم، المعتَدين على حُكم ربِّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها تهديدًا عظيمًا، وزجرًا بليغًا، للمتَّبعين للهوى، فإذا خاطب الله نبيَّه ﷺ -وهو أحبُّ الخلق إليه- بهذا الأسلوب الشديد، مع كونه ﷺ من المحال أن يتَّبع أهواءهم؛ فكيف بمَن هو دونه ممَّن يتبعون الأهواء والبِدَع والضلالات؟

وفي الآية: حِرْص النبي ﷺ على هداية أهل الكتاب.

وفيها: أهميَّة عدم صرف الدَّاعية وقتَه فيما لا فائدة من ورائه، وحتى لا يُصاب بالإحباط.

وفيها: أنَّ الكُفر لو كان عن جهل أو شُبهةٍ؛ فيُرجى زواله بالعِلْم والبيان، ولكن إذا كان كُفرَ عناد واستكبار؛ فليس لزواله رجاء، إلا أن يشاء الله.

وفيها: أنَّ اليهود لن يَتنَصَّرُوا، وأنَّ النصارى لن يَتهَوَّدُوا، إلى قيام الساعة.

وفيها: وجوب الانقياد للحقِّ إذا ظهرت دلائلُه.

وفيها: بيان استحالة خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شريعة الإسلام.

وفيها: تحريم اتِّباع اليهود والنصارى في شرائع دينهم، وحرمة التشبُّه بهم.

وفيها: أنَّ الإنسان لا يؤاخَذ إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أنَّ أهل الكتاب كفروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالقرآن وبالقِبلة -وهي الكعبة- وهم يعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّهم؛ زاد ذلك تأكيدًا بأنَّهم يعرفونه حقًّا لا شكَّ فيه عندهم ولا مِرية، كما يَعرف الواحد ولدَه، ويميِّزه مِن بين سائر أبناء الناس.

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أعطيناهم عِلْم التوراة والإنجيل ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ أي: يعرفون محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه نبيُّ الله، معرفة جليَّة واضحة، ويميِّزونه عن غيره، وكذلك يعرفون القرآن، وأنَّ البيت الحرام هو القِبلة.

﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ أي: الذين من صُلبهم، لا يلتبسون عليهم بغيرهم.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: جماعة من أهل الكتاب، وهم: علماؤهم وأحبارهم ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ لَيُخفونه، ولا يُبدونه، ويتواصَون بذلك ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: كِتمانهم الحقَّ عن عِلْم، وليس عن جهل، فهُم يعلمون أنَّه من عند الله، ويعلمون تحريم كِتمانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معروفٌ عند أهل الكتاب معرفة تامَّة، كما قال تعالى: **﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾** [الأعراف: ١٥٧].

وفي الآية: أنَّه لا عذر لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: العَدْل مع أهل الكتاب؛ فإنَّ الذين يكتُمون طائفة منهم، وقد يوجَد منهم -على قِلَّتهم- مَن لا يكتم، كعبدِ الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والنجاشيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾:

ثم أخبر تعالى بأنَّ ما أنزله على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو الحقُّ الذي لا مِرية فيه ولا شكَّ؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الذي أنتَ عليه، وأُوحيَ إليك، ممَّا كتمَه هؤلاء، وكذَّبوا به، هو من الله حقًّا، ومصدره منه عَزَّ وَجَلَّ. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ نهي مؤكَّد ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كلَّ ما جاء من عند الله فهو حقٌّ، وكلَّ ما خالفه فهو باطل، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وفيها: تقوية الله تعالى لإيمان نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتثبيته، وهذا ما يجب على الدُّعاة أن يفعلوه مع الناس.

وفيها: أنَّ على الإنسان أن يسعى في نفي الشَّكِّ عن نفسه، واستعمال ما يزيد الإيمان واليقين من التدبُّر في الكتاب العزيز، وقراءة كلام أهل العِلْم، ومجالستهم، ونحو ذلك.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ﴾ أي: لكلِّ أهل دِين، سواءً كان حقًّا أو باطلًا ﴿وِجۡهَةٌ﴾ أي: جهة وقِبلة يستقبلها؛ فلليهودي قِبلة، وللنصراني قِبلة، وهدَى الله هذه الأُمَّة إلى القِبلة الحقِّ.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: هو تعالى موجِّهه إليها، أو: أنَّ لكلِّ صاحب مِلَّة قِبلة هو مُوَجِّهٌ نفسَه إليها.

وقوله ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: بادِروا إلى الطاعات، وسارِعوا في الأعمال الصالحة، وتسابقوا فيها، وقوموا بها وافعلوها، من التوجُّه إلى القِبلة وغير ذلك.

﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ﴾ في أيِّ مكان تكونوا، من برٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ، تفرَّقت أجزاؤكم أو اجتمعَت؛ ﴿يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: يبعثكم خلْقًا كاملًا، ويحشركم يوم القيامة؛ ليجازيَكم على أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أراده وشاءه، من جمْعِكم وغيره ﴿قَدِيرٞ﴾ عليه، وعلى البَعْث بعد الموت، والإثابة على الطاعة، والعقاب للمسيء، وغير ذلك ممَّا أراد، يَقدِر عليه بلا عَجْزٍ سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ توجيه العِباد للأمور الحِسِّيَّة والمعنويَّة هو من الله، سواءً كان في أديانهم، أو قِبْلاتِهم، أو حِرَفِهم وأعمالهم، أو آرائهم ونظرياتهم، أو مجالات طاعاتهم وأنواع قُرباتهم.

وفيها: أنَّ الإيمان بالبَعْث والنشور يدفع للتسابُق في الخيرات.

وفيها: أنَّ التسابق في الخيرات لا بأس أن يكون بحَسَب ميول النفس في مجالات الطاعات؛ فهذا يجتهد في العِلْم، وآخر يجتهد في الجهاد، وثالث يجتهد في العِبادة، ورابع يجتهد في الدَّعوة وإنكار المنكر، وهكذا، مع قيام الجميع بفِعْل الواجب وترْك المحظور.

وفيها: إحاطة الله تعالى بخَلْقه أينما كانوا.

وفيها: أنَّ من الحِكْمة بَذْل الجهد، والعمل في الباب الذي يفتحه الرَّبُّ تعالى للعبد، ويهيِّئه وييسِّره له، ويوجِّهه إليه.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾:

وقوله ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾ الخِطاب للرسول ﷺ، ولكلِّ مسلِم. والمعنى: من أيِّ موضع خرجتَ في أسفارك ومغازيك، من المنازل القريبة والبعيدة؛ ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ أي: في الصَّلاة ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا التوجُّه شَطْرَ المسجد الحرام ﴿لَلۡحَقُّ﴾ أي: هو حقيقة الأمر الموافِق للحِكْمة، الثابت ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الصادر من الله، المُنَزَّلُ حُكمه من عند الله.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يا أيُّها المسلمون، من عباداتكم؛ فيثيبكم عليها.

ويا أيُّها الكفَّار: ليس الله بغافل عن شِرْككم، وظُلْمكم، وعداوتكم للمسلمين، وإثارتكم للشُّبُهات، وسوف يجازيكم بما تستحقُّون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأكيد حُرمة المسجد الحرام.

وفيها: وجوب التوجُّه إلى القِبلة حيثما كان الإنسان.

وفيها: أنَّ تغيير القِبلة من بيت المقدِس إلى الكعبة هو حقٌّ ليس بباطل، وأنَّه من عند الله، وليس رأيًا ولا اجتهادًا من البشر.

وفيها: إشارة للبِشارة بفتحِ مكة، وانتشارِ الإسلام في الأرض.

وفيها: إضافة العمل والكسب إلى الإنسان -من خير أو شرٍّ- وأنَّ العبد ليس مجبورًا على فِعْله، وكذلك ليس مستقلًّا عن إرادة الله؛ فللعبد إرادة واختيار يُحاسَب عليها، وما أراده واختاره فهو مكتوبٌ وواقعٌ بأمر الله ومشيئته.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠﴾:

تكرَّرَ الأمر باستقبال المسجد الحرام في هذه الآيات ثلاث مرَّات؛ فقال بعض العلماء: إنَّه للتأكيد؛ لأنَّه أول نَسْخ وقع في الإسلام.

وقيل: التَّكرار لاختلاف الأحوال؛ فأمرٌ لمُشاهِدِ الكعبة، وأمرٌ لمن هو في مكة، وأمرٌ لمن هو في بقيَّة البلدان، وأمرٌ لمن خرج في الأسفار. وقيل: غير ذلك[1].

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان كنتم -يا أمَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الأرض، مقيمين أو مسافرين، في برٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ؛ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾: توجَّهوا إلى المسجد الحرام.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي: اليهود وغيرهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيَّتها الأمَّة المحمَّديَّة ﴿حُجَّةٌ﴾ أي: مجادَلة ومعارَضة، وشيء يحتجُّون به بالباطل.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الدمشقي (٣/ ٦٥)، تفسير القرطبي (٢/ ١٦٨)، تفسير الخازن (١/ ١٢٤)، تفسير النيسابوري (١/ ٣٦٧)، مفاتح الغيب (٤/ ١٢٥).

والمعنى: حولّنا قِبلتكم -يا أيُّها المسلمون- من بيت المقدِس إلى الكعبة؛ لئلَّا يحتجَّ اليهودُ عليكم بأنَّكم تابعون لهم في القِبلة، فانقطع الطريق عليهم في المجادَلة؛ لأنَّه قد صار لكم قِبلة مستقلَّة ومميَّزة عنهم.

ومن جهة أخرى: فإنَّ تحويل القِبلة منَع المشرِكين -ومنهم كفَّار قُرَيش- من الاحتجاج على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما كانوا يقولون: لماذا ترَك قِبلة أبيه إبراهيم؟ فلـمَّا صار تحويل القِبلة جهة الكعبة؛ انقطعت حُجَّتهم أيضًا؛ فلم يعودوا قادِرين على ادِّعاء اتباعِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِلَّةَ أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم يخالِف قِبلته.

ولـمَّا سُدَّ الطريق على الأعداء في استعمال الحُجَج؛ لم يبقَ إلَّا المعانِدون والمكابِرون الذين ليس عندهم حُجَّة أصلًا؛ ولذلك قال الله عنهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، فبقيَ هنالك مَن يقول من الأعداء المعانِدين: ترَكَ بيت المقدِس واتجهَ إلى الكعبة؛ حنينًا إلى بَلَده، ومحبَّة لقومه!

وهؤلاء المعانِدون -أصحاب الأقوال التافهة- لا يضرُّون المسلمين شيئًا، ولذلك نهانا الله عن خَشيتهم، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: مهما استعملوا من زخارف القول والظُّلْم في الكلام، ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ أي: احذروا عقابي، ولا تخالفوا أمري. و(الخشية): خوف من عظيم، مقرون بالعِلْم(١).

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ (إتمام) الشيء: بلوغ غايته وكماله. والمعنى: شَرَعْنا لكم استقبال البيت العتيق؛ لإتمام نِعمة الهداية عليكم إلى القِبلة الأعظم والأكرم، ولنُنعِمَ عليكم بقَطع حُجَج الأعداء.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى مزيد من العِلْم والعمل الصالح والعِبادة، جهة هذه القِبلة التي هديناكم إليها، وضلَّ عنها غيرُكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَكرار الأمر المُهِمِّ؛ لتثبيته والثبات عليه، ودفع الشُّبه المثارة حوله.

وفيها: تأكيد حُرمة المسجد الحرام.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥١٣).

وفيها: وجوب التوجُّه إلى القِبلة حيثما كان المصلِّي.

وفي الآيـة: أنَّ النِّعَـم من عنـد الله لا من غيره؛ ولذلـك أضاف النِّعمة إلى نفسـه؛ فقال: ﴿نِعۡمَتِي﴾.

وفيها: إشارة للبِشارة بفتحِ مكة، وانتشارِ الإسلام في الأرض.

وفيها: دفاع الله عن المؤمنين وكَبْت الظالمين.

وفيها: بيان أنَّ من الحُجَج ما هو داحض وباطل.

وفيها: أنَّ على المسلِم أن يعمل بشريعة الله، ولا يخاف في ذلك لومة لائِم.

وفيها: أنَّ تنفيذ أوامر الله وخَشيته من أسباب الهداية.

وفيهـا: أنَّ أحـكام الله وشَرْعَـه فيهـا مصالح عظيمة للمسـلمين، وقد ذَكَـرَ الله تعالى في الآيـة ثلاث عِلَل في تحويل القِبلة، كلّها لمصلحة المسـلمين، وهي: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾:

ولـمَّا ذكـر تعـالى نِعَمه على المؤمنـين في تحويل القِبلـة، ذكَّرهم بنِعمته عليهم في إرسـال الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ منهـم وفيهـم؛ فقـال تعـالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ يعني: من أنفسكم، تعرِفون نَسَبه وحاله، فهو مفخرةٌ لهم؛ ولذلك عظُمت به المِنَّة عليهم.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾: يقرؤها عليهم، بما اشتملت عليه من الحِكَم والأحكام، مع كونه أمِّيًّـا لا يقـرأ ولا يكتب، فتكـون معجِزته فيهم ظاهرة، وهـي أيضًا باقية. ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ أي: يطهِّركم من الشِّرك والمعاصي، ويحملكم على محاسـن الأخلاق، ويُنَمِّي فيكم الخصال الحسنة، والأفعال الجميلة.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القـرآن، ويبيِّـن معانيـه لكم. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هي السُّـنَّة والفقه في الدِّين، ووَضْع الأشياء في مواضعها.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أمورًا لم تكونوا عالمين بها قبل بِعْثته إليكم. وهذا يشمل: أخبار الأُمَم الماضية، والقرون الخالية، وشيئًا من حوادث المستقبَل، وتفصيل أمور الآخرة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ على المسلمين من الواجب في فَهم الدِّين، وتعليمه، ونشره، والدَّعوة إليه، أكثر ممَّا على غيرهم.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية ألَّا يكتفي بسَرْد المعلومات؛ وإنَّما يجب أيضًا أن يبيِّن المعنى، ويعمل على تزكية نفوس الناس.

وفيها: أنَّ زوال الجهل نِعمة؛ لقوله تعالى -مُمتنًّا على المسلمين-: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أي: كما أنعمتُ عليكم بإرسال هذا الرسول، وبغير ذلك من النِّعَم؛ ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أي: باللِّسان، والقَلْب، وأفضله: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله، ومحبته، وكثرة ثوابه[1].

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ ذِكرًا حقيقيًّا، يكون رحمة لكم، ونِعمة عليكم، وإحسانًا إليكم.

﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ أي: قوموا بشُكري. و(الشُّكر): الثَّناء على المُنعِم، ويكون باللِّسان والقَلْب والجوارح. ومن ذلك: الاعتراف بالنِّعمة، ونسبتها إلى المُنعِم -وهو الله- لا إلى غيره، واستعمالها في طاعته، لا في معصيته. و(اللام) في قوله ﴿لِي﴾ للاختصاص، أي: اجعلوا شُكركم مختصًّا بالله.

﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ أي: لا تجحدوا نِعمتي عليكم؛ بل اعترفوا بها وأعلِنوها.

ومَن ذكرَ اللهَ فقد شَكَرَهُ، ومَن نسيَه فقد كفرَه، وعلى العبد أن يطيع ربَّه ولا يعصيه، ويذكره ولا ينساه، ويشكره ولا يكفره.

(١) انظر: الفوائد لابن القيم (ص١٢٨)، تفسير السعدي (ص٧٤).

وفي الآيتين من الفوائد:

نِعمة الله العظيمة بإرسال الرسول ﷺ، الذي عرَّفنا كيف نعبدُ ربَّنا.

وفيها: أنَّ مِنَّة الله على قُريش -ثم العرب- أعظم من مِنَّته على غيرهم؛ فعليهم من الشُّكر أكثر ممَّا على غيرهم.

وفي الآية: وجوب ذِكر الله في الجملة؛ لأنَّ الله أمر به، ثم منه ما يكون واجبًا ومنه ما يكون مستحبًّا.

وفيها: أنَّ مَن ذكرَ الله تعالى حصلت له منقبة عظيمة، ألا وهي ذكر الله له، كما جاء في الحديث القُدْسيّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»(١).

وقد صحَّ عن أبي عثمان النهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «إنِّي لأعلم حين يذكرني ربِّي»، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: «إن الله يقول: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، فإذا ذكرتُ الله ذكرني»(٢).

وفي الآية: أنَّ معرفة النِّعَم تَدفع إلى مزيد من الشُّكر؛ ولذلك ينبغي التعرُّف عليها واستحضارها.

وفيها: الإخلاص في شُكر النِّعمة، بأن يوجَّه الشُّكر إلى الله؛ لقوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالشُّكر -وهو نصف الإيمان- أمر بالصبر -وهو نصفه الآخر-؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والكلام إذا بدأ بالنِّداء فهو دليل على أهميَّته.

﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ أي: اطلبوا العون من الله، باستعمال الصَّبر والصَّلاة. والصَّبر مرٌّ، ولكن عاقبته حميدة، وهو أنواع: صبر لله على طاعته، وصبر لله بالامتناع عن معصيته، وصبر له على قضائه وقدَره.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) مصنَّف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٦).

والصَّلاة داخلةٌ في الصَّبر؛ لأنَّها صبر على طاعة الله، وقد أرشد تعالى هنا إلى أنَّ أجودَ ما يُستعان به على المصائب هو: الصَّبر والصَّلاة، و«كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»(١).

ثم ذكر تعالى معيَّته للصابرين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذه معيَّة إعانة وتأييد.

وقد عمل الصَّحابة بهذه الآيات:

فلمَّا نُعِي إلى ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قُثَم وهو في سفر، استرجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ راحلته وصلَّى ركعتين، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية(٢).

ولـمَّا غُشيَ على عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غشية، حتى ظنُّوا أنَّه فاضت نفسُه فيها، خرجت امرأته أمُّ كلثوم -وكانت من المهاجرات الأوائل- إلى المسجد، تستعين بما أُمرت أن تستعينَ به من الصَّبر والصَّلاة(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكر معيَّة الله الخاصَّة للمؤمنين، وهي معيَّة النصر والتأييد، وهي غير معيَّة العِلْم والإحاطة، العامَّة لجميع الخلق.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

ولـمَّا قُتِلَ بعض المسلمين في سبيل الله، ووصَفَهم بعض الناس بأنَّهم أموات؛ نبَّه الله تعالى بأنَّهم ولو ماتوا، فهم ليسوا كسائر الأموات؛ وإنَّما لهم حياة خاصَّة، في غاية من النَّعيم، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ أيُّها الناس ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الذي يُقاتِل لتكون كلمة الله هي العليا ﴿أَمْوَٰتٌۢ﴾؛ فليسوا كسائر الأموات، ولو فارقَت أرواحُهم أجسادَهم. ﴿بَلْ

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).
(٢) شعب الإيمان (٧/ ١١٤).
(٣) جامع معمر بن راشد (٢/ ٣٠٨).

﴿أَحۡيَآءٞ﴾ أي: لهم حياة خاصَّة؛ فمنهم مَن أرواحهم في جَوْف طير خُضْر، لها قناديل معلَّقة بالعرش، تسرَح من الجنَّة حيث شاءت[1]، ومنهم مَن رُوحه بنهر يُسَمَّى «بارق» عند باب الجنَّة[2] -كما ثبت في الأحاديث الصحيحة- وهذا يختلف باختلاف مراتبهم في الجنَّة.

وحياتهم هذه حيَاة بَرْزخيَّة، في عالم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ بحياتهم، ولا تُدرِكون ما هم فيه من النعيم والكرامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن وَصْف مَن قُتِلَ في سبيل الله بـ (الميِّت).

وفيها: التنبيه على الإخلاص في القتال.

وفيها: إثبات حياة الشُّهَداء.

وفيها: إثبات الحياة في البَرْزخ، بينَ الدُّنيا والآخرة.

وفيها: إثبات نعيم القبر والبَرْزخ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾:

ولـمَّا أمر تعالى عباده بالاستعانة بالصَّبر والصَّلاة عند المصائب؛ ذكرَ أنواع هذه المصائب، ومزيدًا ممَّا يقال عندها؛ فقال:

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: أقسمَ تعالى بأنَّه يختبرنا ويمتحننا؛ ليَظْهرَ الصابرون وليتميَّزوا عن غيرهم.

وذكر خمس مصائب، نفسيَّة وبدنيَّة وماليَّة؛ فقال: ﴿بِشَيۡءٖ﴾ أي: بقليل، ومن رحمته تعالى أنَّه لا يأخذ كلَّ ما عند البشر؛ بل يترك لهم الأكثر.

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبَّان (٤٦٥٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ أي: الذُّعر، سواءً كان عامًّا -كعدوٍّ يهدِّد البلاد- أو خاصًّا -كالإنسان الذي يُبْتَلَى بمَن يخيفه ويُرَوِّعه-. ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ وهو: ما يكون نتيجة خُلُوِّ البطن من الطعام، وله أسباب؛ كقِلَّة الطعام - كالقحط- أو قِلَّة المال الذي يُشترى به، أو مرض يمنع من الأكل.

﴿وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ أي: ذهاب بعضها. و(المال): كل ما يتموَّله الإنسان -من نقود ومتاع وحيوان-. ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ والمراد: الأرواح التي تَذهب، بالأمراض أو القَتْل ونحو ذلك، فيفقد الإنسان بها الأصحاب والأقارب والأحباب. ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وهو: ناتج الشجر، الذي يَذهب بالكوارث والآفات وعوامل التلَف.

وكلُّ هذا وأمثاله، ممَّا يختبر الله به عباده، فمَن صبر أثابه، ومَن قنط وتسخَّط أو اعترض: عاقبَه الله إن شاء.

وليس للعبد عند نزول المُصيبة إلَّا الصَّبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: أخبِرْهم بما يَسُرُّهم ممَّا أعددناه لهم من جنَّات النعيم، والثواب العظيم.

ثم بيَّن تعالى مَن هم الصابرون، ثم علَّمنا تعالى ماذا نقول عند المُصيبة؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي: حلَّت بهم نائبة وشِدَّة؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بقُلوبهم وألسِنَتهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ (اللام) لام المُلك؛ أي: نحن وما عندنا مُلك لله عَزَّوَجَلَّ، يفعل بنا ما يشاء ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى لقائه ﴿رَٰجِعُونَ﴾ أي: صائرون إليه لا إلى غيره، بالبَعْث والنشور.

وقد ورد في فَضْل هذه العبارة العظيمة أحاديث صحيحة:

منها: حديث أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا».

قالَتْ أُمُّ سَلَمَة: فَلَمَّا ماتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ من أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هاجَرَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُها، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وفي الحديث: «إذا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ الله لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ،

(١) رواه مسلم (٩١٨).

فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: ماذا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1].

وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الصابرون، المسترجِعون عند المُصيبة ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: أنَّ الله يُثني عليهم في الملإ الأعلى؛ إعلاءً لشأنهم ورِفعةً لذِكْرهم. ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ يُنعِم بها عليهم، ويُحسن بها إليهم، و(الصلوات) تدخل في (الرحمة). ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى الحقِّ والصواب، وطريق الجنَّة والفوز بالثواب.

وقيل: إنَّ الاسترجاع ذِكرٌ علَّمه الله هذه الأمة، لم تعلَمه الأُمَم من قبل؛ وإلّا لقالَه يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عند فَقْد ولدِه يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

البُشرى للصابرين.

وفيها: انقسام العِباد إلى صابر وغير صابر عند المُصيبة.

وفيها: إثبات البَعْث والنشور.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بذِكْره وشُكره، ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة، وأثنى على الصابرين، وكان الحجُّ من الأعمال الشاقَّة التي فيها بذل المال والبدَن، ويحتاج إلى صبر؛ ذكَره بعدما تقدَّم، وأشار إلى بعض أركانه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

و﴿ٱلصَّفَا﴾: هو الصخر الصَّلْب الأملس، والمقصود به هنا: رأس نهاية جبل أبي قُبَيْس، وهو الحدُّ الأول للمَسْعى.

﴿وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾: الحجارة الصِّغار البيض، وهو هنا: رأس منتهى جبل قُعَيْقِعان، وهو الحدُّ المُقابِل للمَسْعى[2].

---

(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وحسَّنه الألبانيُّ بمجموع طرقه في الصحيحة (١٤٠٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٦٠)، لسان العرب (١٥/ ٢٥٧)

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من معالم الدِّين الظاهرة، والمقصود: أنَّ السَّعْي بينهما من أحكام دين الله وعبادته. وإضافة (الشعائر) إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي شرَعَها وجعلَها من دينه، فليست من أمر الجاهليَّة، وإنَّما هي من عبادة الله.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ أي: قصد الكعبة، بالعِبادة المخصوصة المعروفة في الشَّرْع، ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ أي: زار الكعبة لأداء عبادة العُمرة، المعروفة في الشَّرْع؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب ولا إثم على الحاجِّ أو المعتمر ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يَسْعى بينهما.

وسبَب هذا البيان من الله: أنَّ أهل الجاهليَّة كانوا قد نصبوا على جبلَي الصفا والمروة أوثانًا يعبدونها، ويطوفون بها، فتحَرَّجَ المسلمون من السَّعْي بينَ الجبلَين؛ لأجل ما عليهما من الأصنام، فنزلت هذه الآية.

وفي «الصحيحين»[1]، عن عُرْوة، أنَّه قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أرأيتِ قَوْلَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؟ فوَالله، ما عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَلَّا يطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ!

قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي! إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا)، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا».

وعن عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ؛ فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ

---

(١) رواه البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧).

﴿ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»[1].

وقوله ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: تبرَّع، وزادَ على الواجب، فأتى بحَجٍّ مستحَبٍّ وعُمْرة نافلة، فيهما سَعْي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: يُثيب العامل أكثر من عمله، ويقبل منه طاعته. ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بنيَّته، وقَدْر جزائه، وقد أحاط بكلِّ شيء عِلْمًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة الطواف بينَ الصفا والمروة، والراجح أنَّه رُكن؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْعَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»[2].

وفيها: أنَّ بِدَع أهل الجاهليَّة ومُحدَثاتها لا تُلْغي شعائر الله.

وفيها: أنَّ التطوُّع بالعِبادة خيرٌ للعبد.

وفي مشروعيَّة الطواف بينَ الصفا والمروة: تذكيرٌ بسَعْي هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ بينَ الجبلَين؛ لطلب الماء لولَدِها، وهي متذلِّلة فقيرة إلى الله. فعلى الساعي بينَ الجبلَين التفكُّر في فقره وذُلِّه، وحاجته إلى ربِّه في صلاح قَلْبه وغفران ذَنبه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

ثم قال تعالى في أحبار اليهود، ومَن فعل مثلهم من هذه الأُمَّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ أي: يُخْفون العِلْم في حال حاجة الناس إليه ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ أي: من الوحي ممَّا جاءت به الرُّسُل ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الآيات الواضحات ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ أي: العِلْم النافع الذي يهدي الخلق إلى ربِّهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعًا -مؤمنهم وكافرهم- ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جميع الكتب المُنزَّلة من عند الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكاتمون ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يطردهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي: من الملائكة، والمؤمنين، والبهائم، وجميع الخلائق.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٦)، ومسلم (١٢٧٨).

(٢) رواه أحمد (٢٧٣٦٧)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٧٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

وَعيد مَن كتم عِلْمًا، وأنَّ ذنبه من الكبائر، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

ويَستحقُّ هذا الوَعيد: إذا كان عندَه عِلْمٌ يقينيٌّ، ليس بظنٍّ، وإذا احتاج إليه الناس -سواءً سألوا عنه بألسِنَتهم، أو احتاج حالُهم إلى بيانه- وإذا قَصد الإخفاء، وإذا لم يوجَد غيره يخبر به.

وفيها: إشارة إلى ما كان يفعله أحبار اليهود من كَتْم العِلْم، كصفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُكم رَجْم الزاني المحصَن، وتحويل القِبلة، وغير ذلك.

وفي الآية: أهميَّة إبلاغ العِلْم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله، لَوْلا آيَتَانِ في كِتَابِ الله، مَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا أَبَدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ إلى قوله ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾»[٢].

وفيها: أنَّ المطلوب من أهل العِلْم: التبيين والتوضيح، على النحو الذي يفهمه عامَّة الناس.

وفيها: إشارة إلى عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لقوله تعالى ﴿أَنزَلْنَا﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

وفيها: خطورة المعاصي والإفساد في الأرض؛ لأنَّها من أسباب لعنة البهائم للمُفسِدين، كما أنَّها تستغفر للعلماء العاملين.

وفيها: أنَّ ما احتاج الناس إلى بيانه من الأحكام الشرعيَّة؛ يجب بيانُه بلا مُقابِل ولا أجرة.

وأنَّ ما يحصل الضرر بتعليمه من الأمور الشرعيَّة يجوز كَتمه أو يجب، مثل: تعليم المبتدِعةِ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٠)، ومسلم (٢٤٩٣).

أصـولَ المُناظَرة، وتعليـمِ بعض الكفَّار والمنافِقـين أمورًا شرعيَّة يمكن أن يسـتعملوها في إثارة الشُّبُهات، وخداعِ العامَّة والبسطاء من المسلمين.

ومثـل: تعليم الكافر والفاسـق ما يمكِّنه مـن تولِّي منصب عند المسـلمين؛ ليتوصَّل من خلاله إلى الإفساد.

ومثل: نشر الرُّخَص للسُّفهاء، الذين يستعملونها في ارتكاب المحظورات.

ومثل: تعليم الظَّلَمة بعض النصوص الشرعيَّة التى يوردونها في خُطَبهم على المسـلمين، فيخدعونهم، أو يحتجُّون بها على ظُلْمهم.

ومثـل: إخبار بعض الناس بأمور شرعيَّة لا يفهمونها على حقيقتها، فيُفتَنون بها. ومثله: إخبـار المسلِم الجديد، أو الراغب في الإسـلام، بأمور تصعِّب عليه الإسـلام، فيُنتظَر حتى يحسُن إسلامه، ثم يُعلَّم تلك الأمور الشرعيَّة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾:

ولـمَّا ذكـر تعالى جُرْم الذين يكتُمون العِلْم؛ اسـتثنى من ذلك أهـل التوبة منهم؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي: رجعـوا مـن معصية الله إلى طاعتـه، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ عملهم وما بينهم وبين الله، ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ أي: فعلوا ضِدَّ ما كانوا يعملونه من الذنب، فبيَّنوا بعد الكِتمان.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: الذيـن قامـوا بهذه الأعمال الثلاثـة -التوبة، والإصـلاح، والبيان- ﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أقبَلُ توبتهم، ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾: كثير التوبة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أُحسِـن إليهم بالرحمة، بعد دفع العُقوبة عنهم بالتوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ كِتمان العِلْم يؤدِّي إلى حصول الفساد، وأنَّ الفساد لا بُدَّ من إصلاحه.

وفيها: معالجة آثار الجريمة، واستدراك ما فات.

ويؤخَـذ منهـا: أنَّ مَن نشَر باطلًا، أو روَّج بِدعة، أو أعلن كُفرًا، فإنَّ من شروط توبته أن يتبرَّأ ممَّا كان يُعلِنه على رؤوس الأشهاد، وأن يُبيِّنَ بُطلانه؛ لتنبيه مَن اغترَّ به، ولإظهار الحقِّ.

ولا يكفي لأصحاب المذاهب الهدَّامة إذا تابوا أن يجعلوا توبتهم سرًّا، ويسكتوا عمَّا فعلوه؛ فلا بُدَّ من البراءة ممَّا كانوا عليه، وبيان بُطلانه، وإعلان الحقِّ.

وفي الآية: إشارة إلى الحِمْل الثقيل والعبء العظيم الذي يتحمَّله العلماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا، كَذِبًا أو استكبارًا ﴿وَمَاتُواْ﴾ استمرُّوا على الكُفر حتى داهمهم الموت ﴿وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي: على هذه الحالة من الكُفر، لم يتوبوا ولم يرجعوا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾: مطرودون من رحمته، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تلعنهم، ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يمقُتونهم، ويَلْعنونهم، ولا سيَّما يوم القيامة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة والنَّار. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لحظةً ولا طرْفةَ عيْن، ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهَلون ولا يُؤجَّلون؛ بل يُؤخَذون إلى العذاب من حين الموت.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ الكافر يستحق اللَّعنة، وأنَّ هذا مشروطٌ ببقائه على الكُفر حتى الموت.

ولذلك فالأحوَط عدم لَعْن الكافر المُعيَّن؛ لأننَّا لا ندري على أيِّ شيء يموت. لكن يُشرَع لَعْنُ جِنس أصحاب الكُفر والمعصية، فنقول: «لعنة الله على الكافرين»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

ويجوز لعنُ مَن لعنه الله ورسوله، وجاء الخبرُ من الوحي بموته على الكُفر بعَينه، كإبليس، وفِرْعَون، وأبي جهل، ونحوهم.

وفي الآية: أنَّ الكافر يلعنه الكافر، وقد قال تعالى عن أهل النَّار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿إِلَٰهٌ﴾ أي: مَألوه، ومعناه: المعبود حُبًّا وتعظيمًا. ﴿وَاحِدٌ﴾: لا شريك له في ألوهيَّته، وربوبيَّته، وأسمائه وصفاته.

وفي هذا: ردٌّ على المشركين الذين كانوا يعبدون أصنامًا كثيرة، ويقولون: كيف يسع الناس إلهٌ واحد؟

﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: واسع الرحمة ﴿الرَّحِيمُ﴾: الذي يُوصِل رحمته إلى خَلْقه. وله رحمة عامَّة لجميع الخلق، ورحمة خاصَّة بالمؤمنين.

وقد جاء في حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾، وفاتِحَةِ آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»(١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

ولـمَّا ذَكَر تعالى تفرُّده بالألوهيَّة؛ ذكرَ دلائلَ على وحدانيَّته، لتكون بُرْهانًا؛ فقد ورد عن أبي الضُّحى رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لـمَّا نزلت ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ قال المشركون: إنْ كان هذا هكذا فليأتِنا بآية؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٢٦٩).

فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ أي: إيجاد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع (سماء)، ومن آياته فيها: أنَّه ابتدعَها على غير مثال سابق، وجعل لها سَمْكًا (سقفًا) وأبوابًا وسُكَّانًا وحَرَسًا، وزيَّنها بالنجوم، ورفعَها بغير أعمدة.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في خَلْقها على غير مثال سابق، وفي مَدِّها وبَسْطها، وما فيها من الجبال والبحار والأشجار والمعادن والدوابِّ، وغير ذلك من المنافع المُعَدَّة لسكَّانها.

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في الطول والقِصَر، والزيادة والنقصان، والنُّور والظُّلْمة، وتعاقبهما، وطلب أحدهما للآخر حثيثًا، وما يحصل فيهما من الحوادث التي لا يعلمها إلَّا الله.

﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: السُّفُن ﴿ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: تسير طافيةً ولا تغرق. ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: من الأمتعة والأرزاق والتجارات، فلو لم يجعل الله قانونًا للطَّفْو؛ لتعطَّلَت أكثرُ تجارات الناس؛ فالشَّحْن البَحْري هو الأكثر شيوعًا في العالم في نَقل السِّلَع، ومنها النِّفْط. ومهما كانت الناقلات والحاويات ضخمة؛ فهي تسير بأمر الله فوق الماء ولا تغرق، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن آيات الوحدانيَّة أيضًا: ما ينزل ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من جهة العُلُوِّ. ﴿مِن مَّآءٍ﴾ أي: المطر، فيجتمع في السَّحاب، ويتكثَّف فيها، ويُنزله الله بقَدَر ليحصل الانتفاع. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: النبات الذي في الأرض ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ أي: بعد أن كانت يابسة هامِدةً، مُجْدِبة، فتُصبِح مخضَرَّة.

وقد جاء في حديث أبي رَزِين العُقَيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى؟ فَقَالَ: «أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحِلٍ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خِصْبًا -وفي رواية: ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ خَضِرًا-؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى»[1]، و(الوادي المُمْحِل) أي: المُجْدِب.

ففي إنزال المطر من السماء رحمة وحِكْمة، وآية على قُدرة الله تعالى على بَعْث العِباد بعد الموت.

﴿وَبَثَّ﴾ أي: نشر، وفرَّق ﴿فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهي: ما يدُبُّ

---

(١) رواه أحمد (١٦١٩٣، ١٦١٩٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٤).

ويتحرَّك على وَجْه الأرض من أنواع الحيوان، وهذا التنوُّع في الخِلْقة والشَّكل وطريقة الحركة آيةٌ تُبْهِر العقول، شاهدةً على قُدرته ووحدانيَّته تعالى.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: تنويعها، في اتجاهاتها وشِدَّتها ومنافعها، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، وتجمع السَّحاب، وتُفرِّقُه، وتَسُوقه.

﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَنْسَحِب انسحابًا في الجوِّ بإذن الله. ﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾: المذلَّل لمصالح المخلوقين بقُدرة الله ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يحمل المطر، ويُظِلُّ الناس.

في هذا كلِّه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلائل وبراهين عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يتفكَّرون بعين العقل؛ فينتفعون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ على الفلاسفة الذين يقولون بقِدَمِ العالم وأزليَّته، وأنَّه ليس له بداية، وقد بَيَّنَ تعالى أنَّه خَلَقَهُ وابتدأه.

وفيها: أنَّ تنوُّع الخَلْق دليلٌ على قُدرة الخالِق.

وفيها: مَدْح العقل الذي يقود صاحبَه إلى الحقِّ.

وفيها: التفكُّر في آيات الله، وأنَّ ذلك يزيد الإيمان، ويهدي إلى الرحمن.

وفيها: أنَّ الازدياد من التفكُّر والتدبُّر في مخلوقاته وآياته؛ دليلٌ على زيادة العقل، ويقود لمزيد من الإيمان.

وفيها: تنويع ذكر الآيات ليتعظَ بها أنواعُ الناس، على اختلاف طبقات عقولهم.

وفيها: أنَّ المخلوقات لا تُدبِّر نفسها، ولكن الله يدبِّر أمرَها وشُؤونها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى التوحيد، وأنَّه لا إله إلَّا هو، وذَكَرَ آياتٍ بيِّناتٍ دالَّةً على وحدانيَّته؛ أعقب ذلك بذِكر الشِّرك، ومنه: شِرك المحبَّة، وذكرَ عاقبة المشرِكين ومصيرهم في نار جهنم؛ فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الكفَّار والمشرِكين ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يعبد ويجعل ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾غير الله ﴿أَندَادًا﴾: أمثالًا وأشباهًا ونظراءَ، من الأحبار والرؤساء والأصنام والأوثان. فقد كان أهل الكتاب يتخذون أحبارهم ورهبانهم أَنْدادًا، يُحِلُّون لهم ويحرِّمون من دون الله. وكان المشرِكون من العرَب وغيرهم يتخذون الأصنام والأوثان أندادًا، يعتمِدون عليها في جَلْب المنفعة، ودفع المضرَّة.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: يُودُّونهم ويعظِّمونهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: كحُبِّهم لله، فيُسوُّون بين أحبارهم وأصنامهم وبين الله في المحبَّة.

وهذا شِرك؛ فلمَّا قال رجل للنبيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ! قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا -وفي رواية: ندًّا-؟ بَلْ: مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»(١).

وفي «الصحيحَين»، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: المؤمنون يحبُّون ربَّهم أشدَّ من حبِّ هؤلاء المشرِكين للأنداد التي اتخذوها؛ وذلك لأنَّ محبَّة المؤمنين لربِّهم خالصةٌ، ومحبَّة الكفَّار لربِّهم فيها شوائب، كما أنَّ محبَّة المؤمنين لربِّهم تكون في السرَّاء والضرَّاء، أما المشرِكون: فينادُون ربَّهم ويلجأون إليه في الضرَّاء دون السرَّاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، والمعنى: ولو رأى وشاهد الذين ظلَموا أنفُسَهم بالشِّرك في الدُّنيا، عذاب الله يومَ القيامة؛ لعَلِموا وأيقنوا أنَّ القوَّة لله جميعًا، وأنَّ الله شديد العذاب، وأنَّ الأنداد عاجزة لا تنفع ولا تضرُّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ليس لله تعالى نِدٌّ في الحقيقة، وأنَّ اتِّخاذ المشرِكين للأنداد مبنيٌّ على تصوُّراتهم

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

الفاسدة واعتقاداتهم الباطلة، بأنَّ لله شبيهًا ونظيرًا، وإلَّا فلا يوجد في الحقيقة لله شبيهٌ ولا نظير ألبتة.

وفي الآية: بيان شناعة شِرك المحبَّة.

وفيها: أنَّ المحبَّة أساس العِبادة، وأنَّ عبادة الله مبنيَّة على الحبِّ والتعظيم؛ فبالحب يُفعَل المأمور، وبالتعظيم يُجتنَب المحظور.

وفيها: أنَّ مَن جعل لله ندًّا فهو ظالم؛ لقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾.

وفيها: اختصاص الله بالقوَّة يوم القيامة؛ لأنَّ (اللام) في قوله ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ هي لام الاختصاص.

وفيها: أنَّ عِلْم اليقين بالآخرة يدفع إلى تَرْك الشِّرك والمعصية في الدُّنيا.

وفيها: انكشاف أمر المعتقَدات الباطلة يوم القيامة، حينما يرى المشرِكون أنَّ الأنداد التي اتخذوها لا قوَّة لها ألبتة، بل تُجعَل في النَّار -مع هؤلاء المشرِكين- إذا كانت جماداتٍ، أو كانت أحياءً عُبِدَتْ من دون الله وهي راضية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وفيها: أنَّ من طُرُق دعوة المشرِك: أن يبيَّن له عاقبة الشِّرك الوخيمة، في الدُّنيا والآخرة.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾:

ثم أخبر تعالى عن كُفر المشرِكين بأوثانهم، وتبرُّؤ المتبوعين من أتباعهم؛ فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ أي: ولو يرى الذين ظلموا وأشركوا حالَهم، عندما يتبرَّأ الرُّؤساء من أتباعهم، وهكذا يكون حال رؤساء الكُفر والضلال -كفِرْعَون وغيره- مع جنوده وأتباعه: يَكْفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضُهم بعضًا.

وأمَّا مَن عُبِدَ مِن دون الله وهو كارِهٌ؛ فإنَّه يتبرَّأ ممَّن عَبَدَهُ، لكن لا يدخل النَّار معه، كما قال الله عن الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القَصَص: ٦٣]، وكما يتبرَّأ عيسى ممَّن عبده مع الله، كما قال تعالى -حاكيًا قولَه-: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

والتعبير بالفِعْل الماضي في قوله تعالى ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، مع أنَّ الأمر في المستقبَل يوم القيامة؛ لبيان أنَّه واقعٌ لا محالة، فهم يرَون العذابَ بأعيُنهم.

﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾، كما ينقطع الحبل بمَن تمسَّك به للنَّجاة من الغرق. و(السَّبَب): هو ما يتوصَّل به إلى غيره. فكلُّ عَلاقة كانت موجودة في الدُّنيا، وكلَّ سبب كانوا يؤمِّلون أن ينتفعوا به في الآخرة، قد انقطعَ وزال، وانقلبت المودَّة عداوة، والعِبادة لعنة وبراءة، وانقطعت الأرحام التي كانت في الدُّنيا فلم تَعُد تنفع، وتقطَّعت أسبابُ الخلاص، فلم يجدوا عن النَّار محيدًا ولا مصرِفًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ رؤساء الضلال لا ينفعون أتباعهم يوم القيامة، بل يتبرَّأون منهم، ثم يُجمَع بينهم في النَّار؛ زيادةً لحَسَراتهم، حيث يُجمَع بينَ التابع والمتبوع، وجهًا لوجه، في نار جهنم!

وفيها: أنَّ جميع الأسباب الباطلة والمحرَّمة لا تنفع أصحابها يوم القيامة، وكلَّ عَلاقة لم تكن لله في الدُّنيا فستزول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾:

ثم ذكر تعالى جملةً من الحوار الذي يكون يوم القيامة بينَ الأتباع والمتبوعين؛ فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ وهم الأتباع: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا﴾ يا ليت لنا ﴿كَرَّةٗ﴾ أي: رَجْعة وعودة إلى دار الدُّنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: حتى نتخلَّص منهم، ونَلْزم سبيل الحقِّ في الدُّنْيا، أي: إذا رجعنا إليهم. ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ في هذا اليوم العصيب يومَ القيامة، ولكنَّ هذا التمنِّي لا ينفعهم؛ لأنَّ الله قضى ألَّا رجوع إلى الدُّنيا، فلم يبقَ لهم إلَّا النَّدَم والحَسْرة!

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أراهم شِدَّة عذابه ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ من الشِّرك والسيئات ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ ندامات شديدة، وحُزنًا، وخَيبة، وخسرانًا. ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بعد دخولها؛ بل هم فيها خالدون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تمنِّي الكفَّار في الآخرة الرُّجوع إلى الدُّنيا.

وفيها: أنَّ خلود الكفَّار في النَّار أبديٌّ. وهذا من أدلَّة بُطلان قول مَن قال بأنَّ النَّار تفنى وتزول؛ وذلك لأنَّ خلود الماكث فيها يعنى خلودَه مكانه.

وفيها: قُدرة الله تعالى أن يقلب المعنويَّ في الدُّنيا حِسِّيًّا يوم القيامة، كما تصبح أعمال الكفَّار المعنويَّة حَسَراتٍ حِسِّيَّة مرئيَّة، وكما يأتي العمل الصالح في القبر على هيئة رجلٍ جميل المنظر طيّب الرائحة، والعكس للكافر والفاجر، وكما يؤتَى بالموت يومَ القيامة على هيئة كَبْش أمْلَح، وكما تصبح الأعمال المعنويَّة كالخُشوع والنِّفاق ذات وزن حِسِّيّ في كِفَّتى الميزان يوم القيامة.

وفيها: أنَّ من حَسْرة الكفَّار يوم القيامة أن يرَوا أعمال الخير التي عَمِلوها في الدُّنيا -كبِرِّ الوالدَين، وإعانة المحتاج، وإطعام الجائع، والمساعدة بالشفاعة والجاه- كلّها تذهب وتَضْمَحِل، وتُصبح سرابًا لا يستفيدون منها؛ لأنَّ الأساس فاسِدٌ -وهو الشِّرك- كما قال تعالى فيهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى التوحيد ودلائله، والشِّرك وعاقبته؛ ذكر نِعَمَه على عباده وإحسانَه لجميع الخَلْق؛ فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المراد: بنو آدم، ويشمل المؤمن والكافر **﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾** من أصناف الأطعمة التي خلقها الله لكم، ولا تحرِّموا منها شيئًا بأهوائكم. **﴿حَلَـٰلًا﴾** أي في حال كونه حلالًا مباحًا. و(الحلال): هو ما أباحه الشَّرْع.

﴿طَيِّبًا﴾ أي: في حال كونه طيِّبًا. و(الطَّيب): هو ما استطابه الشَّرْع والطبيعة السليمة، وما يُسْتَلَذُّ أيضًا. وقيل: هو الطاهر؛ لأنَّ النفس السليمة تكرَه النَّجِس وتَعافُه.

وقيل في معنى الآية: الحلال في الكَسْب الطيِّب، أي: في ذاته، وهو ضِدُّ الخبيث والرِّجْس.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ أي: لا تسلُكوا، وتقتدوا بـ ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: طُرُقه، ووساوِسه، وأعماله، وهذا يشمل الشِّرك وما دونه، ومن ذلك: تحريم الحلال الطيِّب؛ فإنَّه من أعظم خُطُوات الشَّيطان. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة. وقد أكَّد عداوته لنا؛ للتنفير عنه، والتحذير منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إبطال ما كان عليه أهل الجاهليَّة من تحريم الحلال.

وفيها: أنَّ تحريم المباحات هو من القول على الله بغير عِلْم، ومن الكبائر العظيمة؛ لأنَّه اعتداء على حقِّ الله في الحُكم والتحليل والتحريم.

وفي الآية: النهي عن التشبُّه بالشَّيطان، ويدخل في ذلك: التشبُّه به في الأكل والشرب، والأَخْذ والإعطاء بالشمال، والمشي في النَّعْل الواحدة -لأنَّها مِشية الشَّيطان- ونحو ذلك.

ومن خُطوات الشَّيطان: ما يَحمِل عليه بعضَ الناس عند الغضب، من تحريم زوجاتهم، وما أباحه الله لهم -من طعام وغيره-.

وفيها: بيان حقيقة العدُوِّ، والتأكيد على عداوته؛ ليُحذَر منه؛ فالعاقل إذا علم عداوة شخص فلا يمكن أن يتَّبعه.

وفيها: أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، إلَّا ما دلَّ الدليل على تحريمه.

وقد يكون محرَّمًا لذاته -كالمَيتة فلا تحلُّ إلَّا للمضطر- وقد يكون محرَّمًا لعارض، مثل: ما أُخِذ بالغَصْب والسَّرِقة والرِّبا والغش، فهو محرَّم -وإنْ كان في الأصل طيِّبًا- كالخُبز والماء واللَّبن ونحوها.

وفي الآية: أنَّه لا يجوز تناول الأشياء الضارَّة، ولو كانت حلالًا، كالتراب.

وفيها: وجوب أكل ما يُبقِي الإنسان على قَيد الحياة.

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾:

ثم بيَّن تعالى أفعال هذا العدوِّ الشَّيطانيّ، وفصَّل لنا في كيفيَّة إفساده؛ فقال:

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم﴾ أي: الشَّيطان، والخِطاب للناس ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: ما يسوء من المعاصي والسيِّئات، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ وهي: الكبائر، كالرِّبا والزِّنا، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من الكلام في الدِّين والأحكام، بغير عِلْم ولا يقين ولا ظنٍّ غالب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الشَّيطان لا يأمر بالخير؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، ومن ذلك: وَسْوَسته في قَلْب العبد بالسيِّئة، فإذا هممت بشَرٍّ فاعلم أنَّه من أوامر الشَّيطان.

وفيها: أنَّه لا يجوز الكلام في الأحكام الشرعيَّة بغير عِلْم أو يقين أو ظنٍّ غالب مبنيٍّ على الاجتهاد السائغ شرعًا. فلا يجوز أن يَنْسِبَ العبد إلى الله أشياء بمجرَّد الظَّنِّ، فيحرِّم ويجوِّز بدون عِلْم ويقين.

ويدخل في القول على الله بغير عِلْم: الخوض في تفسير القرآن والسُّنَّة بلا عِلْم، وإثبات ما لم يُثْبِته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصِّفات، أو نفي ما أثبته لنفسه من الأسماء والصِّفات.

ويدخل في ذلك أيضًا: كلام المنجِّمين والكُهَّان.

وفيها: أنَّ على المفتي الحذر من الفتوى بغير عِلْم، وأنَّه لا تجوز الفتوى بالظنِّ إلَّا عند تعذُّر اليقين، بشرط أن يكون مؤهَّلًا للنظر والاجتهاد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾:

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: للكفَّار، الذين اتَّبعوا خطوات الشَّيطان: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: اعملوا بما أوحى الله إلى نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، عقيدة وقولًا وفعلًا.

ولـمَّا كان الأمر بالشيء نهيًا عن ضده؛ كان قوله ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يتضمَّن: تَرْك ما يخالف وحيَ الله، من الشِّرك والضلال ومَوروثات الجاهليَّة.

﴿قَالُواْ﴾ أي: هؤلاء المشركون، في جوابهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾ أي: لا نتبع وحيَ الله، بل نتبع ما وجدنا ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: أسلافنا، من عبادة الأصنام وتحريم الطيِّبات ونحو ذلك.

وقد أبطل الله جوابهم هذا، بقوله ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ أي: الذين يقتَدون بهم ويتَّبعونهم ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي: ليس عندهم عقلُ رُشْدٍ يهديهم إلى الحقِّ، ولا يعلمون ما أُنزِل إليهم، ولا يَعملون عملَ المهتَدين، فكيف يَستحقُّ مثلُ هؤلاء الاتِّباعَ؟!

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام ورغَّبهم فيه؛ وحذَّرهم عقابَ الله ونِقمته؛ فقالوا: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فإنَّهم كانوا أعلمَ وخيرًا منَّا! فأنزل الله هذه الآية[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذَمُّ التعصُّب للآباء بغير هُدى من الله.

ويؤخَذ منها: أنَّ مَن تعصَّب لمذهب أو شيخ، مع مخالفة الدليل؛ ففيه شَبَهٌ من هؤلاء المذكورين في الآية.

وفيها: أنَّ كلَّ مَن خالف الحقَّ فليس بعاقل.

والعقل عقلان: عقل إدراك وتدبير المعيشة، وعقل رُشْد يُهتدَى به للحقِّ. وقد يكون الرجل من الأذكياء، لكن ليس عنده عقل رُشْد يهتدي به للحقِّ.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾:

ثم ضرب الله تعالى مَثَلًا للكفَّار، ودعاهم إلى الهدى؛ فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في غيِّهم وضلالهم وجهلهم ﴿كَمَثَلِ﴾ الراعي ﴿ٱلَّذِي يَنۡعِقُ﴾ يَصيح ﴿بِمَا لَا يَسۡمَعُ﴾ أي: يَصيح بالبهائم التي لا تفهم ما يقول ﴿إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾ أي: يقتصر إدراكُه على مجرَّد سماع الصوت، بلا فَهْم لمعناه. و(الدُّعاء) للقريب، و(النِّداء) للبعيد.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٠٥).

فالمعنى: أنَّ مَثَلَ ما هم فيه من الغيِّ والضلال والجهل، كالدوابِّ السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نَعَق بها راعيها وصاح بها وزجرَها، أي: دعاها إلى ما يُرْشِدها؛ لا تفقه ما يقول ولا تفهمه؛ بل إنَّما تسمع صوته فقط.

﴿صُمٌّ﴾: جمع (أصَمّ)، وهو الذي لا يسمع. ﴿بُكۡمٌ﴾: جمع (أبكَم)، وهو الذي لا ينطق. ﴿عُمۡيٌ﴾: جمع (أعمى)، وهو الذي لا يرى.

فهؤلاء لا يسمعون الحقَّ سماع قَبول واستجابة، ولا ينطقون به نُطق إذعان وقَبول، ولا يَرونه رؤيةَ المستَجيب الباحث عنه. ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: لا يفقهون أمر الله، ولا ينتَفِعون بعقولهم التي وهبَها الله لهم، فصاروا كمَن لا عقل له.

وقد ضرب الله تعالى هذا المَثَل للكفَّار في تقليدهم لآبائهم، وعدم استجابتهم للدَّاعي الذي يدعوهم إلى الحقِّ.

فشبَّههم بالراعي الذي يَصيح بغنَمه، يَدعوها ويناديها، وهي لا تعقل ما يقول، ولا تفهم معناه، وإنَّما تسمع أصواتًا تُقْبِلُ بها وتُدبِر، نتيجة التعويد والترويض، لا نتيجة الفهم والعقل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾:

ثم أكَّد تعالى أمرَه السابق بالأكل من الحلال الطيِّب، لكنَّه نادى المؤمنين هذه المرَّة؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتصدير الحكم بالنِّداء -كما تقدَّم مرارًا-؛ يدلُّ على الاهتِمام به، واسترعاءِ انتباه المُنادَى.

﴿كُلُواْ﴾: الأمر للامتنان والإباحة، ويكون للوجوب في حالة حِفظ النفس ﴿مِن﴾ وهي هنا لبيان جنس المأكول ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ وهو: ما كان حلالًا في ذاته، ومكتسَبًا بطريقة شرعيَّة. ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ (الشُّكر): هو الثَّناء على المُنعِم، وقد أمر به هنا بعد ذِكر النِّعمة بالـرِّزق. ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تعبدونه حقًّا، فاشكروه على نِعَمه. و(العِبادة): هي التذلُّل لله بالطاعة -مع كمال الحبّ- بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمن ينتفع بالأكل أكثر من غير المؤمن؛ لأنَّه يستعين به على طاعة الله.

وفيها: أنَّ الخبائث محرَّمة؛ لأنَّه لـمَّا أمر بالأكل من الطيِّبات دلَّ ذلك بالمفهوم على تحريم عكسها -وهي الخبائث-.

وفيها: أنَّ كلَّ ما يحصل للإنسان من مأكول؛ فإنما هو من رزق الله، وليس للعبد فيه إلَّا السَّبَب فقط.

وفيها: طلب الرِّزق من الله؛ لأنَّه هو الذي يرزق.

وفيها: وجوب شُكر النِّعمة.

وفيها: الإخلاص في الشُّكر؛ وهو مأخوذ من (اللام) في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ الشُّكر من العِبادة، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ»[1].

وفي الآية: رحمةُ الله للعباد؛ لأنَّه هيَّأ لهم الطيِّبات الكثيرة ليأكلوا منها.

وفيها: الرَّدُّ على من حرَّم الطيِّبات.

وفيها: تحريم الإضراب عن الطعام حتى الموت؛ لقوله: ﴿كُلُواْ﴾، والأمر للوجوب في حالة حِفظ النفس.

وفيها: أنَّ العبد يُؤجَر على الأكل بالنِّـيَّة الحسنة.

وفيها: الحذَر من الشُّبُهات في الأطعمة؛ لأنَّ الطيِّب هو الحلال الواضح البيِّن.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾:

ولـمَّا أباح تعالى لعباده الأكل من الطيِّبات -وهي كثيرة لا تنحصر-؛ بيَّن لهم المحرَّمات؛ لأنَّها قليلة محصورة؛ فقال تعالى:

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦)، وابن ماجه (١٧٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٥٥).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ (التحريم) هو: المنع، والمقصود منع الأكل. و(المَيْتة): ما مات حَتف أنفه من غير تذكية، والمقصود بها شرعًا: ما مات بغير ذكاةٍ شرعيَّة.

وفي الآية: تحريم المَيْتة، سواءً ماتت حتف أنفها، أو ذبحها كافر ليس من أهل الكتاب، أو ذُكِر عليها غيرُ اسم الله، ونحو ذلك. والمشهور عند العلماء: أنَّ لبنها وبَيضها نَجِس.

وكلُّ ما قُطِعَ من حيٍّ فهو كمَيْتته، فإن كانت مَيْتته حلالًا -كالحوت- فهو حلال، وإن كانت حرامًا نَجِسًا -كبهيمة الأنعام- فهو حرام نَجِس.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ هو: المسفوح الجاري. واستُثني من ذلك: الكبد والطُّحال؛ لحديث: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: فَأَمَّا المَيْتَتَانِ: فَالحُوتُ وَالجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالكَبِدُ وَالطِّحَالُ»[1]، وكذلك بقايا الدم في عروق المذبوح؛ لأنَّ تصفيتَه بالكليَّة عسير، وفيه حَرَجٌ على العِباد.

وقوله ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهو: الحيوان المعروف القذِر، وجميع أجزائه محرَّمة، وأَكْلُهُ ضارٌّ، ويُصاب آكِلُه بالأمراضِ، وذَهابِ الغَيْرة.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ذُكِرَ عليه اسمُ غير الله عند ذبحه، مثل أن يقول: «باسم اللَّات»، «باسم العُزَّى»، «باسم المسيح»، ونحو ذلك.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة للأكل، بشرط أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير مستَحِلٍّ، ولا يأكلها عن لذَّة، ولا خارج في معصية الله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوِز للحدِّ بالأكل أكثر من الضرورة، ومتعدٍّ الحلالَ إلى الحرام، وهو يجد بديلًا، وكذلك لا يكون متعدِّيًا على المسلمين بقطع الطريق. فإذا كان كذلك: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا عُقوبة. والأكل من المَيْتة للضرورة واجبٌ إذا كان يَهلك بدونه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يستر على العبد الذنب، ويقي من العذاب برَحمته التي وَسِعَت كلَّ شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الأكل من مَيْتة الآدميِّ عند الاضطرار.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٠).

وفيها: أنَّ الضرورة تُقَدَّرُ بقدَرها، فلا يجوز أن يأكل أكثر من القَدْر الذي يُزيل الضرورة، ويحمل منه معه ما يُوصِله إلى الطعام الحلال، فإذا بلغ الحلالَ ألقى الحرامَ.

وفيها: أنَّ التحريم حقٌّ لله تعالى.

وفيها: أنَّ جميع أجزاء المَيْتة والخنزير حرامٌ، شحمًا ولحمًا وعظمًا.

وفيها: تأثير الشِّرك في خُبْث اللَّحْم.

وفيها: أنَّ الضرورات تُبيح المحظورات.

وفيها: أنَّ صاحب سفر المعصية لا تُباح له المحظورات.

وفيها: عدم جواز الذبح تعظيمًا لأحد غير الله، فسواءً ذكرَ اسمَ الله على الذبيحة، أو ذكرَ اسمَ الله وغيره مقترنًا معه، أو ذبحَها تعظيمًا لشخص عند مروره -مثلًا-؛ فكلُّ ذلك حرام، ولا يجوز الأكل منها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾:

ولـمَّا بيَّنت الآيات السابقة إباحة أكل الطيِّبات، على خلاف ما كانت عليه كثيرٌ من المِلَل الأُخرى التي تُحرِّم ما أحلَّ الله؛ عاد السياق مرَّة أخرى إلى ذِكر اليهود وأخبارهم، الذين حرَّموا ما لم يحرِّمه الله افتراءً عليه، وكتَموا شَرْعه.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم: علماء أهل الكتاب، وعلى رأسهم: أحبار اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله عليهم في كتابهم من صِفةِ النبي ﷺ، وأمرِ نبوَّته.

وقوله ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي: ويأخذون على كِتمانه عِوَضًا حقيرًا من حُطام الدُّنيا، فقد كانوا يأخذون من العرَب الهدايا والأموال؛ معاونةً لهم على حَرْب النبيِّ ﷺ بكتْم شأن نُبُوَّته، وحتى لا تضيع رئاستُهم إذا اعترفوا به نبيًّا؛ لأنَّه ستلْزَمُهُم متابعتُه حينها.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون، البُعداء، لانحطاط مرتبتهم وسفولها ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: هذا الحرام والسُّحْت الذي أخذوه، يكون نارًا تتأجَّج في بطونهم يوم القيامة.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامَ رضا وتَلَطُّفٍ ورحمةٍ، وإنَّما يكلِّمهم كلامَ الغضبان الساخط عليهم، وهذا نوع من العذاب ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يُعْرِضُ عنهم في ذلك اليوم ويغضب عليهم، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُثني عليهم بخير، ولا يطهِّرهم من الذُّنوب، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد الألم، يصل ألَمُهُ إلى قُلُوبهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب نشر العِلْم الذي تتوقَّف عليه حياة الناس.

وفيها: وجوب معرفة الحقِّ.

وفيها: أنَّ عُقوبة الذين يكتُمون العِلْم، ويشترون به متاع الدُّنيا، أعظم من عقوبة الذين يكتُمونه فقط. وقد مضى في آيات سابقة عقوبة الكاتمين، وأنَّ الله تعالى يلعنهم ويلعنهم اللَّاعنون. وذكر في هذه الآية عقوبة الذين يكتُمون ويأخذون على كِتمانهم ثمنًا وعَرَضًا من الدُّنيا.

وفيها: فَضْل مَن بذل العِلْم لله دون مُقابِل، وهذا بخلاف مَن يكتمه بُخلًا به، أو لا يبذله إلَّا بمُقابِل دُنيويّ.

وفيها: العَدْل في الجزاء؛ لأنَّ عقوبة الآخِذين على الكِتمان بالنَّار بقَدْر ما أكلوه في الدُّنيا، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ هناك مَن يُزَكِّيه الله يوم القيامة، ويُثني عليه قولًا بمَدْحه، وفِعْلًا برَفْعه، وإظلاله، وإيتائه كتابَه بيمينه، وجَعْله على مِنبر من نور، ونحو ذلك من التكريم.

وفيها: غِلَظ عقوبة مَن كتم الحقَّ واشترى به ثمنًا قليلًا، وأنَّ إعراض الله عنه أمر شديد.

وفيها: أنَّ الإعراض وتَرْكَ كلامِ الرضا من الله تعالى يكون على الذُّنوب العظيمة، ومِن هؤلاء: مَن حلف على سِلعة كاذِبًا، ومَن حلف على يمين كاذِبة بعد العَصْر ليقتطع بها

مـال مسـلِم، ومَن مَنَعَ المحتاج ممَّا زاد عـن حاجته من الماء، والمُسْـبِلُ إزارَه خيلاء، والمنَّان بـما أعطى، والشـيخ الزاني، والملِك الكـذَّاب، والفقير المُختال المسـتكبِر، والعاقّ لوالدَيه، والمـرأة المتشـبِّهة بالرِّجـال، والدَّيوث الذي يُقِـرُّ الخبث في أهله، وغيرهـم ممَّـن جاء ذِكرُه في الأحاديث الصحيحة.

ومـن فوائد الآية: أنَّ مِن عذاب الكافريـن ما هو نفسيٌّ -كالإعراض- ومنه ما هو بدنيٌّ -كاحتراق الجلود بالنَّار-.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾:

ثـم قال تعـالى -مخـبرًا عـن الكاتمـين للحـق-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أي: أخذوهـا واختاروهـا، ورَغِبـوا فيها، وكذلك يفعل المشـتري مع السِّـلعة. و(الضلالة) هنا هـي: كَتْـم العِلْـم. وقوله ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: بدَل الهـدى، فجعلوا الهدى هـو الثمن المدفوع المبذول الذي تخلَّصوا منه، وكذلك يفعل البائع.

وقولـه ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: اختاروا العذاب على المغفرة؛ فكان العذاب جزاءً لكِتمانهم الحقَّ.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: استِفهام بمعنى التوبيخ لهم، والتعجُّب من حالهم، فما هو الـشيء الذي أصبرَهـم على النَّار يا تُرى؟! وأيُّ شيء جعل عندهم الجسـارة لاقتحامها؟ فما أجرأهم على العمل الذي يقرِّبهم إلى النَّار، وما أطول حبسَهم فيها!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ نشر العِلْم من أسباب المغفرة والنجاة من النَّار.

وفيها: أنَّ من عذاب كاتمي الحقِّ في جهنم: أن تكون النَّار في بطونهم على الحقيقة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾:

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشـارة إلى ما تقدَّم ذِكرُه من جزائهم وعذابهم. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بسببِ أنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، أو: كلّ الكتب المنـزَّلة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي:

ببيان الحقِّ وتحقيقه، ومنه: صِفةُ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّته وبِعْثته؛ لذلك فإنَّ كَتمه جريمةٌ يستحقُّ صاحبها العذاب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اختلفوا في معانيه، فحرَّفوها وبدَّلوها. وقيل: اختلفوا في أصله، فمنهم مَن آمن، ومنهم مَن كفر. ﴿لَفِي شِقَاقِۭ﴾ أي: خلاف ومُنازَعة ﴿بَعِيدٖ﴾ عن الحقِّ والصواب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّناء على كتب الله المُنزَّلة، وأنَّها نزلت بالحقِّ.

وفيها: إثبات العِلَل والأسباب.

وفيها: أنَّ المختلِفين بالباطل لا يجتمعون على شيء واحد ولا يلتقون؛ بل لا يزالون في مُنازَعة.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾:

ولـمَّا نَزَلَ تحويل القِبلة، وكان بعضُ الناس يظنُّ أنَّ مِن البرِّ لزوم التوجُّه إلى جهة معيَّنة في قِبلة العِبادة، وعدم تغييرها، وكان النصارى يتوجَّهون شرق بيت المقدِس، واليهود يستقبلون غرب بيت المقدِس؛ بيَّن الله تعالى أنَّ البرَّ ليس لزوم جهة معيَّنة شرقًا أو غربًا، ولكن البرَّ هو طاعة الله وامتِثال أوامره، والتوجُّه حيث وُجِّه المسلِم، والعمل بأركان الإيمان وشُعَبِه.

فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ (البرُّ): هو الخير الكثير، وهو: اسم جامع لكلِّ الطاعات وأعمال الخير المُقرِّبةِ إلى الله، والمؤدية إلى الجنَّة.

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وهذا أساس البرِّ، ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: صدَّق بالبَعْث وما بعدَه من الجزاء. وسُمي باليوم الآخر؛ لأنَّه ليس بعدَه يوم.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: وصدَّق أيضًا بذلك العالَمِ الغَيبيّ، الذي خلقه الله من نور، ووكَّلهُم بوظائفَ وأعمالِ السِّفارة بينه وبين خَلْقه.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾: اسم جِنس، يشمل كلَّ الكتب التي أنزلها الله. فمن البرِّ: الإيمان بها كلِّها.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: صدَّق بنبوَّتهم، وصِحَّة ما جاءوا به من عند الله، واقتدى بهم. ويدخل فيهم الرُّسل.

ولـمَّا ذكر أساس البرِّ؛ أتبعَه بذِكر بعض فروعه وأركانه العمليَّة؛ فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: أنَّ هذا البارَّ -بالإضافة إلى ما تقدَّم من إيمانه بالأركان- فهو يعطى المال لمستحقِّيه، مع تعلُّق نفسه بالمال وحُبِّه له، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وحبُّ الله في قَلْبه أعظم من حبِّ المال، وهو من الذين يُطعِمون الطعام على حُبِّه والرغبةِ فيه، ويحبُّ إيتاءَ المال في مرضاة الله.

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وهم: قرابة المعطِي بسببِ الولادة -من جهة أبيه أو أمِّه-. وبدأ بهم؛ لأنَّ حقَّهم آكد، وإعطاءَهم أولى؛ كما قال النبي ﷺ: «الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»[١]، ولـمَّا أَعتقت ميمونةُ بنتُ الحارث رضي الله عنها جاريةً لها، قال لها النبيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ؛ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكِ»[٢].

ونصح النبيُّ ﷺ أبا طلحة عندما تصدَّق ببستانِه بَيْرُحاء، أن يجعلَه في المحتاجين من أقاربه؛ فقال له: «وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فقسمَها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[٣].

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَن مات أبوه قبل بلوغه -ذكرًا كان أو أنثى- وسُمِّي

(١) رواه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٨٨٣).

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٣) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

يتيمًا لانفراده عن الأب، وينتهي اليُتْمُ بالاحتلام؛ كما صحَّ في الحديث: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»(١).

فيُعطَى هؤلاء الصِّغار الفقراء الذين لا والد لهم ولا كاسب؛ لِحفظهم من الضياع.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: جمع (مسكين)، وهو الذي أسكنه الفقر وأذلَّه، وليس عنده كفايته، فيُعطَى ما يسُدُّها.

وفي الحديث: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنِ المِسْكِينُ: الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»(٢).

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وآتى المالَ ابنَ السَّبيل، وهو: المسافر المنقطِع الذي انتهت به نفقتُه. فيُعطَى ما يُوصِله إلى بلده. و(السَّبيل) هو: الطريق. وسُمِّي ابن السَّبيل؛ لملازمته السَّبيلَ وبقائه فيه، ينتظر الفرج.

ويدخل في هذا أيضًا -من وجوه البِرِّ-: التكفُّل بنفقات مَن يسافر في طاعة ذهابًا ورجوعًا، ونفقة الضيف وإكرامه.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: الطالبين للإحسان، الذين اضطروا لمدِّ اليد لشِدَّة فقرهم. وقد يسأل بلسان المقال فيقول: «أعطني»، وقد يسأل بلسان الحال، فيأتي على هيئة رثَّة ذليلة تستدعي إعطاءَه.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: في عِتق الرقاب وتحريرها وفكِّها من الأَسْر. وهذا يشمل شراء العبيد والإماء ثم إعتاقهم، ومساعدة الأسرى على تحرير أنفُسِهم، وإعانة المُكاتَب -وهو العبد الذي اتفق مع سيدِه على أنْ يشتري نفسه منه بأقساط- فيُعانُ على تحرير نفسه.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتمَّ أفعالها وأقوالها، في أوقاتها، في خشوع وطُمأنينة، متأسيًا بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الفرض والنفل.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أعطى زكاة ماله لمستحِقِّيها، كاملةً، طيِّبة بها نفسُه. ويدخل في هذا أيضًا: تزكية النفس، وتخليصها من الرذائل والأخلاق الذميمة، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ أي: المتمِّمون للعهد إذا أعطَوه، المحترِمون له في حالة عَقده، فلا يَنكُثون ولا يغدِرون. ومَن أعطى عهد الله ثم نقضَه انتقمَ الله منه، ومَن أعطى ذِمَّة رسول الله ﷺ ثم غدر بها؛ فرسول الله ﷺ خَصْمُه يوم القيامة(١)، وفي الحديث: «قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»(٢).

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: كأنَّه قال: «وأخُصُّ الصابرين بالذِّكر»؛ لعُلُوِّ منزلتهم وشرَف عَمَلهم. وهذا التغيير في أسلوب الكلام أدعَى للانتباه. و(الصَّبر) ليس هو بذلَ شيءٍ، ولكنَّه تحمُّل شيءٍ ما. وما سبقَ من أعمال البِرِّ كان أفعالًا مبذولة، ولكن (الصَّبر) هو حَبْس النفس على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلِمة.

ثم ذكر ثلاثة مواطن عظيمة للصبر؛ لأنَّ مَن صبر فيها كان على غيرها وفي غيرها أصبر، وتَرقَّى فيها بذكر الشديد إلى الأشَدِّ؛ فقال:

﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: الفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض، وفَقد الأهل والولد والمال، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ أي: في وقت شِدَّة القتال في سبيل الله، وكثرة الضرب والطعن في حال الالتحامِ بالأعداء، واشتدادِ المعركة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ أي: في دعواهم الإيمانَ، وصدَّقوا اعتقادهم وأقوالهم بالأفعال؛ لأنَّ (الصِّدق) هو: مطابَقة الشيء للواقع.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي: المجتَنِبون عذابَ الله وسَخَطَه، بفِعْل ما ذكره في هذه الآية، فجمَعوا بينَ البرِّ والتَّقوى، فمَن عَمِلَ بهذه الآية: فقد استكملَ الإيمان، ونال رضا الرحمن.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٤٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩١).
(٢) رواه البخاري (٢٢٢٧).

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسيع الآفاق والمدارك في فَهْم الكلمات ذات المدلول الواسع، وعدم قَصْرها على معنى معين؛ ولهذا فائدة عظيمة في تقدير كتاب الله وإجلاله وتعظيمه، وإثراء التفسير بالمعاني الكثيرة.

وفيها: فَضْل الصَّدَقة في حال قِلَّة المال وتعلُّق النفس به، وكذلك الصَّدَقة بالشيء النفيس الذي يَعِزُّ على الإنسان إخراجُه.

وفيها: أنَّ إعطاء ذوي القُربى أَولى من إعطاء اليتامى والمساكين، إلَّا إذا كان في اليتامى والمساكين ضرورةٌ أشدُّ، تُرجِّح إعطاءهم.

وفيها: أنَّ إعطاء السائل من البِرِّ، وإن كان غنيًّا، ويكون المعطِي ممدوحًا، والمُعطَى مذمومًا.

وفيها: الوفاء بالعَهْد عُمومًا، سواءً كان مع الله، أو مع الناس في المعاملات، وحتى مع الكفَّار في المعاهَدات.

وفيها: أهميَّة موافقة العمل للقول، والتدليل على صِحَّة القول بالعمل.

وفيها: تذكير أصحاب النِّعَم بنِعَم الله عليهم، ووصيَّتُهم بالمحرومين منها، فيعطي المستقرُّ بوطنِه وبلدِه مَن حُرِم نِعمة الاستقرار واحتاج في الأسفار، وهكذا.

وفيها: أنَّ البِرَّ يشمل العِبادات القَلْبيَّة، والبدَنيَّة، والماليَّة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ ﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى المحرَّمات في المطاعم، وبعضَ المحرَّمات في أخذ المال بغير حقٍّ؛ ذكر تعالى هنا تحريم الدِّماء، وأنَّه شرع القِصاص للمحافظة عليها وصيانتها، وأنَّ من المال ما هو جائزٌ أخذُه لأولياء القتيل مُقابِلَ العفو.

وكان بنو إسرائيل ممنوعين من أخذ الدِّية وليس لهم إلَّا القِصاص، فأنزل الله التخفيف على هذه الأُمَّة في إباحة أخذ الدِيَّة مُقابِلَ العفو في قَتْل العَمْد، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا(١).

وكانت اليهود أيضًا لا تعدِل في قتلى قبائلها، فإذا قتلَ شخصٌ من قبيلة أعلى عندهم شخصًا من قبيلة أدنى؛ لم يقيموا عليه القِصاص ويكتفون بالمُفاداة، وإذا حصل العكس أقاموا عليه القِصاص، كُفرًا وبغيًا؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ على المؤمنين الأمرَ بالعَدْل في القِصاص، وألَّا يفعلوا فِعْل اليهود.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرِض وكُتِب في اللَّوح المحفوظ ﴿ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ أي: القيام به واستيفاؤه، والعَدْل فيه، في إزهاق النفس وما دونها. و(القِصاص): هو المساواة والمماثلة، ومُقابلة الفِعْل بمثله.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ أي: إذا قتلَ الحُرُّ حُرًّا قُتِل به. و(الحُرُّ): هو مَن ليس بمملوك. ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ أي: العبد يُقتَل بالعبد. و(العبد): هو المملوك. ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ أي: الأنثى تُقتَل بالأنثى. وقد كانوا في الجاهليَّة لا يقتُلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتُلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة؛ فجعل الله الأحرار في القِصاص سواءً في قَتْل العَمْد -رجالهم ونساءَهم-.

وذهب جمهور العلماء: إلى أنَّ الحرَّ لا يُقتَل بالعبد(٢)، كما ذهبوا إلى أنَّ المسلِم لا يُقتَل بالكافر، ولكن عليه إثمٌ عظيمٌ، وتلزمه الدِّيَة، يدفعها لأهل الكافر -إن كان من أهل الميثاق- واستدَلُّوا بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا يُقتَل مُسلِمٌ بكافِرٍ»(٣).

كما ذهب سائر أهل العلم: إلى أنَّ الجماعة لو قتلُوا واحدًا فإنَّهم يُقتَلون به، كما فعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٤).

ثم حثَّ تعالى على التراحُم والفَضْل؛ فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ أي: فأيُّ قاتل

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٨).

(٢) وذهب الإمام أبو حنيفة، وهو رواية عن الإمام أحمد، اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية: إلى أن الحرّ يُقتل بالعبد؛ لعموم قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» رواه أبو داود (٤٥٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وهذا القول هو الصواب. انظر: الشرح الممتع (١٤ / ٤٠).

(٣) رواه البخاري (٣٠٤٧).

(٤) انظر: «الموسوعة الفقهية» (١٤/ ١١٣)

عُفِيَ له من دم أخيه شيءٌ؛ سقطَ القِصاص. وقوله ﴿شَىۡءٞ﴾ يشمل القليل والكثير، فإذا تنازل أولياء القتيل عن القِصاص، ورَضُوا بمال يُدفَع إليهم، أو بالدِّية، أو بشيء منها، أو تنازَلوا بلا مُقابِل، أو تنازل بعضُهم دون البقيَّة؛ فكلُّ ذلك من العَفْو، ويَسْلم القاتل من القَتْل قِصاصًا.

ويكون الواجب حينئذٍ على أولياء القتيل إذا تنازَلوا عن القِصاص إلى مُقابِل، أن يُطالِبوا القاتل به بالمعروف، وهذا معنى قوله ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: يُطالِبونه على الوجه المعروف شرعًا، من غير تشديد عليه ولا عنف، وأن يستعملوا الإمهال والتسهيل.

وفي المُقابِل: يجب على القاتل أن يؤدِّي ما وقع الاتِّفاق عليه إلى أولياء القتيل بإحسان، أي: بسهولة، من غير مماطلة ولا تسويف، ولا بَخْس للحقوق، مع طيب النفس وطلاقة الوجه والقول الجميل، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

وقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جواز العَفو عن القاتل، والتنازُل عن القِصاص ﴿تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: تسهيل ورُخصة من الله.

وقد فرَضَ الله على بعضِ مَن كان قبلَنا من الأُمَم السابقة القِصاص من غير أخذ العَفو، وأوجبَ على بعضِهم العَفو بلا مُقابِل، وكان التخفيف من الله على هذه الأُمَّة المحمَّديَّة، بجواز تخيير أهل القتيل بينَ القِصاص وبين العَفو أو الدِّيَة.

وقوله ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: بهذا القاتل، الذي ينفعه العَفو في بقائه حيًّا، فيَسْلَم من القَتْل، ويستفيد أهلُ القتيل من الدِّيَة، إذا أرادوها.

وإذا تنازَلوا وقَبِلُوا؛ فلا يجوز لهم حينئذٍ الاعتداء على القاتل، وجاء التهديد على هذا بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾ أي: من أولياء القتيل ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد عَفوه، أو قبول الدِّيَة وأخذها؛ ﴿فَلَهُۥ﴾ أي: فللمُعتَدِي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: شديد مُوجِع، في الدُّنيا بقَتْله، وفي الآخرة بعذاب النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تنفيذ القِصاص من مقتضى الإيمان، وأنَّ تَرْك تنفيذ القِصاص نقص في الإيمان.

وفيها: أنَّ تنازل بعض الوَرَثة يُسقِط القِصاص، ويكون للبقيَّة نصيبُهم من دية قَتْل العَمْد.

وفيها: أنَّ الحرَّ يُقتَل بالحُرِّ، والعبد يُقتَل بالعبد، والأنثى تُقتَل بالأنثى، ولو اختلفت الصِّفات؛ فلو أنَّ حُرًّا عاقلًا غنيًّا حسيبًا وجيهًا، قتلَ حُرًّا فقيرًا أعمى جاهلًا وَضيعًا؛ فإنه يُقتَل به؛ لعُموم الآية.

وقد فَهِمَ بعضُ العلماء من ذكر القِصاص في الآية: أنَّه يَدخل فيه التماثُل في أداة القَتْل؛ فإذا قتلَه بخشبة قُتِلَ بها، أو بحَجَر قُتِلَ به، أو خنقَه بحَبْل خُنِقَ به، وهكذا. واستدَلُّوا على هذا: بحديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ يَهُودِيًّا رَضَّ رَأْسَ جَارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، «فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُضَّ رَأْسُهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ»(١).

وفيها: ردٌّ على مزاعم ما يُسَمَّى بـ«جماعات الرِّفق بالإنسان»، الذين يُطالِبون بإلغاء عقوبة القَتْل؛ فدعواهم مُصادِمَةٌ لشَرْع الله، ولا يجوز الاستجابة لهم ولا التأثُّر بمطالبهم؛ بل يجب التبرُّؤ منهم؛ فشَرْع الله فيه المصلحة والحِكْمة.

وفيها: أنَّ على المؤمنين تطبيق القِصاص، وعدم حماية القاتل، وأنَّ على أهله تسليمَه إلى أولياء القتيل؛ ليختاروا بينَ القِصاص، أو قبول الدية، أو العَفو.

وفيها: أنَّ القِصاص على القاتل أيًّا كان، ولا يجوز أن يُقتَل أحدٌ مكانه.

وفيها: أنَّ القَتْل بمجرَّده لا يُخرِج القاتل عن المِلَّة، ولا يُصيِّره كافرًا، وعلى هذا مذهبُ أهلِ السنة والجماعة، في عدم تكفير مرتكب الكبيرة بمجرَّد الذنب.

وفيها: أنَّه لا يُقتَل بالمقتول غيرُ قاتله، ولا يجوز التعدِّي على غيره بالثأر، وقَتْل الآخَرين معه من أقاربه أو قبيلته، كما كانت العرَب تفعل عُدوانًا وظُلمًا.

وفيها: تذكير القاتل وأهل القتيل بالعَلاقة العامَّة بينهم، وهي أُخُوَّة الإيمان والدِّين، وأنَّها لم تنتفِ بالقَتْل؛ بل هي باقية؛ كما قال تعالى: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ فيبقى التراحُم.

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٣)، ومسلم (١٦٧٢).

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾:

وبعد أن رغَّب تعالى في العفو، وتوعَّد على الغدْر؛ بيَّن الحِكْمة من تشريع القِصاص؛ لترسيخ الحُكم في نفوس العِباد، وترغيبهم في العمل به؛ فقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أي: في مشروعيَّته بقاءٌ لكم، وحِفظٌ لأرواحكم، وصيانةٌ من اعتداء بعضِكم على بعض؛ فبالقِصاص يرتدِع مَن أراد القَتْل ويخاف، ويكُفُّ مَن سوَّلت له نفسه الاعتداء؛ لأنَّ القاتل إذا عرَفَ أنَّه يُقتَل، والجارح إذا علِم أنَّه يُجرَح؛ كان ذلك سببًا لمنعه ممَّا يريد الإقدامَ عليه.

ولـمَّا كانت حِكْمة هذا التشريع عظيمة، وإدراكها يحتاج إلى عَقل وبصيرة؛ خاطب الله تعالى أصحابَ العقول الراجحة؛ فقال: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: تجتنبون الاعتداء، وتنتهون عن القَتْل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

دَعْوة أصحاب العقول للتدبُّر والتأمُّل في أسرار وحِكَمِ التشريع، واستعمال عقولهم في فَهم عِلَل الأحكام.

وفيها: بيانُ فساد مذهب الذين يُنادون بإلغاء عقوبة الإعدام، ونظرة متأنية من أولي الألباب، إلى بلاد أولئك ومجتمعاتهم، وما انتشر فيها من الجريمة، وعمَّ فيها من الاعتداء؛ كفيلةٌ بمعرفة فَضْل هذه الشريعة وأحكامها، وقُدرتها على ضَبْط النفس وحماية الأبرياء.

وفيها: أنَّ مَن ارتاب في حُكم شرعيٍّ، ولم تطمئن إليه نفسُه، أنَّ عليه أن يعيد النظر والتأمُّل في أحكام الشريعة، حتى يهدي اللهُ قَلْبَه، ويُثبِّته على الحقِّ.

وفيها: مثال واضح على إعجاز القرآن البلاغي والتشريعي؛ ففي موت القاتل حياة المجتمع، وبقَتْل هذا يحيا آخرون، وكان التعبير عن هذا عند العرب: «القَتْل أنفى للقتْل»، فجاء التعبير القرآنيُّ عن ذلك بأبلَغ وأفصَح وأوجز عبارة؛ فقال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾:

وبعد أن ذكر الله تعالى حُكم القِصاص المتعلّق بالموت؛ ذكر حُكمًا آخر متعلِّقًا به أيضًا، فقال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فُرِضَ عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا نزلت به أسبابُه ومقدِّماتُه وأعراضُه، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ (الخير) يُطلَق على: المال الكثير.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وهي في الأصل: العَهْد إلى الغير بالأمر المهمّ، وهذا ما يُنصَح به مَن نزل به الموت، فيفعله لفظًا أو كتابة، ويُشهِد عليه.

فيكون وصيّة شرعيّة ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهما: الأم والأب، ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: مَن سواهم من الأقارب المقرّبين، كالإخوة والأعمام ونحوهم. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالعَدْل الذي عرفه الشَّرْعُ وأقرَّه.

﴿حَقًّا﴾ مؤكَّدًا ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الذين يتّقون عذاب الله، بامتِثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والوصيّة للوالدَين في هذه الآية منسوخة بآيات المواريث التي نزلت في سُورَة «النِّساء».

وإنّما جرَت الوصيّة للوالدَين والأقربين في أول الأمر؛ لأنَّ أهل الجاهليّة كانوا يُوصون للأبعدين -طلبًا للفخر والرِّياء- ويتركون الأقربين الفقراء، فأمر الله تعالى بعدم نِسيان الوالدَين والأقربين، ثم أنزل حقوقًا مفروضة وأنصِبة معلومة، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا تجوز الوصيّة للوَرَثة الذين نصَّت الشريعة على توريثهم. وبقيَت الوصيّة للأقربين وغيرِهم مستحبَّة من الثلُث.

وذهب جماعةٌ من أهل العِلْم إلى أنَّ الوصيّة للوالدَين والأقربين في الآية مُحكَمة؛ قالوا: وهي -وإن كانت عامّة- فمعناها الخصوص، والمراد بها من الوالدَين: مَنْ لا يرِث، كالأبوَين الكافِرين، ومَنْ هو في الرِّقّ، ومن الأقربين: مَن عدا الوَرَثة منهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الأقارب من غير الوَرَثة يُوصَى لهم من الثلُث، إذا كان المال كثيرًا، بحَسَب درجة قراباتهم وأحوالهم.

وفيها: أنَّ مَن حضره الموت وقد بَقِيَ عقلُه ووعيُه؛ فإنَّ وصيَّته تَصِحُّ بالثلُث فأقلّ، وهو المعروف الذي عَرَفَه الشَّرْع.

والوصية لا تجوز بأكثر من الثلث، ولا تصح لوارث، إلا أن يشاء الورثة المرشدون بنصيبهم.

ويجب على المُوصِي إذا عَرَفَ أنَّ وصيَّته مخالفة للشرع أن يغيِّرها؛ لتكون مطابَقة للشرع. ويجوز له أن يُحدِث فيها ما شاء من التغيير بحَسَب ما يتبيَّن له من الحِكْمة والمصلحة.

وتجب الوصيةُ في حالات، كما لو كان عندَه حقوق تضيع لو لم يُوصِ.

وفي الآية: تسمية (المال) خيرًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يجب أن يكون مجموعًا من حلال.

وفيها: أهميَّة صِلة الرَّحِم.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالوصيَّة؛ حذَّر الشُّهَداءَ عليها وغيرَهم من التلاعُب بها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أي: قول المُوصِي، أو ما أوصى به، فغيَّره بأيِّ نوع من التغيير، سواءً كان بإنكار الوصيَّة من أصلها، أو بالنقص فيها، أو بالزيادة عليها، أو بإدخال مَن لم يُوصِ إليهم المُوصِي، أو حَذْف بعض مَن أوصى إليهم، أو التقليل من نصيب البعض، ونحو ذلك.

﴿بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ وعَلِمَه، وتحقَّقه؛ ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ﴾ أي: إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾، سواءً كانوا شُهَداء، أو أولياء، أو أوصياء؛ فالإثم عليهم، ويكون أَجْر الموصِي قد وقع على الله، ولا ذنب له بتغيير هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال المُوصِين، والمبدِّلين ﴿عَلِيمٞ﴾ بنيَّاتهم، وما يفعلونه.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾:

ولـمَّا كان بعض المُوصِين قد يخالِف الشَّرْعَ في وصيَّته، خطأً أو عمدًا؛ فقد استثنى الله تعالى من إثم التبديل مَن يتدخَّل لإصلاحها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾ أي: مَن

خشيَ أو ظنَّ من موصٍ مخالفةَ الشَّرْع، أو عَلِمَ بأنَّه خالفَ الشَّرْع ﴿جَنَفًا﴾ خطأً من غير قصد، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ظُلْمًا ومخالفة عن قصد، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أمَر المُوصِي بالعَدْل، وأن يُصلِح وصيَّته قبل موته، أو يُعَدِّل فيها بعد موت المُوصِي؛ لتكون موافقة للشرع، جامعة بينَ مقصود المُوصِي وحُكم الشَّرْع.

وحيث إنَّه قد يقع تنازُعٌ بينَ المُوصِي والوَرَثة؛ فإنَّه يتدخَّل أيضًا ليُصلِح بينهم بما يوافِق الشريعة، ويتوسَّط بينَ الوَرَثة والمُوصَى إليهم، ليُصلِح بينهم إذا حدث تنازُع.

وهو في كلِّ هذا مأجور، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فلا حرج ولا ذنب على هذا المُصلِح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أخطأ، ولكلِّ مذنب إذا تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾: ذو الرحمة الكثيرة الواسعة بخَلْقه.

وفي الآيتين من الفوائد:

أنَّ العِلْم بالوصيَّة يكون بالسمع، لكن لا يُقتصَر عليه؛ فقد يكون بالكتابة أيضًا، أو بالإشارة، ونحوها.

وفيها: أنَّ مَن فعلَ ما يقدِر عليه من الخير؛ يُكتَب له أجرُه، ولا يضرُّه مَن اعتدَى على عمله.

وفيها: أنَّ التبديل في الوصيَّة إذا وقع بطريق الخطإ؛ فلا إثم فيه.

وفيها: ضرورة مُراعاة الدِّقَّة والإتقان في نقل الوصيَّة وتنفيذها.

وفيها: أنَّ مَن عَلِمَ بالتبديل والتغيير في الوصيَّة؛ فلا بُدَّ أن يُنْكِر.

وفيها: أنَّه لا يجوز لمن ليس له حقٌّ في الوصيَّة أن يأخذه، إذا عَلِمَ أنَّه نتيجة التبديل، ولو لم يكن هو المبدِّل.

وفيها: أنَّ الوصيَّة إذا اشتملت على منكَر -كما لو أوصى بعمارة معابِد الشِّرك وأضرحة الموتى، وطباعة كتب الكُفر والبِدعة، ودعم أنشطة الفِسْق والفجور-؛ فلا يجوز تنفيذُها، بل يجب تبديلها لتكون مُوافِقة للشرع.

وفيها: إشارة إلى مغفرة الله ورحمته بمَن تنازل عن شيء من حقِّه، ليحصل الصُّلْح مع الآخَرين، سواءً كان من الوَرَثة، أو المُوصَى إليهم.

وفيها: فضيلة الإصلاح، وما فيه من المصالح، من: دَرْء الإثم عن الموصِي، أو تخفيفه، وإزالة العداوة والشحناء بينَ الموصِي والوَرَثة، أو بينَ الوَرَثة والموصَى إليهم.

وفيها: أنَّه على الوليِّ -الذي يقوم على الوصيَّة- الرُّجوع لأهل العِلْم لمعرفة حكم الوصيَّة، وهل فيها جَنَف أم لا، وكيف يكون التبديل عند الحاجة إليه، وتعيين ما هو أقرب الأشياء إلى قَصْد الموصِي، وهل يجوز صَرْفها في وجهٍ أفضلَ مِن الوجه المُوصَى به؟ ونحو ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حُكم القِصاص، وما فيه من إسلام القاتلِ نفسَه للقَتْل، وأتبعَه بذِكر الوصيَّة، وما فيها من إخراج المال -وهو أمر شاقٌّ على النفس-؛ أتبع ذلك بذِكر الصيام، وهو أقلُّ مشقَّة ممَّا تقدَّم، وقد مضى أيضًا قبلَه في هذه السُّورَة ذِكرُ الإيمان والصَّلاة والزكاة؛ فنادى المؤمنين بهذا الرُّكن الرابع؛ فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: ناداهم بالإيمان؛ تنبيهًا لهم على استماع ما يُلقَى إليهم من التكليف.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: فُرِض عليكم -والذي فرضه هو الله عَزَّوَجَلَّ- ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ وهو: التعبُّد لله بترك المُفَطِّرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: كما فُرض على الأُمَم السابقة ممَّن قبلنا، كبني إسرائيل وغيرهم. والمقصود: تشبيه الفرضيَّة بالفرضيَّة، وليس الكيفيَّة بالكيفيَّة؛ فصيامنا قد يختلف عمَّن قبلنا في تفاصيله، ولكن المشابَهة في الوجوب والحُكم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله، وتخافون عقابه، وتجتنبون معصيته، وهذه هي الحِكْمة من الصيام. وفيه مصالح أخرى تأتي تبَعًا؛ كالفوائد الصِّحيَّة، والشعور بحال الجوعَى،

وتوحيد الأُمَّة، وأجر تفطير الصائمين، والتضييق على الشَّيطان، وتقليل تسلُّطِه على الإنسان، وجعل الطاعة تجرُّ إلى طاعة، وإضعاف الشهوة، وغير ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة المنافسة عند هذه الأُمَّة؛ لتُحَصِّلَ جميع فضائل مَن سبقَها، وتَزيد عليها.

وفيها: أهميَّة الصيام؛ لأنَّ الله صدَّره بالنِّداء بالإيمان؛ فتَرْكُه مُخِلٌّ بالإيمان.

وفيها: تسلية المؤمنين بذِكر وجوب الصيام على مَن قبلهم؛ ليُهوِّنه عليهم؛ إذ إنَّ الاشتراك في الشيء الشاقِّ يخفِّفه.

وفيها: فَضْل هذه الأمة، وأنَّها جمعت إلى فضائلها فضائلَ مَن تقدَّمها.

وفيها: فَضْل التَّقوى، والأَخْذ بالأسباب الموصِلة إليها.

وفيها: أنَّ كلَّ سبَب يُوصِل إلى فضيلة؛ يأخذ حُكم تلك الفضيلة.

وفيها: أنَّ تشبيه صيامِنا بصيام مَن قبلنا، لا يلزم منه المشابَهة في التفاصيل، وقد قيل: إنَّ صيامهم كان ثلاثة أيَّام من كلِّ شهر، وصيامنا انتقل من الأخفِّ إلى الأثقل في عدد الأيَّام. وكان الله تعالى قد فرض على هذه الأُمَّة صيام يوم عاشوراء، ثم نُسِخ وجوبُه بصيام شهر رمضان.

وفي الآية: أنَّ علينا ألَّا نتلاعب بالصيام، كما تلاعب مَن قبلنا حين فُرِضَ عليهم. وقد قيل: إنَّ النصارى لـمَّا شقَّ عليهم الصوم في الصيف؛ نقلوه إلى الربيع، وزادوا عليه عشرة أيَّام! فعلينا أن نصومَ كما أمر الله، بلا تبديل ولا تغيير.

وفيها: أنَّ ذِكر عِلَّة الحكم والحِكْمة منه؛ يحُثُّ النفس على العمل به.

وفيها: أنَّ فائدة الصيام للعباد: هو رجاء تحصيل التَّقوى، وليس لله فيه حاجة؛ فالله غنيٌّ عن عباده، وعن أعمالهم.

وفيها: أنَّ معنى التَّقوى موجود في الصيام؛ لأنَّ معناها: رجاء ما عند الله، بفِعْل المأمور -وهو الإخلاص فيه- وتَرْك المحظور -وهي المفطِّرات- خَشية العقاب.

وفيها: أنَّ التَّقوى لُبُّ الأعمال وثمرتها. وهي مرتبطة بالبِرِّ، كما في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والقِصاص مرتبط بالتَّقوى، كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. والوصيَّة مرتبطة بالتَّقوى، كما في قوله فيها: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾:

ثم هَوَّنَ الله تعالى الصيام على نفوس المؤمنين، بقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهي أيَّام شهر رمضان، و﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾: جمع قِلَّةٍ، وذلك لتقليله وبيان أنَّه ليس بأشهُر ولا سنوات؛ وإنَّما هي أيَّامٌ سَرْعان ما تنقضي.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ يا أمَّة الإسلام ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضًا يَشُقُّ به الصيام، أو يتأخَّر بالصيام الشفاءُ منه، أو يَفُوتُ به العلاج، أو يزيدُ به المرض، أو يحدُث به. أو كان ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بشرطِ أن يكون سفرَ طاعة، أو سفرًا مباحًا، لا سفرَ معصية؛ ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فواجبٌ عليه الصيامَ أيَّامًا أخرى، بعدد التي أفطرها من رمضان للعُذر، متتابعةً أو متفرِّقةً.

ويُلحَق بالمريض: الحامل، والمرضِع؛ فيجوز لهما الفِطر، وعليهما القضاء فقط -على الراجح- سواء لأجل نَفْسَيْهما أو وَلَدَيْهما؛ ففي الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ الصَّوْمَ وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الْحَامِلِ أَوِ الْمُرْضِعِ الصَّوْمَ»(١).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يستطيعون الصوم ويقدِرون عليه: ﴿فِدْيَةٌ﴾ يفدون بها أنفُسَهم من الصيام، مقدارَ ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: لكلِّ يوم، فيُغدِّيه أو يُعَشِّيه.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: زاد في الفِدْية على القَدْر الواجب، أو صام مع إخراج الصَّدَقة؛ ﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك التطوُّع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ بالثواب.

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٠٨)، والترمذي (٧١٥)، والنسائي (٢٢٧٤)، وابن ماجه (١٦٦٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٥).

﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ يا أيُّها القادرون ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الإفطار والفِدْية، ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ما في الصيام من الفضيلة والفائدة العظيمة.

وتخيير الصائم القادِر بينَ الصيام وبين الإفطار مع الإطعام، كان في أول الأمرِ، ثم صار منسوخًا؛ لحديث سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ قال: «لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾؛ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فَنَسَخَتْهَا»[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ما لا يُخرِجُ الشخصَ عن حدِّ الصِّحَّة إلى المرض؛ لا يُبيح له الفِطر، كالصُّداع اليسير، والسُّعال الخفيف.

وفيها: رحمة الله بعباده في فَرْض ما يقدِرون عليه، دون أن يخرج عن وسعِهم.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير؛ لأنَّ المرض والسفر مَظِنَّة المشقَّة، لكن الفِطرَ متعلِّقٌ بالسفر لا بالمشقَّة؛ فلو كان سفرُه مريحًا، فله أن يترخَّص بالفِطر. أمَّا المريض: فإنْ ضرَّه الصوم فيَحرُم عليه، وإن شقَّ عليه كُرِه له الصوم.

وفيها: أنَّ العاجز عن الصيام، أو الذي يَشُقُّ عليه مشقَّةً كبيرة -لِكِبَرِ سِنِّه-؛ فإنه يُفطِر ويُخرج الفِدْية عن كلِّ يومٍ أفطرَه.

وفيها: تفاضُل الأعمال، وأنَّ بعضها أفضل من بعض.

وفيها: أنَّ مِن بركة العِلْم معرفة الأفضل؛ ليفعلَه.

وفيها: أنَّ قضاء الصوم بصيام الأيَّام الباردة عن الأيَّام الحارة لا بأس به؛ لأنَّه داخلٌ في عُموم قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٠٧)، ومسلم (١١٤٥).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾:

ثم بيَّن تعالى شيئًا من فضائل رمضان؛ فقال:

﴿شَهْرُ﴾: سُـمِّيَ الشهر بهذا؛ لاشتهاره وهو: مدَّة ما بينَ الهلالَين. ﴿رَمَضَانَ﴾: مشتق من (الرَّمَض)، وهو: شِدَّة الحرارة؛ لأنَّه صادفَ وقت حرٍّ شديد أولَ ما سُمِّيَ عند العرَب.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: تلك الأيَّام المعدودات المفروض صومُها، هي الشهر الـذي أُنـزِل فيه القـرآنُ جملةً واحدة، مـن اللَّوح المحفوظ إلى السـماء الدُّنيـا، أو ابتدأ نزول القرآن فيه.

وفي حديـث واثلة بن الأسْـقَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «أُنْزِلَتْ صُحُـفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِـتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ»(١).

فرمضان هو الشـهر العظيم الذي اختارَه الله لإنزال القرآن العظيم فيه، وكذلك الكتب الإلهيَّة المذكورة.

و(القرآن): مَصْدَر -مثل «الغُفران» و«الشُّكران»- بمعنى: المقروء.

﴿هُدًى﴾ أي: هاديًا للنـاس، مـن الـشِّرك إلى التوحيـد، ومن الضلالـة إلى الهداية، ومـن الجهـل إلى العِلْم؛ فهو هداية ودلالة، يسـتَدِلُّون به على ما ينفعهـم في دينهم ودُنياهم. وقوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ يدلُّ على أنَّه يمكن أن يهتدي به الجميع -المؤمن والكافر- هداية عِلْميَّة وعَمَليَّة.

﴿وَبَيِّنَـٰتٍ﴾: هذا مزيد مَدْحٍ للقرآن، وبيان أنَّ فيه دلائل وحُجَجًا وآياتٍ بيِّنات واضحة ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الدلالـة والإرشـاد ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾: مـا يفـرِّق بـه بينَ الحـقِّ والباطل، والحلال والحرام، والخير والشرِّ.

---

(١) رواه أحمد (١٦٩٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٧٥)، وفي الأوسط (٣٧٤٠)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٥٧٥)، وضعفه محققو المسند، وهو الأقرب.

وقوله ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أي: حضرَ أو عَلِمَ، وقيل: شَهِد هلال الشهر، ويدخل فيه: من ثَبُتت عنده رؤيتُه بخبر الثقة. ﴿مِنكُمُ﴾ أيّها المؤمنون، هذا ﴿ٱلشَّهۡرَ﴾ أي: رمضان، وكان حاضرًا مقيمًا صحيحًا، ليس عندَه مانع ولا عذر يمنعه من الصوم: ﴿فَلۡيَصُمۡهُ﴾ أي: فليصُم نهارَه.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ في شهر رمضان -وإن كان مقيمًا- ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ أي: في أثناء سفرٍ، فأفطر؛ ﴿فَعِدَّةٞ﴾ أي: فعليه صيامُ قضاءٍ ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: من غير رمضان، بعدَد الأيَّام التي أفطرها.

وهذه الآية ناسخةٌ لِمَا تقدَّم من تخيير المقيم الصحيح بينَ الصيام وعدَمه مع الفدية؛ فصار الصيام بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ واجبًا على كلِّ مُكلَّفٍ غيرِ معذور بتَرْك الصيام، ونُسِخ التخيير.

لكنَّه أعاد هنا ذِكرَ المريض والمسافر؛ ليبيِّن أنَّ عُذرَهما ليس بمنسوخ، وأنَّه يجوز لهما الفطر، ثم القضاء.

ولا بُدَّ من اعتقاد جواز الفِطر في السفر، وإن كان السفر ليس به مشقَّة؛ فالفِطر متعلِّق بالسفر، لا بالمشقَّة، ولا يجوز الإنكار على مَن أفطر في السفر، ولا يحقُّ لأحدٍ منعه من الأَخْذ برُخصة الله.

وقد اختلف العلماء: هل الأفضل الفِطْر في السفر، أم الصيام؟

والتحقيق : أن لذلك حالات:

الحال الأولى : إذا كان الصومُ والفطر سواء، بمعنى أن الصوم لا يؤثر عليه، ففي هذه الحالة يكون الصومُ أفضل .

الحال الثانية : أن يكون الفطرُ أرفق به، فهنا نقول : إن الفطرَ أفضل، وإذا شقّ عليه بعض الشيء صار الصومُ في حقه مكرُوهًا ؛ لأن ارتكاب المشقّة مع وجود الرخصة يُشعر بالعدول عن رخصةِ الله عز وجل .

الحال الثالثة : أن يشق عليه مشقة شديدة غير محتملة، فهنا يكون الصومُ في حقّه حرامًا.

وقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾: فيه بيان سبَب التخفيف والرُّخصة، للمريض

والمسافر، وأنَّ الله يريد التسهيل على المسلمين، وتيسير عباداتهم عليهم. و(الإرادة) المذكورة هنا هي: الإرادة الشرعيَّة.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: لا يريد التشديد عليكم، ولو أراده لأوجبَ عليكم الصوم في السفر والمرض.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: ويريد الله منكم -أيُّها المؤمنون- إكمال عدَد أيَّام شهر رمضان، فأمركم بالقضاء؛ لاستدراك ما فات من عِدَّة رمضان.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: ولتذكروا الله بالتكبير، فتقولوا: «الله أكبر» ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: تكبِّروه على هدايته إيَّاكم إلى هذه العِبادة، وتكبروه عند انقضاء الشهر، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال، إلى فراغ خطبة العيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تقوموا بشُكر ربِّكم على نِعَمه. و(الشُّكر) هو: الثَّناء على المُنعِم.

وفيها: إرادةُ اليُسرِ لكم، وإكمال عِدَّة شهركم، وإباحة الرُّخصة لكم، وأنَّه علَّمكم أمرَ دينِكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ثبوت الشهر يكون بالرؤية الشرعيَّة؛ لقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ﴾، ولقوله ﷺ: «لاَ تَصُومُوا حَتَّى تَرَوُا الهِلَالَ، وَلاَ تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ»[1]؛ فيثبت دخول الشهر بالرؤية البصريَّة للثقة، وبالسماع عن خبر الثقة.

وفيها: أنَّ تحديد فضائل الأيَّام والشهور هو من اختصاص ربِّ العالمين وحدَه، وليس لأحدٍ من البشر ادِّعاءُ فضيلة أو خاصيَّة شرعيَّة لأيِّ وقت بدون دليل.

وفيها: العَلاقة الوثيقة بينَ الصيام والقرآن، بما يدفع المسلِم إلى مزيد العِناية بالقرآن في شهر الصيام.

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٦)، ومسلم (١٠٨٠).

وفيها: مشروعيَّة تكبير الله عند نهاية العِبادات التي ثبتَ بالدليل التكبيرُ بعدها؛ كالتكبير في أدبار الصلوات، والتكبير بعد إكمال عدَّة رمضان.

واستحبَّ جمهور العلماء التكبير ليلة دخول عيد الفِطْر؛ لهذه الآية.

وفيها: أنَّ الهداية تشمل هداية العِلْم والعمل، فيهدينا الله بتعليمنا، ويهدينا ببيان كيفيَّة العمل بما شرع، وكيف نستدرك ما فات.

وفي تذكير النفس بأنَّ الله أكبر بعد الفراغ من العِبادة: لئلَّا تُصاب بالعُجْب، وفي التكبير إعلان لعظمة الله وكبريائه، وأنَّه الكبير ذاتًا وصفاتٍ.

وفيها: أنَّه لا يُصام الشهر قبل ثبوت دخوله، وأنَّ صيام يوم الشَّكّ -وهو اليوم الذي لا يُدرَى: هل هو الثلاثون من شعبان أو الأول من رمضان- هو عملٌ غير مشروع؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾، فإذا لم نَشْهَده لم نصمه. وقد قال عمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ صَامَ اليَوْمَ الذي يُشَكُّ فيهِ؛ فَقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

وفيها: أنَّ الشريعة مبنيَّة على اليُسْر، ورَفْع الحَرَج.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير.

وفيها: أنَّ الله لا يُشَرِّع شيئًا إلَّا لحِكْمة.

وفيها: الاهتِمام بقضاء رمضان، والنِّيَّة له، وعدم تأخيره إلى رمضان الذي بعدَه؛ لأنَّ الله يريد منَّا المسارعة بإكمال العِدَّة.

وفيها: أنَّ التمكُّن من إتمام العِبادة نِعمة تستوجِب الشُّكر.

وفيها: أنَّ ابتداء التكبير في عيد الفطر يكون بنهاية آخر يوم من رمضان، وغروب شمسه، وبداية ليلة العيد.

---

(١) رواه البخاريُّ معلَّقًا (٣/ ٢٧)، ووصلَه: أبو داود (٢٣٣٤)، والترمذي (٦٨٦)، والنسائي (٢١٨٨) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٤٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٩٦١).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

ولـمَّا كان الصيام مَظِنَّةً لاستجابة الدُّعاء؛ ذكر تعالى شأنَ الدُّعاء في ثنايا آيات الصيام؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿عِبَادِي﴾ أي: المؤمنون ﴿عَنِّي﴾ أي: عن قُربي وبُعدي؛ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي: فقُل لهم: إنِّي قريب منهم، بالعِلْم والإحاطة، والإجابة والسمع لدعائهم. ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ أي: أسمعه، وأقبَل دعاءَه، وأُسرِع تلبيته ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ أي: صدقَ في دُعائه إيَّاي، ودعا بقَلْبٍ حاضرٍ، وتحقَّقت شروط الدُّعاء -كالإخلاص فيه- وانتفت موانع الإجابة -كأكل الحرام، والاعتداء في الدُّعاء-.

وقد بيَّن تعالى في آيةٍ أخرى ما يخصِّص هذه الآية؛ فقال مبيِّنًا تقييدَ إجابة الدُّعاء بمشيئته: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾.

وقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: فليُجيبُوا لي، وليَسْتَسْلِموا لأوامري، وينقادوا لشرعي. فـ(الإجابة) من العبد: الطاعة والانقياد، ومن الله: الإثابة والعطاء.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي: بقُربي وإجابتي. و(اللام) في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ وفي قوله ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ هي لام الأمر، فأمر تعالى عباده بالإيمان به وطاعته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يهتَدون. ومن معاني (الرُّشْد): حُسنُ التصرُّف.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضلُ دعوة الصائم. وقد فَهِمَ بعضُهم من ذِكر الدُّعاء في آخر آيات الصيام: أنَّه ينبغي الاجتهاد في الدُّعاء في آخر الصيام عند الإفطار.

وفي الآية: أنَّ إجابة الدَّعوة أعَمُّ من إجابة مسألة الداعي المعيَّنة؛ لأنَّ الله لا بُدَّ أن يجيب دعوة الداعي بوجهٍ من الوجوه؛ فإمَّا أن يُعجِّل له مسألته. وإمَّا أن يؤخِّرها إلى حينٍ، ليزداد الداعي دعاءً وإلحاحًا، فيزداد أجرًا وثوابًا. وإمَّا أن يدفع عن الداعي من السُّوء ما هو أعظم فائدة له من مسألته المعيَّنة التي سألها؛ أو أن يدَّخِر له دعوته إلى يوم القيامة، فيعطيَه عليها

أجرًا وثوابًا، هو أعظم للداعي من إجابة مسألته المعيَّنة؛ ففي الحديث: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ولاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: «الله أكثَرُ»[1].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ داعٍ يُستجاب له، لكن تتنوَّع الإجابة: فتارةً تقع بعين ما دعا به، وتارةً بِعِوَضه»[2].

وفيها: أنَّ الدُّعاء سببٌ قويٌّ لحصول المطلوب. ومن سُنَن الله الجارية: أنَّ الأمور تقع بأسباب، ولو كان الدُّعاء لا يؤثِّر في حصول الشيء لَمَا أمر الله به؛ لأنَّ الله حكيم، لا يأمرُ عبادَه بشيءٍ لا فائدة فيه.

والدُّعاء إذا لم يُستَجَب للداعي؛ فإمَّا أن يكون ذلك بسببِ فَقْدِ شرطٍ في الدُّعاء -كحضور القَلْب، وعدم غفلته ولَهوه- أو يكون لوجود مانع -كأكل الحرام- أو لأنَّه لا مصلحة للداعي في إجابة مسألته المعيَّنة، فيُعطيه الله عِوَضها، وقد يكون التأخيرُ هو الأصلح له في الدُّنيا والآخرة.

والدعاء عبادةٌ في ذاته؛ فيؤجَر عليه الداعي، سواءً أُجيب أم لا، وهو دليلٌ على عبوديَّةِ العبد لربِّه، وإظهارِ حاجته إليه، وافتقارِه وذُلِّه بينَ يدَيه، ومَن لم يسألِ اللهَ يغضَبْ عليه.

وفي الآية: كَرَمُ الرَّبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعظيمُ عطائه.

وفيها: فَضْل الدُّعاء في حال الانكسار، كدَعوة الصائم، والمسافِر، والمظلوم، والمضطرّ.

وفيها: أثر الصِّدق في إجابة الدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾.

وفيها: أنَّ الإنابة والاستجابة لله سببٌ للهداية إلى الرشاد والصواب.

وفيها: تشريف الله لمن عَبده؛ حيث أضافه إلى نفسه؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، وأحمد (١١١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٠).
(٢) فتح الباري (١١/ ٩٦).

وفيها: قُرْب الله من أهل الدُّعاء، وأنَّه معهم، وهذه هي المعيَّة الخاصة. أمَّا المعيَّة العامَّة -وهي معيَّة العِلْم والإحاطة-: فهي لجميع الخَلْق.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾:

ثم ذكر ربُّنا الرَّؤوفُ بعباده، الرحيمُ بهم، العليمُ بحالهم، رُخصةً أخرى للمسلمين في حال صيامهم؛ فرفعَ عنهم ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنَّه كان إذا أفطرَ أحدُهم إنَّما يَحِلُّ له الأكل والشُّرْب والجِماع إلى صلاة العِشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام قبل الإفطار أو صلَّى العِشاء: حرُم عليه الطعام والشراب والجِماع إلى اللَّيلة التي تليها، فوجدوا من ذلك مشقَّة كبيرة؛ فأنزل الله الرُّخصة والتخفيف(١).

وقوله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي: مِن الله تعالى ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ وهذه تشمل جميع ليالي رمضان ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ هو: الجِماع والإفضاء والمباشرة بشهوة ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يشمل: الزوجات والإماء.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي: لا يستغني أحدٌ من الطرَفين عن الآخر؛ فهو بمنزلة اللِّباس له، يخالطهُ ويماسُّه، ويستتر ويحتمي به، ويحفظه عن معصية الشهوة المؤذية، كما يحفظ الثوبُ لابسَه عمَّا يؤذيه من الحرِّ والبرد.

وكان سبَب نزول هذه الآية: ما حصلَ لبعض الصَّحابة من المشقَّة العظيمة، بعدم الأكل في اللَّيل لأجل نومِهم، وما حصل لبعضهم من معصية إتيان الزوجة في اللَّيل، وكان ذلك ممنوعًا عليهم إذا صلَّوا العشاء، أو ناموا قبل الإفطار.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٠).

فعَنِ البَرَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ؛ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَـمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ؛ كَانُوا لاَ يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾»(٢).

وقوله ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخونون أنفسكم وتظلمونها بالجِماع في ليالي رمضان، وأنتم ممنوعون منه، وتُنقِصون أَجْرَ أنفُسِكم بما يحصل منكم، وتخادِعونها بإتيان ما مُنِعتم منه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسَّع لكم أمرًا كان -لولا توسعته- موجبًا للإثم، وكان النسخُ رحمةً؛ لأنَّه لولا النسخُ لوقع الكثيرون في فِعْل المحظور.

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي: محا ذُنوبكم، وتجاوزَ عمَّا وقع منكم، ولم يعاقِبكم.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾: هذا الأمر للإباحة؛ لأنَّه جاء بعد التحريم، والمراد بـ(المباشرة): الجِماع؛ لما يحصل فيه من التقاء بَشرة الرجل ببَشرة المرأة.

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: اطلبوا بالجِماع ما قدَّر الله لكم وقسَم من الولد، وابتغوا أيضًا الأجر والثواب بالحِرْص على العِبادة في ليالي الشهر الشريفة -وفيها ليلة القَدْر- ولاتشغلنَّكم الملذَّات عنها.

---

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٨).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

استحباب أن تكون نيَّة المُجامِع لزوجته ابتغاءَ الولد، لا مجرَّد قضاء الشهوة.

ويؤخَذ من الآية: كراهية العَزْل، ومَنْع الحمل.

وفيها: تعليم العِباد الأَخْذ بالأسباب؛ لأنَّه أمرَ بالجِماع لتحصيل الولد.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلِم ألَّا ينشغل بالملذَّات -ولو كانت مباحة- عن اكتساب الأجر والثواب بالعِبادات، وفِعْل الطاعات.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟﴾: عطفٌ على ما تقدَّم، من إباحة مباشرة النِّساء، وإباحة الأكل والشرب؛ أي: لكم أن تأكلوا وتشربوا ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: يتضح ويظهر ظهورًا جليًّا، ويتميَّز ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ والمقصود: بياض النهار، وسواد اللَّيل ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: الصادِق، وسُمِّي (فجرًا)؛ لأنَّه يتفجَّر، وينتشر منه النُّور. ووَصْفُ كلٍّ منهما بـ(الخيط)؛ لأنَّه يبدو في الأفُق ممتدًّا كالخيط، فإذا تحقَّق طلوعُ الفجر الصادِق، المعترِض في الأُفُق، المنتشِر في جهة المشرق؛ فقد حَرُم على الصائم الطعام والشراب والجِماع، إلى غروب الشمس.

ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أي: أكمِلوه من طلوع الفجر إلى دخول اللَّيل، وذلك بغروب الشمس.

وكانت هذه الآية قد نزلت دون قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، فلمَّا حصل اللَّبْس عند بعض الصَّحابة في فَهْم المقصود من الخَيْط الأبيض والخَيْط الأسود؛ أنزلَ الله تعالى قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ رفعًا للَّبْس، وبيانًا للمقصود.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أُنْزِلَتْ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾، وَلَمْ يُنْزَلْ: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالخَيْطَ الأَسْوَدَ، وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدَهُ: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٥١١)، ومسلم (١٠٩١).

وعن عديِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لـمَّا نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَبِينُ لِي! فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ»[(١)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

استحباب السُّحور؛ فالسُّحور أعون على الصيام، وفيه بَرَكة، ومخالفة لأهل الكتاب، ويُعين على القيام لصلاة الفجر، والله وملائكته يُصلُّون على المتسحِّرين.

ويُؤخذ من الآية: أنَّ مَن جامع قبل الفجر، فطلع عليه الفجرُ، فنزعَ مباشرةً، ودخل عليه يومُ الصيام وهو جُنُب؛ فصومه صحيح، وجنابته لا تضرُّ صيامَه؛ لأنَّ لازمَ إباحة الجِماع إلى طلوع الفجر: أن يُدْرِكه الفجر وهو جُنُب، ولازم الحقِّ حقٌّ.

وقد ثبت في «الصحيحَين»[(٢)]، عن أُمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ كَانَ لَيُصْبِحُ جُنُبًا مِنْ جِمَاعٍ غَيْرِ احْتِلَامٍ، ثُمَّ يَصُومُهُ».

ويُؤخذ من قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾: عدم مواصلة الصوم إلى ما بعد المغرب، بل يُستحَبُّ تعجيل الفِطْر، وفي ذلك مخالفة لأهل الكتاب، والتقرُّب إلى الله. وفي الحديث: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ»[(٣)].

وفيها: حماية العِبادة من الزِّيادة، وما ورد من التعبُّد بالوصال فهو خاصٌّ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ ربَّه يُطْعِمه ويَسْقيه.

ولـمَّا أباح تعالى مباشرةَ النِّساء في اللَّيل في شهر الصيام؛ ذكر حالةً لا يجوز فيها المباشرة بشهوة، لا في اللَّيل، ولا في النهار، وهي حالة الاعتكاف؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ و(المباشرة): مَسّ البَشَرة للبَشَرة، وأعظمها: الجِماع. ﴿وَأَنتُمْ﴾ والحال أنَّكم ﴿عَٰكِفُونَ﴾

---

(١) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٩٣١)، ومسلم (١١٠٩).

(٣) رواه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

أي: مُلازِمون وماكِثون ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: بنيَّة الاعتكاف. و(الاعتكاف): لزوم المسجد لطاعة الله.

والمقصود هنا: ولا تقربوا النِّساء ما دُمتم مُعتكفين في المساجد، في اللَّيل والنهار، حتى تخرجوا من الاعتكاف، فلا يجوز للمعتكِف أن يباشر زوجته بشَهْوة، لا في المسجد ولا في غيره -كما لو ذهب إلى بيته لحاجةٍ لا بُدَّ منها أثناء الاعتكاف-.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما سبق ذِكرُه من الأحكام المتعلِّقة بالصيام والاعتكاف ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ (الحدود): جمع «حَدّ»، وهو في اللُّغة: المنع.

وحدود الله على نوعَين: حدود تمنع مَن كان خارجها من الدُّخول فيها، وهي المحرَّمات، وهي المقصودة بقوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها، وهي الواجبات، وهي المقصودة بقوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: الممنوعات والمحرَّمات، كالأكل والشرب، والجِماع في الصيام، ومباشرة النِّساء أثناء الاعتكاف.

والنهي عن الاقتراب من الحرام أبلَغ من النهي عن الوقوع فيه؛ لأنَّ معناه: سَدُّ الطرق والذرائع الموصِلة للحرام، فينبغي على المسلِم ألَّا يقع في الحرام، وألَّا يدخل فيما يؤدِّي إلى الحرام.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك البيان يُبَيِّنُه الله. ﴿ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: معالم دينه، وأحكام شريعته. و(الآية): هي العلامة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتَّخذون من فِعْل الواجبات وتَرْك المحرمات وقايةً من عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده، بالنَّسْخ من الأثقل إلى الأخفّ.

وفيها: جواز الكلام بينَ الزوجَين في أمور الجِماع، بما يُستحيا مِن ذِكرِه عند الناس؛ لقوله

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، ويدخل في الرفث: الكلام المتعلِّق بالجِماع والشهوة.

وفيها: جواز جميع أنواع وأشكال الاستمتاع بالزوجة والأَمة، إلَّا ما حرَّمته الشريعة -كالوَطء في الدُّبُر، والوَطء حال الحيض أو النفاس-.

وفيها: رَفْع هِمَّة المسلِم من مجرَّد فعل المباح، إلى طلب الأجر من الله؛ لقوله: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ مَن شكَّ في طلوع الفجر؛ فله أن يأكل ويشرب حتى يتأكَّد من طلوعه؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾.

وفيها: بُطلان بِدعة الاحتياط للصوم، بالإمساك قبلَ الفجر بدقائق، كما يفعله بعض الجهلَة، ويخصِّصون له خانة في التقاويم المطبوعة، ويحدِّدونها بعشر دقائق قبل طلوع الفجر!

وفيها: مشروعيَّة الاعتكاف، وهو عبادة عظيمة، وأنَّه لا يكون إلَّا في المسجد، وأنَّه يجوز أن يكون في أيِّ مسجد، ولا يختصُّ بالمساجد الثلاثة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾، وحديث حذيفة: «لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ»[1] -إنْ صَحَّ-؛ فالمقصود به: الاعتكاف الكامل.

ويُؤخذ من الآية: أنَّ الجِماع مُبطِل للاعتكاف.

وفيها: استحباب الصيام حالَ الاعتكاف؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَه في آيات الصيام.

وفيها: أنَّ العِلْم سببٌ للتقوى، وأنَّ بيانَ الأحكام للناس من أسباب إيصالهم إلى مرتبة التَّقوى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

ولـمَّا كان الذي حبس نفسه عن المباحات ومنعها منها في الصيام، خليقًا وجديرًا أن يكون

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٥١٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٨٦).

مطعمُه ومشربُه ومكسبُه حلالًا، وألَّا يُدخِل جوفه الحرام، وهو بهذه المثابة من العِبادة؛ فإنَّ الله تعالى نهى عن أكلِ المال بالباطل، واستعمالِه في المحرَّم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، فذكر التحريم العامَّ في أخذ المال الحرام وإعطائه، بعد التحريم الخاص الذي يحصل في الصيام والاعتكاف.

وقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مالَ بعض بطريق محرَّم، كالرِّبا والغَصْب والسَّرِقة والقِمار والرِّشوة والخِيانة، وأخذ الأُجْرة على المحرَّمات، أو أخذ ما لا يجوز أخذه من أموال الزكاة أو الصَّدَقات، أو أخذ الأُجْرة على العِبادات -كالذين يقرأون القرآن ويسألون به الناس-. وهذا النهي في الآية يشمل -أيضًا- أيَّ انتفاع بالمال المحرَّم، حتى ولو لم يكن أكلًا؛ فلا يجوز أن يفترش أو يسكن أو يركب أو يلبس محرَّمًا.

وفي قوله ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي على المسلِم أن يُنزِّل أموال إخوانه منزلة ماله، فإذا كان لا يرضى أن يأكل أحدٌ ماله بالباطل؛ فكيف يرضى هو أن يأكل مال أخيه المسلِم بالباطل؟!

وقوله ﴿بَيْنَكُم﴾: بيانٌ أنَّه لا يجوز أكل المال بالباطل، انتهاكًا للعقود والمعاملات المُبرمة بينَ الأطراف المختلفة، كالبيع والإجارة والرَّهْن ونحوها. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: كلّ ما يؤخذ ويُتوصَّل إليه بغير حقٍّ.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: تستميلوا بها الحُكَّام والقُضاة بالرِّشوة، ليحكموا لمصلحتكم. ومعنى الآية -أيضًا-: نهيُ مَن عليه الحقُّ عن المخاصمة إلى القاضي، والإدلاء بالحُجَج الباطلة، في أمرٍ ليس فيه بيِّنة لصاحب الحقِّ، ولذلك قال المفسِّرون: «لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم».

﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ أي: لتتوصَّلوا بالخُصُومة أو بالرِّشوة إلى أخذ حقِّ الآخرين. ﴿فَرِيقًا﴾ أي: قطعة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ممَّا ملكوه شرعًا، وهذا يدلُّ -بطريق الأَولى- على عدم جواز المخاصمة بالباطل لأكل جميع أموال الطرَف الآخر.

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بالظُّلْم والعدوان، كشهادة الزُّور، واليمين الكاذِبة. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا حقَّ لكم في هذا المال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الشارع على حفظ الأموال، وتحريم الرِّشوة.

وفيها: أنَّ قضاء القاضي لا يغيِّر حقيقة الأمر؛ فلو حكم القاضي بالمال المتنازَع عليه لغير صاحبه -بحَسَب ما ظهر له، أو نتيجة استعمال المدَّعِي بالباطل لشهود الزُّور أو اليمين الكاذِبة-؛ فإنَّ هذا الحكم لا يُصيِّر المال حلالًا للظالم.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ؛ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَتْرُكْهَا»(١).

وفيها: الحكم بالظاهر، وأنَّ الله لا يكلِّفنا ببواطن الأمور.

وفيها: تحريم أكل المال الحرام، ولو رضي به مَن دفعَه، مثل: أجرة الزانية، والهديَّة إلى الساحر والكاهن، وثمن الخمر، ونحو ذلك. فليس مناط حِلِّ المال هو رضا طرَفَي العقد فقط؛ بل لا بُدَّ من رضا ربِّ العالمين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾:

قيل في سبَب نزول الآية: أنَّ بعضَ الناس سألوا رسول الله ﷺ عن زيادة الأهِلَّة ونُقصانِها واختلافِ أحوالها، وما السِّرُّ في اختلاف حالها عن حال الشمس، التي هي دائمةٌ أبدًا على حالٍ واحدة، فلا تتغيَّر بزيادةٍ ولا نُقصان؟! فنزلت هذه الآية(٢).

و(الأهِلَّة): جمع «هلال»، وهو: اسمٌ للقمر في أول الشهر. وسُمِّي هلالًا من «الاستهلال»، وهو رفع الصوت؛ وذلك أنَّ الناس كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٥٣).

فلمَّا سألوا عن الأهِلَّة وزيادتها ونُقصانها؛ أوحى الله إلى نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ أي: علامات ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: في أمورهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، كآجال دُيونهم، وأوقات زَرْعهم، وبَدء صومهم وفِطْرهم، ودخول وقت حَجِّهم، وعِدَد نسائهم.

﴿وَٱلْحَجِّ﴾ أي: دخول وقت الحَجِّ وخروجه؛ لأنَّ الإحرام للحجِّ يكون في أشهرٍ معلوماتٍ، تبدأ بدخول شوال.

وأفرد (الحجَّ) بالذِّكر؛ اعتناءً بشأنه، ولأنَّه لا يَصِحُّ فِعْلُه أداءً ولا قضاءً إلَّا في وقتٍ معلومٍ.

وقد تقدَّم ذِكرُ الصيام وارتباطه بالهلال، في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ (البرُّ) هو: الخير الكثير ﴿بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾ أي: في حال الإحرام. وقيل: كانت العرب تفعل ذلك في الاعتكاف والعيد وعند إلغاء السفر أيضًا. فكانوا يعتقدون أنَّهم إذا أحرموا؛ فلا يجوز لهم أن يدخلوا بيوتهم من أبوابها، ويزعمون أنَّ هذا من التقرُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ! فنفى الله هذا وأبطلَه، وبيَّن أنَّ ذلك ليس من البرِّ؛ وإنَّما هو تعسيرٌ وسَفَهٌ ومخالفةٌ للحِكْمة[1].

وقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ حقيقةً ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ فعرَّف (البرَّ) بأنَّه (التَّقوى)، وهي: أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، بفِعْلِ ما أوجبَه وتَرْكِ ما حرَّمه.

ثم أمر تعالى بذلك وأكَّده؛ فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في تنفيذ أحكامه، وغير ذلك؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تنالوا (الفلاح)، وهو: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الصَّحابة على السؤال عن أمور الدِّين، وعِناية الله بهم في الإجابة عمَّا سألوا عنه.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٥١٢)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٢).

وفيها: أنَّ الميقات العالَمي الصحيح للناس في أمورهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة هو الأشهر القمريَّة، لا الميلاديَّة ولا الشمسيَّة، وأنَّ التوقيت بالهلال سهلٌ يسيرٌ، يُناسِب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم؛ فهو آية بيِّنة يرونها في السماء، يعرِفون بها بدايات الشهور، ونهاياتها.

وفيها: تَرْك المعتقدات الخاطئة والعادات الجاهليَّة، والالتزام بالتعريفات الصحيحة للكلمات الشرعيَّة، وعدم إدخال ما ليس منها فيها، وعَرْض العادات على الشَّرْع؛ فما وافقه أُخِذَ به، وما خالفه نُبِذَ وتُرِكَ.

ويؤخذ منها: أنَّ التزام المُحْرِم بكشف رأسه للسماء طيلةَ فترة الإحرام -بلا سَقْف ولا مظلَّة- ليس من البرِّ، ولا من الدِّين في شيء، بل يجوز له التظلُّل بالمظلَّة وسقف السيارة، وليس هذا من محظورات الإحرام.

وفيها: اختيار الطريق الأسهل والأيسر للقيام بالأمور، ما لم يكن إثمًا.

وفيها: إجابة السائل بما يُفيده، ولو لم يكن قصدَه بسؤاله؛ تنبيهًا على أنَّ ما صُرِف إليه هو المُهِمّ، لأنَّهم في مبدأ تشريع جديد، والمسئول هو الرسول ﷺ، وكان المُهِمّ لهم أن يسألوه عمَّا ينفعهم في صلاح دُنياهم وأخراهم، وهو معرفة كون الأهِلَّة ترتَّبت عليها آجال المعاملات والعِبادات -كالحج، والصيام، والعِدَّة-.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى بعضَ أركان الإسلام من العِبادات؛ أتبعَ ذلك بذِكر ذِرْوَة سَنامه، وهو: الجهاد في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ أي: جاهِدوا. و(المقاتلة) تكون من طرَفين؛ أي: بينَ المسلمين والكفار. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعته وطلبِ رِضْوانه، ولأجْلِه، ولإعلاء كَلِمته وإعزاز دينه؛ ليكونَ القتال مبنيًّا على الإخلاص.

﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: القادرون على قتالكم، المستعِدُّون له، قاصدينَ صدَّكم عن دينكم. وهذا القيدُ ليس المقصود منه وجوبَ القتال في حال مقاتلة الكفَّار لنا فحسب، فإذا لم يُقاتلونا لم نُقاتِلْهم! وإنَّما هو للإغراء لقتال الكفَّار؛ لأنَّهم لا يزالون يُقاتلونَنا دائمًا وأبدًا؛ فكأنَّه يقول: أليسوا يُقاتِلونكم، أليسوا يعتدون عليكم؟ وإن كفُّوا عنكم

اليوم قاتَلوكم غدًا، فالعُدوان من طَبعِهم، وقتال المسلمين من غاياتِهم. فلذلك أمر تعالى بجهادهم، وأغرى عبادَه المؤمنين لقتالهم؛ لتقوى العزائِمُ على القيام بأمر الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ أي: في القتال، بعدم مجاوزة الحدِّ الشرعيِّ في قتال الكفَّار، بتَرْكِ التمثيل بجُثَثهم -بقَطْع أعضائها- وتَرْكِ قتال مَن لم يُشارِك في القتال من الأطفال والنِّساء والشيوخ والرُّهبان، لكن إن بذل الشيوخُ رأيَهم وخبرتَهم قُوتِلوا، ولا نُقاتِل مَن رضيَ بدَفْع الجِزية، ولا نقطع شجرًا بغير مصلحة شرعيَّة.

وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا أمَّر أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ من المسلمينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ الله، فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1].

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: هذه الجملة لتعليل الحُكم، وهو النهي عن الاعتداء. و(الاعتداء): تجاوُز ما لا يَحِلُّ تجاوُزُه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب الجهاد في سبيل الله، وأنَّه لكسر شَوكة الكفَّار، المعارِضين لتحكيم شَرْع الله في الأرض.

والكفَّار يُعرض عليهم الإسلام، فإن أبَوا: عُرِضَ عليهم دفعُ الجِزية -ليعيشوا تحت حكم المسلمين- فإن أبوا: قُوتِلوا.

وفيها: تحريم الاعتداء، ولو على الكفَّار.

وفيها: ربط الحُكم بالحِكْمة، كما في قوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ أي: الكفَّار ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: أينما وجدتموهم، في الحِلِّ أو الحَرَم.

﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي: من المكان الذي أخرجوكم منه، فإذا أغار الكفَّار على بلاد المسلمين، وأخرجوا المسلمين منها؛ وجب على المسلمين قتالُهم وطرْدُهم من بلاد المسلمين؛ فإزالة الاحتلال واجب.

ولـمَّا كان الجهاد فيه إزهاق النفوس، وإتلاف الأموال، وحصول الضحايا والأضرار العظيمة؛ نبَّه تعالى أنَّه شرَعه لِمَا يترتَّب عليه من دَرْء المفسدة الكبرى، وإزالة الضرر الأعظم من هذا كلِّه؛ وهو الشِّرك والكُفر بالله.

فقال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ (الفِتنة) هي الشِّرك والكُفر بالله. فالشِّرك بالله أشدُّ من قَتْل النفوس، وصدُّ الناس عن دِينهم أشدُّ من قَتْلهم. والكفَّار لا يزالون يقاتلوننا حتى يرُدُّونا عن ديننا إن استطاعوا، وردُّنا عن دِيننا هو الفِتنة؛ فوجبَ رَدُّ الفِتنة ولو بجهادهم، مهما ترتَّب على ذلك من الأضرار، ولو كان القَتْل في الحَرَم.

ثم نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن قتال الكفَّار في منطقة الحَرَم الذي حرَّمه الله، إلَّا إذا بدأوا هم بالقتال، فحينئذٍ يجب قتالهم دفعًا لعدوانهم؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ﴾ أي: لا تبدأوا قتالَهم ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهذا يشمل: مكَّة، ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾ أي: يبدأوا قتالكم في الحَرَم.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ في الحَرَم؛ ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ ولا تُبالوا؛ لأنَّهم هم الذين هتكوا الحُرْمة؛ فاستحَقُّوا العذاب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: يُفعل بهم مِثل ما فعَلوا.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: كفُّوا عن قتالكم، وعن كُفرهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لهم ما سلفَ من الكُفر. ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم، بقَبول توبتهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

وجوب قتال الكفَّار، وأنَّه مشروط بالقُدرة على ذلك، وأنَّه في كلِّ زمان ومكان.

وفيها: مبدأ المعامَلة بالمِثْل.

وفيها: أنَّ المسلمين أحقُّ بأرض الله؛ لأنَّهم يُقيمون فيها التوحيد والعَدْل، والكفَّار يُشرِكون فيها بالله تعالى، ويَظْلِمون، ويعتَدون على الحُرُمات.

وفيها: أنَّ الفِتنة بالكُفر أسوأ وأشدُّ من إراقةِ الدِّماء، وسَلْبِ الخيرات، وإتلافِ الأموال.

وفيها: دليلٌ على القاعدة الشرعيَّة: «ارتكاب أدنَى المفسدتَين».

وفيها: تعظيم حُرْمة المسجد الحرام.

وفيها: تمام عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بوجوب الكفِّ عن الكفَّار إذا انتهَوا عن الكُفر.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ أي: الكفَّار، في الحِلِّ والحَرَم؛ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شِرْكٌ، وصَدٌّ عن سبيل الله، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: حتى يكونَ دِين الله ظاهرًا وغالبًا على بقيَّة الأديان.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: كفُّوا، ورجعُوا عن الكُفر وقتال المسلمين؛ ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾ أي: فلا اعتداء ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المُصرِّين على الكُفر، أو المبتدِئين بالقتال.

وفيها: أنَّ الأمر بالقتال مُقيَّد بغايتَين:

الأولى: ألَّا توجد فِتنة، وهي الشِّرك، والصَّدُّ عن سبيل الله.

والثانية: أن يكون الدِّين لله، أي: ظاهرًا، غالبًا، عاليًا على غيره.

وفيها: أنَّ الكفَّار إذا انتهَوا عن القتال؛ وَجب الكفُّ عنهم، فإمَّا أن يُسْلِموا، أو يدفعوا الجِزية.

وفيها: أنَّ الظالم يُجازَى بمِثل عُدوانه.

وفيها: أنَّ تسمية المجازاة (اعتداءً)؛ هو من باب مُقابلة الشيء بمثله، والجزاء من جِنس العمل.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حُكم انتهاك حُرمة المكان في قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾؛ ذكر حُكم انتهاك حُرمة الزمان؛ فقال: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: إذا قاتلكم الكفَّار في الشهر الحرام فقاتِلوهم فيه.

ولذلك لـمَّا خرج النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في ذي القَعدة -وهو شهر حرام- قاصدًا العمرةَ، ونزل في الحُديبيَة -قريبًا من الحَرَم- ولم يبدأ المشرِكين بقتالٍ، لكن لـمَّا أُشيعَ أنَّ أهل مكة قتلُوا عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قد أرسلَه ليُفاوِضَهم في دخول مكة؛ تجهَّز وأصحابُه للحَرْب والقتال في الشهر الحرام، وفي المكان الحرام؛ لأنَّ المشرِكين هم الذين انتهكوا حُرْمَة الحَرَم.

وكذلك لـمَّا امتدَّ قِتال هَوازِن بعد معركة حُنَين إلى حِصار الطائِف؛ استمرَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في القتال في الشهر الحرام(١).

وقوله ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ﴾ (الحُرُمات): جمع حُرْمة -كـ(ظُلُمات) و(ظُلْمة)- وهي: كلُّ ما يجب احترامه، ولا يجوز انتهاكُه.

وفائدة جمع (الحُرُمات) هنا؛ لأنَّه أراد: الشهرَ الحرام، والبلدَ الحرام، وحُرمةَ الإحرام.

﴿قِصَاصٞ﴾ أي: يجرى فيها القِصاص والبدَل؛ فمَن انتهك حُرمة شيء فإنَّه تُنتهَك حُرمته؛ كمَن انتهك نفسًا معصومة؛ فتُنتهَك نفسُه بقَتْله، ومَن انتهك حُرمة الشهر الحرام بالقتال: قُوتِل.

ثم بيَّن ذلك تعالى، بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بالقتال في المكان الحرام، أو الزمان الحرام، وتجاوزَ الحدَّ في معاملتكم، بأخذ المال، أو بقَتْل النفس، أو الاعتداء على العِرْض، ونحو ذلك؛ ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾: سمَّاه (اعتداءً)؛ لأنَّه مسبَّب عن الاعتداء الأول، والبادئ أظلَم، والقِصاص عَدْل، فعاقِبوه وقابِلوه بمِثل الجناية التي اعتدى عليكم بها. ولذا قال:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٧).

﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: ليكن انتقامُكم مماثِلًا ومطابِقًا للاعتداء الأول؛ في هيئته وكيفيَّته، وزمانه ومكانه.

ونظرًا لأنَّ ردَّ الاعتداء قد يحدُث فيه ظُلْمٌ وتجاوُزٌ؛ ذكَّر تعالى بالتَّقوى، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا عذابَه؛ فلا تَعْتَدُوا في القِصاص. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: بنَصره وحِفظه ورعايته لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدْل الله تعالى في التشريع.

وفيها: مشروعيَّة القِصاص في الحُرُمات.

وفيها: أنَّ رَدَّ العُدوان بمِثله إنَّما لأخذ الحقِّ، وليس للتشفِّي.

وفيها: أنَّ مُقابَلة الكفَّار والرَّدَّ على اعتداءاتهم، علامةُ قوَّة المسلمين وقُدرتهم، وأنَّ عدم الرَّدِّ علامةُ ذلٍّ وضَعفٍ ومهانةٍ.

وفيها: أنَّه يجب على المسلمين أن يُروا الكفَّار من أنفُسِهم قوَّة، حتى لا يفكِّروا في العدوان ولا يَسْتَمْرِئوه.

وفي الآية: معيَّة الله للمؤمنين وتأييده لهم؛ فإنَّ قُريشًا لـمَّا افتخرت بمَنْع النبيِّ ﷺ وأصحابِه من دخول مكة للعمرة في ذي القَعْدة من عام الحُديبيَة؛ مكَّنه الله تعالى من القِصاص منهم، فدخل مكة في السنة التي بعدها -في ذي القَعدة-؛ فقضى عُمرته.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾:

ولـمَّا كان القتال في سبيل الله يحتاج إلى بَذل المال فيه؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ابذُلوا الأموال في الجهاد في سبيل الله. ويُحتمَل أن يكون المراد بالآية أيضًا: الأمر بالإنفاق في سائر وجوه القُربات والطاعات، كالحجِّ والعُمرة، وصِلَة الرَّحِم، والإنفاق على النفس والعيال، ونحو ذلك.

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: لا توُقِعوا أنفسكم ﴿إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ أي: الهلاك. وعبَّر بـ(الأيدي)

عـن الأنفس؛ لأنَّها جزءٌ مُهِـمٌّ منها، وبها البطـش والحركة. والمعنى: لا تُلْقوا أنفسـكم فيما يُهلِكهـا، وهـذا يشـمل الإهـلاك الحِسِّيّ -كإلقـاء النفس في النَّـار، أو من عُلُوٍّ شـاهق، أو في مـاء يَغـرَق فيـه، أو الخروج في السـفر بغير زادٍ يحصـل معه الهلاك من الجـوع والعطش، ونحـو ذلك- والإهلاك المعنويّ -مثل: البخل، والاسـتكثار مـن الذُّنوب مع عدم التوبة، والانشغال بالدُّنيا وتَرْك الجهاد في سبيل الله، وترك الإنفاق في سبيل الله-.

ويدلُّ على ذلك: ما جاء عن أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: غَزَوْنَا من المَدِينَةِ نُرِيدُ القُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَـلَى الجَمَاعَـةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْـنِ الوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِـمْ بِحَائِطِ المَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى العَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ مَهْ! لَا إِلَهَ إِلَّا الله! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!

فَقَـالَ أَبُـو أَيُّـوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّـمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ فِينَا -مَعْـشَرَ الأَنْصَارِ- لَـمَّا نَصَرَ الله نَبِيَّـهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَظْهَرَ الإِسْـلَامَ، قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيـمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَـا؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، فَالإِلْقَـاءُ بِالأَيْـدِي إِلَى التَّهْلُكَـةِ: أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، وَنَدَعَ الجِهَادَ»(١).

ويتعلَّق بهذا الأثر مسـألةٌ، وهي: أن يحملَ رجلٌ عـلى العدُوِّ وحدَه، ويقتحم صفوفَهم، وينغمس فيهم، فما الحكم؟

فالجواب: إنْ غلب على ظنِّه أنَّه يَسْلم و يُنكِي فيهم نكاية كبيرة، ويقتُل منهم ويجرح قبل أن يقتُلـوه؛ فهذه جُـرأة محمودة وثوابها عظيم؛ لِـما في ذلك مـن إرهاب الأعداء، والفتِّ في عَضُدِهم، وتشـجيع المسـلمين على اقتحام صفوف العدُوِّ، وأن يرى العدُوّ شجاعة المسلِم؛ فتضعُف معنويَّاتُ الأعداء.

وأمَّا إذا غلب على ظنه أنَّ هذا الاقتحام والانغماس في صفوف العَدوِّ، سيكون بلا فائدةٍ مرجـوَّة، وسـيترتَّب عليه قَتْله بلا مصلحة؛ فـلا يجوز؛ لِمَا فيه من إهـلاكِ النفس بلا مُقابِل، واغترارِ الكفَّار بقوَّتهم، وسُرورهم بقَتْل المسلمين، ولِمَا فيه من إضعافِ معنويَّات المسلمين، وحُزنِهم على قتلاهم.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٨٨).

وقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أي: في عبادة الخالِق، ومعاملة الخَلْق، وأحسِنوا أعمالَكم، وأحسِنوا في الإنفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: هذا تعليلٌ للأمر بالإحسان؛ فإذا عَلِمَ العبد أنَّ الله يحبُّه إذا أحسنَ؛ بادرَ إلى الإحسان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الإنفاق في سبيل الله، خاصَّةً في الجهاد.

وفيها: الإخلاص في العمل؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: تحريم ما يُهلِك الإنسانَ في دينه، ودُنياه.

وفيها: أنَّ كلَّ ما كان سببًا للضرر فهو حرام، ويدخُل فيه: مسبِّبات الأمراض -كالتدخين وغيره-.

وفيها: الأمر بالإحسان في الواجب والمستحَبّ.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: أنَّ مَن وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين؛ فعليه ألَّا يُغامِر بهم، ولا يفعل ما يؤدِّي إلى هلاكهم، فلا يدخُل بهم في مفازة أو صحراء مُهْلِكة، ولا يقتَحِم بهم في عدُوٍّ يتمكَّن من تصفيتهم، وإذا رأى أنَّ من المصلحة الشرعيَّة الانسحابَ أو عَقْدَ هُدْنة مع الكفَّار -إبقاءً على نفوس المسلمين، حتى لا يُقتَلوا بلا فائدة-؛ فله فِعْل ذلك.

وقد تركَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِصار الطائف، لـمَّا كثرت في المسلمين الجِراحات، وأقرَّ خالدًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على انسحابِه بجيش المسلمين في مُؤْتة.

وفيها: أنَّ التفريط في الاستعداد للجهاد حرامٌ؛ لأنَّه إلقاءٌ بنفوس المسلمين إلى التهلُكة، ووبالٌ على دين الإسلام.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى

﴿ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى أحكام الصيام؛ أتْبعَها بذِكر أحكام الحجِّ؛ لأنَّ شهور الحجِّ بعد شهر الصيام مباشرة؛ فقال تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أدُّوهما تامَّين، بشُروطهما، وأركانهما، وواجباتهما، وإذا أحرمتُم بهما فلا بُدَّ من إتمامهما.

ومِن تمامهما: أن يخرج الرجل من أهله لا يريد إلَّا الحجَّ أو العُمرة، لا لتجارة ولا لحاجة.

ومن تمامهما: أن يُفرِدَ كلَّ واحد منهما من الآخر.

ومن تمامهما: أن يخرج الرجل من أهله لقَصْد الحجِّ أو العُمرة، ثم يمرّ بالميقات فيُحْرِم منه، وهذا أكمل ممَّن سافر لحاجة، ثم طرأ عليه قَصْدُ الحَجِّ أو العمرة؛ فأحرمَ من مكانه.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: مُنِعتُم من إتمام الحجِّ أو العُمرة لأيِّ سببٍ قاهر، كالعدُوِّ، أو المرض، أو كَسْر عُضْوٍ من الأعضاء، أو السِّجن، أو الترحيل -كما في عصرنا-؛ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ أي: فعليكم ذَبح ما تيسَّر وسهُلَ عليكم ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: من الإبل أو البقر أو الغنَم المُجزِئة، فإن كان مُوسِرًا وذبح بَدَنةً فحَسَنٌ، وإن أهدى شاةً فهو كافٍ، وإن اشتركَ مع سبعة في بَدَنة أوبقرة فلا بأس بذلك.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ﴾ أي: لا تُزيلوا الشَّعْر ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: يصل زمانَ حلولِه -وهو يوم العيد- ومكانَ حلولِه -وهو الحَرَم-. وقيل: حتى يذبح الهدي، وتكون الآية -حينئذٍ- فيمَن ساق الهدي.

وقوله ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ أي: فاحتاج إلى حَلْق رأسه لمرضه، ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ مثل: القُمَّل أو غيره، فاحتاج إلى الحَلْق، أو إلى تغطية رأسه -مثلًا-؛ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فعليه عند فِعْل المحظور فِدْية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ وهي: ثلاثة أيَّام، تجوز في الحَرَم، وفي غيره.

﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ (أو) هنا للتخيير؛ أي: إن شاء صامَ، وإن شاء أخرجَ الصَّدَقة. وهي: إطعام ستة مساكين، لكلِّ مسكين نصفُ صاع من الطعام -من القمح، أو الأرز، أو نحوهما-.

﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ أي: وإن شاء ذبحَ شاة، وتصدَّق بها، ولا يأكل منها شيئًا.

ويكون ذلك في مكة، أو في مكان فعل المحظور.

فما وَجب من الفدية بسبب ارتكاب محظور من محظورات الإحرام، يخيّر فيه الإنسانُ بين فِعله في الحرمِ، أو في محلِّ ارتكاب المحظور، إلا جزاء الصيد فإنه يكون في الحرم .

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ من العدُوِّ والمانع؛ فأتِـمُّوا الحجَّ والعُمرة.

ثم شرع تعالى في تفصيل المناسك؛ فقال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾، وهذا يشمل مَن أحرم بهما معًا -وهو «القارن»- أو أحرم بالعُمرة أولًا، ثم إذا فرغَ منها تمتَّع بما أحلَّه الله له ممَّا كان محظورًا عليه وقتَ الإحرام، ثم أحرمَ بالحجِّ -وهو «التمتُّع» المعروف في كلام الفقهاء-.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ أي: فعليه ذَبح ما تيسَّر وسهُل من بهيمة الأنعام المُجزِئة.

ويجب دمُ التمتُّع الخاصّ على مَن أتى بالعُمرة في أشهر الحجِّ، ثم حَجَّ من العام نفسِه، ولم يرجِع بينهما إلى بلده، بشَرْط ألَّا يكون من حَاضري المسجد الحرام.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ من المتمتِّعين الهديَ أو ثمنَه؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيَّام ﴿فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أي: في أثناء الحجِّ، أوحال إحرامه بالحجِّ.

والأفضل أن يصومَها قبل يوم عرفة، فإن فاتَتْه أو فاتَه بعضُها؛ صامَها أو أتمَّها في أيَّام التشريق -وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحِجَّة-؛ لحديث عائشة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ، إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الهَدْيَ»[1].

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ أي: يصوم سبعة أيَّام -تكملةَ العشرة- إذا رجعَ إلى وطنه؛ لحديث: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا؛ فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ»[2].

﴿تِلۡكَ﴾ أي: الثلاثة والسبعة ﴿عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ أي: أتِمُّوا عددَها، فهي كاملةٌ في الثواب والأجر، قائمةٌ مقامَ الهدي. ويجوز أن تكون متتابعة، أو متفرِّقة.

---

(١) رواه البخاري (١٩٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من وجوب الهدي -أو بدله- على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ﴾ أي: مَسْكَنه، ومَن يسكن إليهم من زوجة وولد ﴿حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قِيل: مكة، وقيل: أهل منطقة الحَرَم، وقِيل: مَن كان دون المواقيت، وقِيل: مَن كان على مسافة من الحَرَم لا تُقصَر فيها الصَّلاة.

والأقرب: أن حاضري المسجد الحرام: هم أهل الحرم (١).

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافُوا الله في هذه المناسك وغيرها، فافعَلوا ما أمر به، واجتنِبوا ما نهى عنه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تركَ التَّقوى.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إتمام الحجِّ والعُمرة، فرضًا ونفلًا؛ فمَن تلبَّس بالحجِّ أو العُمرة، وأحرمَ بأيٍّ منهما؛ صارَ فرضًا عليه إتمامُه، ولو كان نافلة.

وفيها: أنَّ الخروج من الإحرام بدون طواف ولا سعي، جهلٌ عظيمٌ، بل لا يمكنه الخروج أصلًا.

ويُكرَه قطع النفل في غيرهما، إلَّا لغَرَض صحيح.

وفيها: أنَّه لا تجوز الاستنابة في أفعال الحجِّ والعُمرة -كالإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة- ويجوز التوكيل في الرَّمي للضرورة.

وفيها: وجوب الإخلاص لله في المناسك؛ لقوله: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: له لا لغيره.

وظاهر الآية: أنَّ كلَّ إحصار يمنع من إتمام النُّسُك؛ فإنَّه يجوز التحلُّل به؛ لعُموم قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾. ومَن اشترط عند إحرامه فقال: «إن حبسَني حابسٌ؛ فمحلِّي حيث حبستَني»؛ ثم منعَه مانعٌ من إتمام النُّسُك؛ جاز له التحلُّل والرُّجوع، ولا شيءَ عليه، لا فِدْية، ولا هَدي، ولا حَلْق.

---

(١) وهو اختيار علماء اللجنة الدائمة، والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: فتاوى اللجنة (١١/ ٣٨٩)، مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢٢/ ٧١،٧٠).

وفيها: أنَّ المُحصَر لا يجب عليه القضاء؛ لأنَّ الله لم يكلِّفه بذلك.

وفيها: تحريم حَلْق الرأس على المُحرِم، وألحقَ أكثر أهل العِلْم به شعرَ بقيَّة البدَن.

وفيها: فضيلة حَلْق الشعر في النُّسُك، وهو إزالته إزالة تامَّة بالمُوسَى ونحوها، وهو أفضلُ من التقصير.

وفيها: رحمة الله بالعِباد؛ أنْ جعل لهم الفِدْية، كفارة عن فِعْل المحظور، إذا اضْطرُّوا إليه.

وفيها: أنَّه لا يجب الاقتراض على مَن لم يجد الهدي؛ فمَن تعذَّر أو تعسَّر عليه الهديُ فلا يلزمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

وفيها: أنَّه لا يجوز صيام السبعة في الحجِّ، ولا يجوز تأخير صيام الثلاثة إلى ما بعد الحجِّ، دون عُذر.

وفيها: تيسير الله تعالى؛ أنْ جعل السبعة -وهي العدَد الأكبر- بعد رجوع الحاجِّ إلى بلدِه.

واستدلَّ بعضُ العلماء بالآية على: وجوب العُمرة.

وفي الآية: فَضْل التمتُّع.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾:

قوله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي: الحجُّ ذو أشهرٍ معلومات، أي: معروفات بينَ الناس. وأشهر الحجِّ هي: شوال، وذو القَعْدة، وعشرٌ من ذي الحِجَّة؛ لأنَّ الحجَّ يفوت بطلوع فَجْر يوم النحر، فلا يجوز الإحرام بالحجِّ بعد فجر يوم العاشر.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا يُحْرِمُ بِالحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الحَجِّ؛ فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الحَجِّ: أَنْ تُحْرِمَ بِالحَجِّ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ»(١).

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٥٩٦). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: «مِنَ السُّنَّةِ كَذَا» فِي حُكْمِ المَرْفُوعِ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ، وَلَا سِيَّمَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ تُرْجُمَانُهُ». تفسير ابن كثير (١/ ٥٤١).

وقد ثبتَ عن عمر وعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّهما كانا يُجبِّان الاعتمارَ في غير أشـهر الحجِّ، وينهيانِ عن ذلك في أشهر الحجِّ[1]. ولهذا كَرِهَ مَن كَرِهَ من العلماء الاعتمارَ في بقيَّة ذي الحِجَّة. ومعلومٌ أنَّ أعمال الحجِّ تنقضي بانقضاء أيَّام مِنى.

وقوله ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: أحرمَ بالحجِّ، وهو ركن من أركانه. وتشمل الآية العُمرة أيضًا.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: فعليه أن يجتنب الجِماع، ودواعيه -كاللَّمس بشهوة، والتقبيل، والكلام في شأن الجِماع- والفُحْش من الكلام عُمومًا. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: وعلى المُحرِم اجتناب جميع المعاصي، ومن ذلك: الوقوع في محظورات الإحرام.

وقد قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أَجْر مَن ترك الرَّفَث والفسوق في الحجِّ: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أي: لا منازَعة، ولا خصومة، ولا مِراء، ولا فِعْل ما يُغضِب الرِّفقة ويُورِث الشحناء. ومن ذلك أيضًا: التعصُّب للآراء وأقوال الرِّجال، والجدال العقيم مع الباعة ومَن يستأجرهم. ولا بأس بالزجر والتأديب والضرب -لولد أو عَبْد- إذا احتاجَ إليه، وتَرْكُه أَوْلَى.

ولا يدخل في النهي عن الجِدال: المناقشات المفيدة في مسائل الحجِّ العِلْميَّة، من غير تعصُّب، والجدال بالتي هي أحسن في مقام الدَّعوة.

ولـمَّا نهى الله تعالى عن الشَّرِّ؛ أرشدَ إلى فِعْل الخير، وأخبرَ أنَّه به عليم؛ فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي: بالخير، يقبَله، ويجازي عليه خيرًا، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا.

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أي: خُذوا من الزاد ما يكفيكم في السفر، حتى لا تحتاجوا إلى الناس، وتزوَّدوا -مع غذاء الجسم- غذاءَ القَلْب؛ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ﴾ أي: أفضله ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي: اتِّقاء عذاب الله، بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).

ومِن خير زاد الدُّنيا للحاجِّ: مالٌ حلالٌ طيِّبٌ، يُعِفُّه عن سؤالِ الناس، والإثقالِ عليهم.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ! فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾»[1].

﴿وَاتَّقُونِ﴾ أي: خافوا عِقابي، بامتِثال ما أمرتُ واجتناب ما نهيتُ ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يا أصحاب العقول والأفهام.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم شأن الحجِّ، وأنَّ الله جعل له أشهرًا، مع أنَّ مناسكه تتمُّ في أيَّام.

وفيها: أنَّه لا يجوز تأخير أيِّ عمل من أعمال الحجِّ إلى ما بعد أشهر الحجِّ.

وفيها: أنَّ الإحرام بالحجِّ قبل أشهره لا ينعقد؛ لقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ﴾.

وفيها: النهي عن الرَّفَث، وهو درجات: فمنه ما يُفسدُ الحجَّ ويُبطِله -وهو الجماع قبل أعمال يوم النحر- ومنه ما لا يُبطِله ولكن يأثم به صاحبُه ويجب عليه فدية أذى -وهو المباشرة بشهوة- ومنه ما يأثم به صاحبه ويُنقِص أجرَه، لكن لا فدية عليه -كالكلام في أمور الجِماع ونحوه-.

وفيها: أنَّ محظورات الإحرام تبدأ بمجرَّد عقد نيَّة الإحرام، ولو بقيَ عليه شيءٌ من المخيط مثلًا.

وفي الآية: أنَّ على الحاجِّ الابتعاد عمَّا ينافي معنى الحجِّ، من التَّرَفُّه والتَّنَعُّم، ويدخل فيه: الطِّيب، والمخيط، وقصّ الشَّعر، ويبتعد كذلك عن الشهوة وأسبابها؛ فيغُضّ البصر، ويتحاشى الكلام في أمور الجِماع، ولا يمَسُّ امرأته بشهوة، ويجوز مسُّها بغير شهوة -كأن يقودها في الزحام-. وإذا كان يحرم عليه تعاطي الفسوق قبل الإحرام؛ فابتعاده عنه في حال الإحرام آكد وأوجَب.

---

(١) رواه البخاري (١٥٢٣).

وفيها: أنَّ على الحاجِّ أن يبتعد عن كلِّ ما يُقسِّي القَلْب، ويُشَوِّش الفِكْر، كالجِدال والمِراء.

وفيها: الحثُّ على الزيادة من فِعْل الخير في مواسم الطاعة؛ فأجرُ العامل فيها يعظُم ويُضاعَف.

وفيها: تنبيه العِباد للأخذ بالأسباب.

وفيها: الأَخْذ بالأسباب في الدُّنيا، بما يُعين على طاعة الله.

وفيها: أنَّ العبد يُؤجَر على الأَخْذ من الدُّنيا بما يُعينه على الآخرة.

وفيها: أنَّ العِبادة لا تُنافي تحصيلَ ما يحتاجه الإنسان في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ زاد الآخرة أفضل من زاد الدُّنيا؛ لأنَّ زاد الدُّنيا فانٍ، ويحقِّق مراد النفس ويوافق شهواتها، أمَّا زاد الآخرة: فهو يُوصِل إلى النعيم المقيم في الجنَّة.

وفيها: أهميَّة التَّقوى في أداء العِبادات، وأنَّ التذكير بها ليس خاصًّا بمَن يفعل المحرَّمات.

وفيها: التذكير بالزاد الظاهر في سفر الدُّنيا، والزاد الباطن في سفر العبد إلى الدار الآخرة.

وفيها: العمل على الاستغناء عن الناس، وبَذْل الأسباب للتعفُّف عمَّا في أيديهم.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾:

ولـمَّا نهى تعالى في مطلع الآية عن أمورٍ تُنافي الحجَّ -وهي الرَّفَث والفسوق والجدال- وأمر سبحانه بالتزوُّد في السفر، وعدم نسيان التَّقوى؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ حُكم التكسُّب -بالإجارة والبيع والشراء ونحوها- للحاجِّ في موسم الحجِّ، وأنَّها من الأمور التي لا تُنافي الحَجَّ، وإن كان تركُها والتفرُّغ للعبادة أولَى وأفضل.

فقد يسأل سائلٌ: هل يجوز عمل الدُّنيا في هذه العِبادة العظيمة؟ وهل تُقبَل عبادةُ مَن تعاطى أنواعَ المعاملات والتجارة في موسم الطاعة العظيم هذا؟

فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ تَأَثَّمُوا من التِّجَارَةِ فِيهَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ»[١].

فليس على المسلمين حَرجٌ من الاتِّجار في موسم الحجِّ، في الأسواق التي أنشأها المشرِكون لهذا الغرض.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ التَّيْمِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُكْرِي[٢]، فَهَلْ لَنَا من حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالبَيْتِ، وَتَأْتُونَ المُعَرَّفَ[٣]، وَتَرْمُونَ الجِمَارَ، وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي، فَلَمْ يُجِبْهُ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»[٤].

وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يا عبادَ الله، من الحُجَّاج ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: حَرج وذنب ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رِزقًا، بالتجارة والإجارة ونحوه.

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ أي دفعتُم، وذهبتُم، ورجعتُم. و(الإفاضة) هي: الاندفاع ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ وهو اسم للمكان المعروف، وهو عمدة أفعال الحجِّ؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٩٨).

(٢) أي: نؤجِّر دوابَّنا في عمل الحج، ونحُجُّ معهم تبعًا.

(٣) أي: تقفون عرفة.

(٤) رواه أحمد (٦٤٣٤)، وصحَّحه محقِّقو المسنَد.

(٥) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَفَه لـمَّا زاره مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان قد رآه قبل ذلك. وقيل: لأنَّ آدم تعارَفَ وزوجتُه فيه، بعد ما أُهبطا إلى الأرض. وقيل: لأنَّ الناس يتعارَفون فيه فيما بينهم. وقيل: لأنَّهم يعترِفون فيه بذُنوبهم. وقيل: لأنَّ عرفة مرتفعةٌ على غيرها.

ووقت الوقوف بعرفة -عند أكثر العلماء-: من بعد زوال الشمس يومَ التاسع، إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النَّحْر. واستدَلُّوا على ذلك بفِعْل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقوله: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ(٢)؛ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ»(٣).

وقال بعض العلماء: وقتُ الوقوف يبدأ من أول يوم عرفة؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا؛ فَقَدْ أَتَمَّ حَجَّهُ وَقَضَى تَفَثَهُ»(٤).

وتُسَمَّى عرفة بـ«المشعر الحلال» -لأنَّها خارج الحَرَم- و«المشعر الأقصى» -لأنَّها أبعد ما يصل إليه الحُجَّاج في مناسكهم-. فيكون الحاجُّ بوقوفه فيها قد جمعَ في نُسكه بينَ الحِلِّ والحَرَم.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بالتلبية والدُّعاء والتهليل والتكبير، وأنواع الذِّكر، باللِّسان والقَلْب والجوارح. وصلاة المغرب والعشاء والفَجْر من ذكر الله. ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو: الجبل الصغير في آخر مُزْدَلِفة، الذي وقف عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفجر، يذكر الله ويَدعو، حتى أسفرَ جدًّا -أي: انتشر النُّور قبل طلوع الشمس-.

و﴿ٱلْمَشْعَرِ﴾: اسم للمكان الذي تؤدَّى فيه الشعيرة. وهو مَعْلمُ العِبادة. وصفَه بـ(الحرام) لحُرْمته، ولأنَّه داخل حدود الحَرَم.

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٢) يعني: فجر يوم العاشر -يوم النحر-.

(٣) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٢٩٧٥)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٤).

(٤) رواه أبو داود (١٩٥٠)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي (٣٠٤٢)، وابن ماجه (٣٠١٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٠٦٦).

ومُزْدَلِفة كلُّها مكانٌ للوقوف؛ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ بَطْنِ عُرَنَةَ[١]، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ[٢]، وَكُلُّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ»[٣].

قوله ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾: أَمَرَ بذكره مرَّة أخرى، وفيه دليل على مشروعية الإكثار من الذِّكر في الحج، وتعليلٌ بأنَّه هدانا لدينه، ودلَّنا على هذه المناسك العظيمة.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل هذه الهداية والبيان والإرشاد -عن طريق الكتاب والرسول- ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: لا تعرفون كيف تَذْكُرون، ولا كيف تَعْبُدون ربَّكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للمسلم في حال تكسُّبه أن يرقُب فضلَ الله، ولا يتَّكِلَ على قُدرته ومهارته.

وفيها: مِنَّة الله تعالى على عباده، بإباحته التكسُّبَ في موسم العِبادة العظيم هذا، ولا تزال التجارة في موسم الحجِّ من أعظم وسائل جنْي الأرباح، وعليها اعتمادُ كثيرٍ من الأفراد والأُسَر والشَّرِكات والهيئات والمؤسَّسات في دَخلِهم السنويّ.

وفيها: أنَّه يُشترَط للوقوف بمُزْدَلِفة أن يكون بعد عرفة. ولا يُشترَط أن يكون واقفًا على رِجْلَيه؛ فلو كان قاعدًا أو مضجعًا أجزأه ذلك. وهواء المناسك له حُكم أرضِها وقَرارها.

وفيها: أنَّ الصَّلاة من ذِكر الله.

وفيها: أنَّ مُزْدَلِفة من الحَرَم.

وفيها: مُقابَلة نِعمة هدايته بكثرة ذِكره عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الذِّكر المشروع هو ما وافق الشَّرْع، وهذا يُفهَم من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾، إذا كانت (الكاف) للتشبيه.

---

(١) وهو وادٍ خارج عرفات.

(٢) وهو وادٍ بين مِنى ومُزدلفة.

(٣) رواه أحمد (١٦٧٥١)، وابن حبَّان (٣٨٥٤)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٣٨٤٣).

ومن أفضل الذِّكر في الحجِّ -وفي عرفة خصوصًا-: التلبية، وقول (لا إله إلَّا الله، وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير).

وفيها: أنَّ تذكير الإنسان بحاله قبل الهداية؛ مفيدٌ في تعريفه بقيمتها.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾:

قوله ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد وقوف الناس بعرفة ومُزْدَلِفة ﴿أَفِيضُوا۟﴾ -يا قُرَيش- ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: عامَّة المسلمين، الذين حضروا موسم الحجِّ، وكان في قُرَيش أَنَفَة وكِبْر، فلا يتجاوزون مُزْدَلِفة، ولا يقفون مع الناس بعرفة، ويقولون: نحن أهل الحَرَم، فلا نخرج من حدود الحَرَم!

فقد جاء عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالمُزْدَلِفَة، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ[1]، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»[2].

وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما يقتضي أنَّ المراد بـ(الإفاضة) هنا: الإفاضة من المُزْدَلِفة إلى مِنى، لرمي الجِمار[3].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة لذُنوبكم، وما وقعَ منكم من التقصير في أعمال الحجِّ.

وقد ورد الاستغفارُ بعد العِبادات في مواضع متعدِّدة -غير هذا الموضع-؛ ومنها: الاستغفار بعد السلام من الصَّلاة، والاستغفار في السَّحَر بعد قيام اللَّيل، وفي الذِّكر بعد الوضوء، وغير ذلك.

---

(١) سُمُّوا بذلك؛ لأنهَّم تحمَّسوا في دينهم، أي: تشدَّدوا بما كان عليه آباؤهم.

(٢) رواه البخاري (٤٥٢٠)، ومسلم (١٢١٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٢١).

ومـن فوائد الاسـتغفار بعد العِبـادة: ألَّا يدخل العُجْـبُ إلى النفس بعد أدائهـا العِبادة، والتنبيه على أنَّ العبد لا يخلو من تقصيرٍ في أداء العِبادات، مهما جوَّدها وأتقنها.

فعـلى الحاجِّ ألَّا ينسـى نصيبَه من الاسـتغفارِ والإكثـارِ منه، وأن يتخيَّر مـن ذلك أدعيـة الاستغفار الواردة في الكتاب والسُّنَّة، ومنها: سيِّد الاستغفار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: هـذا تعليلٌ للأمر بالاسـتغفار، بـأنَّ الله ﴿غَفُورٞ﴾ لذُنوب المستغفِرين، ﴿رَّحِيمٞ﴾ يتقبَّل توبتهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الناس في أحكام الله سواء.

وفيها: أنَّ الإفاضة تكون مع الناس دون إيذاءٍ لهم، وقد سُـئِل أسـامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف كان رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسـيرُ في حَجَّةِ الوَدَاعِ حينَ دَفَعَ (يعني: من عرفة)؟ قال: «كَانَ يَسِـيرُ العَنَقَ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ»[1].

والعنَق: السير بينَ الإبطاء والإسراع، والنصُّ: سُرعة للإبل أعلى من العنَق، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وجد مُتَّسعًا أسرع، وإلَّا سار كما يسير الناس، لا يُؤْذِيهم.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾:

قولـه تعـالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم﴾ أي: أنهيتـم وأدَّيتـم ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ أي: أعمـال حجِّكـم، وفرغتُـم منها، وذبحتُم نسـائِككم، وتحلَّلتُم من نُسُـكِكم، بعد رَمْـي جمرة العقبة والاسـتقرار بمنـى؛ ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في أيَّـام التشريـق في مِنـى وغيرهـا. ﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ أي: كما كنتم تذكرون آباءكم -أيُّها العرَب- وتفاخرون بهم بعد الفراغ من

---

(١) رواه البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

موسم الحجِّ، وتنشغلون بذِكر مآثرهم. أو: أكثِروا أيُّها الحُجَّاج من ذكر الله، كما يُكثِر الولدُ من ذِكر أمِّه وأبيه، وهو لا يعرف غيرهما.

﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ أي: بل أشدّ ذكرًا من الآباء، أو: إن لم يَزِد، فلا ينقُص.

ثم أرشد تعالى إلى دُعائه بعد كثرة ذِكره. والدُّعاءُ في المشاعر في تلك الأيَّام عظيمٌ، وهو مَظِنَّة الاستجابة، جامعٌ بينَ شَرَف الزمان وشَرَف المكان.

وقد ذمَّ تعالى مَن لا يدعوه ويسأله إلَّا في أمور الدُّنيا، وينسى الآخرة؛ فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعضهم ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ أي: أعطِنا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: من أمور الدُّنيا، كالمال، والصِّحَّة، والجاه، والدار، والمركَب ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي: ليس له حظٌّ ولا نصيب في الآخرة ألبتة؛ لأنَّه لم يكن يريد إلَّا الدُّنيا.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ أي: من الحُجَّاج وغيرهم من المسلمين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: ما يُستحسَن منها، من الصِّحَّة والعافية، والزوجة الحسنة، والدَّار الواسعة، والعِلْم النافع، والمركَب الهنيّء، وسَعَة الرِّزق، ونحو ذلك. وسؤاله يدلُّ على فِقهه، بخلاف الأول؛ فإنَّ الثاني يطلب من خير الدُّنيا ومتاعها ما لا حرام فيه، ولا مضرَّة عليه.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ أي: نعيمًا وفضلًا، كنُور الوَجْه، وإيتاء الكتاب باليمين، وتخفيف الحساب، والتظلُّل في ظلِّ العرش، وسُقيا الحَوض، وعلى رأس ذلك: الجنَّةُ ونعيمها -فهي الحَسَنة العُظمى في الآخرة- وأعظَم نعيمها: رؤية الله تعالى.

قال بعضُ السلف: «مَن أُعطيَ قَلْبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا؛ فقد أُوتيَ في الدُّنيا حَسَنة وفي الآخرة حَسَنة، ووُقيَ عذاب النَّار»(١).

وقيل: «مَن آتاه الله الإسلام والقرآن، وأهلًا ومالًا؛ فقد أُوتيَ في الدُّنيا حَسَنة وفي الآخرة حَسَنة»(٢).

قوله ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ادفَعْه عنَّا، بعِصمتنا مِن عمل أهل النَّار، ومغفرة الذُّنوب التي تُوجِبُ دخول النَّار.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٩).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٩٢).

وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الدَّاعون بالحسَنتَين ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ أي: حظٌّ وافرٌ ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي: لأجلِ ما عمِلوا من الحجِّ والدُّعاء. أو: بسبَب ما قاموا به من الأعمال الصالحة.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: سريع المحاسَبة للعباد، على كثرتهم وكثرة أعمالهم؛ فلا يَعْسُر عليه حسابُهم، ولا يَعْجِز عنهم. فيعرِضُ أعمالهم عليهم، ويَزِنها بميزانه العَدْل، ويُقرِّر المؤمنَ بذُنوبه إذا أدناه مِنه، ثم يغفرها له، ويُطيل وقوفَ الكافر والفاجر، ويُعامِله بما يستحقُّ، وحسابهم جميعًا كحساب الواحد منهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أهميَّة الذِّكر بعد قضاء العِبادة، وأنَّه يعوِّض التقصير فيها.

وفيها: تقديم ذِكر الله على ذِكر الوالدَين.

وفيها: انقسام هِمَم الناس إلى: دنيئةٍ لا تهتمُّ إلَّا بالدُّنيا الدَّنيَّة، وهِمَم عالية تطلُب خيرَ الدُّنيا والآخرة.

وفيها: مشروعيَّة سؤالِ الله حسناتِ الدُّنيا، وأنَّ الإنسان مُحتاج إليها.

وفيها: فَضْل هذا الدُّعاء العظيم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وقد قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وَكَانَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ[1]، وهو من جوامع الدُّعاء.

وروى مسلم عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله لَا تُطِيقُهُ -أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ- أَفَلَا قُلْتَ: اللهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ، فَشَفَاهُ[1].

وفيها: أنَّ الله قد يجيب دعوةَ الكافر والفاجر وطلبَه من الدُّنيا، ولكنَّها إجابةُ فِتنةٍ، لا إجابة تكريم.

وفيها: أنَّه تجب الغَيرة لله والحميَّة له ولدينه، أشدُّ من الغَيرة والحميَّة والدِّفاع عن الآباء.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾:

قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: يا أيُّها الحُجَّاج، بالتكبير المُطلَق والمقيَّد، والتحميد والتسبيح والتهليل. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ وهي: أيَّام التشريق الثلاثة، وقيل: معها يوم النحر.

وسُمِّيت ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ لقِلَّتهنَّ. ومن الذِّكر فيها: ما يكون عند رمي الجمرات، وخلفَ الصلوات، وذِكر الله بالتسمية والتكبير عند ذَبح الهدي والأضاحي، وذِكر الله على الأكل والشُّرب -بالتسمية في أوَّله، والحمد في آخره-.

وقد قال النبي ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لله»[2].

وفي حديثٍ آخر: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»[3].

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي: فمَن استعجلَ بالنَّفر من مِنى إلى مكة، في ثاني أيَّام التشريق (الثاني عشر من ذي الحِجَّة)، قبل الغروب، بعد رمي الجِمار؛ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لا حرج في تعجُّله.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨).

(٢) رواه مسلم (١١٤١).

(٣) رواه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٤/ ١٣٠).

﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي: بـاتَ في مِنـى ليلة ثالث التشريق، ورمى الجِمار بعد الزوال؛ ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: في تأخُّره.

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي:المتعجِّل والمتأخِّر، فيأتي كلُّ واحدٍ منهما بالمأمورات، ويجتنب المحظورات في حجِّه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المستقبَل بعد الانصراف من الحجِّ، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يومَ القيامة، بعد البَعْث من قبوركم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضل الذِّكر في أيَّام التشريق.

وفيها: رُخصة الله في التعجُّل بالنَّفر من منى.

وفيها: فَضْل المتأخِّر على المتعجِّل؛ لأنَّ معه زيادةُ عمل، وهو زيادةُ رَمْي إحدى وعشرين حَصاة، والمبيت ليلةً بمِنى.

وفيها: أنَّ انتفاء الإثم لمن أخذ بالرُّخصة بالتعجُّل، مقيَّد بالتَّقوى.

وفيها: اقتران المواعظ بالتخويف من الآخرة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾:

لـمَّا ذكر تعالى في الآيات السابقة قسمَين من الناس، وهما: مَن همُّهم الدُّنيا ولا رغبة لهم في الآخرة، ومَن يريد خيرَ الدُّنيا والآخرة؛ ذكرَ بعد ذلك نوعَين آخرَين من الناس، يناسبان ما تقدَّم: نوعٌ حُلْو المنطِق، لكنَّه أسودُ القَلْب، ونوعٌ تُطابِق سريرتُه علانيتَه، ويسعى لمرضاة الله؛ فقال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وقيل: هي عامَّة في المنافِقين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ [المنافقون: ٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو الصحيح»(١).

وقوله ﴿يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: تَسْتَحْسِن قولَه في أمورِ الدُّنيا وأسبابِ المعاش، وهؤلاء قومٌ ألسِنَتُهم أحلَى مِن العَسَل، وقُلُوبهم أمرُّ مِن الصَّبِر، يلبسون للناس جُلودَ الضأن على قُلُوب الذئاب، وحالُهم كما قال الشاعر:

يُعْطيكَ مِن طَرَفِ اللِّسان حلاوةً ... ويَروغُ منكَ كما يَروغُ الثَّعْلَبُ

قوله ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أي: يحلف بالله أنَّ قَلْبه موافقٌ قولَه، وأنَّه على الإسلام، وهو في الحقيقة كاذِبٌ مستمرٌّ على النِّفاق، مبارِزٌ لله تعالى بما في قَلْبه من الكُفر. ولذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي: شديد الخُصُومة والعداوة، يكذِب ويفجُر.

وقد ذكر النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علامات المنافِق: «إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٢)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله: الأَلَدُّ الخَصِمُ»(٣)، وهو شديد الخُصُومة بالباطل، بكَذِبه وزُوره، ومَيله عن الحقِّ.

وفي الحديث: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزِعَ»(٤).

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: انصرف وذهب. وقيل: تولَّى مقاليد الأمور؛ ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: قَصَدَ وعَمَدَ ومشى حثيثًا ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾: بقطع الأرحام، وسَفك الدماء، وتفريق الكلمة، ونحو ذلك. ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ﴾: يُتلِف الزرع، بالإحراق ونحوه. ﴿وَٱلنَّسۡلَ﴾: يقتُل أولاد البهائم وغيرها، ظُلْمًا وعدوانًا، فجمعَ إلى سيِّء المقال سيِّء الفِعال.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٤٨).

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: يكرَهُه ولا يرضى به، ويُعاقِب عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ في وَعْظه وتذكيره: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: اخشَ عقابه، واترُك الكُفر والفساد؛ ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾: الحميَّة والغضب ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بسبَبِ الإثم.

فكان جزاؤه: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيه عذاب السعير، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: قبُحَت فِراشًا وعذابًا، يضطجع عليه.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أنَّ على المؤمنين ألَّا يغترُّوا بظواهر الأحوال، وأن يجتهدوا في تمييز حقائق الناس.

وفيها: أنَّ القول المجرَّد ليس دالًّا على صِدق الشخص، حتى يصدِّق فعلُه قولَه.

وفيها: أهميَّة اختبارِ الشهود، والنظرِ في أفعال الأشخاص عند إرادة الحُكمِ عليهم أو تزكيتهم.

وفيها: خطورة مخالفة الظاهر للباطن.

وفيها: ذَمُّ النِّفاق، والجدل الكاذِب، والخُصُومة الفاجرة.

وفيها: عِلم الله عَزَّ وَجَلَّ بما في الصدور.

وفيها: أنَّ المعاصي سبَبٌ لهلاك الزرع والبهائم؛ لأنَّ المُفسِد في الأرض يكون فسادُه سببًا لمنع المطر، فيموت الزرع، وتَهلك الدواب.

ويؤخَذ منها: أنَّ الذين يعتَدون على زُروع الناس اليومَ بالمركَّبات الكيماويَّة المُفسِدة وغيرها، ويتلاعَبون بخَلْق الله في النَّسل، ويغيِّرون في الجينات الوراثيَّة، ليولَد مَسْخٌ ضارٌّ في أكله واستعماله؛ هم في الحقيقة مُفسِدون في الأرض، داخلون في هذه الآية.

وفيها: التحذير من معانَدة الناصِحين، وخطورة التعالي على الحقِّ، وأن يركبَ الإنسانُ رأسَه؛ بغيًا وعُدوانًا.

وفيها: خطورة الولاة الظَّلَمة؛ لأنَّهم يسعَون في الإفساد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أُنْمُوذجًا للمُفسِدين؛ أعقبه بذِكر أُنموذج الذي يُضَحِّي بما عنده في سبيل الله لإصلاح الناس؛ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعض الناس ﴿مَن يَشۡرِي﴾ أي: يبيع ﴿نَفۡسَهُ﴾ وما يَمْلِك؛ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: لأجل ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: رضوانه.

وجاء في رواياتٍ يتقوى بعضُها ببعضٍ: أنَّ هذه الآية نزلت في صُهَيب بن سنان الرُّومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ أنَّه لـمَّا أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الهِجْرَةَ، مَنَعَته قُرَيشٌ أَنْ يُهاجِرَ بِمَالِهِ، وقالوا له: يَا صهيبُ، قَدِمتَ إِلَيْنَا وَلا مَالَ لك، وَتَخْرُجُ أَنْتَ وَمَالُكَ! وَالله لا يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا! فقال لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ دَفعْتُ إِلَيْكُمْ مَالِي تُخَلُّون عَنِّي؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قال صهيب: «فدفعتُ إِلَيْهِمْ مَالِي، فخلَّوا عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى قدمتُ المَدِينَةَ».

فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ، وقالوا: «رَبح البَيْعُ»، وأخبروه أنَّ الله تعالى أنزلَ فيه هذه الآية.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ الآية نزلت في كلِّ مجاهد في سبيل الله[1].

ولـمَّا اقتحم رجلٌ في صفوف العدُوِّ، وقاتلَ حتى قُتِلَ، قال بعضُ المسلمين: ألقى هذا بيدَيه إلى التهْلُكة، فكتب إليهم عمر: «ليس كما قالوا، هو من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾»[2].

وصَحَّ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال في المراد بالآية: «هم المهاجرون والأنصار»[3].

وقيل في معناها: ومَن يبع ويبذُل نفسَه في طاعة الله -من صلاةٍ، وصيامٍ، وجهادٍ، وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن مُنكَر-؛ صارت نفسُه كالسِّلْعة، وهو كالبائع، والله هو المشتَرِي، والثمن مرضات الله.

وقوله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: ذو رَأْفة بالغة، و(الرأفة): هي أرقُّ الرَّحمة وألطفها، على الوَجه اللَّائِق بالله تعالى، وبكماله وجلاله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٤٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٤-٥٦٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٩).

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٣٠).

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل مَن باع نفسه لله.

وفيها: المكانة العظيمة للإخلاص؛ كما في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: تقديم مرضات الله على النفس.

وفيها -مع الآيات التي قبلَها-: بلاغة القرآن، بذِكر المثاني والصُّوَر المتقابلة، كما في النوعَين المذكورَين.

ويصلُح أن يكون الصِّنفان المذكوران في الآيات مثلًا لطرَفَي القتال في المعركة، وهم: الكفَّار المفسِدون، ومَن يجاهدهم من المسلمينَ الذين باعوا أنفُسَهم لله تعالى.

وفي قِصَّة صُهَيب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: التضحية بالمال لأجل الهجرة في سبيل الله.

وأنَّ الكفَّار لا يدَعون المسلمين، حتى يتسلَّطوا عليهم وعلى أموالهم، وينهَبوا خيراتهم.

وأنَّهم يتركون المبادئ لأجل الأموال.

وشجاعة صُهَيب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

والثَّناء على مَن أحسن عملَه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾:

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين أن يأخذوا بجميع شرائع الإسلام، ويعملوا بكلِّ ما ورد فيه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عقيدةً وقولًا وعملًا ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أي: تلبَّسوا بالإسلام، وادخلوا في طاعة الله ﴿كَآفَّةٗ﴾ أي: جميعًا، واعملوا بجميع أعمال الخير ووجوه البرِّ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: اجتنبوا ما يأمركم به الشَّيطان،

ولا يغُرَّنَّكم تزيينه ولا وَسْوَسته، في أخذِ بعض الدِّين وتَرْك بعضه، أو العمل بغير ما في دين الإسلام. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر العداوة لبني آدم، وللمؤمنين خصوصًا.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ أي: انحرفتُم عن الحقِّ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: أتَتْ وظهرَت الدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات؛ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: قويٌّ، منيع الجَناب، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعِه وقَدَرِه.

وفي الآيتَين من الفوائد:

دخول العمل في الإيمان.

وفيها: وجوب تطبيق الشَّرْع، جملة وتفصيلًا.

وفيها: أنَّ للشيطان خُطُوات، يستدرج بها المؤمنين.

وفيها: وجوب عداوة مَن يجعله الله عدُوًّا.

وفيها: خطورة الانحراف بعد العِلْم وتبيُّن الحقِّ.

وفيها: أثر أسماء الله وصفاته -كـ «العزيز» و«الحكيم»- في خَوفِ المؤمن من ذنبه، ووجوبِ عودته إلى ربِّه.

وفيها: أنَّ النهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ بعد الأمر ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾؛ يدلُّ على أنَّ اتِّباع خُطُوات الشَّيطان يخالِف الدُّخول في الإسلام كافَّة.

وفيها: الرَّدُّ على مَن قال بتجزئة الدِّين، والعمل بما يختص بالشعائر التعبُّديَّة -كالصَّلاة والصيام والحج- أو الأحوال الشخصيَّة -كالميراث والنِّكاح والطلاق- فقط!! بل الواجب تنفيذ أحكام الإسلام جميعًا، وعدم التفريط في شيء منها.

وفيها: أنَّ العمل بجميع الإسلام يستلزِم مخالفة سبيل الشَّيطان.

وفيها: أنَّ الإيمان لا يتمُّ إلَّا بالدُّخول فيه ظاهرًا وباطنًا، باللِّسان والقَلْب والجوارح، وقد وصف الله بعضَ أهل الكُفر أنَّهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١].

وفيها: أنَّ عقوبة العالِم بالذنب، أعظمُ من عقوبة الجاهل به.

وفيها: أنَّ الإسلام يُغني عمَّا سواه.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾:

ثم قال تعالى، مهدِّدًا الكافرين بمجيئه لفَصْل القضاء بينَ العِباد يوم القيامة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون. والمقصود: هؤلاء المكذِّبون، الذين كفَروا من بعد ما جاءتهم البيِّنات، واتَّبعوا خُطُوات الشَّيطان. والاستِفهام للنفي، والمعنى: ما ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يجيء بنفسه عَزَّوَجَلَّ، مجيئًا وإتيانًا حقيقيًّا، يليق بجلاله وعَظَمته ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ أي: مع ظُلَل ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ وهو: السَّحاب الأبيض الرقيق، فيكون تشقُّق السماء بالغَمام مقدِّمةً لمجيء الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تأتي صفوفًا، كما قال الله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: فُرِغَ من إهلاك هؤلاء، والفَصْل بينَ الخلائق. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: تُردُّ أمور الخلائق وشُؤونهم؛ ليقضي بينهم، ويجازي كلًّا على عمله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وعيدُ الظالمين يومَ القيامة.

وفيها: إثباتُ إتيان الرَّبِّ تعالى بنفسه يومَ القيامة، ليقضي بينَ عباده. ومن هنا يُعرَف ضلال الذين حرَّفوا الكَلِم عن مواضعه؛ فقالوا في إتيان الله ومجيئه: إتيان أمره، ومجيء أمرِه!

وفيها: تخويف العِباد، بثَوران الغَمام العظيم من كلِّ جانب، مقدّمةً لمجيء الجبَّار تعالى.

وفيها: إثباتُ أنَّ الملائكة أجسامٌ تأتي، خلافًا لمن قال: أرواح بلا أجسام.

وفيها: أنَّ الأمور الشرعيَّة والكونيَّة مرجِعها إلى الله وحدَه؛ فلا يجوز أخذُ التشريع من غيره.

وفيها: إثبات أفعال الله، ومنها: الإتيان والمجيء.

وفيها: زوال سُلطان البشر يومَ القيامة؛ لأنَّ مرجِع الأمورِ كلِّها إلى الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢١١﴾:

قوله تعالى ﴿سَلْ﴾ أي: اسأل يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويا أيُّها المؤمنون الذين يجاوِرون اليهود ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم كلُّ مَن ينتمي إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: أعطيناهم ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾: مُعجِزة واضحة، وحُجَّة قاطعة، تدُلُّ على قُدرة الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وصدقِ نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم كفَروا وجحدوا وأعرَضوا.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: يجعل بدلها كُفرًا، مع أنَّ الواجب عليه أن يؤمن بها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ أي: وصلَت إليه وعرَفها؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: جزاء مَن فعلَ ذلك هو العذاب الشديد. وسُمِّي (العقاب) عقابًا؛ لأنَّه يقع عَقِب الذنب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسلية النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُفر اليهود به؛ فقد أخبره الله تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء اليهود قد كفَروا بالآيات الكثيرة التي أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا غرابة أن يكفروا بك.

وفيها: تقريع اليهود وتوبيخهم.

وفيها: أنَّ معجِزات الأنبياء من نِعَم الله تعالى على عبادِه.

وفيها: وجوب مُقابَلة الآيات بالشُّكر -وهو الإيمان بها- والتحذير من مُقابَلتها بالكُفر، وأعظم نِعمة هي الإسلام، وكُفرها: رفض الدُّخول فيه، وأسوأ منه: الارتداد والخروج منه.

وفيها: مُقابَلة الله لمن كفرَ نِعْمَته بالعقوبة الشديدة.

وفيها: أنَّ نِعمة الدِّين أخطر من نِعمة الدُّنيا، والكُفر بها أشنع وأقبح.

وفيها: أنَّ الكُفر بعد المعرفة والعِلْم والاطِّلاع، أشنع وأقبح؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾.

وفيها: وجوبُ شُكر نِعْمَة الله تعالى علينا في هذا العصر، في التقنيات الحديثة، ووسائل

التواصل المختلفة، والتقدُّم التقَني الكبير -في شبكات الإنترنت وغيرها- باستخدامها فيما يُرضي الله تعالى، لا في معصيته، ولا في تضييع الأوقات.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: جُعِلَت لهم بهيَّة جميلة جذَّابة، فرَضُوا بها، واطمأنوا إليها، وانشغلوا بجَمْعها. والذي باشر التزيين هو الشَّيطان، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، والذي قدَّره هو الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤].

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالإضافة إلى افتتانهم بالدُّنيا، فحالهم أيضًا هو: السُّخرية من المؤمنين؛ لفَقْرهم، أو لاشتغالهم بدِينهم وعمل الصالحات، فهم يضحكون من المؤمنين، ويتغامزون إذا مرُّوا بهم، ويَصِفونهم بأنَّهم من الضالِّين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطفِّفين: ٢٩-٣٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي: اجتنبوا غضب الله، بالاشتغال بعمل الصالحات وعدم الانهماك في الدُّنيا ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مرتبةً ومنزلةً، حِسِّيًّا ومعنويًّا؛ لأنَّ المؤمنين في عِلِّيِّين والكفَّار في أسفل سافلين، ولأنَّ المؤمنين مكرَّمون، والكفَّار في العذاب يُهانون، يسخر منهم المؤمنون ويَضْحكون، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفِّفين: ٣٤-٣٦].

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: يُعطي في الدُّنيا المؤمن والكافر، وفي الآخرة يرزق المؤمنين جنَّات النعيم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يُعطِي في الدُّنيا بغير محاسَبة، ويُعطِي المؤمنين في الآخرة بلا تحديد ولا عدَد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من فِتنة الدُّنيا؛ حتى لا يركن إليها المؤمن.

وفيها: الصَّبر على أذى الكفَّار وسخريَّتهم، وأنَّ العِبرة بكمال النهاية؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

وفيها: تثبيت الله للمؤمنين، وتصبيرهم على أذى الكافرين.

وفيها: البِشارة للمؤمنين، بعُلُوِّهم في الآخرة على الكافرين.

وفيها: إثبات أفعال الله ومشيئته.

وفيها: رِزق الله الوفير، الذي لا يستطيع الحاسبون عدَّه.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى ضلال الكافرين بسبَبِ الدُّنيا؛ ذكر بعدَه كيف كان دِين الخَلْق قبل الانحراف والضلال؛ فقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ من وقت آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: متَّفقين على التوحيد والحقِّ، واختلفوا بعد ذلك، فوقع فيهم الكُفر والشِّرك.

وقد قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «كَانَ بَيْنَ آدمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ من الحقِّ، فلَمَّا اخْتَلَفُوا بعَثَ الله النَّبِيِّينَ والمُرسلينَ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، فكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً»[1].

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾: أرسلَ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنَّة مَن أطاعه ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مُخوِّفين بالنَّار مَن كفرَ بالله وعصاه.

وقد سمَّى الله تعالى منهم جملةً -عددهم خمسة وعشرون- ولله تعالى سِواهم كثيرون، لا يعرِف أسماءَهم ولا أعدادَهم ولا أزمانَهم ولا تفاصيلَ حياتهم وقَصَصهم مع أقوامهم؛ إلَّا خالِقُهم ومرسِلُهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٨٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٧/ ٨٥٤).

وقد وردَ تعدادُهم في أحاديث متكلَّم في أسانيدها؛ فنؤمِن بهم إيمانًا مُجملا[١].

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: مع كلِّ واحد من الرُّسُل كتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: ببيان الحقِّ، وهي حقٌّ من عند الله، وما جاء فيها من الشرائع فهو حقٌّ وصِدقٌ أيضًا.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، أو: كلُّ واحد من الأنبياء، أو: ليكون هذا الكتاب حاكمًا ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: في كلِّ صغيرة وكبيرة من أمور الدِّين والدُّنيا، وفيما اختلفوا فيه من الحقِّ، واختصَموا فيه من القضايا.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الحقِّ والدِّين والكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وهم: الأُمَم والناس الذين أُعْطُوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الآيات والحُجَج الواضحات.

فاختلفوا في الله عَزَّوَجَلَّ: فمنهم مَن وحَّدَه، ومنهم مَن كفرَ به وأشرك.

واختلفوا في الكتاب: فمنهم مَن تمسَّك به، ومنهم مَن حرَّفه وبدَّله. واختلفوا في نبوَّة محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فمنهم مَن آمن به، ومنهم مَن كفرَ.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: لأجل البغي. و(البغي): هو العدوان. فكان الباعث على الاختلاف الحَسَد والعدوان، وإرادة تغلُّب كلِّ فريق على الآخر.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: وهذه هداية التوفيق، المسبوقة بهداية العِلْم والإرشاد ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: الذين أوتوا الكتاب ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: فهدَى الله الذين آمنوا للحقِّ، الذي حصل الاختلاف فيه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بمشيئته وإرادته.

ومن أمثلة هذا: الاختلاف في إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حيث قالت اليهود: كان يهوديًّا، وقالت النصارى: بل كان نصرانيًّا. والحقُّ أنَّه كان مسلمًا حنيفًا.

والاختلاف في عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حيث كذَّبت به اليهود، وجعلته النصارى إلهًا، وهدَى الله أهلَّ الحقِّ إلى أنَّه رسولُ الله وكَلِمتُه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٩)، الجواب الصَّحيح (٢/ ٢٣١)، البداية والنِّهاية (٣/ ٨٩)، لوامع الأنوار البهيَّة للسَّفَّاريني (٢/ ٢٥٨، ٢٦٤).

والاختلاف في عيد الأسبوع، حيث اتخذ اليهود يومَ السبت، والنصارى يومَ الأحد، فهدَى الله أمَّة محمَّد ﷺ ليوم الجمعة؛ وقد قال النبي ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِن بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ من الحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللهُ لَهُ -قَالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ- فَاليَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»[١].

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي﴾ هداية الدلالة، وهداية التوفيق ﴿مَن يَشَآءُ﴾: مَن يستحقُّ، تبعًا لمشيئته وحِكمته وعِلْمه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾: طريق الحقِّ.

وكان من دُعاء النبيِّ ﷺ في استفتاح قيام اللَّيل: «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ من الحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ دين الإسلام هو الفِطرة، وهو الأصل في البشريَّة.

وفيها: أنَّ التبشير والإنذار من الحِكْمة في إرسال الرُّسُل.

وفيها: أن على الدُّعاة أن يجمعوا بينَ هاتَين الطريقتَين للنجاح في الدَّعوة: (الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار).

وفيها: أنَّ من الخطإ والضلال أن يُطلَق على دعاة النصارى مبشِّرين.

وفيها: أنَّ النبوَّة لا تُنال بالكَسْب.

وفيها: أنَّ الشرائع تنقسم إلى أوامر ونواهي؛ لأنَّ الإنذار هو عن الوقوع في المخالَفة، والبِشارة لمن امتثل وأطاع.

---

(١) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥)، واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

وفيها: أنَّ الواجب: الرُّجوع إلى الكتاب والسُّنَّة عند النزاع.

وفيها: أنَّ العقل بلا وحي لا يكفي في الاهتداء إلى الحقِّ بتفاصيله.

وفيها: أنَّ الرُّجوع إلى الكتاب سبَبُ التآلُف والاجتماع.

وفيها: خطورة الانحراف والاختلاف بعد قيام الحُجَّة.

وفيها: أن المخالِف للحقِّ باغٍ وضالٌّ.

وفيها: أنَّ إصابة الحقِّ تتناسب طردًا مع قوَّة الإيمان.

وفيها: الثبات على الحقِّ والاستمرار عليه عند حصول الاختلاف، والتمسُّك بما كان عليه الأمرُ قبل وقوع الاختلاف.

وفيها: أنَّ الله يُيَسِّر معرفةَ الحقِّ واتِّباعه والثبات عليه، لِمَن شاء من عباده.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾:

ثم خاطب الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بسُنَّة قديمة جديدة، وطريقة له في عباده، يُمَحِّصُهم بها ويختبرهم، كما فعل بالمؤمنين قبلهم؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ﴾: بل ﴿حَسِبْتُمْ﴾ أي: ظننْتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بمجرَّد دَعْوى الإيمان، دون ابتلاء واختبار. ولذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي: لم يحدُث فيكم بعد، ولكنَّه متوقَّع حصوله، فارتقِبوه واستعِدُّوا له ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: سُنَّتنا وطريقتنا في الذين مضوا من قبلكم، عندما ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: أصابتهم مباشرةً ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ من: الفقر، والخوف، والبلايا، والشدائد، والمِحَن ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ من: الأمراض، والأوجاع، والمصائب البدَنيَّة. ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي: زُلزِلَت قُلُوبهم بالخوف من عدُوِّهم، فاجتمعَت عليهم المصائب في النفس والمال والبدَن.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من شِدَّة هَوْل ما نزل بهم من البلاء، تساءلوا: ﴿مَتَىٰ﴾ يأتينا ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي وُعِدْنا به؟!

﴿أَلَآ﴾ وهي أداة تنبيه؛ أي: انتبهوا ﴿إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ﴾ لأوليائه ﴿قَرِيبٌ﴾؛ فلا تستبعِدوه.

وقد نزل بالصَّحابة من الشِّـدَّة في مكة ما جعل بعضَهم يأتي إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يقول: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو الله لَنَا؟»[(١)].

ونـزل بالصَّحابة مـن الكُربات في حصار الأحزاب، حتى بلـغ الأمر كما قال الله: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

ثم جاء الله بالفرَج، وكَشَفَ غُمَّة العدُوِّ عن المدينة النبويَّة، ونصَر عباده المؤمنين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تسلية المؤمنين في المِحْنَة، بما وقع لغيرهم قبلَهم.

وفيها: أنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي، لكنَّه صبر ومثابرة.

وفيها: أنَّ من حِكْمة الله في الابتلاء: أن تقام الحُجَّة، لبيان الصادِق من الكاذِب.

وفيها: أنَّه لا يجوز طلب النصر إلَّا من الله.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين عدم اليأس والاستعجال.

وفيها: أنَّ الصَّبر على البلاء في ذات الله من أسباب دخول الجنَّة.

وفيها: تبشير المؤمنين بالنصر، ولو بعد حين.

وفيها: أنَّ الجنَّة حُفَّت بالمكاره.

وفيها: أنَّ تنويع المصائب على العِباد، فيه مزيدٌ من اختبار إيمانهم في الأحوال والمقامات المختلفة.

وفيها: أنَّ بعض الأذى النفسيِّ أشدُّ من البدَنيِّ.

وفيها: أنَّ العاقبة الحسَنة بالنصر والتمكين، لا تكون إلَّا بعد الابتلاء والصَّبر.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

وفيها: أهميَّة مصاحبة أُولي العَزْم والدِّين.

وفيها: نُصْرَة الله لعبادِه من الأنبياء والمرسَلين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾:

وقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، يسألون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ في نفقة التطوُّع، قدْرًا وجنسًا.

﴿قُلۡ﴾ في جوابهم: ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: من قليل المال أو كثيره؛ ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾: فأجابَهم عن قَدْر النَّفقة ولِمَن تُعطى. فأخبرَهم أنَّها تُصرَف للوالدَين -وهما الأبوَانِ وإن علَوْا-.

﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾: جمع (أقرب)، وهو: مَن كان أدنى إليك من غيره، وهم أخصُّ من الأرحام، ويدخل فيهم: الأولاد، والإخْوَة، والأعمام، والعمَّات، ونحوهم.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: جمع (يتيم)، وهو: مَن مات أبوه ولم يبلُغ، ذكرَهم لِصِغَرِهم وعَجْزِهم عن التكسُّب في الغالب.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: جمع (مسكين)، وهو: مَن أسكنه الفقر وأذلَّه.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو: الغريب المسافِر المنقطع، نبَّه عليه لأنَّه قد يحتاج ولا يُحِسُّ أحدٌ بحاجته -لِغُربته-.

ثم جاء الإجمال بعد التفصيل؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ مع هؤلاء أو غيرهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾: بنيَّاتكم، وبما أنفقتم وفعلتُم، فهو محفوظ عنده، فيجازيكم ويُثيبكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِرْص الصَّحابة على معرفة أوجُه البِرِّ والخير.

وفيها: فائدةٌ للمُفتِين، في الجُود بالعِلْم، بجواب السائل جوابًا أشملَ أو أهمَّ من سؤاله.

وفيها: فَضْل البَدْء في النَّفقة بالأقرب فالأقرب.

وفيها: الحثُّ على فِعْل الخير من أيِّ نوع كان، وألَّا يَحْقِر الإنسانُ شيئًا من فِعْل الخير مهما قَلَّ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾:

ثم أخبر تعالى المؤمنين بإيجاب الجهاد عليهم؛ لينشروا دينَه، ويكفُّوا شرَّ الأعداء؛ فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فُرِض ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ لأعداء الله الكفَّار ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي تكرَهُه النفس بطبيعتها البشريَّة؛ لِما فيه من المشقَّة والخوف، وخَطَر تلف الجسد أو بعضه، وذهاب المال.

قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهاد واجب على كلِّ أحدٍ، غزا أو قعد، القاعد علَيهِ إذا استُعين أن يُعين، وإذا استُغيث أن يُغيث، وإذا استُنفِر أن ينفر، وإن لم يُحتج إليه قعد»[(١)].

ولهذا ثبت في الحديث: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ من نِفَاقٍ»[(٢)]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[(٣)].

قوله ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ أي: «وقد». ويمكن أن تكون (عسى) هنا للتوقُّع والترجية؛ فيرجو المسلِم الخير في الشيء الذي شرَعَه له ربُّه. ﴿أَن تَكْرَهُوا۟﴾ بطبيعة النفس، وليس كراهية حُكم الله ﴿شَيْـًٔا﴾ من الأمور المشروعة أو المباحة، ومن الأمور التعبُّديَّة أو العاديَّة ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: في عاقبته الحميدة ونتيجته الجميلة، في الدُّنيا والآخرة. وقد فسرتها الآية الأخرى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وفي الجهاد الذي تكرَهُه النفس نيلُ إحدى الحُسْنيَيْن: إمَّا النصر والغنيمة، وإمَّا الشَّهادة والجنَّة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ كالقعود عن الغزو، وغير ذلك من سائر الأمور ﴿وَهُوَ شَرٌّ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٩١٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

﴿لَّكُمۡ﴾ بما يترتَّب عليه من المفاسد والشرِّ، كاستيلاء العدُوِّ على بلاد المسلمين، وإلباسهم الذُّلَّ والفقر نتيجة القعود عن الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ عواقب الأمور، وما فيه صلاحكم، في دُنياكم وأخراكم. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ما هو الخير لكم، وما هو الشرُّ لكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الجهاد تكرهه النفوس لمشقَّته، ولكنَّ المؤمنين الصادِقين يُحِبُّونه؛ لِـما فيه من الفضل العظيم، وتقديم رضا الرَّبِّ على التعلُّق بالنفس والمال.

وفيها: أنَّ النفس البشريَّة تكره القتال؛ لِـما فيه من المخاطر والآلام، ولكن نفوس المؤمنين راضيةٌ بالحُكم الشرعيِّ الذي أوجبَه الله؛ فنفس المؤمن -وإن كَرِهت مشاقَّ الجهاد-؛ فإنَّها لا تكرَه حُكمه أبدًا.

وفيها: الرِّضا بما جرت به المقادير، ورُبَّما كَرِهَ الإنسان حدوث شيء من قضاء الله، ويكون له فيه خير عظيم.

وفيها: الرِّضا بأقدار الله تعالى، سواء كانت خيرًا أم شرًّا، ساءَتْنا أم سرَّتْنا.

وفيها: أنَّ البشر لا يعلمون الغَيب.

وفيها: أدب العبد مع الله تعالى، بألَّا يقترح على الله تعالى ما لا يعلمه؛ بل يقول -كما في دعاء الاستخارة-: «وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»، وذلك بعد اعترافِه بعَجْزِه في قوله: «فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ»(١).

ويؤخَذ من الآية: عدم الخجل أمام الآخرين من الإقرار بما حَكَمَ الله به، كالجهاد في سبيله، فلا يجوز إنكاره، وإنَّما يُقَرُّ بفرضيَّته، ويبيَّن لغير المسلمين: متى يكون الجهاد؟ وما هو الهدف منه؟ وما هي شروطه؟ ونبذة من أحكامه.

وفيها: أنَّه يجب اعتقاد أنَّ كلَّ تشريع لله فيه الخير والصلاح.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٨٢).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾:

وقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الناس -ومنهم أصحاب محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ المراد به: الأشهر الحُرُم الأربعة، وهي: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن حُكم القتال فيه ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: وِزره عظيم، وهو كبيرة من الكبائر.

ولكن هناك ما هو أعظم منه وأخطر، بيَّنه تعالى في الرَّدِّ على الكفَّار؛ فقال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدُّ المشرِكين أنفُسَهم وغيرَهم عن سبيل الله، وطريقِه المُوصِل إليه، وهي شريعته التي أنزل. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: كُفر بالمسجد الحرام، بعدم احترامه وتعظيمه، عندما أشركوا بالله فيه، وكذلك صدُّهم المسلمينَ عن المسجد الحرام، ومنعُهم من دخوله. ولذا قال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم: النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمهاجرون. ﴿مِنْهُ﴾ أي: من المسجد الحرام، بسببِ الإيذاء والتضييق والاضطهاد.

كلُّ ما تقدَّم من الجرائم ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعظم إثمًا وجُرمًا من القتال في الشهر الحرام.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ وهي: الشِّرك، وفِتنة المؤمنين عن دِينهم وإيذاؤهم، والصدُّ عن سبيل الله ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم وِزرًا ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: من قَتْل المؤمنين للمشرِكين في الشهر الحرام.

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية: عن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَهْطًا، وبعثَ عليهم عبدَ الله بنَ جَحْشٍ، وكتبَ له كتابًا، وأمره ألَّا يقرأ الكتاب حتى يبلغَ كذا وكذا، ولا تُكرِهَنَّ أحدًا من أصحابِكَ على السير معك. فلمَّا قرأ عبدُ

الله الكتابَ استرجعَ، وقال: سمعًا وطاعة لأمر الله ورسوله. فخبَّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجعَ رجلان، ومضى بقيَّتهم. فلقُوا ابنَ الحَضْرَميِّ، فقتلُوه، ولم يَدْروا ذلك اليومَ من رجب أو من جُمادى. فقال المشركون للمسلمين: فعلتُم كذا وكذا في الشهر الحرام؟! فأتَوا النبيَّ ﷺ، فحدَّثوه الحديث؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾ الآية.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا خلاف بينَ أهل التأويل جميعًا أنَّ هذه الآية نزلَت على رسول الله ﷺ في سببَ قَتْل ابن الحَضْرَميِّ وقاتله»(١).

وقوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أي: المشرِكون ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي: يجتهِدون في حَرْبكم، ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾: يُرجِعُوكم عنه إلى الكُفر، ويُعيدُوكم إلى دِينهم الباطل ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾: إن قَدَروا. ولن يستطيعوا ذلك مع أصحاب النبي ﷺ؛ فقد بيَّن عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى أنَّهم لن يستطيعوا صَرْفَ جميع المؤمنين عن دِينهم؛ فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع من الإسلام إلى الكُفر، ﴿فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ﴾ أي: على رِدَّته، لم يرجع إلى الإسلام؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُصِرُّون على الكُفر ﴿حَبِطَتۡ﴾ أي: بطلَت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الصالحة التي عمِلوها ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾؛ حيث تذهب آثارُ طاعتهم، مثل: انشراح الصدر، ونور الوجه، والبرَكة في الرِّزق، وتيسير الأمور، والمحبَّة في قُلُوب الخَلْق، ويستحقُّون- مع ذلك- القَتْل، ولا يرِثون ولا يُوْرَثون، ولا يغسَّلون ولا يُكفَّنون، ولا يُدفَنون مع المسلمين.

وتحبَط أعمالُهم في الآخرة أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وحُبوطها بضياعها، وذهاب أجرها وثوابها؛ لأنَّهم لقوا الله على الكُفر.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلها الملازِمون لها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: مُقيمون، لا يخرجون منها، ولا يموتون.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٠٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجِع الصَّحابة في العِلْم؛ لقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾.

وفيها: اهتِمام الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالسُّؤال عن أمور الدِّين.

وفيها: أنَّ القتال في الشهر الحرام من كبائر الذُّنوب. وأكثر العلماء على أنَّ هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وأنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاتل ثَقيفًا في شهر ذي القَعدة، وكانت غزوة تبوك في رجب، وكلاهما من الأشهر الحرم.

وقد اتفق العلماء على أنَّ الكفَّار لو بدأوا القتال في الشهر الحرام؛ قاتلناهم فيه، ولو بدأ المسلمون القتالَ في غير الأشهر الحُرم، ثم امتدَّ القتال إلى الأشهر الحُرُم؛ واصلَ المسلمون القتال بلا حرج.

وفي الآية: أنَّ الله يختصُّ ما يشاء من الزمان بفضائل وأحكام.

وفيها: تقسيم الذُّنوب إلى كبائر وصغائر.

وفيها: أنَّ الصدَّ عن سبيل الله وفِتنة عباد الله؛ أعظم من القتال في الأشهر الحُرُم، ومن الصدِّ عن سبيل الله: مَنْع الناس من أداء عبادةٍ ما بالقوَّة، أو إلهاؤهم وإشغالهم عنها -كما يحدث اليومَ في وسائل الإعلام المُفسِدة-.

وفيها: تولِّي الله عَزَّوَجَلَّ الرَّدَّ على شُبُهات الكفَّار، وهذا من نَصْره لعباده المؤمنين.

وفيها: أنَّ تفويت الدُّنيا على الناس بالقَتْل، أهون من تفويت الدِّين عليهم بالفِتنة.

وفيها: بيان حِرْص المشرِكين على ارتداد المؤمنين؛ فلذلك يجتهدون في غزو عقولهم وبلادهم.

وفيها: وجوب الحذَر من الكفَّار.

وفيها: أنَّ الرِّدَّة مُبطلة للأعمال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾:

سبَب نزول هذه الآية:

عن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَهْطًا، وبعث عليهم عبدَ الله بنَ جَحْشٍ، في قصَّة تقدَّمت في الآية السابقة، وفيها: أنَّهم قتلُوا ابنَ الحَضْرَميِّ، ولم يَدْروا ذلك اليومَ من رجب أو من جُمادى؛ فقال المشرِكون للمسلمين: فعلتُم كذا وكذا في الشهر الحرام؟!، وقال بعضُهم: إن لم يكونوا أصابُوا وِزرًا فليس لهم أَجْرٌ؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية[1].

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدَّقوا بالله وعملوا الصالحات، ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾: فارقوا وطنَهم في بلد الكُفر إلى بلد الإسلام، لإقامة دين الله، وكذلك هجروا ما نهى الله عنه، ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: بذلوا الجهد في قتال المشرِكين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتَّصِفون بهذه الصِّفات. و(أولئك): اسم إشارة للبعيد، وفيه التنويه بفَضْلِهم، وعُلُوِّ هِمَّتهم ومنزِلَتِهم. ﴿يَرۡجُونَ﴾ (الرجاء): هو الطمع في حصول ما هو قريب ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: يطمعون في نيلها. وجنَّته من آثار رحمته.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لهم، إن كان حصل منهم تفريطٌ، أو تقصيرٌ. ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم، يُجْزِل لهم الأجر والثواب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الأعمال الثلاثة، وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد.

وفيها: تعزيةٌ للمُحْسِنين -وإن أخطأوا- بالثَّناء على ما فعَلوه.

وفيها: تثبيت نفوس المؤمنين، بالدِّفاع عنهم في مواجَهة هجماتِ الكفَّار وحَرْبِهم النفسيَّة.

وفيها: أنَّه لا ينبغي للإنسان أن يَجْزِم بقَبول عمله؛ بل يكون راجيًا لرحمة ربِّه.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٨٨).

وفيها: عدم الاغترار بالأعمال.

وفيها: حُسن الظنِّ بالله.

وفيها: فَضْل الله العظيم، بتوفيق عباده الصالحين، بأن بيَّن لهم ما هو العمل الصالح، ثم أقدَرَهم عليه، ثم أعطاهم عليه ثوابًا مُضاعَفًا.

وفيها: بيان نجاح المسلمين في أول عمل جهاديٍّ قاموا به؛ فسريَّة عبدِ الله بنِ جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُعَدُّ أول لواءٍ عُقِدَ في الإسلام، وغنيمتهم أولَ مغنم قُسِّم في الإسلام.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى من مصارف الإنفاق في الطاعات: الإنفاقَ على الأقارب في الجهاد وغير ذلك؛ ذكر حُكمَ بعضِ ما تُنفَق فيه الأموال في المحرَّمات؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: الناس -ومنهم أصحاب محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ أي: عن حُكم تناوله وتعاطيه. و(الخمر): كلُّ ما أسكرَ وغطَّى العقل، على وجه اللَّذَّة والطرَب. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هو: كلُّ لَعِب، فيه مخاطرة بينَ رِبح وخسارة.

وقد ورَدَ في سبَب نزول هذه الآية: عن عمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»؛ فنزلت الآيةُ التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(١).

﴿قُلْ﴾ جوابًا لمن سأل: ﴿فِيهِمَآ﴾ أي: في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ضرر عظيم كثير؛ لِما يحصل بسبَبِهما من العداوةِ والبغضاءِ، وإتلافِ المال، وسَلْبِ العقل، وصدٍّ عن ذِكر الله وعن الصَّلاة، وسَلْبِ أموال الآخرين.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقولـه ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: مصالـح، كأرباح التجارة، وإصابة المال بلا تَعَب، وحَمل البخيل على الكَرَم، واللَّذَّة والطرَب، والدِّفء في البَرْد.

ولكـنَّ كلَّ هذه المصالـح مغمورةٌ في أضرارهما العظيمـة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي: المفاسد والعقوبات في الدُّنيا والآخرة؛ أكبر ممَّا يحصل من بعض المصالح.

وفي الآية: حِكْمة الشـارع في التدرُّج بالتشريع؛ فإنَّه أنزل في الخمر آية تُبيحه وتغمِز فيه؛ وهـي قولـه تعـالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ثـم أنزل آية تُنفِّـر منه؛ ليمتنع عنه أصحاب العقول السـليمة؛ وهي قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، ثـم أنـزلَ آية تمنعه في وقـتٍ دون وقت؛ وهـي قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزلَ آية تحرِّمه تحريمًا قطعيًّا؛ وهي آية المائدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ وهـذا هـو السـؤال الثـاني في الآيـات: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: أيّ شيءٍ يُنفِقون من أموالهم فيتصدَّقون به؟ يعني: ما مقدارُ ما يُنفِقون من أموالهم؟

﴿قُلِ﴾ يـا محمَّد ﷺ، في الجواب: ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ أي: أنفِقـوا العفْو، وهو: ما زاد عن حاجة الإنسان ونفقاته الواجبة. و(العفو) أيضًا: ما سَهُل وتيسَّر ولم يشُقَّ على النفس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان والإظهار ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الدالَّة على الأحكام الشرعيَّـة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لكـي تتأمَّلـوا ﴿فِى﴾ شُـؤون وأحـوال ﴿ٱلدُّنْيَا﴾؛ فتعرِفوا أنَّها فانية، فتزهَدوا فيها. ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ فتعرِفوا أنَّها باقية، فتُقبِلوا عليها. وتتفكَّروا أيضًا في أحكام شريعته، وما فيها من الأسرار العظيمة.

وفيهـا: أنَّـه لا يجوز التقتيرُ عـلى الأهل، ومَنعُهـم النَّفقةَ من أجل الصَّدَقـة، فإذا تعلَّقت حاجةُ الأهل بالمال؛ فلا يجوز الصَّدقةُ به.

ثم قال تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾:

وسبَب نـزول هذه الآيـة: ما جاء عن ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لـمَّا نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ عزَلُوا أموال اليتامى، حتى جعل الطعامُ يَفْسُد،

واللَّحم ينتِن؛ فذُكِر ذلك للنبيِّ ﷺ، فنزلت: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾، قال: فخالَطوهم»[(١)].

قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هذا هو السؤال الثالث في الآيات. وكانوا في الجاهليَّة يعتدون على مال اليتيم، وربما تزوَّجوا باليتيمة طمعًا في مالها، فلمَّا حذَّرهم الله من ذلك؛ عزلوا مالَ اليتيم وطعامَه، فشقَّ ذلك عليهم، وسألوا النبي ﷺ؛ فجاب الجواب: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: عَزْلُ أموال الأيتام، أو إصلاحُ أموالهم واستثمارها من غير مُقابِل، مع رعايتهم وتربيتهم دون مُقابِل؛ خيرٌ وأعظمُ أجرًا.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ في الطعام، والسَّكن، والمركَب، والنَّفقة؛ ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم؛ لأنَّ الإخوان يُعِين بعضهم بعضًا، وهم ليسوا أجانب منكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ أي: الخائن، الذي يريد بالمخالطة الاستيلاءَ على مال اليتيم وأخذَ أكثره. ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ الذي يَقصِد الإصلاحَ، وتلافي الحَرَج والضيق والمشقَّة. فيُجازِي كلًّا على حَسَب قَصْده.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لأوقعَكم في الحرَج والمشقَّة، وشدَّد عليكم بتحريم المخالَطة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: منيع الجانب، لا يُغلَب ﴿حَكِيمٌ﴾ في شَرْعِه وقدَرِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإحسان لليتيم، وابتغاء الأصلح له، ورعايته ورعاية ماله.

وفيها: أنَّ المشقَّة تجلب التيسير.

وفيها: أثر النِّيَّة الحسَنَة والسيِّئة في الحُكم على العمل.

وفيها: التنبيه على ما يجمع اليتيم مع بقيَّة المسلمين، من رباط الأُخُوَّة الإيمانيَّة.

وفيها: بيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ في تجنيبِ عباده المشقَّة والحَرَج، ورفعِها عنهم.

وفيها: تحرُّج الصَّحابة من أموال اليتامى، وهذا دليلٌ على ورَعِهم، وصِدقِ إيمانهم، وخوفِهم من الله تعالى.

---

(١) رواه أحمد (٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٨٧١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

وفيها: أنَّ مَن قصَد الإحسان في مال اليتيم؛ فلا يُلام.

وفيها: معاملة اليتيم معاملة الإخوان، والتحذير من إفساد أموالِهم والغِشِّ في مصالحهم، وتذكير القائمين على اليتامى بعِزَّة الله، وأنَّه يَقْهَر ويَغْلِب؛ حتى لا يقهروا الأيتام ولا يَغْلِبوهم على أموالهم.

وفيها: أهميَّة تربية اليتيم، وتخليقه بالأخلاق الحسَنة، وتأديبه بالآداب الشرعيَّة، وأمره بواجبات الدِّين، ودَرْء المفاسد عنه، وموعظته، وتأهيله للكَسْب الحلال.

وفيها: أنَّ مخالطة الإخوان في الله، وإشراكهم في النَّفقة؛ مبنيٌّ على المسامَحة.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾:

ثم قال تعالى، محذِّرًا من زواج المشرِكات: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ أي: ولا تتزوَّجوا وتَعْقِدوا النِّكاح -أيُّها المؤمنون- على ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ وهُنَّ: كلُّ مَن جعلَتْ مع الله شريكًا. ويُستثنى من هذا الحُكم: الكتابيَّات، الحرائر، العفيفات -مع كونهنَّ مُشرِكات-؛ فقد خُصِّص هذا الحُكمُ العامُّ بآية أخرى من كتاب الله، في إباحة نساء أهل الكتاب؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]؛ فجعل لهنَّ حُكمًا خاصًّا في النِّكاح.

ونهى الله تعالى عن نكاح بقيَّة المشرِكات، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي: يدخُلنَ في دِين الله، ويُصْبِحنَ من الموَحِّدات المسلِمات.

﴿وَلَأَمَةٌ﴾ أي: مملوكة ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ بالله ورسوله؛ فالزواج منها ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضل، وأنفع، وأصلح ﴿مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ بالله، ولو كانت حُرَّة، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: لجمالها، أو حَسَبها، أو مالها، أو ذكائها، ونحو ذلك.

وقوله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: خطابٌ لأولياء النِّساء، بألَّا يُزَوِّجوا نساءَهم المؤمناتِ من الكفَّار والمشرِكين، ولو كانوا من أهل الكتاب، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ بالله.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ من الأرِّقاء المملوكين ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أصلَح لكم، وأفضل عند الله من تزويج المسلماتِ، ﴿مِّن مُّشْرِكٍ﴾ بالله، ولو كان حرًّا ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: لحَسَبه، أو ماله، أو جاهه، أو غير ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفَّار والمشرِكين ﴿يَدْعُونَ﴾ بأقوالهم وأفعالهم ﴿إِلَى﴾ الشِّرك والكُفر، المؤدِّي إلى دخول ﴿ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة، فيتسلَّط على المسلِمة، ويحملها على الكُفر، فيؤدِّي بها إلى النَّار.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ العِباد ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: بتعريفهم الأعمالَ الصالحة، وحثِّهم عليها، ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾: بدعوتهم إلى التوبة؛ ليغفر لهم ذُنوبهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتوفيقه ومشيئته وكرَمه. ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾: يُوَضِّح لهم الحُججَ والبراهين، في أحكامه وتشريعه؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتَّعِظون ويعملون بها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ خير الدِّين مُقدَّم على خير الدُّنيا.

وفيها: حِكْمة الشريعة في التفريق بينَ جعل المسلِمة تحت المشرِك؛ لئلَّا يُجْبِرها على الكُفر، وبيان إباحة زواج المسلِم من الكتابيَّة الحرَّة العفيفة؛ لأنَّه الطرَف الأقوى.

وفيها: أنَّ الأَمَة المؤمنة خيرٌ من الحرَّة المشرِكة؛ لأنَّ المشرِكة تؤثِّر على أولاد المسلِم بالكُفر، وقد تفتِنه هو عن دِينه.

وفيها: أنَّ الزوج هو وليُّ نفسه، فلا يحتاج إلى وليٍّ؛ لأنَّه وجَّه الخِطاب إليه بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾.

وفيها: عدم الاغترار بالظاهر والصورَة والاعتبارات الدُّنيويَّة؛ بل ينبغي الرُّجوع إلى الحقائق الشرعيَّة، وأنَّ التفضيل والاختيار يكون بناءً عليها.

وفيهـا: الرَّدُّ على مَن يُنادِي بالمسـاواةِ بـينَ أتباع الأديان، وإعطاءِ جميع السُّكَّان في البلد الواحد حقوقًا متساوية؛ لأنَّ الله فاوتَ بينهم، ولا يستوي عنده الكُفر والإسلام.

وفيها: أنَّ التعمُّق في دراسة الأحكام الشرعيَّة يقود إلى زيادة الإيمان والالتزام به.

وفيها: أنَّ الكفَّار لا يتوانَون عن الدَّعوةِ إلى كُفرهم، وجَذْبِ الناس إليهم، وحملِهم عليه بكلِّ وسيلة، كما تفعله اليومَ الكنائسُ بإمكاناتها الهائلة.

وفيها: أنَّ الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا، ولا يُجيز أن يتسلَّط الرجل الكافر -وهو الأقوى طرَفًا- على الزوجة المسلِمة -وهي الأضعف-.

وفيهـا: خَطْر جعلِ المسلِم أو المسلِمة تحت سلطان أو إدارة أو نفوذ كافر أو كافرة، والحذَر من مخالطة المشرِكين بدون مصلحة شرعيَّة راجحة.

وفيها: أنَّ أولياء المرأة هم الذين يُزَوِّجونها، وأنَّها لا تُزوِّج نفسها.

وفيها: أنَّ مسئوليَّة الأولياء خطيرة وعظيمة.

وفيها: أنَّ الحُكم يدور مع عِلَّته -وجودًا وعدمًا-؛ فحُكم غير المؤمن يتغيَّر إذا آمن.

وفيها: إرادة الله الخيرَ لعباده.

وفيها: التثريب على الذين يغترُّون بالمظاهر، دون اعتبار الحقائق.

وفيها: عَقد المقارنة بينَ الأضداد؛ ليزدادَ الأمر وضوحًا.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾:

جاء في سبب نزول الآية: ما رواه مسلم[1]، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) صحيح مسلم (٣٠٢).

النَّبـيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعـالَى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ».

فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ من أَمْرِنا شَيْئًا إِلَّا خالَفَنَا فِيهِ!

وقوله ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ أي: أصحابك، أو الناس، أو المسلمون ﴿عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: عن إتيان النِّساء في مكان الحَيض: أيحِلُّ ذلك أم يحرُم؟ وكان أهل الجاهليَّة يُشابهون اليهود في نَبْذ المرأة إذا حاضت، وكانت النصارى يطأون نساءَهم ولا يبالون بالحَيض.

فقال تعالى: ﴿قُلۡ﴾ يا محمَّد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، في جواب السؤال: ﴿هُوَ أَذٗى﴾ أي: قذِرٌ، ضارٌّ بالزوج والزوجة، ولذلك أمر الله عباده بتَرْك وَطء الحائض؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: اجتنِبوا جِماعهنَّ ﴿فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي: في مكان الحَيض، وهو الفَرْج. ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ أي: لا تقربوا جِماعهنَّ ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ أي: ينقطع الدم. وعلامة الطُّهْر: نزول السائل الأبيض، أو الجفاف التامّ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ أي: اغتسلْنَ من بعد الحيض؛ ﴿فَأۡتُوهُنَّ﴾ أي: جامِعوهنَّ ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: في موضع خروج الدم، وهو القُبُل، لا الدُّبُر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الذُّنوب والآثام، التارِكين لها بالنَّدَم، العازِمين على عدم العَوْد، ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ من الأحداث والنجاسات الحِسِّيَّة، والمتنزِّهين عن المعاصي والفواحش، الجامِعين بينَ طهارة الباطن والظاهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وسَطيَّة هذه الشريعة، بينَ إفراط اليهود، وتفريط النصارى.

وفيها: جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض (من زوجة وأَمَة)، فيما عدا الفَرْج، وهذا قولُ أكثر العلماء؛ كما في الحديث المتقدِّم: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»[١]، وكما صحَّ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «له كلُّ شي إلَّا فَرْجها»[٢].

(١) مسلم (٣٠٢).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٣٧٨).

وقال بعضُهم: يجب تغطية ما حول مكان خروج الدم أيضًا -بإزار ونحوه- إذا أراد الاستمتاع بها؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ مَا فَوْقَ الإِزَارِ»(١)؛ لئلاَّ تؤدِّي مباشرتها إلى الوقوع في المحظور -وهو الوَطء في الفَرْج-.

وفَهِمَ بعضُ العلماء من قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾: تَرْكَ مباشرة الحائض فيما بينَ السُّرَّة والرُّكبة؛ خشية الوقوع في المحظور المؤكَّد -وهو إتيانها في مكان خروج الدم-.

وفي الآية: تحريم وَطء الحائض، وأنَّ مَن فعل ذلك فعليه التوبة.

وقال بعض العلماء: عليه أن يتصدَّق بدينارٍ إذا أتاها في فَورة الدم، أو نصف دينار إذا أتاها في آخرِه وقبل الغُسْل. وقد ورد في الباب حديثٌ مرفوع، وصحَّحه بعض العلماء(٢).

وقال آخرون من أهل العِلْم: ليس عليه إلَّا التوبة. ولم يصحِّحوا الحديث.

وفيها: أنَّ المرأة إذا انقطع حَيضها؛ لا يَحِلُّ وَطؤها حتى تغتسل بالماء، أو تتيمَّم عند تعذُّر الاغتسال.

وفيها: حِرْص الصَّحابة على السؤال عن العِلْم، وعدم الاستحياء من السؤال عمَّا لا بُدَّ من معرفته.

وفيها: ذِكْر عِلَّة الحُكم؛ لتتهيَّأ النفوس لقَبوله.

وفيها: رحمة الله بالمرأة والرجل؛ لأنَّ إتيانها في الحَيض مؤذٍ لها ومُضِرٌّ به.

وفيها: أنَّ الله يُحِبُّ طهارة الباطن والظاهر.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: مزرعة لأولادكم، فشَّبه محلَّ الوَطء بالأرض، والواطئَ بالزارع، وماءَه بالحَبِّ؛ فكما ينمو الزرعُ بالبذر والحرث والسُّقيا؛ فكذلك ينمو ولدُ الواطئ.

(١) رواه أبو داود (٢١٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٤)، والترمذي (١٣٦)، والنسائي (٢٨٩)، وابن ماجه (٦٤٠)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٩٧).

﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي: من أيِّ جهة كان الواطئ، فلا حرج عليه أن يأتي المرأة في الفَرْج ومكان الولد، سواءً كان الواطئ خلف المرأة، أو أمامها، أو عن جَنْبها. وأمَّا الوطء والإيلاج في فَتْحة الدُّبُر -مكانَ خروج الغائط-؛ فقد وردَ في النصوص الشرعيَّة النهيُ عنه، ولَعْنُ مَن فعلَه، وأنَّ الله لا ينظر إليه، وهو من الكُفر الأصغر، وهو اللُّوطيَّة الصغرى[١]؛ فهو عُدوان وحرام، ويُنافي الحياء. وقيل: إنَّ ذلك كان أولَ انحرافِ قوم لُوط.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتِ اليَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا من وَرَائِهَا[٢]؛ جاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ! فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾»[٣]؛ فأبطل الله عَزَّوَجَلَّ قولَ اليهود هذا.

وورَدَ في سبَب نزول الآية أيضًا: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يا رَسُولَ الله، هَلَكْتُ! قَالَ: «وَمَا أَهْلَكَكَ؟»، قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِي اللَّيْلَةَ[٤]! قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، قَالَ: فَأُوحِيَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾، «أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ»[٥].

وقوله تعالى ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: قدِّموا إلى الآخرة الطاعاتِ والأعمالَ الصالحة، ولا تنشغلوا بالنِّساء عنها، وليكُن لكم أيضًا في إتيان نسائكم عملٌ صالح تتَّخذونه للآخرة، وذلك بالنِّيَّة الصالحة في الوَطء، من إعفافِ النفس، وإعفافِ الزوجة، ووَضْعِ الشهوة في الحلال، وقَبول ما أباحه الله، وابتغاءِ الولد من هذا الوَطء؛ لعلَّه أن يكون صالحًا، ونحو ذلك من النيَّات الحسَنة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بفِعْل أوامره، واجتناب نواهيه، ومن هذه النواهي: وَطء مَن لا تَحِلُّ،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٢)، بلوغ المرام (ص٣٠٩)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٢٤-٢٤٣٤).

(٢) يعني: من الخلف في الفَرْج.

(٣) رواه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).

(٤) وهذا أدب لطيف، وكلام عفيف، يريد منه الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه جامع امرأته في الفَرْج، لكن كان من ورائها، فلأدبه ومراعاة مقام النُّبُوَّة استعمل هذه العبارة.

(٥) رواه الترمذي (٢٩٨٠)، وحسَّنه الألباني في آداب الزفاف (ص١٠٣).

والـوَطء في الحَيْضـة والدُّبـر، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي: يـومَ القيامـة بعـد البَعْـث؛ فاستَعِدُّوا لهذا اللِّقاء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: أخْبِرهُـم بما يسُّرهم، من الفوز العظيم، وجنَّات النعيم، إذا اتقَوا ربَّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مُعاشرة الزوجة بالمعروف.

وفيها: الإشارة إلى الحثِّ على تكثير النَّسْل؛ لأنَّ الزارع يزرع أكبر ما يمكن من الأرض. ودعوة تحديد النَّسْل من دسائس أعداء الإسلام، ومن خُبث نواياهم.

وفيها: أنَّ العادات والمباحات تنقلِب بالنـِّيَّة الطيِّبة إلى عبادات.

وفيها: أنَّ الإنسان مع الشهوة يبتغي ما فيه الحِكْمة والفائدة.

وفيهـا: أنَّه ينبغي على الزوج أن يحافظ على صِحَّة زوجته، وتقوية قُدرتها على الإنجاب، كما أنَّ صاحب الأرض يحافظ على حَرْثه ويتعاهَدُه.

وفيهـا: اجتناب المـرأة في الموضع الذي حرَّمـه الله، والأحوال التـي حرَّمها الله -كحال صيام الفريضة، والإحرام، والاعتكاف، والحَيض والنِّفاس-.

وفيها: الإشارة إلى ذِكر الله عند الجِماع؛ لقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾.

وفيها: تقوى الله في الأهل.

وفيها: وَعْظ المخالفين لأمر الله، بأنَّهم سيُلاقونه.

وفيها: فضيلة الإيمان؛ لأنَّ الله تعالى علَّق البُشرى عليه.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾:

قولـه تعـالى ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي: لا تجعلـوا الحَلِف بـالله مانعًا

وحاجزًا لكم عن عمل الطاعات، وأن ﴿تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فلو حلف ألَّا يصنع خيرًا، أو ألَّا يَصِلَ رَحِمًا، أو ألَّا يدخُل بينَ اثنين في الصُّلْح؛ فإنَّ عليه أن يأتي الخير، ويُكفِّر عن يمينه، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي واللهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا»[(١)]؛ أي: جعلتُها حلالاً بالكفَّارة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾: يسمع كلَّ شيء، وما تتلفَّظون به من الأيمان ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء، وبنيَّاتكم، وأحوالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِفظ اليمين، وعدم الإكثار من الحَلِف بالله؛ لأنَّه جُرأة على الله، ويدلُّ على قِلَّة التَّقوى، ويُعرِّض الإنسان نفسَه فيه إلى مخالفة يمينه. ومن يُكثِر من الأيمان قلَّما يُخرِج الكفَّارة إذا حنث. ومَن أكثرَ الحَلِفَ في كلِّ حقٍّ وباطل، وعظيم وتافِه؛ ذهبَت هيبةُ اليمين من نفسه، فينتهكها لأدنى سبَبٍ -شعرَ أم لم يشعر- وهذا من أسباب ذهابِ تقوى الله من القَلْب، وقِلَّةِ فِعْل البرِّ.

وفيها: أنَّ مَن حلف على تَرْك واجب أوفِعْل محرَّم؛ فلا يجوز له العمل بمقتَضى يمينه.

وفيها: أنَّ التمادي في الباطل، والإصرارَ على الخطإ، بحُجَّة اليمين التي حلفَها؛ أشدُّ إثمًا من مخالَفةِ اليمين وإعطاءِ الكفَّارة؛ كما في الحديث: «والله، لَأَنْ يَلَجَّ[(٣)] أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ؛ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ من أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللهُ»[(٤)].

والمعنى: «أنَّه إذا حلفَ يمينًا تتعلَّق بأهله، ويتضرَّرون بعدم حِنثه، ويكون الحِنث ليس بمعصية؛ فينبغي له أن يحنث فيفعل ذلك الشيء، ويكفِّر عن يمينه.

---

(١) رواه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠).

(٣) أي: يقيم على يمينه ولا يحنث بها.

(٤) رواه البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم (١٦٥٥).

فإن قال: لا أحنث، بل أتورَّع عن ارتكاب الحِنث، وأخاف الإثمَ فيه؛ فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحِنث وإدامة الضرَر على أهله، أكثر إثمًا من الحِنث»(١).

وفيها: الحثُّ على فِعْل البرِّ والتَّقوى.

وفيها: فضيلة الإصلاح بينَ الناس؛ لأنَّ الله أفردَه بالذِّكر -مع أنَّه داخلٌ في عُموم البرِّ- والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدلُّ على العِناية به.

ويُفهم منه أيضًا: تحريم كلِّ ما يؤدِّي إلى عكس الإصلاح، كالإفساد بينَ الناس -بالنميمة ونحوها-.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾:

قوله تعالى ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يُعاقبكم، ولا يُلْزِمكم بالكفَّارة. ﴿بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وهو: ما جرى على اللِّسان، ودرجَ في الكلام، من غير قَصد اليمين وإرادة الحَلِف، كقول الشخص: «كلا والله»، «بلى والله».

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّه يدخل في اللَّغْو في اليمين: ما لو حلفَ على شيءٍ يظنُّ نفسَه فيه صادِقًا، ثم تبيَّن له خلاف ذلك؛ فلا كفَّارة عليه. وكذا لو حلفَ ألَّا يفعل شيئًا، ففعلَه ناسيًا؛ فلا كفَّارة عليه.

وقال بعضهم: يدخل فيه أيضًا: اليمين في حال الغَضَب.

أمَّا مَن عقد اليمين، وعزم عليه ونواه، وأرادَه وجزمَ به، أو أكَّده وكرَّره؛ فليس قولُه لَغوًا؛ بل يتحمَّل نتيجة ما تلفَّظ به؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي قَصَدَتْه وعقَدَتْه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده، في لَغْوِ أيمانهم ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلهم بالعقوبة؛ بل يؤخِّرهم ليتوبوا.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٢٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المدار على ما في القُلُوب.

وفيها: أنَّ للقُلُوب كَسْبًا، كما أنَّ للجوارح كَسْبًا.

وفيها: أنَّ مَن حنثَ في يمينه، كاذِبًا أو عامِدًا؛ فإنَّه يُؤاخَذ بذلك.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾:

قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ (الإيلاء): الحَلِف على تَرْك وَطء الزوجة. ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي: الزوجات الحرائر -كما قال بذلك أكثر العلماء- وليس الإماء، وقد عَلِمَ الله ما يكون بينَ الزوج والزوجة من المغاضَبة، وأنَّ بعض الأزواج يمتنع عن إتيان زوجته بالحَلِف؛ فجعل لذلك أمدًا -وهو أربعة أشهر- لا يجوز للزوج أن يزيد عليه؛ فلذلك قال: ﴿تَرَبُّصُ﴾ أي: انتظار ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ قمريَّة.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رَجَعوا إلى زوجاتهم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما حصل من التقصير في حقِّ الزوجات، والتجرُّؤ على الحَلِف بحرمانهنَّ من حقهنَّ. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالأزواج: حيث بيَّن لهم الحُكم والكفَّارة، وبالزوجات: حين جعل أمدَ الإيلاء لا يزيدُ على أربعة أشهر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم ظُلْم الزوجة. وقد كان الواحد من أهل الجاهليَّة إذا أغضبَته زوجته حلفَ ألَّا يطأها، وربما تركَها معلَّقة السنة والسنتَين؛ فأبطلَ الله هذه العادة، وجعلَ للممتنِع عن زوجته أمدًا، فإمَّا أن يَرْجع، وإمَّا أن يُطلِّق؛ حتى لا يقع عليها الضرَر.

وفيها: أنَّ الإيلاء ليس من المعاشَرة بالمعروف، لكنَّه قد يكون أحيانًا مطلوبًا للتأديب؛ كما فعلَه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لـمَّا آذَتْه زوجاتُه بطلب زيادة النَّفقة، ولِما حصل بينهنَّ بسبَبِ شِدَّة الغَيرة، كما في قِصَّة تحريم ماريَة وتحريم العَسَل، فامتنع عنهنَّ شهرًا؛ تأديبًا لهنَّ.

كما روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آلَى رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نِسَائِهِ، وكانَت انفكَّتْ رِجْلُه، فَأَقَامَ

فِي مَشْرُبَةٍ[١] تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلَ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، آلَيْتَ شَهْرًا، فَقَالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»[٢].

وقد جاء عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان إيلاءُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُقْسِمُ بالله، لا أقربُكُنَّ شهرًا»[٣].

وفيها: أنَّ الذي يَحْلِف ألَّا يقرب امرأته أقلَّ من أربعة أشهر، لا ينطبِق عليه حُكم الإيلاء، في تخييره بينَ العودة والطلاق.

وفيها: أنَّ رجوع الإنسان عن خطئه، سببٌ للمغفرة من الله.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٢٧﴾:

قوله ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ﴾ أي: قصدوه. وهذا فِعْل الشَّرْط، وجوابه محذوف، تقديره: «فليوقِعوه».

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الطلاق لا يقع بمجرَّد مُضيِّ الأربعة أشهر، وهو قول الجمهور.

وقد ثبت عن عبدِ الله بنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «إذا مضَت أربعةُ أشهر: يُوقَف حتى يُطَلِّق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يُطَلِّق»[٤].

وفي لفظٍ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أيُّما رجلٍ آلى من امرأته؛ فإنَّه إذا مضت الأربعة أشهر، وُقِف حتى يُطَلِّق أو يفيء، ولا يقع عليه طلاقٌ إذا مضَت الأربعة أشهر حتى يُوقَف»[٥].

فإن رفضَ الرجلُ الطلاقَ؛ أجبرَه عليه القاضي، لأنَّه لا يجوز تعليق الزوجة، ولا يجوز ظُلْمها في الإسلام.

---

(١) أي: غُرفة عالية.

(٢) رواه البخاري (١٩١١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤١١).

(٤) رواه البخاري (٥٢٩٠)، معلَّقًا. وقال: «وَيُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ: عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَعَائِشَةَ، وَاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٥) موطأ مالك (١٨).

والطَّلْقة تكون رَجْعيَّة -عند جمهور العلماء-؛ فله أن يُراجِع زوجته في العِدَّة.

وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالهم، ومن ذلك: الإيلاء والطلاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنِيَّاتِهم وأحوالهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الطلاق بيد الزوج؛ لقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

وفيها: أنَّ حكم الإيلاء يقع على غير المدخول بها أيضًا -وهو مذهب جمهور العلماء-؛ لدخولها في عُموم قوله: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

وفيها: أنَّ الإيلاء بعد الأربعة أشهر حرامٌ.

وفيها: أنَّ الله لا يُحِبُّ الطلاق، والرُّجوع إلى الزوجة أحبُّ إلى الله من الطلاق؛ لأنَّه قدَّم الفَيءَ عليه.

وفيها: أنَّ المغفرة والرحمة للذي يرجع إلى زوجته هو الأحسن، والجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّه لا يجوز للزوج أن يتأخَّر عن وَطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، إلَّا برضاها، كالسفر لطلب الرِّزق، أو لحصول أمر طارئ، ونحو ذلك.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾:

وقوله ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾: جمع «مطلَّقة»، وهي: التي أوقعَ عليها زوجُها الطلاق. فما هي عِدَّتها؟ وكم تنتظر للنظر ومراجعة الحال؟ فالمطلَّقة قد يُراجِعها زوجُها في العِدَّة، وقد لا يُراجِعها فتخرُج من عِصمَته.

فبيَّنت الآية حُكمَ المطلَّقات من الحرائر المدخول بهنَّ، غيرِ الحوامل، من اللَّائى يَحِضْن. وبقيَّة أنواع المطلَّقات بيَّنت عِدَّتَهن نصوصٌ أخرى.

فقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن في العِدَّة، ويَحْبِسن أنفسَهُنَّ عن زواج جديد. ومُدَّة هذا الانتظار: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ أي: ثلاث حَيضات، وهو قول أبي حنيفة وأحمد وكثير من العلماء. وقال مالك والشافعي وآخرين: بل ثلاثة أطهار.

ويدلُّ على أنَّ الأَقْراء هي الحَيضات: قولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة بنت أبي حُبَيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -لـمَّا شكَت إليه كثرةَ الدَّم-: «إِنَّمَا ذَلِكَ عِرْقٌ، فَانْظُرِي إِذَا أَتَى قَرْؤُكِ، فَلَا تُصَلِّي، فَإِذَا مَرَّ قَرْؤُكِ فَتَطَهَّرِي، ثُمَّ صَلِّي مَا بَيْنَ القَرْءِ إِلَى القَرْءِ»[1].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي: للمطلَّقات ﴿أَن يَكۡتُمۡنَ﴾: يُخفِينَ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ من الحَمْل أو الحَيض، ﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: وهذا إغراءٌ لهنَّ بالتزام الحُكم.

فلا يَحِلُّ للمطلَّقة أن تقول: إنِّي حائض، وهي ليست بحائض، أو العكس. ولا تقول: إني حُبلى، وهي ليست حبلى، أو العكس.

وفي الآية: تهديدٌ، أي: إن كنَّ صادِقات في الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فلا يكتُمْنَ أمرَ الحَمْل أو حقيقةَ الحَيض.

وقوله ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي: أزواج المطلَّقات. و(البَعْل): هو السيِّد المالك، أُطلِق على الزوج؛ لقيامه بأمر زوجته وسيادته عليها. ﴿أَحَقُّ﴾ أي: أولَى، حتى من أنفسهنَّ ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ أي: بإرجاعهنَّ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في زمن عِدَّة الطلاقِ الرَّجْعيِّ. ﴿إِنۡ أَرَادُوٓاْ﴾ أي: الأزواج ﴿إِصۡلَٰحٗاۚ﴾: معاشرة بالمعروف.

﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للزوجات من الحقوق ﴿مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾ من حقوق الأزواج ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: الذي عرفه الشَّرْع، وتعارَفَ عليه الناس، من المَهْر والنَّفَقة والكِسْوة وحُسن العِشْرة.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾: في قوَّة العقل، وقوَّة الخِلْقة، وعِظَم الحقِّ.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب، ذو عِزَّة، منتقِمٌ ممَّن عصاه. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو الحِكمة البالغة، في أمرِه وشَرْعِه وقَدَرِه، وفيما حكمَ في الزوجَين.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٠)، والنسائي (٢١١)، وابن ماجه (٦٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٣).

وفي هذه الآية من الفوائد أيضًا:

أنَّ المطلَّقات مؤتَمَنات على ما في أرحامهنَّ، وأنَّ المرجِع إليهنَّ في معرفة انقضاء العِدَّة، بالحَيضات أو الأطهار.

وفيها: التخويف باليوم الآخر، والتهديد به على قول خلافِ الحقِّ.

وفيها: أنَّ الواجب على المطلَّقة وغيرها الإخبار بالحقِّ، من غير زيادة ولا نقصان.

وفيها: أنَّه يجب التحرِّي في قول الحقِّ، خصوصًا إذا تعلَّقت به حقوق الآخَرين.

وفيها: مقاومة النفس في إجابة الأغراض الخبيثة؛ فقد تريد نفس المطلَّقة أن تتخلَّص من الزوج بسُرعة، فتكذِب عليه في مرور الحَيضات قبل أن تنقضيَ العِدَّة الحقيقيَّة، فتفوِّت عليه حقَّه الشرعيَّ في مُدَّة المراجعة. وقد تدعوها نفسُها إلى إطالة مُدَّة العِدَّة كَذِبًا، فيتضرَّر الزوج بالإنفاق عليها نفقةً لا تستحِقُّها. وقد تكتُم حَمْلَها؛ حتى تجعلَه لرجل آخر تتزوَّجه بعدَه. ونحو ذلك من الأغراض الخبيثة.

فأمرَهُنَّ الله تعالى بقول الحقِّ، وعدمِ كَتْمِه أو تغييره.

وفيها: تسمية المُطلِّق «بَعْلًا» و«زوجًا»؛ لأنَّ عَلاقة الزوجيَّة لا تزال قائمةً؛ حيث إنَّ الطلاق رَجْعيٌّ.

وفيها: إعطاء كلٍّ من الزوجَين الحقوقَ للآخر.

وفيها: بُطلان قول مَن يقول بالتساوي بينَ الزوج والزوجة في الدرجة والحقوق؛ لأنَّ الله جعل السيادة للرجل، وجعل له فَضْلًا على زوجته؛ ولذا فعليها الاحترام والتعظيم له، بسبَبِ عَقله وإنفاقه، ومُعاناته الهمومَ والغمومَ والشدائد والأهوال في سبيل ذلك. وفرَّق الشارع بينَ الذكر والأنثى في: الشَّهادة، والميراث، والدِّيَة، والإمامة، والقضاء، والتعدُّد، وجعل الطلاق بيدِه وحدَه، والرَّجْعة من حقِّه، وغير ذلك.

وفيها: ذِكر عِدَّة المطلَّقاتِ الحرائرِ المدخولِ بهنَّ، غيرِ الحوامل، من اللَّاتي يحِضْن. وخرجَت من الآية: المطلَّقة الأَمَة، والحامل، وغير المدخول بها، واليائسة التي لا تحيض؛ فبيَّنت أحكامَهُنَّ نصوصٌ أخرى.

وفي الآيـة: الحـثُّ عـلى حُسـن معاشرة المـرأة. وصـحَّ عن ابـن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّـه قال: «إنِّي أُحِـبُّ أن أتزيَّـن للمـرأة، كما أحبُّ أن تتزيَّـن لي؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»[1].

وفيها: أنَّ الدرجة التي للرجال على النِّساء هي: التفضيل الدُّنيوي، في الخِلْقة والطبيعة، وجَعْـلِ الرجل أقدَرَ على الكَسْـب للإنفاق على المرأة. وأمَّـا في الآخرة: فالدرجات عند الله بحَسَب الإيمان والعمل الصالح.

وفيها: أنَّ حقَّ الرَّجْعة للزوج مشروطٌ بإرادة الإصلاح والائتلاف والالتئام مع زوجته، لا الإضرار، كتطويلِ المدَّة على المرأة وهو لا يريدها، أو إمساكِها لتدفعَ له المَهْر مُرْغَمة.

وفيها: وجوب العِدَّة بثلاث حَيضات على المطلَّقة، سواءً كانت بائنًا أم لا، فتعتدُّ بثلاث حَيضات بعد الطلقة الأولى، أو الثانية، أو الثالثة.

وفيها: أنَّ الطلاق لا يقع قبل النِّكاح؛ فلو قال: «إن تزوجتكِ فأنتِ طالق»؛ لم تَطْلُق إذا تزوَّجت؛ لأنَّه لا طلاق إلَّا بعد نكاح.

وفيها: الرُّجوع إلى قول المرأة في عِدَّتها، وأنَّها مؤتمنة في الإخبار عن ذلك.

وفيهـا: أنَّ المطلَّقـة الرجعيَّـة لا تـزال زوجـةً، لها حـقُّ النَّفقة والسُّكْنى؛ لقولـه تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾.

وفيها: أنَّ من تَشَّـبه من الرِّجال بالنِّساء، وخالفَ فِطرة الله؛ فإنَّ ذلك يَطْعَن في رجولته، ودرجة تفضيله.

وقـد تضمَّنت هذه الآيـة: الأمر في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، والنهـي في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾، والجواز في قوله: ﴿أَحَقُّ﴾، والوجوب في قوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾.

وفيها: تذكير الرجل بأنَّ الله عزيزٌ غالبٌ، لئلَّا يطغى على زوجته.

وفيهـا: أنَّ عـلى كلٍّ مـن الزوجَـين أداءَ ما يجب عليه مـن الحقوق للآخر؛ فكـما أنَّه يليق بالرجل أن يُنفِق، فيليق بالزوجة أن تَخْدِم وترعَى.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ١٩٦).

وفيها: أنَّه لا يلزم لإرجاع الزوج زوجته في عِدَّة الطلاق الرَّجْعيّ ما يلزم من الشروط في عَقد النِّكاح، فلا يُشترَط المَهْرُ، ولا الوليُّ، ولا رضا الطرَفَين.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾:

كان الطلاقُ في ابتداءِ الإسلام غيرَ مقيَّدٍ بعدَدٍ معيَّن؛ وكان الرجلُ أحقَّ برَجْعة امرأته، فيحِقُّ له أن يُراجِعَها ما دامت في العِدَّة، وإن طلَّقها مائة مرَّة، فلمَّا كان هذا فيه ضررٌ على الزوجات -وكان البعض يؤذي المرأة بتعليقها، فإذا دنَت عِدَّتُها راجعَها-؛ قصَرَ الله تعالى الطلاق إلى ثلاث طَلْقات، وأباحَ الرَّجْعة في المرَّة والثنتَين، وأبانها بالكليَّة في الثالثة، بينونةً وفِراقًا لا رَجْعَة فيه.

فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ أي: الذي فيه الرَّجْعة ﴿مَرَّتَانِ﴾، لكلِّ واحدة من الطلقتَين عِدَّة. ولم يقل: «طلقتانِ»؛ إشارةً إلى عدم جواز إيقاعِها دُفعةً واحدة.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: على الزوج إذا أراد الرَّجْعة أن يُمسِكها بما هو معروفٌ في الشَّرْع، وما تعارَفَ عليه الناس، من العِشرة الطيِّبة الحسنة. ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾: بترْك المرأة حتى تنقضي عِدَّتها، ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: يحسِن إليها، بأن يُمَتِّعها عند الفِراق بشيء يَجْبُر كَسْرها، ويُطَيِّب قَلْبها.

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: «إذا طلَّقَ الرجل امرأته تطليقتَين؛ فليتَّقِ الله في التطليقة الثالثة (يعني: قبل إيقاعِها)؛ فإمَّا أن يُمسِكها بمعروفٍ، فيُحسِن صُحبتَها، أو يُسَرِّحها بإحسان؛ فلا يظلِمها من حقِّها شيئًا»[1].

قوله ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾ يعني: يا أيُّها الأزواج ﴿أَن تَأۡخُذُواْ﴾ بغيرِ رضا الزوجات ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتُموهنَّ، ووَهَبتُموهنَّ ﴿شَيۡـًٔا﴾ قليلًا أو كثيرًا. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي: يظنُّ الزوجان ويتوقَّعا ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: ألَّا يُعطيَ كلٌّ منهما الآخر حقَّه: فتخاف

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٥٤٣).

الزوجة أن تعصي الله في زوجها، فلا تطيع له أمرًا، وتُظهِر النشوزَ وسُوءَ الخُلق والكراهية للزوج. ويخاف الزوج إن لم تُطِعه زوجته أن يتعدَّى عليها.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: خشيَ ذلك الزوج والزوجة، أو أقاربهما، أو مَن تدَّخل للإصلاح، أو الحاكم أو القاضي، ونحوهم ممَّن له صلة بالخِلاف بينَ الزوجين؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا إثم ولا حرَج في هذه الحالة على الرجل في الأَخْذ، ولا على المرأة في طلب الخُلع. ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ ودفعَتْه وبذلَتْه، ليرضى زوجُها بمفارقتها، كما قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لامرأة ثابت بن قَيْس، لـمَّا أرادت الخُلع من زوجها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[١].

فأمَّا إذا طلبَت المرأة الطلاق أو الخُلع من غير سببٍ شرعيٍّ؛ فإنَّ ذلك حرامٌ عليها؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّةِ»[٢]، وفي الحديث: «المُخْتَلِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ»[٣].

﴿تِلْكَ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وهو: ما حدَّده وشرَعه لعباده. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوزوها للمُخالفة إلى ما نهاكم عنه. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتجاوز أحكامَه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسِهم، المتعرِّضون لسَخَط ربِّهم.

مسألة:

اختلف العلماء في عِدَّة المختلِعة:

فقال جمهورُهم: إنَّها ثلاث حيضات، وبنَوا ذلك على أنَّ الخُلْع طلاقٌ.

وفي قول عن الإمام أحمد: إن عدَّتها حيضة، وهو المروي عن عثمان بن عفان، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم[٤].

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٨٧)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢٠٣٥).

(٣) رواه الترمذي (١١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٨١).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية (١٩/ ٢٥٢).

والراجح: أنَّ عِدَّة المختلِعة حَيضة واحدة -لأنَّ الخُلع فَسخ-؛ لِما ثبت أنَّ امرأة ثابت ابن قَيس اخْتلَعَتْ من زَوْجِها عَلَى عَهْدِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَها النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ[1]، وجاء ذلك أيضًا في قِصَّة الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ، أنها أُمِرَت أن تعتدَّ بحَيْضة[2]، وهو الذي قضى به عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، تَبَعًا لقضاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].

وعلى هذا: فلا يَحِقُّ للزوج أن يُراجِع المختلِعة في عدَّتها، بعد أن بذلَت له الفِدية وافتدَت بنفسها -وإلَّا لَما صار في الخُلع فائدة- لكن إن انقضَت عِدَّتها وملكَت أمرَها؛ جاز له أن يَرْجِع إليها بعقد جديد، إذا رضيَت بذلك.

وهل يقع الطلاق إذا طلَّقها زوجُها في عِدَّة الخُلع؟ ذهب جمهور العلماء إلى أنَّه لا يقع.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بالزوجة؛ حيث حدَّ لزوجها ثلاث طلقات، لا يستطيع أن يتعدَّاها.

وفيها: أنَّه لا يجوز الإمساكُ مع الإضرار، ولا التسريحُ بإيذاء.

وفيها: جَبْر قَلْبِ المرأة المطلَّقة، إمَّا بردِّها، وإمَّا بالإحسان إليها إذا انتهَت عِدَّتها، بتمتيعها بمالٍ ونحوِه.

وفيها: الإحسان عند إنهاء العَلاقة الزوجيَّة.

وفيها: أنَّه لا يجوز للمرأة طلب الخُلع مع استقامة الحال بينها وبين زوجها.

وفيها: عِناية الشارع بالمحافظةِ على الأسرة، وعدمِ تفكيكها.

وفيها: دَفْع أشدِّ المفسدتَين، بارتكاب أهونِها وأخفِّها؛ فقد يكون إنهاء العَلاقة الزوجيَّة في بعض الأحيان أهونَ من الإبقاء عليها.

وفيها: جواز تصرُّف المرأة في مالِها بالمعروف.

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٢٩)، والترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (١١٨٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) رواه النسائي (٣٤٩٨)، وابن ماجه (٢٠٥٨)، وحسَّن إسنادَه الألباني في صحيح أبي داود (٦/ ٤٣١).

وفيها: أنَّ الخُلع لا بُدَّ أن يكون برضا الزوجة، إذا كانت الفِدْية منها.

وفيها: ما استدلَّ به بعضُ العلماء على أنَّه يجوز لزوج المختلِعة أن يأخذَ منها أكثر ممَّا أعطاها؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

والأعدَل: ألَّا يأخذ منها إلَّا ما أعطاها؛ وعليه حديثُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لامرأة ثابت ابن قَيْس، لـمَّا أرادت الخُلع من زوجها: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[1].

وهذا الأَخْذ -على كلِّ حال- يُشترَط فيه عدمُ المضارَّة من الزوج.

وظاهر الآية: أنَّ الخُلع ليس بطلاق، بل هو فَسْخ؛ لأنَّ الله تعالى ذكرَه بينَ قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾:

قوله ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: التطليقة الثالثة؛ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ﴾ أي: من بعد الطَّلقة الثالثة، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: غيرَ المطلِّق لها، فيَنكِحها نكاحًا صحيحًا، ويدخُل بها ويُجامِعُها، ويُشترَط أن يكون هذا النِّكاح الثاني نكاحَ رغبةٍ، لا نكاحَ تحليلٍ.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني، بعد أن دخلَ بها وجامعَها، وانقضَت عِدَّتها؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ يعني: على المرأة والزوج الأول ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يعني: بعقدٍ جديدٍ. بشَرْط ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: علِما ورجَوا أن يكون بينهما الصلاحُ وحُسن الصُّحبة، بعد نَدَمِهما على عِشرتِهما السابقة التي أوجبَت لهما الفِراق.

وقيل: إن علِما أنَّ نِكاحَهما على غير التحليل.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعُه، التي حَدَّدها وبيَّنها ووَضَّحها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما أمرَهم الله تعالى به؛ فهم المنتفِعون بها، النافِعون لغيرهم.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّـه يَصِحُّ رجوع الزوجـة المطلَّقة ثلاثًا إلى زوجهـا الأول، إذا توافرت الشروط، وهي: أن تنقـضيَ عِدَّتها من الزوج الأول، ويتزوَّجها زوجٌ آخر زواجًا صحيحًا شرعًا، وأن يكون نكاحُه لها نكاحَ رغبة، يَقصِد فيه استدامةَ العِشرة، وأن يطأها وَطئًا مُباحًا في هذا النِّكاح، ثـم إذا طلَّقهـا وانقضَـت عِدَّتها منه؛ جـاز أن تَرجع إلى الأول بعَقد جديـد. وكذا لو فارقها الثاني بمَوت، أو خُلع، أو فَسْخ، بعد وَطئها.

وفيها: أنَّ نكاح الزوج الثاني إذا لم يكن صحيحًا؛ فلا يَصِحُّ أن تَرْجِع بعده إلى الأول.

ومـن أحكام الآية: بُطلان نكاح التحليل، وهو أن يتزوَّج المطلَّقة ثلاثًا شـخصٌ، بقَصدِ أن يُحلِّلهـا لزوجهـا الأول. وهـذا حرامٌ، سـواءً شرطوا عليه ذلك في صُلـب العَقد، أو قبل العَقد، أو تطوَّع بذلك من تلقاء نفسه، وقد لعنَه النبيُّ ﷺ بقوله: «**لَعَنَ الله المُحَلِّلَ، وَالمُحَلَّلَ لَهُ**»[(١)]، ووصفَ النبيُّ ﷺ المحلِّلَ بـ «التَّيْس المُسْتَعار»، كما في الحديث[(٢)].

ولـمَّا سُئِل ابن عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رجـلٍ أراد أن يتزوَّج مـن مُطلَّقة أخيـه ثلاثًا، من غير مؤامرةٍ منه، ليُحِلَّها لأخيه؛ فقال: «**كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سِفَاحًا على عَهْدِ رَسُولِ الله** ﷺ»[(٣)].

وفيها: العمل بغلَبة الظنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

وفيهـا: أنَّ التراجُع بغير هـذا الشَّرْط (وهـو غلبة الظَّـنِّ بإقامة حـدود الله) يكون إثمًا، وشقاءً ونكدًا، وخسارةً ماليَّة.

وفيها: تعظيم شأن النِّكاح؛ لِـما ورد فيه من التفصيل والبيان.

وفيهـا: دلالـةٌ عـلى أنَّه ينبغـي للإنسـان إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمـور، خصوصًا الولايـات -الصِّغار والكبار- أن ينظر في نفسـه، فإن رأى من نفسـه قـوَّة على ذلك، ووَثق بها؛ أقدمَ، وإلَّا أحجمَ.

---

(١) رواه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥)، وهو في صحيح الجامع (٥١٠١).

(٢) رواه ابن ماجه (١٩٣٦)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (٦/ ٣١٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٣٩)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٩٨).

وفيها: فضيلةُ أهل العِلْم؛ لأنَّ الله تعالى جعل تبيينَه لحدوده خاصًّا بهم، وأنَّهم المقصودون بذلك دون غيرهم؛ فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وفيها: أنَّ الله تعالى يُحِبُّ من عباده معرفةَ حدودِ ما أنزل على رسوله، والتفقُّهَ فيها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ يعني: طلاقًا رَجْعيًّا، في الطلقة الأولى والثانية. ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربنَ نهاية العِدَّة، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: راجِعوهنَّ إذا شئتُم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو: ما عُرِف من الشَّرْع من إرجاعها، كاللَّفظ الدالِّ على ذلك، مثل قوله: «راجعتُكِ»، والإشهاد على هذه الرَّجْعة، وبما هو معروفٌ في الشَّرْع وعند الناس من حُسن الصُّحبة والمعاشرة.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ يعني: اتركوهنَّ بلا مُراجعة، حتى تنقضيَ العِدَّة تمامًا، فتخرج من عِصْمة زوجها، فيُفارِقها. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: فيُخرجها إلى بيت أهلها مُكرَّمة، ويُمَتِّعها بما يطيِّب خاطرها، من غير مخاصمةٍ ولا سُوءِ أدب.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: لا تُراجِعوهنَّ إذا لم يكن لكم بهنَّ رغبة، وإنَّما تريدون ﴿ضِرَارًا﴾ أي: الإضرارَ بالزوجة، بسوء عِشرة، أو تطويل العِدَّة، ومَنْعها من الزواج برجل آخر. ومضارَّة المسلِم حرامٌ، بأيِّ شكل كانت.

ولذ قال: ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي: لتقعوا في العُدوان على الزوجات، بظُلْمِهنَّ، بتطويل العِدَّة، أو إلجائهنَّ إلى الافتداء بالمال وطَلب الخُلع.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ وهو: إمساك الإضرار، المؤدِّي للعُدوان؛ ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: أضرَّ بنفسه في الحقيقة، بالإضافة إلى ظُلْم الزوجة؛ لأنَّه جلَبَ على نفسه الإثمَ وعقوبةَ الله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ أي: لا تجعلوا -أيُّها الأزواج- ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي يبيِّن فيها أحكامَه ﴿هُزُوٗا﴾ أي: مَوْضِعًا للاستهزاء والاستخفاف واللَّعِب، ولا تتهاوَنوا بها، أو تتركوا العمل بها.

ولا فرقَ في وقوع الطلاق بينَ الجادِّ والهازِل؛ كما قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ»(١).

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ -باللِّسان وبالقَلْب وبالجوارح- ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: بالإسلام، وببِعْثة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وببيان الأحكام، وما سوى ذلك. ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو: القرآن، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهي: السُّنَّة النبويَّة، وقيل: أسرار الشريعة. فالكتاب فيه الحُكم، والحِكْمة فيها بيان حِكْمة الله في أوامِره ونواهيه. فاذكروهما بالعمل بهما. وأفردَ هذه النِّعَم بالذِّكر؛ تنبيهًا على شرفها.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يُذَكِّركم ويأمُركم وينهاكم بهذا الوحي الذي أنزلَه عليكم، قرآنًا وسُنَّة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا عقابَه، بامتِثال أوامره، وتَرْك نواهيه. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، من طاعةٍ ومعصيةٍ، سرًّا وإعلانًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ظُلْم الغير هو في الحقيقة ظُلْمٌ للنفس؛ لأنَّه يُعَرِّضها لعقاب الله.

وفيها: أنَّ المراجعة لا تجوز إذا كانت بقصد الإضرار.

وفيها: أنَّ الزوج إذا لم يجد ما يُنفِق على زوجته، ولم تصبِر عليه؛ فإنَّه يتأكَّد عليه أن يطلِّقها؛ لأنَّ إمساكَها -حينئذٍ- لا يكون إمساكًا بمعروف.

وفيها: أنَّ لكلِّ طلاق أجلًا، وأنَّ العِدَد أنواع، وقد جاء في آية أُخرى تفصيل العِدَّة والآجال المُجمَلة في هذه الآية.

---

(١) رواه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، وحسَّنه الألباني في الإرواء (١٨٢٦)، وضعفه غيره.

وفيها: جواز مُراجعة المُطَلِّق لزوجته.

وقد فَهِم بعضُ العلماء من ظاهر الآية: أنَّ للزوج أن يُراجِع زوجته إذا انقضَت الحَيضات الثلاث (وهي العِدَّة عندهم)، ما لم تغتسِل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، فإذا بلغت نهاية حَيضتها بنزول الطُّهْر بعد الحَيضة الثالثة، فإمَّا أن يراجِع قبل اغتسالها، أو أنَّها تخرج من عِصمته إذا اغتسلَت.

وفي الآية: أنَّ الإمساكَ بمعروف أو التسريحَ بإحسان واجبٌ؛ لأنَّه لا يجوز المُضارَّة بإمساك الزوجة، ولا يجوز تسريحُها بإيذاء.

وفيها: أنَّ مضارَّة المسلِم حرام وعُدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾، وفي الحديث: «مَن ضَارَّ ضَارَّ اللهُ بِهِ، ومَن شَاقَّ شَقَّ اللهُ عَلَيْهِ»[1].

وفيها: أنَّ المعصية ظُلْمٌ للنفس، وفي هذا رَدٌّ على مَن يقول: «أنا حرٌّ، أفعل ما أشاء، وأصبر على العذاب»!

وفيها: تحريم الاستهزاء بآيات الله وشرائعه وأحكامه. والهُزْء درجات: فمخالفة الحُكم درجة، والمُزاح فيه درجة، والسُّخرية به درجة، والاستغفار مع الإصرار درجة.

وفيها: وجوب ذِكر نِعمة الله، وأنَّ ذلك يكون بالقَلْب واللِّسان والجوارح.

وفيها: أنَّه يجب على العِباد أن يُقدِّروا نِعمة الكتاب العزيز والسُّنَّة النبويَّة حقَّ قَدْرها، وذلك بالتعلُّم والعمل.

وفيها: أهميَّة فَهم حِكْمة التشريع وأسراره، وهو: فائدة الحُكم، ومعرفة لماذا شرَعه الله، وهذا ممَّا يَزيد الإيمانَ والتمسُّكَ بالأحكام.

وفي الآية: أنَّ إفراد بعض النِّعَم بالذِّكر -بعد النِّعمة العامَّة- دليلٌ على شَرَف وأفضليَّة هذه النِّعَم، كما أفرد «الكتاب» و«الحِكْمة» بالذِّكر بعد النِّعمة العامَّة.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٣٥)، والترمذي (١٩٤٠)، وابن ماجه (٢٣٤٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٢).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ -أيُّها الأزواج- ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: الزوجات، ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدَّتهنَّ؛ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعوهنَّ -أيُّها الأولياء- من ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ بعقدٍ جديدٍ، بشروطه، إذا كان الطلاق رَجْعيًّا.

وأيضًا، لا تمنعوهنَّ -أيُّها الأزواج السابِقين- من الزواج بأزواجٍ آخَرين بعد انتهاء عِدَّة الطلاق إذا أردنَ. وكانوا في الجاهليَّة إذا طلَّقَ الواحد زوجتَه يمنعُها من الزواج من بعده، غَيْرةً وأنَفةً وحميَّة.

﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟﴾ أي: النِّساء والخُطَّاب ﴿بَيْنَهُم﴾، واتفقوا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: ما عرفه الشَّرْع، من العَقد والمَهْر.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾: «هذا في الرجل يُطلِّق امرأته تطيقةً أو تطليقتين، فتنقضي عِدَّتها، ثم يبدو له أن يتزوَّجها وأن يُراجِعَها، وتُريد المرأة ذلك، فيمنعُها أولياؤها من ذلك؛ فنهى الله سبحانه أن يمنعوها»[١].

وفي هذا دليلٌ على: أنَّ المرأة لا تملِك أن تُزوِّج نفسها، ولا بُدَّ لها من وليٍّ؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»[٢]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»[٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا»[٤].

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا من الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً، ولَمْ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٣١).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٨٥)، والترمذي (١١٠١)، وابن ماجه (١٨٨١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٣٩).

(٣) رواه أبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٤٠).

(٤) رواه ابن ماجه (١٨٨٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٨٤١).

يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ العِدَّةُ، فَهَوِيَهَا وَهَوِيَتْهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الخُطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: «يَا لُكَعُ[1]، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا، فَطَلَّقْتَهَا، واللهِ لَا تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا، آخِر مَا عَلَيْكَ».

قَالَ: فَعَلِمَ اللهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا، وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: «سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: «أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ»[2].

وفي هذه القِصَّة: امتِثالُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأمر الله تعالى، ومخالفةُ هوى النفس، والعملُ برضا المرأة في النِّكاح.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحُكم المذكور، من النهيِّ عن حَبس المرأة عن الزواج بمَن تريد ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يُؤمَر به ويُذكَّر، فيمتثِل وينتفع ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾؛ لأنَّ أهل الإيمان هم الذين يُطيعون ويَسْتَسْلِمون.

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاتِّعاظ والعمل بهذا الحُكم ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أصلَحُ وأنفعُ، وأكثرُ خيرًا وبركةً في أعمالكم، ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لكم من الذُّنوب، ولنفوس النِّساء، وأشفى لها من الحِقْد على الأولياء، والتألُّم من مَنعهنَّ من الزواج بمَن يُردن.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه صلاحُ أموركم، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمُه الله من المصالح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بُطلان نكاح المرأة على زوج ثانٍ، إذا عقدَ عليها في عِدَّة طلاق الزوج الأول.

وفيها: أنَّ التراضي من قِبَل الزوجَين شرطٌ في صِحَّة عَقد النِّكاح.

وفيها: أنَّه لا يجوز للوليِّ أن يُزوِّج مَن ولَّاه الله عليها، بغير رضاها.

وفيها: أنَّ المرأة لو رضيَت بزوج على خِلاف ما عرَفه الشَّرع -كأن يكون فاسقًا أو فاجرًا-؛ فلوليِّها أن يمنعَها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

---

(١) يعني: يا لَئيم.

(٢) رواه البخاري (٥١٣٠)، وأبو داود (٢٠٨٧)، والترمذي (٢٩٨١)، والسِّياق له.

وفيها: مُراعاة ما يحدث من ندَم الزوجَين بعد الطلاق.

وفيها: أنَّ العمل بأحكام الله يُزَكِّي النفس، ويُنَمِّي الإيمان.

وفيها: الإشارة إلى قُصور الإنسان في عِلْمه، وأنَّ على العبدِ القاصرِ الاستِسلامَ لأحكام الله تعالى.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أمورًا من أحكام النِّكاح، والطلاق، والعِدَّة، والرَّجْعة، والعَضْل؛ ذكر بعض الأحكام المتعلِّقة بما يكون من نتيجة النِّكاح، من حقوق المواليد، إرضاعًا، ونفقةً، وكِسْوةً.

وحيث إنَّ الخلافاتِ الزوجيَّة والفِراق، قد ينتج عنها الرغبة في انتقام أحد الطرَفَين من الآخر، فيضرُّ ذلك بالأبرياء -كهؤلاء المواليد-؛ ندب الله عَزَّوَجَلَّ الوالدات المطلَّقات إلى رعاية الأطفال، والاهتِمام بشُؤونهم، فقال تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾: الأُمَّهات، مطلَّقات، أو متزوِّجات ﴿يُرْضِعْنَ﴾: خبر بمعنى الأمر؛ فكأنَّه شيء مفروغ منه يُخْبِر عنه ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ ذكورًا، أو إناثًا ﴿حَوْلَيْنِ﴾: سنتَين، والسنة: اثنا عشر شهرًا هلاليًّا ﴿كَامِلَيْنِ﴾ دونَ نقصٍ؛ فالحَول يُطلَق على الكامل، وعلى مُعظَم السنة.

وهذا ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ من الآباء والأُمَّهات ﴿أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أي: لمن أرادها كاملةً -على وَجْه التمام- من الأبوين.

وقوله ﴿أَرَادَ﴾ **يدلُّ على**: عدم وجوب الإتمام إلى السنتَيْن، وأنَّه يجوز الاقتصار على ما دونه، بما لا يضُرُّ بالولد.

والإخبار بأنَّ تمام الرَّضاعة سنتان، يدلُّ على أنَّ الرَّضاعة بعدهما غيرُ مؤثِّرة، ولا اعتبارَ بها، وأنَّ اللبن بعدَها صار بمنزلة سائر الأغذية، ولا يحرُم من الرَّضاعة إلَّا ما كان دونَ الحولَين؛ فلو ارتضعَ المولود وعُمرُه فوقَهما لم يحرُم. وهذا مذهب جمهورِ العلماء.

واستدلُّوا بقول النبي ﷺ: «إنَّما الرَّضَاعَةُ من المَجَاعَةِ»[١]، وبقوله ﷺ: «لَا يُحَرِّمُ من الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا فَتَقَ الأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ»[٢].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا رَضاع بعد فِصالٍ، أو بعد حولَين»[٣]، وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا رَضاع بعد فِصال السَّنتَين»[٤].

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ وهو الأب؛ لأنَّ الولد يُولَد بسببِه ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رِزق المُرضِعات، من الطعام ونحوه ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: اللِّباس والكِسوة، وهو: ما يكسو به الإنسانُ بدنَه. فإذا كانت المُرضِعة زوجةً فالرِّزق والكِسوة لأجل الزوجيَّة والإرضاع، وإن كانت مطلَّقة بائنًا؛ فالنَّفقة لأجل الإرضاع.

وهذه النَّفقة تكون ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما تعارَفَ عليه الناس بينهم، من غير إسراف ولا تقتير.

﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ (التكليف): الإلزام بما فيه مشقَّة ﴿نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: في النَّفقة والكِسوة، فلا تُلزَم إلَّا بما تقدِر عليه. ولا تُكلَّف الأُمُّ من الرَّضاع إلَّا بما تقدِر عليه أيضًا.

﴿لَا تُضَآرَّ﴾ (المضارَّة): فِعْل ما يضرُّ بالغير ﴿وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾: كأن يُؤخَذ ولدُها منها دون حقٍّ، أو يُعطَى لمُرْضِعة أخرى، مع أنَّ والدته رضيَت بمثل أُجرَتها.

﴿وَلَا﴾ يُضارَّ ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ﴾ أي: للأب ﴿بِوَلَدِهِۦ﴾: كأن يُلقَى عليه ليتورَّط به، أو: إذا ألِفَ ثديَ أُمِّه ولم يقبَل غيرَها؛ طرحَتْه على أبيه، أو اشترطَت إرضاعَه بأجرةٍ مُبالَغٍ فيها.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٢)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (٢١٥٠).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٣٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٧/ ٤٦٤).

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: على وارث المولود مثل ما على الأب، من الرِّزق والكِسوة وتَـرْك المضـارَّة. وقيل: المقصود بـ (الوارث): الصبيّ نفسـه؛ فينفَق عليه من ماله إنْ كان له مال؛ لأنَّه وارث أبيه. وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الوالدانِ ﴿فِصَالًا﴾ أي: فِطامًـا للولد قبل تمام الحولَين، ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: اتِّفـاق بـينَ الطرفَين، لا مـن أحدهما فقـط. ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ أي تأمُّل وإمعان لاسـتخراج الـرأي الصواب. ويدخل في ذلك: مشـاورة أهل العِلْم بالـشَّرْع، وأهل الخِبرة بالطِّبِّ؛ لمعرفة الأصلَح للطِّفل.

فـإذا كان الأمـر عن تراضٍ وتشـاوُرٍ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرجَ ولا إثمَ في فِطامه -حينئذٍ-.

وقولـه ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ -أيُّهـا الآبـاء- ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي: تطلُبـوا لأولادكـم مُرْضِعـاتٍ غـيرِ أُمَّهاتهم، لوجـود عُذر أو حاجـة؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثم ولا حرج في هـذا الاسـترضاع. بـشرط: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ أي: أعطيتُم المُرْضِعات المستأجَرات ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾: مـن الأُجـرة المتفَق عليها ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بطيب نفس، وبما تعارَفَ عليه الناس، دون نقص، ولا تأخير.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافـوه وراقِبـوه في هـذه الحقـوق، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: محيطٌ بكم، ومُطَّلِعٌ عليكم، وعليمٌ بنيَّاتكم، وأفعالكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِفظ الشريعة لحقوق الطفل.

وفيها: أنَّ الأصلَ وجوبُ الإرضاع على الأُمِّ.

وفيها: أنَّ الله أرحمُ بالولد من والدته.

وفيهـا: أنَّ تمـام الرَّضاعة سـنتان، ويجوز النقـص منها والزيادة عليهـا إذا لم يوجد ضرَر بالطِّفل.

وفيها: أنَّه لا يجوز استبداد أحد الوالدَين برأيه دون الآخر، في فِطام الولد.

وفيها: أنَّ مَن قطعَتْ مصلحةُ ولدها في الرَّضاع، لمجرَّد مصلحةِ نفسها ولا ضررَ عليها -كرشاقة جِسْمِها-؛ فهي ظالمة.

وفيها: استعطاف المُخاطَب عند تبليغه بالأحكام.

وفيها: أنَّ من الرَّضاعة ما يكون واجبًا -كالذي تتعلَّق به حاجة الولد- ومنه ما يكون مستحبًّا يدخل في باب الكمال.

وفيها: أنَّ الولد هبةٌ للوالد.

وفيها: أنَّ الزوجة المُطلَّقة أو الناشز لها نفقةٌ إذا أرضعَت الولد؛ مراعاةً لحقِّ الطفل.

وفيها: جواز الاسترضاع عند وجود سبَب؛ كموت أُمِّ الولد، أو مَرَضِها، أوشُحِّ لَبَنها، أو كون لبن غيرها أغنى للطفل، أو انشغالها بحقِّ زوج آخر بعد طلاقها من والد الطِّفل، ونحو ذلك.

وفيها: اعتبار العُرف بينَ الناس، ما لم يُخالِف الشَّرْعَ.

وفيها: أنَّ المعتبَر في النَّفقة هو حال الزوجة وحاجتها.

وفيها: أنَّ أُمَّ الولد مُقدَّمة على غيرها في إرْضاعه؛ لأنَّها -في الغالب- أشفقُ على ولدها، ولبنها أطيب، ويجب تقديمُها على غيرها في الإرضاع، إلَّا إذا اشترطَت الإرضاع بنفقةٍ مُبالَغٍ فيها.

وليس لها أن تطلُب أجرةً وهي في عِصمة والد الطفل؛ اكتفاءً بنفقة الزوجيَّة. وقال بعضهم: يجوز. لكن إذا خرجَت من عِصمته؛ جاز لها أن تطلُبَ أجرةً على الرَّضاع.

وفيها: أنَّه يجب على الإنسان أن يُسلِّم العِوض -كالثمن والأُجْرة- بالمعروف.

وفيها: أنَّه لا يجوز للأجير طلبُ زيادةٍ على ما اتُّفِقَ عليه في العَقد، ولو تغيَّرت الأسعار في البلد؛ لقوله تعالى: ﴿**إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾.

وفيها: الاجتهاد في تقدير نفقة المرضِعة، على حَسَب المتعارَف عليه.

وفَهِمَ بعضُ العلماء من قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: أنَّ الغنيَّ المُقتدِر تجب عليه نفقةُ قريبه المحتاج الذي يَرِثه.

وفيها: التأكيد على تسليم الأُجرَة للمُرْضِعة؛ لأنَّ المماطَلة والنقص رُبَّما تؤدِّي إلى إهمالِ الرضيع ولُـحُوقِ ضرَرٍ به.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى حُكـمَ مَن فارقت زوجَها بالطلاق والخُلع؛ ذكر تعالى حُكمَ مَن فارقت زوجَها بالوفاة، وبيَّن عِدَّتها؛ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: يتوفَّاهم الله ويموتون، ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾: زوجاتٍ، حرائرَ، غيرَ حوامل.

فالحُكْم في عِدَّتهنَّ أنَّهنَّ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتَظِرْن، ويَمْتَنِعْنَ من النِّكاح ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هلاليَّة ﴿وَعَشْرًا﴾، تبدأ من وقت وفاة الزوج، لا من وقت عِلْمِها بوفاته.

وهذا حكمٌ عامٌّ في الزوجات، إلَّا الحاملَ والأَمَة: فعِدَّة الحامل -الحرة والأمة- المُتَوفَّى عنها زوجُها تنتهي بوَضْع حَمْلها. والأَمَة المملوكة مِلْكَ اليمين تعتَدُّ لموت زوجها شهرَين وخمسَ ليالٍ.

وقوله ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عِدَّتهنَّ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا إثمَ ولا حرجَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -أيُّها الأولياء، والحكَّام، والقُضاة، والخاطبون- ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: من العودة إلى الزِّينة والطِّيب، والانتقال من المسكن، والظهور للخاطب، والنِّكاح، ونحو ذلك من المعروف شرعًا.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشرِّ ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عليمٌ ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العِدَّة على المرأة المتوفَّى عنها زوجُها.

وفيها: وجوب الإحْداد على المُتوفَّى عنها زوجُها، سواءً كانت صغيرة أو كبيرة، حُرَّة أو أَمَة، مُسلِمة أو كافرة.

والإحْـداد: هو تَرْك الزِّينة -من الحُليِّ والثياب الجميلـة والكُحْل والحِنَّاء، ونحوها من الأصبـاغ- وتَرْك الطِّيب وكلِّ ما يجذب الرِّجال، ولزوم بيت الزوج الميِّت في المبيت، وتَرْك عقدِ النِّـكاح.

فيلـزم المـرأة المبيت في بيت الزوجيَّة، ولا تخرج منه ولو لحجِّ الفريضة، ويُباح له الخروج للضرورة، والضرورة تُقَدَّر بقَدَرها.

والإحدادُ واجبٌ على مَن تُوفِّي عنها زوجُها، على أيِّ حال، سواءً كان قتيلًا، أو شهيدًا، أو مريضًا، أو مات حتفَ أنفه، أو غير ذلك.

وقـد رُوي أنَّـه لـمَّا جـاءت الفُرَيعة بنت مالـك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تستفتيه في الانتقال إلى بيتِ أهلها بعد مقتلِ زوجها، ولم يكن بيتُ زوجها مِلْكًا له؛ قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ، حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ»[١].

وفي الآية: بيان مُدَّة حِداد المرأة على زوجها المتوفَّى عنها.

أمـا إذا مـات للمرأة ميِّتٌ غيرُ الـزوج؛ فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَحِلُّ لِامْـرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ؛ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»[٢].

وفيها: أنَّ حُكم الحِداد يشـمل الزوجة المدخول بها وغير المدخول بها؛ وقد ثبت أنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وافق قضاءَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في امرأة مات زوجها، ولم يدخل بها، ولم يَفرِض لها الصَّداق؛ فقال: «إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا، لَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ[٣]، وَإِنَّ لَهَا المِيرَاثَ، وَعَلَيْهَا العِدَّةُ»[٤].

وفيها: منع المُعتدَّة من الزواج أثناء العِدَّة.

وفيها: رحمة الإسلام بالمرأة، بمُراعاة مقتضَى طبيعَتِها البشريَّة، من الحزن على وفاة الزوج.

---

(١) رواه أبـو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسـائي (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٠٣١)، وضعَّفه الألباني في الإرواء (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦).

(٣) أي: لا نقص ولا زيادة.

(٤) رواه أبو داود (٢١١٦)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٣٥٢٤)، وابن ماجه (١٨٩١)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٩٣٩).

وفيها: تكريم الشريعة للمرأة ورحمتها، بهذا الإحداد، مقارنةً بما كانت عليه في الجاهليَّة، عندما كانت تُحبَس في بيت صغيرٍ قذِرٍ، سنةً كاملة، وعليها شرُّ ثيابها، لا تَمَسُّ طيبًا ولا شيئًا، ثم تؤتَى بدابَّةٍ -حمارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ- فتمسَح به فَرْجها، فيموت في الغالب من نَتْنها، فإذا خرجَتْ أُعطيَت بَعَرةً لترميَ بها أمامَها، أو تنتظر كلبًا يمرُّ لترميَه بها -إشارةً إلى أنَّ قُعودَها بعد زوجها أهوَنُ عليها من بَعَرةٍ رُمي بها كلبٌ!- وتخرُج بهذا من عِدَّتها!!

فهذا هو الفرق الكبير بينَ أحكام الحِداد في الإسلام، وبين ما كان عليه الأمرُ في الجاهليَّة.

وفي الآية: عِظَم حقِّ الزوج على زوجته، واحتباسُها لأجل وفاته عن الزِّينة والزواجِ بغيره هذه المدَّة، ولزومُها بيت الزوجيَّة.

وفيها: مسئوليَّة الأولياء عن النِّساء، وأنَّه يجب عليهم منعُهنَّ من المُنكَر، ولا يحقُّ لهم منعُهنَّ من المعروف.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾:

ولـمَّا كانت المتوفَّى عنها زوجُها كثيرًا ما تحتاجُ للزواج بعدَه، طلبًا للعِفَّة والإنفاق عليها، وطلبًا للنَّسل، لكن التصريحَ بنِكاحها في العِدَّة لا يُناسِب حالَ الإحداد؛ فقد بيَّن الله تعالى أمرًا وَسَطًا في هذا؛ فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا حرجَ ولا إثمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -أيُّها الرِّجال- ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ بالإشارة والتلميح، دون التصريح ﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المُعْتَدَّاتِ من الوفاة، أو في عِدَّة الطلاق البائن -وهي المبتوتة ثلاثًا-. و(الخِطبة): الاستِلْطاف بالقول والفِعْل في طلب الزواج من المرأة.

وأمثلة التعريض بالخِطبة كثيرة؛ ومنها: أن يقول لها: «إنِّي أريد النِّكاح»، أو: «وَدِدتُ لو أنَّ الله رزقني امرأة صالحة»، أو: «إذا انتهَت عِدَّتُكِ فأخبرينا»، أو: «مثلُكِ صالحةٌ يُرغب فيها»، ونحوها من الألفاظ التي فيها إشارةٌ مفهومةٌ غير صريحة.

وأمَّـا المطلَّقةُ الرَّجْعيَّـة في عِدَّة الطلاق الأول أو الثاني؛ فلا يجوز خِطبتُها، لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ لأنَّها لا تزال في عِصمة زوجها.

وقوله ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أخفيتُم وأضمرتُم في أنفسكم خِطْبتَهُنَّ، فهذا لا حرجَ عليكم فيه أيضًا، وهو من تخفيف الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسِكم، وترغبون في نكاحِهنَّ، ولا تصبرون، أو أنَّكم تذكرون لبعض خواصِّكم رغبتَكم في نكاحها.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تُصَرِّحُوا بالنِّكاح، كقوله لها: «أريد نكاحَكِ»، أو بذِكر حُبِّه لها ورغبتِه فيها، أو بذِكر ما يُرَغِّبُها في النِّكاح -كقوَّة الجِماع- أو بأخذ العهد والميثاق على المرأة ألَّا تتزوَّج غيره. و(السِّرُّ): من أسماء النِّكاح عند العرَب.

وقال كثيرٌ من المفسِّرين: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: للزِّنا، فكان الرجل يدخُل على المرأة يُعَرِّض بالنِّكاح، وهو يريد الفاحشة.

ولا يجوز للرجل أن يتزوَّج المعتدَّة سرًّا في عِدَّتها.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وهو: التعريض بالخِطْبة -كما تقدَّم- وأن يعِدَها بالإحسانِ إليها والاهتمامِ بشأنها ورعايةِ مصلحتها، ونحو ذلك من القول المعروف.

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ﴾ (العَزْم): إرادةُ فِعل الشيء بلا تردُّد. ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: عَقدَه. ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: حتى تنقضيَ العِدَّة. وسمَّاها (كتابًا)؛ لأنَّها مفروضة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ -أيُّها الرِّجال- ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ما استقرَّ في أنفسكم ممَّا أخفيتُموه؛ ﴿فَٱحۡذَرُوهُ﴾ أي: خافوا عقابه، ولا تُضمِروا ما يُغْضِبه.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب، مِن ارتكاب ما نهى الله عنه ﴿حَلِيمٞ﴾: لا يُعاجِلكم بالعقوبة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعطيل الوسائل الموصِلة إلى الحرام؛ فإنَّ التصريح للمرأة بالنِّكاح رُبَّما يؤدِّي إلى وقوعها في الكَذِب بانقضاء عِدَّتها، أو تقع في الفِتنة.

وفيها: إحصاء عِدَّة الوفاة، بضَبْطها، والدِّقَّة في معرفتها. ولو احتاجت المرأة إلى كتابة تاريخ الوفاة، أو الإشهاد عليه؛ فلتفعَل؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾.

وفيها: جواز ذِكر الإنسانِ المرأةَ المعتدَّة من الوفاة، في نفسه، ولغيره.

وفي الآية: أنَّ على المسلِم ألَّا يُضْمِر في نفسه ما لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى بعضَ أحكامِ الطلاق، وحقوقِ المطلَّقات، فيمَن عقدَ عليها زوجُها، ولم يدخُل بها، ولم يُسَمِّ لها مَهْرًا؛ فقال:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا إثمَ ولا تَبِعة ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ -أيُّها الأزواج- ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامِعُوهنَّ وتدخُلوا بهنَّ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيرُه: «المَسُّ: النِّكاح»[1]، وهو الوَطء. ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: لم تُحدِّدوا لهنَّ مَهْرًا.

والمعنى: لا حرجَ عليكم إذا طلَّقتم النِّساء بعدَ العَقد، وقبل الدُّخول بهنَّ، ما دُمتم لم تدخلوا بهنَّ ولم تُسمُّوا لهنَّ مَهرًا.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: يجب تمتيعُ غير المدخول بها في هذه الحالة؛ جبرًا لخاطرها، وتخفيفًا لوَحشة الطلاق.

و(المُتعة) أو (التمتيع): شيءٌ من المال، تُعطاه المطلَّقةُ غيرُ المدخول بها، وغيرُ المسمَّى لها مهرٌ معينٌ. ويجوز أن تُعطَى نقدًا، أو طعامًا، أو ثيابًا، ونحوه.

وليس لهذا التمتيع حدٌّ محدودٌ؛ بل هو على حَسَبِ حالِ الزوج المطلِّق، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ أي: الغنيِّ الذي في سَعة ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي: بقَدْر سَعته. ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ أي: الفقير ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أي: على قَدْر إمكانه وطاقته. ﴿مَتَٰعًۢا﴾ مؤكَّدًا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يقتضيه العُرْف، وتَسْتَحْسِنه الشريعةُ والمُروءةُ وأعرافُ الناس.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١١٨).

﴿حَقًّا﴾ أي: واجبًا، لا تفريط فيه ﴿عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الذين يُحسنون إلى أنفُسِهم بطاعة الله، وإلى غيرِهم من خَلْق الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز الطلاق قبل الدُّخول والمسيس.

وفيها: جواز النِّكاح بغير تحديد مَهْر، فإن دخلَ بها كان لها مَهْرُ مِثلِها، وإن طلَّقها قبل الدُّخول؛ كان تمتيعُها واجبًا -بحَسَب حاله وقُدرته-.

وفيها: مراعاة جانب الأدب في الألفاظ؛ فقد أطلق «المسيس» على «الجِماع»، في قوله: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾.

وفيها: مراعاة الشريعة لأحوال الأزواج الماليَّة.

وفيها: أنَّ الشريعة لا تُكلِّفُ بما لا يُطاق.

وفيها: أنَّ للعُرْف اعتبارًا شرعيًّا.

وظاهر الآية: أنَّ الزوجَ إذا لم يُسَمِّ لزوجته المَهْر، ولم يطأها؛ فليس لها إلَّا التمتيع -وإنْ خلا بها-.

لكن ألحقَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الخَلْوة الكاملة بـ«المسيس»، في وجوب المَهْرِ والعِدَّة إذا طُلِّقت؛ فيجب إعطاؤها مَهْرُ مثلِها إذا لم يُحدِّد لها مَهْرًا؛ لِما جاء عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى قَالَ: «قَضَاءُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ أَنَّهُ: مَنْ أَغْلَقَ بَابًا وَأَرْخَى سِتْرًا؛ فَقَدْ وَجَبَ الصَّدَاقُ وَالعِدَّةُ»(١).

وفي الآية: جَبْر خاطر الزوجة الكسير، بالمُقابل الماديِّ؛ فيكون التمتيعُ عِوَضًا عن خَيبةِ الأمل التي حصلت نتيجةَ الطلاق.

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٧/ ٤١٧)، وقال: «مُرْسَل»، وقد صحَّحه الألبانيُّ عن عمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما في الإرواء (١٩٣٧).

﴿يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾:

ثـم بيَّن تعالى حُكـمًا آخر للمطلَّقة، التي عقـدَ عليها زوجُها، ولم يدخُل بها، لكنَّه سـمَّى لها مَهـرًا؛ فقال: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: الزوجـات ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تُجامِعُوهنَّ ﴿وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ أي: في حـال مـا إذا كنتم حدَّدتُم وسـمَّيتُم لهـنَّ مَهْرا معلومًا. فالحُكـم هو: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ أي: فلهُنَّ -في هذه الحالة- نصفُ المهر المُسَـمَّى، ولا عِدَّة عليها -كما بيَّن في الآية الأخرى-.

﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: تتنـازل المطلَّقـات، ويُسـامِحْنَ بحقِّهنَّ في نصـف المَهْر، ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ﴾: يُسـامِح ويتنـازل ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهـو الزوج؛ لأنَّ بيدِه إبـرامَ عُقدة النِّـكاح -بقولـه: «قَبِلْتُ»- وبيـدِه حلَّها بالطلاق. فإذا أرسـل لها المهر كامـلًا، أو كان قد سلَّمها إيَّاه من قبلُ، فتَرَك المطالبة بنِصفه؛ فقد عفا.

وقيل في المراد بـ ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: وليُّ المرأة، وأنَّ له أن يَعْفُوَ في هذه الحالة، وإن شَحَّتِ المرأة؛ لأنَّ له نوعَ سُلطةٍ بالولاية، ولأنَّ العَفْوَ مرغوبٌ فيه في الشريعة.

لكن هذا يَرِدُ عليه: أنَّه لا يجوز له أن يتنازلَ عن حقِّ غيرِه، فيكون المراد بالآية: الزوج.

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ﴾ -أيُّها الرِّجال والنِّساء- عن حقِّكم ﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: إلى حصولها.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: لا تتركوا تفضُّلَ بعضِكم على بعضٍ، بالتسامح والعَفْو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مـن خيرٍ وفَضْلٍ وإحسـانٍ، أو ضِدِّ ذلـك ﴿بَصِيرٌ﴾: عليمٌ، لا يُضيع فضلَكم، بل يُجازيكم عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جـواز الطلاق قبل المسـيس، مع تحديد المَهْر، أو مع عـدم تحديده -كما دلَّت عليه الآية السابقة-.

وفيها: أنَّ تعيين المَهْر موكولٌ إلى الزوج؛ لقوله: ﴿وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾، وللزوجة الموافقةُ أو عدمُها.

وفيها: جوازُ إسقاطِ الزوجة ما وجب لها من المَهْر، ويُشترط لذلك أن تكون حُرَّةً بالغةً عاقلةً رشيدة؛ لقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾.

وفي الآية: جواز تبَرُّع المرأة بمالها، أو ببعضه.

وفيها: الترغيب في العَفْو، والحثُّ على الإحسان ومكارم الأخلاق.

وفيها: أنَّ الأعمال تتفاضل؛ لأنَّ العَفْو أقرب للتقوى من تَرْك العَفْو.

وفيها: الحثُّ على حُسن المعاملة، وألَّا ينسى المسلِم التفضُّلَ على إخوانه في معاملتهم.

وفيها: أنَّ الفَضْل أقربُ للتقوى من العَدْل؛ فالعَدْل: هو إعطاء الواجب فقط وأَخْذ الحقِّ، والفَضْل: إعطاء ما ليس بواجب والتنازل عن الحقوق.

والخُلاصة في حقوق المطلَّقات:

أنَّه إذا طلَّقها، وقد دخلَ بها وسمَّى لها مَهْرًا؛ فلها المَهْر كاملًا. وإن لم يُسمِّ لها مَهْرًا؛ فلها مَهْرُ مِثلِها.

وإن طلَّقها قبل الدُّخول بها: فإنْ سمَّى لها مَهْرًا؛ فلها نِصْف المَهْر. وإن لم يُسمِّ لها مَهْرًا؛ فعليه تمتيعها بما يَقْدِر عليه.

وإن خلا بها خَلْوة كاملة، يتمكَّن معها من الوَطْء -لو أراد-؛ فلها المَهْر كاملًا، وعليها العِدَّة -عند كثير من العلماء-.

وقد استحبَّ أهلُ العِلْم تمتيعَ جميع المطلَّقات، وهو من مكارِم الأخلاق، ومن التسريحِ بالإحسان.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى أحكامًا كثيرة تتعلَّق بالمخلوقين -من الأزواج والزوجات- في النِّكاح، والوَطء، والطلاق، والرَّجْعة، والرَّضاع، والنَّفقة، والعِدَد، والتمتيع؛ أَمَر عباده بالمحافظة على الصلوات الخمس -وهي من أعظم حقوقه-؛ تنبيهًا للعِباد ألَّا ينشغلوا بحُقوق المخلوقين عن حقوق الخالِق، وألَّا ينشغل الرِّجالُ بالنِّساء والنِّساءُ بالرِّجال عن حقِّ هذه

الفريضة العظيمة -فريضة الصَّلاة- بل يُستعان بالصَّلاة على التقوِّي على هذه الأمور، فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ﴾ أي: واظِبوا، واعتَنوا، وداوِموا ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: بأدائها كما أمر الله، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنها، وآدابها.

وخصَّ من الأمر بالمحافظة على الصلوات: الصَّلاة الوُسطى؛ فقال: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي: الفُضلى، من «الوَسَط»، وهو الخيار والأفضل.

وقد اختلف العلماء في تعيين الصَّلاة الوُسْطى على أقوال متعدِّدة، أقواها: أنَّها صلاة العصر؛ لحديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لـمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَلأَ الله بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ»(١).

﴿وَقُومُواْ﴾ أي: على أقدامكم في الصَّلاة، محافِظين عليها ومواظبين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: مُخلِصين، تريدون وَجْهَه ﴿قَٰنِتِينَ﴾ أي: مُطيعين، خاشعين، ممتَنِعين عن كلام الناس.

وفي «الصحيحَين»، عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنْ كُنَّا لَنَتَكَلَّمُ فِي الصَّلاَةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِحَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ»(٢).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِن كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ»(٣).

وقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مكروهًا، كعدُوٍّ، أو حريق، أو سَيل، أو حيوان مفترِس، ونحو ذلك، ولم تقدِروا على الصَّلاة قيامًا، مع إتمام الركوع والسجود؛ ﴿فَرِجَالًا﴾ أي: صَلُّوا ولو كنتُم ماشين على أرجُلِكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: أو كنتُم راكبين، على أيِّ حالٍ كنتُم -مُستقبِلي القِبلة أو غيرَ مُستقبِليها-.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ بزوال الخوف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٢) رواه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

(٣) رواه مسلم (٥٣٧).

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا الصَّلاة تامَّة. وسمَّاها (ذِكرًا)؛ لاشتمالها على الأذكار. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كيفيَّة الصَّلاة، وعلَّمكم ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ من أحكامه وشرائعه.

وفي الآيتَين من الفوائد:

المحافظة على الصلوات: وجوبًا في الفرائض، واستحبابًا في النوافل.

وفيها: أنَّ كلَّ ما أشغلَ عن أداء الصَّلاة في أوقاتها فهو باطلٌ، كالانشِغال عنها بالإنترنت، والجوَّالات، وتصفُّح المواقع ووسائل التواصل، والهَوَس بالتقنيات الحديثة.

ومن المؤسِف أنَّ هذه الوسائل صارت سببًا في ضياع الصَّلاة، وتأخيرها عن أوقاتها المفروضة، والتعجُّل فيها وعدم الخشوع، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفيها: فَضْل صلاة العصر، وقد قال ﷺ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ العَصْرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»[1]، أي: سُلِبَ وتُرِكَ بلا أهلٍ ولا مالٍ

ومَن حافظ عليها كان له أجرُها مرَّتين؛ ففي الحديث: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»[2].

وفي صلاة العصر مع الفجر: اجتماعُ الملائكة، وارتفاعُ الأعمال إلى الله[3].

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[4]، و«البرَدان»: هما الصبح والعصر.

وفي حديثٍ آخر: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»، يَعْنِي: الفَجْرَ وَالعَصْرَ[5].

وفي الآية: وجوب القيام في الصَّلاة، وهذا مع القُدرة في الفرائض، واستحبابًا في النوافل.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) رواه مسلم(٨٣٠).

(٣) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٥) رواه مسلم (٦٣٤).

وفيها: أنَّ الكلامَ في الصَّلاة -لغير مَصْلَحتِها- والعَبَث فيها، يُنافي القنوت، وقد قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ هَـذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُـحُ فِيهَا شَيْءٌ من كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ»[(١)].

وفيها: تربية النفس بالمداومة على العِبادة.

وفيها: التيقُّظ والتحرُّز من النُّقصان في الصَّلاة.

وفيها: تعظيم الله، واستحضار أمره، عند القيام بينَ يدَيه.

وفيها: تيسير الله على عباده.

وفيها: جواز الحركة الكثيرة في الصَّلاة للضرورة.

وفيها: أنَّه يجب أداء العِبادة على التمام، متى زال العُذر.

وفيها: مُراعاة شَرْط الوقت في الصَّلاة، وأنَّه يُصَلِّي على حَسَب حاله، ولا يجوز أن يؤخِّرها حتى يخرج وقتُها، ولو صلَّى ماشيًا أو راكبًا أو مضطجعًا، أو يومئ إيماءً، أو بغير إيماءٍ إذا لم يقدِر عليه، ولو كانت ثيابُه أو فِراشُه مُتنَجِّسة ولا يستطيع إزالة النجاسة، ولو كان يخرج منه البول باستمرار، ولو كان على غير طهارة ولا يستطيع الوضوء ولا التيمُّم؛ فالصَّلاة لازمةٌ في وقتها في كلِّ الأحوال، وبحَسَب الإمكان.

وفيها: أنَّ الصَّلاة في الوقت مع الخوف -ولو مع الإخلال ببعض شروطها وأركانها- أوجب من الصَّلاة خارج الوقت مُطمئنًا.

وفيها: مِنَّة الله على عباده بتعليمهم، وأنَّه لولا تعليمُ الله إيَّانا ما عرَفنا كيف نعبده.

وفيها: شُكر الله على نِعمته.

وفيها: أنَّ الأصل في الإنسان الجهل.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾:

ثم عاد السياق مرَّةً أخرى إلى ذِكر حقوق الزوجات المتوفَّى عنهنَّ أزواجُهنَّ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي: يُقاربون الوفاة، ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي: لديهم زوجاتٌ في عِصْمتهم، فعليهم ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي: عليهم أن يُوصوا لزوجاتهم ﴿مَّتَٰعًا﴾ بالنَّفقة، والكِسوة، والسُّكنى ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ إلى تمام سنةٍ قمريَّة، تبدأ من موت الزوج. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: للزوجات الحقُّ في البقاء في بيت الزوجيَّة، ولا يَملِك الورثة إخراجُهنَّ منه.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من منازل أزواجهنَّ، باختيارهنَّ، قبلَ الحول؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لاحرجَ ولا إثمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ -يا أولياء الزوج والزوجة- ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من الزِّينة، والاستعداد للخِطْبة، ونحو ذلك ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ وهو ما عرَفه الشَّرع ولم يُنكِره.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: ذو عِزَّةٍ، وغَلَبةٍ، وقوَّة ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو حِكْمة وحُكْم.

وذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى: أنَّ هذه الآية منسوخة، وأنَّ حقَّ الزوجة في النَّفقة والسُّكنى من مالِ زوجها سنةً كاملةً بعد وفاته، منسوخٌ بآية الميراث. وأنَّ اعتدادَها في بيت الزوج سنةً كاملةً، منسوخٌ بالآية التي سبقَتْها في ترتيب السُّورة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: «فنُسِخَ ذلك بآية الميراث، بما فرضَ لهنَّ من الرُّبع والثُّمن، ونُسِخَ أجَلُ الحَوْلِ بأنْ جُعِلَ أجلُها أربعة أشهرٍ وعشرًا»[1].

وأخرج البخاريُّ[2]، عن عبدِ الله بنِ الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلتُ لعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، قد نسخَتْها الآية الأخرى، فلِمَ تكتبُها -أو تَدَعُها-؟ فقال: «يا ابن أخي، لا أُغيِّر شيئًا منه من مكانه».

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٩٨)، والنسائي (٣٥٤٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٣٠).

والمعنى: إذا كان حُكمُها قد نُسِخَ بالأربعة أشهر، فما الحِكْمة في إبقاء رَسْمها مع زوال حُكْمها، وهذا يُوهِم بقاءَ حُكْمِها؟ فأجابه بأنَّ الأمر توقيفيٌّ، وأنَّه أثبتَها كما وجدَها.

وذهبَ بعضُ العلماء -منهم شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنَّ الآية غير منسوخة، وللمرأة حقٌّ في البقاء في بيت الزوج بعد وفاته سنةً كاملةً[١]. فالله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرحمة بالزوجة.

وفيها: مسئوليَّة الأولياء من الرِّجال، وأنَّهم مؤاخَذون إذا لم يمنعوا مُوَلِّياتِهم من النِّساء من فِعْل المُنكَرات.

وفيها: أنَّ المرأة لا يجوز لها أن تخرج عن المعروف الذي عرَفه الشَّرْع، وتعارَفَ عليه أصحابُ العقول السليمة والفِطَر المستقيمة، لا في لباسها أو مِشيتها، أو صوتها، أو غير ذلك.

فلا يجوز لها الخِدمة في المطاعم، أو تنظيف الشوارع، أو تنظيم المرور، أو تمثيل البلاد في الرياضات العالميَّة، أو العمل في البناء في المقاولات العامَّة، أو التنقيب عن النِّفط في الصحاري، أو الدُّخول على الرِّجال في أماكنهم لتسويق السِّلَع وعَرْض المبيعات، أو العمل في الإرشاد السياحيِّ، أو صيانة إطارات السيارات، أو العمل في الحراسات العامَّة، ونحو ذلك ممَّا لا يليق بها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾: سُمِّيت (مطلَّقة)؛ لأنَّها أُطلِقت من قَيْد النِّكاح. و(اللام) في قوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ لبيان الاستِحقاق.

وظاهر هذا اللفظ عُمومُ المطلَّقات، سواءً سُمِّيَ لها مَهْر أم لا، وسواءً كانت مدخولًا بها أم لا.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٩).

فللجميع ﴿مَتَٰعُۢ﴾ وهو: ما تتمتَّع به، من نَقْدٍ، أو حُلِيٍّ، أو كِسوة، ونحو ذلك. ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وهو: ما عرَفه الشَّرْع، ويعرفه الناس، بحَسَب حال الزوجَين وما يليق بهما.

﴿حَقًّا﴾ أي: حتمًا لازمًا ثابتًا ﴿عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: الذين يتقون عقاب الله، بفِعْلِ ما أمرَهم به، وترْكِ ما نهاهم عنه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن لم يُمَتِّع زوجته المطلَّقة؛ ففي تقواهُ نقصٌ.

وفيها: وجوب المُتعة لكلِّ مطلَّقة. وخصَّص بعضُ العلماء التمتيع في هذه الآية بمفهوم الآية السابقة؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾، فقالوا: إنَّ المُتعة خاصَّةٌ بمَن لم يُدخَل بها، ولم يُسَمَّ لها مَهْرٌ.

وفي الآية: التأكيد على الحقوق؛ لئلَّا يتهاون بها الناس.

وفيها: الإغراء والحثَّ على أداءِ الحقوق، بوَصْف مَن يؤدِّيها بالصِّفات الحسَنة، مثل: «المحسنين» و«المتَّقين».

وفيها: تشريف وتعظيم أهلِ التَّقوى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٤٢﴾:

قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما تقدَّم من أحكام المطلَّقات والعِدَد في البيان السابق؛ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُظْهِرُ ويوَضِّح ما تحتاجون إليه، معاشًا ومعادًا، من الآيات في خَلْقه وفي شَرْعه. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لتكونوا من أصحاب العقول الرشيدة، وتفهَموا ما بيَّنه لكم؛ لِتعمَلوا به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده، ببيان ما يحتاجون إلى معرفته، من حدوده، وحلاله وحرامه، والأحكام النافعة لهم.

وفيها: أنَّ مَن عَلِمَ أحكام الله تعالى في خَلْقه وشَرْعه؛ فهذا دليلٌ على كمال عقله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى -فيما مضى- طائفةً من آياته الشرعيَّة، الدالَّة على حِكْمته؛ أتْبَعَ ذلك بِذِكر بعضِ الآيات الكونيَّة، الدالَّةِ على قُدرته؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمَّد ﷺ، ويشمل أيضًا: كلَّ مخاطَب بهذا القرآن. وهذا استِفهامٌ للتعجُّب والتشويق إلى سماع قِصَّتهم. ومعناه: ألم تعلم وتنظر في حالِ ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ أي: من بيوتهم وأحيائهم وأوطانهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرة؛ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: خوفًا منه وفِرارًا. قيل: لوَباءٍ نزل بأرضهم، وقيل: هربًا من القتال. ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾؛ فماتوا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدَّةٍ ﴿أَحْيَـٰهُمْ﴾ أي: ردَّهم إلى الحياة؛ لطفًا بهم، وليُرِيَ العِبادَ آياتِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعًا، فيما يُريهم من آياته الباهرة، والحُجَج القاطعة، والدِلالات الواضحة. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشُكره، مع تفضُّلِه عليهم، بل يكفُرونه ويَعْصُونه.

وثبت عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «كانوا أربعة آلافٍ، خرجوا فِرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بمَوْضع كذا وكذا؛ قال الله لهم: ﴿مُوتُوا۟﴾؛ فماتوا، فمرَّ عليهم نبيٌّ من الأنبياء، فدعا ربَّه أن يحيِيَهم، فأحياهم؛ فذلك قولُه عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ فيها عِبرةً ودليلًا قاطعًا على قُدرة الله على بعْثِ الأجساد، يومَ القيامة.

وفيها: أنَّه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَرٍ، وأنَّه لا ملجأ من الله إلَّا إليه. وهذا يُشَجِّع العبدَ على الإقدام على طاعة الله تعالى كيفما كانت، ويُزيل الذُّعْر من الموت عن قُلوب المجاهِدين في سبيل الله.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٦٦).

وفيها: نِعمة الله وفَضْله حتى على الكفَّار.

وفيها: أنَّه لا يقوم بشُكر الله إلَّا القليلُ من الناس.

وفيها: أنَّه لا يخرج أحدٌ عن أمر الله.

وفيها: أنَّ الله تعالى يأمُر بالكلام، كقوله: ﴿كُن﴾، وقوله: ﴿مُوتُوا﴾.

وفيها: أنَّ مِن طبيعة البشر الفِرارَ من الموت.

وفيها: أنَّ البلاء إذا نزلَ والقدَر إذا حصل؛ فإنَّه لا ينفع الفِرار منه؛ ولذا صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال في نزول الطاعون: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[1].

لكنَّ هذا لا يُنافي الاحترازَ من المخاوف والمُهلِكات، والتوقِّي من المكروهات، والأَخْذَ بأسباب النجاة، لكنَّ هذه الأسباب لا تنفع إذا قضى الله بنزول قدَرِه، وقد يموت الإنسان وهو آخذٌ بسبَبٍ يظنُّ أنَّه ينجو به من الموت، وكم من شخصٍ مات وهو في طريق هَرَبِه من الموت!

وفي الآية: قَصُّ القَصَص للاعتبار، وأهميَّة نَشْر هذه القِصَّة وأمثالها بينَ الناس؛ ليتَّعظوا بها.

ويُؤخَذ من الآية: شُكر النِّعمة، بمعرِفتها ونِسْبتها إلى المُنْعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإقرارِ بذلك، واستعمالِها في طاعته.

وفيها: الحثُّ على النظر في أخبار السابقين.

وفيها: تَرْك بعض التفاصيل في بعض القَصَص، لمصلحة السامعين؛ لئلَّا ينشَغِلوا عن المقصود الأساسيِّ من إيراد القِصَّة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾:

ولـمَّا بيَّن تعالى أنَّ الفِرار من الموت لا يُنجي منه؛ أمَرَ عباده بالجهاد في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ عدُوَّ الله وعدُوَّكم، ولا تهربوا كما هَرَبَ أولئك.

(١) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

وأمر أن يكون هذا القتالُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء دِينه، لا لغنيمةٍ، ولا لعصبيَّةٍ، ولا لإظهار شجاعة. والعِبادات -ومنها الجهاد- سبيلٌ وطريقٌ إلى الله، يسلُكها صاحبُها.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلامِكم ﴿عَلِيمٞ﴾ بنيَّاتكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الأمر بقتال الكافرين. وقد يكون فرضَ عَينٍ، أو فرضَ كفايةٍ، أو مستحبًّا غيرَ واجبٍ، بحَسَب اختلاف الأحوال.

وفيها: التذكير بالإخلاص في الأعمال.

وفيها: أنَّ سبيل الله -وهي الطريق الموصِلة إلى الله- لا بُدَّ فيها من صِحَّة النِّيَّة -بالإخلاص- وصِحَّة العمل -بأن يأتيَ به على الوجه المشروع-.

وفيها: وجوب موافقة الشريعة في الجهاد؛ كطاعة الأمير، والصَّبر عند اللِّقاء، وعدم التولِّي عند الزحف، وحُسن معاملة الأسرى، وطريقة قِسمة الغنائم، وغير ذلك.

وفيها: تحذير المُثبِّطين عن الجهاد، بأنَّ الله سميعٌ لأقوالهم، وسيُجازيهم عليها.

وفيها -مع الآية التي قبلها-: التمهيد للنفوس قبل ذكِر الأمور الكبيرة؛ فكما أنَّ الفِرار من الموت لا يُغني، فكذلك الفِرار من الجهاد والامتناع عنه ليس بالضرورة أن يُنجي فاعلَه من الموت، وفي هذا رَدٌّ على المنافِقين الذين قالوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾:

ولـمَّا كان الجهاد بالمال رَديفَ الجهاد بالنفس؛ حثَّ الله تعالى عليه بعدَه؛ فقال:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾: هذا الاستِفهام للتشويق والإغراء؛ ومعناه: أين الذي يُقرض الله، فليتقدَّم؟ و(القَرْض): هو القطع، فالمُقرِض يقتطع للمقترِض جزءًا من ماله.

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ أي: طيِّبًا، مقرونًا بالإخلاص، فيكون من مالٍ طيِّبٍ حلالٍ، بِلا منٍّ ولا أذى.

فمن فعلَ ذلك فجزاؤه المُضاعفة؛ ولذا قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ بالأجر والجزاء ﴿لَهُۥٓ﴾ للمنفِق والمتصدِّق ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ لا يعلمها إلَّا الله، قد تبلُغ السَّبعَمائة وتزيد عليها، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ﴾ أي: يُمسِك ويُضيِّق على بعض العِباد؛ ابتلاءً لهم. ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: يُوسِّع على مَن يشاء؛ اختبارًا وامتحانًا. كما أنَّه يَقْبِض بعضَ القُلوب فلا تُقْدِم على الطاعة، ويَبْسُط أخرى فتُسارع إلى الخير.

﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة، للحساب والجزاء، فيُثيب المنفِق، ويعذِّب البخيلَ المُمْسِك -إن شاءَ-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، في الجهاد، وفي غيره.

وفيها: تشريفُ أهل الإنفاق، بمعاملة صدَقاتهم على أنَّها قُروضٌ، وأنَّ الله تعالى يرُدُّها بلا ريب، ويضاعفها لأصحابها، مع استغنائه عنهم، وعن أموالهم.

وفيها: نَدْب العِباد إلى القَرْض الحَسَن، وهو: ما يكون خالصًا لله، من مالٍ حلالٍ، يُخرِجه المتصدِّق بنَفْسٍ طيِّبة، ويَضَعُه في محلِّه الشرعيِّ، مراعيًا المصلحةَ الشرعيَّة، ولا يُتبِع ذلك منًّا ولا أذًى.

وفيها: كَرْم الله تعالى بالمضاعَفة أضعافًا كثيرة، وأنَّه إذا قبضَ الصَّدَقة بسطَ في الأجر والجزاء.

وفيها: إشارةٌ إلى تمام رُبوبيَّة الله تعالى، بأنَّه يقبِض ويبسُط، وله في ذلك الحِكْمة البالغة.

وفيها: نَدْب العِباد إلى الصَّدَقة، كلٌّ على حَسَب حاله وماله.

وفيها: أنَّ على العبد ألَّا يترك الصَّدَقة خشيةَ النقص والفقر؛ فإنَّ الله يَزيده ويُعوِّضه، ويَبسُط له، وتَرْك الصَّدَقة لا يُبقِي الغنيَّ على غِناه؛ فقد ينقُص مالُه نقصًا حقيقيًّا بأسباب أخرى، وكم من مُمْسِكٍ بخيلٍ احترقَ مالُه أو ضاع أو سُرِق.

وفي تسمية الصَّدَقة (قرضًا): تأنيسٌ للناس، ومخاطبتهم بما يفهمونه.

وفي الآية: أنَّ مَن لم يستطع الجهاد بنفسه؛ فإنَّه يتأكَّد عليه الجهاد بماله، ويا لسعادةَ مَن جمعَ بينهما.

وفيها: أنَّ ابتغاءَ الآجِل بالعمل العاجل، يفعله الذين يؤمنون بالرُّجوع إلى الله، ويوقِنون بحُسن جزائه.

وفيها: تذكير العِباد بالمعاد إلى الله؛ كي يرغبوا في الإنفاق، ويَحْذَروا من البُخل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾:

ولـمَّا أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال في سبيله؛ أخبرهم بأنَّ هذا التشريع قديمٌ، وأنَّ الجهاد كان مطلوبًا في الأُمَم السابقة؛ تشجيعًا وتثبيتًا للمؤمنين؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم عِلْمَ اليقين كأنَّك تراه. والخِطاب للنبيِّ ﷺ، ولكلِّ مَن نزل القرآن من أجْلِه. وهذا الاستِفهام للتعجُّبِ والتشويقِ وتقريرِ القِصَّة، والحثِّ على الاعتبار منها.

﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ من الأشراف والوُجَهاء ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم أفضل الأُمَم في ذلك الوقت. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان هذا بعدَ موسى بدهرٍ طويلٍ، وكان في زمن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة، فكانوا منصورين فاتحين، ثم كفَروا وعصَوا،

وخالَفوا وتولَّوا، فسلَّط الله عليهم أعداءَهم، فاحتلُّوا بلادَهم، وأخرَجوهم منها، وسلَبوهم التابوت، فاستيقظَت في نفوس بني إسرائيل الرغبةُ في العودة لِـما كانوا عليه.

فلو رأيتَهم ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ من أنبيائهم الكثيرين، الذين كانوا يَسُوسونَهم، ولو كان في معرفة اسمه فائدةٌ لبيَّنه الله لنا.

فقالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا﴾ أي: أقِم وعَيِّن ﴿مَلِكًا﴾ يتولَّى علينا، ونرجع إليه، ويقودنا، ﴿نُّقَـٰتِلْ﴾ معه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِتكون كلمةُ الله هي العُليا. وقد قالوا ذلك لنبيِّهم؛ إغراءً له، وتشجيعًا.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيُّهم، مختبِرًا عزيمتَهم وحقيقةَ ادِّعائهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: هل يُتوقَّع منكم ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: فُرِض ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ في سبيل الله ﴿أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ وتجبُنوا، وتتولَّوا؟!

فأجابوه: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما الذي يمنعنا من ذلك، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ طردًا وإبعادًا ﴿مِن دِيَـٰرِنَا﴾ وأوطاننا، ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾، فاستولى الكفَّار على بلادنا، وأخذوا أبناءنا في السَّبي؟!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ وفُرِض؛ ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرَضوا عن ذلك، ولم يقوموا به، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فعصمهم الله وثبتهم وقوّى قلوبهم، فالتزموا أمرَ الله، ووطّنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهم: الذين تركُوا ما أوجبَ الله عليهم، وظلَموا أنفُسَهم، وظلَموا المستضعَفين؛ فسيُجازيهم العليمُ بهم، الخبيرُ بما عَمِلوه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريمُ ترْك الجهاد في سبيل الله.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ للجيوش من قائدٍ يقودها.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من طاعة القائد.

وفيها: أنَّ مرتبة النبوَّة أعلى من مرتبة المُلك؛ لأنَّهم طلبوا من نبيِّهم أن يبعثَ لهم مَلِكًا.

وفيها: امتحان المدَّعِي للشيء؛ لتستبينَ حقيقةُ دَعواه.

وفيها: استنهاض الهِمَم للجهاد في سبيل الله، بِذكر حال المظلومين من المسلمين.

وفيها: أنَّ بعض مَن يدَّعي فِعْلَ الخير، لا يثبُت عليه إذا جاء وقتُ الجِدِّ.

وفيها: أنَّ من مُبيحات القتال: رفعَ الظُّلْم عن المظلومين، وإعادتَهم إلى ديارهم، واستنقاذَ ذُرِّيَّاتهم من أيدي الظالمين.

وفيها: ابتلاء الله لعباده بفِعْل الواجبات، وتَرْك المحرَّمات.

وفيها: أنَّ على العِباد الثباتَ عند الابتلاء.

وفيها: الإشارة إلى أنَّه لا يَصِحُّ الاستهانةُ بالأعداء، وتمنـيِّ مُقابَلتهم؛ لأنَّ كثيرًا ممَّن يدَّعي الشجاعةَ والثباتَ أمامَهم، رُبَّما يَفِرُّ إذا لاقاهم! ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[(١)].

وفيها: أنَّ تَرْكَ القيام بما أوجبه الله ظُلْمٌ.

وفيها: أنَّ الأَخْذَ بالأسباب لملاقاةِ الأعداء، والإعدادِ لجهادهم، من أَجْلِ تحرير بلاد المسلمين، وإنقاذِ أَسْراهم؛ واجبٌ، وهذا يختلف عن التمنيَّات والادِّعاءات الفارغة، القائمة على الاستهانةِ بالعدُوِّ، والاغترارِ بالنفس.

وفي الآية: الحذَر من تغيُّر النِّيَّات، وانحلال الهِمَم والعزائِم في فِعْل الخير.

وفيها: أنَّ سَلْبَ الأبناء أشدُّ على النفس؛ لأجل الحاجة إليهم، حالًا ومستقبَلًا.

وفيها: أنَّ العلماء يَضْبِطون حماس العامَّة ويُوَجِّهونه.

وفيها: إيقاف المدَّعِي على حقيقة نفسه.

وفيها: أنَّ الحياة تهون في نظر المظلوم المقهور المسلوب، فيكون أكثر استعدادًا للقتال.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

وفيها: أنَّه لا تنافي بينَ الجهاد في سبيل الله، وبين استرجاع الدِّيار المسلوبة والذُّرِّيَّة المأخوذة؛ بل يُستثمَر الثاني لتعزيز الاندفاع إلى الأول.

وفيها: تشديد العهود والمواثيق على مَن يُخشَى نُكوصُه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ أي: بما أُوحي إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾ واختار واصطفى ﴿لَكُمْ﴾ أي: من أجلِكم ومصلحتِكم ﴿طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ لتكونوا تحت إمرته.

ولأنَّه لم يكن من بيت مُلْكٍ، فقد اعترضوا عليه، وقالوا: ﴿أَنَّىٰ﴾ أي: كيف. وهذا استِفهامٌ للإنكار والاعتراض ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ والإمرة، وليس من ذُرِّيَّة مُلوكِنا؟! ثُمَّ زادوا في الإساءة والاعتراض، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ وأولَى، وقد تقرَّر عندهم ألَّا يرث المُلكَ إلَّا كابرٌ عن كابرٍ، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: فليس صاحبَ حَسَبٍ، ولا مالٍ واسع.

فأجابهم نبيُّهم على هذا الاعتراض: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، فأكَّد لهم أنَّ اختياره بوحيٍ من الله، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يعني: عِلْمَ الدِّين وعِلْمَ الحروب، ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ وطُولِ القامة؛ فاجتمعت له القوَّتان الحِسِّيَّة والمعنويَّة؛ فهو أعلَمُ منكم، وأشَدُّ قوةً وصبرًا في الحَرْب، ومعرفةً بها.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ بعِلْمه وكَلِمَته، فلا يُسأل عمَّا يَفعل، ولا يجوز الاعتراض عليه سبحانه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في فَضْله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يستَحِقُّ المُلك، ويصلُح حالُ الناس به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ السمع والطاعة لله ورُسُله.

وفيها: تعظيمُ الأنبياء لربِّهم، وحُسنُ أدبهم معه، وسَعيُهم في طاعةِ الناس له، وإقناعِهم بتنفيذ أمره.

وفي الآية: مراعاة الدِّين والبدَن في اختيار القائد.

وفيها: أنَّه كلَّما كان الخليفة والمَلِك ذا صفاتٍ ومزايا أعلى؛ كان أعونَ له على الحُكمِ، وانقيادِ الرَّعيَّةِ له.

وفيها: أنَّ فضائل النفس مُقَدَّمة على المال.

وفيها: أنَّ مُلك العِباد هو في الحقيقة مُلكٌ لله، وأنَّ الله يؤتيهم إيَّاه؛ ابتلاءً واختبارًا.

وفيها: أنَّ من الناس مَن ينخدِع بالأمور المادِّيَّة الدُّنيويَّة المحسوسة، ويغفُل عن الحقائق والفضائل النفسيَّة والمعنويَّة.

وفيها: أنَّ العِلْم أفضل من قوَّة البدَن؛ لأنَّه قدَّمه بِالذِكر في الآية.

وفيها: أنَّ الإمامة لا تُستحَقُّ بالإرث ولا الغِنَى.

وفيها: أنَّه لا يُشترَط في ولاة الأمر أن يكونوا أغنياء.

وفيها: أنَّ قوَّة الرأي اللازمة للقيادة تنبُع من العِلْم.

وفيها: حُسن الإجابة عن الاعتراضات، وإزالة الشُّبُهات؛ فإنَّهم لـمَّا اعترَضوا على نبيِّهم وألقَوا بشُبُهاتهم؛ ردَّ عليهم وفنَّد كلامَهم؛ فأخبرَهم أولًا أنَّ القضيَّة اصطفاءٌ من الله -الذي تجب له الطاعة والتسليم والانقياد لحُكمه-. ثم لفتَ نظرَهم إلى أنَّ هذا الرجل الصالح فيه من المميِّزات ما هو أَولَى من نَسَب المُلكِ وسَعَة المال. ثم بيَّن لهم أنَّ الله أعلَمُ بمَن يصلُح للمُلك، وأنَّ اصطفاءَه عَزَّوَجَلَّ لِحكْمة. ثُمَّ ذكرَ لهم مِن صفات الله ما يُناسِب الحالَ والمقالَ.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾:

ولـمَّا كان بنو إسرائيل قومًا فيهم جِدالٌ ومُنازَعةٌ واعتراضٌ على الحقِّ؛ زادَهم الله آيةً ومعجِزةً، تدلُّهم على صِحَّة ما أُخبِروا به من مُلك طالوت.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ -بوحْي من الله-: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ والعلامةَ الدالَّةَ على أنَّه حقٌّ، هي ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو: الصُّندوق الخشبيُّ الذي كان يحتفظ به بنو إسرائيل، ويَصْطحِبونه في المعارِك، حتى استولى عليه أعداؤهم، ففَقدوه وعزَّ عليهم فَقْده. ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾: رحمة ووقار، وجلال، وطُمأنينة لنفوسِكم. ﴿وَبَقِيَّةٞ﴾ أي: بقايا ورُضاض الألواح (يعني: فُتاتها) التي كانت التوراة مكتوبة فيها، مع عصا موسى، وغير ذلك من الآثار ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ والمراد: موسى وهارون أنفُسها. ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتحرُسه وتنقُله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحمِلُه، حتى تضعَه في بيت طالوت»[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في رجوع التابوت بهذه الطريقة المعجزة ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾، دالَّةً على صِدق نبيِّكم فيما أخبرَكم به، من تعيين طالوتَ مَلِكًا. هذا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالله ورُسُلِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

رحمة الله بعباده؛ حيث يبعث من الآيات ويُقيم من المعجِزات ما تطمئن به النفوس، ويؤمِن عليه البشر.

وفيها: انتفاع أهلِ الإيمان بآيات الرحمان.

وفيها: أثر السكينة في النفوس.

وفيها: أنَّ الملائكة أجسامٌ تطير، وتحمِل وتضع الأشياء.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٣٣٦).

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾:

ولـمَّا جاء التابوت، وأقرَّ بنو إسرائيل بالمُلْك لطالوت رَحِمَهُ اللَّهُ، واستلمَ زِمام القيادة؛ جهَّز جيشَ بني إسرائيل لمُلاقاة الأعداء.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرجَ مع جيشه ومَن أطاعه من البلد؛ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أي: مختبركم -وكان قد أصابهم حرٌّ وعَطَشٌ- ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو: الماء الجاري الكثير. وقيل: هو نهر الشريعة المشهور، الذي بينَ الأُرْدُن وفِلَسطين.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس على طريقتي، ولا من أتباعي، وأنا بريء منه.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يَذُقه؛ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: على سُنَّتي ونهجي، لِصدقه وصبره.

﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ وهو: الشيء القليل، الذي يُغترَف في الكفِّ مرَّةً واحدةً، فمَن فعلَه فلا بأس عليه. وكان هذا الابتلاء من الله ليظهَر الذين يثبُتون من هؤلاء المتحمِّسين، المدَّعِين الاستعدادَ للقتال.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي: كَرَعُوا وشَرِبوا بأفواهِهم، كما اشتهَت نفوسُهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ فإنَّهم قد امتثلوا وأطاعوا، ولم يتجاوَزوا الغُرْفة.

وقد جاء عددُهم، كما قال البَراء بنُ عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا -أصحابَ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نتحدَّث: أنَّ عِدَّةَ أصحاب بَدْرٍ على عِدَّةِ أصحاب طالُوتَ، الذي جاوَزوا معه النهر، ولم يُجاوِزْ معه إلَّا مؤمنٌ: بضعة عشر وثلاث مائة»[1].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: تعدَّاه ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين

(١) رواه البخاري (٣٩٥٨).

اقتصروا على الغَرْفة، أو لم يذوقوا الماء أصلًا. ﴿قَالُواْ﴾ وهم: بعض مَن جاوز معه النهر، ممَّن ضعُفَت بصيرتُه، فليس كلُّ مَن صبر أمام الماء يصبِر أمام الأعداء: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: لا قُدرة، ولا قوَّة لنا. قالوا ذلك لـمَّا رَأَوا قِلَّة عدَدِهم وكثرةَ عدُوِّهم. ﴿بِجَالُوتَ﴾ وهو قائد جيش الكفَّار، قيل: كن جبَّارًا من العمالقة. ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ الكثيرين عددًا وعُدَّة.

﴿قَالَ﴾ العلماء الصادِقون في ردِّهم، وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، العالمِون والموقِنون بأنَّ وَعْد الله حقٌّ، والمؤمنون بلقاء الله واليوم الآخر. و(الظَّنُّ) هنا بمعنى: اليقين.

قالوا لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ﴾ من المؤمنين ﴿غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ من الكافرين، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقدَره ونَصْرِه وإرادته. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: بالمعونة، والنُصرة، والتأييد.

وقوله ﴿كَم﴾ في هذه الآية للتكثير؛ أي: ما أكثرَ ما تغلِب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه ينبغي للقائد أن يتفقَّد جنوده، ويتدبَّر أحوالهم، في خروجهم ومسيرهم.

وفيها: أنَّه يجب على القائد أن يمنعَ من الخروج أو المواصَلة كلَّ مَن لا يصلُح للحَرْب، سواء كان مخذِّلا مُثبِّطًا، أو مرْجِفًا جبانًا خائفًا، أو عاصيًا متمرِّدًا؛ لِـما يُسَبِّبه هؤلاء من إضعافِ عزيمة الجيش، وإلقاءِ الخوف في قُلُوبهم، أو إحداثِ الانشقاق بينهم.

وفي الآية: حُسن اختيارِ الجنود، وتدريبُهم، واختبارُ قُدرتهم على التحمُّل والثبات والطاعة.

وفيها: توالي الاختبارات؛ لمعرفةِ حقائق الجنود، وترويضِهم وتمرينِهم للصبر على المشاقِّ، والطاعةِ وامتِثالِ الأوامر.

وفيها: أنَّ أكثر العِباد لا يُنَفِّذ أمر الله.

وفيها: جواز الاختبار والامتحان، بما لا يترتب عليه مفسدةٌ أو مهلكةٌ.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجِب الصَّبر والتحمُّل، ويمنع الوَهْنَ والضَّعْفَ والجُبْنَ.

وفيها: أنَّ الله يبتلي عبادَه بالحِرمان من بعض المحبوباتِ أحيانًا.

وفيها: رحمة الله تعالى بعباده، بالإذن بغَرفة اليد، للإبقاء على الحياة.

وفيها: أنَّ اليقين بوَعد الله ولقائه، يُقَوِّي الأمل والرجاء، ويبعث على التفاؤل.

وفيها: عدم الاغتِرار بالكثرة، وأنَّها كثيرًا ما تنهزِم.

وفيها: الحثُّ على الصَّبر، وأهميَّته في الجهاد.

وفيها: أنَّ بعض الناس يصبِر على أمورٍ دون أمور.

وفيها: تفاوت المؤمنين في العِلْم والبصيرة.

وفيها: فَضْل أصحاب العِلْم في تثبيت الناس.

وفيها: أنَّ القِلَّة رُبَّما تُنقِذ الموقف.

وفيها: أنَّ المؤمنين يُقاتِلون بأعمالهم أولًا، قبل العِدَّة والعدَد.

وفيها: أثر التأييدِ الإلهيِّ في جَلب النصر، ومعيَّةِ النُصرة والتأييدِ للمؤمنين.

وفيها: تمحيص الحماس الظاهر، والادِّعاءات.

وفيها: أنَّ الله يكشِف حقائق العِباد، بأقداره من الحوادث، والأوامر والنواهي.

وفيها: سُنَّة الله في دَفعِ الكافرين بالمؤمنين، والمواجَهةِ بينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل.

وفيها: وجوب طاعة القائد في غير معصية الله.

وفيها: تشابُه أحوال المؤمنين على مرِّ العصور وكرِّ الدهور، حتى شابَه أهلُ بَدْرٍ أصحابَ طالوتَ في العدَد -وإن كانَ أهل بَدْرٍ أفضل منهم-.

وفيها: أهميَّة كلام المؤمنين الصادِقين، في تثبيت النفوس في المواقف الخطيرة الحاسمة، وتقوية القُلُوب عند المواجَهة.

وفيها: أنَّ القليل من زاد الدُّنيا يكفي الزاهدين، ويكسِر حِدَّة الحاجة.

وفيها: مباركة الله في القليل، إذا أُخِذَ بحقٍّ.

وفيها: أنَّ ذَوْق الماء يُسَمَّى طُعمًا، وقد قال النبيُّ ﷺ عن ماء زمزم: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ»[1].

وفيها: أنَّه لا تنفع الكثرةُ مع خِذلان الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مع توفيق الله.

وفيها: أنَّ الجيش يُهزَم بالمعاصي، وإنَّما يُقاتِل المؤمنون بأعمالهم الصالحة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ أي: طالوت وجنوده المؤمنون، وظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ الكافرين، ودنَوا منهم لِلِّقاء.

﴿قَالُواْ﴾ متضرِّعين إلى الله، مستعينين به: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: املأ قُلُوبَنا بالصَّبر، وأجسادَنا، حتى نثبُتَ. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى لا نَفِرَّ ولا نهرُب. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أعِنَّا عليهم، حتى نَغْلِبَهم.

ولـمَّا صدَقوا، وصبَروا، ولجأوا إلى الله تعالى بالدُّعاء؛ استجاب الله لهم، لـمَّا التحَموا مع القوم الكافرين؛ ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: كَسَرَ المؤمنون الكافرين، وغلَبوهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بأمره، وإرادته، وتقديره.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ وكان جُنديًّا من جنودِ طالوت، شُجاعًا، مؤمنًا، وقد كتب الله على يدَيه هلاك ﴿جَالُوتَ﴾ الجبَّار، قائد الكفَّار. وبقَتْلِ القائد ينهزِم الجنود.

ثُمَّ أتمَّ الله نِعمته على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ فصار مَلِكًا من بعد طالوت، وآتاه الحِكْمَة أيضًا؛ ولذا قال: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوَّة بعد النبيِّ الذي عيَّن طالوتَ؛ فاجتمع لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ المُلكُ والنبوَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٣).

وقيل: لم يجتمعا في بني إسرائيل لأحدٍ قبلَه.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: آتى الله داودَ من علوم الدِّين وعلومِ الدُّنيا، كصَنعة الحديد، وكيفيَّة القضاء، والصوتِ الجميل، وغير ذلك، ممَّا شاءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي: لولا دَفْعُ شرِّ الطُّغاة بجهاد المؤمنين لهم؛ ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لعمَّها الكُفر، والخراب، والإثم، والفساد. و(الفساد): ضِدُّ الصلاح. ومن ذلك: تخريب بيوت العِبادة، وإزالتها، وذهاب الخير والدِّين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ﴾: صاحب النِّعَم، والعطاء الواسع الكثير ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهم: جميع الخَلْق.

وفي الآيتَين من الفوائد:

اللُّجوء إلى الله تعالى في الشدائد، والتوكُّل عليه، وأنَّه سببٌ عظيمٌ للإجابة، وعدَم الاعتماد على النفس والاغترار بها.

وفيها: حاجة المؤمن إلى ربِّه، واضطرارُه إليه.

وفيها: أنَّ ثباتَ القَلْب أساسُ ثبات القدَم.

وفيها: الحاجة إلى الصَّبر الكثير في المعركة؛ لقولهم: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا﴾، و(إفراغ) الشيء على الشيء يدلُّ على تعميمه به.

وفيها: أنَّ القتال يكون للعداوة في الدِّين، لا للعداوة الشخصيَّة.

وفيها: حُسن الدُّعاء، والترتيب الجيِّد فيه؛ إذ إنَّهم سألوا أولًا الصَّبرَ في القَلْب والبدَن، ثم ثباتَ القدَم المترتِّب عليه؛ فسألوا التثبيتَ الظاهر والباطن، ثم النصرَ المترتِّب عليهما.

وفيها: أنَّ النصر يُنال مع الصَّبر، وأنَّ الصَّبر مجلبة لمعونة الله.

وفيها: أنَّ من أوقات إجابة الدُّعاء: ما يكون عند لقاء الأعداء؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ -أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ-: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: أنَّ التصبير لا يكون إلَّا من الله؛ ولذلك أثنى الله على هؤلاء المؤمنين الذين سألوه أن يصبِّرهم.

وفيها: أنَّ مَن لجأ إلى الله بصِدْق، وأحسنَ الظنَّ به؛ أجابَ دُعاءه.

وفيها: أنَّ النصر من الله حقيقةً؛ فهو الذي يأذَنُ به ويُرِيدُه.

وفيها: شجاعة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الله إذا أرادَ شيئًا مَهَّد له، وهيَّأ له أسبابه؛ فكان قَتْلُ داودَ لجالوت تمهيدًا لظهورِ أَمْرِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإيتائِه النبوَّةَ والقيادةَ والمُلكَ.

وفيها: أنَّ الأنبياء ليس عندهم من العِلْم إلَّا ما علَّمهم الله.

وفيها: بيان أهميَّة الجهاد في إنقاذِ المؤمنين، وحِفظِ دينهم، ودَرْءِ الشرِّ والكُفرِ وإزالتِه من الأرض، أو محاصرتِه وإضعافِه، ورَفْعِ الظلمِ عن المظلومين.

وفيها: أنَّ الله قد يدفَعُ البلاءَ عن الناس بوجود الصالحين والمُصلِحين فيهم.

وفيها: إثبات فَضْلِ الله على جميع خَلْقه، وفَضْلِه في الدُّنيا على المؤمن والكافر، وفَضلِه في الآخرة على المؤمنين فقط.

ويؤخَذ من الآيات المتقدِّمة:

الإعراضُ عن التفاصيل التي لا حاجة إليها؛ فإنَّ الله تعالى لم يذكُر لنا اسمَ ذلك النبيِّ الذي بعثَ طالوتَ، ولا تفصيلَ ما في التابوت، ولا اسمَ النهر، ولا كيفيَّة قَتْلِ داودَ لجالوت، وغير هذا ممَّا لا يتعلَّق بذِكره فائدة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات التي قَصَصْناها عليك، أو: القرآن كله ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المنـزَّلة، التي فيها التوحيد، والتشريع، والأخبار، والقَصَص.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنَّها حقٌّ، وما جاءت به حقٌّ، وقد اشتملَت على الحقِّ، وهو: الصِّدق في الأخبار، والعَدْل في الأحكام.

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمَّد ﷺ ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلى الناس كافَّةً.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ القرآن نزلَ من عند الله حقًّا، وأنَّه مشتمِلٌ على الحقِّ.

وفيها: إثبات رسالة النبي ﷺ، وأنَّ هناك مُرسَلون غيره.

وفيها: تثبيت الإيمان بِقَصِّ القَصص.

وفيها: أنَّ قصَصَ الحقِّ تُطابِق الواقع.

وفيها: أنَّ تفاصيلَ القِصَّة المتقدِّمة لا يعلَمُها إلَّا نبيٌّ مُرسَل، وفي هذا إثباتٌ لنبوَّة النبي ﷺ.

﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾:

قوله تعالى ﴿تِلۡكَ﴾ أي: جماعة ﴿ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي: جعَلْنا بعضَهم أفضل من بعض، في الوحي، والكتب، والمعجِزات، والأتباع، والمراتب عند الله.

﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلَّمه عَزَّوَجَلَّ بلا واسطة، كموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في الطُّور، ومحمَّد ﷺ في ليلة المعراج.

﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ﴾ على بعض ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ في الجنَّة، والفضائل، ويدخل في ذلك: المنازل في السماوات، التي لقيَهم فيها النبيُّ ﷺ، لـمَّا عُرِجَ به.

وأعلى الأنبياء درجةً في الجنَّة: هو نبيُّنا ﷺ، ودرجته هي الوسيلة -وهي أعلى درجات الجنَّة-.

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أعطيناه المعجِزات الظاهرة، الدالَّة على صِدقه

ونبوَّته -كإحياء الموتى، وإبراء أصحاب العاهات- ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قوَّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: بالنَّفْخةِ التي كانت سببَ وجود عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالوحي والعِلْم الذي نقلَه إليه، ثُمَّ حمْلِه ورَفْعِه إلى السماء.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أرادَ ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: لم يحصُل الاختلاف في الأُمَم بعد الرُّسُل، اختلافًا يؤدِّي إلى قتالهم، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: المعجِزات، والدلائل الواضحات.

﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في الدِّين، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بنبيِّه، وبما أُنزِلَ عليه، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وجحدَ، وأعرضَ، وتولَّى.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ -بالرغم من الاختلاف- ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ فلا رادَّ لحُكْمه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الفَضْل بيدِ الله وحدَه، يؤتيه مَن يشاء.

وفيها: إثباتُ التفاضُل بينَ الأنبياء.

وأمَّا النهي الوارد في السُّنَّة عن التفضيل بينهم، في حديث: «لا تُفضِّلوا بيْنَ أنْبياءِ الله»(١)؛ فمحمولٌ على إذا ما كان التفضيل بمجرَّد الرأي والهوى والتشهِّي والعصبيَّة -بغير دليل- أو إذا كان على سبيل التعالي والافتخار، أو إذا أدَّى إلى توهُّم انتقاص المفضول أو الغضِّ منه أو الإزراء به، ويزداد النَّهي إذا كان في مقام المجادَلة أو الخُصُومة، أو أدَّى إلى التخاصُم والشِّجار.

وفي الآية: أنَّ مرجِع التفضيل إلى الله وحدَه، لا إلى آراء البشر.

وفيها: إثبات صِفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: فَضْل الله على الرُّسُل، بتأييدهم وتقويتهم.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).

وفيها: الرَّدُّ على النصارى، الذين زعموا أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهٌ.

وفيها: أنَّ قتال الكفَّار للمؤمنين، إنَّما هو عن عنادٍ واستكبارٍ، وليس عن جهلٍ؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

وفيها: أنَّه لا يقع شيءٌ من الاقتتال في الدُّنيا إلَّا بقضاءِ الله وقدَرِه ومشيئتِه، وله في ذلك الحِكْمة البالغة جلَّ وعلا.

وفيها: ذمُّ الاختلاف في الدِّين، وأسوأ ذلك: ما يكون بعد تبيُّنِ الحقِّ وقيامِ الحُجَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾:

ولـمَّا كان الجهاد في سبيل الله من الاقتتال المذكور في الآية السابقة، وكان الجهاد يحتاج إلى مال؛ أمر تعالى بالإنفاق؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ للحثِّ والإغراء: ﴿أَنفِقُواْ﴾ أي: ابْذُلوا المال في طاعة الله، وتصدَّقوا في سبيل الله ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾: من بعض ما أعطيناكم وأنعَمنا عليكم. والإنفاق في الآية يَعُمُّ الواجبَ والمستحَبَّ.

وبادِروا إلى الإنفاق، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ وهو يومُ القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ أي: لا يؤخَذ فيه بَدَلٌ، ولا يستطيع الإنسان أن يفتدي نفسَه من عذاب الله، ويشتريها من الهلاك.

﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ ولا أعلى المودَّة والمحبَّة والصداقة تنفعُه يومئذٍ.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ وهي: الوَساطة لدَفْعِ الضرَر وجَلْبِ المنفعة، فلا تفيد أيضًا.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفُسِهم. وأعظم (الظُّلْم): هو الشِّرك والكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإنفاق في سبيل الله من مُقتَضيات الإيمان.

وفيها: رحمة الله بخَلْقه؛ حيث لم يأمرهم أن يُنفِقوا كلَّ أموالهم؛ وإنَّما بعضها.

وفيها: أنَّ مانع الإنفاق الواجب -كالزكاة وغيرها- ظالمٌ لنفسه.

وفيها: أنَّه لا مِنَّة للعبد على الله في الإنفاق من ماله؛ لأنَّه هو الذي رزقه إيَّاه.

وفيها: أنَّ الكفَّار لا تنفعهم يومَ القيامة شفاعةُ الشافعين.

وفيها: أنَّ المال لا ينفع صاحبَه بعد الموت، إلَّا ما خصَّه الدليل؛ مثل: مالِ الوصيَّة، والصَّدَقةِ الجارية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾:

هذه آيةُ الكُرْسِيِّ، وهي أعظمُ آيةٍ في كتاب الله تعالى؛ كما دلَّ عليه حديثُ أُبيِّ بن كَعْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد سأله النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أَبا المنذِر، أَتدرِي أيّ آيةٍ من كِتابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، فضَرَبَ فِي صَدْرِه، وَقَالَ: «والله، لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِر»[1].

وهذه الآية حِرْزٌ لنفوسنا وأموالنا من الشياطين، كما جاء في قِصَّة أُبيِّ بن كَعْبٍ، أنَّه سأل الشَّيطان الذي كان يسرِق من تمره: فَمَا الَّذِي يُجِيرُنَا مِنكُمْ؟ قَالَ: هَذِهِ الآيَةُ آيَةُ الكُرْسِيِّ، ثُمَّ غَدَا أُبَيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ الخَبِيثُ»[2].

وإذا قُرِئَت قبل النوم، فلا يزال على صاحبها من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يُصبح، كما جاء في قصَّة أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهورة، عندما كان يأتيه الشَّيطان ويحثو الطعامَ، وقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[3].

وفي آية الكُرْسِيِّ أيضًا اسمُ الله الأعظم، الذي إذا دُعيَ به أجاب؛ ففي الحديث: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفاتحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»[4].

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٣٠)، وابن حبَّان (٧٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٢٣١١) معلقا مجزوما، وابن خزيمة (٢٤٢٤).

(٤) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ لَمْ يَمْنَعْهُ من دُخُولِ الجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»(١).

وهذه الآية عشرُ جُمَلٍ مستقلَّة، جمعَت أصولًا عظيمة في الأسماء والصِّفات، من: الإلهيَّة، والحياة، والقيوميَّة، والعِلْم، والمُلك، والقُدرة، والإرادة، والإحاطة، والحِفظ، والعُلُوّ، والعظَمة؛ ولذلك كانت أعظمَ آية في كتاب الله، فقراءتها وتدبُّرها أعظمُ في الأجر ممَّا سواها من الآيات.

وقوله ﴿ٱللَّهُ﴾ علَم على الذات الإلهية. ومعناه: المألوه المعبود، المحبوب، المعظَّم، ولا يستَحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه عَزَّوَجَلَّ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو.

﴿ٱلْحَىُّ﴾: ذو الحياة الكاملة، لم يزل ولا يزال حيًّا، لم يسبِق حياتَه موتٌ، ولا يَلْحَقها موتٌ، فهو الأول والآخِر، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: القائم بذاته، لا يحتاج إلى أحد، والقائِم على غيره، يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، يقوم بأمور السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أي: لا تعتَريه ﴿سِنَةٌ﴾ أي: نُعاس، وهو مقدِّمة النوم. ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنَّ هذا نقصٌ لا يليقُ بالله تعالى؛ لأنَّ النائم يغيب عمَّا حولَه، ولا يغيب على الله شيء، والنوم غفلة، والله لا يغفُل عن شيء سبحانه. وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»(٢).

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مُلكًا وخَلْقًا، يتصرَّف فيه كما يشاء.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا أحدَ يشفَعُ عنده، من أهل السماوات والأرض يوم القيامة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وأمرِه، وإرادتِه، وذلك لكمال سُلطانه وهَيبته عَزَّوَجَلَّ. و(الشفاعة): التوسُّط عند الغير، لجَلْب منفعةٍ، أو دَفْع مضرَّة. و(الإذن): هو الأمر.

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩٨٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٥٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

والنبي ﷺ لا يشفع يومَ القيامة حتى يستأذِنَ ويَسْجُدَ تحت العرش، ويسأل ربَّه، حتى يقولَ له: «اشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١).

وقوله ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ما هو حاضرٌ أمامَهم وشاهِدٌ، وما يكون في المستقبَل. ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: عِلم الماضي.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ أي: لا يُدرِكون، ولا يطَّلِعون ﴿بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أي: من عِلْم نفسه وذاته، وأسمائه وصفاته، وما يعلمُه في السماوات والأرض، ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يُطْلِعَهم عليه.

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: شَمِلَ وأحاط. والكُرْسِيُّ أكبرُ من السماوات والأرض، و«الكُرْسِيُّ موضِع القدمَين»، كما قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، وهو ممَّا لا يُقال بمجرَّد الرَّأي؛ فله حُكْم الرفع.

والعَرْش أكبرُ من الكُرْسِيِّ، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا السَّمواتُ السَّبعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ»(٣).

والعَرْش والكُرْسِيّ حقيقيَّان، ومَن فسَّرهما بالعِلم فقد أخطأ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يُثْقِله، ولا يُجْهِده، ولا يُتْعِبه، ولا يشُقُّ عليه ﴿حِفۡظُهُمَا﴾ أي: حِفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾: الذي علا وارتفع فوقَ كلّ الأشياء، وله عُلُوُّ القَهْر والغلَبة، وعُلُوُّ صفات الكمال والجلال، وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد.

وهو سبحانه ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾: ذو العَظَمة، في ذاته، وسُلطانه، وصفاته.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٣١٠)، وصحَّحه الألباني موقوفًا في مختصر العُلُوّ (٤٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في العرش (ص٤٣٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩)، وضعفه غيره.

وفي هذه الآية العظيمة من الفوائد:

إثباتُ خمسة أسماء لله عَزَّوَجَلَّ؛ وهي: الله، والحيُّ، والقيُّوم، والعليُّ، والعظيم.

وفيها: إثباتُ انفراد الله تعالى بالألوهيَّة.

وفيها: إثبات صفة (الحياة) لله. فعلى هذا؛ يجوز الحلِف بـ «حياة الله».

وفيها: حاجة المخلوق إلى الخالِق؛ لقيوميَّة الله على خَلْقه، وهو القائم على كلِّ نفسٍ، والمخلوق لا يقوم بنفسه؛ بل هو مُحتاج إلى غيره، فالله غنيٌّ عمَّا سِواه، وكلُّ شيء يحتاج إلى الله.

وفيها: عُموم مُلك الله؛ لقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وعلى هذا؛ فلا يجوز التصرُّف في مُلْك الله إلَّا بما يرضاه.

وفيها: عدمُ إعجاب الإنسان بعمله وما حصل بفِعْله؛ لأنَّ هذا من الله، والمُلْك له وحدَه.

وفيها: إثبات الشفاعة بإذن الله، يعني: بأمرِه.

وفي الآية: عَظَمة الكُرْسِيّ، وعظمة المخلوق تدلُّ على عَظَمة الخالِق سبحانه.

وفيها: إثبات قوَّة الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

وفيها: أنَّ السماوات والأرض تحتاجان إلى حِفظ الله، ولولا حِفظه لفسدَتا.

وفيها: موعظةٌ لأهل الظُّلْم والطُّغيان، بأنَّ الله عليٌّ عظيم، قادرٌ على الانتقام منهم.

وفيها: الرَّدُّ على مَن يلجأون إلى المقبورين والأموات، ويسألونهم الحاجات، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وما أدراهم أنَّ لهم شفاعةً عندَه؟ ولو كانت لهم شفاعة: فما أدراهم أنَّهم سيؤذَن لهم فيهم؟

ففيها: تحذيرُ مَن يتَّكِل في نجاته يومَ القيامة على شفاعةِ غيره.

وفيها: إثباتُ عُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزلًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾:

قوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تُكرِهُوا النَّاس على الدُّخول في الإسلام؛ فإنَّ دلائلَ الحقِّ فيه وبراهينَه واضحةٌ، وكافيةٌ للإقناع، والدُّخول في الإسلام إنَّما يكون لمن أراد الله به خيرًا، ولا يُحتاج إلى إكراهِه، ثُمَّ إنَّه لو دخلَ في الإسلام مُكرَهًا فإنَّ هذا لا يُفيده.

وقد قال بعض العلماء: إنَّ هذه الآية منسوخةٌ بآيات الأمر بقتال الكفَّار -كآية السَّيف ونحوها-.

وقال بعضهم: هذه الآية خاصَّة بأهل الكتاب ومَن في حُكْمهم؛ فلا يُكرَهون على الإسلام، ولو أرادوا دَفع الجِزْية مع تَرْكهم على دِينهم؛ جازَ ذلك.

وقد استدلَّ بعضُ العلماء بهذه الآية على جواز أَخْذ الجِزْية من غير أهل الكتاب أيضًا، إذا أرادوا البقاء على دِينهم.

وقال طائفةٌ كثيرةٌ من العلماء: بل الذين تُقبَل منهم الجِزْية، ولا يُكرَهون على الإسلام، هم أهل الكتاب خاصَّة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قاتلَ العرَب والمشرِكين، ولم يرضَ منهم إلَّا الإسلام.

ولا تعارُضَ بينَ هذه الآية ومشروعيَّة الجهاد في الإسلام؛ فإنَّ المسلمين لا يُقاتِلون النَّاس لإكراهِهم على الدُّخول في الإسلام بالقوَّة؛ وإنَّما يُقاتِلون مَن أبى أن يكون الحُكمُ في الأرض لله، ولذلك لو خلَّى الكفَّارُ بيننا وبين بلادِهم لنحكُمَها بالشريعة، ونَعْمُرَ فيها المساجد، ونُرتِّبَ فيها القُضاة، ونُقيمَ فيها الدُّعاة؛ فإنَّنا لا نُقاتِلهم، بل يجوز لنا أن نقبلَ منهم الجِزْية -إذا كانوا من أهل الكتاب أو مَن في حُكْمهم- في مُقابِل الأمان الذي سينَالونَه في عَيشهم تحت سُلطان دولة الإسلام، ويكون القتالُ لإزالة حُكم الجاهليَّة وسُلطان الكُفر، وإخراج الناس من عبادة العِباد إلى عبادة ربِّ العِباد.

وليس من الإكراه في الدِّين: أن نحُثَّ الكافر ونُناصِحَه على الدُّخول في الإسلام، ولو كانت نفسُه تكرَه ذلك وتأباه، وهذا معنى قولِ النبيِّ ﷺ لرجلٍ قال له: «أَسلِمْ»،

فقال: أجِدُني كارهًا! فقال: «أَسْلِمْ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا»[(١)]، والمعنى: أسْلِم وإن كنتَ كارِهًا؛ فإنَّ الله تعالى سيرزُقُكَ حُسن النِّـيَّة والإخلاص.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَتِ المرأةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا[(٢)]، فَتَجعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾»[(٣)].

ويُؤخَذُ من هذا الحديث: أنَّ مَن انتقلَ من كُفرٍ وشِركٍ إلى يهوديَّة أو نصرانيَّة قبل مجيء دين الإسلام؛ جاز إقرارُه على ما كان قد انتقلَ إليه، ويُعامَل معاملةَ أهل الكتاب في الجِزْية والذَّبيحة والمناكَحة ونحوها.

وأمَّا مَن انتقلَ من كُفرٍ وشِركٍ إلى يهوديَّة أو نصرانيَّة بعد مجيء دين الإسلام؛ فلا يُقَرُّ على ذلك.

وقوله ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: قد تميَّز الإسلامُ من الكُفر، والحقُّ من الباطل، والهُدى من الضلال، وذلك لكثرة الدلائل والبراهين.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: يُنكِره ويتبرَّأ منه. و(الطاغوت): هو الشَّيطان، أو: الأصنام، أو: أحبار السُّوء ورهبانهم، و: كلُّ مَن عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ.

﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: بربوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته؛ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: ثبتَ على الإسلام، واستقام على الصِّراط المستقيم، وتمسَّك واعتصمَ وتعلَّق بالعَقْد الوثيق المُحكَم في الدِّين، والمربوط ربطًا شديدًا، فـ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انفكاك، ولا انقطاع من هذا العَقد الوثيق، الذي سيُدخِله الجنَّة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَن يتكلم بالحقِّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في القُلُوب من الاعتقادات.

---

(١) رواه أحمد (١٢٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٧٤).

(٢) أي: التي لا يعيش لها ولد.

(٣) رواه أبو داود (٢٦٨٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز أَخْذ الجِزْية من أهل الكتاب، ومَن في حُكْمهم، مع بقائهم على دِينهم.

وفيها: أنَّ التوحيد لا يَتِمُّ إلَّا بالتخلُّص من جميع الشِّرك.

وفيها: وجوب خَلْعِ الأنداد، التي تُتَّخَذ من دون الله، والتبرُّؤ منها، والكُفرِ بها.

وفيها: التَّخْلية قبل التَّحْلية.

وفيها: أهميَّة عَرْض الدلائل والبراهين على الكفَّار؛ لإقناعهم.

وفيها: تثبيت الأقدام على طريق الإسلام، والاستمساك بـ (لا إله إلَّا الله)، وهي: العُرْوة الوثقَى.

وفيها: أنَّ المُسْتَمسِك بـ (لا إله إلَّا الله) يكون ثابتًا، مُطمئنَ النفس، رابطَ الجأْش، لا يضطرب ولا يتزَلْزَل.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾:

قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يُحِبُّهم ويُعينهم، ويتولَّى أمورَهم، ويهديهم، و﴿يُخْرِجُهُم﴾ بنِعمته وتوفيقه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: من ظُلُمات الكُفر والضلال، والبِدعة، والفِسْق، والجهل ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: نورِ الإيمان، والهداية، والطاعة.

وجَمَعَ (الظُّلُمات)؛ لاختلاف أنواعها، ولأنَّها أجناسٌ كلُّها باطلة. ووَحَّد (النُّور)؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: بما يجب الإيمان به، وأصرُّوا على كُفرهم. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾: الذين يتولَّون أمورَهم هم ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الشياطين، والمُضِلُّون.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوَساوِس، والتزيين، وغيرها ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي: نورِ الإيمان ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظُلُماتِ الكُفر والنِّفاق والضلال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفَّار، وأولياؤهم من الطواغيت ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الملازِمون لها، ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكِثون، لا يخرُجون، ولا يموتون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان بالله يؤدِّي إلى تولِّي الله للمؤمنين.

وولاية الله نوعان: ولاية عامَّةٌ، بمعنى: أنَّ الله يتولَّى شُؤون عبادِه. وولايةٌ خاصَّة بالمؤمنين، ومنها: النُّصرة والتأييد، وهي المذكورة هنا. والله يتولَّى المؤمنين في الدُّنيا والآخرة.

وأمَّا الطواغيت -وإن تولَّوا الكفَّار في الدُّنيا-: فإنَّهم يتخلَّون عنهم في الآخرة. ثم شتَّانَ بينَ تولِّي الخالِق للمخلوق، وتولِّ المخلوق للمخلوق.

وفيها: أنَّ الله لا يتولَّى الكفَّار.

وفيها: أنَّ أهل النُّور في الدُّنيا هم أهل نور القبر، ونور الصِّراط، ونور الجنَّة في الآخرة. وفي المُقابِل؛ فإنَّ أهل الظُّلُمات في الدُّنيا هم أهل ظُلُمات القبر، والحَشْر، والنَّار.

وفيها: أنَّ الخلود في النَّار خاصٌّ بالكافرين.

وفيها: أنَّ إخراج الطواغيت للكفَّار من النُّور يشمل المرتَدِّين، الذين كانوا في نور الإسلام ثم كفَروا، ويشمل الذين كانوا في نور الفِطرة ثم اجتالَتْهم الشياطين، وأخرَجَتْه عنها إلى الكُفر.

وفيها: عِظَم جريمة رؤوس الشرِّ والطواغيت، الذين لا يكتَفون بضلال أنفُسِهم، حتى يُضِيفوا إلى ذلك إضلالَ غيرهم.

وفيها: أنَّ التابعَ بالباطل ومتبوعَه في النَّار.

وفيها: استمرار هداية الله وزيادتها، واستمرار عمل الطواغيت في الإخراج من النُّور إلى الظُّلُمات، وزيادتهم للكفَّار كُفرًا، وهذا ما يقتضيه التعبير بصيغة الفِعْل المضارع: ﴿يُخۡرِجُهُم﴾، و﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى تولِّيه لعبادِه المؤمنين؛ أتبعَ ذلك بذِكر مثال على ذلك؛ وهو تولِّيه وتأييدُه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقَلْبك -لأنَّه لم يُدرِك زمنَه حتى يراه بعينه- ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ وهو المَلِك الكافر النُّمْرُوذ ﴿فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: في ربو بيَّته وإلهيَّته. وقد حمله على هذا: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ فحمَلَه مُلْكُه على الكِبْرِ والطُّغيانِ، وادِّعاءِ الرُّبوبيَّة.

فكأنَّه قال في المُناظَرة والمجادَلة: مَن ربُّك؟ فقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فيجعل الجماد حيًّا، ويمُيت ما فيه حياة. ففي ذلك إشارةٌ من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للمَلِك: بأنَّ الله تعالى هو الذي أحياك، وهو القادِر على أنَّ يمُيتَك.

﴿قَالَ﴾ النُّمروذ في جواب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فادَّعى ذلك مكابرةً وعِنادًا. وقيل: إنَّه أتى برجل فقتلَه، وبآخر قد استحقَّ القَتْل فعفا عنه، فقال: أنا أُحيي وأميت! فادَّعى النُّمْرُوذ لنفسه الرُّبوبيَّة، بحُجَّة أنَّه يُحيي ويُميت، فيقتُل مَن يُريد، ويستبقي مَن يريد! وليس هذا في الحقيقة جوابًا على ما قاله إبراهيم؛ وإنَّما هو تلبيسٌ وادِّعاءٌ فارغ.

ولذلك جاءَه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدليل الآخر الدامِغ، والحُجَّة القويَّة الباهرة، فكأنَّه قال له: إن كنتَ تدَّعي أنَّك تحُيي وتمُيت، وأنَّك على كلِّ شيء قدير، فتصَرَّفْ فيما يتصرَّف فيه الله عَزَّوَجَلَّ، واعمَل عكسَه.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: سخَّرها خالقُها ومسيِّرُها، لتطلعَ كلَّ يوم من المشرِق، فإن كنتَ كما زعمتَ أنَّك الذي تُحيي وتميت؛ ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ -يا أيُّها النُّمْرُوذ- ولو يومًا واحدًا، وتصرَّفْ في حركتها من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، إن كنتَ صادِقًا فيما تدَّعيه من الرُّبوبيَّة، وإن كنتَ صادِقًا في أنَّك ساويتَ الله في الإحياء والإماتة.

وقد كان النُّمْرُوذ من قومٍ يعبُدون الكواكب، ويَعْرِفون حركتها جيِّدًا؛ ولذلك اختارَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ له هذا المثال الواضح.

ولـمَّا كان في جواب الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ إثباتٌ لرُبوبيَّة الله، وتزييفُ ادِّعاء النُّمْرُوذ، وبيانُ تصرُّف الله في الكواكب المخلوقة، التي يعبُدها هؤلاء القوم، وجاء هذا الطلَبُ المُعجِزُ للنُّمْرُوذ، وهو لا يَقْدِر عليه قطعًا؛ أصابتْه الحَيرة والدَّهشة؛ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ وانقطعَ وسكتَ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يُلْهِمُهم الحُجَّة، ولا يُوَفِّقهم للهداية، بخلاف أوليائه المتَّقين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

قَصُّ أخبار السابقين؛ لأَخذِ العِبرة منها، والاستفادةِ ممَّا جرى لهم.

وفيها: أنَّ الصراع بينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل طويلٌ قديمٌ.

وفيها: أهميَّة مُناظَرة أهل الباطل.

وفيها: جُرأة الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحقِّ، وذكاؤه وفِطْنته، وحُسن تدليله، ودِقَّته، وجمال اختياره، وجَودة مَدْخَلِه في المُناظَرة، واستدراجُه لخَصْمه؛ فإنَّه بدأ بذِكر الإحياء والإماتة -وهما أخصُّ خصائص الرُّبوبيَّة- وأنَّ الله متصرِّفٌ في الحياة خَلْقًا وإيجادًا، ومتصرِّفٌ في الموت نزولًا وقضاءً.

ولـمَّا ادَّعى النُّمْرُوذ أنَّه يفعل ذلك، وأنَّه على كلِّ شيء قدير؛ طلبَ منه إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك الطلَب، الذي جعلَه ينقطع خائبًا خاسئًا وهو حسيرٌ.

وقد تضمَّن كلامُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إثبات وجود الباريء عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنَّ الأَحياءَ لا بُدَّ لهم من مُحيٍ، والشمس المتحرِّكة لا بُدَّ لها من محرِّك ومتصرِّف يتصرَّف فيها.

وفي المُناظَرة أيضًا: إبطالُ رُبوبيَّة الكواكب التي كان يعتقِدها قومُه، وأنَّ الله هو الذي يُصرِّفُها ويحرِّكها.

وفي الآية: أنَّ المكابرة في المُناظَرة لا تأتي بالأجوبة الصحيحة؛ فإنَّ النُّمْرُوذ قد كذبَ في قوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فأين خَلْقُه للحياة في شيءٍ ميِّت، وبَعْثُه له؟ وأين نَفْخُ الرُّوحِ فيه إن كان صادِقًا؟!

وفيها: أنَّ المحاجَّة في الله كُفر.

وفيها: مُفاجأة الخَصْم في المُناظَرة بما لا يتوقَّعه، ونَقلُه من قضيَّة إلى أخرى، لتستمرَّ المُناظَرة، ويحصُل الإفهام.

وفيها: أنَّ على المجادِل بالحقِّ أن يأتيَ المُجادِل بالباطل بما يُسْكِته، وأن يديرَ الحوار بحيثُ يزداد المُبْطِل ضَعْفًا، وتوريطًا في موقفه.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية تعلُّمَ أصول المحاوَرة والمُناظَرة؛ لمواجَهة أعداء الله وأهل الباطل؛ لأنَّ ذلك من وسائل إحقاق الحقِّ.

وفيها: أنَّ مُناظَرة أهلِ الباطل من سُنَن المرسَلين.

وفيها: أنَّ النِّعَم قد تكون سببًا للطُّغيان؛ فإنَّ الذي أوصل المَلِك إلى الكُفر هو المُلْك، كما قال تعالى: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾.

وفيها: أنَّ مُلْك البشر ليس ذاتيًّا؛ وإنَّما هو إيتاءٌ من الله تعالى.

وفيها: الافتخار والاعتزاز بالله تعالى، كما قال إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّيَ﴾.

وفيها: تفريع الحُجَّة على الحُجَّة، وبناؤها عليها في المُناظَرة.

وفيها: أنَّ المحاجَّة بالباطل قد تؤدِّي إلى الكُفر.

وفيها: أنَّ الذين كفروا يجادِلون بالباطل؛ ليُدْحِضوا به الحقَّ.

وفيها: الحِرْص على استمرار المُناظَرة إلى النهاية؛ ليحصُل المقصود.

وفيها: الإعراض عن بعض المجادَلة بالحقِّ؛ لأجل مصلحةٍ أكبر؛ فإنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يجادِل النُّمْرُوذ في أنَّ العَفو عن القاتل ليس من الإحياء؛ وإنَّما انتقلَ معه إلى ما يقطَعُه ويُفْحِمُه، بإلزامه بطَرْد حُجَّته إن كانت صحيحةً كما يَزْعُم.

وفيها: أنَّ الظُّلم مُعاكِسٌ لأسباب الهداية.

وفيها: إحكام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للمُناظَرة؛ فإنَّه قد فَنَّدَ عِدَّة أباطيلَ في وقتٍ واحدٍ وردٍّ واحدٍ؛ فبيَّن بُطلانَ رُبوبيَّة النُّمْروذ، وبُطلانَ عبادة الكواكب، وأثبتَ قُدرةَ الله تعالى، وعَجْزَ النُّمْروذ.

وفيها: أنَّ تحرِّي العَدْل من أسباب الهداية، كما أنَّ الظُّلم سببُ عدمِ هداية الظالمين.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾:

ثم ضربَ الله تعالى مَثلًا آخر، على رُبوبيَّته وقُدرته على إحياء الموتى؛ فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِى﴾ أي: ألم ترَ إلى الذي، والمشهور أنَّه: عزيرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ والمشهور أنَّها: بيت المقدِس، وكان ذلك بعد تخريبها، ولذا قال: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطةٌ جُدرانُها، وسقوفُها على الأرض.

فوقفَ متفكِّرًا فيها، ثُمَّ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ﴾ أي: كيف يُحيي ﴿هَٰذِهِ﴾ القريةَ الخاويةَ ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: قال ذلك متعجِّبًا من قُدرة الله. وهذا اعترافٌ بالعَجْز عن تصوُّر كيفيَّة الإحياء، وليس شكًّا ولا استبعادًا؛ فإرادة الله آيةٌ في نفسها.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وقبَضه في ذلك المكان، حتى مرَّت هذه المدَّة الطويلة التي تغيَّرت فيها الأحوال. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وأحياه.

﴿قَالَ﴾ بواسطة الملَك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: بعد الموت؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ واحدًا، ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ -لأنَّه مات في الصباح، وبُعِث في آخر النهار-.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّبِثْتَ﴾ ميِّتًا ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾ بتمامها وكمالها.

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ الذي كان معك قبل الموت؛ ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ أي: لم يتغيَّر ويَفْسَد ويتعفَّن؛ بل بقيَ على حاله على تطاوُلِ السِّنين واختلافِ الأوقات عليه؛ ففيه أكبرُ دليلٍ على قُدرة الله، حيث أبقاه وحَفِظَه عن التغيُّر والفساد، مع أنَّ الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ -وكان قد ماتَ وتمزَّق لحمُه-: كيف بَلِيَ الجسَدُ، ولم يبقَ إلَّا العظام؟!

﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ وعلامةً دالَّة لهم ولك على قُدرة الله على إحياء الموتى، ولرُبَّما رأى هذا الرجلُ ولدَه أو ولدَ ولدِه، وقد صارَ أكبرَ منه!

﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾ قيل: عظام حمارِه، وقيل غير ذلك. ﴿كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفعُ بعضَها على بعض، ونُركِّبها، ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ يَنبُت عليها ويَسْتُرها.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ وتحقَّق لديه قُدرة الله على إحياء الموتى؛ ﴿قَالَ﴾ معترِفًا: ﴿أَعۡلَمُ﴾ أي: أزدادُ إيمانًا وعِلْمًا، بعدما رأيتُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن الإحياء والإماتة وغيرها ﴿قَدِيرٞ﴾؛ فلا يُعجزه شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَعداد ذِكر الأمثلة؛ للتأكيد على الحقائق العظيمة، كالبعث وإحياء الموتى.

وفيها: تَرْك التفصيلات التي لا يحتاج إليها السامع، في القِصَّة المعتبَر بها.

وفيها: قصور نظَرِ الإنسان، وضَعْف تصوُّرِه، كما يدلُّ عليه قولُ الرجل: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا تعجَّب لوقوع الشيء من أمر الله، فاستغربَه، مع عدم شكِّه في قُدرة الله؛ فلا يكفُر بهذا.

وفيها: أنَّ إخبار الشخص بما يغلب على ظنِّه، لا يُعَدُّ كذِبًا، ولو خالفَ الحقيقة.

وفيها: قُدرة الله العظيمة.

وفيها: مِنَّة الله على بعض عباده، بأن يريَهم ما يَزيد به إيمانهم.

وفيها: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ قوانين الطبيعة لا يمكن أن تتغيَّر! والحقُّ أنَّ الله يَخْرِقها متى شاء، وكيف شاء.

وفيها: جواز تملُّك الحمار؛ فإنْ بِيعَ الحمارُ الأهليُّ للانتفاع به فثمنُه حلال، وإن بِيعَ لأكلِ لَحْمِه فثمنُه حرام.

وفيها: أنَّ الله قد يُحدِث لبعض عباده ما فيه عِبرةٌ للآخرين.

وفيها: التأكيد على النظرِ في آيات الله، والحوادث التي يُجريها عَزَّوَجَلَّ، كما أمرَ بالنظر في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، وفي قوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾.

وفيها: أنَّ الإنسان بالتفكُّر والتدبُّر يتبيَّن له ما كان غافلًا عنه، ويزداد به إيمانُه ويقينُه.

وفيها: إثبات كرامات الأولياء، أو مُعْجِزات الأنبياء، بحَسَب حال ذلك الرجل -فقد قيل: إنَّه نبيٌّ، وقيل غير ذلك-.

وفيها: اصطحاب الزاد في السفر.

وفيها: امتحان العبد في معلوماته؛ لقوله تعالى: ﴿كَمۡ لَبِثۡتَ﴾.

وفيها: إخبار الآخرين بقَصَص الأوَّلين.

وفيها: أنَّ من آيات الله في قُدرته: إبقاء الأشياء على ما هي عليه، رَغْم مرور المدَّة الطويلة التي تفنَى بها، كما أنَّ من قُدرته: إعادة الأشياء إلى ما كانت عليه، ولو مرَّت عليها المدَّة الطويلة.

وفيها: أنَّ الله يحفظ ما يريد ومَن يريد بحِفظه، كما قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾:

ثم ذكر تعالى قِصَّةً ثالثةً في إحياء الموتى؛ فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ أي: واذكر -يا محمَّد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قِصَّة إبراهيم الخليل، لـمَّا سأل ربَّه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فسأله عن الكيفيَّة، مع إيمانه الجازِم بالقُدرة الرَّبانيَّة، وأراد الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرتقيَ بإيمانه، من درجة عِلْم اليقين إلى درجة عَين اليقين، وهذا من عُلُوِّ الهِمَّة في طلب زيادة الإيمان.

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: ألستَ قد آمنتَ؟ وهذا الاستِفهام للتقرير، وليس للإنكار ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ أي: قد شرَحْنا لك صَدْرَك.

﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ: ﴿بَلَىٰ﴾ قد صدَّقتُ وآمنتُ، ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: ليزدادَ يقينًا.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أعلم أنَّك تُجيبُني إذا دعوتُك، وتُعطيني إذا سألتُك»(١). و(الطُّمأنينة): هي الاستقرار.

فأجابَ الله طلبَه؛ فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾، ولم يبيِّن تعالى أنواعَها، ولو كان تعيينُها مفيدًا لبيَّنه لنا.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: اضمُمْهُنَّ، واجمَعْهُنَّ عندك، ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: فرِّقْهُنَّ على رؤوس الجبال بعد الذبح، والخَلْط، والتجزئة، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أي: نادِهنَّ بأسمائهنَّ وقُل لهنَّ: تعالَيْنَ بإذنِ الله؛ ﴿يَأْتِينَكَ﴾ -مشيًا أو طيرانًا- ﴿سَعْيًا﴾ أي: مُسْرِعات.

فأخذَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أربعةً من الطير مختلفة -الله أعلم بأنواعها- فذبَحهُنَّ، ثم قطَّعَهُنَّ ومزَّقهُنَّ، وخلطَ بعضَهُنَّ في بعض، ثُمَّ جزَّأهُنَّ أجزاءً، وجعلَ على كلِّ جبل منهنَّ جزءًا، ثُمَّ دعا كلَّ واحدةٍ -كما أمرَه الله-؛ فجعلَ ينظر إلى الرِّيش يطير إلى الرِّيش، والدَّم إلى الدَّم، واللَّحْم إلى اللَّحْم، والأجزاء لكلِّ طائر يتصل بعضها ببعض، حتى قام كلُّ طائر على حِدَة، ثـمَّ أتاه يسعَى! فرأى الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدرةَ الله العظيمة على إحياء الموتى؛ فاطمئنَّ قَلْبُه، وازدادَ يقينًا.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالبٌ، لا يُعجِزه شيء، ولا يستَعصِي عليه إحياءُ الموتى. ﴿حَكِيمٌ﴾: ذو حِكْمة بالغة، في أمرِه وتدبيرِه، فلا يفعل شيئًا عبَثًا.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٤٩٤).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من آداب الدُّعاء: التوسُّل إلى الله بالرُّبوبيَّة، ومُناداته بذلك. وأكثر أدعية القرآن مُصدّرة بهذا: (ربِّ)، (ربَّنا).

وفيها: أنَّه لا حرجَ على الإنسان أن يطلُبَ ما يزداد به يقينُه.

وفيها: أنَّ عَين اليقين أقوى من عِلْم وخبرِ اليقين، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ»(١).

ومراتب اليقين ثلاثة: عِلْم اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وعَين اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وحقُّ اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

وفي الآية: قُدرة الله العظيمة على إحياء الموتى.

وفيها: إثبات أنَّ الإيمان يزيد.

وفيها: أنَّ الاختصارَ بكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ في الجواب كافٍ، فلو قيل لرجلٍ عالمٍ بالنَّحْوِ: ألم تُطلِّق زوجتَكَ؟ فقال: «بلى»؛ فقد طَلَقَتْ.

وفيها: الكفُّ عن البحث فيما لا فائدة منه، ولا طائل من ورائه، وفي الحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المرء: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٢).

وفيها: امتنان الله على عَبده الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بما زادَ إيمانَه، وليكون من الموقِنين. ولمنزلةِ الخليل عند ربِّه، وحُسنِ أدبِه في السؤال؛ أراه الله الآيةَ في الحال، وأمَّا الذي مرَّ على القرية؛ فقد أراه ما أراه بعدَ مائة عام.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى قُدرته على إحياء الموتى، الدالَّة على البَعْث؛ ذكرَ ما ينفع يومَ البَعْث،

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وهو في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٢٢٩).

ومنه: النَّفقة في سبيل الله. ومَن كان قادرًا على إحياء المبعوث؛ فهو قادر على إخراج سَبْعِمائة حبَّةٍ من حبَّةٍ واحدة.

فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ﴾ أي: شَبَهُ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾: يَبْذُلون ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ يشمل كلَّ ما يتموَّله الإنسان من أعيان، كالدراهم، والدُّور، والملابس، فالإنفاق يشمل جميع الأنواع.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعةِ الله، والجهادِ في سبيله، وكلِّ ما يوصل إليه. و(السَّبيل): هو الطريق.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي: نَفقتُهم التي بذلوها تُضاعف، كما تُضاعف الحبَّة التي زرعها الفلَّاح. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: خرجَتْ ونشأتْ منها. ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾؛ لجودَةِ الحبَّة، وجودَةِ مَنبَتِها، وجودَةِ رعايتِها؛ أخرجَتْ كلَّ هذا العدَد.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أكثرَ من سَبْعِمائة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا بحَسَب إخلاصه في عمله، ويزيده ثوابًا بحَسَب ما تقتضيه حِكمتُه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: ذو سَعَة، في الفَضْل، والعِلْم، والقُدرة، والرحمة، وغيرها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّات المُنفِقين، وبمَن يستحِقُّ المضاعَفة.

وقد وردَت المضاعَفة إلى سَبْعِمائة ضِعْفٍ، كما في حديث أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ[1]، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله؛ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[2].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ الله؛ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ»[3].

وتصل المضاعَفة إلى أكثرَ من سَبْعِمائة، كما في الحديث: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ من أَجْلِي»[4].

---

(١) أي: لها خِطام تُقاد به.

(٢) رواه مسلم (١٨٩٢)

(٣) رواه الترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (٣١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٢٣٦).

(٤) رواه البخاري (٥٩٢٧) -مختصرًا- ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ضَرْب الأمثال؛ للتقريب للأفهام.

وفيها: الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، بذِكر فَضْلِه، ومضاعَفةِ أجره.

وفيها: التنبيهُ على الإخلاص في الإنفاق، وتحرِّي موافقة الشَّرْع، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ ثواب الله أكثر من عمل العامل، وفَضْل الله أعظم من حسنات العِباد.

وفيها: إثبات مشيئة الله، ومشيئته بحَسَب ما تقتضيه حِكمته.

وفيها: فَضْل القيام بالزَّرْع؛ لأنَّ الله ضرب به المَثَل.

وفي الآية: ذِكْر جَمْع الكثرة في قوله: ﴿سَنَابِلَ﴾؛ لأنَّه يُناسِب كثرة الأجر والفَضْل، بخلاف قوله: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ -في قِصَّة الرُّؤيا في سُورَة «يوسف»-؛ فـ(سُنبُلات) من جموع القِلَّة؛ لأنَّ المقام لا يقتضي التكثير.

وفيها: أنَّ الأجر يُضاعَف للعامل بحَسَب عمله وحاله، وما يكون في قَلْبه من الإخلاص.

وفيها: أنَّ على العبد ألَّا يَستبْعِد المضاعَفات العظيمة في الأجر؛ لأنَّ فَضْلَ الله تعالى عظيمٌ.

وفيها: أنَّ أَجْر العمل المضاعَف لا يحصُل لكلِّ عامل؛ فعلى المسلم أن يسعى لتحصيل الفَضْل والأجر، ويرجو ويدعو ربَّه أن يُدْخِلَه فيمَن يُضاعَف لهم أجرُهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢﴾:

ثُمَّ مدحَ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في وجوه الخيرات، الواجبة والمستحَبَّة، ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ بعد الصَّدَقة. و(المَنُّ): أن يُعدِّد إحسانَه على مَن أحسن إليه، ترفُّعًا عليه، فيؤذيه ويُنَغِّص عليه ما أخذ.

والمنَّان بما أعطى من الثلاثة الذين لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يُزَكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم -وهم: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[١]- وقال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالمُدْمِنُ عَلَى الخَمْرِ، والمنَّان بِمَا أَعْطَى»[٢].

﴿وَلَآ أَذًى﴾ يشمل كلَّ إيذاءٍ، بالقول أو الفِعْل.

ثم بيَّن الله تعالى عظيمَ أجورِ هؤلاء المُنفِقين من غير مَنٍّ ولا أذى؛ فقال: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ثوابهم عند الله محفوظ. ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في المستقبل، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى، وعلى فِراق ما تركوه من الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المَنَّ والأذى يُبْطِلان الصَّدَقة. وإذا كان من الشروط السابقة لِصحَّة الصَّدَقة: الإخلاص لله والمتابعة؛ فإنَّ من المُبْطِلات اللَّاحقة: المَنَّ والأذى.

وفيها: التحذير من أنواع المَنِّ والأذى -قولًا وفعلًا- كأن يقول: «ألم أُعْطِكَ كذا وكذا»، ويعدِّد عليه ما أعطاه، وكقوله: «أنتَ فقيرٌ دائمًا، وقد بُليتُ بك»، و«أراحني الله منك». أو بالعُبُوس في وَجْهه، أو بنَهْرِه. أو بأن يذكرَ أمامَ الناس أنَّه أعطى فلانًا؛ فهذا فيه إهانةٌ للآخِذ وإحراجٌ له أمام الناس.

وقد قال بعض العلماء: الأفضل لآخِذ الصَّدَقة أن يَرُدَّها إلى المُعطِي، إذا مَنَّ عليه أو آذاه؛ تأديبًا له، ودفعًا لـمِنَّته.

وفيها: تقديم المَنِّ على الأذى؛ لكثرة وقوعه.

وفيها: أنَّ المَنَّ والأذى يضُرُّ صاحب الصَّدَقة، ولو حصلَ بعد الصَّدَقة بسنين.

وفيها: أنَّ على المتصدِّق أن يَشْهَد مِنَّة الله عليه؛ فقد رزقَه، ثم وفَّقه للصدَقة، ولا يَمُنَّ ولو بقَلْبه، فبعض الناس رُبَّما لا يَمُنُّ بلسانه، لكن يشعُر عند العطاء بالفَخْر والخُيلاء، وهذا محرَّمٌ أيضًا.

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢) رواه النسائي (٢٥٦٢)، وهو في الصحيحة (٦٧٤).

وفي الآيـة: تشريف المُخلِصين في الصَّدَقة عنـد أدائها، والحافظين لعَمَلِهم، بأنَّ أجرهم عند الله.

وهذه الآية نافعةٌ في تسكين خَوْفِ بعض المتصدِّقين، ممَّا قد يحصُل لهم من الإيذاء من أهل الباطل، نتيجة الصَّدَقة؛ فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾:

ثُمَّ رغَّب تعالى بالإحسـان بالكلام، مع الإحسـان بالمال، وبيَّنَ أنَّ الإحسان بالكلام مع عدم المال، خيرٌ من إعطاء المال مع الإساءة بالكلام؛ فقال تعالى:

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ أي: كلام طيِّـب، ودُعـاء جميـل، يُرَدُّ به السـائل، في حالة عـدَم إعطائه شـيئًا، ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ أي: تجاوُز، وعَفو عن ظُلْم السـائل واعتدائه؛ ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ أي: من المَنِّ والتعيير مع إعطائه.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن غيره، لا يحتاج إلى أحد. ﴿حَلِيمٞ﴾؛ فلا يُعاجِل بالعقوبة مَن استحقَّها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضيلة القول المعروف، الذي عرَفه الشَّرْع وعرَفته القُلُوب.

وفيها: أنَّ بعض الناس قد ينتَفِع بالكلمة الطيِّبة، أكثر ممَّا ينتَفِع بالمال.

وفيها: فَضْل التجاوُز عن إيذاء السـائلين، كإلحاحهم، وإزعاجهم، واتهامهم للمسئول بالبُخل، ونحو ذلك.

وفيها: فَضْل المغفرة، ويشمل: سَتْر حالة المحتاج السيِّئة.

وفيهـا: أنَّ المسئول إذا لم يجـد ما يُعطيه السـائل؛ فلا أقلَّ مـن كلمةٍ طيِّبةٍ، ووَعْدٍ حسَـنٍ جميل، وأن يدعوَ له بالفَرَج، ويُحسِنَ إليه، رجاءَ ما عند الله.

وفيهـا: تذكـير الأغنياء بغِنَى الله؛ كـي يجودوا بأموالهم؛ لأنَّهم هـم المنتَفِعون في الحقيقة، وتذكيرهم بحِلْم الله؛ كي يُعامِلوا السائلين بالحِلْم والصَّفْح، ويتجاوزوا عنهم.

وفيها: أنَّ المعروف يكتمِل، إذا أُضيفَ إلى الإحسان للغير: التجاوُز عن إيذائه.

وفي الآيـة: أنَّ حسـنتَين خيرٌ من حسَـنةٍ مقرونةٍ بـما يُبطِلها؛ وذلك أنَّ قول المعروف للسـائل حسَنة، ومغفرة إيذائه حسَنة أخرى، وأمَّا الصَّدَقة المتبوعة بالأذى؛ فهي حسَنة مقرونة بما يُبطِلها.

ويُؤخَذ من الآية: أنَّ الصَّدَقة التي لا يَتبَعُها أذى، خيرٌ من قول معروفٍ بلا صدَقة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾:

قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: نـداءٌ لأهل الإيمان، يحثُّ على الاهتِمام بموضوع الخِطاب.

﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي: لا تُحبِطـوا أجورَهـا، ولا تُفسِـدوها. والمعنـى: لا تُحبِطـوا أجـورَ صدَقاتكم، ولا تُفسِـدوها. و(إبطال) الـشيء يكون بعدَ وجوده، وبعـد تمامه غالبًا. و(الصَّدَقة): ما يبذُله الإنسان تقرُّبًا إلى الله.

فلا تُبطِلوها ﴿بِٱلۡمَنِّ﴾ على الفقير، ﴿وَٱلۡأَذَىٰ﴾ له، سواءً بهما أو بأحدهما.

وهـذا المَـنُّ والأذى ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مَثَـلُ إبطـالِ الصَّدَقـة بالمـنِّ والأذى، كمَثَل إبطالها بالرِّياء.

وقوله ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليرَوا نَفَقته ويمدَحوه، وليُقال عنه: فلان جوَاد كريم.

﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وهـذا يدلُّ على نِفاقِه؛ فإنَّه يُخرِج مالَه ابتغاءَ مَدْح الناس، فلا يرجو ثوابًا عليه في اليوم الآخر؛ لعدَم إيمانه به.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: هـذا المُرائـي، والمنافِـق، وحالتُـه ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ -وهـو الصَّخـر الأمْلَـس- ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾: طبقة رقيقة، لا تصلُح للزَّرْع، ولا تُنْبِت، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾: مطرٌ شـديدٌ أزالَ الـتُّراب، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ أي: أجـردَ أملـسَ يابسًـا، لا شيءَ عليه من هذا التُّراب، بل قد ذهبَ كلُّه.

ومعنى هذا المَثَل: أنَّ مَن رأى المُنافِق في ظاهر حالِه؛ ظنَّ أنَّ عملَه سينفَعُه، فإذا كان يومَ القيامة أحبطَ الله عملَه، وأبطلَ أجرَه؛ فلا يجد عند الله شيئًا، كمَثَلِ هذه الطبقة الرقيقة من التُّراب على الصَّخر الأمْلَس، يَحْسِبُها بعضُ الناس تصلُح للزَّرْع، فإذا جاء المطر الشديد أذهب ذلك التراب، وتبيَّن أنَّه لا أمل في النبات.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يقدِر هؤلاء المُراؤون والمُنافِقون على ثواب شيء في الآخرة، نتيجةَ ما أنفقوه في الدُّنيا، فكما أزالَ المطرُ الشديدُ التُّرابَ عن الصَّخر الأمْلَس، فكذلك أزالَ المَنُّ والأذى أَجْرَ صدَقة هذا المُرائي والمنافِق.

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يُوَفِّقهم للهداية، ولا يفتح قُلُوبَهم للحقِّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورة المنِّ والأذى في الصَّدَقة، وأنَّهما يُبطِلان ثوابَها. وهذا يدلُّ على أنَّهما من كبائر الذُّنوب؛ لأنَّ ترتيب عقوبة خاصَّة -وهي هنا: الإحباط- على ذنب، يدلُّ على أنَّه من الكبائر.

وفي أول الآية: أنَّ المَنَّ والأذى يُنافيان الإيمان، وآخرها يدلُّ على أنَّهما من صفات الكفَّار.

وفيها: تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لتقريبه إلى الذِّهن، كما في قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾.

وفي الآية: تحريم المُراءاة، ومِثلها التسميع. و(المُراءاة): أن يعمل العمل بحَضْرَة الناس، ليرَوه فيمدَحوه. و(التسميع): أن يُخْبِرَهم بما عَمِلَ ليمدَحوه.

وفيها: أنَّ إخفاء الأعمال الصالحة من كمال الإيمان. ويُستثنَى من ذلك: ما لا يُمكِن إخفاؤه -كالأذان- وما ترجَّحت مصلحةُ إظهاره -كافتتاح التصدُّق بشيء كثير يُشَجِّع الآخرين، ونحو ذلك-.

وفيها: أنَّ الرِّياء يُبطِل العملَ، وقد جاء في الحديث القُدسيّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وفيها: تحسُّر المنافِق والمُرائي يومَ القيامة، عند العَجْز عن تحصيل شيء من ثواب أعمال الخير والبرِّ.

وفيها: أنَّ مَن قضى الله عليه بالكُفر؛ لا يمكِن هدايته.

وفيها: أَخْذ الحَذَر والحَيْطة من المَنِّ والأذى، وأنَّ المتصدِّق إذا خشيَ أن يقع منه ذلك، فليُوكِل غيرَه بتفريقها وإيصالها.

وفيها: التعريض بقساوة قَلْب المُنافِق والمُرائِي، وأنَّه كالصَّخْر الصلب الشديد.

وفيها: أنَّ أعمال الخير التي يفعلها المُرائِي والمُنافِق، لا تزكو بها نفسُه، ولا تُثبِّته على طريق الحقِّ، كما أنَّ البِذْر لا ينبت على الصفا، ولا يَثْبُت عليه.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾:

ثم ضربَ تعالى مَثَلًا للمُخْلِصين في صدَقاتهم، في مُقابِل المُرائِين -الذي تقدَّم ذِكرُهم-؛ فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ أي: يبذُلونها ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: طلبًا لرضوان الله عنهم، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يقينًا بثواب الله، وتصديقًا بوَعده؛ ولذلك لا تتردَّد أنفُسُهم بالإنفاق، ولا تشُكُّ في الثواب، وتثبُت على عمل الخير. فحالُهم وصفتُهم: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ أي: بستان كثير الشجر، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: على مرتفَعٍ ظاهرٍ ومستوٍ، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ أي: مطر كثير، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أعطَت صاحبَها ثمرَها مُضاعَفًا، وقد تحمِل في السنة مرتَين، من جودَة شجرِها وموقعِها، وغزارةِ ما يَسقيها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: يكفيها المطرُ الخفيفُ اللَّيِّنُ، والرَّذاذُ والندى، فتُؤتي أُكُلَها أيضًا.

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للمؤمن المُخْلِص في صدَقته، بأنَّ عمله لا يَبُور، ولا يَذهَب أجرُه ولا ينقَطِع، بل يكتبه الله له ويتقبَّله منه، ويُكثِّره ويُنمِّيه ويُضاعِفه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه الحقائقُ، والبواعثُ على الأعمال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الصَّدَقة لا تكون إلَّا من المال الذي يملِكُه الإنسان؛ لقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾. وأمَّا الصَّدَقة من مال الغير؛ فلا بُدَّ لها من إذنه.

وأمَّا الصَّدَقة بمالٍ حرامٍ، فتكون للتخلُّصِ من تَبِعَته والسلامةِ من إثمه، لا ليؤجَر عليها صاحبُها؛ فإنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلَّا طيِّبًا.

وفيها: أثر النِّيَّة الصالحة في قَبول العمل، وأنَّ الإخلاص شرطٌ في ذلك.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعظَمته.

وفيها: أنَّ على المسلِم أن يُثبِّت نفسَه في فِعْل الخيرات، بأن تكون مُطْمَئِنَّة لا تشُكُّ في الثواب، فتُنفِق وهي راضية. بخلاف المنافِقين الذين لا يُنفِقون إلَّا وهم كارِهون.

وفيها: تدريب النفس على الإنفاق، ابتغاءَ رضوان الله.

وفيها: أنَّ الله يُبارِك في القليل، إذا كان طيِّبًا.

وفيها: اختيار المتصدِّق المكانَ الصحيح لصدَقته، والتثبُّت من مكان وَضعها، مع اليقين بوَعْد الله عند إخراجها.

وفيها: أنَّ نفقة المُخلِصين -في تضاعُف أجرِها- كمَثَل البُستان الذي يُضاعَف ثمرُه، نتيجة جودَةِ مَوْقِعِه، وما أصابَه من برَكَة المطر.

وفيها: فَضْل الصَّدَقة التي تخرُج من نفسٍ سخيَّة طيِّبة مُوقِنة، بلا مُمانَعة ولا خَوَر ولا تردُّد.

وفيها: أنَّ معالجة الرِّياء والسُّمعة، تكون بالإخلاصِ وابتغاءِ مرضات الله.

وأنَّ معالجة ضَعْفِ النفس وتقاعُسِها وتردُّدِها في الإنفاق، يكون بتشجيعها وتقويتها بوَعْدِ الله وثوابه، والإقدامِ بها على البَذْل.

وفيها: تشبيه نفس المتصدِّق الطيِّبة، بالجنَّة في المكان المرتفِع الظاهِر المستوي، الذي يكون عُرضةً للهواءِ والرياحِ والشمسِ في وقت طلوعها واستوائها وغروبها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾:

ولـمَّا ضربَ الله تعالى مَثَلًا للمُنافِق المُرائي الذي لم ينبُت له شيء من عمله؛ ضرب عَزَّوَجَلَّ بعدَه مَثَلًا لِمن عَمِلَ بطاعة الله، وتصدَّق، وأنفقَ مُخلِصًا، فلمَّا نبتَ زرعُ أجرِه انحرفَ وانتكسَ، وعَمِلَ أعمالًا تُفْسِده، فأبطلَ عملَه، وأذهبَ أجرَه!

فقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾: أيُحِبُّ. و(الوُدّ): المحبَّة العظيمة للشيء. وهذا استِفهام بليغٌ في الإنكار؛ لأنَّ محبَّة هذه الحالة المذكورة وتمنِّيها، أقبحُ وأشنعُ من مجرَّد إرادتها. فقوله ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغُ من قولِه «أيريد».

﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ وهي: البُستان، عظيم الشجَر. ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصَّهما بالذِكر؛ لأنَّهما أشرَفُ الفواكه وأفضلُها وأكرمُها، وأكثرُها نفعًا، فمنهما: القُوت والغذاء، والشراب، والفاكهة، والدواء، والحُلْو والحامض، ويؤكلان رَطْبًا ويابسًا.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهي: السَّواقي. فهي منتَشِرة ومتفرِّقة في ذلك البستان العظيم، تسقيها بغير مُؤنة ولا كُلفة.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والأنواعِ المشتهاة، من الفواكه وغيرها، ممَّا يَفيض عن حاجته ويزيد. وهذا هو المشهَد الأول من الآية.

والمشهد الثاني: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: تقدَّم به السِّنُّ، فأضعفه عن العمل، ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي: صغار، أو: عاجِزون لا يقدِرون على الكَسْب.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو: الريح الشديدة القويَّة، التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في الجوِّ كالعمود. ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: مع هذا الإعصار المتحرِّك. ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ الجنَّة كلُّها بما فيها، وأبادَت الريحُ أشجارَها، وسيَّرَتها رمادًا!

فهذا الرجل قد تعلَّق قَلْبُه بهذه الجنَّـة من وجوه كثيرة؛ منها: أنَّها مِلْكٌ لـه لا لغيره، وأنَّها بستان عظيم يُخفي ما بداخله من كثرة شجره، وأنَّ أشجاره نفيسة، من ثمارٍ في غاية النفع، والصِّنف الواحد فيها يتنوَّع، كما في قوله: ﴿نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، بالإضافة إلى تنوُّع الثمرات، وماؤها يجري على أرضها، لا يحتاج إلى تَعَب ونَفَقة في استخراجه.

وقد كبُرَت سِنُّ الرجل، وضَعُف عن الكَسْب والتجارة، واشتدَّ حِرْصُه -كما يحصُل عادةً مع كِبَر السِّنِّ- ولـه ذُرِّيَّةٌ لا ينتَفِع بقوَّتهم، ولا يُعينونَـه لعَجْزِهم، بل هم عالةٌ عليه، وهو مُشفِقٌ عليهم من بعده، فأمَلُه في هذه الجنَّة أن تُقيتَه وذُرِّيَّته؛ فهي مصدر الكَسْب والعيش الوحيد لهم.

وبينما هو في غاية التعلُّق والأمَل؛ هبَّ عليها فجأة ما أحرقَها وأتلفَها بالكليَّة؛ فذهبَت، وليس عندَه قوَّة أن يُعيدَ زَرْعها، ويَغْرِسَ مِثْلها، لا هو ولا أولاده، وانقطع مصدرُ عَيْشِهم جميعًا، فكيف يكون حالُه وبُؤْسُه وحَسْرَته؟ وانظر إلى ما لقيَ ذلك الذي أصابه الكِبَر من الهَمِّ والغَمِّ والحُزن، فلو قُدِّر أنَّ الحُزن يقتُل صاحبَه لقتلَه الحُزْن!

فهذا مِثْل مَن تصدَّق بالصَّدَقات الكثيرة، ثم أذهبَ أجرَه بالمَنِّ والأذى، والنُّكوصِ على العَقِبَين، والتغيير والتبديل، فساءَت خاتمتُه، فيأتي يومَ القيامة أحوجَ ما يكون إلى الحسَنة الواحدة، فلا يجد أجرًا ولا ثوابًا، ولا شيئًا قدَّمه لنفسه، فيُغني عنه في مقام الشدائد والكُرُبات يومَ القيامة بينَ يدي الله.

كذلك مَن عَمِلَ عملًا لوجه الله، فإنَّ أعماله بمنزلة البَذر للزروع والثِّمار، ولا يزال كذلك حتى يحصُل له من عمله جنَّة موصوفة بغاية الحُسن والبهاء.

وتلك المُفْسِدات التي تُفْسِد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار.

والعبدُ أحوَج ما يكون لعمَله إذا مات، وكان بحالةٍ لا يقدِر معها على العمل، فيجد عملَه الذي يؤمِّل نفعَه هباءً منثورًا، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فلو عَلِمَ الإنسانُ وتصوَّر هذه الحال، وكان له أدنى ذرَّة من عقل؛ لم يُقْدِم على ما فيه

مضرَّتُـه ونهايةُ حَسْرَتـه، ولكن ضَعْف الإيمان والعقل وقلَّة البصـيرة يُصَيِّر صاحبَه إلى هذه الحالة، التي لو صدرَت من مجنون لا يَعْقِل؛ لكان ذلك عظيمًا وخطرُه جسيمًا!

فلهـذا أمرَ الله تعـالى بالتفكُّر وحثَّ عليه؛ فقـال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ ويَضْرِب الأمثال؛ لبيان الصَّدَقة المقبولة والمردودة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه الأمثال، وتفهَمُونها، وتتَّعِظُون بها.

ولـذا قال الحسـنُ البَـصْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا مَثَلٌ قلَّ والله مَن يَعْقِله من الناس: شـيخٌ كبير، ضَعُـف جسـمُه وكثُر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنَّتـه، وإنَّ أحدكم -والله- أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعَت عنه الدنيا»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

بلاغة القرآن، في ضَرْب الأمثال العظيمة المؤثِّرة في النَّفْس، المُوَضِّحة للمقصود.

وفيهـا: أنَّ المَـنَّ والأذى إعصـارٌ يَذهَـب بالأَجْـر كلِّه فجـأة، ويَعْقُبه الحَسْرة والخيبة والنَّدامة.

وفيها: أنَّ الرِّزق الوفير عند كِبَر السِّنِّ وضَعْفِ الذُّرِّيَّة، نِعمة عظيمة.

وفيها: أنَّ غمَّ القَلْب وحَسْرَته يوم القيامة، بذَهاب أجور الأعمال وثوابها؛ أعظمُ من هَمِّه وحَسْرَته بذَهاب مصدَرِ العَيش في الدُّنيا وتلَفِه.

وفيهـا: أنَّ حاجة العبد يومَ القيامة إلى الحسـنات، أعظم مـن حاجته في الدُّنيا إلى الطعام والشراب.

وفيها: أنَّ المقصود بالمَثَلِ التشبيه والتقريب، وليس مطابَقة الحالَين.

وفيهـا: رحمـة الله بالعِبـاد؛ حيـث بيَّن لهـم الآيات، وضربَ لهـم الأمثـال؛ ليمكِّنهم من التفكُّر.

وفيها: أنَّ التفكُّر غاية، والبيان وضَرْب الأمثال وسيلة.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيِّم (ص٣٧٠).

وفي الآية: الاقتصار على ذِكر المشبَّه به، وتَرْك ذِكْر المشبَّه؛ لإعمال الفِكْر في الاستنباط والمقارَنة، التي تؤدِّي إلى الاعتبارِ، وزيادةِ الإيمان وتثبيته.

وفيها: التحذير من التبديل والتغيير من الحسَن إلى السيِّء.

وفيها: أنَّ الذي يعمل المعاصي بعد الطاعات، قد يُغْرِق أعمالَه الصالحة كلَّها، وهذا من سُوء الخاتمة -والعياذ بالله-.

وثبتَ في الحديث أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ! فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ -يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ- قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ»، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لِعَمَلٍ».

قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ، يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالمعاصِي، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»(١).

وفيها: التحذير من سُوء الخاتمة.

وفيها: أهميَّة ادِّخار الحسَنات للدار الآخرة.

وفيها: التحذير من إفساد الأعمال الصالحة وتخريبها.

وفيها: أنَّ صاحب العقل والبصيرة لا يُقْدِم على ما فيه مضَرَّته.

وفيها: أنَّ تقوية العقل والبصيرة يحدُث بالتفكُّر الذي أمرَ الله به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾:

ولـمَّا أمر تعالى بالإنفاق ابتغاءَ وَجْهِه، وحذَّر ممَّا يُفسِد الصَّدَقة؛ بيَّن بعد ذلك ما هي صِفَة المُنفق، ومن أيِّ شيء تُخرَج الصَّدَقات؟ فقال تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: هـذا النِّداء بالإيمان؛ للإغراء والحـثِّ على فِعْل المأمور به، وهو دليلٌ على أنَّ المأمور به هنا من مُقتَضيات الإيمان، ومخالفته نقصٌ في الإيمان.

﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ أي: مـن خـيرِ المال، ونفيسِـه، وحلالِه، من مصادر الكَسْب المختلفة -كالتجارة والزراعة وغيرها-. و(الكَسْب): كلُّ مالٍ حصلَ بعمل.

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: فـكلُّ ما أخرجَه الله لنـا من الأرض طيِّبٌ، مأمورٌ مَن مَلكَه أن يتصدَّق منه. وهذا الخارج يشمل: الزُّروعَ، والثِّمارَ، والمعادنَ، وغيرَها.

وتشمل الآية: الإنفاقَ الواجبَ والمُستَحَبَّ، في وجوه الخير.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ أي: لا تقصِـدوا الـرديء ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: تُزكُّـون، وتتصدَّقـون. ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو أعطاهُ أحدٌ لكم؛ ما أخذتُموه إلَّا عن إغماضٍ وحَياءٍ، وتساهُلٍ وتنازُلٍ عن بعض حقِّه.

وقـد وردَ في سـبَب نزول هذه الآية: أنَّ الأنصـارَ كانت إذا كان أيَّامُ جُـذاذ النَّخل (أي: قَطْـع ثَمَـره)، أخرَجَتْ من بسـاتينها أَقْناء البُسْر (وهي العراجـين أو العناقيد التي فيها ثمر النخل)، فعلَّقوه على حَبْلٍ بينَ الأُسْـطوانَتَيْنِ في مَسْـجِدِ رسول الله ﷺ، فيأكل فقراءُ المهاجرين منه، فيَعْمِد الرجلُ منهم إلى الحَشَـف (وهو: التمر الرديء، الذي يَجِفُّ من غير أن ينضُـج)، فيُدْخِله مع أقناء البُسْر، يظُـنُّ أنَّ ذلك جائز؛ فأنزل الله فيمَن فعلَ ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾.

وفي رواية: «كان أناسٌ ممَّن لا يَرْغبون في الخير، يأتي بالقِنْوِ فيه الحَشَفُ والشِّيصُ (وهما نوعان رَديئان من التمر)، ويأتي بالقِنْوِ قد انكسرَ فيُعَلِّقه؛ فنزلت الآية».

وفي رواية: «كان الناس يتيمَّمون شِرارَ ثمارِهم، ثم يُخْرِجونها في الصَّدَقة، فنزلت الآية»[1].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عـن نَفَقاتكـم وصدَقاتِكم، فلا يحتـاج إليها. ﴿حَمِيدٌ﴾: محمودٌ عـلى كلِّ حال، ومسـتحِقٌّ للحَمْـد، ويَحْمَد أصحابَ الأعمال الصالحة عـلى أعمالهم، فيقبَلُها ويُثيبُهم عليها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٩٧-٦٩٨)

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات العَلاقة الكبيرة بين الإيمان والصَّدَقة.

وفيها: وجوب الإنفاق من طيِّبات الكَسْب.

وفي الآية: دليلٌ عل وجوب الزكاة في عُروض التجارة؛ لأنَّها كَسْبٌ بالمعامَلة.

وفيها: أنَّ الله لا يقبل الصَّدَقة من المال الحرام؛ وإنَّما يُخرِجها صاحبُها على سبيل التخلُّص، لا الصَّدَقة.

وفيها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض، من الزُّروع والثِّمار، وقد فصَّلت السُّنَّة ذلك.

وفيها: وجوب الزكاة في المعادن والرِّكاز -وهو الكنز المدفون من أيَّام الجاهليَّة-.

وفيها: تحريم تقصُّدِ الرَّديء في إخراج الزكاة.

وفيها: أنَّ ما لا ترضاه لنفسِك؛ فلا تَرضَهُ لأخيك المسلِم.

وفيها: فَضْل الإنفاق من خِيار المال ونفيسه وجيِّده، وأنَّه إذا أنفقَ من الأدنى بغير قَصْدٍ وتعمُّدٍ -كأن يكون كلُّ ماله كذلك- فلا بأس، ولا حرج.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾:

ثم بيَّن تعالى مَكْرَ الشَّيطان، الذي يحمِل على البُخلِ والإمساكِ وإنفاقِ الرديء؛ فقال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾ أي: يُخوِّفكم، ويُذكِّركم عند الصَّدَقة بـ ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ يعني: سُوءَ الحال، وقِلَّةَ ذات اليد، وذلك لِتُمْسِكُوا ولا تُنفِقُوا.

﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: يُوَسْوِس لكم بالبُخلِ ومَنْعِ الإنفاق، ويُغْرِيكم بذلك، ويُحسِّنه لكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ أي: في مُقابِل ما يأمُركم به الشَّيطان؛ فإنَّ الله يَعِدُكم بسَتر الذُّنوب إذا أنفقتُم، ﴿وَفَضۡلٗا﴾ أي: خَلَفًا وزيادةً في الدُّنيا، وأجرًا وثوابًا في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: وَسِعَ العالمين بفَضْله وإحسانه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتكم وصدَقاتكم، فيُجازيكم على ذلك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات تأثير الشَّيطان في إحجام العبد عن عمل الخير.

وفيها: أنَّ مَن نقصَ إيمانُه رُبَّما يستجيب لتخويف الشَّيطان بالفقر، أكثر ممَّا يستجيب لوَعْد الله بالخَلَف.

وفيها: أنَّ البُخل من الفواحش.

وفيها: أنَّ مَن ثبَّطَ غيرَه عن الإنفاق؛ فهو يعمل بعَمَل الشَّيطان.

وفيها: كَرَم الله تعالى، بالجَمْع بينَ المغفرة والفَضْل لمن أنفق.

وفيها: أنَّه ينبغي التفاؤل بوَعْد الله بالخَلَف على الإنفاق، وقد يكون بركَةً في مال المُنفِق، أو وقايةً لِما بقيَ من ماله من الآفات، أو فَتْح بابِ رِزقٍ آخر -فيزداد المال- أو انشراحَ صدرٍ ورضا، يُسْعِده في دنياه قَبْل آخرتِه، أوْ كُلَّ ذلك.

وفيها: حثُّ العبد على أن يكون بما في يدي الله، أوثق ممَّا في يده.

وفيها: أنَّ تخويف الشَّيطان للعبد بالفقر ليس شفقةً عليه؛ وإنَّما لحِرْمانه من الأجر والثواب.

وفيها: أنَّ وَسْوَسَة الشَّيطان للعبد تدور بينَ الخبر والطلَب؛ ففي الخبر يَعِدُه الفقرَ، وفي الطلَب يأمرُه بالفَحْشاء.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٦٩﴾:

ولـمَّا ذكر تعالى جزاء الصَّدَقة، ومُضاعفتَها، ونهى عمَّا يُبْطِلها، وأمر بالتقرُّب بأطيبِها، وحذَّر من الاستجابة لداعي البُخل؛ أخبرَ أنَّ هذا كلَّه من الحِكمة، وذكَّر بأنَّ الحِكمة خيرٌ كثير، وأنَّها أفضل من متاع الدُّنيا القليل؛ فقال تعالى:

﴿يُؤْتِي﴾: يُعطي ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وهي: القرآن، والسُّنة، ومعانيها، والعِلْم النافع، والفِقه، والنبوَّة، والوحي، والفَهْم، والإتقان، ووضع الأشياء في مواضعها اللَّائِقة بها. فكلُّ ذلك من الحِكْمة التي يؤتيها الله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده.

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ والإصابة، في القول والفِعْل والرأي؛ ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ في الدارين، وهذا من فَضْل الله.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: وما يتَّعِظ ويتفكَّر بالحِكمة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ﴾ وهم: أصحابُ العقولِ الوافرةِ الرُّشد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الحِكمة فضلٌ وإيتاءٌ من الله. ومنها ما يكون غريزة موهوبة مع الخِلْقة، ومنها ما يكون مُكتسَبًا، يحصُل بالمِرانِ والمُمارسَةِ والتجارِبِ ومُخالطَةِ العقلاء.

وفيها: فَضل النبوَّة -وهي أعلى الحِكمة- ويليها: الفِقه بالكتاب والسُّنَّة، وهو ما عند العلماء.

وفيها: أنَّ عدم التفكُّر والتذكُّر والتدبُّر، نقصٌ في العقل.

وفيها: أنَّ إيتاء الله الحِكمة للعبد تكمُل به القوَّة العِلْميَّة، والقوَّة العمليَّة.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى عِلْمَه بجميع النُّذور والنَّفقات؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ أي: أخرجتُم وبذَلتُم ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلةٍ أو كثيرةٍ، سِرًّا أو علانيةً، في خيرٍ أو غيره، من مالٍ حلال أو حرام.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ طاعةٍ أو معصيةٍ، مشروطًا أو غيرَ مشروط، متعلِّقًا بالمال أو بالأفعال. و(النَّذْر): إلزام المُكلَّفِ نفسَه بما لم تُلْزِمه به الشريعة.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي: يُحصيه، فيُجازيكم عليه.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَنْعِ النَّفقات الواجبة، أو الإنفاقِ في المعاصي، أو الرِّياءِ والسُّمعةِ، أو المَنِّ والأذى. أو الناذِرين نُذورَ الشِّرك والمعصية، أو التارِكينَ الوفاءَ بنُذور الطاعة.

﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: أعوان، يَدْفَعون عنهم عذاب الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يُجازِي على النَّفقة أيًّا كانت، قليلها أو كثيرها.

وفيها: أنَّ اليقينَ بعِلْم الله بالنَّفقة، هو من احتساب الأجر، الذي يُضاعَف به عملُ المُنفِق.

وفيها: أنَّ الله لا ينصُر الظالمين، وإذا انتصَروا: فإمَّا أن يكون استِدراجًا لهم لِيَمحَقَهم، أو عقوبةً لمن انتصَروا عليهم.

وفيها: موعظةٌ لمن نذرَ نَذْرَ معصية، وأنَّه لا يجوز الوفاء به؛ ففي الحديث: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»(١).

وفيها: أنَّ الله ينصُر المتصدِّقين في سبيله، ويَخذُل المُمسِكين القابِضين أهلَ البُخل.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾:

ثُمَّ حثَّ تعالى المُنفِقين على إخفاء صدَقاتهم؛ فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟﴾ أي: تُظْهِرُوا ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبَّة؛ ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ وهي كلمة مَدْحٍ لمن فعلَ ذلك.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي: تتصدَّقوا بها عليهم سرًّا؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إظهارِها وإبدائِها.

وقد قال بعض العلماء: إنَّ الفضيلة في الإخفاء هي لصدَقة التطوُّع، دون صدَقة الفريضة -كالزكاة-. واتَّفقوا على أنَّ كِتمانَ صدَقة التطوُّع وإخفاءَها؛ أفضل وخيرٌ من إظهارها، إلا إذا كان في الإظهار مصلحة راجحة.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٩٦).

وقالوا: السُّـنَّة في الصدقة الواجبة والأفضل إظهارُها؛ لدَفْع المتصدِّقِ الملامةَ عن نفسه وسوءَ الظَّنِّ إذا أخفاها.

والكلُّ مقبولٌ -على كلِّ حال- إذا كانت النِّـيَّة صادِقة.

وقد قال النبي ﷺ في السَّبعة الَّذين يُظِلهم الله في ظلِّ عَرْشه، يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه: «وَرَجُـلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِـمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(١)، وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»(٢).

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (التكفير): هو السَّـتر. و(السـيِّئة): كلُّ ما يَسُوء المرءَ عملُه أو جزاؤه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإظهار والإخفاء ﴿خَبِيرٌ﴾: عليمٌ ببواطن الأمور.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ إخفاء الصَّدَقات أفضل من إظهارها؛ لأنَّه أبعَدُ عن الرِّياء وهوى النفس، وأبعَدُ عن إحراج الفقير، إلَّا إذا كانت هناك مصلحةٌ في إظهارها -كأن يَقتديَ به غيرُه، أو يكون في إظهارها إظهارٌ لشعائر الدِّين-؛ فالإظهار -حينئذٍ- أفضل، إذا أمِنَ على نفسه الرِّياء.

وفيها: أنَّ الصَّدَقة لا تُعتبَرُ إلَّا إذا وصلَت إلى الفقير؛ لقوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾.

وفي الآية: تفاضُل الأعمال عند ربِّ العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ الصَّدَقة سبَبٌ لتكفير السيِّئات.

وفي الآية: تحرِّي المحتاج والفقير، والبحث عنه لإعطائه.

وفيها: أنَّ إعطاء المتُصدِّق الفقيرَ مباشرةً بنفسه، أفضلُ من توكيل غيرِه بإيصالها، إلَّا إذا ترَجَّح التوكيلُ لمصلحة -كتأذِّي الفقير من رؤية المتصدِّق، لقرابةٍ أو معرِفةٍ-.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦١)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في صحيح الترغيب (٨٨٩).

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾:

ولـمَّا كانت الحاجة تدعو إلى الصَّدَقة على الكافر أحيانًا -لقرابتِه، أو تأليفِ قَلْبه-؛ سأل بعضُ المسلمين عن حُكم ذلك، وماذا لو لم يهتدِ هؤلاء المتصدَّق عليهم؟

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «كان المسلِمون لا يرضَخون لقراباتهم من المُشرِكين (أي: كانوا يكرَهون أن يُعطوهم شيئًا من أموالهم صدَقة)؛ فنزلَت هذه الآية، فرُخِّص لهم»[١].

فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ والمقصود: هداية التوفيق إلى الحقِّ، لا هداية البيان والإرشاد، فليس عليك -يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا على أُمَّتك- هداية هؤلاء الكفَّار إلى الإسلام، بل أعطِهم الصَّدَقة بشروطها وآدابها، إذا كانت هناك مصلحة مرجُوَّة، وإذا لم يكونوا محارِبين للمسلمين؛ فالله تعالى يهدِي مَن يشاء إلى الحقِّ، ويهدي مَن يشاء للصدَقة ابتغاءَ وَجْهه.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟﴾ كما أمرَ الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أنواعِ المال والمنفعةِ؛ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: فثوابُ هذا الخير والنفع لكم لا لغيركم، فلا تُفسِدوه، ولا يضُرُّكم كُفْر مَن تصدَّقتُم عليه لأجل المصلحة الشرعيَّة.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾: وهكذا عَمَل المؤمن ينبغي أن يبتغيَ به وَجْهَ الله وحدَه، وإذا تصدَّق مُخلِصًا مجتهدًا؛ فقد وقعَ أجرُه على الله.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلًا أو كثيرًا؛ ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُعْطَونَ ثوابه وافيًا، وافرًا غيرَ منقوص، ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تُنقَصون شيئًا منه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ذِمَّة الدَّاعية تبرأ إذا بلَّغ وبيَّن، ولو لم يهتدِ مَن دَعاهم.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٨٧).

وفيها: أنَّ هدايةَ التوفيق، ودخولَ نورِ الإيمان إلى القَلْب؛ هي من اختصاص الله تعالى ومحضِ فَضْلِه.

وفيها: أنَّ أعمال الإنسان لا ينصرِف جزاؤها إلى غيره، ولكن قد ينتفع الغيرُ بعَمَله.

وفيها: أنَّ الإنفاقَ لغير وَجْه الله لا ينفَع صاحبَه.

وفيها: إثبات صفة (الوَجْه) لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الإنفاق من الحرام لا يُقبَل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، والحرام ليس بخير.

وفيها: حثُّ المسلمين على الصَّدَقة، بوصول أجورِهم عليها كاملةً موفورةً.

وفيها: صِلَةُ القريب الكافر، وتأليفُ قَلْبِه بالمال، وأنَّ إعطاءه لا يُنافي البراءة من شِركِه.

ويُستنبَط من الآية: جواز إعطاء العاصي من الصَّدَقة، ما لم يَستَعِن بها على المعصية. وأمَّا الكافر: فلا يُعطَى من الزكاة إلَّا من أَسْهُمِ المؤلَّفة قُلُوبُهم.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾:

ثم بيَّن تعالى مصارِف الصَّدَقات، ومَن هم الأَولى بها؛ فقال تعالى:

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ أي: الإنفاق وإيتاء الصَّدَقات للفقراء. و(الفقير): هو المُعْدَم، والخالي ذاتِ اليد، أو مَن لا يجدُ إلَّا أقلَّ من نصف حاجته.

﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: حَبسوا أنفُسَهم في طاعة الله، من جهادٍ وغيره، وكذلك الذين حَبسَهم العدُوُّ والمرضُ.

وقد بيَّن تعالى في سُورَة «الحشر»، أنَّ سبَبَ فقرِهم هو إخراجُ الكفَّار لهم من ديارهم، واستيلاؤهم على أموالهم؛ فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ٨].

فهؤلاء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يقدِرون على السفر لطلَب المعاش، إمَّا لاشتغالهم بصلاح الدِّين، أو لخوفِهم من الأعداء، أو لِـما أصابهم من الجِراح والمرض، ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ أي: يظنُّهم ﴿الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ﴾ غيرَ محتاجِين؛ ﴿مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: لِتَرْكهم المسألةَ، وإظهارِهم الغنى.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بالفِراسة والتأمُّل في أحوالهم وعلاماتهم. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يُلِحُّون في السؤال، ولا يُثقِلون على النَّاس، بل لا يسألون أصلًا؛ لأنَّ مَن كان متعفِّفًا، ويظنُّه الجاهل غنيًّا، ولا يُعرَف حاله إلَّا بالتأمُّل؛ فإنَّه لا يمُدُّ يدَه ولا يسأل، وإلَّا لصارَ أمرُه واضحًا.

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ؛ وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»(١).

وقوله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾: هذا وَعْدٌ منه سبحانه بأنَّه يُجازِي المتصدِّق على الإنفاق في كلِّ الأحوال، سواء تصدَّق على المُلحِف أو على غير المُلحِف، وعلى المُتيقَّن من فَقْره وعلى المشكوك في فقره، وعلى مَن اشتدَّت حاجتُه وعلى مَن لم تشتدَّ؛ فإنَّ عِلْمَ الله المحيطَ ببواطن المُنفِقين، وحقائقَ السائلين، سيترتَّب عليه الجزاءُ يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن كان قادرًا على التكسُّب؛ فلا يُعطَى من الصَّدَقة؛ حتى لا يُشجَّع على البَطالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

وبعض الناس يشترِط عند البحث عن وظيفة شروطًا صعبة، ولا يقبَل بالمتيسِّر له، ولا أن يتدرَّج في الوظائف، ويرضَى -مع ذلك- أن يكون عالةً على الناس المدَّة الطويلة! وهذا فَهْمٌ مغلوطٌ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

وأمَّا مَن لم يجد وظيفة أصلًا، ولا يستطيع مزاولة مهنة ولا تجارة، أو كان له عَمَلٌ لا يكفي حاجاته وحاجات أهله؛ فإنَّه يُعطَى، ولو من الزكاة.

وفي الآية: فضيلة التعفُّف والصَّبر.

وفيها: الحثُّ على دِقَّة النظر، والتفرُّس والتفطُّن لأحوال الناس، والتمعُّن في الأحوال والقرائن؛ لاكتشاف المُحتاج العفيف الذي لا يسأل.

وفيها: إشارةٌ إلى النهي عن إيذاء الناس، في الإلحاح في السؤال، وإحراجهم، والإثقال عليهم.

وفيها: أنَّ المضطر إذا سأل؛ فليتلطَّف.

وفيها: أنَّه كلَّما اشتدَّت حاجةُ الشخص، وعظُمَت مناقبُه وفضائلُه؛ كان إعطاؤه أكثرَ أجرًا؛ وذلك أنَّ الله ذكرَ لمستحِقِّي الصَّدَقة في الآية سِتَّ خصالٍ وصفاتٍ، عزيزٌ أهلُها، ومَن يعرِفهم أقلُّ وأندَر، ولكنَّ الله يختصُّ بتوفيقه مَن يشاء.

وفيها: إشارةٌ إلى تحريم السؤال لمن عنده ما يُغنيه، وفي الحديث: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ؛ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ: خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ»[1].

يعني: جاء أثرُ مسألته جُروحًا تظهر على الجلد واللَّحم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾:

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ يعني: كلَّها أو بعضَها ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في جميع الأحوال والأوقات؛ لِحِرْصهم على الخير، وينتهِزون اللَّيل لإخفاء صدَقاتهم، وإذا جاءَهم صاحبُ حاجةٍ بالنهار لم يُؤَخِّروه، وبادَروا بالصَّدَقة عليه؛ لئلَّا تفوتَ المصلحة والأجر.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٩).

فهؤلاء جزاؤهم كما قال الله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثوابهم عند الله يوم القيامة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المستقبَل والآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتَهم من الدُّنيا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعميم اليوم واللَّيلة بالأعمال الصالحة، والاشتغال بطاعة الله على مدار اليوم.

وفيها: أنَّ الإنفاق في سبيل الله سببٌ لانشراح الصدر، وطَرْد الهمِّ والغمِّ.

وفيها: أمانٌ من الله للمتصَدِّقين، وأنَّه يُذْهِب عنهم الخوف من كلام المُرْجِفين، فينبغي عدم الالتفات إلى تخويفهم، والإقدام على الصَّدَقة والاستمرار فيها.

وفيها: فَضْل صدَقة السِّرِّ على صدَقة العلانية؛ ولذلك قدَّمها بالذِّكر في الآية.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾:

ولـمَّا حثَّ الله تعالى على الصَّدَقة من الكَسْب الطيِّب؛ نبَّه على بعض الكَسْب الخبيث؛ للتحذير منه، ومِن التصدّق به.

ولـمَّا ذكرَ تعالى حالَ المُحْسِنين في الأموال؛ ذكرَ طَرَفًا من حال المُسيئين في الأموال، وهُم أَكَلَة الرِّبا؛ فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذونه، فينتَفِعون به، بأيِّ وَجْه -كالأكل والشرب، أو اللِّباس، أو السَّكَن، أو المركَب، أو الوقود، وغير ذلك-. و(الرِّبا): زيادة في شيئَين، منعَ الشارعُ من التفاضُل بينهما.

فهؤلاء ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: لا يُبعَثون من قبورهم يومَ القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: كالمصروع، الذي تلَّبس به الشَّيطانُ، فجعلَ يتخبَّط ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: من الجُنون والصَّرع.

ومِشـية المصروع علامةٌ يَعْـرِف الناسُ بها آكلَ الرِّبا يومَ القيامـة، فتكون فضيحته وأول عذابه عند البَعْث.

وأمَّا في القبر: فقد أخبرَ النبيُّ ﷺ، أنَّه رأى آكلَ الرِّبا يسـبَحُ في نهرٍ من دَمٍ، وعليه رجلٌ بين يدَيه حِجارة، فإذا أراد أن يخرجَ رمَاه بحَجَرٍ في فِيهِ، فردَّه حيثُ كان[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عذابهـم بقيامِهـم من قُبورهم كهيئة المجانـين المصروعين ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾ أي: بسبَب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

وهـذه مُكابـرةٌ وتَعـامٍ عن الفرق بـينَ البيـع والرِّبا، لدرجة أنَّهم عكَسـوا التشـبيه، فلم يقولوا: «إنَّما الرِّبا مِثْلُ البيع»؛ وإنَّما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾؛ فالرِّبا عندهم هو الأصل الذي يبيحُونَه، ويقيسون البيعَ عليه في الحُكم! فكان عذابُهم بسبَبِ أنَّهم جعلوا الرِّبا والبيعَ كلاهما حلالًا.

فكذَّبهـم الله تعالى، وردَّ عليهـم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: أباح الله تعالى أربـاحَ التجارة بالبيع والشراء، وحرَّم الرِّبا -الـذي من أنواعه: زيادة في المال، لأجل تأخير الأجَل في القَرْض-. والله يَحْكُم ما يشاء.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بلَغَـه حُكـمُ الرِّبا والتخويف من فِعْلـه، بعد أن تعاملَ بـه ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ أي: كفَّ عن الرِّبـا بالتوبةِ منه، والتوقُّفِ عن أَخْـذِ الزيادة؛ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما أخذَه قبل العِلْم بالحُكم، ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: شـأنه في الآخرة راجعٌ إلى مشـيئة الله تعالى.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليـلِ الرِّبـا وأخـذِه، بعد أن تبيَّن له حُكمـه؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ العائدون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أهلُهـا المُلازِمـون لها، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكِثون فيها أبدًا، باستحلالهم الذي جعلَهم كُفَّارًا.

أمَّـا إن اعتقـدوا التحريم، وأصرُّوا عـلى التعامل بالرِّبا؛ فيسـتَحِقُّون العقوبة الطويلة في النَّار.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من الرِّبا، وشناعة مصير صاحبه.

وفيها: إثبات صَرعِ الشَّيطانِ للإنسان.

وفيها: مُبالغة أهل الباطل في ترويج باطلهم.

وفيها: أنَّ الحرام يبقى حرامًا، سواءً عَلِمنا بعِلَّة التحريم، أم لم نعلَم.

وفيها: أنَّ ما أخذه الإنسان من الرِّبا قبل العِلْم؛ فهو له، بشَرْط أن يتوب وينتهي.

وفيها: أنَّ المُرابي لو بقيَ له شيء من الزيادة؛ فإنَّه إذا تابَ يجب عليه إسقاطُها.

وفيها: التحذير من العودة إلى المعصية بعد الموعظة.

وفيها: أنَّ التائب يبقى خائفًا من ذنبه؛ لقوله: ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، ولكن يرجو رحمة ربِّه.

وفيها: عقاب ومصير مَن يأكلونَ أموالَ الناس عن طريق الرِّبا، بالحِيَل والوسائل المختلفة، والتفنُّن في طُرُق الكَسب الحرام والاحتيال -معتَقِدين أنَّ هذا من الذَّكاء- وأنَّهم سيُعاقَبون بقيامِهم من القبر كهيئة المجانين المصروعي، الَّذِين ذَهَبَت عقولهُم، وهذا مصير مَن استعملَ ذكاءَه في تحصيل الأموال بالرِّبا.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾:

قوله تعالى ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يُذهِبه، أو يُذهِب برَكته، ويُعاقِب عليه. وكثيرًا ما يَذهب الرِّبا بالتدريج. و(المَحْق): هو الإزالة.

وهذه الإزالة يُحتمَل أن تكون إزالةً حِسِّيَّة، أو إزالة معنويَّة: فالإزالة الحِسِّيَّة بأن يُسلِّط الله على مال المُرابي ما يُتْلِفه، والمعنويَّة بأن يَنزِع منه البركة.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا؛ إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ»، وفي رواية: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»(١)، أي: قلَّة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٧٩)، وأحمد (٣٧٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨٦٣).

أمَّا الصَّدَقات؛ فالله تعالى يُنَمِّيها ويبارِك فيها؛ ولذا قال: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يَزيدها ويُنَمِّيها، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[١]، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[٢]؛ فتصير اللُّقمة والتمرة من الصدقة مِثل الجبل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ وهو: كثير الكُفر أو عظيمُه، كَفور القَلْب. وكُفره قد يكون كُفرًا أكبر باستحلال الرِّبا، وإلَّا فهو واقعٌ في كبيرةٍ من الكبائر، بالإصرار على الرِّبا.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الوقوع في الإِثْم، ظلومٌ لأخذِه المالَ بالباطل. فهو أثيم القول والفِعْل.

فالمُرابي لا يرضى بما قسمَ الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرَعَ له من التكسُّب المباح؛ فهو يسعى في أكلِ أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لِما عليه من النِّعمة، ظلومٌ آثِمٌ بأكل أموال الناس بالباطل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَحْق الرِّبا قد يكون حِسِّيًّا أو معنويًّا.

وفيها: أنَّ زيادة المال بالصَّدَقة قد تكون زيادةً حِسِّيَّة -بأن يُخْلِف الله على صاحبها من المال أكثر- أو معنويَّة -بأن يُبارِك له فيما بقيَ من المال- أو بهما معًا.

وفيها: أنَّ الرِّبا من شعار أهل الكُفر.

وفيها: أنَّ المُرابي كافرٌ بنِعمة الله، ولو شكرَ لأقرضَ بغير زيادة، يرجو ثواب الله تعالى.

وفيها: تنبيه العِباد على عدم الاغتِرار بالظاهر؛ فإنَّ الرِّبا يَزيد المالَ في الظاهر، والصَّدَقة تُنقِصه في الظاهر، ولكنَّ الحقيقة هي عكس ذلك.

وفي التفريق بينَ محق الرِّبا ونماء الصَّدَقة: إشارةٌ إلى أنَّ الله لا يقبل الصَّدَقة من مال الرِّبا، وإنَّما يتقبَّلها من الكَسْب الطيِّب.

---

(١) وهو: الصغير من الخيل.

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾:

ثم قال تعالى مادحًا المؤمنين، الذين يقومون بحقِّه وحقِّ عباده:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقُلُوبهم، بالله وأحكامه، ومنها: تحريم الرِّبا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارِحهم ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أتمُّوها قويمةً، بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنِها ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لمستحِقِّيها.

هؤلاء جزاؤهم كما أخبر الله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ أي: ثوابُ أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في الآخرة، وهذه (العِنديَّة) تفيد شَرَفًا وضمانًا.

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من مكروهٍ في المستقبَل، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على محبوبٍ فاتَ في الماضي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اقتران العمل بالإيمان.

وفيها: أنَّ العمل الذي ينفع صاحبَه هو ما كان صالحًا، أي: خالِصًا صوابًا.

وفيها: أهميَّة هذَين الرُّكنَين العظيمَين العمليَّيْن من أركان الإسلام، وهما: الصَّلاة والزكاة.

وفيها: حصول الأمنِ التامِّ للمتَّصِفين بهذه الصِّفات في الآية.

وفيها: أنَّ النفس تطمئنُّ إذا انتفى عنها الحُزن على الماضي، والخوف من المستقبَل.

وفيها: أنَّ الإيمان والأعمال الصالحة -وعلى رأسها الصَّلاة والزكاة- تجلِب الراحة النفسيَّة لمن قام بها.

وفي الآية: فَضْل عمل الخير، بالأبدان والأموال.

وفيها: أنَّ المُرابي مختَلُّ الإيمان، وإن صلَّى وزكَّى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾:

ولـمَّا بيَّنت آيةٌ سابقةٌ أنَّ ما أخذه المُرابي من الزيادة قبل العِلْم بالتحريم هو له؛ جاءت هذه الآية لتبيِّن أنَّ الزيادة التي يقبِضها المُرابي بعد عِلْمه بالتحريم، لا يجوز المطالَبة بها، ولا أَخْذُها.

فأمرَ تعالى عبادَه بتقواه، ونهاهم عن الرِّبا الذي يُسْخِطه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتخِذوا وقايةً من عذابه، بفِعْل ما أمرَكم به، وتَرْكِ ما نهاكم عنه، ﴿وَذَرُواْ﴾: اُتْرُكوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ عندَ مَن أقرضتُموه، واقتصِروا على المطالَبة برؤوس أموالِكم فقط.

هذا ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالله، الذي حرَّم الرِّبا. وهذا أسلوبُ إغراءٍ وإثارةٍ، وحثٍّ على الامتِثال.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مِن بلاغة القرآن: الإشارة إلى أهميَّة الأمر بالكلمات التي تجعل النفوس قابلةً له، والتنبيه عليه بالنِّداء وغيره.

وفيها: وجوب تَرْكِ الرِّبا، وإن جرى التعاقُدُ عليه.

وفيها: إبطال العقود بالرِّبا، وأنَّه لا يجوز تنفيذ العقود المحرَّمة.

وفيها: تحريم الرِّبا، وإن كان مأخوذًا من الكفَّار، أو كان بينَ غنيٍّ وغنيٍّ -كالتاجر صاحب المصنَع، والبنك والمصرِف-.

وفيها: عدم جواز المطالبة بالرِّبا، أو أخذ ما زادَ على رأس المال من الرِّبا؛ لأيِّ غرضٍ كان، ولو بنيَّة التصدُّقِ به، أو صَرْفه في وجوه البِرِّ تخلُّصًا منه؛ لأنَّ الله تعالى أمرَ بتَرْكه؛ ولو كان هناك طريق يمكن صَرْفُه فيه؛ لبيَّنه الله تعالى.

وفيها: أنَّه لا يضُرُّ المُودِعين في مصارف الرِّبا، أن يتركوا الرِّبا لأصحاب المصارِف، ولو استعملوها في حَرْب المسلمين.

وفيها: أنَّ الرِّبا ليس مِلْكًا للمُرابي، ولا أحقِّيَّة له فيه.

وفيها: أنَّ التعامل بالرِّبا يُنافي الإيمان.

وفيها: ابتلاء الله تعالى لدعاوى العِباد -أمرًا أو نهيًا-؛ لتمحيصِهم.

وفيها: التمهيد قبل النهي بالأحكام العظيمة، بالأمر بالتَّقوى؛ لموعظة النفوس، وتهيئتها للعمل بالحُكم.

فعلى الدُّعاة وَعْظ الناسِ قبل أمرِهم ونهيِهم بالأحكام.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾:

ولـمَّا كان تَرْكُ الرِّبا شاقًّا على النفس؛ لتعلُّقها بالمال، وأموال الرِّبا كثيرًا ما تكون طائلة؛ جاء إعدادُ النفوس لذلك بأسلوبِ التنبيه والنِّداء، والموعظةِ، والإغراءِ بالإيمان، ثم التخويف بالعقوبة العظيمة؛ فلذلك قال بعدها:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: ما أُمِرتُم به من تَرْكِ الرِّبا؛ ﴿فَأْذَنُوا۟﴾ أي: اعلَموا واستيقِنوا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في الدُّنيا: بالقتال والسَّيف، وفي الآخرة: بالعذاب والنَّار.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «مَن كان مُقيمًا على الرِّبا لا يَنزِع عنه، فحقٌّ على إمام المسلمين أن يستَتيبَه، فإن نزعَ وإلَّا ضربَ عُنقَه»[1].

وقال: «يُقال يومَ القيامة لآكِلِ الرِّبا: خُذْ سِلاحَكَ للحَرْب»[2].

قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: رجعتُم إلى طاعة الله بعد معصيته، وتركتُم الرِّبا بشروط التوبة؛ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: أصولًا دون الزيادة، فـ ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بإلزامكم بالتخلِّي عن رأس المال.

ولذلك قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في خُطْبة الوداع: «أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ،

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٥)، تفسير ابن المنذر (١/ ٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٩).

لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، غَيْرَ رِبَا العَبَّاسِ ابنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»(١).

وجاء في حديث جابر في حَجَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه قال: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ... وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المُصِرَّ على الرِّبا مُعلِنٌ الحَرْبَ على الله ورسوله.

وقد جاء في الوَعيد على الرِّبا ما لم يأتِ مثلُه على ذنبٍ آخر -غير الشِّرك-؛ فإنَّ الله تعالى لم يأذن بمُحاربةِ أحدٍ إلَّا آكل الرِّبا؛ لشِدَّة ظُلْمِه، وما يترتَّب على الرِّبا من المفاسد الكثيرة؛ ومنها:

- أنَّه أخذُ مالِ الغير بغير عِوَضٍ ولا مُقابِلِ عملٍ يقوم به المُرابي.

- أنَّ أكل الرِّبا يمنع من الاشتغال بالتجارة؛ فإنَّه إذا رأى شيئًا مضمونًا يأتيه بغير تَعَب؛ فلماذا يدخُل في مخاطر التجارة والزراعة والصناعة وسائر الأعمال؟!

- ومن مفاسده: أنَّه سبَبٌ لانقطاعِ المعروف بينَ الناس، واندثارِ القَرْض الحسَن.

- وفيه ظُلْمٌ عظيمٌ -خاصَّةً في الفوائد المُركَّبة-؛ فيزداد آكلُ الرِّبا ثراءً فاحشًا، ويزداد الفقيرُ -دافعُ الرِّبا- فقرًا مُدْقِعًا.

وفي الآية: تحذير أَكَلَة الرِّبا بحَرْب الله لهم، وما يسلِّطه عليهم من البلاء والعذاب، وحَرْب رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائه من الأئمَّة والولاة الذين من وظائفهم: محاربة أَكَلَة الرِّبا.

وفيها: رحمة الله تعالى بعباده، ومُراعاة حالهم؛ حيث لم يَحْرِم المُرابين من رؤوس أموالهم.

(١) رواه أبو داود (٣٣٣٤)، والترمذي (٣٠٨٧)، وابن ماجه (٣٠٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠﴾:

ولَمَّا بيَّن تعالى تحريم الرِّبا؛ أمرَ الدائنَ بالصَّبر على المُعسِر؛ فقال:

﴿وَإِن كَانَ﴾ مِن غُرمائكم غريمٌ ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: عاجزٌ عن أداء الحقِّ الذي عليه؛ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: فعليكم إنظارُه وإمهالُه إلى وقت يَسارِه، وقُدرتِه على الوفاء، لا كما كان أهل الجاهليَّة يفعلون، فيقول أحدُهم لِمَن عجزَ عن السَّداد له إذا حلَّ الدَّيْن: «إمَّا أن تقضيَ، وإمَّا أن تُرْبِيَ»، فكلَّما تأخَّر زاده في الرِّبا!

ثم حثَّ تعالى الدائنينَ على التسامُح في الدَّيْن، والوَضْع منه، أو إلغائه بإبراء المُعْسِر، ووعدَ على ذلك الخيرَ والثوابَ الجزيل؛ فقال:

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ على المُعْسِر بإبرائه؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من إنظارِه وتأخيره ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتُم من ذوي العِلْم، فتصدَّقوا وتنازَلُوا.

وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ؛ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»[١].

وفي حديثٍ آخر: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ؛ كَانَ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٢].

وقال ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ»[٣].

وقال النبي ﷺ: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ[٤]، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ»[٥].

وفي روايةٍ للحديث: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَتَاهُ المَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ من خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٦).

(٢) رواه أحمد (٢٢٥٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٦).

(٣) رواه أحمد (٢٣٠٤٦)، وصحَّحه الألباني في الإرواء (١٤٣٨).

(٤) أي: يبيعهم بالأجل.

(٥) رواه البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢).

كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأُنْظِرُ المُوسِرَ، وَأَتَجَاوَزُ عَنِ المُعْسِرِ. فَأَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب إنظار المُعْسِر، وعدم جواز مُطالبتِه بالدَّيْن إذا كان لا يستطيع الوفاء.

وفيها: فضيلة الإبراء من الدَّيْن، وأنَّه صدَقة وَسُنَّة. وأمَّا الإنظار والتأخير للعاجز: فهو واجبٌ.

وفيها: أنَّ جهالة الأجَل في إنظار المُعْسِر إلى حين الميسَرة، لا تَضُر.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾:

ثم وعظَ تعالى عبادَه، وذكَّرهم بزوالِ الدُّنيا وفناءِ ما فيها من الأموال، وإتيانِ الآخرة وما فيها من المُحاسبة على الأعمال؛ فقال تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ أي: احذَروا عذابَ يوم. والمراد به: يوم القيامة ﴿تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: تُرَدُّون إليه للحساب.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾: تُعطَى وتُستوفى ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ من ثواب الحسنات، وعقوبة السيِّئات، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون شيئًا من ثواب حسناتهم، ولا يُزاد عليهم شيء في عقوبة سيِّئاتهم.

وهذه الآية هي آخر وصيَّةٍ نزلَت على نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السَّماء، وآخِرُ القرآن عهدًا بالعَرش وربِّه تعالى، بعد استقرارِ نزول الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار والقَصَص.

قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وسعيدُ بنُ جُبَير، وعَطيَّةُ العَوْفي، وغيرُهم: «آخر آية نزلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥١)، ومسلم (١٥٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤٠-٤١)، تفسير ابن المنذر (١/ ٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٥٥٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٧٢١).

حتى قيل: إنَّها نزلَت قبلَ موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسع ليالٍ، وقيل: بثلاثٍ، وقيل غير ذلك، ولم ينزِل بعدها شيءٌ[(١)].

وجاء في «صحيح البخاري»[(٢)] عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آيَةُ الرِّبَا».

وجمعَ العلماءُ بين القولَين: بأنَّ هذه الآية هي خِتام الآيات المنـزَّلة في الرِّبا؛ إذْ هي معطوفة عليهنَّ؛ فتكون آيات الرِّبا مختومة بهذه الآية، وهي آخر ما نزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اتِّقاء عذاب يوم القيامة يكون بفِعْل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وفيها: أنَّ مرجِع الخلائقِ كلِّهم إلى الله، حُكمًا وقَدَرًا وجزاءً.

وفيها: أنَّ الصغير يُكتَب له ثواب ما عَمِلَ؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

وفيها: فائدة في دعوة أَكَلَةِ الرِّبا، بتذكيرهم بتقوى الله، واتِّقاءِ عذابه في اليوم الآخر، وتذكُّرِ الحساب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: توجيه الدُّعاة بوَعْظ المُرابين بهذه الآية.

وفيها: استحباب ختام الوصايا بالأمر بتقوى الله؛ فإنَّ هذه الآية هي آخر وصيَّة من الله للبشريَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٧٥)، فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٤٤).

(٣) انظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٥).

يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾:

هذه هي آية الدَّيْن. وقد أرشدَ الله تعالى عبادَه المؤمنين فيها إلى الكتابة، إذا تعامَلوا فيما بينهم بمعاملاتٍ مؤجَّلة؛ ليكون ذلك أحفظَ لها وأضبطَ، وأعونَ على الوفاءِ بها، وحِفظِ حقوق أطرافها؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله وأحكامه ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ (الدَّيْن): كلُّ ما ثبت في الذِّمة من حقٍّ لشخص آخر. والمعنى: إذا عاملَ بعضُكم بعضًا معاملةً فيها دَيْن -كالبَيع الآجِل، والقَرْض، ومؤخَّر صداق الزوجة، وغير ذلك- ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معلوم؛ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: اكتبُوا الدَّيْن بأَجَلِه؛ لأنَّ الكتابة مَرجِعٌ لحَسْم الخلاف.

ويدخل في الآية: «بيعُ السَّلَم»، وهو: بيع شيءٍ مؤجَّل موصوف في الذمّة، بثمن معجَّل، يعني: البيع الذي يكون فيه تقديم الثمن كاملًا في مجلس العقد، وتأجيل المبيع الموصوفِ -المتعلِّق بذِمَّة البائع- إلى أجلٍ معيَّن.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أشهد أنَّ السَّلَف المضمونَ إلى أجلٍ مسمًّى، قد أحلَّه الله في الكتاب، وأذِنَ فيه»، ثم قرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾»(١).

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾ أي: بينَ الدائن والمدين، والبائع والمشتري، ونحوهم. و«البينيَّة» تقتضي ألَّا ينفرِدَ أحدُ المتعامِلَيْن بالكتابة؛ بل تكون باطِّلاع الطرَفَين.

﴿كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالحقِّ والإنصاف والاستقامة، فلا يميل قلمُه لأحدِ الطرَفَين على الآخر.

---

(١) رواه الحاكم (٣١٣٠)، والبيهقي (١١٠٨١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٣٦٩).

﴿وَلَا يَأْبَ﴾ أي: لا يمتنِع ﴿كَاتِبٌ﴾ يَعْرِف الكتابة ﴿أَن يَكْتُبَ﴾ إذا طُلِبَ منه ذلك، ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾، فليكتُب على أصول الكتابة وطريقة التوثيق، وشُكرًا لِنعمة الله الذي مكَّنه من تعلُّم الكتابة.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ فورًا إذا طُلِبَت منه الكتابة، ولا يمتَنِع، ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ أي: لِيُملِ -و(الإملال) و(الإملاء) بمعنى واحد- ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ وهو المديون. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: هذا المديون، الذي يمُلي ويبيِّن ما في ذِمَّته. ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُنقِص شيئًا من الدَّيْن الذي عليه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ أي: ناقص العقل، لا يُحسِن التصرُّف، ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في بدنه، أو رأيه، كأن يكون صبيًّا أو مجنونًا أو هَرِمًا، ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لعَجْزٍ -من خَرَس، أو جهل باللُّغة، أو حبس، ونحو ذلك-؛ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ الذي يتولَّى شُؤونه -من والد، أو وصيٍّ، أو مترجِم، أو وكيل، ونحوهم- ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالصدق والحقِّ، دون زيادة أو نقصان، أو محاباة.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ أي: اُطلُبوا شهادتَهما على الحقوق مع الكتابة. وهذا الأمر للاستحباب.

﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ يعني: الأحرار البالغين المسلمين. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: فإن لم يكن الشاهدانِ رجلَين؛ ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ يشهدون. وشهادة النِّساء هنا في قضايا الأموال، أمَّا في غيرها من القضايا -كالحدود والنِّكاح وغيرها- فلا تُقبل إلَّا شهادة الرِّجال.

واشترطَ في الشُّهودِ أن يكونوا ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: ممَّن عُرِفَ عند عُموم الناس أنَّهم مَرْضِيُّون في ديانتهم وأمانتهم.

واشترطَ امرأتَين في الشَّهادة؛ بسَبَب ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: إذا نَسيَت ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا﴾ الذَّاكرة، الضابطة ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الناسية.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أي: يجب عليهم تلبيةُ الدَّعوة للشهادة، ويكون مجيئُهم

ليشهَدوا فرضَ كفايةٍ، ومجيئُهم للإدلاء بشهادتهم التي تحمَّلوها فرضَ عَيْنٍ عليهم، إذا لم يكن الحقُّ يَثْبُت إلَّا بذلك.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أي: لا تملُّوا من ذلك، مهما كثُرت المُداينات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: إلى وقت حُلوله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرناكم به من الكتابة ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أعدل، ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أثبَت وأحفَظ لها، وأعوَن للشاهد على إقامتها إذا نسيَ أو شَكَّ، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي: أقرب إلى انتفاء الشَّكِّ؛ لأنَّه إذا تمَّ الرُّجوع إلى الكتابة زال الشَّكُّ.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد، وليس بالآجِل؛ فلا بأس بتَرْك الكتابة. و(التجارة): كلُّ صَفْقة يُراد بها الرِّبح، فتشمل: البيع والشراء والإجارة. وأعلى من ذلك كلِّه: ما ذكرَه الله بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١٠-١١].

﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتعاطَونها، وتتعامَلون بها.

فإذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: لا إثمَ عليكم بتَرْك الكتابة في هذه الحالة؛ لأَمْنِ النِّسيان والتنازُع.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: وهذا الأمر للاستحباب. والإشهاد على البيع أقطَع للتنازُع، وأدفَعُ للخلاف.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي: لا يجوز إلحاقُ الضرَر بالكاتب، ولا الشاهد؛ لأنَّ هذا سيؤدِّي إلى الإحجام عن بَذْل الكتابة والشَّهادة، وسيدفَع إلى الوقوع في كتابةِ الزُّور وشهادَته.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ هذه المُضَّارة التي نُهيتم عنها؛ ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي: خروجٌ عن الطاعة، وإثمٌ عليكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافُوه وراقِبوه، واتَّبِعُوا أمرَه، واترُكوا ما نهى عنه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: إذا اتقيتُم؛ علَّمكم ما ينفعُكم.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾ من مصالح الدُّنيا والآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾: واسع العِلْم بحقائقِها وعواقِبها.

وفي آية الدَّيْن من الفوائد:

عِناية الله بحقوق العِباد؛ فإنَّ هذه أطولُ آية في كتاب الله تعالى.

وفيها: أنَّ مِن شُكر نِعمة معرفة الكتابة: الصَّدَقة على مَن لا يُحسِنها، بالكتابة له مجانًا. ويجوز أَخْذ الأجرة على ذلك.

وفيها: قَبول شهادة المرأة في المال -دون الحدود والنِّكاح وغيرها-؛ لأنَّ قضايا المعاملات الماليَّة كثيرة، ويطَّلع عليها الرِّجال والنِّساء غالبًا؛ فوسَّع الشرعُ في كيفيَّة إثباتها.

وفيها: أنَّه لا يجوز إرغام الكاتب على الكتابة، والشاهد على الحضور بدون رضاهما، ولا يجوز تكليفُهما بما يشُقُّ عليهما -كالإتيان من بعيد، وتحمُّل تكلفة السفر-.

وفيها: تذكيرٌ بنِعمة الإسلام، الذي أخرجَهم من الجهالة إلى العِلْم بالشريعة، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعدٌ بدوام ذلك.

وفيها: أنَّ التَّقوى سبَبُ إفاضة العلوم.

وفيها: أنَّ تعليم الله للعبد يزداد بتقوى العبد لله؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وفيها: ردٌّ على مَن يقول: إن الدِّين خاصٌّ بالعِبادات، وإنَّ الله أوكلَ إلى الخَلْق شُؤون المعاملات! وهذا ضلالٌ مبينٌ؛ فإنَّ الله تعالى قد بيَّن الحلال والحرام في كلِّ شيءٍ -بما فيها المعاملات- ووضعَ ضوابط لِما يكون بينَ الناس من العقود وأنواع التصرُّفات.

وفي الآية: الأمر بكتابة الدَّين المؤجَّل. ويتأكَّد ذلك فيمَن يُحتمَل ضياعُ حقِّه، كاليتيم؛ فيجب على وليِّ اليتيم أن يكتبَ الدَّين الذي له.

وفيها: إحسان الكتابة بالأسلوب والخطِّ.

وفيها: أنَّ الإنسان لا يتعلَّم إلَّا بتمكين الله له من ذلك، ولهذا لا بُدَّ له من شُكر النِّعمة.

وفيها: أنَّ الأفضل أن يكون الكاتب طَرَفًا ثالثًا. ويجوز لمن عليه الحقُّ أن يكتب.

وفيها: أنَّه يحرُم على المدين بَخْسُ الدائن في كميَّة الدَّيْن، أو صِفته، أو نوعه؛ لقوله: ﴿**وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا**﴾.

وفيها: أنَّ الوليَّ يقوم مقام المُولَّى عليه في الإملاء.

وفيها: أنَّ البيِّنة في القضايا الماليَّة هي شهادة رَجُلين، أو رَجُلٍ وامرأتين، وجاءت السُّنَّة ببيِّنة ثالثة، وهي: شهادة رجل مع يمين المُدَّعِي.

وفيها: أنَّ حِفظَ المرأة وضبطَها أقلُّ من حفظ الرجل وضبطه، وهذا على الأعمِّ والأغلب؛ وإلَّا فالنُّبوغ والحِفظ حاصلٌ في بعض النِّساء أكثر منه في بعض الرِّجال.

وفيها: جواز الشَّهادة على أمرٍ تذكَّره بعد النسيان.

وفيها: مجاهدة النفس في دَرْء المَلَل الحاصل بالتَّكرار؛ وذلك لإقامة المصالح.

وفيها: العمل بالكتابة، واعتبارها حُجَّة شرعية، إذا كانت من ثقةٍ معروفٍ خطُّه.

وفيها: العمل على كلِّ ما يدفع الرِّيبةَ والشَّكَّ.

وفيها: أنَّ الإشهاد يكون عند التبايُع، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر؛ لقوله تعالى: ﴿**إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾.

وفيها: أنَّ مُضارَّة الكَتَبَة والشُّهود فِسْقٌ، يستحِقُّ صاحبُه الهَجْرَ، ويترتَّب عليه زوالُ الولايات العامَّة والخاصَّة.

وفيها: أنَّ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الفِسْق والطاعة، كما يجتمع فيه الإيمان والنِّفاق، فلا يكون فاسقًا خالصًا، ولا مؤمنًا خالصًا، فيوالَى ويُحَبُّ بحَسَب ما عنده من الإيمان والطاعة، ويُبغَض ويُتبرَّأ منه بحَسَب ما عنده من النِّفاق والفُسُوق.

وفيها: أنَّ الكتابة ليست تخوينًا للأطراف؛ ولكنها ضبطٌ للحقوق.

وفيها: أنَّ وثيقة العَدْل -صاحب الخطِّ المعروف- حُجَّة يُعمَل بما فيها، ولو ماتَ هو والشهود.

وفيها: أنَّ إقرار الإنسان على نفسه مقبولٌ.

وفيها: أنَّ تعلُّم الكتابة فرضُ كفاية؛ لكي يتحقَّقَ به تنفيذُ الأمر الإلهيِّ بكتابة الدَّيْن.

وفيها: أنَّ شهادة الصبيِّ غير مقبولة؛ لقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ شهادة النِّساء مُنفَرِدات في الأموال ونحوها غيرُ مقبولة؛ لقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مسافرين، وتعامَلتُم بالمُداينة إلى أجلٍ مسمًّى، ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ في سفركم، أو لم تجدوا آلة الكتابة؛ ﴿فَرِهَانٌ﴾ تكون بدلًا من الكتابة. و(الرَّهْن): توثقة دَيْنٍ بعَيْنٍ، يمكن استيفاؤه منها، أو من بعضها.

﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ في يد صاحب الحقِّ. وكيفيَّة القبض يُرجَعُ فيه إلى العُرْف.

والرَّهْن مشروعٌ في السفر وغيره، وقد تُوفِّي رسولُ الله ﷺ ودِرْعُه مَرْهُونةٌ عند يهوديٍّ، بثلاثينَ صاعًا من شعير(١).

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: وَثِقَ كلُّ منكم بالآخر، واتخذه أمينًا؛ فلا بأس ألَّا تكتبوا ولا تُشهدوا، ولا تَرْهَنوا. وإذا كان الأمرُ كذلك؛ ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ وهو: المقترِض، الذي اؤتمن على الدَّين ﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي: حقَّ صاحبه، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: ليخشَ المَدينُ ربَّه في أداءِ الدَّين، فيؤدِّيه تامًّا، بطريقة حسَنة، دون مماطَلة.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: لا تُخْفوها، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: وقعَ قَلْبُه في الإثم، والقَلْب عليه مدار الصلاح والفساد.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من إقامة الشَّهادة وبيانِها، أو كِتمانها -على وَجه الخصوص- ومن الخير أو الشرِّ عُمومًا ﴿عَلِيمٌ﴾: محيط بكلِّ ذلك، فيُجازيكم به.

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله تعالى بحِفظ أموال عباده، حتى ذكرَ حُكم هذه الحالة الخاصَّة.

وفيها: احتياط الشريعة لقَطْعِ النِّزاع، ومَنْعِ حصول الشِّقاق في المستقبَل.

وفيها: عِناية الله بحِفظ حقوق العِباد؛ فدلَّهم على الكتابة والإشهاد والرَّهْن.

وفيها: أنَّه إذا وَثِقَ المتعامِلون بالمُداينة؛ لم يجب الرَّهْن ولا الإشهاد ولا الكتابة.

وفيها: وجوب أداء الأمانة، وتحريم الخِيانة.

وفيها: تحريم كِتمان الشَّهادة، وأنَّها من الكبائر. وقد أُضيفَ (الإثم) فيها إلى (القَلْب)، وهو أعظم من إثم الجوارح.

وفيها: أنَّ الإثم يكون بالتَّرْك، كما يكون بالفعل؛ فإنَّ كاتم الشَّهادة إثمُه بتَرْك أدائها، ومحلُّ هذه المعصية في الصدر والقَلْب.

وفيها: تعظيم قَدْر الدَّين، وتسمية الوفاء به (أمانة)؛ لما لهذه الكلمة من المهابة في النفوس.

وفيها: إثبات أعمال القُلُوب، ومنها أفعال حسَنة محمودة -كالإخلاص، والمحبَّة، والخَشية، والتوكُّل، وغيرها- ومنها أفعال مذمومة أثيمة -كالنِّفاق، والرِّياء، وسُوء الظَّنِّ، والعُجْب، والكِبْر، وكِتمان الشَّهادة، وغيرها-.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾:

ولـمَّا نهى تعالى عن كَتْم الشَّهادة، وهي ممَّا يخفَى في النفوس؛ أخبر عَزَّوَجَلَّ أنَّه يُحاسِب عباده على ما يُظْهِرونه ويُخْفونه؛ فقال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهذا ذِكرٌ لسَعَة مُلكه سبحانه بعد سَعَة عِلمه، فله ما فيهما خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ﴾: تُظهِروا ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ وقُلُوبِكم، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: تُسِرُّوا به وتكتُموه؛ ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يُؤاخِذْكم به ويُجازِكُم عليه إذا شاء.

ولذلك قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يتجاوز بفضْله، فيعفو ولا يُعاقِب. و(المغفرة): سَتْر الذنب مع التجاوُز عنه. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدْله. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يُعجِزه شيء.

وفي خَتْم الآية بالقُدرة: إشارةٌ إلى البَعْث الذي ستحدُث بعده المُحاسَبة، وإشارةٌ إلى قُدرة الله على مُحاسَبة هؤلاء العِباد كلِّهم، على أعمالهم الظاهرة والخفيَّة.

ولـمَّا نزلَت هذه الآية شقَّ ذلك على أصحاب النبيِّ ﷺ، واشتدَّ عليهم؛ فأنزل الله تعالى التخفيف.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لـمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فقالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا من الأَعْمالِ مَا نُطِيقُ -الصَّلاةَ والصِّيامَ والجِهادَ والصَّدَقَةَ- وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ، وَلا نُطِيقُهَا!

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ من قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ».

قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ.

فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القَوْمُ؛ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُموم مُلك الله تعالى، وسَعة عِلْمه.

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

وفيها: تحذير العبد من أن يُخفِي في قَلْبه ما لا يرضاه الله.

وفيها: إثبات مُحاسَبة الرَّبِّ للعبد.

وفيها: أنَّه لا يلزَم من المُحاسَبة المؤاخَذة والمعاقَبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، بعد قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

وفيها: المُحاسَبة على ما في النفوس.

وقد بيَّنت نصوصٌ أخرى وفصَّلت أنواعَ هذه المُحاسَبة:

فمنها: أنَّ الله تعالى لا يؤاخِذ على حديث النَّفْس المجرَّد والخواطر؛ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أو حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ»[١].

ومنها: ما جاء في «الصحيحين»[٢]، أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

ومنها: أنَّ مَن نوى العملَ السيِّءَ، وجزمَ به، وأصرَّ عليه، وعَمِلَ بالأسباب الموصِلة إليه، لكنَّه عجزَ عنه؛ فعليه مثلُ إثمِ فاعِله؛ لحديث: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[٣].

ولحديث: «وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦).

ثم ختمَ الله تعالى هذه السُّورَة العظيمة بآيتَين كريمتَين لهما خصائص جليلة وفضائل عظيمة؛ وهما قوله سبحانه:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥
لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن
نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾:

فمن فضائل هاتَين الآيتَين:

ما جاء في حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ من آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ؛ كَفَتَاهُ»(١).

قِيلَ: مَعْنَاهُ: كَفَتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ مِنَ الآفَاتِ، وَيَحْتَمِلُ مِنَ الجميع(٢).

ومنها: أنَّه لم يُعطها أحدٌ قبل نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ من بَيْتِ كَنْزٍ من تَحْتِ العَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»(٣).

ومنها: أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُعطيَ خواتيم سُورَة البقرة في السماء لـمَّا عُرج به(٤).

ومنها: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَي عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ البَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٧).
(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ٩١).
(٣) رواه أحمد (٢١٣٤٤)، وصحَّحه محققو المسند.
(٤) رواه مسلم (١٧٣).
(٥) رواه الترمذي (٢٨٨٢)، وهو في صحيح الجامع (١٧٩٩).

ومنها: أنَّهما لما نزلتا فُتِح بابٌ من السماء، فنزل منه مَلَكٌ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[1].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾:

وقد أخبرَ الله تعالى عن نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية، أنَّه قد آمنَ، وحُقَّ له أن يُؤمِن، كيف لا وهذه المعجِزات والآيات البيِّنات يسمَعُها ويراها تَتْرَى؟

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وهو: القرآن والسُّنَّة. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ كذلك تابعوه وآمنوا.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: بربوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته، وأفعالِه، وأحكامِه.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ الكرام المُطَهَّرين، المخلوقين من نور، الذين لا يَعصون الله، القائمينَ بتنفيذ أوامرِه وما كلَّفهم من المهام، ومنهم السُّفراء بينَ الله ورُسُلِه.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المُنزَّلةِ على الأنبياء، ومنها: التوراة، والإنجيل، والزَّبُور، وصُحُف إبراهيم، وخاتَمها: القرآن الكريم.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: جَمْع «رسول»، وهو: مَن أُوحِي إليه بشَرْعٍ وأُمِرَ بتبليغه. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ في الإيمان؛ بل نؤمن بهم كلِّهم، ولا نكْفُر ببعضٍ ونؤمن ببعضٍ -كما فعلَت اليهود والنصارى-.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الصَّحابة والمؤمنون: ﴿سَمِعۡنَا﴾ما أمَرْتَنا به، ونهيتَنا عنه، ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ أي: امتثَلْنا، بفِعْلِ المأمور، وتَرْكِ المحظور.

﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي: نسألُك مغفرة الذُّنوب. ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجع والمآب، يومَ يقوم الحساب.

---

(١) رواه مسلم (٨٠٦).

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات عُلُوِّ الله على خَلْقِه.

وفيها: أنَّ المؤمنين تَبَعٌ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَ الإيمانُ؛ زادَ الاتِّباع.

وفيها: فَضْل أركان الإيمان المذكورة.

وفيها: أنَّه يجب أن نؤمِن بالرُّسُل والكُتُب على وجه الإجمال، وإن لم نعرِف كلَّ التفاصيل.

وفيها: أنَّ من صفات المؤمنين: السمع والطاعة، وأنَّ السمع طريق العِلْم، ولا بُدَّ منه قبل الطاعة والامتِثال. فمِن الناس مَن يسمع ولا يُطيع؛ فهو مُعْرِض. ومنهم مَن لا يسمع ولا يطيع؛ فهو مُستكبِر. ومنهم مَن يسمع ويُطيع؛ وهم المؤمنون حقًّا.

وفيها: أنَّ مِن أهمِّ أدعية المؤمنين: طلَب المغفرة، وهو من جوامِع الكَلِم، وهو قولُهم: ﴿غُفْرَانَكَ﴾.

وفيها: التوسُّل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، من السمع والطاعة، قبل سؤاله ودُعائه، وهذا أدعَى لقَبول الدُّعاء والإجابة.

وفيها: تواضُع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لله تعالى؛ لـمَّا ذلَّت ألسِنَتُهم بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وفيها: أنَّ استِسلامَ العبد لله من أسباب ثناء الله عليه، والتخفيف عنه؛ لأنَّ الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لـمَّا استسلموا بقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ ذكرَ الله حالهم في هذه الآية، وأنزلَ التخفيف في الآية التي بعدها.

وفيها: مخالفة الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لبني إسرائيل، الذين قالوا: «سَمِعْنا وعَصَينا».

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُكَلَّفٌ بالإيمان بما أُنزِل إليه، وهذا يقتضي تحمُّلَه أعباءَ الرسالة، وقيامَه بالتبليغ والعمل.

وفيها: فَضْل هذه الأعمال العظيمة؛ وهي: الإيمان، والذُّل لله بالسمع والطاعة، والدُّعاء، وطلب المغفرة، والإقرار بالمصير إلى الله يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ المرجِع في الحُكم في الدُّنيا إلى الله تعالى وحدَه.

وفيها: أنَّ الإيمان بكلِّ رُكن من أركان الإيمان، يؤدِّي إلى الآخر.

وفيها: أنَّ العبد مهما امتثلَ لأمر الله؛ فلا يخلو من تقصير، ولذلك يحتاج إلى سؤال المغفرة.

وفيها: أنَّه ينبغي أن يكون المؤمنون على قَلْبٍ واحدٍ، ونَهْجٍ واحدٍ.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾:

ولـمَّا تمَّت الاستجابةُ من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأقرُّوا بالسمع والطاعة؛ أنزل الله تعالى التخفيف؛ فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يُكلِّف أحدًا فوق طاقته. و(التكليف): الإلزام بما فيه مشقَّة.

فكلُّ نفسٍ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ثواب ما عَمِلَته من خيرٍ، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي: وِزْر ما عَمِلَته من شرٍّ؛ فليس للإنسان إلَّا سعيُه، لا يأخذ أحدٌ أَجرَ أحدٍ، ولا يُعذَّبُ أحدٌ عن أحدٍ.

ثم أرشدَ الله تعالى عبادَه إلى سؤاله، وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي: لا تُعاقِبنا ﴿إِن نَّسِينَآ﴾: تَركْنا واجبًا أو فعَلْنا مُحرَّمًا، نِسيانًا. و(النِّسيان): ذُهول القَلْب عن معلوم، فيغيب عنه ما كان يعْلَمه من قبل.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ بفِعْل ما خالفَ الصوابَ جهلًا. و(الخطأ): هو ارتكاب المخالَفة بغير قصدٍ لها ولا تعمُّدٍ، كما يحدث في قَتْل الخطأ -مثلًا-.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي: الخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ أي: لا تُكلِّفنا بما يَشُقُّ علينا ويثقل، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ من بني إسرائيل وغيرِهم، الذين شدَّد الله عليهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٦).

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: ما لا قُدرة لنا على تحمُّله، من التكاليفِ، والمصائبِ والبلاءِ.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ فيما قصَّرنا فيه من حقِّك.

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذُنوبَنا، واسترُ مساوِئَنا.

﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ فيما يُستقبَل؛ حتى لا نقع في فِعْل محظور، أو تَرْك واجب.

ولذا؛ فالمُذنِب يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

أن يعفوَ الله عنه فيما بينه وبينه.

وأن يستُرَه بين عباده، فلا يَفْضَحه بذنبه بينهم.

وأن يَعْصِمَه من الوقوع في الذنب مرة أخرى.

﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ أي: ناصِرُنا، وحافِظُنا، ومتولِّي أُمُورنا؛ ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بتولِّيك لنا، انصُرْنا على مَن كفرَ بك، وأشركَ معك، وعادَى نبيَّك وأولياءَك، واكتُبْ لنا النصرَ التامَّ عليهم، بالحُجَّةِ واللِّسانِ، والسَّيف والسِّنَان.

وقد جاء في الحديث المتقدِّم: أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لـمَّا دَعوا الله بهذه الدَعوات؛ قال الله: «نَعَم»، وفي رواية: «قَدْ فَعَلْتُ»[1].

فلله الحَمْدُ على نِعمته وفَضْله، والحمد لله ربِّ العالمين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التكاليف الشرعيَّة وإن كان في بعضها مشقَّةٌ -كالوضوء في البَرْد، والقيام من النوم لصلاة الفجر، والجهاد وما فيه من القَتْل والجِراح وذهاب المال-؛ إلَّا أنَّ هذه التكاليف تقع في حُدود قُدرة البشر وطاقتهم، ويمكنهم القيام بها، فإذا عجَزُوا لأيِّ سبب شرعيٍّ معتبَرٍ؛ سقط عنهم هذا التكليف.

وفيها: أنَّ ما لا طاقة للإنسان به؛ فهو غيرُ مكلَّفٍ به، ولا مُؤاخَذٍ عليه، كهجوم خواطر الشَّر، أو الوساوس الشَّيطانيَّة؛ فإنَّه لا يَملِك منعَ وُرودِها، لكن عليه مُدافَعتُها.

---

(١) رواه مسلم (١٢٥).

وفيها: أنَّ كَسْبَ الإنسان للحسَنات وفِعْلَه الخيرَ، هو في الأصل سهلٌ وميسورٌ؛ لموافقته للشرع والفِطرة، ولِما يحصل للمُطيع من إعانة الله، ولكثرة طُرُقِ الخير، بل إنَّه يؤجَر حتى على نيِّته.

وأمَّا اكتساب المعصية: ففيه مُعالجة وتكلُّف؛ لأنَّه يَخْرِق الشريعة، ويُخالف الفِطرة، بل يترتَّب عليه أضرارٌ، وفيه فضيحته.

وفي الآية: أنَّ الله ينسَخ ما يشاء، ويفعل ما يُريد.

وفيها: أنَّ من رحمة الله بعباده: التخفيف، ونَسْخ حُكم الأثقل إلى الأخفِّ.

وفيها: أنَّه لا واجب مع العَجْز، ولا محرَّم مع القُدرة.

وفيها: استجابة الله لدُعاء المؤمنين، ورَفْع المؤاخذة عنهم بالنِّسيان والجَهْل والخطأ. لكن لا يلزم من ذلك سُقوط الطلَب. فلو نسيَ صلاةَ فريضةٍ مثلًا؛ فلا يسقُط عنه قضاؤها إذا تذكَّرها، مع كونه لا يأثَمُ على هذا النِّسيان.

وفيها: ضَعْف العبد وقصوره؛ فإنَّه ينسى ويجهل.

وفيها: رحمة الله بعباده المسلمين، بوَضْع الآصار والأغلال التي كانت على بني إسرائيل عنهم، فلم يُقبَل ممَّن عبدَ العِجْلَ إلَّا أن تكون توبتُهم قَتْلَ النفس، ولم يجوِّز الله لهم أخذَ الغنائم، ولا كانت رُخصة التيمُّم مشروعة لهم؛ فالحمد لله على نِعمته.

وفيها: حاجة الإنسان إلى عَفْو ربِّه؛ لأنَّه لا يخلو من التقصير.

وفيها: أنَّ الله وليُّ الذين آمنوا.

وفيها: أنَّ من نِعمة الله على عباده المؤمنين: أن ينصرَهم على القوم الكافرين.

انتهى تفسيرُ سُورَة البقرة

والحمدُ لله ربِّ العالمين

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وهي سُـورَة مدنيَّـة -بالإجماع-؛ لأنَّ صَدرَهـا إلى ثلاثٍ وثمانينَ آية منهـا نزلَت في وَفْد نصـارى نَجْران، وكان قُدومُهم المدينة في سـنة تِسْـعٍ من الهجـرة. ولأنَّ فيها بعضَ الآيات نزلَت في شأنِ غزوة أُحُد.

آياتها:

مائتا آية -عند جميع علماء العدَد-.

أسماؤها:

تُسمَّى «آل عمران»، و«الزَّهْراء».

مقاصد السُّورة:

المقصود من هذه السُّورَة: التوحيد.

من موضوعات السُّورَة:

توحيدُ الله.

وبيان ما أنزل من الكتب.

وبيان المُحكَم والمتشابِه.

وذَمُّ الكفَّار، واليهود.

وذَمُّ الدُّنيا، ومَدْح الآخرة، وبيان شرَفها.

ومَدْح الصَّحابة.

ومُناظَرة أهل الكتاب من النصارى، وخبر المُباهَلَة.

وقِصَّة ولادة مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وكَفالة نبيِّ الله زكريّا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لها، وولادة عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ومعجِزاته.

وفَضْل هذه الأُمَّة المحمَّديَّة.

والكلام عن غزوة أُحُد.

وفَضْل الشُّهَداء.

وفَضْل التفكُّر في خَلْق السماوات والأرض.

وأدعية المؤمنين.

والوصيَّة بالصَّبر والمرابطة.

وقد تميَّزت سُورَة آل عمران بالرَّدِّ على النصارى، كما تميَّزت سُورَة البقرة بالرَّدِّ على اليهود.

فضلها:

ثبتَ في الحديث أنَّها تُظِلُّ صاحبَها يومَ القيامة مع سُورَة «البقرة»؛ فقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عمران؛ فَإِنَّهُما تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُما غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُما غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِما»[1].

والمعنى: يأتي ثوابهما كأنَّه سَحابتان تُظِلَّان صاحبَها عن حرِّ الموقف، أَوْ كَأَنَّهما طائفتان من طَيْر واقفة على الصَّف، أو باسطة أجنحتها متصلًا بعضُها ببعض، تُدافِع وتُجادِل عن أصحابِهِما.

وفي حديثٍ آخر: «يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَآل عمران»[2].

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (٨٠٥).

﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾:

نزلَ مَطْلَع هذه السُّورَة إلى ثلاثٍ وثمانين آية منها في الرَّدِّ على نصارى نَجْران -كما تقدَّم- لـمَّا جاءوا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ، وأقامَ الحُجَّة عليهم، وناظرَهم.

وقوله تعالى في مَطْلَع السُّورَة ﴿الٓمٓ﴾: تقدَّم -في أول سُورَة «البقرة»- ذِكرُ الخلاف في هذه الأحرُف المقطَّعة في أوائل السُّوَر؛ فقيل: إنَّها ليست كلماتٍ، فلا معنى لها، لكن لها مَغْزَى؛ وهو: تَحدِّي كفَّار العرَب وغيرهم من المكذِّبين أنْ يأتوا بمِثل هذا القرآن -المركَّب من هذه الحروف- وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿ٱللَّهُ﴾ هو: المألوه المعبود حبًّا وتعظيمًا ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾: المتَّصف بالحياة الدائمة، الأول فليس قبلَه شيء، والآخِر فليس بعدَه شيء.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: القائِم بذاته فلا يحتاج إلى أحدٍ، والقائِم بتدبير خَلْقه فيحتاجُ إليه كلُّ أحدٍ، وهو المستغنِي عن غيره، يقوم بأمور السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وهو القائم على كلِّ شيء.

وقد جاء في فَضل هذه الآية عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُه: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفاتِحةِ آل عمران ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾»(١).

وفي الآيتَين من الفوائد:

التأكيد على حقيقة ألوهيَّة الله ووحدانيَّته سبحانه، المنافية لعقيدة التثليث عند النصارى.

وفيها: استغناء الله عن خَلْقه.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى في ادِّعائهم الولدَ له؛ إذ إنَّه لا يحتاجه عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو القيُّوم سبحانه، والكلُّ مفتقِرٌ إليه.

وفيها: أنَّ الخَلْق يفتقِرون إلى الله في الإيجاد والإمداد.

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٨٠).

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾:

ولـمَّا أثبتَ الله وحدانيَّته؛ أثبتَ نبوَّة محمَّد ﷺ؛ فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمَّد ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، مفرَّقًا بحَسَب الوقائع ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: فلا شكَّ فيه ولا رَيْبَ، عدلٌ في أحكامه، وصِدقٌ في أخباره، أنزلَه بالبراهين القاطعة والحُجَج الساطعة ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: مُوافِقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: لِـما تقدَّمه من الكتب الإلهيَّة، وهي تصدِّقه أيضًا؛ بما أخبرَت به، وبشَّرت بنزوله.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على الكليم موسى بن عِمران عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أنزلَه على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: يَهْديانِ من الضلالة في زمانِها -زمانِ بني إسرائيل-.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو القرآن، الفارق بينَ الهدى والضلال، والحقِّ والباطل، المعجِز في ذاته. وأعاد ذِكرَه؛ تأكيدًا لنزوله من عنده، وبيانًا لصفة أخرى له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا، وكذَّبوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ السابقة في الكتب، واللاحقة في القرآن، وكذلك المعجِزات. جزاؤهم أنَّ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بالنَّار يومَ القيامة. والقَتْل، والأَسْر، والغَلَبة، والجِزْية، والقوارِع، في الدُّنيا.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: مَنيع الجناب، لا يُغلَب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممَّن كذَّب وتولَّى.

وفي الآيتَين من الفوائد:

إثبات عُلُوِّ الله على خَلْقه؛ لأنَّ التنزيل لا يكون إلَّا من أعلى إلى أسفل.

وفيها: تأنيس النبيِّ ﷺ بالوحي، وأنَّه كان يتغشَّاه، كما يُفيد قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾.

وفيها: فَضْل القرآن الكريم على الكتب السابقة؛ لأنَّ الله تعالى أنزلَه مفرَّقًا بحَسَب الوقائع والأحداث، وأنزل الكتب السابقة جملةً واحدةً، وفي هذا مزيدُ مُراعاةٍ وعِنايةٍ لمن كان في وقتِ التنزيل -وهم: النبيُّ ﷺ وأصحابه-.

وفيها: أنَّ مَن أراد الحقَّ؛ فسيَجِده في هذا الكتاب.

وفيها: أنَّ كتب الله تتشابَهُ، ويؤيِّد بعضُها بعضًا، وإن تفاوتَتْ في الرُّتبة والفَضْل.

وفيها: رحمة الله بالبشر، وإرادة الهداية للخَلْق.

وفيها: إنذار المكذِّبين، ووَعْظهم بقوَّة الله وانتقامه.

وفيها: أنَّ المكذِّب ببعض الكتب -أو ببعض ما فيها- مكذِّب بالجميع، مهدَّد بالعقوبة في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: كَشْف تناقُض أهل الكتاب، وإلزامهم باتِّباع القرآن.

وفيها: الإشارة إلى نزول القرآن جملةً واحدةً إلى السماء الدُّنيا؛ كما يُفيد قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، ثم نزوله منجَّمًا مفرَّقًا بحَسَب الوقائع والأحداث؛ كما يُفيد قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾:

ثم ذكر الله تعالى سَعَة عِلْمه وإحاطته، وأنَّه يعلم كلَّ شيء، وهذا من مُقتضيات قيوميَّته؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ﴾: لا يَغيب ولا يَستَتِر ﴿شَيْءٌ﴾ صغير أو كبير، قليل أو كثير ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ونواحيها، ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأرجائها. وعِلمه تعالى أوسع ممَّا في السماوات والأرض.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كمال عِلْمه عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ المخلوقين تخفَى عليهم أمورٌ كثيرة، لا تخفَى عليه سبحانه.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم ما يصلُح لخَلْقه، فينزِّل عليهم ما فيه صلاحُهم.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم مَن آمن وكفرَ، ويَعْلَم خائنة الأعيُن وما تُخْفِي الصدور، ويَعْلَم ما في البرِّ والبحر، وما في ظُلُمات الأرض.

وفيها: رَدٌّ على النصارى؛ من جهة أنَّ هذا العِلْم الكامل ليس لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾:

ثم ذكرَ تعالى مثالًا لعِلْمه وقُدرته؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يخلُقكم في أرحام أُمَّهاتكم ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾: على صُوَر مختلفة، وأطوار متعدِّدة، من نُطْفةٍ إلى عَلَقةٍ إلى مُضْغةٍ -فما فوق ذلك- ومن ذكورة إلى أنوثة، وطول وقِصَر، وبياض وسواد، وكمال ونُقصان، وحُسن وقُبح، وشقاء وسعادة.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلْكه، فلا يُغلَب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خَلْقه وشَرْعه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشارة إلى بُطلان ما ادَّعته النصارى من ألوهيَّة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ الله صوَّره في رَحِم أُمِّه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وخلقَه من غير أب، وهذا دليل على قُدرته تعالى في خَلْقه، لا أنَّه ابنُ الله، بل هو عبدٌ -تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا-.

وفي الآية: كمال قُدرته وعِلْمه عَزَّ وَجَلَّ، وإحياؤه للأجِنَّة.

وفيها: أنَّ عِلْم عيسى ببعض الغيوب، وإحياءَه لبعض الموتى؛ لم يكن إلَّا عن تعليمٍ من الله ومشيئته، وإذْنٍ منه سبحانه بذلك وتمكين.

وفيها: رَدٌّ على الطَّبَعيِّين، الذين يقولون: إنَّ الطبيعة تفعل بنفسها وتُدبِّر وتخلُق من دون الله! وهذا باطلٌ؛ فليست الطبيعة هي التي تُصَوِّر ما في الأرحام، ولكنَّ الله هو المُصَوِّر سبحانه.

وفيها: دليلٌ على عِلْم الله بالخفيَّات، ومن ذلك: ما يخفى في الرَّحِم، وأَجَلُ الجنين، وعَمَلُه، وشقيٌّ هو أم سعيد.

وفيها -مع التي قبلها-: بيانُ بعضِ مراتب القدَر، وهي: العِلْم، والمشيئة، والخَلْق، والرابعة هي: الكتابة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾:

ولـمَّا كان أهل الزَّيغ من النصارى وغيرهم، يُوردون -في الاحتجاج على باطِلهم- بعضَ آيات القرآن التي يخفَى معناها ويلتبِس على الكثير؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ﴾ -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآنَ العظيمَ، منقسِمًا إلى قِسمَين:

﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أي: واضِحات الدلالة، لا يخفى معناها على أحد. و(المُحكَم): ما عُرِفَ المراد منه، ولا يحتمِل إلَّا وجهًا واحدًا، ولا يحتاج إلى بيان. فلا شُبهة فيه ولا إشكال، مثل: الحلال والحرام، والأحكام، والحدود، والفرائض، والوَعْد، والوَعيد، والقَصص، والأمثال، والناسخ، وكلُّ ما يجب العمل به.

وهذه الآيات المُحكَمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: فهُنَّ الأصل والعُمدة، يُرجَع إليها عند تفسير الكتاب. وقيل: مكتوبات من جميع الكتب، قد أجمعَ عليهنَّ أهلُ الأديان. وهذا القِسْم -وهو المُحكَمات- أكثر القرآن.

والقِسْم الثاني: ما ذكرَه الله تعالى بقوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أي: تحتمل عِدَّة معانٍ، فيخفى على كثير من الناس: أيُّ المعاني هو المقصود، أو يلتبِس معناها على كثير من الأذهان؛ لكون دلالتها مُجمَلة، أو يتبادر إلى بعض الأذهان غيرُ المراد منها.

وهي أيضًا: ما وقع الخلافُ فيه؛ لاشتباه معناه، وغموضِ المقصود منه.

وقيل: هي التي تحتاج إلى غيرها من المُحكَمات لبيانها.

وقيل: المُتشابِهات: هي المنسوخ، الذي لا يُعمَل به.

وقيل: ما استأثرَ الله بعِلْمه، فلا يعلمه غيرُه، مثل: وقت قيام الساعة، وكيفيَّة صفات الله، وحقيقة الرُّوح، ونحو ذلك.

وقيل: هو الذي تكرَّرت ألفاظُه.

وقيل: الذي يُشْبِه بعضُه بعضًا.

وأشهر الأقوال هو الأول، وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التشابُه أمرٌ نِسْبيٌّ؛ فقد يتشابَه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره»(١).

ثم بيَّن الله تعالى موقفَ أهلِ الزَّيغ وأهلِ الحقِّ من المُتشابِهات؛ فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: مَيلٌ عن الحقِّ إلى الباطل، واتِّباعٌ للهوى؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي: يتركون المُحكَم، ويأخذون بالمُتشابِه، ليُنزِّلوه على مقاصدهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، مستَغِلِّين جهلَ كثيرٍ من الناس بهذا المُتشابِهِ، والغموضِ الذي فيه، ويستَعمِلون المُتشابِه في تشكيك الناس في المُحْكمات؛ ولذا قال: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: لِيفتِنوا الناس عن دينهم، وليُزَيِّنوا لهم البِدعة، ولِيلْبِسوا الحقَّ بالباطل، ويَبْتغوا الشُّبُهات.

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: يريدون تفسيرَه على غير مُراد الله، بما يُوافِق أهواءَهم وعقائدَهم الفاسدة.

وقد حذَّرنا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منهم، لـمَّا تلا هذه الآية؛ فقال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ»(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى جعل المُتشابِه في القرآن للابتلاء والامتحان. فلو قال قائل: ولماذا لم يكن القرآن كُلُّه مُحْكمًا؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى يَبتلي عباده بهذا المُتشابِه؛ ليظهَر المؤمنُ ممَّن يَزيغ، ويظهر قدرُ العلماء ومنزلتُهم في معرفة المُتشابِه.

وفي الآية: التحذير من أهل البِدَع والمنافِقين، الذين في قُلُوبِهم زَيغ، ويُريدون تفريقَ الأُمَّة، والتشويشَ على المسلمين، وتشتيتَ الأوضاع الحقَّة؛ فيتَّبِعون البِدعة، ويبحثون عمَّا يُؤيِّدها من المُتشابِه من الكتاب والسُّنَّة، وينتَهِزون خفاءَه على كثير من الناس، واحتمالَ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

ألفاظه لعِدَّة وجوهٍ ومعانٍ؛ فيؤسِّسون بِدَعَهم؛ ابتغاءَ الفِتنةِ في الأُمَّة، وإضلالِ المسلمين عن الحقِّ، وتحريفِ معاني القرآن والسُّنَّة.

وفيها: التحذير من تفسير كلام الله على غير مُراده عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: تأويل المُتشابِه. و(التأويل) يُطلَق على معنيَيْن:

الأول: حقيقة الشيء وكُنْهه، وما يَؤول إليه. مثل: كيفيَّة صفات الله تعالى، وكيفيَّة ما في الجنَّة وما في النَّار. وهذا النوع من التأويل هو المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].

والمعنى الثاني: هو التفسير والإيضاح، ومعرفة المعنى والتعبير عنه. وهو المُراد بقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، والمذكور في دُعاء النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[1].

ويُكثِر من استعمالِه بهذا المعنى شيخُ المفسِّرين الإمامُ الطبَريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فيقول كثيرًا في «تفسيره»: «القول في تأويل قوله تعالى...»، «اختلف أهلُ التأويل في كذا...».

والتأويل على المعنى الأول: لا يَعْلَمه إلَّا الله تعالى؛ فلا يعلَمه الراسِخون في العِلْم -فَضْلًا عن غيرهم من البشر-. وعلى هذا المعنى؛ فيجب الوقفُ في التلاوة على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وتكون (الواو) في قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ابتدائيَّة على معنى الاستئناف، و(الراسِخون) مُبتدأ.

وعلى المعنى الثاني؛ فلا وَقْفَ إلَّا في آخر الآية، وتكون (الواو) عاطفةً، والمعنى: «ولا يعلم تأويلَه إلَّا الله والراسِخون في العِلْم»؛ لأنَّ (الرَّاسِخين) يَعْلَمون معنى المُتشابِه، ويَرُدُّونه إلى المُحْكَم، ولا يكون ذلك ممَّا اختصَّ الله بعِلْمه.

فقوله -على المعنى الثاني- ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ أي: يَعْلَمونه أيضًا. و(الراسِخ): هو

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٨٩). وأصله في البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بدون الزِّيادة في آخره -التي هي محلُّ الشاهد-.

الـذي ثبتَ في العِلْم وتمكَّن منه. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمُتشـابِه، على مُراد الله به. وهذا على القولَين، سواءً عَلِمُوا التأويل ومعناه، أم لم يَعْلَموا حقيقتَه وكُنهَه.

﴿كُلٌّ﴾ من المُحكَم والمتشابِه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ نزلَ، وأُوتِيناه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتَّعِـظ، ويقبَـل، وينتَفِع ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وهـم: أصحاب العقولِ السليمة والقُلُوبِ الحيَّة؛ فهم لُبُّ العِلْم، وخلاصة بني آدم.

وعلى أحـد القولَـين في الآية يُفهَـم معنى قولِ ابـن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التفسـير على أربعة أَوْجُـهٍ: وَجْـه تعرِفـه العرَب من كلامهـا، وتفسـير لا يُعذَر أحـدٌ بجهالته، وتفسـير يَعْلَمه العلماء، وتفسير لا يَعْلَمه إلَّا الله»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من مثيري الشُّبُهات، وأنَّ من طُرُقهم: أن يضرِبوا كلامَ الله بعضَه ببعض.

وفيهـا: أنَّ على طالب العِلْم العِناية بالمُحكَـمات، وهي: الأصول والثوابت التي يُرجع إليها عند التشابُه، فيُفَسَّر بها المُتشابِه، ويزول بها الغموض.

وفيها: أنَّ من صفات أهل البِدَع: تَرْك المُحكَم والإعراض عنه.

وفيها: أنَّ أهل العِلْم يؤمنون بالقرآن كلِّه، سواءً عرَفوا معناه، أو لم يعرِفوا.

وفيها: أنَّ أهل العِلْم درجات؛ فمنهم المبتدئ، ومنهم المتوسِّط، ومنهم الراسِخ.

وفيها: أنَّ قوَّة الإيمان تقود إلى الرُّسوخ في العِلْم.

وفيها: أنَّ بعض الناس لا ينتَفِع بكلام الله تعالى.

وفيها: إرشـادٌ إلى طريقة الرَّدِّ على النصارى وغيرِهم من أهل البِدَع، بالاحتجاج عليهم بالمُحكَم، إذا أوردوا الإشكالات من الشُّبُهات.

وفيها: أنَّ من الحِكَم في وجود المُتشابِهات في القرآن: امتحان الإيمان، وابتلاء الله لعباده؛

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

لينظر كيف يعمَلون، وهل يؤمنون، أو يتشكَّكون ويُزَيِّفون. وفيه مجالٌ لإعمال أهل العِلْم عقولَهم، في كَشْفِ وتجلية غامِضِه، ومعرفةِ معناه؛ فيتميَّزون عن غيرهم ممَّن لا يستطيع ذلك، وتظهَر أقدارُهم، ويرْتَفِعون عند الله درجات.

وفيها: أنَّ كلام الله لا يمكن أن يتناقض، ولا أن يُخالِف بعضُه بعضًا؛ لأنَّه مِن عند الحكيم الخبير العليم. والتعارُض بين النصوص الشرعيَّة -قرآنًا وسُنَّة- إنَّما هو تعارُضٌ ظاهريٌّ، بحَسَب عقول البشر وما يبدو لها؛ وإلَّا، فليس هناك تعارُضٌ على الحقيقة.

وفي الآية: أنَّ أهل البِدعة يُفَسِّرون القرآن بما يُوافِق أهواءَهم؛ ليكثُر أتباعُهم، ويستَنِدوا على ذلك في دَعوتهم.

وفيها: أنَّه لا يجوز الكلام في التفسير بلا عِلْم، ولا ابتغاءُ تأويلِه وتفسيرِه ممَّن ليس أهلًا للتأويل؛ فلا يجوز أن يخوض في التفسير مَن لا يُحْسِنه.

وفيها: أنَّه لا يجوز الخوضُ في تفسير ما اختصَّ الله بعِلْمه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾:

ثم أخبرَ تعالى عن هؤلاء الراسخِين في العِلْم، أنَّهم -مع إيمانهم بكلامِه مُحكَمه ومُتشابِهه- فإنَّهم يَدْعُون ربَّهم بالثباتِ على دينه، وعدمِ الزَّيغ والانحراف عنه، فيقولون في دُعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ و(الزَّيغ): هو المَيل. أي: لا تُمِل قُلُوبَنا عن دينِك والحقِّ والهدى، ولا تجعَلْنا ممَّن يَضِلُّون بالمُتشابه، ممَّن في قُلُوبهم زَيغ.

وقوله ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: وفَّقتنا لاتِّباعِ دينك، والإيمانِ بالقرآن مُحكَمه ومُتشابِهه.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: أعطِنا من عندك، بفَضْلك وكَرمك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبِّت بها قُلُوبنا على الحقِّ والإيمانِ بكتابك، وتَزيدنا بها إيمانًا وهُدى. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾: كثير الهِبات والعَطايا، بلا عِوَض ولا مُقابِل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الزَّيغ والهداية من عنده تعالى؛ ولذلك كان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يا مُقَلِّب

القُلُوبِ؛ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فقيل: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ؛ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[١]، ودعا ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[٢].

وفيها: سؤال الله التثبيتَ على الهداية، بعد سؤال الهداية نفسِها، كما يفعل المؤمنون.

وفيها: سؤالُ الله الخيرَ، والاستِعاذةُ به من ضِدِّه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾:

ولا يزال هؤلاء المؤمنون يَدْعُون ربَّهم، متوسِّلين إليه بأفعاله -بعد أسمائه- وربوبيَّته لهم؛ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ستَجْمَع بينَ خَلْقك يوم مَعادهم.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَجْمَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيُنْفِذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ»[٣].

وهذا جمعٌ للجزاء والحساب، فيَحْمِل هذا الدُّعاء معنى: جازِنا في ذلك اليوم -يا رَبَّنا- بأحسنِ الجزاء، وحاسِبنا حسابًا يسيرًا.

﴿لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شكَّ في وقوعه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾؛ فالله تعالى سيَفي بما وعدَ، ولا بُدَّ.

وهذا من بقيَّة كلام الراسِخين في العِلْم، فغايتُهم من عِلْمِهم ودُعائِهم: النجاة يومَ القيامة ويومَ الجَمْع، والمُجازاة بأحسنِ الجزاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خشية الراسِخين في العِلْم لربِّهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤).

وفيها: أنَّ العِلْم بالقرآن يدفَع صاحبَه إلى السعي للنَّجاة يوم القيامة.

وفيها: حُسن دُعاء أهل العِلْم.

وفيها -مع الآيات السابقة-: أنَّ من صفات الراسِخين في العِلْم: الاتِّصاف بالعِلْم المحقِّق، الذي قادَهم إلى الإيمانِ بجميع القرآن، وسؤالِ الله العافية من الزَّيغ، واعترافِهم بمِنَّة الله عليهم بالهداية، وسؤالِهم رحمتَه، ودُعائِهم بأسمائه وصفاته، وخَشيتِهم من يوم وعيدِه، وتيقُّنِهم بوقوعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ تعالى سببَ ثباتِ عباده الراسِخين في العِلْم -بإيمانهم ودُعائهم-؛ ذكرَ الكافرين وسببَ كُفرهم، وهو: اغترارُهم بهذه الحياة الدُّنيا، وما لهم من المال والبنين؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات الله، وكذَّبوا رُسُلَه، وخالَفوا كتابه. وهذا يشمل: كفَّار العرَب، وكفَّار أهل الكتاب، وكلَّ كافر. فهؤلاء جميعًا ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لن تدفعَ عنهم، ولن تُنَجِّيهم ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ التي يجمعونها، ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ الذين يتناصَرون ويتفاخَرون بهم، ويعتمِدون عليهم في النوازل ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من بأسه وعذابه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الكفَرة ﴿هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: حَطَبها الذي تُسعَّر وتُوقَد به. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقد أخبرَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أُناسٍ من هذه الأُمَّة بأنَّهم سيكونون وقودَ النَّار؛ فقال: «لَيَظْهَرَنَّ الإِيمَانُ حَتَّى يَرُدَّ الكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ، وَلَيُخَاضُ البِحَارُ بِالإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ القُرْآنَ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ، وَعَلِمْنَا، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟».

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله. وَمَنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»[1].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٠١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٠٣)، وحسَّنه لغيره الألبانيُّ في صحيح الترغيب (١٣٥).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تفنيد دعوى الكافرين بأنَّ أموالهم وأولادهم تُقرِّبهم عند الله، وتنفعهم في الآخرة، وتمنع عنهم العذاب.

وفيها: فساد عَقل الكفَّار وسُوء رأيهم، حيث قاسُوا الآخرةَ على الدُّنيا، وظنُّوا أنَّ الأموال والأولاد ستدفَع عنهم عذابَ الله، وتُنَجِّيهم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى أنَّ حال هؤلاء الكافرين، إذا استمرُّوا في كُفرهم، أنَّهم سيهلِكون كما أهلكَ الله الكفَّار من قبلهم، ثم يصيرون إلى عذاب النَّار يومَ القيامة؛ فقال تعالى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: شأن هؤلاء الكَفَرة في تكذيبهم محمَّدًا ﷺ كشأنِ آل فرعون، وحالِهم وصنيعِهم، وما جرى لهم من الهلاك، وكذلك الأُمَم الأخرى من قبلهم -كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشُعَيب- كلُّهم كذَّبوا فأهلكَهم الله في الدُّنيا، ثم يصيرون إلى عذاب النَّار يوم القيامة.

فهؤلاء ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التي أنزلناها على أنبيائنا، ومعجزاتِنا الدالَّةِ على صِدقِ رُسُلنا. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أهلكَهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسببَها، وعلى رأسها: كُفرُهم، وتكذيبُهم، وارتكابُهم المُوبِقات -كفاحشة قوم لوط، وتطفيف المكيال والميزان في قوم شُعَيب، وغيرها-.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: أليم العذاب، شديد البَطْش، لا يفوته شيء، ولا يخشى أحدًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاتِّعاظ بما حصل للأُمَم السابقة.

وفيها: ذِكْر هلاك الأشدِّ والأكثر قوَّة ومالًا ونفرًا؛ ليُعلَم أنَّ القُدرة على مَن بعدهم -ممَّن هو أقلُّ منهم- تكون من باب أولى.

وفيها: أنَّ الذُّنوب سَبَبٌ لبَطْشِ الله وأَخذِه.

وفيها: موعظةٌ للعُصاة والمكذِّبين، ببيان شِدَّة عقاب الله في الدُّنيا قبل الآخرة.

وفيها: حِلْم الله تعالى؛ فإنَّه لم يأخذ الكفَّار إلَّا بعد أن كان دَأْبهم ونشاطهم وعادتهم الكُفرَ والتكذيبَ، والوقوعَ في الذُّنوب والمُوبِقات.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾:

ثم تهدَّد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الكفَّار، بالعقاب في الدُّنيا والآخرة؛ فقال: ﴿قُل﴾ يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: للكافرين، المُكذِّبين لك، من اليهود ومُشرِكي مكة وغيرهم: ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾ أي: سيَغْلِبكم المسلمون عن قريب في الدُّنيا. وقد صدقَ الله وعدَه، وتحقَّقَت هذه الغَلبة في حياة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وتحقَّقت للمؤمنين بعدَه.

وقال بعضُ المفسِّرين: هذا التهديد لليهود خاصَّة.

وقد قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: لـمَّا أصابَ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من أهل بَدْر ما أصابَ، ورجعَ إلى المدينة، جمعَ اليهودَ في سُوق بني قَيْنُقاع، وقال: «يا معشر يهودَ، أسلِموا قبل أن يُصيبكم الله بما أصابَ قُريشًا»، فقالوا: يا محمَّد، لا يَغُرَّنَّك من نفسِك أن قتلتَ نفرًا من قُريش، كانوا أغمارًا لا يعرِفون القتال! إنَّك -والله- لو قاتلْتَنا لعرَفتَ أنَّا نحن الناس، وأنَّك لم تلقَ مثلَنا! فأنزل الله في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، إلى قوله: ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[1].

ثم بيَّن الله تعالى عقابهم في الآخرة؛ فقال: ﴿وَتُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون وتُساقون يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ (المِهاد): هو الفِراش. فبئسَما مَهَّدتُم لأنفُسِكم، وبئسَما أوردتموها من العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

البِشارة للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ -والمؤمنين في عَهْده وبعدَه- بغَلَبَتهم على الكافرين في الدُّنيا.

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي (١٨٦٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

وفيها: أنَّ انتقام الله من الكفَّار يشمل الدُّنيا والآخرة.

وفيها: أنَّ مِن عذاب النَّار أن يكون فِراشُ الكافر منها، بل وغِطاؤه أيضًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وفيها: وَعْدٌ من الله تعالى للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

ووَعْده تعالى لا يتخلَّف؛ فقد انتصرَ المسلمون على اليهود من بني قُرَيظة، وبني قَيْنُقاع، وبني النَّضير، وفُتِحَت خيبر. وانتصروا على مُشركي العَرَب؛ كما حصلَ في بَدْرٍ وأُحُدٍ وغيرِها من الغَزَوات.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾:

ثم خاطبَ الله تعالى اليهودَ؛ ليعتبِروا بما أصاب مُشركي قُرَيش من الهزيمة؛ فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ -يا معشر اليهود- ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامةٌ عظيمةٌ على صِدق الله في وَعْده لنبيِّه، بالنصر عليكم، وأنَّكم ستُغلَبون.

﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ فِرْقتَين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ أي: اجتمعتَا في يَوْم بَدْر للقتال:

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم: النبيُّ ﷺ وأصحابه، فقد كانوا يُقاتِلون لإعلاء كلمة الله، وكان عدَدُهم ثلاثَمائة وثلاثة عشر رجلًا.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ بالله ورسوله، وهم: مُشرِكو قُرَيش، وكان عدَدُهم نحوًا من ألف.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يعني: يرى المشركون المُسلِمين مثلَيْهم؛ ذلك أنَّ المُشركين عند التحامهم بالمسلمين رَأَوا عددَ المسلمين ضِعفَ عددِهم؛ فكثَّر الله المسلمين في أعيُن المشرِكين، فرأَوهم نحوًا من ألفين؛ فحصلَ الذُّعْرُ والهلَع في نفوسِهم، وكان هذا من أسباب هزيمتهم. وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية.

وقيل: كان المسلمون يرَون المُشرِكين مثلَي عدَدِ أنفُسِهم؛ فقلَّلهم الله تعالى في أعيُنهم

حتى رأَوهم ستَّمائة وستَّةً وعشرين، ثم قلَّلهم الله في أعيُنهم في حالةٍ أخرى، حتى رأَوهُم مثل عددِ أنفُسِهم.

فإن قيل: فما وَجْه الجَمْع بينَ التأويل الأول، وقولِ الله تعالى في سُورَة «الأنفال» -في غزوة بَدْر-: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى قلَّل المسلمين في أعيُن المشرِكين قبل القتال، ليجترئ المشرِكون عليهم ولا ينصرِفوا، فلمَّا أخذوا في القتال كثَّرهم الله في أعيُن المشرِكين -ليَجْبُنوا- وقلَّلهم في أعيُن المؤمنين -ليجترِئوا-؛ فهُزِمَ المشرِكون بفَضْل الله وعَونه.

وقوله ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي: رؤية ظاهِرة محقَّقة، ليست وَهْمًا ولا خيالًا.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ ويقوِّي ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ وعَونه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عبادِه وأهلِ طاعته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النصرِ لمحمَّد ﷺ وأصحابِه يومَ بدر -وهم قِلَّة- على المشرِكين -وهم كثرة- ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: عِظَة عظيمة وآية ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهم: أصحاب العقول السليمة، والأفهام المستقيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

كَسْر غُرُور اليهود، بتذكيرهم بنَصْر النبيِّ ﷺ وأصحابِه على المشرِكين.

وفيها: وَعظُ الكفَّار بمصائر أشباهِهم.

وفيها: النِّعمة العظيمة من الله تعالى على المسلمين، وأنَّه تعالى اصطفاهم وخصَّهم بالنصر.

وفيها: سبَبٌ عجيبٌ من أسباب النصر؛ وهو: التكثير والتقليل، وأنَّ الله تعالى يقدِّر هذا تارةً، ويقدِّر هذا أخرى، بحَسَب مصلحة أوليائه.

وفيها: عذاب الكفَّار في الدُّنيا قبل الآخرة.

وفيها: أنَّ عدَد الجيش ليس مِقياسًا للنصر والهزيمة؛ بل العِبرة بالإيمان والكُفر، واليقين والشَّكّ.

وفيها: أنَّ العاقل هو مَن اعتبرَ بغيره، ولا يعتبِر إلَّا أصحابُ البصيرة.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾:

ولـمَّا كان اليهود قد اغترُّوا بالقوَّة والكثرة والمال والسِّلاح؛ وظنُّوا أنَّهم سينتصِرون بهذا؛ بيَّن الله تعالى أنَّ هذه الأشياء من متاع الدُّنيا الزائلة، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ فقال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: جُعِلَت هذه الأشياء السبعة -الآتية- مُزيَّنة في قُلُوبهم. والمُزيِّن هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ ابتلاءً واختبارًا للعباد. والمعنى: أنَّها جعلَت القُلُوب متعلِّقة بها.

وقوله ﴿ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ وهي جمع «شَهْوة»، و(الشَّهْوة): تَوَقان النفس إلى الشيء، ومَيلُها إليه. والمراد: الأشياء المُشتهاة. وقد انهمَكَ الناس في محبة هذه السَّبعة المذكورة.

ثم بيَّن تعالى هذه الشَّهَوات؛ فقال: ﴿ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، وبدأ بالنِّساء؛ لأنَّ الفِتنة بهنَّ أشدُّ، وهُنَّ حبائلُ الشَّيطان؛ ففي الحديث: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١).

ويدخل فيهنَّ: الزوجات والإماء.

وليس في الآية ذمٌّ للنِّساء؛ فمَن اتخذ المرأة الصالحة إعفافًا لنفسه، وابتغاءً لكثرة الولد؛ كان مأجورًا، وهذا مطلوبٌ مرغَّبٌ فيه؛ كما في الحديث: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»(٢).

أما إذا كان فيها شُغلٌ عن الطاعة وأمور الآخرة، أو كان بطريق الحرام؛ فهذا هو المذموم.

﴿ وَٱلْبَنِينَ ﴾ خصَّهم بالذِّكر دون الإناث؛ لشِدَّة المَيل إليهم، والفِتنة بهم أشدُّ؛ فهم زينةٌ وفِتنة تؤدِّي إلى التفاخُر والبغي والتكبُّر. والأولاد عُمومًا فِتنة؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧).

أمَّـا إذا كان حُبُّ البنين لأجل تكثيرِ النَّسْـل، وتكثيرِ أُمَّـة النبي ﷺ، ممَّن يعبد الله وحـدَه لا شريك له، ولأجل المنفعـة في الحياة وبعد الممات؛ فهذا ممدوح؛ ففي الحديث: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[١].

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ أي: الأمـوال الكثيـرة والكنـوز الوفيرة. و(القِنطـار): هو المال الجزيـل بعضُـه على بعض. وقيل: هو ألـف دينار من الذهب، وقيل: اثنـا عشر ألفًا، وقيل: أربعون ألفًا، وقيل غير ذلك.

ثم بيَّن نوعَين من الأموال المُشـتهاة؛ فقال: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وخصَّ هذَين الجوهرَين؛ لتعلُّق القُلُوب بهما أكثر من غيرهما.

وحُـبُّ المـال إذا كان للنَّفقة في القُرُبات، وصِلَة الأرحام، ووجـوه البرِّ والطاعات؛ كان محمودًا يُثاب عليه. وإن كان للفخر والخُيلاء، والتكبُّر والتجبُّر على الضُّعفاء؛ كان مذمومًا؛ ففـي الحديـث: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَـةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالًا وَعِلْمًا، فَهُـوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيـهِ رَحِمَـهُ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا؛ فَهَـذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ... وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَـالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ...» الحديثَ[٢].

ثـم ذكرَ الله تعالى نوعًا آخر من الشَّـهوات؛ فقال: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: السَّـارِحة بالرَّعي، والمعلَّمة، الحِسـان. سُـمِّيت (خيلًا)؛ لأنها تختال في مِشـيتها، أو لأن صاحبها يُبتلَى بالخُيلاء بسببَها.

فمَـن اتخذَها ليُجاهِد عليها؛ فهو مأجور. ومـن اتخذَها فخرًا وخُيَلاء؛ فهو مأزور، ومَن اتخذَها لتتناسَـل عندَه، فيبيعها ويتعفَّف من كَسْبها، ولم ينسَ حقَّ الله في رقابها؛ فهو مستور؛ كما جاء معناه في الحديث[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٣) رواه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧).

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ هي المواشي، من الإبل، والبقر، والغنَم، وهي جمع «نَعَم». وفيها المركَب، والمطعَم، والزِّينة.

﴿وَٱلۡحَرۡثِ﴾: الأرض المتَّخذة للزِّراعة والغِراس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من الأصناف السبعة المتقدِّمة ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ما يتنعَّم به أهلُها، ثم يذهب ويفنَى. وسُمِّيت (دُنيا)؛ لدُنُوِّ مَرتبتِها بالنسبة للآخرة.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: المرجِع الحسَن الدائم في الآخرة، وهو الجنَّة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حِكمة لله تعالى بابتلاء الناس، بتزيين حُبِّ الشَّهَوات في قُلُوبهم، ابتلاءً لهم. ولولا هذا لم تقُم الحُجَّة، ولم يتبيَّن للناس مَن يستجيب ويطيع ممَّن يأبَى ويعصِي.

وفيها: أنَّ هذه السبعة المذكورة في الآية، ليست مذمومةً بإطلاق؛ وإنَّما مَدْحُها وذَمُّها بحَسَب ما استُعمِلَت فيه، وبحَسَب مَوقِعها من القَلْب.

وفيها: تقديم الأشدِّ فالأشدّ من الفِتنة في الذِّكر.

وفيها: أنَّ الذهب والفِضَّة أشدُّ خطرًا من بقيَّة الأموال؛ لعِظَم الافتتان بهما، وتعلُّق القُلُوب بهما أكثر من غيرهما.

وفيها: أنَّ المال كلَّما كثُر، ازدادَت الفِتنة به.

وفيها: أنَّ الخيل أعظم المركوبات من الدوابِّ فخرًا، لاسيَّما إن كانت معلَّمة مزيَّنة.

وفيها: أنَّ من الناس مَن يُفتَن بالزِّراعة، فيصُدُّه ذلك عن طاعة الله.

وفيها: تزهيدُ النفوس عن التعلُّق بهذه الأصناف السبعة، والحثُّ على استعمالها في طاعة الله تعالى.

وفيها: تنقيص شأن هذه الدُّنيا، وبيان حقارتها بالنسبة للآخرة؛ لئلَّا تتعلَّق بمتاعها القُلُوب.

وفيها: أنَّه ينبغي أن تكون محبَّة الله في القَلْب، مقدَّمة على هذه الشَّهَوات.

وفيها: ابتغاء البيئة الحسَنة في استعمال هذه الأشياء في طاعة الله.

وفيها: ذَمُّ الافتخار بالبنين، وأنَّه ينبغي الحِرْص على أنْ يكونوا أعوانًا على طاعة الله.

وفيها: التنبيه على أنَّ نعيم الدُّنيا لا بُدَّ أن يُحرَم الإنسان منه، أو من بعضه، إمَّا بعدَم حصوله، أو بفنائه، أو بنَقصه، أو بمُفارقة صاحبه له.

وفيها: تهذيب النفوس، ومجاهدتها في عدم التعلُّق بهذه الشَّهَوات.

وفيها: أنَّه مهما كان متاع الدُّنيا مُزَيَّنًا في القُلُوب، جميلًا في الأعيُن، مرغوبًا إلى النفوس؛ فلا يجوز أن يُبْعِد عن ذكر الله، بل ينبغي أن يُستَعمل في طاعة الله.

وفيها: أنَّه ليس هناك دار ثالثة غير الدُّنيا والآخرة، والقبر أول منازل الآخرة.

وفيها: مُواساة الفقراء، الذين لا يمكنهم الحصول على هذه الشَّهَوات أو أكثرها؛ ببيان أنَّ متاع الدُّنيا قليل.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾:

ثم استنهضَ الله تعالى هِمَم المؤمنين للعمل للآخرة، وزهَّدَهم في الدُّنيا الفانية؛ فقال:

﴿قُلْ﴾ -يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للناس ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أي: أأُخبِرُكم بخبر عظيم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي: بما هو أفضل من زينة الدُّنيا وشَهَواتها؟ و(الميم) في قوله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ علامة جمع الذكور، وهي إشارة إلى المذكور من الأصناف السبعة التي تقدَّم ذكرُها.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ﴾: هذا هو جواب الاستِفهام، وما تنتظره النفوس. والأصل في ترتيب الجملة هو «جناتٌ للذين اتقوا»، فبدأ بالخبر وأخَّر المبتدأ؛ ليُفيد الحَصْر واختصاص المتَّقين بهذه الجنَّات، وهم الذين اتقوا، فعَمِلوا بطاعته، على نورٍ منه، يَرجون ثوابَه، وتَركوا ما نهاهم عنه -عن عِلْم- ولم تَشْغَلْهم زينة الدُّنيا وشَهَواتُها عن عبادة الله؛ خشيةَ عقابه.

وقوله ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يفيد: أنَّ هذه الجنَّات مضمونة؛ لأنَّها عند العَلِيِّ الذي لا يُخلِف الميعاد. وتفيد لفظة «عند» أيضًا: القُرْبَ منه عَزَّوَجَلَّ، ومعلومٌ أنَّ عَرْش الرحمن سقفُ الفِرْدَوس الأعلى في الجنَّة.

وجاءت ﴿جَنَّٰتٌ﴾ بلَفظ الجمع؛ للإشارة إلى أنَّها كثيرة متنوِّعة.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها، لا من تحت أرضها؛ لأنَّ من عجائب الجنَّة أنَّ أنهارها تجري فوق الأرض، بلا أخاديد، دون أن ينساحَ الماءُ ويُغرِق.

وجمعَ (الأنهار)؛ لأنَّها مختلفة متنوِّعة؛ فمنها: أنهار الماء، واللَّبَن، والخَمْر، والعَسَل.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقيمين، لا يموتون، ولا يَهْرَمون، ولا يَمْرضون، ولا يَيأسُون؛ كما أخبر النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»(١).

ولـمَّا ذكر الله تعالى تلذُّذَ البطن؛ ذكرَ تلذُّذَ الفَرْج؛ فقال:

﴿وَأَزۡوَٰجٌ﴾ وهي تشمل: زوجاتهم المسلِمات اللَّاتي كنَّ معهم في الدُّنيا، والحور العِين اللَّاتي يُعطِيهنَّ الله لهم في الجنَّة.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: نظيفة، بريئة من الأرجاس الحِسِّيَّة -كالبول والغائط، والمخاط، ونحو ذلك- ومن الأرجاس المعنويَّة -كالغِلِّ، والحِقد، والفجور، والخِيانة، والكَذِب، والمعانَدة، والاستِعصاء، ونحو ذلك-.

ولـمَّا ذكر تعالى أنواعًا من نعيم الجنَّة؛ نبَّه على ما هو أعلى وأعظم من جميع ما سبق؛ فقال: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وإنَّما كان رِضوانُ الله أكبر؛ لأنَّه نعيمُ رُوحٍ وقَلْبٍ، وما قبلَه نعيمُ بَدَنٍ وجَسَدٍ، ولهذا

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧).

عندما يَعْرِض الله على أهل الجنَّة المزيدَ، وأن يعطيَهم أفضلَ ممَّا أعطاهم؛ فيتساءلون: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ من ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مجيء الكلام بصورَة الاستِفهام؛ لتشويقِ النفس، وتوجُّهِها إلى الجواب.

وفيها: أنَّ الجنَّة ليست واحدة؛ وإنَّما هي جنات، ومنها: الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وقال رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَنَّتَانِ من فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ من ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»(٢).

وفيها: فَضْل التَّقوى؛ لِـما وردَ من نعيم أهلها، وما لهم من جِوار الله؛ كما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

وفيها: فَضْل الجنَّات.

وفيها: عِناية الله بالمؤمنين؛ حيث أضافَهم إليه بالرُّبوبيَّة الخاصَّة؛ فقال: ﴿رَبِّهِمۡ﴾.

وفيها: اكتمال نعيم الجنَّة، بالجمع بينَ لذَّات القَلْب، ولذَّات البدَن.

وفيها: فَضْل الأزواج في الجنَّة؛ بكونهنَّ مُطَهَّرات، حِسًّا ومعنًى.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعظَمته.

وفيها: الوَعْد للمتَّقين.

وفيها: الوَعيد للمُخالفين، وهو مفهومٌ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

وفيها: أنَّ على الدُّعاة الإكثار من تذكير الناس بنعيم الجنَّة، في مُقابِل لذَّات الدُّنيا؛ لتنشطَ نفوسُهم لطلَب الآخرة.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

وفيها: أنَّ الشَّهوات السبعة -من لذَّات الدُّنيا- المذكورة في الآية السابقة، يمكن أن تكون خيرًا لصاحبها؛ كما يدُلُّ على ذلك قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الله تعالى قد رضيَ عنه؛ كان ذلك أتمَّ لسُرورِه وفرَحِه.

وفيها: أنَّ إحلالَ الله بِرضوانه على أهل الجنَّة، أعظم من سائر ما فيها من النعيم، ولا يزيد عليه إلَّا نعيمُ رؤيةِ وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ على العبد أن يحاسِب نفسَه على التَّقوى؛ لأنَّ الله بصير بالعِباد، فيعلَم المتَّقين الذين يُؤثِرون ما عند ربِّهم، وغيرهم الذين يُؤثِرون شَهواتِ الدُّنيا وحظوظَ النفس.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾:

ثم بيَّن تعالى مَن هم هؤلاء المتَّقون، الذين اختُصُّوا بتلك الجنَّات؛ فذكرَ أنَّ أول صفاتهم الإيمان؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ متوسِّلين في دُعائهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ استجابةً لأمرك؛ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: استرْها، وامحُ آثارَها.

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(١).

ومن تمام دُعاء المتَّقين: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ادفع عنَّا عذابها، بفضْلك ورحمتك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

توسُّل المؤمنين إلى الله برُبوبيَّته.

وفيها: استجابة المؤمنين لأمر الله؛ لقوله: ﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، وهذه الاستجابة تشمل: القَلْب واللِّسان والجوارح.

وفيها: أنَّ الإيمان سببٌ لمغفرة الذُّنوب، وأنَّه كلَّما قوي قويَت المغفرة.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

وفيها: أنَّ المؤمنين يُذْنِبون، وأنَّهم غير معصومين، ولكنَّهم يتوبون ويستَغْفِرون.

وفيها: عدم اكتفاء المسلم بطلَب سَتْر الذُّنوب وتَرْك الفَضْح أمام الناس؛ بل يطلُب أيضًا النجاة من العذاب.

وفيها: حُسن المدخل في الدُّعاء، بالتوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة للدَّاعِي.

وفيها: أنَّ المؤمنين -مع إيمانهم- يخافون عذابَ الله، ولا يأمَنون مَكْرَه.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مَزيدًا من صفات أولئك المتَّقين؛ فثنَّى بالصَّبر بعد الإيمان؛ فقال:

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أقدار الله، وعلى طاعته، ويَحْبِسون أنفُسَهم عن معصيته.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: بالقول، والفِعْل، والنِّيَّة، مع الله ومع خَلْقه.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قومٌ صدَقَتْ أفواهُهم، واستقامَت قُلُوبُهم وألسِنَتُهم، وصدَقوا في السِّرِّ والعلانية»[1].

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: المُطيعين ربَّهم، المواظِبين على عبادته.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: الباذلين أموالَهم في وجوه الخير.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: السائلين ربَّهم المغفرةَ في وقت السَّحَر-وهو آخر اللَّيل، قُبَيل الفجر- وهو وقت النُّزول الإلهيّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل الاتِّصاف بالصَّبر، والصِّدق، والقُنُوت، والإنفاق، والاستغفار في الأسحار. وهذا يتضمَّن أيضًا ذَمَّ أضدادها، من: الجَزَع، والكَذِب، والعِصيان، والبُخْل، والشُّح، وتَرْك الاستغفار.

وفيها: أنَّ سِلْعة الله غالية، لا ينالها إلَّا مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفات العظيمة، وكمَّل نفسه في كلِّ واحدة منها، ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٦٤).

وفيها: أنَّ المتَّقين مهما عَمِلوا من الطاعات؛ يَرَون أنفُسَهم مُقَصِّرين يحتاجون إلى الاستغفار.

وفيها: تحرِّي أوقات الإجابة في الدُّعاء، ومن ذلك: وقت السَّحَر، والإكثار من الاستغفار فيه؛ فهو وقت النُّزولِ الإلهيِّ، وقول الرَّبِّ تبارك وتعالى: «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1].

وفيها: أنَّ أهلَ الاستغفار بالأسحار هم من أهل الصَّلاة؛ فيُصَلُّون قبل السَّحَر، كما قال الحسنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَدُّوا الصَّلاة إلى السَّحَر، ثم استغفَروا»[2].

ويُتْبِعون الاستغفار بصلاة الصُّبح؛ كما قال زَيْد بن أسلَم: «هم الذين يُصَلُّون الصُّبح في الجماعة»[3].

وفيها: فَضْل العِبادة في أوقات غَفْلَة الناس ونَوْمِهم، ومنها: وقت السَّحَر؛ فالعِبادة فيها أشقُّ، والنفس أصفَى، مع قُرْبِ الله تعالى.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾:

ولـمَّا ذَمَّ الله تعالى الكافرين، ومدحَ عباده المؤمنين؛ بيَّن أصل الإيمان والعُروة الوُثقى، وشَهِدَ لنفسه بالوحدانيَّة؛ فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: حكمَ وقضى، وبيَّن وأخبرَ. و(الشَّهادة) قائمةٌ على العِلْم والإعلام.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا هو سبحانه. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: شَهِدَت أيضًا، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ شَهِدوا كذلك بوحدانيَّته. والمراد بـ(العِلْم): العِلْم بالله عَزَّوَجَلَّ، وشرعه.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: مع تفرُّده سبحانه، فهو متَّصِفٌ بالعَدْل دائمًا في أفعاله، وأحكامه، وتدبير أمور خَلْقه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: حكمَ لنفسه أيضًا بعد أن شَهِد، فاجتمع في كلامه عَزَّوَجَلَّ الشَّهادة

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ١٧).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ١٦).

والحُكـمَ بألوهيَّتـه تعـالى. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: ذو العِزَّة والعَظَمـة والكبرياء. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: ذو الحُكم، والحِكمة، والإحكام، في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقدَرِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل التوحيد.

وفيها: وجوب الشَّهادة بالتوحيد.

وفيها: فَضْل الملائكة.

وفيها: إقامة الحُجَّة على الخَلْق، بشهادة هؤلاء الشُّهَداء.

وفيها: إشـارة إلى ما يلزم الذي يَشْهد أن (لا إله إلَّا الله)، من: العِلْم، واليقين، والتلفُّظ، والإخبار والإعلام.

وفيها: الإلزام للشاهِد بمُقتضَى ما شَهِدَ به.

وفيها: فَضْل العِلْم، وشَرَف العلماء وفَضْلهم؛ فإنَّه أشـهدَهم على أعظم حقيقة، وقرنَهم باسمه تعالى وبملائكته، ولو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنَهم الله باسمِه واسمِ ملائكته.

وفيها: أنَّ كلَّ ما عُبِدَ من دون الله فهو باطل، وإن سُمِّيَ إلهًا.

وفيها: ذِكر الشَّهادة بالقول، كما ذكر تعالى عن نفسه. وأمَّا شهادة الفِعْل؛ فقد أظهرَها الله تعالى في جميع الكائنات، والتي يدُلُّ خَلْقُها على وحدانيَّته بلسان الحال.

وفيها: التأكيد على الأمور المُهِمَّة، وإعادتها؛ لتثبت في النفوس.

وفيها: إثبات الله لنفسـه الوحدانيَّة المنافية للشِّرك، والعَدْل المنافي للظُّلْم، والعِزَّة المنافية للضَّعْف، والحِكمة المنافية للعَبَث.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾:

ولـمَّا بـينَ تعالى أنَّه لا معبود بحقٍّ إلَّا هو؛ بيَّن لعباده كيف يجب أن يعبُدوه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي: الشرعـيَّ، المرضيَّ المقبول ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، هو: ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ وهو بمعناه

العامُّ: الاستِسلام، والانقياد التامُّ، والتعبُّد له بما شرَعَ، خالصًا لوجهه. وأمَّا الإسلام بمعناه الخاصُّ: فهو التعبُّد لله بالشَّرْع الذي أنزلَه على محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى. وقد وقعَ الخِلافُ بينهم في دينهم، فصاروا فِرَقًا وشِيَعًا، واختلف النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلفوا أيضًا في موقفهم من نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: التوراة والإنجيل الأصليَّة، وعرَفوا الشريعة وفَهِموها، وكذلك جاءَهم العِلْم بحقيقة نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودينه.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ظُلْمًا لبعضهم البعض، حملَهم على التقاتُل والتفرُّق والتشتُّت، ثم حَسَدًا لنبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبغيًا على المسلمين، ثم تفرَّقوا في مواقفهم: فمنهم مَن كفرَ بنبيِّنا وحاربَه، ومنهم مَن سالمَه ووادعَه، ومنهم مَن آمن به ودخلَ في دينه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ أي: يجحَد ويُكَذِّب، أو يستكبِر ويُعانِد ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة والشرعيَّة، فيُنكِر أنَّ الله هو الذي خلقَ الآيات الكونيَّة، أو يجْحَد أو يُعانِد آياته الشرعيَّة التي أنزلها في كتبه؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سيُحاسِبه على كُفره، ويُجازيه عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مَعرِفة الإسلام العامِّ، الذي هو دين جميع الرُّسُل، كما قال تعالى -حكايةً عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيَّته لبنيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد اتَّحدَت شرائعُ الأنبياء في الدلالة على التوحيد، وإصلاح القُلُوب، ومكارم الأخلاق، واختلفَت شرائعهم في بعض الأحكام؛ لِحِكَم يريدها الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: مَعرِفة الإسلام الخاصِّ، وهو شريعة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفيها: أنَّ البغي والظُّلْم سبَبٌ عظيم لوقوع الاختلاف في الأُمَّة الواحدة. ومن أسباب ذلك أيضًا: الحَسَد، وحُبُّ الرئاسة.

وفيها: تحذير هذه الأُمَّة ممَّا وقع في الأُمَم قبلهم.

وفيها: بيان سبَب عداوة أهل الكتاب للمسلمين.

وفيها: أنَّه لم يبقَ إسلامٌ إلَّا الذي أنزلَه الله على نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنَّ بقيَّة أديان الأنبياء وشرائعهم قد أصابَها التحريفُ والتبديلُ والتغييرُ.

وفيها: أنَّ المرجِع في الدِّين إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أنَّ الاختلاف بعد العِلْم، أقبحُ من وقوعه عن جَهْل.

وفيها: سُرعة حساب الله، من جهة قُرْبه وتحقُّقه؛ فالدُّنيا لا تلبث أن تزول ويأتي الحساب، ومن جهة أنَّ الله سريعٌ في محاسَبة الخَلْق، فيُناقِشهم ويقرِّرهم بذُنوبهم جميعًا، كحِسابه لنفس واحدة.

وفيها: قُبح المخالَفة بعد مجيء العِلْم وقيام الحُجَّة.

وفيها: أنَّ مجيء العِلْم إذا لم يُقابَل بالانقياد والطاعة، والفَهْم والاستِسلام؛ فلا ينفع ولا يُنَجِّي صاحبَه.

وفيها: أنَّ سبَب الاختلاف بينَ أهل الكتاب، ليس هو البحث عن الحقِّ؛ وإنَّما الظُّلْم والبغي.

وفيها: أنَّ مَن اختلفوا في نبيِّهم، فجديرٌ بهم أن يختَلِفوا في نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فقد اختلفَ النصارى في عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فمنهم مَن قال: هو الله، ومنهم مَن قال: هو ابن الله، ومنهم مَن قال: ثالث ثلاثة! واختلفوا في نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فمنهم مَن كذَّبه وعاداه، ومنهم مَن قال: رجل حكيم، ومنهم مَن أقرَّ بنبوَّته ولم يلتزم اتِّباعَه، ومنهم مَن عرَفه وجحدَه، ومنهم مَن منعَه حُبُّ الرئاسة من اتِّباعه -كقَيْصر مَلِك الرُّوم-.

﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠ ﴾:

ثم بيَّن الله تعالى لنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما يقوله في مُجادَلة أهل الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿ فَإِنۡ

﴿حَآجُّوكَ﴾ أي: خاصَموك، وجادَلوك في التوحيدِ والدُّخولِ في الإسلام؛ ﴿فَقُلْ﴾ -ردًّا عليهم ودعوةً لهم-: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ﴾ أي: أخلَصتُ قَصْدي وعمَلي وعبادتي ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَه، لا أُشرِك به غيره، أنا ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾؛ فهم أيضًا أسلَموا وجوهَهم لله، وأخلَصوا دينَهم له.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم مُشركو العرب، الذين لا كتاب لهم. وسُمُّوا (أُمِّيِّين)؛ نسبةً إلى الأُمِّ؛ لأنَّ عامَّتهم جهال. قُل لهم جميعًا: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ وهذا استِفهام تقريري، معناه الأمر؛ أي: أسلِموا. وهو يَحْمِل معنى الحضِّ؛ أي: هلَّا أسلمتُم بعد أن أتَتْكم البراهين والبيِّنات؟!

وفيه: توبيخٌ للذين لا يُسْلِمون.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: استَسْلموا لله، وانقادوا له ظاهرًا وباطنًا؛ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ هداية التوفيق للحقِّ، والفوزِ بخيرِ الدُّنيا والآخرة.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرَضوا عن قبول الحقِّ؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: أدَّيتَ ما هو واجبٌ عليك؛ فلا تحزن عليهم، ولستَ بملوم؛ فليس عليك إلَّا هداية الدلالة والإرشاد فقط.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: عليمٌ بأحوالهم، وبمَن يؤمن ومن لا يؤمن، والحساب عندَه تعالى؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

جِدال المشرِكين للمؤمنين.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين الاستعدادُ بحُسن الجواب في مجادَلة المشرِكين.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ اتِّباع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقتَضيات الإسلام.

وفيها: أنَّ حقَّ جميع الأُمَّة أن يكونوا تابِعين للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس فيهم متبوع لذاته ولا لِصِدق حُجَّته؛ فالاتِّباع للشَّرْع وحدَه.

وفيها: أنَّ العالِمَ -مهما بلغ من الجلالة والمكانة- فلا يُتَّبع إلَّا لما عنده من الحقِّ، فإذا تبيَّن عكسُه: فلا يجوز اتِّباعه.

وفيها: مِنَّة الله على العرَب؛ لبَعْثه محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم.

وفيها: أنَّ مَن لم يُسْلِم؛ فهو ضالٌّ منحرِفٌ.

وفيها: أنَّ الله تعالى أعلَمُ بمَن هو أهلٌ للهداية، ومَن ليس أهلًا له، وهو أعلم بالدُّعاة: هل بلَّغوا، أم قصَّروا في التبليغ؟

وفيها: أنَّ على الدُّعاة هداية الدلالة والإرشاد -وهي البلاغ- وليس عليهم هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أنَّ الدَّاعية لا يُسأل عن عمل المدعُوِّ، إذا دعَاه فرفضَ الحقَّ.

وفيها: مُواساة الدُّعاة إذا أعرضَ المدعُوُّون عن دعوتهم.

وقد نُسِخَ الاكتفاءُ بالتبليغ والأمرُ بالتولِّي وتَرْكِ المُعرِضين -بآيات الجهاد والقتال- وأمَّا البلاغ: فليس بمَنسوخ.

وفيها: توبيخ المُعرِض عن الحقِّ، لعِناده وبلادته.

وفيها: أهميَّة الجدال بالحُسنى في الدَّعوة.

وفيها: أنَّ الحقَّ قد لا يتَّضِح لبعض الناس، إلَّا بعد الجِدال والمُناظَرة؛ لِما عندَهم من الشُّبَه، وإلَّا فالنفوس والفِطَر المستقيمة تقبلُ الحقَّ -في الأصل- بلا جِدال.

وفيها: عُموم بِعْثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾، وأنَّه يجب عليهم الدُّخول في الإسلام الذي جاء به نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفيها: الدَّعوة بالقول، والفِعْل، والأحوال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾:

ولـمَّا ذكـرَ الله تعالى مُعاقبَة أهل الكتاب والمشركين؛ ذكَّرهـم بجريمةٍ من أعظم الجرائم -أو أعظمها- ممَّا اقترفه بعضُهم، وهي: جَمْعُهم بينَ الكُفرِ بالله، وقَتْلِهم خيارَ الناس.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكونيَّة -التي لا يستطيع البشر أن يخلُقوا مِثلَها- والشرعيَّة -التي لا يُمكِن للبشر أن يأتوا بمِثلها- فيُكَذِّبون ويَجْحَدون، استكبارًا أو عِنادًا.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ وهذا غاية الكِبْر؛ فإنَّهم يقتُلون الذين يُبَلِّغونهم شَرْعَ الله. ومـا أكثرَ حصولَ هـذا من اليهـود! ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من الآمِرين بالمعروف والناهين عن المعصية والمُنكَر. يفعلون هذا عُدوانًا وظُلْمًا.

ثم أخبرَ عن جزائهم؛ فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبِرْهم بالعقوبة الموجِعة المؤلِمة. و(البِشـارة): هي الإخبار بما يَسُرُّ -وهذا أكثر- أو بما يضُرُّ، سُمِّيت بذلك؛ بسبَبِ تغيُّر البَشَرَة عند سماعها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ قَتْل النبيِّين من جملة الكُفر، وإنَّما خصَّهم بالذِّكر لشناعته.

وفيها: خطورة جريمة القَتْل، وخصَّ قَتْل الأخيار بالذِّكر لشناعته.

وفيها: أنَّه ينبغي تبشير الكفَّار المُعرِضين بالنَّار.

وفيها: مُناسبة الجزاء للعمل؛ فقابلَ كِبْرَهم بإذلالهم بالعذاب المهين.

وفيهـا: فضيلـة الثبات عـلى الأمر بالعَدْل والخير والمعروف، ولو أدَّى ذلـك إلى القَتْل، وهذا القَتْل من أعظم الشَّهادة عند ربِّ العالمين.

وفيهـا: مُواسـاة الأخيـار المقتولين ظُلْمًا في سـبيل دعوتهـم، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بأنَّهم ساروا في رَكْب الأنبياء.

وفيها: أنَّ العِبرة بعُموم اللَّفظ، لا بخصوص السَّبَب؛ فاليهود هم أكثر الناس اشتهارًا بهذه الجريمة، وهي الجَمْع بينَ الكُفر وقَتْل الأنبياء والأخيار، لكن اللَّفظ عامٌّ، فيشمل جميعَ مَن اتَّصف بهذه الصِّفات.

وفيها: أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر كان من عمل الأُمَم المتقدِّمة، وهو من وِراثة النبوَّة وخلافتها، وبه يتمُّ تبليغ الرِّسالة.

وفيها: أنَّه يجب على عُموم الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، ولو كانوا من أهل التقصير في حقِّ الله، وأنَّ هذه الوظيفة ليست مختصَّة بالأبرار.

وفيها: أنَّ حياة الكفَّار في الدُّنيا وتمتُّعهم بزينتها، لم تَعُد عليهم بفائدةٍ تُنَجِّيهم من العذاب في الآخرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾:

قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المُجرِمون السابقُ ذِكرُهم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ (الحُبوط): ذَهاب الشيء وزواله، وعدم الاستفادة منه. فهتكَ الله أستارَهم، وأبدَى مخازيهم وسوآتهم، وأبقى لهم المذمَّة، ولم يَرْفَع لهم بهذه الأعمال ذِكرًا، ولم ينالوا عليها ثناءً من المؤمنين؛ بل أبغَضوهم ونالوا الثَّناءَ عليهم بالشرِّ، وعُوملوا مُعاملَة أهل السيِّئات بالذِّلَّة والصَّغار، ولم تنفَعْهم أعمالهم في الدُّنيا بعِصمة دِمائهم وأموالهم؛ فصارَت مُستباحَةً للمسلمين.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: فلا ثواب لهم فيها؛ بل عقوبة وعذاب.

وهذا (الحُبوط) هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم مَن ينصُرهم من عذاب الله، أو يدفَع عنهم عقابَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الكافر لا يستفيد شيئًا من أعمال الخير التي يعملها في الدُّنيا.

وفيها: شُؤم الكُفر، المانع من فائدة العمل في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: إذلال الله وخِذلانه لمن استعلَى على عباده المؤمنين في الدُّنيا.

وفيها: تعجيل العقوبات على الكافرين، إضافةً لِـما سيحصل في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

ولـمَّا كان اليهود والنصارى يدَّعُون التمسُّك بما في أيديهم من التوراة والإنجيل؛ بيَّن الله كَذِبهم في هذا الادِّعاء؛ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستِفهام للتعجُّب؛ أي: ألم تعلَمْ، وتتعجَّبْ، وتنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ أي: حظًّا، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا؛ فإنَّهم لم يتَّبِعوا ما فيه ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي أنزلَه الله على نبيِّهم، وبقيَ بعضُه صحيحًا بينَ أيديهم -لم يَطْمِسْه التحريف- ومنه: ما فيه وَصْفُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهؤلاء ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وخصوصًا هؤلاء اليهود، الذين دُعُوا لتحكيم التوراة الباقية في أيديهم. وقيل: (كتاب الله) هنا: هو القرآن.

﴿لِيَحْكُمَ﴾ ذلك الكتابُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في صِحَّة دينِ الإسلام ونبوَّةِ محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضِ الحدود التي وقعَ فيها بعضُهم -كحَدِّ الزِّنا-.

وقيل: بل التحكيم -المدعُوُّ له- كان في المُنازَعة في شأن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتَ المدراس على جماعة من اليهود، فدعَاهم إلى الله، فقال له نُعَيم بن عمرو والحارث بن زيد -وهما من اليهود-: على أيِّ دين أنتَ يا محمَّد؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «على مِلَّة إبراهيم ودينه»، فقالا: فإنَّ إبراهيم كان يهوديًّا! فقال لهما رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهَلُمُّوا إلى التوراة؛ فهي بينَنا وبينكم»، فأبَوا عليه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[1].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢١).

قولـه تعـالى ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: يُدْبِر بعضُهـم، وينـصرِف مـن مجلس النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد اجتمع في هؤلاء اليهود المكذِّبين: التولِّي بالبدَن، والإعراض بالقَلْب، ولذا قال: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وهم قومٌ عادتهم الإعراض، فهذا حالُهم.

وقليلٌ منهم قد هدَاه الله، فلم يتولَّ -كابن سلَام وغيره-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّـه ليـس كلُّ عِلْم ينتَفِع بـه صاحبُه؛ بل بعض العِلْم قد يكون وَبـالًا، وزيادةَ حُجَّة على أصحابه.

وفيها: قُبْح الإعراض بعد قيام الحُجَّة.

وفيها: وجوب التحاكم إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وكتاب الله الحاكمُ، الناسخُ لجميع ما سبق هو: القرآن، وإنَّما كانت دعوة اليهود للتحاكُم إلى التوراة؛ لإلزامِهم وإفحامِهم بما فيها ممَّا كفروا به؛ لأنَّهم يُكَذِّبون بالقرآن.

وفيهـا: أنَّ تحكيـم الـشَّرْع يجـب أن يكـون في كلِّ الأمور، مـن: العقائـد، والمعاملات، والحدود، والجنايات، وغيرها.

وفيهـا: إنصاف الـشَّرْع لليهود؛ حيث لم يُعَمِّـم الحُكم عليهم بالتـولِّي؛ لأنَّ بعضَهم قد أسلمَ ولم يتولَّ.

وفيها: موعظة لهذه الأُمَّة، بتحذيرها من التشبُّه بحال اليهود المُعرِضين.

وفيها: أنَّ على الجميع السمع والطاعة والانقياد للقرآن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ثـم ذكـرَ الله عَزَّوَجَلَّ سببَ التولِّي الحاصـل من اليهـود، وأنَّه بسبَب اغترارهم بـما ادَّعوه لأنفُسِـهم من الأمـانيِّ الباطلة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التـولِّي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

أي: بسبب قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي: لن تُصيبنا في الآخرة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ قلائل، ثم يخرجون منها بزَعْمهم، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾ أي: أبقاهم على دينهم الباطل، وخدعَهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: يختَلِقون من الكَذِب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التحذير من الاتِّكال على الأمانيِّ، وخصوصًا الباطلة، وأنَّ ذلك من صُنع أهل الكتاب. وكثيرٌ من المقصِّرين يتشبَّهون بهم في ذلك؛ فيقعون في المعاصي، اتِّكالًا على رحمة الله، ويُمنُّون أنفُسَهم بالمغفرة!

قال الحسن البَصْريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ المؤمن جمعَ إحسانًا وشَفَقة، وإنَّ المنافِق جمعَ إساءةً وأمنًا»، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، «وقال المُنافِق: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: ٧٨]»[1].

وفيها: أنَّ الإيمان بالبَعث وحدَه لا يُنجِّي صاحبَه يوم القيامة.

وفيها: استخفاف اليهود بعقوبة الله، واغترارهم بما يفترون من أنَّ النَّار لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدودة، وبالانتساب إلى الأنبياء، واعتقادهم أنَّ هذا كافٍ في النجاة!

وفيها: أنَّ جَزْم الإنسان لنفسه بحصول المغفرة له، يؤدِّي إلى التهاوِن في الطاعات، وعدمِ المبالاة في انتهاك الحُرُمات.

وفي الآية: تحذير العُصاة -مُرتكبي الكبائر والآثام والفواحش- من جَزْمهم لأنفُسِهم بالنجاة من النَّار، بالشفاعات والكفَّارات، مُتناسِين أنَّ رحمة الله قريبٌ من المُحسِنين، لا المُسيئين المفرِّطين، وأنَّهم معرَّضون للعقوبة، وأنَّ الشفاعة لا تحصُل إلَّا بإذن الله، وقد لا يأذَن في الشفاعة لهم، وأنَّ الكفَّارات قد لا تفِي بجميع الذُّنوب، فيبقى على العاصي ما يُهلِكه.

وفيها: أنَّ الإنسان قد يخدَع نفسَه ويضرُّها، بأن يُطْمِعَها فيما لا يحصُل.

---

(١) الزُّهْد لابن المبارك (٩٨٥)، تفسير الطبري (١٩/ ٤٥).

وفيها: ما كان عليه اليهود -ولا يزالون- من التمسُّك بدينهم الباطل، ومَدْحه، وادِّعاء الفضائل لأنفُسِهم.

ويؤخَذ منها: أنَّ الذين يكذِبون على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويختَلِقون أحاديثَ في عدم دخول أهل فِرْقَتهم أو طائفَتِهم النَّارَ؛ هم متشبِّهون باليهود في افترائهم.

وفيها: التحذير من تزكية النفس.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ثم رَدَّ الله تعالى على اليهود، في ادِّعائهم النجاةَ يومَ الدِّين؛ فقال سبحانه: ﴿**فَكَيْفَ**﴾ أي: كيف يكون حالهم في ذلك الوقت. وهذا الاستِفهام لتعظيم ما سيَدْهَمُهم، وتهويل ما سيَحِيق بهم من العذاب. ﴿**إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ**﴾ أي: للحساب والجزاء، أي: لِما يحدث في يومٍ ﴿**لَّا رَيْبَ فِيهِ**﴾: لا شكَّ في مجيئه ووقوعه.

﴿**وَوُفِّيَتْ**﴾: أُعطيت ﴿**كُلُّ نَفْسٍ**﴾ بارَّة أو فاجرة، من الجنِّ أو الإنس من المكلَّفين ﴿**مَّا كَسَبَتْ**﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ في هذه المُجازاة والتوفية؛ فلا يُنقَص أحدٌ من حسناته بغير حقٍّ، ولا يُزاد في سيِّئاته بغير حقٍّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ التوفية الكاملة على الأعمال هي في يوم القيامة، وأنَّ الإنسان قد يُوَفَّى شيئًا من عمله في الدُّنيا -بسَعَةٍ في رِزقه على حسَنة، أو بمُصيبةٍ على سيِّئة- لكن الجزاء التامَّ لا يكون إلَّا يومَ الدّين.

وفيها: إثبات اليوم الآخر، وأنَّ مَن شكَّ فيه فهو مُكَذِّب بالله.

وفيها: ترغيبٌ للمُحسِنين في الازدياد من الطاعات، وموعظةٌ للمُسيئين في الكفِّ عن السيِّئات.

وفيها: عَدْل الله الكامل، وتنزيهه عن الظُّلم، وقضاؤه الفاصل يومَ القيامة.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى دلائـلَ التوحيد، وصِحَّةَ دين الإسـلام، وحالَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المخاطَبـين بالدَّعـوة -من المشرِكين وأهل الكتـاب- وكان أهلُ الكتـاب يريدون أن تكون السيادةُ الدِّينيَّة لهم، ويُنكِرون أن تكون النبوَّة في غير بني إسرائيل: بيَّنَ الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية أنَّه يجعلها فيمَن يشاء، وينقُلها وينقُل المُلْكَ إلى مَن يشاء.

وقيـل: إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـأل ربَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يجْعل مُلْكَ فـارِسَ والرُّوم في أُمَّته، ووعدَ صحابتَـه بذلك؛ فقـال المُنافِقون واليهـود: هَيْهاتَ هَيْهَـات! من أين لمحمَّـد مُلْكُ فارِسَ والرُّوم؟! فأنزل الله هذه الآية[1].

وأمـر الله تعـالى نبيَّـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنـين أن يُعَظِّموه؛ فقال لهـم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: يا الله ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾: لـه التصرُّف التامُّ، وتدبيرُ الأمور؛ فهو مالك المملوكات، ومالك تدبير الخلائق كلِّها.

ثـم فسَّر هذا التـصرُّفَ والتدبير في المُلْك بالإيتاء والنَّـزْع؛ فقال: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ أي: تعطي السُّـلطان والغلَبة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ وتريد، فتُمَلِّكه وتُسَـلِّطه على مَن تشـاء. ومن الأنبياء مَـن جمـعَ الله له بينَ النبوَّة والمُلْك والسُّـلطان -كداودَ وسـليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- ومنهم مَن آتاه نبوَّةً ولم يؤتِه مُلكًا ولا سُلْطانًا.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: تمنعه وتَسْـلِبه ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾: بالموت، أو تسـليط غيره عليه، وقد يكون ابتلاءً أو عقوبة.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ (الإعـزاز): التقوية، وقد يكون بإعطائه المُلكَ والسُّـلطةَ، أو النصرَ والغنيمـة، أو الغِنـى، أو بإلقـاءِ الهَيبـة في قُلُوب النـاس. وأعظم من ذلك: الإعـزاز بالنبوَّة والرِّسالة، والإعزاز بالإيمان والعِلْم والطاعة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾: بسَـلْب مُلْكِـه، أو ضَرْبِ الجِزْيـة عليـه. وأسـوأ الإذلال: ما يكون بالكُفر والمعصية.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٥٢).

ثـم أثنـى الله تعالى على نفسـه؛ فقـال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: المصالـح والمنافـع، الدُّنيويَّة والأُخرويَّة. ولم يذكر (الشرَّ) ها هنا؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ثناء ومَدْح.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلا يمتنع عليك شيءٌ، ولا يُعجِزك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعليم العِباد شُكر النِّعمة.

وفيهـا: ذِكر نِعمة الله عـلى هذه الأُمَّة، بنقل النبوَّة من بني إسرائيـل إلى هذا النبيِّ العربيِّ القُرَشيِّ المكـيِّ الأُمِّـيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاتَـمِ الأنبيـاء، وأفضـلِ الخَلْق، ورسـولِ الله إلى جميع الثقلَين الإنس والجن.

وفيهـا: تفويـض الأمور إلى الله، وأنَّه لا يجوز الاعتراض على الله في نَقْل المُلك أو النبوَّة إلى مَن يشاء.

وفيها: تمام مُلْك الله عَزَّ وَجَلَّ، ونُقصان مُلكِ غيره؛ فإنَّ مُلكَ غيره ينتَقِل ويَزُول، ومُلْك الله دائمٌ لا يحول ولا يَزُول.

وفيها: أنَّ الله يُذِلُّ الجبابرة، ويُذْهِب مُلْكَهم، كما فعلَ بِفرعون والنُّمْرُوذ.

وفيها: الاستغناء بالثَّناء، عن الطلَب والسؤال في الدُّعاء.

وفيها: إثبات (اليد) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: أنَّ الخير بيد الله، لا بيد غيره؛ ولذلك ينبغي سؤالُه، لا سؤال المخلوقين.

ويؤخَذ منها: التحذير من ارتكاب الأسباب التي تُزيل النِّعَم.

وفيهـا: أنَّ انتقـال الخير إلى الغـير، لا يُجيز رفضَ الحقِّ، فيجب عـلى بني إسرائيل الإيمانُ بنبوَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كونها قد انتقلَتْ منهم إلى غيرهم.

وفيها: أنَّ العِزَّ الباطن -من الإيمان والعِلْم- أقوى وأفضل من العِزِّ الظاهر -كالسُّلطان والمـال والأعوان-. وأيضًا؛ فـإنَّ ذُلَّ الباطن -من الكُفر والعصيان- أسـوأ بكثيرٍ من الذُّلِّ الظاهر -كالفَقر والمسكَنة والضَّعف-.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾:

ثم علَّم الله تعالى نبيَّه ﷺ -وأُمَّته من بعده- التوسُّلَ إليه بأفعالِه في الدُّعاء؛ فقال: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: تُدْخِله فيه، فيكون النهارُ أطولَ بقَدْر ما نقص من اللَّيل -كما يكون في الصَّيف-. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: تُدْخِل بعضَ النهار في اللَّيل -كما يكون في الشِّتاء-. ولا يَقدِر على هذا الإيلاج إلَّا الله.

وقيل: المراد بـ(الإيلاج) في الآية: تعاقُب اللَّيل والنهار، ومجيء هذا بعد هذا.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ويدخل في ذلك: الموت الحِسِّي والحياة الحِسِّيَّة، كإخراج النُّطْفة من الإنسان والإنسان من النُّطفة، والبَيضة من الدجاجة والدجاجة من البَيضة، والنواة من النخلة والنخلة من النواة.

ويدخل فيها أيضًا: الموت المعنويّ والحياة المعنويَّة، كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والعالِم من الجاهل والجاهل من العالِم.

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: تُعطيه الرِّزق الكثير الوفير، الذي يَعجِز عن عَدِّه وإحصائِه ومعرفةِ مقداره، على سبيل التفضُّل من غير استِحقاق، ومن غير تضييق ولا تقتير.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله تعالى.

وفيها: إيلاج اللَّيل في النهار وعكسه، ويكون بالتدريج، وهذا من حِكمته تعالى ورحمته بعباده؛ لئَّلا يختَلَّ نظامُ العالَم، ولِتتابعَ فصولُ السنة الأربعة، ولو أنَّ الناس انتقلوا من شِدَّة الحرِّ إلى شِدَّة البرد فجأةً؛ لحصلَ عليهم ضررٌ عظيم.

وفيها: مِنَّة الله تعالى على العِباد، بتفاوت اللَّيل والنهار.

وفيها: أنَّ الرِّزق بيد الله؛ فينبغي طلبُه منه.

وفيها: أنَّ عطاء الله بلا عِوَض.

وفيها: أنَّ الله يرزق المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، بل والبهائم، كما أنَّه عَزَّوَجَلَّ يرزق ما تقوم به الأبدان، ويرزق ما فيه قَوام القَلْب والرُّوح -من العِلْم والإيمان-.

وفيها: أنَّ الله يرزق العبد بسبَبٍ وسعيٍ منه على رِزقه، وقد يرزقه بلا سبَب -كأن يموتَ قريبُه فيَرِثُه-.

وفيها: أنَّ الله قد يرزق العبد من حيث لا يَحْتَسِب، ولا يَكْتَسِب.

وفيها -مع التي قبلها-: أنَّ الله يتصرَّف في المُلْك والنبوَّة، كما يتصرَّف في اللَّيل والنهار، والحياة والموت.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾:

ولـمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ المُلْك بيده، يُعِزُّ مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء، فلا تُطلَب العِزَّة إلَّا منه؛ نهى عبادَه المؤمنين عن مُوالاة الكافرين، ابتغاءَ العِزِّ والنَّصر منهم؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يجعلون ولا يختارون ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أنصارًا وأعوانًا ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: من غيرهم وسواهم.

فلا يجوز مُوالاة الكافرين، والرُّكون إليهم، والاعتمادُ عليهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]؛ فلا يجوز تولِّي الكافرين وتَرْكُ المؤمنين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: يرتكِب هذا النهي، بمُوالاة غير المؤمنين؛ ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: فليس من ولاية الله ودينه في شيءٍ -قليل ولا كثير- والله بريء منه. وقال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: إلَّا مَن خاف -في بعض الأحوال، أو

الأوقات، أو البُلدان- من شرِّهم وتسلُّطهم وإضرارِهم له، فكان مُستضعَفًا؛ فله أن يتقيَهم ويُداريَهم، بظاهره لا بباطنه ونيَّته، ويتقيَهم بلسانه لا بعمَله -فلا يستَحِلُّ دمًا أو مالًا حرامًا- ما دام قَلْبُه مُطمئنًا بالإيمان، مُضمِرًا لبُغضهم في الباطن.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليست التَّقيَّة بالعمل؛ إنَّما التقيَّة بالقول»[1].

قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: يُخوِّفكم عقابَه ونِقمته، وسَطوته، وغضبَه، ووعيدَه.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجِع والمُنقلَب والمآب، فيُجازِي كلَّ واحدٍ بعمَله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم اتِّخاذ الكفَّار أولياء.

وفيها: أنَّ مُوالاة الكفَّار تُنافي أصلَ الإيمان.

وفيها: أنَّه لا يجوز مُوالاة الكافرين، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا مع المؤمنين.

وفيها: تحريم مُوالاة الكفَّار بأنواعهم، ويدخل فيهم: المُرتَدُّون، والغُلاة من أصحاب البِدَع المكفِّرة.

وفيها: أنه لا يجوز نُصرة شيعة الشَّيطان وأوليائه، ولا الاستنصار بهم.

وفيها: أنَّه كلَّما كَمُل الإيمان؛ كمُلَت عداوة الكفَّار وبُغضهم.

وفيها: أنَّ الله تعالى يتخلَّى عمَّن تولَّى أعداءَه.

وفيها: مُوالاة أولياء الله تعالى، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥].

وفيها: أنَّه لا يجوز مُداهَنة أعداء الله، ولا إرضاؤهم؛ وإنَّما تجوز المُداراة عند الاضطرار أو الضرورة أو المصلحة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٩)، وإسناده ضعيف.

وفيها: أنَّ اتِّقاء الكفَّار بكلامٍ يُتقَى به شرُّهم، لا يكون إلَّا عند الاضطرار، ولا بُدَّ أن يكون الباطن سليمًا، والقَلْبُ مُطمئنًا بالإيمان.

وفيها: أنَّ هذه التُّقاة إنَّما هي لدَفْع ضرَر الكفَّار وأذاهم، وليست رضًا بما يفعلونَه ولا اطمئنانًا إليهم.

وفيها: أنَّه إذا جاز التحالُف مع الكفَّار، فلا يكون إلَّا لمصلحة المسلمين، ويكونون هم الطرَفَ الأقوى، ويكون هذا بنيَّة شقِّ صفوف الكفَّار، كعَقْد حِلْفٍ مع بعض الكفَّار ضِدَّ بعضهم الآخر، كما فعل النبيُّ ﷺ في محالفَتِه خُزاعةَ -وفيهم مسلمون- ضدَّ بني بكر وحُلفائِهم من قُرَيش.

وفيها: تحريم مُوالاة الكفَّار ضدَّ المسلمين، بنقلِ أخبار المسلمين إليهم، أو إظهارِ عَورة المسلمين وضَعْفهم لهم، أو تفضيلِهم على المسلمين. ومَن رضيَ بكُفرهم وتولَّاهم لأجله؛ صار كافرًا.

وفيها: رحمة الله بعباده، بالترخيص بمُداراة الكفَّار في حال خوف الضرَر منهم، إذا كانوا غالِبين ولهم سُلطانٌ على المسلمين، أو كان يعيش بينهم ويخاف على نفسه القَتْلَ أو السِّجن ونحوَه.

وفيها: مُداراةُ الكفَرة والفَسَقة والظَّلَمة، إذا صاروا أقوياء مُتسلِّطين، وإلَانةُ الكلام لهم، وجواز التبسُّمِ في وجوهِهم، وبذلِ شيء من المال لهم؛ استجلابًا لقُلُوبهم، أو دفعًا لأذاهم.

وفيها: الفَرْق بينَ تقيَّة أهل السُّنَّة والتقيَّة عند أهل البِدعة؛ فأهل البِدَع يُظْهِرون الحقَّ والإيمان، ويُبْطِنون الباطل والبِدعة.

وفيها: أنَّ التقيَّة رُخصة، فلو صبرَ على الحقِّ حتى قُتِلَ، أو تحمَّل الضرر ليُظْهِرَ الحقَّ؛ فله أَجْرٌ عظيمٌ، كما فعله رسولُ الله ﷺ مع قُرَيش بمكة، وكما فعلَه بعضُ الصَّحابة معهم، والأمثلة كثيرة على مرِّ التاريخ، وفي حياة العلماء الرَّبَّانيِّين.

وفيها: أنَّه لا تقيَّةَ في عِزِّ المسلمين وقوَّتِهم. ولذا قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت التقيَّة في جِدَّة

الإسلام (أي: بدايته) قبل قوَّة المسلمين، فأمَّا اليومَ: فقد أعزَّ الله الإسلام أن يتَّقوا من عدوِّهم»[(١)].

لكن هذا يختَلِف باختلاف البُلدان والأزمان والأشخاص والأحوال.

وفيها: أنَّ الموالاة المحرَّمة هي ما كانت في دينِ الكفَّار، وتعظيمِهم، ومحبَّتهم، ونُصرتِهم، وقد تصل إلى الكُفر.

ولا يدخُل فيها: مُلاطفتهم عند دعوتهم إلى الله، ولا التعاملُ معهم ببيع أو شراء، ولا نكاح المُحصنات من أهل الكتاب، ولا محبَّة الزوج لزوجته الكتابيَّة المحبَّة الطبيعية -كمحبَّة الجائع للطعام- مع بُغْضه لدينها، ولدين قومِها.

وفيها: عدم جواز تولية الكافر على شُؤون المسلمين ومصالحهم العامَّة.

وفيها: التحذير من مُصادِقة الكفَّار، ومُعاشرتهم، وشهود أعيادهم، والإقامة بينهم، والتقارُب معهم.

وفيها: الموعظة بالآخرةِ وعذابِ الله، لمن يرتكب ما نهى الله عنه.

وفيها: التحذير من غَضَب الله.

وفيها: وجوب رَدِّ الأحكام إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

ولـمَّا كانت الموالاة أمرًا قَلْبيًّا، وقد يخفى على العِباد؛ نبَّه الله تعالى أنَّه لا يخفى عليه شيء؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: تُسِرُّوا مُوالاة الكفَّار ومَودَّتهم في قُلُوبكم -أيُّها المؤمنون-. أو: إن كنتُم تُسِرُّون البُغضَ والعداوة لمحمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابِه وأتباعِه -أيُّها المنافِقون واليهود- ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾: تُظْهِروا ذلك.

والآية تشمل: كلَّ ما تُخفيه القُلوب، من خيرٍ وشرٍّ.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٥٧).

فكلُّ ما تُخفوه أو تُظهِروه ﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾، ولا يخفى عليه، ويحفَظه فيُجازيكم به، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما بينهما، عُمومًا وتفصيلًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: ختمَ الآيةَ ببيان قُدرته -بعد بيان عِلْمه-؛ فهو القادر على عقوبة مَن عَلِمَ عصيانَه ومُوالاتَه لأعدائه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أصل ومحلَّ الولاء والبراء هو القَلْبُ، ومحلُّه الصدر، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفيها: التنبيه بالعِلْم العامِّ بعد العِلْم الخاصِّ، فمَن كان لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض؛ فكيف يخفى عليه ما في قُلُوب خَلْقه؟!

وفيها: أنَّه عَزَّوَجَلَّ عَلِمَ ما انطوَتْ عليه قُلُوبُ أوليائه من مُوالاة المؤمنين. ويَعْلَم اطمئنانَ قُلُوبهم بالإيمان في حال اضطرارهم إلى التَّقيَّة باللِّسان؛ فلا يُعاقِبهم على ذلك. وهو عليمٌ بما انطوَتْ عليه قُلُوبُ أعدائه من بُغض المؤمنين، وما انطوَتْ عليه قُلُوبُ المنافِقين من مُوالاة الكافرين؛ فيُعاقِبهم على ذلك ويُجازيهم عليه.

وفيها: أنَّ الله قادر على أهل السماوات والأرض، يفعل فيهم ما يشاء.

وفيها: تذكير أعداءِ الله وأهلِ المعاصي بعِلْم الله وقُدرته؛ لعلَّهم يَرْجِعون عن كُفرهم، ولا يجترِئون على معصية الله.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم أعمال العِباد قبل وقوعها وبعد وقوعها، لكنَّ عِلْمَه الأزليَّ قبل أن يخلُقَهم لا يترتَّب عليه ثواب ولا عقاب، وأمَّا عِلْمه بأعمالهم بعد وقوعها: فيترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ لقيام الحُجَّة على العِباد.

وفيها: التحذير من المعاصي، في السِّر والعلَن.

وفيها: إشارةٌ لطيفة إلى أنَّ الأعمال تكون خفيَّة في الضمائر أولًا، ثم تظهر في العلَن.

وفيها: أنَّ النِّيَّة تسبِق العمل؛ وهذا مأخوذٌ من تقديم (الإخفاء) على (الإبداء) في الآية.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾:

ثم وعظَ الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه، وذكَّرهم بيوم الحساب؛ فقال: ﴿يَوْمَ﴾ أي: اذكُروا ذلك اليومَ، وذكِّروا به ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من المكلَّفين -إنسًا وجنًّا- ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: في صحائف الأعمال التي تُنشَر. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ تجِده مُحضَرًا أيضًا، ولكنها ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ وزمنًا طويلًا، ومسافة طويلة.

ثم أكَّد تعالى تهديدَه، وكرَّر وعيدَه؛ فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يخوِّفكم عقابه.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ﴾ (الرأفة) أشدُّ من الرحمة، فهي رحمةٌ مع لين. ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: رحيمٌ بخَلْقه. وهذه تَرْجيةٌ بعد التخويف؛ ليعيشَ المسلمُ بينَ الخوف والرجاء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التذكيرُ المستمرُّ بيوم القيامة.

وفيها: إحضار الأعمال المكتوبة بينَ أيديهم في ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، ليقرأ كلُّ واحدٍ ما عمِلَ، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، ولِتقومَ الحُجَّة من نفسه على نفسه، كما قال في الآية التي بعدَها: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وفيها: أنَّ العبد يُحِبّ ما عَمِلَ من الخير، ويَسُرُّه يومَ القيامة قُرْبُه منه. ويَسُوءُه ما عَمِلَ من الشرِّ وقُرْبُه منه، ويتمنَّى لو كان بعيدًا عنه غاية البُعد.

وفيها: التحذير من سَخَط الله وعذابه.

وفيها: أنَّ على العبد أن يُرجِّح جانبَ الخيرِ وعملَه، على جانب السُّوءِ وعملِه.

وفيها: أنَّ تَكرار التحذير مفيدٌ في تَكرارِ التأثير، وتذكيرِ الغافل.

وفيها: الجَمْع بين الترغيب والترهيب في الدَّعوة.

وفيها: أهميَّة إلحاق التخويف بذِكر الرجاء؛ لئلَّا يَقْنَط العِباد من رحمة الله تعالى.

وفيها: أنَّ تحذير الله لعباده من عذابه، هو من الرَّأفة بهم.

وفيها: تودُّد الله إلى عباده، ورحمته بهم.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾:

ولـمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قُدرتَـه، وانفرادَه في مُلكه، وأوجبَ مُوالاتـه، وحرَّم مُوالاة أعدائِه؛ ذكرَ محبَّته، وبيَّن طريقَ الوصول إليها، وأنَّ الدليل والبُرْهان على محبَّة الرحمن هو طاعةُ سيِّد ولدِ عدنان صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهذه الآية يُسَـمِّيها بعضُ السَّـلَف «آية المِحْنة» -أي: الاختبار والامتحان- وذلك أنَّ قومًا ادَّعَوا محبَّة الله، فأمرَ الله نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يُخبِرَهم بهذا الميزان، فقال:

﴿قُلۡ﴾ لهـم -يا محمَّـد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- : ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ صِدقًا، وليـس مجرَّد دعوى، وتريـدون التقـرُّب إليه؛ ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ عقيدةً، وقـولًا، وفِعْلًا وتَرْكًا، واقتَـدوا بي، بامتِثال ما أُوحِيَ إليَّ. فإنْ فعلتُم؛ ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال الحسـن البَصْـريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ وغيرُه من السـلَف: «زعمَ قومٌ أنَّهم يُحِبُّون الله؛ فابتلاهم الله بهذه الآية؛ فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾»[(١)].

ومحبَّة الله للعبد أعظَم من محبَّة العبد لله، كما قال بعض العلماء: «ليس الشأن أن تُحِب الله؛ ولكنّ الشأن أن يحبّك الله»[(٢)].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ وهـذه الفائدة الثانية للاتِّباع؛ فيتجـاوز الله عمَّا فرَّطتُم فيه، ويمحو الذُّنوب، ويُيَسِّر لكم أسبابَ المغفرة. و(الذنب): هو المعصية.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾: بالغ المغفرة؛ لكثرة المغفور لهم وكثرة الذُّنوب المغفورة. فهو سبحانه يستر الذَّنب، ويتجاوز عنه، ويمحو أثرَه. ﴿رَّحِيمٞ﴾ بمَن تقرَّب إليه، باتِّباع نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فجمعَ لهم بينَ الوقاية والعِناية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٢) روضة المحبين لابن القيم (ص٢٦٦)

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المحبَّة لله علامةٌ، ونتيجةٌ وثمرةٌ؛ فحبُّ المؤمنين لله يكون باتِّباع أمرِه، واتِّباع رسوله، وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته.

وفيها: ابتلاء الله لعباده، وامتحانه لهم بهذا الميزان؛ ليظهَر المُحِبُّ الصادِقُ من المُحِبِّ المُدَّعي.

وفيها: أنَّ الدعوى وحدَها لا تكفي؛ بل لا بُدَّ من إقامة البيِّنة على صِحَّتها؛ فقد ادَّعى اليهود أنَّهم أحبابُ الله، ويدَّعي كثيرٌ من الناس أنَّهم يُحِبُّون الله؛ فكان الاتِّباع ميزانًا حاكمًا في صِحَّة هذه الدعاوى.

وفيها: عَرْض حال مَن يدَّعي ولاية الله على هذا الميزان.

وفيها: وجوب اتِّباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلا زيادة ولا نقصان، وأنَّ هذا يشمل أعمال القَلْب والجوارح.

وفيها: بيان طريق نيل محبَّة الله.

وفيها: كَرْم الله تعالى؛ فإنَّه يُقابِل المحبَّة الصادِقة بمحبَّةٍ أعلى، وزيادةٍ -وهي مغفرة الذُّنوب-.

وفيها: أنَّ حسَنة الاتِّباع عظيمة؛ فهي تمحو الذنب، وتُوجِب عدم العقوبة.

وفيها: جواز مُخاطَبة المدَّعي بالتحدِّي، وطلب تقديم الدليل والبرهان.

وفيها: ادِّعاء الكفَّار محبَّةَ الرحمن، والرَّدُّ عليهم. وقد قيل: إنَّ المخاطَبين بهذه الآية هم اليهود والنصارى، أو المنافِقون، لكن العِبْرة بعُموم اللَّفظ؛ فهي لكلِّ مُدَّعٍ للمحبَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما اشتدَّ اتِّباع العبدِ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ اشتدَّت محبَّة الله له.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله عَزَّ وَجَلَّ، على الوَجه اللَّائِق به.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل.

وفيها: إثبات المحبَّة بينَ الخالِق والمخلوق، وأنَّها تكون من الخالِق ومن المخلوق، خلافًا لمن أثبتها من جانب العبد وحدَه.

وفيها: أنَّ الصادِق في محبَّته لله، يكون مهديًّا مُسَدَّدًا، مُتَّبِعًا للسُّنَّة، ذا قَبول في الأرض.

وفيها: تعظيم شأن السُّنَّة النبويَّة، والحِرْص على اتِّباعها في جميع الأمور.

وفيها: تقديم السُّنَّة على كلام كلِّ أحد.

وفيها: الارتِقاء بالنفس من مستوى التقليد إلى اتِّباع الدليل، لكنَّ هذا للمتأهِّلين، بضوابطه.

وفيها: رَدُّ الأعمال المخالِفة لِما عليه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: الإشارة إلى شرطَي قَبول العمل الصالح؛ وهما: الإخلاص والاتِّباع، والتزام الهدي النبوي في طريقة العمل. فالإسلام مبنيٌّ على أصلَين: ألَّا نعبدَ إلَّا الله وحدَه، ولا نعبده إلَّا بما شرَعَ.

وفيها: تفاوت العِباد في الاتِّباع والمحبَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَت محبَّة العبد لله ازدادَ اتباعُه لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فازدادت محبَّة الله له.

وفيها: التسليم وتَرْك الاعتراض على السُّنَّة النبويَّة.

ومضمون هذه الآية من القواعد الكُلِّيَّة والأُسُس العظيمة، التي ينبغي البَدْءُ بها في دَعوة الناس، وتربيتُهم عليها.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾:

ثم بيَّن تعالى أنَّ الاتِّباع إنَّما يحصل بالطاعة؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾: بامتِثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه ﴿وَالرَّسُولَ﴾: باتِّباعِ سُنَّته، والتزامِ هَديه. و(الطاعة) هي: الانقياد والموافقة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرَضوا، وخالفوا أمرَك؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾، ولا يرضى فِعْلَهم، ويَسْخَط عليهم. وهذا (الكُفر) قد يكون كُفرًا أكبرَ، مخرجًا من المِلَّة؛ إذا كان التولِّي والإعراض عن الطاعة كاملًا. وقد يكون كُفرًا أصغر، لا يُخرج من المِلَّة؛ إذا كان الإعراضُ والمعصيةُ ومخالفةُ الطاعة في أمورٍ دون أخرى، مع بقاء أصل الإيمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ طاعة الرسول ﷺ داخلةٌ في طاعة الله.

وفيها: أنَّ طاعة الله واجبة، وهي دليلٌ على المحبَّة.

وفيها: أنَّ من إعظام الله وإجلاله: إيثار طاعته، واتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعم العملَ بالقرآن وحدَه دون السُّنَّة، وبيانُ ضلال الذين يُسَمُّون أنفُسَهم بـ(القُرآنيِّين)، ويُنكِرون السُّنَّة، ولو كانوا صادِقين في اتِّباع القرآن لاتَّبعوا النبيَّ ﷺ وأخذوا بسُنَّته؛ فإنَّ هذا مأمورٌ به ومنصوصٌ عليه في القرآن!

بل قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «نظرتُ في المُصحَف، فوجدتُ فيه طاعةَ رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا»[(١)].

وفيها: أنَّ طاعة النبيِّ ﷺ إنَّما هي لكونه رسولًا من عند الله، لا لمجرَّد صِدقه وبشريَّته.

وفيها: وجوب طاعة الله ورسوله، وعُمومُ الطاعة في جميع الأمور؛ فالآية عامَّة، لم تذكر مجالًا للطاعة دون آخر.

وفيها: إظهارٌ في موضع الإضمار؛ فإنَّه لم يقل: «فإن تولَّوا فإنَّ الله لا يحبُّهم»؛ وإنَّما صرَّح بتسميتهم فقال: **﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾**، **وفي هذا فوائد:**

منها: مراعاة فواصل الآيات.

وبيان حُكم هؤلاء، وأنَّهم كفَّار.

وتعميم الحُكم على غيرهم؛ وهو أن محبَّة الله مُنتفية عن كلِّ كافر.

وتعليل الحكم، ببيان أنَّ عدم محبَّة الله لهم إنَّما نشأت عن كُفرهم.

وليتبيَّن -بالمفهوم- أنَّ الله تعالى يُحِبُّ المؤمنين، وأنَّ محبَّته مخصوصةٌ بهم.

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطَّة (١/ ٢٦٠).

وفي الآية: التحذير من تقديس الأشخاص والعلماء، والغُلُوِّ فيهم، وتقليدهم في كلِّ ما يقولونه؛ لأنَّهم غير معصومين، وأنَّ مَن قلَّد أحدًا من الناس في كلِّ شيء؛ ففي طاعتِه لله ورسولِه نقصٌ.

وهذه الآية أيضًا من القواعد الأساسيَّة والأمور الكُلِّيَّة، التي ينبغي البَدْء بها في دعوة الناس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾:

ولـمَّا ذكر الله تعالى دينَ الحقِّ، واختلافَ أهلِ الكتاب، ووجوبَ طاعةِ الله واتِّباعِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان سياق الآيات في دعوة وَفد نصارى نَجْران؛ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ نفرًا من الذين أحبَّهم واصطفاهم ورفعَ درجاتهم؛ فبدأ بأبرزِ مَن في نسَب عيسى وأُمِّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ من الأنبياء -وهم ثلاثةٌ كبار-؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارَ ﴿ءَادَمَ﴾، بأن خلقَه بيدِه، وأسجدَ له ملائكته. واصطفاؤه تابعٌ لمشيئته. و(آدم): هو أبو البشَر، علَّمه الله أسماءَ كلِّ شيء، وأسكنَه الجنَّة أولًا، وجعله نبيًّا.

﴿وَنُوحٗا﴾ وهو الأصل الثاني، والأب الثاني للبشريَّة، اختارَه الله واصطفاه، وفضَّله بالنبوَّة والرِّسالة؛ فهو أول رُسُل الله إلى أهل الأرض، وجعلَ الله ذُرِّيَّته هم الباقينَ بعد الطُّوفان.

﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ومنهم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط. وعلى رأس آل إبراهيم: إبراهيم نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فاصطفاه الله بأنْ جعلَه نبيًّا رسولًا، وجعلَه خليلَه من أهل الأرض، وجعل النبوَّة من بعده في ذُرِّيَّته وحدَهم، ومنهم: آخر الأنبياء محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ يعني: أهلَه. و(عِمران): هو والد مريم أُمِّ عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: في زمانهم. و(العالَم) يشمل كلَّ مَن سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖ﴾ يعني: في الخِلْقة، ومُتناسِلون من بعضهم في النَّسَب، ومُتجانِسون في الدِّين والتُّقى والصلاح.

وصَحَّ عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنَّه قال في تفسير هذه الآية: «في النِّيَّة، والعمل، والإخلاص والتوحيد له»(١).

و(الذُّرِّيَّة) مأخوذة من «ذرأ» بمعنى: خلقَ. وعلى هذا فهي تشمل الأصولَ والفروعَ؛ لأنَّ الكلَّ مخلوق.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العِباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ من أفعال الله تعالى: الاصطفاء والاختيار؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ [القَصَص: ٦٨].

وفيها: أنَّ البشر جِنس واحد.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعم أنَّ البشر متطوِّرون من جِنس آخر، كالقِرَدَة أو فصيلة الثَّدْييات؛ فالآية صريحةٌ في أنَّ أولئك المصطفَين الأخيار بعضُهم من نَسْل بعض؛ فهم مُتَّصِلو النسَب؛ فنوحٌ من ذُرِّيَّة آدم، وآلُ إبراهيم من ذُرِّيَّة نوح، وآل عمران من ذُرِّيَّة آل إبراهيم؛ فهم جميعًا سِلْسِلَة متَّصلة الحَلْقات في النسَب والخصال الحميدة، وهم جِنس واحد، غير متطوِّر ولا متحوِّل من غيره.

وفيها: أنَّ الاصطفاء نِعمة من الله، ينبغي شُكرها. فالمسلم الحقُّ المستقيمُ يحمَد ربَّه أن جعلَه حيًّا لا جمادًا، وإنسانًا لا بهيمة، وجعلَه مسلمًا لا كافرًا، وجعلَه من أهل السُّنَّة لا من أهل البِدعة، وجعلَه مستقيمًا على طاعته غيرَ منحرِفٍ بالمعصية والفُسوق، وإذا كان يدعو إلى الله على بصيرة؛ فيحمَد ربَّه أن جعلَه صاحبَ عِلْمٍ وليس جاهلًا، وجعلَه داعيةً إلى الله غيرَ قاعدٍ ولا متكاسِلٍ.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٨).

وفي قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: موعظةٌ للنصارى، بأنَّ الله يسمع قولهم بأنَّ المسيح ابنُه -تعالى الله عن ذلك- وأنَّه عليمٌ بعُقوبتهم على باطلهم.

وفيها: ذِكر أصفياء الله؛ لنتَّبِعَهم، ونقتديَ بهديهم.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، الذين يزعمون ألوهيَّة المسيح، وأنَّه ابن الله، وليس من البشر؛ فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ جدَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو عِمران، وهو من نَسْل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي هو من نَسْل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلُّهم من نَسْل أبي البشر وأصلِهم -وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم مَن يستحِقُّ الفَضْل والتفضيل، فيضع فَضْلَه حيث اقتضَت حِكمتُه سبحانه.

وفيها: فَضْل تَنشئة المسلِم لأهل بيته على الدِّين والتَّقوى والصلاح، وأنَّه سبَبٌ لثناءِ الله عليهم، واصطفائِهم على غيرهم.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «ذكرَ الله أهلَ بيتَيْنِ صالحَينِ، ورَجُلَيْنِ صالحَينِ، ففضَّلهم على العالمَين؛ فكان محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آل إبراهيم»(١).

وفيها: أنَّ الاصطفاء ليس خاصًّا بالنبوَّة؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يصطفي الصالحين والأخيار والأبرار، ويكون هذا سببًا لوراثتهم العِلْمَ، وجَعْلِ الخيرِ والبركةِ فيهم؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ومنهم العلماء.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾:

ولـمَّا كان أول هذه السُّورة للرَّدِّ على النصارى، وبيانِ الحقِّ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ مَبدأ أمرِ عيسى، وقِصَّة ولادتِه، ونَسَبِه، وذِكر خَبْر جَدِّه وجَدَّته؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ أي: واذكر -يا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هؤلاء النصارى وغيرهم،

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٢٦)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٥).

قِصَّة المرأةِ الصالحة امرأةِ عِمران -وهي أُمُّ مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ- وكانت لا تَحْمِل، فاشتهَت الولد، فدعَت ربَّها أن يَرْزُقها إيَّاه، ونذرَت إنْ ولدَتْه أن تهبَه لِخدمة مسجد بيت المقدِس، وتوقِفَه على خِدمته. وكان نَذْرُ الذُّكور من الأولاد لِخدمة بيوت الله من جملة عباداتهم، وكان مفروضًا على الأولاد طاعةُ آبائهم في هذه النُّذور.

لكن شاء الله أن تَحْمِل بابنتها مَرْيم، وكانت تتمنَّى الولدَ الذَّكر.

فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أي: التزمتُ، وأوجبتُ على نفسي ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ من الولد -أيًّا كان- ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا من أمر الدُّنيا، خالصًا لطاعتك، ومفرَّغًا لخدمة بيتك. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ نَذْري وقُربتي. و(القبول): هو التلقِّي على وَجْه الرضا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدُعائي، فتستجيبه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيَّتي وما في قَلْبي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيم أمر هذه القِصَّة؛ لأنَّ الله تعالى أمر نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبيِّنها للناس.

وفيها: جواز النَّذْر بما في البطن -وإنْ كان مجهولًا- فلو قال: «لله عليَّ أن أتصدَّق بما في بطن ناقتي»؛ لزِمَه أن يتصدَّق به، سواءً كان ذكرًا أو أنثى، واحدًا أو أكثر.

ويمكن أن يُفهَم من الآية: جواز تصدُّق المرأة بدون إذن زوجها.

وفيها: أنَّ الولد يخدِم أُمَّه وأباه؛ لأنَّها نذرَتْه محرَّرًا، بمعنى: أنَّها لا تستخدِمه في خِدمة نفسها ولا غيرها؛ وإنَّما تجعله موقوفًا على خِدمة مسجد بيت المقدِس.

وفيها: الدُّعاء بقَبول العمل، وأنَّ ذلك من وسائل طَرْد العُجْب من النفس.

وفيها: تفريغ النفس للعبادة.

وفيها: أنَّه كان من عبادات مَن سبقنا: الاعتكاف -أو العُكُوف- على خِدمة المساجد.

وفيها: فَضْل مسجد بيت المقدِس؛ لأنَّهم كانوا ينذُرون أولادهم لِخدمته.

وفيها: اختيار ما يُناسِب من أسماء الله تعالى، للتوسُّل به في الدُّعاء.

وفيها: تخليص العِبادة من شوائب الدُّنيا.

وفيها: قَصْر بعض ما يَمْلِكه الإنسان على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا قريبٌ من معنى (الوَقْف).

وفيها: فضيلة ظاهرة للمرأة الصالحة امرأة عِمران (وكان رجلًا صالحًا)؛ فإنَّها آثَرت خِدمة بيت الله على حاجة نفسها، وكانت حَسَنَة الظنِّ بربِّها.

وفيها: توجيه الولد لطاعة الله من أولِ أمره، وحداثةِ سِنِّه.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾:

ولـمَّا لم تكن امرأة عِمران تَعْلَم جِنس الجنين الذي في بطنها -وكانت قد نذرَتْ ذلك النَّذر-؛ فُوجِئَت عند ولادتها بأنَّ المولودَ أنثى.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ وولدَت المنذورَ؛ ﴿قَالَتْ﴾ متحسِّرةً، معتذِرة إلى ربِّها -لأجلِ عدم استطاعتها الوفاءَ بالنَّذْر-: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ النَّذر لخدمة المساجد كان قاصرًا على الأولاد الذُّكور.

قوله ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: أعلَم بالذي ولدَتْه، وأعلم بذلك من كلِّ أحد، وأنَّه سيجعل من ابنَتِها هذه أفضل نساء زمانها، وسيجعل منها ومن ابنِها آيةً للعالمين.

وقرأ ابنُ عامرٍ وغيرُه -وهي قراءة صحيحة-: (والله أعلَمُ بما وضعتُ) -برفع التاء- فيكون هذا من تمام كلامِ امرأة عِمران، ويكون هذا منها من باب كمالِ الأدب؛ احترازًا من أن يُظَنَّ بقولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أنَّها تخبر ربَّها عمَّا لا يَعْلَم؛ فيكون التقدير: «إني وضعتُها أنثى، والله أعلمُ بما وضعتُ؛ فلستُ أخبرُ الله بأمرٍ يخفى عليه؛ بل هو سبحانه أعلم منِّي بما وضعتُ».

قوله ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ يعني: فلا تماثل بينهما ولا مساواة؛ بل لكلٍّ منهما مِيزاته وخصائصه.

والنذر لخدمة المساجد يقع على الذُّكور؛ لأنَّ الذكر أقوى، وأدوم في العمل، وأكثر جلَدًا في العِبادة، والأنثى إذا حاضَتْ لا تستطيع أن تخدِم في المسجد؛ فليس الذَّكر كالأنثى.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت المرأة لا يُستطاع أن يُصنَع بها ذلك، يعني: أن تحرَّر للكنيسة، فتُجعَل فيها، تقوم عليها وتَكْنُسها، فلا تَبرَحُها؛ ممَّا يصيبها من الحَيْض والأذى؛ فعند ذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾»[1].

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: اختارَت لها هذا الاسم، وسمَّتها به يومَ ولادتها، وهو اسم أعْجَمِيّ، وقد يكون مشهورًا عندهم. قيل في معناه: العابدة، أو الخادمة، أو الجارية.

قوله تعالى ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أي: أُجيرُها وأولادَها، بحِفظك وعِصمتك. و(الاستِعاذة): الالتِجاء والاعتِصام.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهو: إبليس، أبو الجنِّ، اللَّعين، وهو مشتقٌ مِن «شَطَنَ» إذا بَعُدَ؛ لأنَّه بعيدٌ مطرودٌ من رحمة الله؛ فهو ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المرجوم المطرود.

وقد استجابَ الله دُعاءَ امرأة عِمران؛ ففي الحديث: «مَا مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا من مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إنْ شِئْتُم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2].

وفي حديثٍ آخر: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ، حِينَ يُولَدُ، غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»[3]، و(الحِجاب) هو «المَشيمة»، التي يكون فيها الولَد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيمُ حقِّ الأُمِّ، وكبيرُ فَضلِها، ووجوبُ برِّها والإحسانِ إليها؛ لأنَّها تحمِل ولدَها في بطنها تسعة أشهر، قاعدةً وقائمةً، مستيقظةً ونائمةً، وعلى جميع أحوالِها، يصحبُها

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٦).

حيث كانت، وتتكلَّف هذا الحَمْل وتُعاني فيه حتى تضعَه؛ كما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿وَضَعَتْهَا﴾.

وفيها: اعتذار الإنسان لربِّه، إذا وقع الأمرُ على خلاف ما أرادَه من الطاعة والقُرْبة، كما اعتذرت امرأةُ عِمران لربِّها.

وفيها: احتراز الإنسان عمَّا يُمكن أن يُوهِمَه كلامُه من المعاني الباطلة.

وفيها: إثبات الفروق العظيمة بينَ الذكور والإناث، وأنَّ هذين الجنسَين لا يستويان، لا في الطبيعة، ولا في الجِسْم والخِلْقة، ولا في الفَضْل والقُدرة، ولا في العاطفة والتحمُّل. ففيها رَدٌّ على دُعاة المساواةِ بينَ الجنسَين، وتوليةِ المرأة وظائف الرِّجال!

وفيها: أنَّ الرِّجال هم الأنسب والأفضل لِخدمة المساجد.

وفيها: تسمية المولود في يوم ولادته، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»(١)، وسمَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخا أنسِ بن مالك من أمِّه (عبدَ الله) بعد ولادته(٢)، وهو: عبد الله بن أبي طلحة.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السنة: أن يُسَمَّى المولودُ في اليوم السابع من ولادته، أو يوم الولادة»(٣).

وفيها: تعويذ الإنسانِ أولادَه بالله العظيم، من الشَّيطان الرجيم، ومن شرِّ الخَلْق.

وفيها: جواز الدُّعاء للمعدوم من الأولاد -الذي لم يُولَد بعد-؛ لقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ومعلومٌ أنَّ ذُرِّيَّة مريم لم تكن موجودةً عند الدُّعاء لها.

وفيها: أنَّ دعاء الوالدَين الصالحَين ينفع الولدَ، ولو كان لا يَعْقِل.

وفيها: التفاؤل، وحُسن الظنِّ بالله تعالى، بالدُّعاء لذُرِّيَّة الولد، بالسلامة واستمرار الحياة؛ ليُنجِبَ ويكونَ له أحفادٌ. وفيه تفاؤل وحُسنُ ظنٍّ لا يخفى.

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

(٣) الأذكار (ص٢٨٦).

وفيها: أنَّ تسلُّط الشَّيطان على المولود قويٌّ؛ فينبغي الإكثار له من الدُّعاء. وقد قيل: إنَّ العقيقة من أسباب فكِّ تسلُّط الشَّيطان على المولود؛ فالله أعلم.

وفيها: جواز تسمية الأُمِّ للمولود، بشرط موافقة الأب.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾: دليلٌ على عِظَمِ شأن المولودة مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، وعُلُوِّ منزلتها، وأنَّها وإن لم تصلُح للسِّدانة وخِدمة المسجد؛ فإنَّ في طاعتِها وعبادتِها وسَبْقِها إلى الله ما يُعَوض عن ذلك.

وفي الحديث: «كَمَلَ من الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ من النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث[1].

وفي الآية: التسليم لقدَر الله، إذا جاءت النتيجة على غير ما يتمنَّى العبد، وهذا على قراءة (بما وضعتُ).

وفيها: أنَّ على العبد أن يُسَلِّم بأنَّ ما قضاه الله له خيرٌ ممَّا كان يتمنَّى وقوعَه.

وفيها: فضيلةٌ لمريمَ وابنِها عيسى عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، في حِفظهما من طَعْن الشَّيطان عند الولادة.

وفيها: جواز اختصاص المفضول بخصائصَ لا ينالها الفاضِل؛ فمريم وابنها عيسى عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ عُصِما من طعن الشَّيطان عند الولادة، ولا يعني هذا أنَّ مَن طعنَه الشَّيطانُ عند ولادته -من الأنبياء- أقلُّ درجةً أو فيه نقصٌ، أو أنَّ هذا يُنافي عِصْمته؛ بل الأنبياء معصومون من إغواء الشَّيطان لا من إيذائه، وإيذاؤه من جِنس الأمراض والآلام والمصائب التي لا يخلو منها بشرٌ.

وفي الآية: مشروعيَّة نذر البِرِّ والطاعة المجرَّد -بلا اشتراط، أو تعليقه على حصول شيء-. وأمَّا نذر المُعاوَضة -بتعليق الطاعة على حصول شيء أو دَفْعه، بحيث لو لم يحصل هذا الشيء لم يقُم بالطاعة-: فمكروه، وعليه تُحمَل النصوص الواردة في النهي عن النذر.

وفيها: التفاؤل بتسمية المولود باسم حَسَن، لعَمَلٍ يَعْمَلُه يكون مُطابِقًا لمعنى اسمه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾:

ثـم ذكرَ تعالى استجابتَه لدُعاء امرأة عمران؛ فقـال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي: قَبِلَ النَّذْر، ورضيَ أن تكون مريمُ محرَّرةً للعبادةِ، وخِدمة بيته -على صِغرها وأنوثتِها-. و(التقبُّل) أبلَغُ مـن (القَبول)؛ فيدُلُّ على مزيدٍ من الرعاية والعِنايـة. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: يسَّرها لليُسرى، وسهَّل لها أمرها، وحبَّب إليها الخير.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني: مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ. فأنبتَها الله تعالى نباتًا حسـنًا، فسـوَّى خَلْقَها وجسَـدَها من غير زيـادةٍ ولا نُقصان، حتى تمَّت وصارَت امرأة بالغة تامَّة، وجعلَ شـكلها مليحًـا، وجمَّلها بكمال الأدب والأخلاق، ويسَّر لها أسـباب القَبـول، وقرنَها بالصالحين مِن عباده، تتعلَّم منهم الخيرَ والعِلْم والدِّين.

ولهـذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعلَـه كافلًا لها؛ لأنَّها كانت يتيمـة، وضمَّها إليه بعد القُرعـة، فـكان مُربِّيًـا لها، وقائمًا على شُـؤونها، وكانت تقتبِس منه عِلْمًا جمًّـا، وعملًا صالحًا. و(زكريّا) عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من أنبياء الله، من ذُرِّيَّة سليمان بن داود عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا﴾ في أيِّ وقت ﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ وهو مكان العِبادة -أيًّا كان شَـكلُه- سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ المتعبِّد فيه يُحارِب الشَّيطان. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا﴾: طعامًا، لقيام بدَنها، يُعينها على العِبادة. فقيل: كان يجد عندها فاكهة الشِّتاء في الصَّيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عِنبًا وجدَه زكريّا عند مريم في غير زمانه»[١].

وأيًّـا كان الأمـر؛ فوجود طعام -مـن أيِّ نوع- عند امرأةٍ مُنقطعةٍ للعبادة، لا تكتَسِـب؛ هو كرامةٌ لها.

﴿قَالَ﴾ زكريّـا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ يعني: من أين لكِ هـذا الرِّزق، وكيف يَجيئُكِ والأبواب مُغلقة عليكِ؟!

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٥٥)، تفسير ابن المنذر (١/ ١٨٢).

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لا من عند غيره، يأتي به الرَّزَّاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ (الرِّزق): هو العَطاء، وقد يكون رزقًا للبَدَن، أو رِزقًا للرُّوح والقَلْب. ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزُق رزقًا كثيرًا وفيرًا، لغير سبَب معلوم، ومن غير مُكافأة ولا استِحقاق، ورُبَّما بغير مسألة؛ تفضُّلًا منه ومِنَّة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثبات كرامات الأولياء، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يَخْرِق العادة لبعض أوليائه؛ تثبيتًا لهم، وترغيبًا للناس في مثلِ حالهم.

والفرق بينَ كرامات الأولياء الإلهيَّة وخوارق السَّحرة والدَّجَّالين الشَّيطانيَّة، هو حالُ صاحِب كلٍّ منهما؛ فقد وصفَ الله الأولياء بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

والضابط في هذا: أن يُعرَض هذا الخارِق على الكتاب والسُّنَّة، فإن لم يكن مُخالفًا لهما، وتوفَّرت فيه شُروط الكرَامة -كصلاح صاحبها، وعدم استعانته بهذا الخارِق في المعصية أو ترك واجب، وغير ذلك-؛ كانت كرامةً، وإلَّا، فهو تلبيسٌ من الشَّيطان الرجيم.

وفيها: أنَّ صلاح الراعي وحُسن دُعائه، له أثرٌ في درجة الاستجابة وحُسن القَبول.

وفيها: أنَّ برَكة البنت الصالحة قد تفوق كثيرًا من الذُّكور، وأنَّ البنت قد تكون أصلَح لوالدَيها من كلِّ أبنائها.

وفيها: أهميَّة تنشئة الأولاد على طاعة الله.

وفيها: أهميَّة اقتران الولد بمربٍّ صالح، يعتَني به ويتعاهَدُه، ويُعَلِّمه ويُؤَدِّبه، ويكون قُدوةً صالحة له.

وفيها: أنَّ مُصاحبة الأخيار والصالحين من الصِّغَر، تؤدِّي إلى غَرْس معاني التوحيد والأخلاق الفاضلة في النفس.

وفيها: أهميَّة التربية بالاقتداء.

وفيها: فَضْل كَفالة الأيتام، وأنَّ ذلك لا يقتصر على النَّفقة الماليَّة؛ بل يتعدَّاها إلى ما هو أهمُّ، وهو التربية والتعليم.

وفيها: فَضْل زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي سابقَ في الأعمال الصالحة وسارعَ؛ حِرْصًا على كَفالة اليتيمة. وقد قال الله تعالى عن هذا البيت المُبارَك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفيها: أنَّ الله قد يَرْزُق بغير سبَب ظاهر، وعلى خلاف ما يتوقَّعه العِباد.

وفيها: استحباب تخصيص مكان طاهر طيِّب للعبادة، والخَلوة بالرَّبِّ تعالى.

وفيها: أنَّ العِبادة قد تكون سببًا لجَلْب الرِّزق.

وفيها: فَضْل الله تعالى على مريم، بالرِّزقِ المستمِرّ والعطاءِ الواسع.

وفيها: جواز إظهار التعجُّب لحال أولياء الله وكراماتهم.

وفيها: حُسن اعتقاد مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ في الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حيث نسبَت الرِّزق إليه.

وفيها: أنَّ الرِّزق تَبَعٌ لمشيئة الله، ومشيئته تَبَعٌ لِحكمته.

وفيها: أنَّ صلاح الأبوَين سبَبٌ لِحفظ الأولاد ورِزقِهم.

وفيها: اعتناء الأخيار بأولاد الأخيار.

وفيها: أنَّ مَن تولَّى كَفالة يتيم أو ضعيف -كالمرأة-؛ فإنَّ عليه أن يتفقَّده ويصونه باستمرار، مع مُراعاة الضوابط الشرعيَّة.

وفيها: أنَّ النمُوَّ الحَسَن للطِّفل في بدنه نِعمة من الله، ويجب على الوالدَين الأَخْذ بأسبابها، ووقاية الطفل ممَّا يضُرُّه.

وفيها: أنَّ النبات الحَسَن في الدِّين والخُلُق نِعمة من الله، ويجب على الأبوَين -أو مَن يكفُل الطِّفل- بذلُ الأسباب لغَرْس ذلك في نفسه وتنميته.

وفيها: أنَّ التربية الصالحة للصغير تقودُ -في العادة- إلى جَعْله طائعًا لله؛ فقد صارت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ من العابدات القانتات، بفضل حُسن تربيتها وهي صغيرة.

وفيها: أنَّ لكلِّ ضَعْف لُطفًا، وأنَّ الله لا يُضيع عباده.

وفيها: الاعتراف للمُنعِم بالنِّعمة، ونِسبتُها إليه، ورَدُّ الفَضْل لأهله؛ وذلك في قول مريم: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

وفيها: عدم احتقار البنات، والاستهانة بهنَّ؛ فقد يوجد منهنَّ مَن تكون قُدوةً للناس.

وفيها: أنَّ تسخير الله للرِّزق، لا يُشترَط أن يكون بنزولٍ من السماء، أو بإتيان الملائكة به؛ بل قد يَخْلُقُه الله عَزَّوَجَلَّ في مكانه.

وفيها: أنَّ توحيد العبد لربِّه، وحُسنَ عبادته له؛ يكون سببًا في استغنائه عن المخلوقين، وعدمِ الحاجة إليهم.

وفيها: أنَّ رعاية الله للمكفول، أعظَم من رعاية كفيله له.

وفيها: جواز اختصاص المفضول بخصائصَ لا ينالها الفاضِل، فالله عَزَّوَجَلَّ قد يَخُصُّ الأدنى بفضيلة لا يُعطيها لَمن هو أعلى منه، مع اختصاص الفاضِل بفضائل أكثرَ غيرِها، كما حصل مع مريم -وهي صِدِّيقة- مقارنةً بحال زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -وهو نبيٌّ- مع الاعتقاد بأنَّ معجِزات الأنبياء أعظَم من كرامات الأولياء.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾:

فلـمَّا رأى زكريّا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تلك الكرامة العظيمة التي حصلت لمريم بدون سببٍ ظاهر، وخلافًا للمتوقَّع؛ طَمِع -وهو الشيخ الكبير في السِّنِّ- أن يُولَد له ولدٌ، وكان قد أيسَ من الولد.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تلك الحال، وفي ذلك المكان ﴿دَعَا﴾ وطلبَ وسأَل ﴿زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ بنداءٍ خفيٍّ، قيل: في جوف اللَّيل.

﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي﴾: أعطني. و(الهِبة) هي إحسانٌ بلا مُقابِل، وتبرُّعٌ يُقصَد به مجرَّد انتفاع الموهوب له ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾: مباركة، نقيَّة، صالحة. و(الذُّرِّيَّة) تُطلَق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، وهي بمعنى «مَذْروءة» أي: مخلوقة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: تُجيب سائِليك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن ظنِّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بربِّه.

وفيها: أنَّ رؤية المؤمن لنِعَم الله على الآخَرين، تدفعه إلى سؤال ما يحتاجه هو؛ فإنَّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى إتيانَ الرِّزق لمريم على وَجْهٍ غير معتاد؛ طَمِعَ أن يكون له ولدٌ في حالٍ غير معتاد؛ فقد كان شيخًا كبيرًا، وامرأته عاقرٌ لا تَلِد.

وفيها: أنَّ انغلاق أبواب الدُّنيا لا يمنَع العبد من سؤال الله حصولَ المقصود.

وفيها: أنَّه ليس من الاعتداء في الدُّعاء سؤالُ ما لا يحصُل عادةً، إذا كان جائزًا شرعًا.

وفيها: أنَّ الله يُعطِي العِباد بلا مقابِل.

وفيها: سؤال الله الذُّرِّيَّة الصالحة -بدَنًا ودِينًا-.

وفيها: خَتْم الدُّعاء بما يُناسِب من صفات الله.

وفيها: أنَّه ينبغي تقييد الدُّعاء بهِبة الولد من الله، بأن يكون طيِّبًا؛ لأنَّ الولد يمكن أن يَصير نكدًا وفِتنةً لوالده؛ كما في قِصَّة موسى والخَضِر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

وفيها: أنَّ الدُّعاء من أعظم أسباب صلاح الذُّرِّيَّة.

وفيها: أنَّ الذُّرِّيَّة الطيِّبة سببٌ لحصول خيرِ الدُّنيا والآخرة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى سُرعة إجابته لدُعاء عبده زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو: جمعًا من الملائكة ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ أي: في حالِ قيامه في صلاته، وقيل: المراد بـ«الصَّلاة» هنا: الدُّعاء ﴿فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ وهو مكانُ عبادتِه، ومحلّ خلوته، ومجلسُ مناجاته وصلاته.

فنادَتـه الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بولادةِ وَلَد. و(البِشـارة): الإخبار بما يَسُرُّ. سُـمِّيت بذلك؛ بسبَبِ تغيُّر البَشَرَة عند سماعها، فيظهر عليها الفرحُ والسُّرور. وقد تُستعمَل في الشَّرِّ أيضًا، وقد تقدّم هذا.

فأخبروه أنَّ الله تعالى يُبَشِّره ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ وهو اسم الولَد، مشتَقٌّ من «الحياة»؛ إشارةً إلى أنَّه سيحيا ويَكبُر. وقيل: لأنَّ الله أحيا قَلْبَه بالإيمان، أو أحياه بالطاعة.

﴿مُصَدِّقًا﴾: مؤمنًا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي كلمة «كن»؛ إشارةً إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، المخلوقِ بالكلمة. فقيل: إنَّ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول مَن صدَّق بعيسى ابن مريم، وكان على سُنَّته ومنهاجه، وكان يحيى وعيسى ابنَي خالَة، متقارِبَين في العمل. وقُتِلَ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبلَ رَفْعِ عيسى إلى السماء بمُدَّة يسيرة.

﴿وَسَيِّدًا﴾ في العِلْم والعِبادة، حليمًا تقيًّا، وهو الذي لا يَغْلِبه الغضب، والفقيه العالِم، الكريم على الله عَزَّ وَجَلَّ، سادَ قومَه في الدِّين والعِلْم والشرَف.

﴿وَحَصُورًا﴾: حاصِرًا ومانِعًا نفسَه عن الرذائل، ومعصومًا من الذُّنوب والشَّهوات المحرَّمة، والفواحِش، والقاذورات.

وأما تفسيرُ (الحصور) بأنَّه: كان لا يأتي النِّساء، ولا يستطيع ذلك؛ فمردود؛ لأنَّ هذا ليس من الكمال اللَّائِق بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا يُستبعد أن يكون ليحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُرِّيَّة.

وأبعَدُ منه: مَن زعمَ أنَّ الآية تدُلُّ على أنَّ تَرْك النِّكاح مُستحَبٌّ! وليس فيها ما يدُلُّ على ذلك، بل سُنَّة الأنبياء بخلافه.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: هذه بِشارة ثانية لزكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في ولَده يحيى -وهي أعلى من الأولى- أنَّ ولدَه سيكون من الصالحين؛ لكونه من نَسْل الأنبياء، وهو داخلٌ أيضًا في جملة عبادِ الله الصالحين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من وظائف الملائكة: الإرسال بالبُشرى لعباد الله الصالحين.

وفيها: أنَّ الملائكة يتكلَّمون بصوت مسموع.

وفيها: مشروعيَّة تبشير الإنسان بما يسُرُّه.

وفيها: جواز تكليم المصلِّي، والأفضل تَرْكُه، إلَّا لحاجة مُلِحَّة؛ لئلَّا يُشَوِّش عليه.

وفيها: جواز اختيار اسم المولود قبل ولادته.

وفيها: أنَّ من أوصاف (السيِّد): أن يكون مُتباعِدًا عن الفواحش.

وفيها: فَضْل إطالة القيام في الصَّلاة.

وفيها: فَضْل يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعِفَّته، وقد جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «مَا من أَحَدٍ من وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا»[1].

وفيها: رَفْع الصوت بالبِشارة، وقد نادى أحدُ الصَّحابة كعبًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من فوق الجبل، يبشِّره بتوبة الله عليه[2].

وفيها: جواز مَدْح الشخص بما يَستَحِقُّه -ما لم تكن هناك مفسدة من ذلك-؛ فإنَّ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ استحقَّ السِّيادة حقيقةً، ومن معاني (السيِّد): مَن فاق أقرانَه في خِصال الخَير. لكن لا يُسرَف في إطلاق المَدْح، وإعطائه مَن لا يستَحِقُّه.

وفيها: الحثُّ على تكميلِ النفس بالصِّفات الطيِّبة، وجَمْعِها في نواحي الكمال، من العِبادة والعِلْم والخُلُق الحسَن.

ويمكن أن يؤخَذ من الآية: أنَّ مَن يحمل نفسَه على الخير، ويُجاهِدها في الامتناع عن الشرِّ -كما هو حال يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ- أجدَرُ بالمدح ممَّن جُبِلَ على ذلك خِلْقة.

وفيها: أنَّ من أسباب السِّيادة على الآخَرين: بَذْل الندى، وكفّ الأذى، والحِلْم، وتحمُّل أذى الآخَرين.

وفيها: أنَّ من توفيق الله للعبد أن يُباعِد بينه وبين الشَّهوات المحرَّمة.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وفيها: أنَّ الصلاح أعمُّ من النبوَّة، والنبيُّ لا يكون إلَّا صالحًا.

وفيها: أنَّ الدُّعاء سبَبٌ لتحقيق ما يتمنَّاه الإنسان، وسبَبٌ لنيل عطايا الرحمن.

وفيها: تأييد الله تعالى للأنبياء والدُّعاة والمُصلِحين.

وفيها: أنَّ الأصلَ تصديقُ صاحبِ الحقِّ في كلَامه ودَعواه.

وفيها: الجَمْع بينَ القيام بحقوق الله، وحقوق المخلوقين.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾:

ولـمَّا بُشر زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالولَد؛ ﴿قَالَ﴾ متعَجِّبًا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾ أي: كيفَ. وهذا السؤال للاستعظام والاستِثْبات، وليس للاستِنكار والاستِبعاد ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: وهذا باعتبار ما سيكون -لأنَّه لم يُولَد بعد- ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي: وحالي أنَّني قد بلغتُ من الكِبَر عِتِيًّا، فأصابني الوَهْنُ والشَّيْبُ، ويُبْس المفاصل والعظام، فلا إنجاب ولا إخصاب؛ فكيف سيأتيني الآن، ولم أُرزَق به حال الشباب؟ كما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: عقيمٌ، لا تَحمِل، ولا تَلِد.

فأجابَتْه الملائكة عن الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمر له ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن رزقكما الولَدَ، وغيرِ ذلك، ولا يحول دون مشيئته شيء. فالأمر كما كان يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دُعائه إذا فرغَ من الصَّلاة: «اللهُمَّ لاَ مَانِعَ لِـما أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِـما مَنَعْتَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

مشروعيَّة طلَب الازدياد من الإيمان واليقين، وكان من شأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الارتقاء في مدارج الكمال، كما فعل إبراهيمُ الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

(١) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

وفيها: شكوى الضعيفِ حالَه إلى ربِّه.

وفيها: أنَّ الله يَخْرِق العادة مُعجِزةً لنبيٍّ، أو كرامةً لوليٍّ. فإذا انخرقت لأهل الكُفر والعصيان كانت استِدراجًا وفِتنةً؛ ليزدادوا إثمًا.

وفيها: ضَعْفُ الإنسان، وعَجْزُه عن إدراك أفعال الله تعالى.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة؛ فإنَّ عدم الصلاحيَة للولد حاصلةٌ من الطرَفَين؛ فالزوج طاعنٌ في السِّنِّ، والزوجة عقيمٌ، ومع ذلك فقد رزقَ الله زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ الولدَ دون أن يُرَدَّ إلى الشباب، ودون زواجٍ بامرأة أخرى غيرِ عقيم.

وفيها: مشروعيَّة طلَب ما يزداد به المؤمِن فرحًا واستبشارًا.

وفيها: جواز وصف الغَير بما يكره، إذا كان المقصودُ البيانَ للحاجة، وليس العَيب والإيذاء.

وفيها: أنَّ أفعال الله اختياريَّة، تابعةٌ لمشيئته؛ فمنها ما يتعلَّق به -ككلامِه، واستوائِه على العرش، ونزولِه إلى السماء الدُّنيا، ونحوها- ومنها ما يتعلَّق بعباده -كإحيائِهم ورِزْقهم وقَبْضِهم ونحو ذلك-.

وفيها: تطمين نفوس المؤمنين بالله ربِّ العالمين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ٤١﴾:

ولَـمَّا كان بَدْء الحَمْل خفيًّا، لا تكاد تشعُر به المرأةُ ولا زوجُها؛ أرادَ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ علامةً على بَدْئه وحُصُوله، وليكونَ أتمَّ لفَرَحه وسُروره، وليزدادَ ارتباطًا بالنِّعمة، ويقينًا بقُدرة رَبِّ العالمين.

فـ **﴿قَالَ﴾** زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ -فيما أخبرنا الله عنه-: **﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾** أي: علامة تدُلُّ على حَمْل امرأتي.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ التي تدُلُّك على ذلك عند حصوله: **﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾** أي: لا تَقْدِر

على كلامهم، ولا تستطيع خطابَهم، من غير عِلَّةٍ ولا مرضٍ ولا خَرَس، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية، بلياليها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إيماءً وإشارةً، بالشفتَين والعينَين والحاجبَين ونحوها، وفي هذه الأيَّام الثلاثة يكون زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ خالصًا مع رِّبه، ولربِّه، وهذا من إكرامِ الله تعالى له.

ولذلك أمرَه فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾: باللِّسان والقَلْب، عبادةً له، وشُكرًا على نِعمته.

﴿وَسَبِّحْ﴾ (التسبيح): هو تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به، بقول: «سُبحان الله» ونحوِها. وقيل: بل المقصود بالتسبيح هنا: الصَّلاة. ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهو آخر النهار، ويبدأ من بعد الزوال. ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهو أول النهار، قيل: من طلوع الفجر إلى ارتفاع الشمس. والمعنى: أنَّه يستغرِق هذَين الوقتَين في التسبيح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز طلَب ما يزيد الإيمان.

وفيها: بيان قُدرة الله العظيمة، بخَرْق العادة، آيةً لعبده زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام، وخصوصًا عند العَجْز عن الكلام.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا انقطَع عن الناس؛ فينبغي أن يشتَغِلَ بذِكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: تربيةُ النفس على الذِّكر الكثير، واستغراقُ الأوقات فيه.

وفيها: فَضْل التسبيح والذِّكر في هذَين الوقتَين العظيمَين، وهما: أول النهار وآخره؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وفيها: شُكر الله على النِّعَم، بعبادته وذِكره وتسبيحه.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

ثم عادَ السِّياق إلى قِصَّة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ لإكمالها، وليحصُل البيانُ في تبرئتها ممَّا رَمَاها به اليهود، وليكتَمِلَ الرَّدُّ على النصارى فيما ادَّعوه من أُلوهيَّة ولَدِها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ﴾ أي: واذكُر -يا محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- خبرَ مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، عندما ﴿قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ مخاطِبةً إيَّاها مُشافَهةً، كما أمرَهم الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارَكِ له -لكثرة عبادَتِك- وجعلَ لكِ الخصال الحميدة، والمزايا العظيمة، ومنها: أنَّه تقبَّلكِ من أُمِّك استثناءً -فقد كان لا يُقبَل في نَذْر الأولاد للمساجد إلَّا الذكور- وأنبتَكِ نباتًا حسنًا، وجعلَكِ في كَفالة نبيِّه زكريَّا؛ ليُحْسِن تربيتَكِ، ورزَقكِ إكرامًا على وَجْهٍ غيرِ معتادٍ؛ لتتفرَّغي لعبادته، وأرسلَ لكِ ملائكته تُخاطِبُكِ مُشافَهةً.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ يعني: من الأرجاس المعنويَّة، كالأفعال الذميمة، والأخلاق الرديئة، والوساوس، والمعاصي، ومن مسيس الرِّجال. وأمَّا الأرجاس الحِسِّيَّة -كالبول والغائط والحَيض-؛ فالظاهر أنَّها كانت كغَيرها من النِّساء.

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ مرَّةً بعد مرَّة، وجعل لكِ مزيدًا من الفَضْل، كاختيارِكِ لتكوني أُمًّا لنبيِّه عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ومكانًا لنَفْخةِ رَسُوله جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

وأيضًا، فضَّلَكِ ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في ذلك الوقت. فهذا التفضيل خاصٌّ بنساء زمانها دون الرِّجال؛ فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا: خَدِيجَةُ»(١).

وفي حديثٍ آخر: «حَسْبُكَ من نِسَاءِ العَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»(٢).

وفي حديث آخر: «كَمَلَ من الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ من النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...» الحديث(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الاعتناء بقِصَّة مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ؛ لتُذْكَر وتُنشَر، ولتكونَ قُدْوةً لنساء العالمين.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٤٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

وفيها: أنَّ من لُطف الله عَزَّوَجَلَّ: تهيئة الأمور قبل وُقوعها؛ فهيَّأ لنبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمًّا صالحة، اختارَها من بين النِّساء، وجعلَ لها المزايا العظيمة.

وفيها: نشر سِيَرَ النِّساء الفاضلات، والقُدوات في الخير؛ لطَمْس قُدواتِ النِّساء في الشرِّ والضلال.

وفيها: براءة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ ممَّا رماها به اليهود، وافتَرَوا عليها، بوَصْفها بالبِغاء، وقالوا في نبيِّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّه ولَدُ زِنا -عياذًا بالله-؛ ففي الآية رَدٌّ بليغٌ على إخوان القِرَدَة والخنازير، كما قال الله عنهم في آيةٍ أخرى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

وفيها: كرامةٌ لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بسماعِها الخِطابَ المباشِر من الملائكة، وليس في هذا أنَّها نبيَّة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

وفيها: تفضيل مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ على نِساء العالَمين في زمانها.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

ولـمَّا أخبرت الملائكةُ مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بنِعَم الله العظيمة عليها؛ أمرَتها بكثرة العِبادة، شُكرًا لله على ذلك، وإعدادًا لها لِـما يُريده الله عَزَّوَجَلَّ من ولادتها نبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقالت الملائكة:

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾: إعادة النِّداء بالاسم تكريمًا وتنبيهًا ﴿ٱقْنُتِى﴾ (القُنوت): الطاعة ودوام العِبادة، وإطالة القيام في الصَّلاة.

قال مجاهد: «أطيلي الرُّكودَ في الصَّلاة -يعني: القُنُوت-»(١)، وقال قتادة في معنى الآية: «أطيعي ربَّكِ»(٢).

﴿لِرَبِّكِ﴾ (اللام) للاختصاص؛ أي: اجعلي قُنُوتَكِ خالصًا لله، بلا شِرْك ولا رياء. فقيل: أطالَت القيام حتى وَرِمَت قدَماها، وحطَّت الطير عليها؛ تظُنُّها جمادًا -لسُكونها، وطول قيامها-.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٤٠٢).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٩٣).

﴿وَٱسۡجُدِي﴾: قـدَّم (السُّـجودَ) على (الرُّكـوع)؛ لفضله. وقيل: لأنَّ المقام مقام شُـكر، والسُّـجود يقتَضيه. وقيل: لأنَّ السُّـجودَ في عبادتهم كان قبل الركوع. والسُّجود من أفضل الطاعات؛ ففي الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1].

﴿وَٱرۡكَعِي﴾ (الرُّكـوع): انحنـاء الظهـر عبـادةً لله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: مـع المُصَلِّين. فالمراد: أن تصلِّي مع المصلّين قرّاء بيت المقدس، أو تكون من جُملة الذين يَرْكعون لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ نِعَم الله إذا زادَت؛ شُرِعَت مُقابَلَتُها بمزيدٍ من العِبادة.

وفيهـا: أنَّ العِبـادة بالخُشـوع والخُضوع والسُّـجود والرُّكوع هي من إعـداد الله للعبد الصالح، وتهيئته لمواجَهاتِ المستقبَل، وأداءِ ما يُطلَب منه من المهامِّ الشاقَّة.

وفيها: الأمر بدوام العِبادة، وعدم الانقطاع.

وفيها: فَضْل الجَمْع بينَ العِبادات البدَنيَّة والعِبادات القَلْبيَّة؛ فالرُّكوع والسُّجود بالبدَن، والخُضوع والخُشوع بالقَلْب.

وفيها: أنَّ طولَ القيام في الصَّلاة كان دَأْب الصالحين قبلَنا.

وفيها: وجوب الامتِثالِ لأوامر الله، والإخلاصِ له في العِبادة.

وفيهـا: أنَّ العُبّـاد مـن الرِّجـال أكثرُ مـن العابدات مـن النِّسـاء؛ لقولـه: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، ولم يقُل: «واركعي مع الرَّاكعات».

وفيها: أنَّ الصَّلاة كانت من عبادات الأُمَم السابقة.

وفيها: أنَّ مُلازَمة الطاعة تحفَظ النِّعَم، وتَزيد العبدَ قُربًا من ربِّه.

وفيها: أنَّ جماعة الرِّجال في الصَّلاة، أفضلُ وأتمُّ من جماعة النِّساء.

وفيها: تواضُع العبد لربِّه بالرُّكوع والسُّجود؛ حفظًا له من العُجْب والغُرور.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾:

ثم قال تعالى لنبيِّه ﷺ، بعد أن أوحى إليه هذا الأمرَ الغيبيَّ، الذي لا يَعْلَمُه إلَّا الله:

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الذي كان من أخبار زكريّا ومريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الذي غابَ عنك وعن قومِك، فلم تعلَموا به. و(النَّبأ): هو الخبر العظيم، أو الخفيّ.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (الوحي): هو الإعلام بسُرعة وخَفاء. ويُطلَق على ما ينقله الملَك للنبيِّ من كلام الله، وعلى الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القَصَص: ٧]، وعلى الإشارة، كقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضرًا عند زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومِه المتنافِسين في كَفالة مريم، ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾: يَرْمُونها، وهي الأقلام المعروفة التي يُكتَب بها. وقيل: بل هي سِهامهم، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُشبِه القلَم. والأقرب الأول؛ لأنَّه ظاهر القرآن. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾: يُرَبِّيها ويقوم بمصالحها.

فقيل: إنَّهم ألقَوها في الماء، واتَّفقوا أنَّ مَن يثبُت قَلَمُه في جَرْيَة الماء؛ فهو الذي يكفُل مريم. فألقَوا أقلامَهم، فاحتملَها الماء وجرى بها، إلَّا قلمَ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد ثبتَ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ شاهِدًا وحاضِرًا ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾: يتنازَعون؛ تنافُسًا على كَفالتها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التنافُس في الخيرات، ولو أدَّى ذلك إلى إجراء القُرعة بين المُتنافِسين.

وفيها: الوَفاء للصالحين، بتربية أبنائهم وبناتهم، وكَفالتهم من بعدهم.

وفيها: أنَّ الغيبَ منه ما يكون مُطلَقًا لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ -كحوادث المستقبَل- ومنه ما يكون غيبًا نسبيًّا، يخفى على بعض الناس دون بعض، كقصَّة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ فالنبيُّ ﷺ لم يُدرِك هذه القِصَّة، لا هو ولا قومه، ولم يَجِدها في كتابٍ، ولا تلقَّاها عن أحد، لكنَّها ليست غيبًا عمَّن عاش في زمن زكريّا ومريم، واطلعَ على تلك الأحداث.

وفيها: امتنان الله على نبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعلى هذه الأُمَّة، بإخبارها خبرَ مَن كان قبلنا؛ لنستفيد من ذلك في الاقتداءِ والاتِّعاظ والاعتبار.

وفيها: إكرام الله لزكريّا عَلَيْهِالسَّلَامُ، بأن جعلَ بابَ الخير في كَفالة مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ من نصيبه.

وفيها: أنَّ الله يحفَظ أولاد العبد بصلاحه.

وفيها: مشروعيَّة استعمال القُرعة، عند المشاحَّة والاختِصام.

وفيها: اتِّخاذ الوسائل لإنهاء النِّزاع، ومنها القُرعة، وقد استعملَها ثلاثةٌ من أنبياء الله؛ وهم: يونس، وزكريّا، ونبيُّنا محمَّد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفيها: آيةٌ من الآيات البيِّنات الدالَّة على نبوَّة نبيِّنا محمَّد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإنَّه أخبرَ الناس عن أمورٍ لا يعلمونها، ممَّا غاب في الماضي. وهذا كما أخبرَهم عن أمور في المستقبَل، فحدثَت كما أخبرَ، ومنها أمورٌ ستحدُث في آخر الزمان.

وفيها: أنَّ مِن وسائل دعوة النصارى: إخبارهم بهذه التفاصيل، في قِصَّة مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ؛ فإنَّ أول السُّورَة قد نزل في وَفْد نصارى نَجْران.

وفيها: أنَّ الخالة أحقُّ بحَضانة الطِّفل -بعد أُمِّه- من بقيَّة أقاربه -ما عدا الجدَّة-؛ فقد كانت خالة مريم تحت زكريّا عَلَيْهِالسَّلَامُ.

وفيها: رعاية الوَقْفِ المنذورِ لبيت الله.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾:

ثم جاءت الملائكة ببِشارةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ لمريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ، بأنَّه سيُولَد لها ولدٌ عظيمٌ، سيكون له شأنٌ كبيرٌ؛ فقال تعالى:

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ﴾ أي: اذكُر -يا محمَّد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- قِصَّة الملائكة في قولها ونِدائها. قيل: إنَّهم جَمْعٌ من الملائكة، وقيل: إنَّه جبريل عَلَيْهِالسَّلَامُ.

فقالوا لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ أي: يُخبِرُكِ بما يَسرُّ، ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي: مُبتدأة وناشئة من

الله، صدرَت منه لا من غيره، وهي كلمة «كُن»؛ فيكون وجودُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمة، وليس عيسى هو الكلمة.

﴿ٱسۡمُهُ﴾ أي: اسمُ ذلك الولد ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ هذا لَقبه. قيل: لُقِّب بذلك؛ لأنَّه لا يمسَحُ بيدِه ذا عاهةٍ -من أبرص وأَكْمَه وغيره- إلَّا برأ بإذن الله. وقيل: لأنَّه كان سائحًا في الأرض والبُلدان، يَسيحُ فيها يدعُو إلى الله. وقيل: لأنَّه كان عليه مَسْحَة من جمال (أي: أثر ظاهِر منه).

واسمه: ﴿عِيسَى﴾ قيل: هو اسم أعجميّ، مُعرَّب من «يَشُوع» أو «يَسُوع» أو «إيشوع» -ومعناه بالعِبرانيَّة: السيِّد أو المبارَك-. وقيل: مُشتَقٌّ من «العِيس»، وهو بياضٌ يَعلوه حُمرة. وقيل: بل مشتَقٌّ من «ساسَ»، إذا قامَ على الشيء ورعاه.

﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾: هذا نَسَبُه، وإنَّما نُسِبَ إلى أُمِّه؛ لأنَّه لا أب له.

﴿وَجِيهٗا﴾: شريفًا رفيعًا، ذا جاه وقَدْر وسيادة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: بالنبوَّة، وبالمُعجِزات التي تجري على يدَيه -مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأَكْمَه والأبرَص بإذن الله- وبرَفْعِه إلى السماء سالمًا، وبنزوله ليَحكُم الأرض في آخر الزمان.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: بكونه شفيعًا لأُمَّته، ويكون له حَوضٌ خاصٌّ به، تَرِدُه أُمَّته -كما لبقيَّة الأنبياء-.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عندَ الله يومَ القيامة، مع أولي العَزْم من الرُّسُل، الذين هم في أعلى درجات الجنَّة.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾:

قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ أي: زمن الطفولة. و(المَهْد): فِراش الطفولة، وهو الموضِع الذي يُهيَّأ للصبيِّ زمنَ الرَّضاعة.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يَتكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى...» الحديث، وفيه كلام الصبيِّ في قِصَّة جُرَيج، والصبيِّ الثالث في قِصَّة صاحب الشارَة[1].

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

وقـد ثبتَ أيضًا نُطْقُ الرضيع في قِصَّة أصحاب الأخدود، في المرأة التي قَالَ لَهَا غُلامُها: «يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ»[1].

وكلام عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهـم في المَهْد، المُراد به غـيرُ التكليم المعتاد، بل المـراد: أنَّه يكلِّم الناس بما فيه صلاحُهم وفلاحُهم، وهو تكليم المُرْسَلين، ففي هذا: إرسالُه ودعوتُه الخَلْقَ إلى ربِّهم.

﴿وَكَهۡلٗا﴾ أي: بالغًـا كبيرًا. و(الكُهُولـة): مرحلةٌ في العمر، من الحادية والثلاثين إلى الأربعين، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: معـدودٌ فيهـم. و(الصالـح): مَـن صَلَحَت سريرتُـه وعلانيتُه، بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فختـمَ الله تعالى أوصافَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالصلاح، وهو رُتبة مِن أعظم المراتب وأشـهر المقامات.

والصلاح يقتضي المواظبَة على الطاعات، حتى الممات.

وفي الآيتَين من الفوائد:

بيان شَرَف مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، في إرسال الملائكة لتكليمها وتبشيرها.

وفيها: استحباب تبشير المرء بما يَسُرُّه.

وفيها: أنَّ مَن لا أب له يُنسَب إلى أُمِّه. ويُكتَب الاسم -حينئذٍ- بإثبات الألف في كلمة (ابن) بين الاسم واسم الأُمِّ: (عيسى ابن مريم).

وفيها: جواز استعمال اللَّقب الغالب على الشخص، ما لم يكن فيه إيذاءٌ وتنقيص.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ وجيه في الدُّنيا عند الناس، يكون وجيهًا في الآخرة عند الله.

وفيها: بيان حقيقة الوَجاهة، وأنَّها ليست باللِّباس والمال والسُّلطان والنَّسَب، ونحوها من أمور الدُّنيا؛ وإنَّما الوَجاهة: بطاعةِ الله وعبادتِه، وتعلُّمِ دينه، والدَّعوة إلى سبيله.

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

وفيها: أنَّ تقريب الله لعبدِه منه يوم القيامة، يُعَدُّ من أعظم المراتب.

وفيها: إظهار قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، بإنطاقِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلامِه في حال صِغَره -معجِزةً وآيةً- وفي حال كُهُولته -بالوَحي الذي أنزلَه عليه-.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، الذين ادَّعوا أُلوهيَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأنَّ مَن كان طفلًا يرضَع، ثم يأكل ويَشْرَب، ويَمْرَض، ويتألَّم، ويبكي، ثم يكبُر فيصير كَهْلًا، كيف يُمكِن أن يكون إلهًا؟ وهذا التغيُّر في النُّمُوِّ والانتقال من سِنٍّ إلى سِنٍّ، يتنافى مع صفات الإله.

وفيها: التوطِئة للحوادِث العظيمة؛ لتتهيَّأ النفوسُ لاستقبالها، فقد مهَّدت الملائكةُ الأمرَ لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنَّه سيكون لها ابنٌ مِن غير زوجٍ.

وفيها: بِشارة الله لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، بأنَّ ولدَها سيكبُر، ويَصِلُ حَدَّ الكُهُولة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾:

ولـمَّا أخبر الله تعالى مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بما سيكون منها، من ولدٍ بغير زوج؛ تعجَّبت من ذلك، و﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ فخاطبت ربَّها تعالى، ولم تُخاطِب الملائكة الذين أخبَروها. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ أي: كيف يوجد هذا الولد مني؟

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: وحالي أنِّي لم يَطَأْني بشرٌ، ولستُ ذاتَ زوجٍ، ولا عَزَمتُ أن أتزوَّج، ولستُ بغيًّا، فلم يَمَسَّني رجلٌ، كما في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

وكلمة (بشر) تُطلَق على الواحد والجمع. وسُمِّي البَشَرُ (بَشَرًا)؛ لظهورهم، والبَشَرة: ظاهر جلد الإنسان، وأبشرت الأرض: أخرجت نباتها.

فأجابها الله تعالى، بالوحي عن طريق ملائكته: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمرُ كما أخبرتكِ ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، كيف يشاء، وعلى أيِّ هيئةٍ أراد، وَفق العادة، أو على خِلافها، كيفًا وكمًّا ونوعًا، لا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

ويمكـن أن يكون المعنى أيضًا: مِثْل هذا الخَلْق العظيم، والإحداث البديع، يخلق الله ما يشاء.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾: هذا هو القضاءُ الكونيُّ، الذي لا بُدَّ أن يقع ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ أي: لذلك الأمـر ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يُوجَـد بسُرعـة دون تأخير؛ كما قـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعجُّب المؤمن من أمر ربِّه، على سبيل الاستِثبات.

وفيها: جواز طلَب الزيادة في اليقين.

وفيها: أنَّ معرفة كيفيَّة حدوث الأشياء يَزيد الإيمانَ، ويُرسِّخ اليقينَ في قُدرة الرحمن.

وفيها: عدمُ اعتِراض المؤمن على أمر الله، وعدمُ الشَّكِّ في قُدرته.

وفيها: عِفَّة المرأة الصالحة، وأنَّها لا تَقْرَب الرِّجال الأجانب، ولا تسمَح لهم أن يَقْربوها.

وفيهـا: استـعمال الكلمـة الأقوى في الموضـع الذي يُناسِـبها؛ فإنَّه قال في خَلْق عيسـى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي خَلْـق يحيـى: ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ لأنَّ خَلْـق عيسـى أعجبُ في إيجاد ولدٍ بلا أب -فاستعمل (الخَلْق)- وأمَّا يحيى: فهو من أبٍ وأُمٍّ، لكنَّهما لا يُنجِبان عادةً -فاستعملَ (الفِعْل)-.

وفيهـا: بيـان قضـاء الله الكـونيِّ، الذي لا بُدَّ أن يقـعَ وَفق مُراد الله تعـالى، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ الآيـة [سبأ: ١٤]، بخلاف القضاء الشرعيِّ؛ فإنَّه قد يقعُ، وقد لا يقعُ، على حَسَـب حال المقضيِّ بينهـم وإليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومـن جهـة أخرى: فالقضاء الشرعيُّ لا يكون إلَّا فيما يحبُّه الله، بخلاف القضاء الكونيِّ؛ فقد يكون بما لا يُحِبُّ -ابتلاءً وفِتنةً للعباد-؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ الآية [الإسراء: ٤].

وفيها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يخلُق أمورًا على غيرِ الوَجْه المعروف والمُعتاد عند الناس؛ ليكون آيةً للكافر، وعِبرةً للناس، وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا مع إيمانهم.

وفيها: استِسلام مريم لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: جواز السؤال عن الأمور الغامِضة؛ لمعرفة أسرارِها وحِكْمتها.

وفيها: سُهُولة الخَلْق على الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ يخلُق ما يشاء بكلمةٍ واحدةٍ منه، وهي: «كُن».

وفيها: أنَّ الله يُعطِي الولدَ بغير وجود أسباب، ويمنع الولد مع وجود الأسباب.

وفيها: تنوُّع خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمنه ما يُخلَق بالتدريج، ومنه ما يُخلَق على الفور.

وفيها: نُفوذ أمرِ الله، بسُرعة دون تأخير.

وفيها: دليلٌ على قُدرة الله تعالى، بتنويع حالات وجود البشر؛ فمنهم مَن وُجدَ بلا ذكر ولا أنثى -وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ- ومنهم مَن وُجِدَ من ذكر بلا أنثى -وهي حواء- ومنهم مَن وُجِدَ من أنثى بلا ذكر -وهو عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ- ومنهم مَن يوجد من ذكر وأنثى -كبقيَّة البشر-.

وفي الآية: طريقةٌ رائعةٌ في قَصِّ القَصص على الناس؛ فإنَّه ذكرَ أولًا أمرًا عجيبًا، في خَلْق يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ من شيخ كبير وزوجة عاقر، ثم ذكرَ واقعةً أعجبَ، في خَلْق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثى بلا ذكر، وختمَ ذلك بذكر قُدرتِه، وأمرِهِ النافذ.

وفيها: أنَّ غرائب المخلوقات وعجائب خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ، هي ممَّا يَزيد الإيمان بالله؛ ولذلك أمرَ تعالى بالنظر في خَلْقه؛ كما في قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وكما في قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾:

ثم ذكر الله تعالى توالي نِعَمه على عبده ونبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومزيدًا من البِشارات لأُمِّه؛ فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: المكتوب، فيَفهمه ويحفظه. أو: يعلِّمه الكتابةَ والخطَّ باليد.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الشريعة، وتفصيل الدِّين. ويدخل في تعليم الحِكمة أيضًا: إصابة الحقِّ، والعِلْم المقترِن بالعمل، ووضع الأشياء في مواضعها.

﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزلَه الله على موسى بن عِمران عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ وهو: الكتاب الذي أنزلَه الله على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان مكمِّلًا للتوراة. وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحفظ التوراة والإنجيل.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يُعلِّم البشر؛ ولذلك وردَ في الأدعية النبويَّة: «اللهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وارْزُقْنِي عِلْمًا تنفَعُني بِهِ»[1]، فينبغي الدُّعاء، وطلبُ التعليم من الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: أهميَّة إتْباع القول بالعمل.

وفيها: مُوالاة تتابُع البشائر على المؤمن؛ ليزداد فرحًا وسرورًا، والارتقاء من البشارة الأدنى إلى الأعلى.

وفيها: أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلَم التوراةَ، التي أُنزِلَت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أهميَّة تعلُّم الكتابة والخَطّ.

وفيها: أنَّ من نِعَم الله على العبد: أن يَرْزُقه الإصابة في القول والعمل، وهو أحد الأقوال في تعريف (الحِكْمة).

وفيها: تبشير الخائف، وإيراد الأنباء المُفرِحة عليه؛ ليطمئنَّ قَلْبُه؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرَ الملائكة أن تُخبِر مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ بما يطيِّب قَلْبَها، ويفرِّج همَّها، وكانت في قَلَقٍ عظيم من خوف الاتِّهام، فبشَّرها بأنَّ ابنها سيكون رسولًا، معلِّمًا، يؤتَى كتابًا من عند الله، ويؤتَى الحِكمة -بفَضْل الله-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ تعلُّم اللَّفظ والمعنى.

وفيها: تكميل النفس بحِيازةِ الفضائل، واجتماعِها فيها.

وفيها: ذكر البِشارة بـ (الإنجيل) قبل نُزُولِه على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٦٩٠)، والطبراني في الدُّعاء (١٤٠٥)، وهو في الصحيحة (٣١٥١).

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

قوله تعالى ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: ونَجعل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رسولًا. و(الرَّسُول): هو الذي أُوحِيَ إليه بشَرْعٍ، وأُمِرَ بتبليغه. و(النبيُّ): مَن أُمِرَ بتبليغ وتقريرِ شرعِ مَن قبلَه من الرُّسُل؛ فهو تابعٌ لشريعة مَن سبقَه.

﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهم: القبيلة من أبناء يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومَن تناسل منهم. وهذا يعني أنَّ رسالة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خاصَّة ببني إسرائيل، وليست عامَّةً لجميع البشر -بخلاف رسالة نبيِّنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-.

﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: يأتيهم قائلًا لهم: إنَّه مُرْسَل إليهم بعلامة تدُلُّ على صِدق رسالته، وهي: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أي: أصوِّر وأُشكِّل ﴿لَكُم﴾: من أجل هدايتكم، ولِتتَّبِعوني وتُصدِّقوني ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾: على شكل طَيْر، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ قيل: ينفخ في فمِه، فيصير طيرًا يطير أمامهم.

ولا حاجة لنا لمعرفة نوع هذا الطير، ولو كان فيه فائدةٌ لبيَّنه لنا الله تعالى. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره وإحيائه؛ فهو الذي يحيي الموتى. ونسبَ الإحياءَ إلى الله تعالى؛ لئلَّا يظنُّوا أنَّ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي يُحييه.

﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ (البراءة) من الشيء: السلامة منه، و(الأَكْمَه): هو الذي لا يُبصِر ليلًا ويُبصِر نهارًا. وقيل العكس. وقيل: هو الذي لا يُبصِر إلَّا بمشقَّة. وقيل: هو الأعمى، وهذا أبلَغ في المعجزة، وأقوى في التحدِّي.

﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ (البَرَص): عَيبٌ جِلديٌّ، يظهر بسبَبه بياضٌ شديدٌ في جِلْد صاحبه. فكان عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يُزيل عِلَّة الأَكْمَه والأَبْرَص، بالمسح عليهما؛ فيبرَآن بإذن الله تعالى.

﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ (الميِّت): هو مَن فارق الحياة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمرِه ومشيئته؛ لأنَّه هو

المُحيي والمُميت عَزَّوَجَلَّ. فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعو بعضَ الأموات من قبورهم، فيقومون بينَ يديه أمامَ الناس، يكلِّمهم.

وقد جرَت السُّنَّة الإلهيَّة: أن تكون مُعجِزة كلِّ نبيٍّ من جنس ما اشتهر في زمنِه، فلمَّا كان الغالِبُ على زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّحر؛ بهرَت مُعجِزاتُه السَّحرَةَ، فانقادوا للإسلام.

وكان قومُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ معروفين بعلوم الطِّبِّ والطبيعة، بارعين فيها؛ فجاءَهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالآيات التي حيَّرت الأطباء. فمِن أين للطَّبيب القُدرة على إحياء الجمادات، ومُداواة العاهات التي ليس لها علاج؟!

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾: أُخبِركم بطعامكم، ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، مع أنَّ ذلك خَفِيٌّ غائب، لكن يَعْلَمه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإخبارِ الله له، فيُخْبِرهم بما يأكلون اليومَ، وما يُمْسِكون لغَدِهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الإبراء، والإحياء، والإخبار بالمغيَّبات ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾: مُعجِزة قويَّة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بصِدقي ورسالتي؛ لأنَّ غير المؤمن لا ينتفِع بالآيات.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله لنبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبيان قُدرة الله العظيمة.

وفيها: ذِكر إذنِ الله تعالى. وهو نوعان: إذن شرعيّ، وإذن كونيّ.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يحتاج لإذن الله الشرعيّ في تصوير ذوات الأرواح؛ لأنَّ الأصل أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يُصوِّر على هيئة تصوير الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله في الحديث القُدْسِيّ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخلُقُوا ذَرَّةً»[1].

ومن الإذن الشرعي: ما جاء في قولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

والإذن الكونيّ هو: ما لا بُدَّ من وقوعه؛ لأنَّ الله أذِنَ بذلك وشاءَه؛ ومنه قوله تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أنَّه قد يُباح للنبيِّ أو الرسول، ما لا يُباح لبقيَّة البشر.

وفيها: أنَّ الإذن الشرعيَّ -وهو الإباحة والترخيص- يتعلَّق بالشريعة والأحكام، والإذن الكوني -وهو ما لا بُدَّ من وقوعه- متعلِّق بالخَلْق.

وفيها: أنَّ (الخَلْق) يُطلَق على تصوير الأشياء وتشكيلها، كما يُطلَق على الإيجاد من العدَم.

وفيها: أنَّ ما صدر عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات والمعجِزات، لم يكن منه استقلالًا؛ وإنَّما بإذن الله وأمرِه؛ فلا يَمْلِك الإحياءَ ولا الشفاءَ ولا عِلْمَ الغَيب إلَّا هو سبحانه.

وفيها: أنَّ مِن حِكمة الله: أنَّه يُعطِي الأنبياء ما يَعجِز عنه مَن كان محلَّ تعظيم الناس في زمن نبوَّتهم؛ كالأطباء في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسَّحَرَة في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والشُّعراء في زمن محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: رَدٌّ على النصارى، في ادِّعاء الرُّبوبية لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذكرَ في الآية أنَّ الإحياءَ والإبراءَ تمَّ بإذنه، وهذا من توحيد الرُّبوبيَّة، لكنَّه أراهُم إيَّاه على يد نبيِّه عيسى، فكان مجرَّد واسطةٍ لبيان الآيات والمُعجِزات.

وفيها: الاحتياط لمَنع تطرُّق الشُّبُهة إلى الأذهان، والاحتِراز بذِكر ما يَدفع ذلك؛ فإنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا ذكرَ الإحياء والإبراء؛ نسبَ ذلك إلى الله تعالى، فقال: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ولم ينسِب إلى الله إخبارَه لهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم؛ لأنَّ الشُّبهة مُنتَفية هنا؛ فعِلْم ما في البيوت يمكن حصُوله للبشر ببعض الوسائل.

وفيها: أنَّه لولا تمكينُ الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يُريَهم تلك الآيات؛ ما استطاع أن يفعل ذلك.

وفيها: محبَّة الله لعبدِه ونبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بتأييده، وإعانته في دَعوته، وهداية قومِه.

وفيها: أنَّ الإيمان يَحمِل صاحبَه على قَبول الآيات، والانتفاع برؤية المعجِزات.

وفيها: أنَّه ينبغي التَّكرار في مقام عَرْض الأمور المُهِمَّة؛ فتكرَّر هنا لفظ (الآية) ولفظ (الإذن)؛ اعتناءً بتَرْسيخ الحقائق، وإبعاد الشُّبه عنها.

وفي إطْلاع الله عَزَّوَجَلَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما يخبِّئه قومُه في بيوتهم: تخويفٌ لهم من إخفاءِ شيء لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، أو تدبيرِ أمر سُوءٍ خِفيةً ضدَّ نبيِّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ إجراء الآيات على يد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم يكن لرُبوبيَّته؛ وإنَّما هو من نِعمة الله عليه؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقد أثبتَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّبوبيَّة لربِّه، بغاية البيان؛ فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٥١].

وفيها: أنَّ اجتماع الحُجَج، وتوالي الدلائل والبراهين؛ أجدَى وأنفع في إقناع المدعوِّين.

﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)**﴾:

ثم قال تعالى في نِعمته على بني إسرائيل، بإرسال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حاكيًا قولَه: ﴿**وَمُصَدِّقًا**﴾ أي: وجئتُكم مؤكِّدًا ومقرِّرًا ﴿**لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ أي: لِما سبقَني من الكتاب الذي أنزلَه الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأكونَ شاهِدًا على صِدقِ ما جاء في التوراة من بِعْثتي ونبوَّتي.

وقد جاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤكِّدًا على شريعة التوراة، وعاملًا بها، إلَّا في أحكامٍ معيَّنةٍ كانت حرامًا في التوراة، فخفَّف الله عن بني إسرائيل؛ فأحلَّها لهم في الإنجيل، وهي المذكورة بقوله: ﴿**وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾.

أي: ولأبيِّن لكم نَسْخَ الحُكم السابق، وإباحةَ بعضِ الطيِّبات التي حُرِّمت عليكم في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -بسبَب ظُلْمكم وكثرةِ سؤالكم- مثل: الإبل، والشُّحوم، وأشياء من الطَّيْر، والحيتان، وبعض المشروبات، والعمل في يوم السَّبْت، وغيرها.

وقد جاء تفصيلُ بعضِ هذه الأمور المحرَّمة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وفي قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

قوله ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: دلائل وبيِّنات متوالية، شاهدة على صِحَّة رسالتي.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا عذابَه، واجعَلوا بينكم وبينه وِقاية، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: امتثِلوا أمري ونهيي؛ فإنَّما أُخبِركم عن الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

(الرَّبُّ) هو: الخالِق، المالِك، المتصرِّف.

فبيَّن لهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه مربوبٌ -مثلُهم- وليس ربًّا، وأنَّ الله ربُّ الجميع؛ ولذلك طالبَ قومَه بعبادة الله وحدَه؛ فقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: وَحِدُّوه، ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأطيعوه فيما يأمُركم وينهاكم.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الجَمع بينَ التوحيد والعِبادة ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: دين قويم، وطريق مستقيم، يؤدِّي إلى مرضاةِ الله عَزَّوَجَلَّ ودخولِ جنَّته.

وفي الآيتَين من الفوائد:

التأكيد على الحقِّ؛ لحَمْل الناس على اتِّباعه.

وفيها: نِعمة الله على بني إسرائيل ورحمته بهم، بنَسْخ بعض الأحكام من الأثقل إلى الأخفِّ.

وفيها: أنَّ العقوبة لم تستمرَّ على بني إسرائيل، بما فعل أجدادُهم؛ بل خفَّف الله عنهم، وأباحَ لهم بعضَ ما حُرِّم على مَن قبلَهم.

وفيها: أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة يقود إلى توحيد الألُوهيَّة، وأنَّ الإقرار بالرُّبوبيَّة مستلزِمٌ للإقرار بالعبوديَّة.

وفيها: أنَّ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ مبنيَّة على أنَّه هو: الرَّبُّ، الخالِق، المالِك، المتصرِّف.

وفيها: الرَّدُّ على النصارى، الذين ادَّعوا ألُوهيَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبيَّن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم أنَّه مربوبٌ -مثلُهم- وليس ربًّا، والله ربُّ العالمين.

وفيها: إصلاحُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بني إسرائيل؛ فبيَّن لهم التوراة والإنجيل، وأزالَ التحريف الذي حصلَ من بني إسرائيل، ونقضَ ما حرَّمه الأحبارُ على الناس، وبيَّن فَصْلَ النِّزاع فيما اختلفَ فيه بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

وهكذا المُصلِح يبيِّن الحقَّ، وينقُض الباطل، ويُنهي النزاع، ويَحْمِل الناس على الصِّراط المستقيم.

وفيها: أنَّ ما جاء به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من التخفيف، كان في طيِّباتٍ حُرِّمت على بني إسرائيل عقوبةً لهم، وليس تحليلًا لأمورٍ محرَّمة في الأصل -كالزِّنا، والرِّبا، والقَتْل، والسَّرِقة، ونحوها-.

وفيها: أنَّ الإنجيل أَلْيَن من التوراة.

وفيها: بَدْء الدَّاعية بنفسه؛ ليكون أولَ مُذْعِنٍ للرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، قبل أن يأمرَ غيرَه، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾، فبدأ بنفسه قبلَ الآخَرين.

وفيها: أنَّ الجَمْع بينَ التوحيد والعِبادة هو الطريق الواسع المستقيم المعتَدِل، الذي يُوصِل مَن سلكَه بسُرعة إلى الجنَّة ورِضوان الله.

وفيها: أنَّ كلامَ أهلِ الحقِّ -كالأنبياء وغيرهم- يُشبِه بعضُه بعضًا، ويؤكِّد بعضُه بعضًا، بخلاف كلام أهل الباطل؛ فإنَّه مُتضارِبٌ ومُتناقِضٌ.

وفيها: إظهار عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الخضوعَ لربِّه.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

لـمَّا ذكر الله تعالى بِشارة الملائكة لمريم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنزلته، وشيئًا من آياته؛ ذكرَ بعد ذلك خَبَرَه مع قومه، وما لقِيَه منهم من الصَّدِّ والإعراض؛ فقال تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي: استشعرَ وأدركَ ﴿مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾؛ فاستشعرَ تصميمَ قومِه على الكُفر، واستمرارَهم على الضلال والعِناد. ولقيَ من بني إسرائيل السُّخرية والاستهزاء، بالرَّغْم من الآيات التي أراهم إيَّاها.

فلجأ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -حينئذٍ- إلى اختيار الأصفياء، وانتخاب الأكْفاء للدَّعْوة؛ فـ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إذا لم تُؤمِنوا جميعًا؛ فمَن منكم يتَّبعني إلى الله، وينصُرني لأبلِّغ دين ربِّي.

وحالُه كحالِ نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كان يَعْرِض نفسَه على الناس في الموقف قبل الهجرة، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[1]، وفي رواية: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَكَثَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ، وَفِي المواسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي، حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الجَنَّةُ؟»[2].

فانتُدِب لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طائفةٌ من أصحابة، ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ الأصفياء مِن أتباعِه وخواصِّهم. و(الحواريّ): مأخوذٌ من الحَور، وهو البياض. سُمُّوا بذلك؛ لبياض قُلُوبِهم، وسلامتها من أثر المعاصي. والحواريّ: الناصر.

فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: ننصُر دينَه، وننُصُرك -يا عيسى- لتُبلِّغه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: بتصديقٍ وإقرارٍ، وقيامٍ بما يلزَمه هذا الإيمان، من نُصرةِ دين الله، والذَّبِّ عن أوليائه، والمحاربةِ لأعدائه.

﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ -يا نبيَّنا عيسى- ﴿بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي: مُنقادُون لأوامر الله، مُخلِصون له. واشهَدْ لنا يوم القيامة حين تَشْهَد الرُّسُلُ لأقوامهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أهميَّة استشعار الدَّاعية لمواقف المدعوِّين وأحوالهم وكلامهم؛ ليتَّخِذَ الموقفَ المناسبَ لكلِّ واحدٍ منهم ولكلِّ حالةٍ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٩٤٧).
(٢) رواه أحمد (١٤٠٤٧)، وصحَّحه الألباني في التعليقات الحسان (٦٢٤١).

وفيها: تمييز الصفوف، بالدَّعوة إلى نُصرةِ الحقِّ، والتفريقِ بينَ الذين يَقِفون مع الحقِّ، والذين يُعادُونَه.

وفيها: أهمِّيَّة الجنود والأتباع في نُصرة الدَّعوة.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية: اتِّخاذَ السُّبُل الكفيلة بتمكينه من تبليغ دين الله.

وفيها: الاستعانة بعد الله بالمُخلِصين في الحماية والنُّصرة.

وفيها: أنَّ المواقف الصعبة تميِّزُ الأشخاص، وتُظْهِر الحقائق.

وفيها: أهمِّيَّة الأصحاب المُقَرَّبين، والأصفياء والخواصِّ المُخلِصين؛ لأنَّهم أفقَهُ وأفهَمُ وأعلَمُ في نقل الدِّين، وأصبَرُ وأثبَتُ وأقوَى في الدِّفاع عنه.

وفيها: أنَّ على مُريد القيام بأمر الله، أن يُبيِّن ذلك لمن ينتَدِبُه، كما قال الحواريُّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. ومِثْل هذا البيان في مثل تلك المواقف العصيبة، ليس من الرِّياء ولا السُّمْعة؛ بل هو محمودٌ، ممدوحٌ صاحبُه.

وفيها: الجَمْع بينَ حُسن الباطن وحُسن الظاهر؛ فقد قيل: إنَّ سببَ تسمية (الحواريِّين) بهذا الاسم: بياضُ قُلُوبهم ونقاؤها، وبياضُ ثيابهم وطهارتُها.

وفيها: طلَب النجاة في الآخرة؛ أجرًا على العَمَل للدِّين في الدُّنيا.

وفيها: استِشهاد مَن تُعتبَر شهادَته عند ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ الرُّسُل كانوا يَدعُون إلى الله، لا إلى أنفُسِهم، كما قال عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يُوَجِّه مَن يتَّبعه لِخدمة دين الله، لا لخدمته هو.

وفيها: أنَّ الرُّسُل -مع عُلُوِّ مقامهم وتأييدِهم من الله- يحتاجون إلى مَن ينصُرُهم من الناس، وبهذا جرَت سُنَّة الله، مع استغنائِه عن هؤلاء الناصِرين؛ ليظهَرَ فَضْلُهم، ويَعْظُمَ أجرُهم، وتَعلوَ مكانتُهم عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: ذِكر الإسلام العامِّ، الذي كان عليه جميع الرُّسُل وأتباعهم.

وفيها: أنَّ الرُّسُل لا يعلمون الغَيب.

وفيها: جواز قول الإنسان: «أنا مسلِم»، إذا كان صادِقًا.

وفيها: أنَّه ينبغي -عند الحاجة- أن يُعلِن المسلم نُصرته للدِّين والرُّسُل، كما فعلَ الحواريُّون، وكما فعل مؤمِن آل ياسين، والمؤمِن الذي كان يكتُم إيمانَه -في قِصَّة موسى عَلَيهِ السَّلَامُ-.

وفيها: فَضْل الجماعة في المعاونة على البِرِّ والتَّقوى.

وفيها: أنَّ المسلِم قويٌّ بإخوانه وأنصاره.

وفيها: أنَّ مِن سُنَن الله في الدَّعوة: مُرور الأنبياء ودعوتهم بمراحلِ الاستضعافِ، والخوفِ من بَطْش العدُوِّ، وعدمِ القُدرة على الجَهْر بالدَّعوة.

وفيها: مَكْر اليهود، وخُبثهم، حتى ألجأوا نبيَّ الله عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ واضطروه إلى طلَب النُّصرة والحماية، بعدما أظهَروا التكذيب، بل سعَوا في قَتْله، حتى قيل: إنَّه اختفى عنهم، وخرجَ هو وأُمُّه يسيحانِ في الأرض، يَعبُدانِ الله، ويَدْعُوان إليه.

وفيها: أنَّ طلبَ الأنبياء النُّصرة والأنصار، هو من باب اتِّخاذ الوسائل لتحصيل المقصود، وهو التبليغ.

وفيها: حُسن تربية عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ لأصحابه؛ فقد تبيَّن -من كلامهم- تعلُّقُهم بالله، لا بشخص نبيِّهم؛ فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

وفيها: تجرُّد الدَّاعية عن المآرِب الشخصيَّة، والأغراض والأطماع الدُّنيويَّة، وألَّا يجعل نفسَه المِحْورَ الذي يدور حولَه المدعُوُّون؛ وإنَّما يجعل التفافَهم حولَ الدِّين، وعملَهم في نُصرة ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ نُصرة الحقِّ في وقت الخطَر وشِدَّة الحاجة، يعظُم بها الأجر، ويتمحَّص بها المُخلِصون من المنافِقين.

وفيها: أنَّ الدَّاعية إلى الحقِّ إذا طلبَ النُّصرة؛ تجب إجابتُه.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾:

ولـمَّا أشهد الحواريُّون نبيَّهم عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ على إيمانهم وإسلامهم؛ تضرَّعوا إلى الله تعالى، قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ على نبيِّنا، مِن كتابك الإنجيل، وما سبقَ من الكتب.

﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: امتثَلْنا، وأطَعْنا ما جاءَ به نبيُّنا؛ ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: اجْعَلْنا في جُملَتهم، واكتُبْ أسماءَنا مع أسمائِهم.

ويدخُل في الشاهِدين: كلُّ مَن شَهِدَ للرُّسل بالحقِّ، ومنهم: أهلُ العِلْم؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله ﴿مَعَ﴾ للمُصاحَبة، ولا تقتضي المُخالَطة ولا المُوافَقة في الزمن؛ ولذلك صحَّ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، قال: «مع أُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التوسُّل إلى الله سبحانه بالأعمال التي يُحِبُّها، كما توسَّل الحواريُّون بالإيمان بكُتُبِه، واتِّباعِهم نبيَّه عَلَيهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّه يجب الإيمان بجميع ما أنزلَ الله من الكتب.

وفيها: الاحتراز عن الكتب المُحَرَّفة؛ لأنَّ الحواريِّين قالوا: ﴿بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾.

وفيها: أنَّ اتِّباع الرسول المُرسَل من الله، هو ثمرة الإيمان.

وفيها: أنَّه كلَّما قويَ الإيمان قويَ الاتِّباع، وكلَّما نقصَ الإيمانُ نقصَ الاتِّباع؛ لأنَّ المؤمن حقًّا لا بُدَّ أن يتعرَّف على ما آمنَ به، ويعمَل به، وهذا لا يمكن إلَّا بمعرفة عمَلِ النبيِّ، الذي يبيِّن ما أنزلَه الله إليه.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من العمل الصالح مع الإيمان، والعمل الصالح لا يُمكِن معرفتُه إلَّا بالاتِّباع.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦).

وفيها: الحِرْص على صُحبة الأخيار.

وفيها: فَضْل أُمَّة النبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم شُهَداء على الناس، يشهَدون يومَ القيامة لكلِّ نبيٍّ على قومِه أنَّه بلَّغ الرِّسالة وأدَّاها.

وفيها: فَضْل مَن يشهد للرُّسُل بالحقِّ.

وفيها: الاقتداء بالصالحين، واتِّباع منهجِهم في الإيمان.

وفيها: أنَّ مَن أرادَ مَقام الشاهدين؛ فإنَّه لا يُبالي بما ينالُه من أذًى ومشقَّة في سبيل نُصرة الدِّين.

وفيها: فَضْل الشَّهادة بالحقِّ، وهذا يقتضي العِلْمَ بالمشهود به، واعتقادَه، وإعلانَه، والقيامَ بما يقتضيه من العمل.

وفيها: الطمع بالدُّخول مع أهل الفَضْل؛ لنيل ما يُعطيهم الله من الثوابِ وحُسنِ الجزاء يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ توسُّلَ الحواريِّين إلى ربِّهم بالدُّعاء، يُنافي أن يكون قولُهم ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ مجرَّد ادِّعاء.

وفيها: توسُّل المؤمن بعملِه الصالح، والمواقفِ العظيمةِ التي شَهِدَها، وحُسنِ البلاء الذي أبلاه.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾:

ثم أخبرَ الله تعالى عن مَكْرِ المُجرمين من بني إسرائيل، بعَبده ونبيِّه عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقال:

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: بما همُّوا به من الفَتْك بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، على عادتهم في قَتْل النبيِّين، فتمالَؤوا على ذلك، واستعمَلوا الحيلةَ والخِداع والوِشاية، وحاكُوا المؤامرة، واستثاروا مَن عاونهم، وأحاطُوا بمنزل عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقتْله. و(المَكْر): الانتقام من الخَصْم بأسبابٍ خفيَّةٍ، من حيث لا يَشْعُر.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: وهذا مَكْرٌ يليق بجلاله وعَظَمته؛ فإنَّه في مُقابَلة مَكْرِهم، والله تعالى

لا يَمكُر بالبريء؛ وإنَّما يمكُر بالخبيث المخادِع، ويمكُر بأعدائه، وبمَن يمكُر برُسُله ودِينه.

وكان مِن مكر الله بهم: أنَّه أبطَل عملَهم، وأفشَل مَكْرَهم وكيدَهم، ونجَّى عبدَه ونبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن بينِهم، ورفعَه إلى السماء، وألقى شبهَه على رجلٍ آخر، فأخذوه وقتلوه وصَلبُوه، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

ولذا قال ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: لا يمكُر أحدٌ إلَّا ومَكْرُ الله فوقَه، وخيرٌ منه، والله أقوى وأقدَر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جُرْم بني إسرائيل في قَتْل الأنبياء، واستعمالُهم الحيلةَ والخديعةَ والمَكْرَ لتحقيق هذه الغايةِ الخبيثةِ.

وفيها: إثبات صِفة (المَكْر) لله عَزَّوَجَلَّ، كما يليق بجلاله وعَظَمته. وهي صفة كمال في حقّ الله تعالى؛ لأنَّه يمكُر بأعدائه الماكِرين. لكن لا يجوز أن نشتقَّ من هذه الصِّفة اسمًا لله؛ فلا يُقال عن الله: «ماكر»؛ لأنَّه لم يُسَمِّ نفسَه بذلك، ولأنَّ المَكْر ليس صفةَ كمالٍ بإطلاق؛ فلا بُدَّ من تقييدِها؛ فيُقال -مَثلًا-: «الله يمكُر بِمَن مكرَ بالمؤمنين».

وفيها: أنَّ مُقابَلة المسيِّء بما يَسُوؤه عَدْلٌ ومَحْمَدة وكمالٌ، دالٌّ على القُدرة والقوَّة.

وفي الآية: أنَّ المَكْر من أفعال الله تعالى، يُجازِي به أعداءَه، ويُدافِع به عن أوليائه؛ ولذلك جاء في الحديث، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: «وَامْكُرْ لِي، وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ»[1].

وفيها: قُدرة الله وقوَّته، في إبطالِ مَكْر أعدائه، ودفاعِه عن أوليائه، وقد يكون هذا بالاستدراجِ، وإتيانِهم من حيث لا يحتَسِبون، ومخادَعتِهم، وإلحاقِ الضَّرَر بهم من حيثُ لا يشعرون، والانتقام منهم بطريق خفيّ، والإيقاعِ بهم وهم غافِلون، ومعاقبتِهم بنقيض مقصودِهم وهم في ضلالهم يَعْمَهون.

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٨٥).

فقد نجَّى الله تعالى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أيدي اليهود، وهم يظنُّون أنَّهم ظفِروا بمطلوبهم، وحقَّقوا غرضَهم، ولكنَّ الله رفعه إليه، ليَنزِل بإذن الله في آخر الزمان، فيُقاتِلهم، ويُرغِم أنوفهم، فلا يقبَل منهم الجِزْية؛ وإنَّما الإسلام، أو القَتْل.

فأبقاه الله تعالى ليُعَذِّب به اليهود في آخر الزمان.

وفيها: أنَّ الله خير الماكِرين: يمكُر بالحقِّ والعَدْل، والمكذِّبون المعانِدون يمكرون بالباطل. ومَكْرُ الكفَّار يكون سعيًا في إبطال دينه، ومَكْره عَزَّ وَجَلَّ لإعلاءِ ونَصْرِ دِينه وشَرْعِه. ومَكْر العِباد ظُلْمٌ، ومَكْر الله تعالى عَدْل.

وفيها: أنَّ تدبير الله مُحكَم؛ فلا يُفلِت منه أحد، وأمَّا مَكْرُ المخلوقين وتدبيرهم: فيَعتريه القصورُ والخلَلُ والفشَلُ.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾:

ثم بيَّن الله تعالى كيف مكْرَ بهؤلاء اليهود، ونجَّى عبدَه ونبيَّه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ قال بعض المفسِّرين: قابِضك. تقول العرب: «توفَّى» فلانٌ دَينه من فلان، أي: حازَه وقبضَه.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ الوفاة هنا هي: وفاة النوم، وهي المَوتة الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وليست الوفاةَ الكبرى بالموت. والمعنى: يُلْقِي عليه النوم.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: في حال نومه، ليمكُث في السماء حيًّا، حتى ينزل في آخر الزمان قبل قيام الساعة.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مبرِّئك ممَّا اتهموك به وافتَروا عليك بالباطل، كقولهم: إنَّ أُمَّه زانية، وأنَّه ابن زنا -والعياذ بالله- فبيَّن الله براءتَه من ذلك فيما أنزلَ عَزَّ وَجَلَّ. وطهَّره أيضًا من الذين كفروا، بأن نجَّاه منهم، وخلَّصه من شرِّهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ وآمنوا أنَّك عبدُ الله ورسوله، واتَّبعوا شريعتك ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ -من اليهود وغيرهم- ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والمراد: أنَّ هذه الفوقيَّة والاستِعلاء والغَلَبة مستمرَّة إلى أن يرثَ الله الأرض ومَن عليها. وهذه الفَوقيَّة تشمل: فَوقية الحُجَّة والبيان، وفَوقيَّة القَهْر بالسَّيف والسِّنان والسُّلطان.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هم أهل الإسلام، الذينَ اتَّبَعوه على فِطرته ومِلَّته وسُنَّته، فلا يزالونَ ظاهرين على مَن ناوَأَهُم إلى يوم القيامة»[١].

وقد تحقَّق ذلك وحصلَ وَعْدُ الله؛ فانتصرَ أتباعُ المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على مَن نَاوَأَهُم من اليهود، فذهب مُلك اليهود. وحصلَ التحريفُ في دين النصارى، ولكنَّهم -على كلِّ حال- أخفُّ كُفرًا من اليهود، حتى بعثَ الله نبيَّنا محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكان صحابتُه هم أهلَ التوحيد صِدقًا، وأولَى بالمسيح عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَدْلًا وحقًّا؛ فجعلَهم الله ظاهرين في الأرض، وأورثَهم بلادَ النصارى، ففتحوا الشام وغيرَها، ولا يزال الإسلامُ في الأرض، والطائفةُ المنصورة -أتباعُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ظاهرين بالحُجَّة والبيان، أو القَهر والسُّلطان، حتى يخرجَ المهديُّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيُقاتِلون النصارى، وينتصرون عليهم، ويقتُلونهم قَتْلًا لم يُرَ مِثلُه، ويفتَحون القُسْطَنطينيَّة، ثم ينزل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيُقاتِلون معه اليهود والدَّجَّال، ويُهلِك اللهُ الكفَّارَ على أيديهم، وتتمُّ الفَوقيَّة والظُّهور، إلى أنَّ يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء الدُّنيا وقيام الساعة ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم، إلى الله لا إلى غيره، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ -يومئذٍ- ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدِّين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تطهير الله لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتخليصه من أذى الكفَّار -حِسِّيًّا ومعنويًّا- فنجَّاه من سُوء الجوار، ومن مُعاشرةِ مَن آذاه من الكفَّار.

وفيها: دليلٌ بيِّن على عُلوِّ الله تعالى، كما في قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: من الأرض إلى السماء.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٤٦٢)، تفسير ابن المنذر (١/ ٢٢٣).

وفيها: أنَّ رَفْع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء كان ببدَنه ورُوحه، وأنَّه رُفِعَ وهو نائم.

وفيها: إيناس الله لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بإخباره عَن رفعه إليه، وما سيقع له قبل أن يقعَ، وفي هذا إعداد نفسيٌّ له وطُمأنينة.

وفيها: شَرَفٌ عظيم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بخطاب الله له، وبرَفْعِه إليه، وحِفظه أثناءَ رَفعه، وتبرئته من البُهتان العظيم، وتقدير النصر لأتباعه.

وفيها: أنَّ الله ينتَصِر لأنبيائه، ويُدافِع عن أوليائه، ويحفظهم بحِفظه، ويُنَجِّيهم من أعدائهم.

وفيها: أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينتَهِ عُمُره بعد، ولم يستوفِ أجلَه في هذه الدُّنيا؛ فقد كتبَ الله له عُمرًا طويلًا، وأنَّه لا يزال حيًّا -جسدًا ورُوحًا- وهو يعيش الآن في محلِّ كرامة الله، ومقرِّ ملائكته.

وفيها: شناعة فِعْل اليهود، فيما نسَبُوه لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولأُمِّه من التُّهَم الباطلة.

وفيها: أنَّ إيذاء الأنبياء كُفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وفيها: أنَّ الظُّهور لأهل الحقِّ باقٍ إلى قيام الساعة، سواءً بالحُجَّة والبيان، أو بالسَّيف والسِّنان.

وفيها: أنَّ الله كتب النصر لأتباع الأنبياء.

وفيها: أنَّ نُصرة الأتباع نُصرة للمتبوع.

وفيها: أنَّ أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد بِعْثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هم المُوَحِّدون المُستَجيبون من أُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: شَرَفٌ عظيمٌ للذين يُدافِعون عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويُظهِرون براءته من التُّهَمِ الباطلة وقالةِ السُّوء؛ لأنَّ مَن تحقَّق وَعْدُ الله الحسَنُ على يدَيه -وهو مؤمن-؛ فهو صاحبُ منزلة رفيعة.

وفيها: مَكْرُ الله بأعداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد همُّوا بما لم ينالوا، فلم يُمَكِّنْهم الله ممَّا كانوا يُريدونَه، لا في جَسَده، ولا في نفسِه.

وفيها: إخبار الله تعالى عن ذُلِّ اليهود، وهم أعداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّهم لا يزالون مَغلوبين إلى قيام الساعة.

وفيها: أنَّ الغُلُوَّ الحاصلَ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليس هو من حقيقةِ اتِّباعه.

وفيها: أنَّ انتصار الكفَّار على المسلمين في الدُّنيا، لا يُنافي وَعْدَ الله بالغَلَبة للمؤمنين؛ لأنَّ انتصار الكفَّار لا يدوم، وما يَلْحَق بهم من الخسائر والهزائم والأذى أضعافُ ما يقع للمسلمين، ولا بُدَّ أن تعودَ الغَلَبَةُ لأهل الإيمان.

ثم إنَّ انتصارَهم ماديٌّ بالسِّلاح والطُّغيان، وليس انتصارَ منهجٍ وعقيدةٍ، والانتصارُ الحقيقيُّ هو عُلُوُّ المنهج والعقيدة -وهو انتصار أهل الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ- وغَلَبَة الحُجَّة والبيان تكون لأهل الإيمان، لا غيرهم على كلِّ حال.

وما يحصُل من انتصار الكفَّار في بعض الجَوْلات؛ فإنَّما هو استِدراجٌ ومَكْرٌ من الله بهم، ثم تأتيهم الهزيمة.

وما يحصُل من هزيمة المسلمين -إذا حصلَت- فإنَّما هو من التمحيص والابتلاء، ولرِفعةِ الدرجات، واتِّخاذِ الشُّهَداء، والتطهيرِ من العُجْب والغُرور وغيرِها من آفات القُلُوب، وليكونوا قُدوةً لغيرهم في الثبات.

وأخيرًا: فالنصر في الآخرة لا يكون إلَّا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفي الآية: أنَّ مرجِع الخلائق إلى الله يوم القيامة، وأنَّ الحُكم راجعٌ إليه، وأنَّه سبحانه الحَكَم في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: بِشارةٌ للمؤمنين، بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سيقضي بينهم وبين الكفَّار، ومَن قضى الله له فهو منصور، ومَن كان اللهُ خَصْمَه فهو مغلوبٌ مدحورٌ.

وفيها: أنَّ الخُصُومة تقع بينَ المؤمنين والكافرين يومَ القيامة، امتدادًا لخُصومة الدُّنيا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وفيها: أنَّ الخلاف بينَ المسلمين والكفَّار جوهريٌّ أساسيٌّ، وأنَّه خلاف تضادٍّ، وأنَّه لا

يُمكِن انتزاعُ العداوة من قُلُوب المؤمنين للذين كفروا، ولا يُمكِن اجتماعُهم جميعًا على شيءٍ واحد، إلَّا بدخولهم في الإسلام.

وفي الآية: وَعْدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾:

ثُمَّ فصَّل الله تعالى وَعدَه للمؤمنين، ووعيدَه للكافرين؛ فبدأ بجزاء الكافِرين؛ فقال:

﴿فَأَمَّا﴾ (الفاء) للاستئناف، و(أمَّا) حَرْف شرط وتفصيل، وما بعدها فَرعٌ عمَّا قبلها.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورُسُله. و(الكُفر) في اللُّغة: السَّتر، وسُمِّي الكافر بذلك؛ لتغطيتِه حقيقةَ الأُلوهيَّة والعبوديَّة، وجحدِها، وسَترِ نِعَم الله وعدمِ الاعتراف بها.

﴿فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: بالقَتْل، والسَّبي، والأَسْر، والجِزْية، والتسليط عليهم، وإيقاع الضِّيقِ والحَسْرة في قُلُوبهم، وما يحصل لهم من القلقِ والاضطراب والحيرة والمعيشة الضَّنْك؛ فيجتمع عليهم الألمُ القَلْبيُّ والألمُ البدَنيُّ. و(العذاب): هو وقوع المشقَّة، بذنب أو بغير ذنب، فإذا وقعَ بذنب فهو عذابُ عقوبةٍ، وهو المراد هنا.

فكذلك فعلَ الله تعالى بمَن كفرَ بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه من النصارى؛ فعَذَّبهم في الدُّنيا بالقَتْل، والسَّبي، وأخذِ الأموال، وإخراجِهم من بيوتهم، وإزالة أيديهم عن الممالك والدِّيار.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾: يعذبهم فيها بالخلود في النَّار، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]. وظاهر الآية أنَّه يحصل لهم العذابُ في الدارَين.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: لا يجدون مَن ينصرُهم ويَدفعُ عنهم عذاب الله.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾:

ثم بيَّن سبحانه حُسنَ جزائه للمؤمنين؛ فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورُسُله، وما

أنزلَه الله على رُسله، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خالصةً لله، صوابًا على السُّنَّة، وامتثَلوا الأوامرَ، واجتنَبوا النواهي؛ ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ أي: يُعطيهم جزاءَ أعمالهم موفَّرًا كاملًا غيرَ منقوص. وليس للعباد حقٌّ واجبٌ على الله، ولكن -بمَنِّه وكرَمِه- أوجبَ الأجرَ على نفسه.

وهذه (التوفية) تكون في الدُّنيا: بالنَّصرِ والإعزازِ والغَلَبةِ، والإكرام، والحياة الطيِّبة، وفي الآخرة: بأنواع النعيم، وقِسْمةِ منازلِ الجنَّةِ عليهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ظُلْم الإخلاص بالشِّرك والرِّياء، وظُلْم العمل بالنقص والبِدعة. ومَن وقع في ذلك؛ فالله لا يُحِبُّه، وهو مستَحِقٌّ للعذاب.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور، من خَبر عيسى وأُمِّه وأُمِّها وزكريّا ويحيى عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وخبر الحواريِّين، واليهود، والثواب والعقاب. كلُّ ذلك ﴿نَتۡلُوهُ﴾: نقرؤه متتاليًا، يتلو بعضُه بعضًا ﴿عَلَيۡكَ﴾ -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- بواسطة رسولِنا جبريل ﴿مِنَ﴾ وهي بيانيَّة -تُبيِّن المشار إليه في قوله (ذلك)- ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العلامات الدالَّة على نبوَّتك -يا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- وقُدرة ربِّك.

﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾: ما يحصُل به التذكير والانتفاع، والموعظة ذِكْرَى، وهو أيضًا الشَّرَف العظيم. ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: المُحكَم المُتقَن، الذي لا خلَلَ فيه، والحاكم بينَ الناس.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أنَّ مِن حِكمة الله تعالى: تعجيلَ شيء من العقوبة للكفَّار في الدُّنيا، وتعجيل شيء من المثوبة للمؤمنين فيها؛ رَدْعًا للكفَّار؛ لعلَّهم يَرْجِعون، وتثبيتًا للمؤمنين؛ ليستمرُّوا على طريق الحقِّ.

وفيها: استعمال القرآن طريقةَ الوَعْد والوَعيد في الموعظة.

وفيها: شِدَّة الله تعالى في الخِطاب مع الكفَّار، كما في أسلوب المواجَهة وضمير المتكلِّم في قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمۡ﴾.

وفيهـا: تـودُّد الله تعـالى للمؤمنـين، وتلطُّفـه معهـم؛ كـما في ضمـير الغائـب في قولـه: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾.

وفيهـا: شِـدَّة عذاب الله للكفَّـار؛ فإنه جَمَع -في إخبـاره عن ذلك- بينَ قيامه به بنفسـه، ووَصْفِـه إيَّاه بالشِّـدَّة، وتأكيدِه له، فقال: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾، وأنَّـه لا ناصر لهم يمنَعُه، ولا يَرْفعه، ولا يخَفِّفه.

وفيهـا: أنَّ عـذاب الله للكافرين في الدُّنيا عامٌّ وشـاملٌ، وهذا يدخـل فيه: ما كان بأيدي المؤمنـين مـن القَتْـل والأَسْر والجِزْية، وما يُرْسِـله الله عـلى الكافرين من الأوبئـة والزلازل والأعاصير والفيضانات ونحوها.

وفيها: أنَّ وفاءَ الأجرِ للمؤمنين مُرتبطٌ بوَصْفَين؛ هما: الإيمانُ والعملُ الصالح.

وفيها: عُلُوُّ منزلة الآخرة على منزلة الدُّنيا، وإنَّما سُمِّيت (دنيا)؛ لدُنُوِّ منزلتها عن الآخرة؛ فنعيـم الدُّنيا دانٍ نازلٌ عن مرتبة نعيم الآخرة، وهو مَشـوبٌ بالكَدَر، منغَّصٌ بالآفات، فَانٍ بالهَرَم والموت.

وسُمِّيت (الدُّنيا) بذلك أيضًا؛ لدُنُوِّها وقُرْبها، ووقوعِها قبل الآخرة في الترتيب الزمني.

وفيها: أنَّ عذاب الدُّنيا لا يُغنِي الكفَّار عن عذاب الآخرة.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار لا نـاصر لهم من عـذاب الله، ولا تنفعهم الشـفاعة، ولا يُؤذَن لأحدٍ بالشفاعة فيهم أصلًا.

وفيها: أنَّ الإيمان لا بُدَّ له من عمل يُغذِّيه ويُنَمِّيه، ويَشهد بصِحَّته.

وفيهـا: كَـرَمُ الله تعـالى ومِنَّته على المؤمنـين؛ فقد أوجبَ على نفسـه الأجر للصالحين من عباده، مع أنَّه ليس للعباد حقٌّ واجبٌ عليه، كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا للعِبادِ عَلَيْهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أوجَبَ الأَجْرَ العظيمَ الشانِ
كـلَّا ولا عَمَلٌ لَـدَيْـهِ ضائِعُ ... إنْ كانَ بالإِخْلاصِ والإِحْسَانِ
إنْ عُذِّبوا فبعَدْلِه، أو نُعِّمُوا ... فبِفَضْلِهِ، والحَمْدُ للمَنَّـان[1]

(١) النونية (ص٢٠٨).

وفيها: مِنَّة الله تعالى على المؤمنين؛ حيث جعل الجزاء كالأجر اللازِم الوفاء، ولو قيل لهم: إنَّ أعمالكم الصالحة هي في مُقابِل نِعَم الله عليكم؛ لَبَقُوا مَدينين مهما فعلوا. ولو قيل لهم: مُدَّة بقائكم في الجنَّة هي بحَسَب مُدَّة عبادتكم في الدُّنيا، ثم تُخرَجون؛ لكان في ذلك زيادةُ فَضْلٍ وإنعام، فكيف وهو يُعطيهم نعيمًا لا يفنى، وهم فيها خالدون؟! كما قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحِجْر: ٤٨].

وفيها: شُؤم الظُّلْم على الإنسان، وأنَّه سببٌ لانتفاء محبَّة الله للظالم، فالله يكرَهُه، وهو من كبائر الذُّنوب.

وفيها: أنَّ الإخلال بالإخلاص والمتابعة للنبيِّ ﷺ، من الظُّلْم.

وفيها: إظهارُ السُّلطة والعَظَمة والعِزَّة في باب العقوبة، وإظهارُ الفَضْل والإحسان واللِّين في باب المثوبة.

ويؤخَذ من الآيات: الفَرْق بينَ طريقة خطاب الكافرين، وخطاب المؤمنين، كما قال تعالى في وصف الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: تثبيت النبيِّ ﷺ، بقَصص النبيِّين مِن قبله.

وفيها: أنَّ هذا القرآن شَرَفٌ عظيمٌ لهذه الأُمَّة، وأنَّه أعظم الذِّكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

وفيها: أنَّ القرآن ذِكرٌ باللِّسان بتلاوته، وذِكرٌ للمسلم وشَرَفٌ برِفْعته، وذِكرٌ يتذكَّر به المؤمن بمَوعظته.

وفيها: وَصْف القرآن بـ (الذِّكْر الحكيم)؛ فهو جمعَ بينَ الإحكام، والحِكمة، والحُكم: فهو مُتقَن ليس فيه اختلافٌ ولا اضطراب، وهو يضع الأمور في مواضعها اللَّائِقة بها، وهو الحاكِم والقاضي الذي يَفْصِل بينَ الناس، وإليه يَرْجعون في معرفة الأحكام.

وفيها: أنَّ هذا القرآن قد تلاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كاملًا، على النبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ قَصَّ القَصَصِ المُفصَّلةِ أحداثُها، المبيَّنةِ أشخاصُها، الواضِحةِ في السَّرد، المقرونةِ بالعِبَر؛ دليلٌ على نبوَّة محمَّد ﷺ، وآيةٌ شاهدةٌ على صِدقه فيما يُخبِر به من الوحي عن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو الذي قدَّر تلك الأحداث وأجرى هذه الوقائع.

وأمَّا كتب التاريخ وحكايات الناس: فكثيرًا ما يَعتريها التضارُب والتناقُض، وغيابُ التفاصيل، والجَهلُ ببعض الأحداث.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾:

ولـمَّا كانت هذه السُّورَة العظيمة قد نزل أولها في شأن نصارى نَجْران، الذين جاءوا إلى النبي ﷺ، وهم يعتَقِدون أنَّ عيسى ابن الله، وكانت شُبْهَتهم في هذا أنَّه وُلِدَ بلا أب: جاءت الآيات في هذه السُّورَة تفنِّد شُبْهَتَهم، وتبيِّن لهم أمرَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ خَلْقه بلا أب لا يُوجِب أن يكون ابنًا لله، كما أنَّ خَلْق آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بلا أبٍ ولا أمٍّ لا يُخرِجه عن كونه عبدًا مخلوقًا لله.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي: شأنه وصِفته، في خَلْق الله له ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قُدرته؛ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كشأنِ آدم ومبدإِ أمره؛ فقد ﴿خَلَقَهُۥ﴾: أوجدَه الله وابتدأ خَلْقه ﴿مِن تُرَابٖ﴾ ميِّتٍ جمادٍ، ثم صارَ طينًا لَزِجًا، وهيكلًا وجسمًا بلا رُوح، ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾؛ فخلقه بالكلمة، وجعلَه بها حيًّا ذا رُوحٍ. ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: فقام بينَ يدي الله بَشَرًا ناطقًا مُتكلِّمًا، مستويَ الأعضاء والجوارح.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان قُدرة الله تعالى في الخَلْق.

وفيها: إثبات القياس الصحيح، واستعمال التشبيه لبيان الحقِّ وتوضيحه للأذهان، والرُّجوع في المُناظَرة إلى ما يُسلِّم به الخَصْم للبناء عليه.

وفيها: أنَّ الله يخلُق بالكلمة والأمر.

وفيها: إفحام النصارى، وتفنيد شُبْهَتهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ مَن خَلقَ آدم بلا أبٍ ولا أمٍّ، يقدِر -من باب أولى- على خَلْق عيسى من أمٍّ بلا أب، وأنَّ مَن خلقَ آدم من تراب قادرٌ على أنَّ يخلُق عيسى من دمِ مريم؛ بل تولُّد الإنسان من الدم أقربُ إلى العقل من تولُّده من التراب اليابس. وخروجُ الحيِّ من الجامد الميِّت أعجَبُ من خروج الحيِّ من الحيِّ.

وفيها: تشبيهٌ للعجيب بالأعجب؛ ليكونَ أوقعَ في النفس، وأشدَّ إفحامًا للخَصْم، وأحسمَ للشُّبهة.

وفيها: حكايةُ ما حصل في الماضي بصيغة المضارع؛ فقال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولم يقل: «كُن فكان» -كما هو المتبادر-؛ وهذا تصويرٌ للحال، وعَرْضٌ له كأنَّه يحدُث الآن، وتنبيهٌ على أنَّ هذا هو الشأن دائمًا في خَلْق الله.

وفيها: إثباتُ بشريَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ الله تعالى يخلُق من الأشياء ويُقدِّر من الحوادث، ما فيه تمحيصٌ لإيمان البشر، فيَزيغ بعضُهم ويستجيب للشُّبهة، ويزداد إيمانُ بعضِهم ويصبح أشدَّ بصيرة؛ فيكون الحدَثُ الواحد نِعمةً وفائدةً لقوم، وفِتنةً وبلاءً لآخرين.

وفي الآية: مَثَلٌ للدُّعاة في تفنيد شُبُهات الكافرين والمكذِّبين.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾:

ثم أكَّد عَزَّوَجَلَّ ما أخبرَ به نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهاه -بعدما جاءَه البيانُ- عن الشَّكِّ، مهما كانت شُبُهات هؤلاء النصارى.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ما قَصصناه عليك -في شأن عيسى وأُمِّه- هو الخبر الحقُّ، والقول الصِّدق، الذي لا شكَّ فيه. وأصل (الحقِّ): هو الشيء الثابت.

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: مَصدَره من الله، فلا تطلب الحقَّ من غيره.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين فيه، فابقَ على يقينك، واطمئنَّ، ودعْ باطل الذين قالوا: إنَّ عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى لا يقول إلَّا الحقَّ.

وفيها: النهي عن الشَّكِّ فيما أخبر به الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: عدم جواز التأثُّر بشُبُهات أهل الباطل.

وفيها: أنَّ كثرة الشاكِّين لا تَفتِن مَن هو على الحقِّ، وهذا هو الواجب عليه.

وفيها: وجوب الثباتِ على الحقِّ، والاستمرارِ عليه.

وفيها: أنَّ النصارى واليهود ليسوا على حقٍّ في اعتقادهم بشأن عيسى وأُمِّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وفيها: أنَّ صاحب اليقين العظيم محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا خُوطِب بالنهي عن الشَّكِّ -مع قوَّة إيمانه ورُسُوخه وعِصمته-؛ فغيره -من باب أولَى- عليه أن يحذَر.

وفيها: أثر كلام الله في طُمأنينة النفوس، وتثبيتها على الحقِّ.

وفيها: أنَّه يجب عند الاختلاف وحصول الشُّبهة، الرُّجوعُ إلى مصدر اليقين، والتسليمُ له، ومعالجةُ النفس به، وهو كلام الله تعالى وما أنزلَه في القرآن.

وفيها: أنَّ (الحقَّ) يُوصَف به الخبر، كما يوصَف به الحُكم؛ فالله يقصُّ الحقَّ ويقضي بالحقِّ، فتمَّت كلمتُه عدلًا وصِدقًا: عدلًا في الأحكام، وصِدقًا في الأخبار؛ كما قال تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفيها: إرشادٌ للدُّعاة، لتحذير الناس من الشَّكِّ والشُّبهة، بعد عَرْض الحقِّ عليهم، وقَصِّ القَصَص من الوحي.

وفيها: إغلاقُ الباب أمامَ الوساوس، بعد تبيُّن الأمور واتِّضاح الحقائق.

وفي هذه الآية: دليلٌ على قاعدةٍ شريفةٍ؛ وهي: أنَّ ما قامت الأدلَّة على أنَّه حقٌّ، وجزمَ به العبد -من مسائل العقائد وغيرها-؛ فيجب أن يجزم في المُقابِل بأنَّ كلَّ ما عارض هذا الحقَّ فهو باطلٌ، وكلَّ شُبهة تُورَد عليه فهي فاسِدة، سواء عَلِمَ جوابَها وفَهِمَه، أم لا.

وفي هذه القاعدةِ الشرعيَّةِ حلٌّ لإشكالات كثيرة، وبها تَذْهَبُ الوساوسُ والأباطيلُ عن المسلمين.

وفيها: إحسانُ الله إلى نبيِّه محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى أُمَّته، بتبيينِ ما اختَلفَ فيه غيرُهم، وتعريفِهم الحقَّ في ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز قَبولُ أخبارِ بني إسرائيل ورواياتِهم، قبل عَرْضها على الوحي -قرآنًا وسُنَّة- فإذا عارضَت الوحي فهي باطلةٌ، ولا وزن لها.

وأخبار أهل الكتاب (الإسرائيليَّات) ثلاثة أقسام[1]:

الأول: ما عَلِمنا صِحَّته بما دلَّ عليه الدليل من الكتاب أو السُّنَّة، ممَّا يشهد له بالصِّدق. فهذا صحيح، وإن كان لا حاجة بنا إليه؛ استغناءً بما عندنا.

الثاني: ما عَلِمنا كَذِبَه وبطلانه، بما عندنا ممَّا يُخالِفه من الكتاب أو السُّنَّة. فهذا كَذِبٌ مردودٌ، لا تجوز حكايته إلَّا على سبيل الإنكار والإبطال.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، ليس عندنا ما يصدِّقه أو يكذِّبه. فهذا هو المأذون في روايته وحكايته؛ لحديث: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ»[2]، لكن لا نُصَدِّقه ولا نُكَذِّبه؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ»[3]، وإن كان غالبُ هذا المسكوتِ عنه، ممَّا لا فائدة فيه تعود إلى أمرٍ دينيٍّ.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ٦١﴾:

ثم أمرَ الله تعالى نبيَّه محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمُباهلةِ مَن عاند الحقَّ في أمر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والدُّعاء بالهلاكِ ولعنةِ الله على مَن كذبَ في هذا.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: خاصمَك وجادلَك ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اليقينيِّ والوحيِ، بالآيات البيِّنات.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ -أيُّها المخالِفون، من النصارى وغيرهم- ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ الذُّكور -من الطرفَين- ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ للخروج إلى مكان المُباهَلة، ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ من الرِّجال البالغين العُقلاء، ونجتمع جميعًا في مكان واحد.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) رواه البخاري (٤٤٨٥).

﴿ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ أي: نتضرَّع ونجتهد ونُبالغ في الدعاء. و(الابتهال): كلُّ دعاء يُجتهَد فيه.
﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ أن تحلَّ وتنزل ﴿عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ المخالِفين الحقَّ، المعانِدين له، منَّا أو منكم.

ولـمَّا نزلت هذه الآية؛ دعا النبيُّ ﷺ وفد نصارى نَجْران إلى المباهَلة والمُلاعَنة؛ فكانوا بينَ ثلاثة أمور: إمَّا أن يُسلِموا ويتبعوا الحقَّ، أو يُعانِدوا ويُباهِلوا ويَدخلوا في المُلاعَنة، أو يَنسَحِبوا ويبقَوا على دينهم -مع دفع الجِزْية-.

فتشاوَروا فيما بينهم، ثم اتفقت كلمتُهم على الانسِحاب، ووقعَ في قُلُوبهم الخوفُ والهلعُ.

فعن حُذَيفة رضي الله عنه قال: جاءَ العاقِبُ وَالسَّيِّدُ -صَاحِبَا نَجْرَانَ- إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، يُرِيدَانِ أَنْ يُلاعِنَاهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لا تَفْعَلْ؛ فوالله، لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاعَنَّا؛ لا نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلا عَقِبُنَا مِن بَعْدِنَا!

قَالا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ»، فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[(١)].

وعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: لـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾؛ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: «اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»[(٢)].

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «لو خرجَ الذين يُباهِلون رسولَ الله ﷺ؛ لرَجَعُوا لا يجِدون مالًا ولا أهلًا»[(٣)].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مواجهة أهل الباطل لا تكون بالدَّعوة إلى المُباهَلة من أول الأمر؛ وإنَّما يُجادَلون

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠)، ومسلم (٢٤٢٠) -مختصرًا-.
(٢) رواه مسلم (٢٤٠٤).
(٣) رواه أحمد (٢٢٢٥)، وصححه محققو المسند.

بالتي هي أحسن، وتُقام عليهم الحُجَج والبراهين، وتُفنَّد شُبُهاتهم، فإذا أصرُّوا جازَت المُباهَلة.

وفيها: أنَّ مَن عاندَ الحقَّ بعد ظهورِه وإقامةِ الحُجَّة عليه؛ ينبغي تَرْكُ الجِدال معه؛ لأنَّه لا فائدة منه، وتجوز دعوتُه إلى المُباهَلة؛ لإجباره على الاعتراف بالحقِّ.

وفيها: ثقةُ أهل الحقِّ بأنفُسِهم، وتردُّد أهل الباطل وشكُّهم في عقيدتهم، فالحقُّ أبلَجُ، والباطل لَجْلَجٌ.

وفيها: ما عليه أهل الحقِّ من الثقة بالحقِّ، حتى أخرجوا أبناءَهم ونساءَهم، وضمُّوهم إليهم في المُباهَلة؛ ليقينِهم بالنصرِ والغَلَبةِ، وحِفظِ الله لهم، مع أنَّه ليس من شروط المُباهَلة إخراجُ الأبناء والنِّساء، لكنَّ هذا من كمالها وتمامها.

وإن لم يوجَد أبناءٌ لأحد الطرَفَين؛ فيخرُج بأقرب أقاربه وذُرِّيَّته، ويجوز أن يُباهِل وحدَه دون أحدٍ من أقاربه.

وفيها: تعلُّق أهلِ الباطل بالدُّنيا، وخشيتُهم على نسائِهم وأولادِهم أكثر من خشيتهم عذابَ الآخرة.

وفيها: اختيار أحبِّ الأشياء إلى الخَصْم في المُباهَلة؛ لأنَّ هذا أبلغ في الزجر، وأقوى في تخويف الخَصْم.

وفيها: جواز اللَّعْن والدُّعاء بالهلاك، على مَن أصرَّ على كُفره وعِناده.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ يختارون أعلمَهم وأتقاهم وأصلحَهم للمُباهَلة؛ لأنَّه أدعى لاستجابة دُعائه.

وفيها: أنَّ الأصل في المُباهَلة أن تكون بينَ أهل الحقِّ وأهل الباطل، ولا تكون بينَ المسلمين إلَّا لضرورة، وقريب منها: المُلاعَنة بينَ الزوجَين.

وفيها: الاستعانة على استخراج الحقِّ، بإحاطة المتخاصِمين بما أمكنَ من الهَيبة والحرَج النفسيِّ.

وفيها: أنَّ من كان في شكٍّ من الأمر؛ فلا يُعرِّض نفسَه للخطر.

وفيها: أنَّه لا تجوز المُباهَلة إلَّا بعِلْمٍ يقينيٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

وفيها: أنَّ المُباهَلة لا تكون في الأمور الاجتهاديَّة؛ وإنَّما في الأمور الشرعيَّة العظيمة الواضحة، كقضايا الإسلام والكُفر، والتوحيد والشِّرك، والسُّنَّة والبدعة، والحقّ والباطل.

وفيها: أنَّ المُباهَلة لا تكون إلَّا بعد عِناد الخَصْم.

وفيها: أنَّ الدُّعاء في المُباهَلة على مَن خالف الحقَّ، يكون بالوَصف لا بالشخص.

وفي المُباهَلة: إثبات وإبراز دَور المرأة المسلِمة في إظهار الحقِّ.

وفي الآية: إعطاء المُهلة في التفكير، والتروِّي في الأمر، عند الاجتماع للمُباهَلة وقبل الدُّعاء، كما يفيده حرف ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، وهو يدُلُّ على التراخي. وفي ذلك موعظةٌ للنصارى وإمهالهم للتفكير، كأنَّه يقول لهم: تأنَّوا ولا تَعْجَلوا، وانظُروا في أمركم.

فوائد من الرِّوايات الواردة في قِصَّة المُباهَلَة:

فيها: أنَّ مَن باهلَ النبيَّ ﷺ؛ فهو هالِكٌ لا محالة.

وفيها: جواز مصالَحة أهل الكتاب -غيرِ المُحارِبين- وإقرارهم على دينهم على شروطٍ معيَّنة.

وفيها: اختيارُ الإمام للرجل العالم الأمين، وبَعْثُه إلى أهل الهُدْنة في مصلحة الإسلام.

وفيها: منقبة عظيمة للصحابيِّ أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه، في شهادة النبيِّ ﷺ له بالأمانة.

وفيها: حِرْص الصَّحابة على الفوز بهذه المنقبة.

وفيها: أنَّ إقرار الكافر بالنبوَّة في نفسه، لا يُدْخِله في الإسلام، حتى ينطقَ الشهادتَين.

وفي طلب وَفد نصارى نَجْران إرسالَ رجلٍ مسلِمٍ يحكم بينهم: دليلٌ على عدلِ المسلمين، وعدالتهم، ورضا أهل الكتاب بحُكمهم، وشهادتهم لهم بأنَّهم لا يَظْلِمون.

وفيها: أنَّ مِن مداخل الشَّيطان: إلباسَ الباطل لباسَ الحقِّ؛ فقد ادَّعى نصارى نَجْران الإسلام، مع أنَّهم يَدَّعون لله ولدًا، ويستَحِلُّون أكلَ الخنزير، ويعبدون الصليب!

وفيها: استشارة أهل العقل والحِكمة في الأمور العظيمة.

وفيها: أنَّ الاستشارة من وسائل تحصيل الصواب.

وفيها: أنَّ حُبَّ الرئاسة واتِّباع الهوى يَصُدُّ عن الحقِّ، ويُعمِي صاحبَه عن رؤيته.

وفيها: نَصرٌ عظيمٌ للمسلمين، بانسحاب النصارى من المُباهَلة؛ لأنَّهم خافوا على أنفُسِهم الهلاك، وقد علِمَ بهذا الانسحاب خُصومُ المسلمين الآخرون -كاليهود والمنافِقين-.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾:

قوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: المذكور في القرآن، من شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الخبر الصِّدق، والقول القاطع، حصرًا وتوكيدًا. و(القَصص) في اللُّغة: هو الكلام الذي يَتْبَع بعضُه بعضًا، وهو: تتبُّع الوقائع، بالإخبار عنها شيئًا بعد شيءٍ، على ترتيبها.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: مألوه، وهو: المعبود محبَّةً وتعظيمًا ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا عيسى ولا غيره.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي يَغْلِب ولا يُمنَع ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: له الحِكمة البالغة، وله الحكم والفَصْل، يشرع ما يشاء، وقد أحكمَ كلَّ شيءٍ.

وإذا اقترنَت (العِزَّة) بـ (الحِكمة) فقد كمَلَت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإكثار من المؤكِّدات، عند عَرْض الحقائق التي وقع التكذيبُ بها، أو الشَّكُّ، وكثرةُ الجِدال.

وفيها: أنَّ كلَّ ما خالف قَصصَ القرآن عن عيسى وأُمِّه؛ فهو كَذِبٌ وباطلٌ.

وفيها: درسٌ للدُّعاة في استعمال أساليب التأكيد في الكلام، عند مواجَهة الدِّعايات الباطلة.

وفيها: أنَّ مِن القَصَص ما يكون حقًّا، ومنها ما يكون باطلًا.

وفيها: كَذِب النصارى، في ادِّعاء الشريك لله والولَد والزوجة.

وفيها: انفراد الله تعالى بصفات الرّبوبيَّة والألُوهيَّة، كالقُدرة على الإحياء، والإخبار بالغيوب، خلافًا لِما ادَّعته النصارى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذه الصِّفات.

وفيها: أنَّ (العِزَّة) إذا اقترنَت بـ(الحِكْمة) فقد كمَلت؛ لأنَّ العِزَّة -وهي القوَّة والمَنَعة- إذا كانت بغير حِكمةٍ؛ أدَّت إلى الطَّيْش.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾:

قوله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرَضوا عن اتِّباعِك وتصديقِك، ولم يقبَلوا التوحيد، ولم يجيبوك إلى المُباهَلة. فإن فعلوا ذلك؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الدِّين، وبنيَّاتهم وأغراضِهم الفاسدة، وسيُجازيهم على سرائِرهم الخبيثة وأعمالهم السيِّئة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن تولَّى عن دين الله، وعدلَ عن الحقِّ إلى الباطل؛ فهو مُفْسِدٌ.

وفيها: تهديدُ الله تعالى لهؤلاء المُفسِدين، بأنَّ حالهم لا يخفى عليه.

وفيها: أنَّ دينَ الله صلاحٌ، وما سواه فسادٌ وسببٌ للفساد.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾:

ولـمَّا بيَّن الله تعالى حالَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعا الناسَ إلى التوحيد والإسلام، وأمر نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة أهل الكتاب إلى المُباهَلة -بعد ظهور عِنادهم-: أمر عَزَّ وَجَلَّ نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدَعوتهم إلى أمرٍ عَدْلٍ، وسواءٍ بينَ الفريقَين؛ وهو العودة إلى أصل الدِّين.

فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا الخِطاب يَعُمُّ اليهود والنصارى، ومَن جرى مجراهم ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ (الكلمة) تُطلَق على: كلِّ جملة مفيدة.

ثم وصفها تعالى، فقال: ﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كلمة عَدْل، نستوي فيها نحن وأنتم.

ثم فسَّرها، فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ فذكرَ التوحيد وضِدَّه -وهو الشِّرك-؛ ليكتمل الأساسُ من الجهتَين: من جهة الدَّعوة إلى الشيء، ومن جهة النهي عن ضِدِّه.

ونفيُ الشِّرك في العِبادة يكون بعدَمِ اتِّخاذ الوثَن، أو الصَّنَم، أو الصَّليب، أو الطاغوت، أو النَّار -أو غيرِها ممَّا يُعبَد من دون الله- ندًّا من دون الله.

وقوله ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يطيع أحدٌ أحدًا من الرُّؤساء وغيرِهم في معصية الله تعالى، وفيما خالَفوا فيه شَرْعَ الله، من التحليل والتحريم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن هذه الدَّعوة العادِلة المُنصِفة، وأعرَضوا عن التوحيد، وأَبوا إلَّا الشِّرك؛ ﴿فَقُولُواْ﴾ أنتُم -أيُّها المؤمنون- لأهلِ الكتاب المُصِرِّين على الباطل: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُنقادون لأمر الله، مخلِصون له بالعِبادة، مُقِرُّون له بالشريعة، مُستَمِرُّون على الإسلام الذي شرَعَه.

وهذه الآية قد كتبَها النبيُّ ﷺ في خطابه إلى النصارى، يدعوهُم بها إلى الله، فقرأه هِرَقل، فإذا فيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[(١)]، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[(٢)].

وقد بلغ من عِناية النبي ﷺ بهذه الآية: أنَّه كان يقرؤها أحيانًا بمُفردها -بعد

(١) وهم: الأتباع من أهل مملكته، وهي جمع «أريسي» وهو: الحرَّاث والفلاَّح.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

الفاتحة- في إحدى ركعتي سُنَّة الفجر: فعن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنَّ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «كان يقرأ في رَكْعَتي الفَجْرِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والتي في آل عمران: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾»[1].

وفي رواية: «كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَي الفَجْرِ، فِي الأُولَى مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآيَةَ الَّتِي فِي البَقَرَةِ، وَفِي الآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد:

إظهار العَدْل مع الخَصْم، والإنصاف عند المُناظَرة.

وفيها: أنَّ الإسلام العامَّ الذي جاءت به جميع الرُّسُل هو هذه الكلمة: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

وفيها: أنَّ هذه الكلمة يجب أن تكون أساسَ ما يُسَمَّى اليوم بـ «الحوار بينَ الأديان».

وفيها: أنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يُشَرِّع للناس من دون الله، ولا يجوز لأحدٍ أن يُطيعَه في ذلك.

وفيها: أنَّ اتِّباع الحُكم والتشريع من صُلب العِبادة.

وفيها: أنَّه يجب دعوةُ الناس إلى أخذِ الحلال الذي أحلَّه الله، وتَرْكِ الحرام الذي حرَّمه الله.

وفيها: إعلان البَراءة من الخَصْم إذا تولَّى، بعد إقامة الحُجَّة عليه.

وفيها: إعلان الالتزامِ بالحقِّ، والثباتِ على الإسلام.

وفيها: أنَّه ينبغي للمسلم أن يعتزَّ بدينه، ويُعلِنَه ويُشْهِره، خلافًا لِما يفعله اليومَ بعضُ الضُّعَفاء المنهزِمين نفسيًّا، من التواري والتخفِّي -بلا ضرورة- عند أدائهم لشعائرِ الدِّين العظيم!

وفيها: إشهاد الخَصْم على الالتزام بالحقِّ.

(١) رواه مسلم (٧٢٧).

(٢) رواه مسلم (٧٢٧).

وفيها: أنَّه لا يجوز طاعةُ أحدٍ من الرُّؤساء في المعصية.

وفيها: الإزراء على مَن قلَّد الرِّجال في مخالفة شَرْع الله.

وفيها: إبطال ما زعمَته اليهود والنصارى، من اتِّخاذ عيسى وعُزَيرٍ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ أربابًا من دون الله تعالى.

وفيها: إظهار مخالفة الكافِرين.

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ ﴾:

ولـمَّا حصلَت المُجادَلةُ والمحاجَّةُ في شأن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -وهو أبو الأنبياء- وحاول كلُّ فريقٍ من اليهود والنصارى أن يدَّعيه وينسِبَه إليه، وزعمَ أنَّه كان منهم، أو حاول أن ينتَسِبَ إليه في المِلَّة والدِّين: أنكرَ الله تعالى عليهم، وأبطلَ ادِّعاءاتِهم ومزاعِمَهم.

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: «اجتمعَت نصارى نَجْران وأحبارُ يهودَ عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فتنازَعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلَّا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾»[(١)].

وقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ ﴾ أي: يا معشر اليهود والنصارى. ناداهم بذلك؛ لأنَّهم هم الذين بقيَت كتبُهم قائمةً إلى أن بَعث الله محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. ورَغْم التحريف الذي أصابها، إلَّا أنَّ صِفته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقيَت فيها.

﴿لِمَ تُحَآجُّونَ ﴾ أي: لماذا تُجادِلون وتُنازِعون. وسُمِّيت (محاجَّة)؛ لأنَّ كلَّ فريق من المتخاصِمين يُدْلي بحُجَّته.

﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي: في شأنه ودينه، فيقول اليهود: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم، ويقول النصارى: إبراهيم على ديننا، ونحن على دين إبراهيم.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ٣٨٤).

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أي: كيف تزعُمون أنَّه على دينِكم، ودينُكم هو اليهوديَّة والنصرانيَّة، وقد حدثَت اليهوديَّة بعد نزول التوراة، والنصرانيَّة بعد نزول الإنجيل، وإنَّما أُنزِلَت التوراةُ والإنجيل من بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بزمانٍ طويلٍ؛ فما كانت اليهوديَّة ولا النصرانيَّة إلَّا بعدَ زمنه بدَهْرٍ طويلٍ، وكان وجودُه قبل إنزال التوراة والإنجيل؛ فكيف يكون من أهلِهما؟! وكيف يكون على دِين كتابٍ لم ينزل إلَّا بعد وفاته؟

وقد قيل: إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قبل موسى بألف سنة، وكان بينه وبين عيسى ألفا سنة -على تقديرات بعض المؤرِّخين-.

ولذا قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بُطلانَ قولِكم؟ أي: أفلا يكون لكم عقلُ رُشْدٍ، تُدرِكون به فسادَ ادِّعائكم؟

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمالُ التاريخِ وترتيبِ الوجود الزمنيِّ في المُناظَرة.

وفيها: توبيخُ أهل الكتاب على مُجادَلتهم بالباطل.

وفيها: عُلُوُّ شأن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومكانته بينَ جميع الطوائف.

وفيها: اعتبارُ العقل دليلًا، ما لم يخالِف الشَّرْع. والشَّرْعُ الصحيح لا يمكن أن يُخالِفَه العقلُ الصريح.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾:

ثم قال تعالى -مُوَبِّخًا أهلَ الكتاب على دخولهم فيما لا يُحسِنونه ولا يَعْلَمونه-:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ (الهاء) للتنبيه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مُنادَى، والتقدير: يا هؤلاء. أي: انتبهوا -يا معشر اليهود والنصارى-؛ فإنَّكم ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ وخاصَمتُم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي: فيما وجدتُموه في كتبكم، في شأن أنبيائكم موسى وعيسى وغيرهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: أي ليس في كتبكم، مِن أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ حقيقةَ الدِّين الذي كان عليه إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو بكلِّ شيءٍ عليم، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حقائقَ كثيرٍ من الأمور وما خفيَ عنكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المُحاجَّة التي يُراد بها إثباتُ الباطل وإبطالُ الحقِّ مذمومةٌ، وأمَّا المُحاجَّة لإظهار الحقِّ وإبطال الباطل: فمحمودةٌ مشروعةٌ مطلوبةٌ.

وفيها: أنَّ المُحاجَّة يجب أن تكون عن عِلم.

وفيها: أنَّ العِلْم يجب أن يُستعمَل لنُصرة الحقِّ، فمِن الناس مَن يستعمل عِلْمَه في التلبيس والتدليس، ونُصرة الباطل.

وفيها: أنَّ نفي العِلْم لا يستلزِم رَفْعَ الإثم؛ فإنَّ الجاهل يأثَم على خَوْضِه في مسائل الدِّين بغير عِلْم، وعلى تقصيره وتفريطه في التعلُّم.

وفيها: ذَمُّ مُجادَلة الجاهل للعالِم، وأنَّه كان ينبغي عليه الاستماع له، والتعلُّم منه، وقَبول ما يتلقَّاه من الحقِّ.

وفيها: أنَّه لا بُدَّ من حُسن القَصْد والإخلاص وإرادة وَجْه الله في المُحاجَّة، إضافةً إلى كونها مبنيَّةً على العِلْم.

وفيها: استعمال أساليب التنبيه والنِّداء وغيرها في دعوة المخالِفين؛ لاجتلاب عقولهم وأفهامِهم وأنظارِهم.

وفيها: رَفْع الحرَج عن المتناظِرين بعِلْمٍ -مع أنَّ الصواب مع أحدهما-. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ -لـمَّا سُئل عن هذه الآية-: «يُعذَر مَن حاجَّ بعِلْم، ولا يُعذَر مَن حاجَّ بالجهل»[1].

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾:

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ أي: ما كان على دين اليهوديَّة؛ فإنَّها مِلَّة محرَّفة عن شَرْع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٧٢).

﴿وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ أي: لم يكن أيضًا على دين النصرانيَّة؛ فإنَّها مِلَّة محرَّفة عن شَرْع عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الباطلة وعن الشِّرك، إلى الدِّين الحقِّ القويم والتوحيد. ولذا بيَّن هذا فقال: ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ أي: مُوَحِّدًا، مُنقادًا لأمر الله، ظاهرًا وباطنًا. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا شِرْكًا ظاهرًا، ولا خفيًّا؛ بل كان محارِبًا للشِّرك، صابرًا على التوحيد، وأُلقيَ في النَّار؛ دفاعًا عن التوحيد ومحاربةً للشِّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تَبْرِئة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من دين اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ إذ كيف يتديَّن بدِين حدَثَ بعدَه، ثم هو دين محرَّفٌ؟!

وفيها: استِسلامُ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للحقِّ، وبراءتُه من التعصُّب الذي وقعَ فيه اليهودُ والنصارى.

وفيها: تعريضٌ بأصحاب المِلَّتين، بأنَّهم كانوا مُشرِكين؛ بقول اليهود: «عُزَيرٌ ابن الله»، وقول النصارى: «المسيح ابن الله».

وفيها: أنَّ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان على الإسلام العامِّ -كغيره من الأنبياء- والإسلام العامُّ هو التوحيد والاستِسلام لله -ظاهرًا وباطنًا- وهو دين جميع الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. والإسلام الخاصُّ هو شريعة نبيِّنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: التَّخْلية قبل التَّحْلية، والبَدْء بنفي الباطل قبل الوَصفِ بالحقِّ والثَّناءِ على البريء؛ لأنَّ تخلية الشيء ممَّا يُشينه أولًا، ثم إثبات حُسْنه؛ أولى في الكمال.

فقد قال تعالى في النفي أولًا: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾، ثم قال في الإثبات ثانيًا: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾.

وفي الآية: أنَّ التوحيد لا يكتَمِل إلَّا بنفي الشِّرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ أي: تارِكًا للشِّرك، قد عدلَ وانحرفَ عنه، ثم قال: ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ أي: مُوَحِّدًا، ثم أكَّد نفيَ الشِّرك عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ فالتوحيد لا يتِمُّ إلَّا بإثباتٍ ونفيٍ.

وفيها: رَدٌّ على قُرَيش -ومَن وافقهم من مُشركي العرَب- في زعمهم أنَّهم على دين إبراهيم ومِلَّته؛ فإنَّ هؤلاء مُشرِكون، والله تعالى نفى أن يكون إبراهيمُ من المشرِكين.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾:

ثم حكمَ الله تعالى بينَ الخُصُوم الثلاثة -المسلمين واليهود والنصارى- في قضيَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فقال:

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أقربهم وأحقَّهم ﴿بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: بالانتساب إليه ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وسلكوا طريقَه، في حياته وبعد مماته.

﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. وإفراده بالذِّكر تعظيمًا له، وكفى بها فخرًا، هذه الإشارة إليه من ربِّ العالمين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، من أصحابه المهاجِرين والأنصار، ومَن بعدَهم من هذه الأُمَّة.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ناصِرهم وحافِظهم، وهو يتولَّاهم بالتأييد، والتوفيق والتسديد، والجزاء الحَسَن.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسلمين أحقُّ من اليهود والنصارى وغيرهم من المشرِكين بمُتابَعةِ إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والانتسابِ إليه.

وفيها: استعمال المؤكِّدات في بيان الحُكم في قضايا الاختلاف والصِّراع، كما جرى التأكيد عليه في الآية بـ (إن) و(اللام).

وفيها: تشريف الله لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، بالإشارة إليه في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾، واستعمال اسم الإشارة للقريب، يدلُّ على قُرْب النبيِّ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، وهو -بلا شكٍّ- أقربُ الناس إلى الله منزلة.

وفيها: أنَّ طريق الإيمان واحد، يدخل فيه السابقون واللَّاحِقون، مِن أتباع إبراهيم

عَلَيْهِ السَّلَامُ في عَصْره -كإسماعيل وإسحاق ويعقوب- ومَن بعدهم من أولادِهم المؤمنين، وكذلك محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وتابعوهم بإحسانٍ، ومَن سار على هَديهم إلى يوم الدِّين.

وفيها: أنَّ الإيمان يستلزِم القَبولَ والإذعانَ، واتِّباعَ كلِّ الشريعة.

وفي الآية: بيان الولاية الخاصَّة من الله، التي تقتضي تيسيرَ الأمور، وإصلاحَ الشأن، والنُّصرةَ، والحِفظَ، والإكرام، وحُسنَ الثواب. وهذه الولاية لا تكون إلَّا للمؤمنين.

وفيها: تفاضُل الناس في الأولويَّة والولاية -فهي درجات-؛ فهناك مَن هو أشدُّ في الاتِّباع وأحقُّ بالولاية من غيره.

وفيها: أنَّ مَن كان أكملَ إيمانًا؛ فولاية الله له أكمل؛ لأنَّ الحُكم (وهو الولاية) المعلَّق بوَصْف -وهو الإيمان- يزداد قوَّة بقوَّة هذا الوَصف الذي عُلِّق عليه الحُكم، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيها: شَرَف النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن آمن معه؛ لكونهم أولى الناس بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تنازَعْته الأُمَم.

وفيها: أنَّ الإيمان بالله هو طريق ولاية الله؛ لأنَّ الله علَّق (ولايته) بالإيمان، وتعليق الحُكم بوَصْف ما، يُشْعِر أنَّ هذا الوصف عِلَّة لهذا الحُكم.

وفيها: أنَّ شريعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرب إلى شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيره من الأنبياء. فشريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت -مثلًا- أسهل وأسمَح من شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقد عاقبَ الله بني إسرائيل ببعضِ التكاليف الصعبة والآصار والأغلال؛ جزاءً لعِنادهم وتكذيبهم.

وفيها: أنَّ الاتِّباع هو الدليلُ على صِحَّة الموالاة.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى حُبَّ اليهود لنشرِ الشرِّ، وإضلالِ المسلمين، والدَّعوةَ إلى ذلك -حَسَدًا من عند أنفسهم-؛ فقال:

﴿وَدَّت﴾ أي: أحبَّت حُبًّا شديدًا، وتمنَّت ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ جماعة ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم:

اليهود والنصارى. وكان اليهود أكثرَ أهل الكتابَين مخالَطةً للمسلمين في المدينة، وقتَ نزول هذه الآيات.

فودُّوا ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ أي: أن يُضِلُّوكم عن دينكم، ويُخرِجوكم منه، ويُنفِّروكم عنه، ويُوقِعوكم في الضلال، ويُعيدوكم إلى ظُلُمات الشِّرك والكُفر، بالدَّعوة إلى ديانتهم الباطلة، وإلقاء الشُّبُهات والتشكيك في دين الإسلام.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: أنَّ اشتغالهم بإضلالكم هو في الحقيقة صرفٌ لأنفُسِهم عن الحقِّ؛ لأنَّ مَن اشتغلَ بإضلال غيره؛ فقد انشغلَ عن الهدى والحقِّ، وسلكَ السُّبُل الضالَّة للدعوة إلى الباطل، فَضَلَّ عن الحقِّ -مَسْلكًا ونتيجةً- وبهذا يكون قد أضلَّ نفسَه، وعرَّضها للهلاكِ والعقوبةِ في الآخرة.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: ما يعلَمون أنَّهم أضاعُوا الوقت في محاولة إضلالكم؛ لأنَّكم ثابِتون على الحقِّ، ولا يُدرِك هؤلاء أنَّهم قد ازدَادوا إثمًا بتمنِّيهم الباطلَ، وحِرْصِهم وسَعيهم على إفساد الآخَرين.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين، وأنَّ هذه الحقيقة يجب ألَّا تغيب عن وَعي المسلمين.

وفيها: أنَّ الحَسَد يدفع إلى البَغي، والسَّعي في الإضلال، وتمنِّي زوال النِّعمة عن الآخَرين -ومنها: نِعمة الهداية عن المهتَدِي-.

وفيها: التحذير من الطوائف الأخرى من الكفَّار، التي ستَسلُك مَسْلَك هذه الطائفة من أهل الكتاب، في السَّعْي إلى إضلال المسلمين.

وفيها: أنَّ صاحب الضلال يسعَى لإضلال الآخَرين؛ ليكونوا مِثلَه، فلا يتميَّزون عليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩].

وفيها: أنَّ العدُوَّ اللَّدود للمسلِم هو: مَن يسعى في سَلْب نِعمة الإسلام عنه؛ فيجب الحذَرُ منه، والمحافظةُ على نِعمة الإسلام.

وفيها: مجازاةُ الله تعالى للمعتَدِي بمِثل عُدوانه، ومُعاملتُه بنقيض قَصدِه، والمَكْرُ به؛ حيث يزداد ضلالًا وإثمًا وهلاكًا -وهو لا يشعر- حينما ينشَغِل بإضلال الآخَرين.

وفيها: تثبيتٌ للمسلمين؛ فكأنَّ الله يقول لهم: اثبُتوا على ما أنتم عليه من الحقِّ؛ فإنَّ هؤلاء لن يضرُّوكم شيئًا، وإنَّما يضرُّون أنفُسَهم، وسعيهم في إضلالكم سيذهب هَباءً منثورًا؛ لأنَّكم لن تتركوا الحقَّ، ولن تُتابِعوهم في الباطل، ولن تُحقِّقوا لهم أمنيَّتهم.

وفيها: أن الإنسان قد يعمَى عن الباطل، مع ممارَسته له.

وفيها: أنَّ الله قد أحاط بما في القُلُوب؛ فإنَّ (الوُدَّ) و(التمنِّي) محلّه القَلْب، وهو مخفيٌّ فيه، ومع هذا: أخبرَ الله المسلمين به.

وفي الآية: رَدٌّ على مَن يُحْسِن الظنَّ بأهل الكتاب، ويزعم أنَّهم يُريدون بالمسلمين خيرًا.

وفيها: مِنَّة الله على المؤمنين، بإخبارهم عن مؤامرات الأعداء، وما يُضمِرونه من الشرِّ، وما يُخَطِّطون له؛ ليكون المسلمون على حذَر منهم.

وفيها: قُبح جريمة اليهود، الذين تركُوا الإيمان بالنبيِّ ﷺ، المعلومِ عندَهم صِفتُه، ومكانُ هِجرته، وحالُه وأخبارُه، واشتغلوا -بدلًا من ذلك- بعداوته والتنفير عنه!

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾:

ثم وبَّخ الله تعالى أهلَ الكتاب على إصرارهم على الكُفر؛ فقال:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى -واليهود خاصَّةً- ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: تجحَدونها وترْفُضونها، ومنها: الآيات الواردة عندكم في التوراة والإنجيل، في صفة النبيِّ ﷺ، والبِشارة به، ووجوب اتِّباعه. و(الآيات): جمع «آية»، وهي العلامة الدالَّة البيِّنة.

ولذا قال: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي: تعلمون يقينًا بحواسِّكم وعقولكم، وتقرأون ما هو مكتوبٌ عندكم في كتُبكم، وترَون معجِزاتِ هذا النبيِّ ﷺ أمامَكم، وتَسمَعون هذا القرآن يُتلى عليكم، وتشهَدون إعجازَه بقُلُوبكم وعقولكم؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

استعمال أسلوب الاستِفهام التوبيخيّ، في دعوة المعانِدين.

وفيها: أنَّ الشَّهادة أقوى من العِلْم؛ لأنَّ العِلْم يكون بالقَلْب وحده، والشَّهادة تكون بالقَلْب والحِسِّ -كالرُّؤية بالعَين، مع يقين القَلْب-.

وفيها: نصٌّ واضحٌ، وحكمٌ صريحٌ، في كُفر أهل الكتاب. وبهذا يتبيَّن ضلالُ مَن يَصفهم -من أهل زماننا- بالمؤمنين، وأنَّ اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الدِّيانات السابقة على حقٍّ كالمسلمين! فهذا ضلالٌ وكفرٌ مبينٌ، مخالفٌ ومناقضٌ لِما حكمَ الله به على أهل الكتاب، وهو معلومٌ من الدِّين بالضرورة.

وفيها: أنَّ مَن يكفُر عن عِلْم وشهادة، أقبحُ بكثير ممَّن يكفُر عن جهلٍ وشُبهة.

وفي الآية: بيانُ تناقُضِ أهل الكتاب مع أنفُسهم؛ فإذا كانوا يدَّعون الإيمانَ بالتوراة والإنجيل؛ فكيف يكفُرون بما فيهما من وجوبِ الإيمان بمحمَّد ﷺ؟! كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾:

ثم وبَّخ الله تعالى أهلَ الكتاب على جريمةٍ أخرى من جرائمهم، ووسيلةٍ من وسائلِهم في إضلال الناس؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، فتخلِطون ما أنزل الله تعالى بما كتبتُموه بأيديكم، وتُفسِّرون كلام الله على غير مُراده، وتُوقِنون في أنفسكم بأنَّ محمَّدًا ﷺ نبيٌّ مُرسَل، ثم تقولون: إنَّه ليس مُرسلًا إلينا، أو تجحَدون نبوَّته في الظاهر، أو تأتون بعباراتٍ مُجمَلة تحتَمِل حقًّا وباطلًا؛ بغرض التلبيس على الناس.

﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ المذكورَ في كتُبكم، من صفة النبي ﷺ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه رسول الله حقًّا، وتعلمون عقوبة الكِتمان.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مَكْرُ أحبارِ ورُهبانِ أهلِ الكتاب، في التلبيس على الناس؛ لعِلْمهم أنَّهم لو جاءوا بالباطل صريحًا لـمَا تَبِعَهم أحد، ولانْكشفَ أمرُهم؛ فعمِدوا إلى التمويه والخداع.

وفيها: أنَّ أهل الباطل يستعمِلون شيئًا من الحقِّ في التلبيس والتضليل، كما يفعله بعضُ العرَّافين والسَّحَرة والمشعوذين، مِن خَلْط رُقاهُم الشِّركيَّة ببعضِ الآياتِ القرآنيَّة، والتأكيد على الناس أنَّ الغَيبَ لا يعلمه إلَّا الله، تلبيسًا وإضلالًا للناس!

وفيها: وجوبُ الحذَر من المخادِعين، وعدم الاغترار بزُخْرُف القول، والتبصُّر عند سماع كلام أهل الباطل.

وفيها: ذكر جَريمةِ التلبيس والكِتمان، وأنَّهما من مَسالِك طائفةٍ من أهل الكتاب في إضلال الناس.

وفيها: أنَّ الواجب على أهل العِلْم والتوحيد حلُّ الشُّبه وإبطالُها وتفنيدُها، وبيانُ الحقِّ وإظهارُه ونَشْرُه.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾:

ثم بيَّن الله تعالى شيئًا من كَيد اليهود، وكشفَ للمؤمنين أمرًا من مَكْرهم وكَيدهم؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: جماعةٌ من أحبارهم ورؤسائهم، متآمِرين فيما بينهم: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: أظهِروا المتابعة والتصديق ﴿بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو: القرآن والشريعة ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوَّله، وذلك بصلاتكم الفجرَ مع المسلمين جِهة الكعبة ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾ بما أُنزِل عليهم، أي: ارْجِعوا عنه، وارتدُّوا إلى دينكم ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: آخرَ النهار، وعُودوا لصلاتكم إلى بيت المقدِس.

وكان هذا التصرُّف منهم تضليلًا وتلبيسًا على عوامِّ الناس؛ ولذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: العامَّة وجَهلة الناس ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يَترُكون الإسلام ويرتدُّون عنه، ويقولون: ما رجعَ أولئك الأحبار إلى دينهم وتركُوا الإسلام، إلَّا لنقائصَ وعيوبٍ اطَّلعوا عليها، وأهل الكتاب أعلَمُ، وقد جرَّبوا دينَهم، وهذا الدِّين!

وفي هذه الآية من الفوائد:

تأييد الله تعالى لعباده؛ بإطْلاعِ نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوليائه من المؤمنين على أسرارِ اليهود ومَكْرِهم.

وفيها: فَضْح أهل الباطل؛ ليكون أهلُ الحقِّ على بيِّنة، فيحذَروا منهم.

وفيها: عِلْم الله بالخفيَّات، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وفيها: سَعْي أهل الباطل إلى تشكيك أهل الحقِّ في دينهم، واستعمال أنواع المَكْر والحيلة لأجل ذلك، والتظاهُر بأمرٍ للتوصُّل إلى آخر.

وفي الآية: مُعجِزة للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باطِّلاعه على أمورٍ من الخبايا والخفايا.

وفيها: تثبيت المؤمنين بهَتْك أستار مَن يتربَّص بهم مِن المجرِمين.

وفيها: رَدْعٌ لأولئك المجرِمين ووازِعٌ؛ حتى لا يعودوا إلى مِثل فِعلهم، إذا عَلِموا أنَّ عاقبتَهم: الفَضْحُ والانكِشاف.

وفيها: أنَّ أهل الكُفر الصُّرَحاء قد يسلُكون مَسالِك المنافِقين، ويستَعمِلون أساليبَهم.

وفيها: أنَّ على أهل الإيمان الحذَرَ من الموافَقة المفاجِئة من أعدائهم لهم؛ فقد يكون وراء ذلك ما وراءَه من الخُبث والدَّهاء؛ فقد يتظاهرُ اليومَ بعضُ الكفَّار بالدُّخول في دين الإسلام، ويُعلِنون ذلك، ثم يرتَدُّون بعد مُدَّة وجيزة، ويجهَرون بهذا في الناس، ويعلِّلون هذا بأنَّهم لم يَسْعدوا بهذا الدِّين، وأنَّهم جرَّبوه فوجَدوه مُرًّا نَكِدًا، لا يُناسب رُوح العصر... إلى آخر هذه الافتراءات! ثم تُستَغلُّ مثل هذه المواقف والأحداث من قِبَل الأعداء، فيُبرِزونها في إعلامِهم، ويُضَخِّمونها في حَرْبهم النفسيَّة على المسلمين!!

ولذا: جاء التشريعُ الإسلاميُّ بقتْل المرتَدِّ؛ حمايةً لجَناب الدِّين، وحِفاظًا على هَيبته، وقطعًا لدابر أمثال هؤلاء المُفسِدين، الذين يُمكِن أن يلجأوا إلى الدُّخول فيه لمعرفة أسرار المسلمين وكَشف عوراتهم، ثم الرِّدَّة بعد ذلك، أو يفعلون هذا؛ خَلْخَلةً لصفوف المؤمنين، وهَدمًا لكيانهم، وإدخالًا للشُّكوك في قُلوب البُسطاء تجاه هذا الدِّين؛ ففي الحديث: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»(١).

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

وقريبٌ من هذا: ما قد تفعله بعضُ الفاسِقات، من ارتداء الحِجاب مُدَّة من الزمن، واعتزال بعض المعاصي، وإظهار التوبة، ثم ما تَلبث أن تعودَ إلى سابق عهدها من الفِسْق والفُجور والتبرُّج؛ فيقع الشَّكُّ في قُلُوب عوامِّ المسلمين، ويعتقدون أنَّ حياة التديُّن صعبة لا تُطاق، ويُقطَع الطريق على مَن يريد العودةَ إلى الله. وفي هذا أيضًا حَرْبٌ نفسيَّةٌ للتائبات الصادِقات، اللَّاتي تركْنَ هذه الأوساط العفِنة، أو اللَّاتي يَعْزِمنَ على هذا؛ فيحصُل لهن من التثبيط والتشكيك ما لا يخفى. والله المستعان على مَكْر هؤلاء.

وفيها: أنَّ أول النهار يُسَمَّى (وجهًا) لحُسْنه، وهو ما بعد طلوع الفجر، وهو أفضل أوقات النهار، وفي البُكور برَكة.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مزيدًا من كلام اليهود، الذي أسَرُّوه فيما بينهم، وتواصيهم على الكِتمان، بقولهم: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أي: لا تَطمَئِنُّوا، وتُظْهِروا مَكْركم وحِيلتكم، ولا تُفشوا سِرَّكم، ولا تكشِفوا ما في أيديكم من كتُبكم للمسلمين -وفيها صفة النبيِّ ﷺ والبِشارة به- فيؤمِنوا به، ويحتجُّوا به عليكم. فلا تفعلوا هذا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ وتَطْمَئِنُّون إليه؛ فلا بأس أن يطَّلع على ذلك.

وقيل في معنى الآية: لا تُصَدِّقوا إلَّا مَن تَبعَ دينكم، ووافقَ ملَّتكم اليهوديَّة.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فيهدي مَن يشاء، وإن كَتمتُم ما في كتُبكم من الحقِّ، وامتنعتُم عن الإقرار بنبوَّة أحدٍ غيرِ نبيِّكم؛ فإنَّ ذلك لن يضُرَّ المهتَدين؛ فالله تعالى هو الذي يهدِي قُلُوبَ المؤمنين إلى أتمِّ الإيمان، بما ينزِّله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البيِّنات، والحُجَج القاطِعات.

ثم ذكرَ تعالى سببَ كِتمان اليهود وعدمِ إيمانهم، وهو: خَشيتهم أن يظهرَ ما عندَهم من العِلْم للمُسلمين، فيُساووهم فيه، أو يتَّخِذوا ذلك حُجَّة عليهم.

فتقدير الكلام: لا تؤمنوا إلَّا لمَن تَبِعَ دينكم، ولا تؤمنوا ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ أي: لئلَّا يؤتَى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم، من العِلْم والكتاب والحِكمة والمُعجِزات والآيات. فقد كان اليهود يمتَنِعون عن الإقرار بالنبوَّة لغير نبيِّهم، ويمتَنِعون عن الإيمان بفضائلَ ومعجِزاتٍ لغير نبيِّهم؛ حتى لا يكونَ ذلك إدانةً لهم، ولا يكونَ للمسلمين حُجَّةٌ عليهم من كلام أنفُسِهم، ولذا قالوا: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فتكونَ للمُسلمين الحُجَّةُ عليكم يومَ القيامة، إذا أقررتُم بنبوَّة محمَّد ﷺ، ولم تدخُلوا في دينه.

فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ فالأمور كلُّها تحت تصريفه، وهو المُعطي المانِع، فمهما حاولتُم الإخفاءَ -حَسَدًا وبَغيًا- فلن تمنَعوا أمرَ الله الواقع، وإيتاءَه الفَضْلَ والنبوَّة لمحمَّد ﷺ، وتأييدَه بالمُعجِزات، وإكرامَ أُمَّته بهذه الفضائل والشرائع، التي تزيد وتربو كثيرًا على الفضائل التي آتاكم الله إياها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في فَضْله وإحسانه، وجميعِ صفاته، أي: واسع العِلْم، واسع الرحمة، واسع الحِكمة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يصلُح للإحسان، وإيتاء الفَضْل.

ولذا قال بعدَها: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤتي النبوَّة مَن يشاء، ويهب الفَضْل والهداية مَن يشاء، ويؤتي الإسلام والقرآن مَن يشاء.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمِنَن الكثيرة، وقد اختصَّ المسلمين بالفضائل العظيمة الكثيرة.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

مَكْر اليهود، ولجوؤهم إلى كِتمان الحقِّ؛ لخشيتهم من الهزيمة في معركة المُحاجَّة.

وفيها: حَسَد اليهود، الذي يدفعهم إلى محاوَلة منع فَضل الله من الوصول إلى عباده!

وفيها: تطمين المؤمنين إلى أنَّ محاولات اليهود ستَبوء بالفَشَل.

وفيها: شُحُّ اليهود بالعِلْم، وأنَّهم لا يريدون أن يتعلَّم أحدٌ شيئًا من العِلْم؛ لِئلَّا يُساويَهم أو يمتازَ عليهم.

وفيها: عصبيَّة اليهود البغيضة، التي يريدون بها حَصْر المزايا في دائرة (مَن تَبِعَ دينَهم) فقط!

وفيها: أنَّ هُدى الله يصل إلى مَن يريدُه عَزَّوَجَلَّ، مهما كانت الحُجُب وموانع البشر، ومحاولات التعتيم والدِّعايات المُضلِّلة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وفيها: حِرْص اليهود أن تبقى مؤامراتهم سِرِّيَّة، ومن ذلك: ما تمالَؤوا عليه من إظهار الإسلام في أول النهار، والكُفر به في آخره.

وفيها: أنَّ اليهود كفَّار، رَغْم إيمانهم بيوم القيامة، وما سيكون فيه من المُحاجَّة والمُجادَلة والمُخاصَمة.

وفيها: عِناية اليهود بتثبيت أشياعهم وجماعتهم، والسَّعْي في تشكيك عامَّة المسلمين.

وفيها: أنَّ الله تعالى لا يُخَصِّص الهدى لطائفة أو شعب أو جنس بعينه؛ وإنَّما يهدي مَن يشاء من الشُّعوب والأجناس والطوائف والأفراد.

وفيها: جَحْد اليهود لفضائل غيرهم، مهما كانت واضحة.

وفيها: أنَّ خُبْث النِّيَّة وسُوء القَصْد من أسباب حِرمان التوفيق والهداية.

وفيها: أنَّه ينبغي نشر الفضائل والمحاسِن، ونقلها إلى أهل الأرض.

وفيها: عدم البُخل بالعِلْم، وألَّا يحزنَ المرءُ إذا صار غيرُه أفضلَ وأعلمَ منه، بسببِ هذا العِلْم.

وفيها: أنَّه لا يجوز حسَدُ الغير على فَضْلٍ آتاه الله إيَّاه.

وفيها: إثبات صفة (اليد) لله تعالى، على الوَجْه اللَّائِق به.

وفي قوله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: إجمالٌ؛ ليبقى معه رجاءُ الراجي وخوفُ الخائف؛ فتتطلَّع النفوس إلى رجاء الفَضْل والدُّعاء به، وتخشى حِرمانه بالمعصية، فتتوب منها؛ لعلَّ الفَضْلَ يشمَلُها.

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى خِيانةَ اليهود في الدِّين والعِلْم، ومكرَهم وكِتمانَهم؛ ذكَرَ خيانتَهم في المال، وأنَّ منهم الخائن والأمين، وأنَّهم قسمان؛ فقال:

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا يشمل: اليهود والنصارى ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ﴾ أي: تُودِع عنده أمانة، وتجعله أمينًا عليها ﴿بِقِنطَارٖ﴾ وهو: المال الكثير الجزيل من الذهب ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: يَرُدّه إليك سالمًا من غير نقص ولا مُماطَلة، وهو على الأمانة فيما دون القِنطار، من باب أولى.

وليس في هذه الآية تعديلٌ لأهل الكتاب ولا لبعضِهم -كما قد يُتوَهَّم-؛ ففي فُسَّاق المسلمين مَن يؤدِّي الأمانة ويؤتمَن على المال الكثير، ومع هذا لا يكون عدلًا بمجرَّد هذا؛ فكيف باليهود الذين يعتقِدون استباحةَ أموالِنا وحريمِنا بغير حَرَجٍ؟! ولو كان ذلك كافيًا في عَدالتهم؛ لقُبلت شهادتُهم على المسلمين، لكن هذا لم ولن يحصُل.

﴿وَمِنۡهُم﴾ أي: من أهل الكتاب -واليهود خاصَّة- ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ﴾ أي: المال القليل، قيل: سُمِّيَ (دينارًا)؛ لأنَّه دَين ونار، فمَن أخذَه بحقِّه فهو دَينه، ومَن أخذَه بغير حقِّه فله النَّار[1].

فمِن هؤلاء اليهود مَن إذا استؤمِنَ على مالٍ قليلٍ؛ ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ ولا يَرُدّه سالمًا، بل يُنقِصه ويخون فيه، فهو على الخِيانة فيما فوقَ الدِّينار من باب أولى.

اللهُمَّ ﴿إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗا﴾ أي: على رأسه، ملازِمًا له ومُلِحًّا عليه، ناظِرًا أحوالَه، غيرَ غافِلٍ عنه، مُبالِغًا في مُطالَبته. فإذا غَفَلْتَ عنه خانكَ، وأكلَ مالَك، ورُبَّما أنكرَه ولم يَرُدَّه.

قال بعض المفسِّرين: الأمانة التي في أهل الكتاب هي إلى النصارى أقرب، والخِيانة التي فيهم هي إلى اليهود أقرب.

---

(١) رُوي ذلك عن مالك بن دينار، انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٨٣)، تفسير ابن كثير (٢/ ٦٠).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: خيانتهم تلك بسَبَب أنَّهم ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا﴾ فيما أَخَذْنا ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ من أموالهم. و(الأُمِّيُّون): هم العرَب؛ لأنَّهم كانوا لا يقرَأون ولا يكتبون، فنُسِب (الأُمِّيُّ) إلى أُمِّه، التي ولدتَه على هذا الجَهْل.

وقال بعض المفسِّرين: المقصود بـ(الأُمِّيِّين): مَن سوى اليهود، أو: مَن سوى أهل الكتاب.

فقالوا: ليس فيما أخذنا من أموال هؤلاء ﴿سَبِيلٞ﴾ أي: إثمٌ وحَرَجٌ، ولا يتطرَّق إلينا لَوْمٌ. والمعنى: أنَّ هؤلاء اليهود يعتَقِدون أنَّه ليس عليهم -فيما يأخُذون ويَجْحَدون ويَخْتَلِسون من أموال العرَب- مؤاخذةٌ ولا إثمٌ، وأنَّ أموال العرَب حلالٌ على اليهود؛ لأنَّهم ليسوا على دينهم، ولا حُرمة لهم، واليهود يعتَقِدون أنَّهم أبناء الله وأحباؤه؛ فليس عليهم حرجٌ -بزعمهم- إذا أكَلُوا أموالَ عباده!

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: يفتَرون ويدَّعون أنَّ هذا شَرْعٌ من الله، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ أكلَ أموال الناس بالباطل حرامٌ، وأنَّهم كاذِبون فيما نسَبوه إلى شريعتهم.

ثم رَدَّ الله تعالى عليهم، وأبطلَ مقولتَهم وزَعْمَهم؛ فقال: ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا حرفُ إبطال -أي: لما قالوه-. والمعنى: بلى، عليهم سبيلٌ وإثمٌ وحَرَجٌ، هم، وكلُّ مَن خان الأمانة.

ثم قال تعالى -مبيِّنًا محبَّته الوفاءَ بالعَهْد، وحِفظَ حقوق الخَلْق-: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ﴾ وأتمَّ ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾ الذي بينَه وبين الله من الإيمان، وبينَه وبين الناس من أداء الأمانة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: فَعَل ما أُمِرَ به، واجتنبَ ما نُهِي عنه -من الكُفرَ والخِيانةِ ونَقْضِ العهد- وعَمِلَ بطاعة الله، يتَّقي عذابه ويخشى عقابه؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: وهذه محبَّةٌ حقيقيَّةٌ، تقتضي إكرامَ هؤلاء وإثابتَهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

العَدْل في الحُكم على الأعداء والخُصُوم.

وفيها: الحذَر في المعامَلة مع أهل الكتاب؛ فالخِيانة فيهم كثيرة، وخيانتهم قائمةٌ على اعتقادٍ باطلٍ عندَهم، بجواز أكلِ أموال الآخَرين!

وفيها: الحذَر من ائتمان اليهود والنصارى على مصالح المسلمين؛ لأنَّهم سيَسْعَون للإضرار والإفساد والخِيانة؛ ولذلك أنكر عمرُ على أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا اتِّخاذَه رجلًا نصرانيًّا كاتبًا -رَغْم إتقانه الكتابةَ- وقال له: «لاَ تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلاَ تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلاَ تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وإذا كان اليهود والنصارى يخونون في الأموال؛ فخيانتهم بكَشف أسرار المسلمين أشدُّ وأكثرُ حصولًا، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفيها: اغترار أهل الكتاب بأنفُسِهم، واحتقارهم لغيرهم، وهذا هو الكِبْر؛ ففي الحديث: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»(٢)، ومعنى (بَطَر الحَقِّ) أي: دَفْعه وإنكارُه -ترفُّعًا وتجبُّرًا- و(غَمْط الناس): احتِقارهم.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب يَظْلِمون ويعتَدون على أموال الناس، اتِّباعًا لهوى النفس، وينسِبون هذا -كَذِبًا- لشريعتهم ودينهم.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله الكَذِب في الفتوى؛ ففيه شَبَهٌ من أهل الكتاب.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله الكَذِبَ وهو يعلَم، أشدُّ إثمًا ممَّن فعل هذا وهو لا يَعْلَم.

وفيها: أنَّ التَّقوى والوفاء بالعَهد من أسباب محبَّة الله.

وفيها: تعظيم شأن العهود والعقود. و(العَقد): عَهدٌ بينَ المتعاقِدَيْن.

وفيها: تعظيم أمر الله، والشَّفقة على خَلْق الله، وأنَّ الوفاء بالعَهد يشتمل عليهما جميعًا، وأنَّ على المؤمن أن يفيَ بما التزمَ به لربِّه من العَهد، وما التزمَ به للخَلْق من العقود والأمانات.

وفيها: أنَّ الانتِساب إلى جنس أو شعب أو قبيلة معيَّنة، لايقدِّم ولا يؤخِّر في الاستثناء من الواجبات.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٢٧).

(٢) رواه مسلم (٩١).

وفيها: أنَّه ينبغي مُراقبةُ الخائِن والقيامُ عليه، إذا اضطُّر الإنسان إلى التعامل معه.

وفيها: أنَّ من التضييع: ائتمان الخائن.

وفيها: أنَّ الخَوَنة رُبَّما يبرِّرون لأنفُسِهم ما يفعلون؛ ليرفعوا عنها تأنيب الضمير.

وفيها: أنَّ الخائن في الأموال لا يؤتمَن على ما هو أخطر -كالأعراض والأسرار-.

وفيها: أنَّ احتِقار الآخَرين يؤدِّي إلى أكل حقوقهم، والاستهانة بها.

وفيها: قُبْح الخِيانة في جميع الشرائع.

وفيها: تعظيم الأمانة عند الله، ووجوب ردِّها إلى البرِّ والفاجر.

وفيها: أنَّ الاعتقاد الفاسد يجرُّ إلى العمل الفاسد.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته. ولا يجوز تأويلُها إلى: الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازِمها، وما يترتَّب عليها، فنُثبِت (المحبَّة) لله، ونُثبِت لوازِمَها -من الإثابة والإكرام وغيرها-.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾:

ولـمَّا مدحَ الله تعالى الذين يُوفون بعهودِهم؛ ذَمَّ خائني العهود؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾؛ فهم يتخلَّون عن عَهْد الله ويَبيعونه، فـ(الباء) تدخُل على المتروك.

و(عَهْد الله): هو ما أُخِذَ عليه ميثاق العِباد، مثل: عبادته وحدَه لا شريك له، والإيمان بالرُّسُل، ونَصرهم، وتبيين الحقِّ وعدم كِتمانه، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، وغيرها من العهود. ويدخل فيه أيضًا: العهود مع الخَلْق، كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: جمع «يمين»، وهو: القَسَم والحَلِف.

﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ يأخذونه من عُرُوض الدُّنيا الفانية الزائلة، مُقابِل خِيانة العَهد والحَلِف على الكَذِب، فلا يُوفون بما عاهَدوا الله عليه، ولا ما عاهَدوا عليه الخَلْق.

فتوعَّدهم الله تعالى بالحِرمان من النعيم، وبالعذاب الأليم؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ﴾ أي: لا حظَّ ولا نصيبَ من الخير ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: من نعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامَ رِضا؛ بل يُخاطِبهم خطابَ إهانةٍ وتقريع وتوبيخ؛ كقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقوله ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: نظرَ رحمة ورأفة وإحسان، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُطَهِّرهم من الذُّنوب والدَّنس، ولا يغفِر لهم؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للتزكية. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: نكالٌ، وعقوبةٌ مُوجِعةٌ.

وقد ورَدَ في سبَب نزول هذه الآية: عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

فَقَالَ الأَشْعَثُ بنُ قَيسٍ: فِيَّ -وَاللهِ- كَانَ ذَلِكَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ من اليَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟»، قُلْتُ: لَا، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[١].

وفي هذا دليلٌ على: أنَّ قضاء القاضي وحُكم الحاكم لا يغيِّر حقيقة الأمر؛ فلو حكمَ القاضي بالمال المتنازَع عليه لغير صاحبه -بحَسَب ما ظهر له، أو نتيجة استعمال المدَّعِي بالباطل لشهود الزُّور أو اليمين الكاذِبة-؛ فإنَّ هذا الحكم لا يُصيِّر المال حلالًا للظالم.

وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَتْرُكْهَا»[٢].

وعن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بالله لَقَدْ

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا من المُسْلِمِينَ! فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ الآية(١).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مِرَارًا.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ: يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»(٢).

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ: لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى، وَهُوَ كَاذِبٌ. وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ. وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللهُ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي، كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»(٣).

وفي هذه الآية من الفوائد:

تعظيمُ عَهدِ الله.

وفيها: تحريم اليمين الغَمُوس، الذي يُقتطَع به مالُ امرئ مسلم بغير حقٍّ.

وفيها: تقديم الآخرة على الدُّنيا.

وفيها: إثبات الكلام لله.

وفيها: أنَّ انتفاء النظَر الخاصِّ لله إلى بعض خَلْقه، لا ينفي نظرَه العامَّ إليهم؛ لأنَّه يرى الجميع، ولا يَحْجُب شيءٌ أحدًا من خَلْقه عنه.

وفيها: تنوُّع العذاب على الخائنين؛ فمنه: عذاب للنفس -كالسَّخَط والاحتِجاب- وعذابٌ للجسد -كالنَّار- والخائنون درجات -من الكُفر، فما دونَه من نقض العهود، وأكل الحقوق- وكلُّ خائن يأخذ من وعيد الآية على قَدْرِ جريمته.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٠٦).

(٣) رواه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٠٨).

وفيهـا: أنَّ من العقوبـات العظيمة: الحِرمان من التطهير؛ فيأتي المحرومُ يومَ القيامة وهو متدنِّسٌ متلطِّخٌ بالجرائم القبيحة، والذُّنوب العِظام.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

ثـم ذكرَ الله تعالى من جرائـم أهل الكتاب -واليهود على الأخصِّ- تحريفَهم لكلام الله؛ فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾: يُغيِّرون ويَعْطِفون، بالتحريف والتغيير. وهذا يشمل اللَّيَّ اللَّفظيَّ، واللَّيَّ المعنويَّ:

فأمَّا اللَّيّ اللفظي: فتارةً يكون بكلام مخترَع أنشأوه، يقرأونه ويُلَحِّنونه كما يقرأون التوراة، وتـارةً بتحريف الكَلِم، بإضافة حرفٍ أو إنقاص حرف -مثلًا- ليحسَـب مَن لا عِلْمَ عنده بالتـوراة أنَّ هـذا ممَّا أنزله الله فيها. وهذا معنـى قوله تعالى ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: لِتَظُنُّوه من كتاب الله المنزَّل عليهم.

وأمَّـا التحريف المعنوي: فهو تفسـير كلام الله على غير مُراده؛ لِيظُنَّ السـامع أنَّ هذا هو مراد الله.

وقولـه ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فيه ردٌّ عليهم؛ فإنَّ هـذا المحرَّف ليس منزَّلًا من عند الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: اليهـود ﴿هُوَ﴾ أي: المحرَّف ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: من الكتب التي أنزلها على أنبيائه، كتوراة موسى، وزَبور داود، وإنجيل عيسى.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: تـكـرارٌ للنفـي؛ تأكيـدًا لكَذِبهم، وتشـنيعًا عليهم وعلى جُرأتهم التي بلغَت حدَّ الافتراء على الله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في أسمائه وصفاته، كقولهم: «يد الله مغلولة»، «إنَّ الله فقير»، «إنَّ الله تَعِـبَ لـمَّا خلقَ السـماوات والأرض، واسـتراح يوم السـبت»، وقولهـم: «عُزَيرٌ ابن الله»، وغيرها من الافتراءات والأكاذيب.

ويَكْذِبـون عـلى الله تعـالى أيضًـا في أحكامـه؛ كقولهـم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ فيستَحِلُّون أموال الناس، ويزعُمون أنَّه لا حرجَ عليهم ولا إثم في هذا!

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ هذا كَذِبٌ، ويعلمون حُكمَه، وأنَّه إثمٌ وحرامٌ، ومع ذلك يتعمَّدون فِعْلَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بيان جريمة الكَذِبِ على الله والافتراءِ عليه.

وفيها: التحذير من الانخداع بألاعيب وأكاذيب وافتراءات أهل الكتاب.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب يَسْعَون إلى إضلالِ المسلمين، والتلبيسِ على العامَّة.

وفيها: أنَّ أهل الكتاب لا يؤتَمنون على كتُبهم.

وفيها: جُرأةُ اليهود، بالكَذِبِ على الله، ونِسْبةِ ما لم يَقُلْه إليه، ونفيِ المعنى الحقِّ، وإثباتِ المعنى الباطل.

وفيها: جَمْعُ اليهود بين الكَذِب في القول والفِعْل.

وفيها: سَعْي أعداء الله إلى تحريف اللَّفظ وإفساد المعنى، وأنَّهم يَعْطِفون ألسِنَتهم ويَلْوونها عن اللَّفظ المنزَّل إلى المحرَّف.

وفيها: أنَّ على هذه الأُمَّة أن تُحافِظ على كتاب الله، بحِفظِ ألفاظه ومعرفةِ مُراد الله تعالى من كلامه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾:

ولـمَّا بيَّن الله تعالى افتراءَ اليهود عليه؛ أردفَ ذلك بذِكر افترائهم على أنبيائه، وإثباتِ براءة الأنبياء؛ فقال:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: لا ينبغي ولا يَليق. وإنَّما سُمِّيَ (بَشَرًا)؛ لظهور بَشَرته وعدم استتارِها -بخلاف بَشَرة الدوابِّ-.

﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: يصطفيه نبيًّا، ويُعطيه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو: الوحي المنزَّل من عنده -كالتوراة والإنجيل والقرآن- ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: فَهْم الكتاب والعمل به ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: الرسالة والوحي.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾: يأمرهم قائلًا: ﴿كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: اُعبُدوني بأيِّ نوع من أنواع العِبادة، من دون الله -أي: مع الله- مُشرِكين به.

وإنَّما اللَّائِق بهذا النبيِّ أن يقولَ لقومه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: حُكَماء، عُلَماء، حُلَماء، فُقَهاء، مُخلِصين، تجمَعون بينَ العِبادة والتَّقوى، وتُربُّون الناس على شريعة الله بالعِلْم والدَّعوة، وتُربون الخَلْق على ما تقتضيه الشريعة.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: بسبَب كونِكم مُعلِّمين الناسَ ما أنزله الله، ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ أي: تقرأون وتحفَظون وتفهمون، فتتعلَّمون ثم تعلِّمون. و(الدِّراسة): هي تعلُّم الألفاظ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن علَّمه الله الكتاب والحِكمة، لا يمكن أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه.

وفيها: تذكير الدُّعاة بالإخلاص لله في دعوتهم، وأن يوجِّهوا الناسَ إلى الله، دون رَبْطِهم بأشخاصِهم أو جماعاتِهم.

وفيها: أنَّ الغُلُوَّ في طاعة الأشخاص نوعٌ من عبادتهم.

وفيها: أنَّ مَن ألزم الناس أو طلبَ منهم أن يتَّبعوا قولَه -مهما كان-؛ فهو إنَّما يدعوهم لعبادة نفسه، وقد قال تعالى عن شِرك الطاعة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد جاء في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هذه الآية، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

فليست الدَّعوة لعبادة غير الله أن يقول الداعي للناس: اركَعوا لي، واسجُدوا لي؛ بل إذا ألزَمهم أيضًا بطاعته من دون الله؛ فقد دعاهم إلى عبادته مع الله.

وفيها: أنَّه ينبغي لمعلِّم الناسِ الخيرَ أن يكون ربَّانيًّا، يتأدَّب ويؤدِّب، ويتعلَّم ويُعلِّم، بالقُدوة.

وفيها: أهميَّة العمل بالعِلْم، ويدخل فيه: تعليمه الناسَ.

وفيها: أنَّ الله يرزق أنبياءَه فَهْمَ ما أنزله عليهم، والعملَ به.

وفيها: أنَّ العِلْم طريقُ العمل؛ فكيف يعمل مَن لا عِلْمَ عنده؟!

وفيها: استحالة كَذِبِ الأنبياء على الله تعالى، ودعوتِهم إلى الشِّرك.

وفيها: أنَّ العالِم الرَّبَّانيَّ هو: الذي يُرَبِّي الناس على ما أنزله الله، ويدعوهم إلى التعلُّم والعمل، ويتدرَّج بهم في مسائل العِلْم، ويبدأ بالقواعد والكُلِّيَّات وأصول العِلْم، قبل التفاصيل والجزئيَّات.

وفيها: أهميَّة (دِراسة) الكتاب الذي أنزلَه الله، وهذا يحتاج إلى مُذاكرة، وفَهْم، وتبصُّر، ومواظبة على القِراءة.

وفيها: أنَّ مَن تعلَّم ما أنزل الله وتمسَّك به؛ فهو ربَّانيٌّ.

وفيها: أنَّ الرَّبَّانيَّ لا بُدَّ أن ينفع الناس، ولا يقتَصِر نفعُه على نفسه.

وفي الآية: بيان الأسبابِ التي يؤدِّي الأَخْذُ بها إلى بلوغ مرتبة الرَّبَّانيَّة؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾.

وفيها: أنَّ التعليم النافع ليس مجرَّدَ حَشْوِ الأذهان بالمعلومات؛ وإنَّما لا بُدَّ من ظُهُور أثر العِلْم وثمَرته، بالأعمال الصالحة، والأخلاق والآداب الكريمة الطيِّبة.

وفيها: أهميَّة البَصَر بسياسة الناس، وقيادتهم للعمل بما أنزلَه الله، والالتزام بذلك والتمسُّك به.

وفيها: أنَّ من الرَّبَّانيَّة: تولِّي أمور الناس، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحُهم ونفعُهم في العاجل والآجل.

وفيها: أهميَّة النَّفْع المتعدِّي، والسَّعْي في إصلاحِ الخَلْق، وحملِهم على طاعة الله.

وفيها: أنَّ منهج الأنبياء: عِلْمٌ، وعَمَلٌ، وتربيةٌ.

وفيها: تفخيم شأن المنتَسِب إلى (الرَّبِّ)، بتعلُّمِ ما أنزلَه، والعملِ به.

وفيها: أنَّ من أسباب ترسيخ العِلْم في النفوس الرَّبَّانيَّة: العمل به بعد دَرْسِه.

وفيها: أنَّ النِّسبة بينَ العبد وربِّه مُنقَطِعة، إذا لم يحصُل العِلْم والعمل معًا.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّ النبيَّ المُرسَل مِن عندِه، لا يمكن أن يدعوَ قومه إلى أن يعبدوه من دون الله؛ وإنَّما يدعوهم إلى أنْ يكونوا ربَّانيِّين، والوسيلة لذلك هي: دِراسة الكتاب والعمل به؛ ذكر تعالى أيضًا أنَّه لا يمكن للنبيِّ أن يأمُرَ الناس بعبادة أحدٍ مع الله؛ فقال:

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ أي: وما كان له أن يأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المقرَّبين ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمرسَلين ﴿أَرۡبَابًا﴾ تعبُدونهم من دون الله.

﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾: الاستِفهام للنفي؛ أي: لا يمكن أن يدعو إلى ذلك؛ لأنَّ مَن دعا إلى عبادةِ غيرِ الله فقد دعا إلى الكُفرِ، والأنبياء إنَّما يأمرون بالتوحيدِ وعبادةِ الله وحدَه لا شريك له.

﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: بعد أن ثبتَ إسلامُكم واستقرَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الرَّدُّ على أهل الكتاب، وخصوصًا النصارى الذين عبدوا نبيَّهم، ثم قالوا: هو أمرنا بذلك، والله تعالى يقول لنبيِّه عيسى يومَ القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وفيها: أنَّ الأنبياء لا يمكِن أن يُناقِضوا مبادئ الدَّعوة، التي يَدْعون الناس إليها.

وفيها: الرَّدُّ على ما اشتهر بينَ الكفَّار والمشركين، من عبادة الملائكة والنبيِّين، وقد عبدَ كفَّار العرَب الملائكة، وعبدَ اليهود عزيرًا، وعبدَ النصارى المسيح، وأشركوا بهم مع الله.

وفيها: رَدٌّ بليغ على الذين يَغْلُون في النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويَصْرِفون له أنواعًا من العِبادة،

مثل: الاستغاثة به، ودعائه مع الله، واللُّجوء إليه في الشدائد بعد موته، والغُلُوّ في مَدْحه، بوَصْفه بأوصاف لا تليق إلَّا بالله -كمغفرة الذُّنوب، وشفاء الأمراض، ومعرفة الغَيب، ونحوها-.

وفيها: أنَّ الأنبياء تركوا أقوامهم على الإسلام، ثم حصلَ التحريفُ والتبديلُ مِن بعدهم. ونبيُّنا محمَّد ﷺ تركَنا على البَيضاء، ليلُها كنَهارها، ثم حدَث الكُفر والشِّرك بعد ذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

ولـمَّا كان أهل الكتاب يُنكِرون نبوَّة النبيِّ ﷺ ووجوبَ اتِّباعِهم له؛ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ وأخبرَ أنَّه أخذَ العَهدَ على جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -من آدم إلى عيسى- بأنَّه إذا بُعث محمَّد ﷺ وهم أحياء، أنَّهم سيتَّبعونه وينصُرونه؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ أي: اذكُر -يا محمَّد ﷺ- لمن أرسلناك إليهم، بأنَّ ربَّك قد أخذَ ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ و(الميثاق) هو: العهد المؤكَّد باليمين.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: مهما أعطيتُكم من كتاب -كالتوراة والإنجيل- وأنزلتُ عليكم من وَحي، ورزقتكم من الحِكمةِ، والصوابِ والفَهم، والقضاءِ بينَ الناس، ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ من عندي ﴿رَسُولٌ﴾ وهو محمَّد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: مُوافِق ومُطابِق ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ممَّا أنزلتُه عليكم، وأخبرتُكم عنه في كتبكم؛ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ أي: تُصدِّقون به أنتم ومَن معكم، وتعملون بما يأتي به.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: تُعينونه في نَشْر رسالته، وتجاهِدون معه أعداءه.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾: الاستِفهام للتقرير؛ أي: هل اعترفتُم بذلك والتزَمتُم به، ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قَبِلْتم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الإيمان والنُّصرة ﴿إِصْرِى﴾ (الإِصْر) هنا: العَهد الثقيل، والميثاق الشديد.

﴿قَالُوٓاْ﴾ -أي: الأنبياء-: ﴿أَقۡرَرۡنَا﴾ واعترَفْنا، وقَبِلْنا، والتزَمْنا.

﴿قَالَ فَٱشۡهَدُواْ﴾ أي: على أنفُسِكم بذلك، وعلى أتباعكم، وليشهَدْ بعضُكم على بعض به ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: شاهدٌ معكم؛ فشَهِدَ الله تعالى بنفسه على هذا العَهد، وكفى به شهيدًا.

وقد قيل: إنَّ الله أخذ الميثاق على الأنبياء مجتمعين، في عالم الذَّرِّ. وقيل: كلٌّ على حِدَة، في حياته ووقته -لـمَّا بعثَه وأوحى إليه-. ولا مانع من حصول الأمرَين جميعًا، والله أعلم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إلزام أهل الكتاب بالإيمانِ بالنبيِّ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتِّباعِه.

وفيها: أنَّه لا يكفي الإيمان بنبوَّته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دون اعتقادِ لزُومِ اتِّباعه، والدُّخولِ في دينه، ونُصرته؛ فإنَّ بعض طوائف أهل الكتاب كانوا يقولون: نؤمن به نبيًّا، لكن للعرَب، وليس لنا!

وفيها: أنَّ الله تعالى أخذَ العَهد على الأنبياء أن يُصَدِّق بعضُهم بعضًا، وأن يؤمِن الأولُ بما جاء به الآخِر، وينصُره، وأنَّهم جميعًا سيتَّبعون محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو ظهرَ فيهم، وقد حصلَت الإشارة إلى ذلك بإمامته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم في بيت المقدِس ليلةَ الإسراء؛ فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الخَلْق، وله المقام المحمود، والشفاعة العُظمَى يوم القيامة.

وفيها: أنَّ خبر نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجودٌ في جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، ومنها: كتاب موسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: أنَّ الأنبياء صاروا أهلًا لهذا الميثاق العظيم، بما آتاهم الله من الكتاب والحِكمة.

وفيها: فَضْل نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الأنبياء، وهو خاتَمهم وإمامهم.

وفيها: أنَّ ما كان واجبًا على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو واجبٌ على أتْباعه؛ لأنَّ ما وجبَ على الإمام وجبَ على تابِعه.

وفيها: أنَّ مَن كفرَ بمحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كفرَ بنبيِّه الذي يزعُم اتِّباعه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وعلى هذا: فمَن أنكرَ ما جاء به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -من أهل الكتاب-؛ فقد كفرَ بموسى وعيسى، وبالتوراة والإنجيل.

وفيها: تَكرار أَخْذ العَهد، وتوثيقه، والحَلِف عليه، والإشهاد عليه، في الأمور الجليلة العظيمة.

وفيها: عِظَم مسئوليَّةِ المسلمين وواجبِهم نحو النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه يجب عليهم أن يقوموا بما كان سيقوم به الأنبياء -لو ظهرَ فيهم نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وفيها: وجوبُ الجهادِ على المسلمين، ونشرِ السُّنَّة، ونصرِ الدِّين؛ نُصرةً للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: شَرَفٌ للمسلمين، بأنَّه صارَ من وظيفتهم ما كُلِّفَ به الأنبياء من قبلُ، ولَزِمَهم ما كانوا قد التزَموا به.

وفيها: كَشْف الحقيقة التي يُخفيها أهلُ الكتاب؛ إقامةً للحُجَّة عليهم، وإظهارًا لعِنادهم.

وفيها: أنَّ الشَّهادة تقتضي تحمُّلَ المشهودِ به، واعتقادَه، وأداءَه وتبليغَه.

وفيها: أنَّ كلَّ نبيٍّ قد أُمِرَ قومُه بنُصرة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ صفة نبيِّنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت معلومةً لدى جميع الأنبياء في حياتهم.

وفيها: أنّ أَخْذ الإقرار والاعتراف بعد الميثاق، ثم الإشهاد على ذلك؛ هو من باب التأكيد، وهذا يبيِّن شناعة جريمة أهل الكتاب وغيرهم ممَّن يرفض اتِّباع النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّهم كفَروا بالميثاقِ والإقرارِ والإشهادِ.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى حُكم المُعرِض عن هذا الميثاق؛ فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرضَ عن

الإيـمان بهـذا النبيِّ ﷺ ونُصرتـه ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما أخـذَ الله العَهد والميثاق؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الخارِجون عن طاعة الله، الجاحِدون لشَرْعه ودينه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إطلاق الفِسْـق عـلى الكُفر، وهـذا كقوله تعـالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]، والفِسْـق الأكبر منه يُوجِب الخلود في النَّار.

وفي الآيـة: أنَّ الشرائـع لا تَلـزَم قبل العِلْـم؛ فمَن كان في باديـةٍ أو بلادٍ نائيـةٍ، فلم تبلُغْه الدَّعوة والرِّسـالة؛ فلا يعذَّب على مُخالَفة ما لا يَعْلم، وأمره إلى الله تعالى يومَ القيامة، يُكلِّفه ويمتَحِنه، وهو بصيرٌ به وبمَصيره. وكذلك المسـلم الذي لم يَبلُغه حُكمٌ شرعيٌّ -بلا تفريط منه-؛ فهو معذورٌ، حتى يبلُغَه الحُكم.

وفيها: أنَّ على الدُّعاة إلى الله إبلاغ حُجَّة الله إلى خَلْقه، ببيانٍ ووضوح، بلُغاتهم وألسِنَتهم؛ لأنَّ هذا ممَّا شرَعَه الله وأوجبَه وأحبَّه؛ كما قال في آية أخرى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾:

ثم قال تعالى، مُنكِرًا على مَن أراد دينًا سـوى دينه الذي أنزلَ به كتبه، وأرسـلَ به رُسُـله، وهو عبادته وحدَه لا شريك له:

﴿أَفَغَيۡرَ﴾: الاسـتِفهام للإنـكار والتوبيـخ ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾ وشريعتِـه التـي شرَعَها لعباده ﴿يَبۡغُونَ﴾ أي: يطلُبون ويُريدون.

ومعنـى الآيـة -بالنظـر إلى ما سـبقها-: أيتولَّون ويُعرِضـون عن الحقِّ بعدمـا تبيَّن لهم، ويطلبون دينًا غيرَ دين الله -وهو الإسلام، والإخلاص لله في العِبادة-؟!

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ (الـواو) للحـال، أي: والحـال أنَّه أسـلمَ له سـبحانه، وخضـعَ، وانقادَ

لحُكمه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا﴾ وهذا هو الإسلام والانقياد الاختياري، ﴿وَكَرۡهٗا﴾ أي: انقادَ مُرْغمًا، انقيادًا كونيًّا، وهذا يشمل كلَّ ما في السماوات والأرض، من العُقلاءِ والجماداتِ، وغيرِها من المخلوقات.

و(الطَّوع): ما فُعِل اختيارًا، و(الكَرْه): ما فُعِل اضطرارًا.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ أي: تَرْجِع الخلائقُ كلُّها إليه سبحانه يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مخاطَبة الكفَّار بما يلزَمُهم.

وفيها: إقامة الحُجَّة على الكفَّار؛ بأنَّهم إذا كانوا مُنقادِين لله كَرْهًا -في مثل المرض، وقَسْم الرِّزق، والأجَل والموت-؛ فلماذا لا ينقادُون إليه طَوعًا، فيُسْلِمون له ويتَّبِعون شَرْعه؟!

وفيها: أنَّ الإعراض عن حُكم الله تعالى لا يَليق بالعُقلاء.

وفيها: أنَّ مَن ابتغى غير دين الله؛ فهو مستَحِقٌّ للتوبيخ العظيم.

وفيها: أنَّ مِن شرط صِحَّة العمل: أن يكون موافقًا لشَرْع الله، مبنيًّا على الإخلاص له وحدَه.

وفيها: عُموم مُلك الله وسُلطانه، وهَيمنته على مخلوقاته، وأنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يُخالَف، ولا يُمانَع.

وفي الآية: أنَّ المرجِع إلى الله في الدُّنيا: بالعِبادة والتشريع، وفي الآخرة: بالحساب والجزاء.

وفيها: تهديدٌ ووعيدٌ للمُمتَنِعين عن اتِّباع دين الله، بأنَّهم سيُرْجَعون إلى الله يومَ القيامة، ليُحاسِبهم ويُجازيهم.

وفيها: أنَّ الانقيادَ الاختياريَّ هو الذي ينفع العبدَ ويُثاب عليه، أمَّا مَن انقادَ إلى الدِّين بالقوَّة والسَّيف -دون انقياد القَلْب-: فلا ينتَفِع بهذا الانقياد يومَ القيامة.

لكن، قد ينقادُ بعضُ الناس في بداية أمرهم كَرها -بالسَّيف والسلاسِل والتهديد، كما حصلَ مع بني إسرائيل في رَفْع الجبل على رؤسهم- ثم يدخل الإيمانُ إلى القلوب، فينقادُون

طَوعًا، ويعبدُون الله اختيارًا؛ فيدخلون الجنَّة، كما في الحديث: «عَجِبَ الله مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاَسِلِ»[١].

وفيها: أنَّ ممَّا يُعين على الانقياد طَوعًا: معرفة الثواب والعقاب.

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾:

ثم بيَّن الله تعالى تصديقَ النبيِّ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قبله من الأنبياء؛ فقال: ﴿قُلۡ﴾ -يا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مبيِّنًا اعتقادَك فيمَن سبقَك من إخوانك من الرُّسُل- ويدخل في هذا الخِطاب أُمَّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا-.

فقولوا جميعًا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: برُبوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ من الوحي والتنزيل، وهو القرآن والسُّنَّة التي تبيِّنه. وقدَّم (القرآن) بالذِّكر؛ لأنَّه أشرف الكتب المنزَّلة.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: من الصُّحُف، وما أُوتيَ أولادُه من الوحي. وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ وهو الولَد الأكبر لإبراهيم، وهو الذبيح، ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ وهو الذي يلي أخاه إسماعيل في الترتيب الزمني، وفي الفَضل كذلك، ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ ابن إسحق، الملقَّب بـ(إسرائيل)، ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: جمع (سِبط)، وأصله في اللُّغة: ابن البنت، ويطلَق على الذين يَرْجِعون إلى أب واحد. والمراد هنا: أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الاثنا عشر، ومَن تشعَّب منهم من بطون بني إسرائيل.

و(الإنزال) قد حصلَ على أنبياءِ شعوب بني إسرائيل، لكن ما أُنزِلَ على النبي فكأنَّما أُنزِلَ على أُمَّته وقومه.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِن كُتب الله -التوراة والإنجيل- ومِن الآيات والمعجِزات. وقد أفردَهما عمَّن قبلهما؛ لِما حصل بهما من التغيير الكبير والأثر العظيم في بني إسرائيل، ولأنَّ سياق الكلام في الآية مع اليهود والنصارى، وموسى وعيسى هما نبيَّا أهل الكتاب.

وقوله ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: ما أُعطِيَ النبيُّون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ وَحْيًا وفَضْلًا ومِنَّةً. ويدخل في (النبيِّين) هنا: داود وسليمان وأيوب وغيرهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان والتصديق؛ بل نؤمن بالجميع.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾: الضمير يعود على الأصل في سياق الكلام، وهو الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُستَسلِمون ظاهرًا وباطنًا، بالقَلْب واللِّسان والجوارح، شرعًا وقَدَرًا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إجلالُ الله لقَدْر نبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد قدَّمه في الذِّكر على الأنبياء، وقدَّم (ما أُنزِلَ عليه) على (ما أُنزِلَ عليهم).

وفيها: وجوبُ الإيمان بما أُنزِلَ علينا -وهو القرآن- وهذا يقتضي التصديقَ بأخباره، وامتِثالَ أوامره، واجتنابَ نواهيه.

وفيها: الإيمان بالكتب المنزَّلة على الأنبياء السابقين، وإن لم نعرِف أسماءَها وما اشتملَت عليه تفصيلًا.

وفيها: أنَّ ما أُنزِلَ على الأنبياء فقد أُنزِلَ على أقوامهم.

وفيها: وجوب الإيمان بمُعجِزات الأنبياء.

وفيها: الحذَر من الإيمان ببعض الأنبياء دون بعض، بالتفريق بينهم في الإيمان، والحذَر من العصبيَّة التي تؤدِّي إلى إنكار نبوَّة بعضهم -كما فعلَ اليهودُ وغيرُهم، بالتكذيب بغير أنبيائهم-.

وفيها: أنَّ الاستِسلامَ لله يقتضي تقديمَ طاعته على طاعة كلِّ أحد، والاستِسلامَ بما جاء به نبيُّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والانقيادَ لشَرْعه، والرِّضا بقدَره.

وفيها: أنَّ الاستِسلامَ لله يقتضي العملَ بما جاء منه، ناسخًا لِما قبله. وهذا لا يتعارَض

مع الإيمان بما أُنزِلَ على النبيِّين من قبلُ؛ فنحن نقتدي بهم، ونؤمن بما أُنزِلَ عليهم، لكنْ؛ لكلٍّ شِرْعة ومِنهاجٌ، وما جاء شرعُنا به يلزَمنا الأَخذُ به دون غيرِه.

وفيها: أنَّ عطيَّة الدِّين والإيمان هي رأسُ العطايا، وسببُ السعادة في الآخرة؛ فيجب الاهتِمامُ والفرَح بها أكثرُ من الاهتمام والفرح بعطايا الدُّنيا.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾:

يخبر الله تعالى في هذه الآية: أنَّ كلَّ دينٍ غيرِ الإسلام فهو باطلٌ ومرفوضٌ.

وقوله ﴿وَمَن يَبۡتَغِ﴾ أي: يطلُب ﴿غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ والتوحيدِ، والانقيادِ لحُكم الله، والطريقةِ في التعبُّد التي أنزلها الله على محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ﴿دِينٗا﴾ يتعبَّد به، ويسلُكه منهجًا، ويعتَنِقه، ويَدين الله به يرجو الثواب.

و(الدِّين) يُطلَق على العمل، كقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويُطلَق على الجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧] أي: يوم الجزاء.

﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ أي: مرفوضٌ ومردودٌ، ولا يُثاب عليه ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: المحرومين من الثواب، الواقِعين في العقاب، النادِمين حيث لا ينفع النَّدَم؛ لأنَّهم تَعِبوا في الدُّنيا بالمسلك الباطل، وخَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإسلام في الآية هو الإسلام الخاصُّ، وهو شريعة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. وأمَّا الإسلام بالمعنى العامّ فهو: الاستِسلام لله تعالى، وهو دين جميع الأنبياء، كما قال تعالى -حكايةً عن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في وصيَّته لبَنيه-: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكما قالت مَلِكة سبأ: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وفي الآية: أنَّه لا يجوز إقرارُ أحدٍ على دينٍ يُخالِف شريعةَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغير الإسلام -في أصلٍ أو فرعٍ-؛ فلن يُقبَل منه، ولن يُعطَى ثوابًا في الآخرة؛ بل سيَخْسَر نفسَه في النَّار -عياذًا بالله-.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغيرِ الإسلام؛ فإنَّ دينَه مرفوضٌ من قِبَل الله تعالى، ورسولِه ﷺ، والمؤمنين؛ كما يدلُّ عليه بِناءُ الفِعْل للمجهول في قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ﴾.

وهذا يدلُّ على بُطلان مبدإ «احترام جميع الأديان»؛ إذ كيف تُحترَم الأديان الباطلة؟!

وفيها: بيانُ بُطلانِ قول مَن قال بصِحَّة جميع الأديان الموجودة على ظهر الأرض، ونادَى بعدَم الطعن فيها! وهذا ضلالٌ مبينٌ؛ فجميع الأديان -من النصرانيَّة، واليهوديَّة، والبوذيَّة، وغيرها- باطلةٌ، ولا دينَ إلَّا دينُ الإسلام.

وفيها: أنَّ مَن دانَ بغيرِ الإسلام؛ يُتعِب نفسَه، ولا يُقبَل عملُه، ومهما أنفقَ في الخير فقد أضاعَ مالَه؛ لأنَّ الله تعالى قال عن هؤلاء: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفيها: بيانُ الغَبْن العظيم يومَ القيامة للكافِرين، عندما يَلْحَقُهم الخُسرانُ المبين.

وفيها: توفيرُ الوقت على مَن يبحث عن الدِّين الصحيح، وأنَّه الإسلامُ لا غير.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾:

سبَب نزول الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ رَجُلٌ مِن الأَنْصارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ ولَحِقَ بالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: سَلُوا لِي رَسُولَ الله ﷺ: هَلْ لِي من تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ من تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ»(١).

وقيل: نزلَت الآيةُ في أهل الكتاب -من اليهود والنصارى- الذين رَأَوا نَعْتَ النبي ﷺ وصِفَته في كتابِهم، وأقرُّوا به، وشَهِدوا أنَّه حقٌّ، ثم كفَروا به بعد بِعْثته(٢).

---

(١) رواه النسائي (٤٠٦٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٦٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٧٤)، تفسير ابن المنذر (١/ ٢٨٠).

وقوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: الاستِفهام للإنكار. ويجوز أن يكون للتعجُّب من كُفرهم بعد إيمانهم، أو للتوبيخ والاستِبعاد.

والمعنى: مِن المستبعَد أن يهديَ الله قومًا ارتَدُّوا بعد أن آمنوا وعرَفوا الحَقَّ؛ واختاروا الكُفر والضلال بعد الإيمان؛ فإنَّ هداية مثل هؤلاء بعيدة؛ لأنَّ مَن عرف الحقَّ ثم ارتدَّ عنه، أشدُّ جُرْمًا ممَّن لم يعرِف الحقَّ وبقيَ على كُفره. ولذلك كانت عقوبة المرتَدِّ هي القَتْل بكلِّ حال، إلَّا أن يُسْلم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[1].

﴿وَشَهِدُوا﴾، وأقرُّوا بألسِنَتهم ﴿أَنَّ الرَّسُولَ﴾ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ، وخبره صِدق، ولا مِرية في كونه مُرسَلًا مِن عِنْدِ الله، ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الحُجَج والبراهين والمعجِزات، التي تبيِّن صِدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتدلُّ على صِحَّة نُبُوَّته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ فلا يُوفِّقهم للهداية، ولا يُيسِّر لهم أسبابَها؛ لأنَّهم ظلَموا أنفُسَهم، بإصرارهم على الكُفر، بعدما تبيَّن لهم الحقُّ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أهل الكتاب كانوا يُقِرُّون ببِعْثة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يُبعَث، وأنَّ قُلُوبهم صدَّقت بذلك، ونطقَت به ألسِنَتُهم.

وفيها: استِبعاد هداية مَن جحدَ الحقَّ، بعدما تبيَّن له، وعرَفه بالأدلَّة والبراهين.

وفيها: أنَّ المرتَدَّ أعظمُ كُفرًا من الكافرِ الأصليِّ.

وفيها: أنَّ الهداية أقرب إلى الكافر الذي لم يعرف الحقَّ ثم عُرِض عليه، من الذي عرَفه وأصرَّ على الكُفر.

وفيها: أنَّ الهداية والإضلال بيد الله، وهي تابعة لِحكمته تعالى، فمنهم مَن يهديه فَضْلًا، ومنهم مَن حقَّت عليه الضلالة عَدْلًا.

وفيها: حِكمة الله تعالى ورحمته وعَدْله؛ حيث أقامَ للناس من البيِّنات الشرعيَّة والعقليَّة والحِسِّيَّة ما يدُلُّهم على الحقِّ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

وفيها: أنَّ مَن طلبَ الحقَّ، وتحرَّاه، وتشوَّف له؛ فإنَّه جديرٌ بالهداية.

وفيها: تسمية الكافر أو المشرِك (ظالمًا)؛ لأنَّه وضعَ العِبادة في غير موضِعها.

وفيها: شناعة الرِّدة، وأنَّ عقوبتها مُعَجَّلة في الدُّنيا -بالاستمرار في الضلالة- ومؤجَّلة في الآخرة -بالخلودِ في النَّار-.

وفيها: أنَّ مَن أضلَّه الله؛ فهو ظالمٌ لنفسه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

ثم بيَّن الله تعالى عاقبةَ هؤلاء الظالمين؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين ارتَدُّوا وكفروا بعد إيمانهم. وصيغة الإشارة للبعيد هنا؛ تدُلُّ على انحِطاط مرتَبتهم.

﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ أي: أنَّ مُكافأتهم على كُفرهم: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سَخَطه وغَضبه عليهم، وطَرْده لهم وإبعادهم عن رحمته ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يلعنُونهم أيضًا؛ لأنَّهم مطبوعون على الكُفر، مستحِقُّون للَّعْن.

وقوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة، أو: في عذاب النَّار. و(الخلود) يُطلَق على المُكث الطويل، والمراد به هنا: الدائم، ولذا قال: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: لا يُنقَص، فَضْلًا عن خروجهم منها، ولذلك يُنادُون الملائكة بقولهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخَّرون ويؤجَّلون؛ بل يُبادَرون بالعذاب مُبادَرةً، ويُوَفَّونه مباشرةً.

ثم استثنى الله تعالى من هذا كلِّه طائفةً واحدةً؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ ورجَعوا إلى ربِّهم، وآمنوا بعد كُفرهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد رِدَّتهم. وأشار إلى الكُفر بإشارة البعيد؛ لانحِطاط مرتَبته.

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسَدوه، وعملوا الصالحات، وأعلَنوا براءتهم من الكُفر الذي كانوا عليه، ودَعَوا مَن تَبِعَهم إلى أنَّ يتوب مثلَهم، وفَنَّدوا الباطل الذي نشَروه.

فإن فعلوا كلَّ ذلك؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾: مقتضَى هذين الاسمَين أنَّه سيَغفِر لهم ويرحمهم، ويستُر ذُنوبهم، ويتجاوَز عنهم عَزَّوَجَلَّ؛ فهو (غفورٌ) بإزالة العذاب وآثار الذُّنوب، و(رحيمٌ) بإعطاء الثواب.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

بيان استِحقاق الذي يموتون على الرِّدَّة للَعْنـةِ الله، وملائكته، وعبادِه الصالحين، ولعنة الناس أجمَعين في الآخرة، حتى إنَّ الكفَّار يلعَنُ بعضُهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وكما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفيها: أنَّ هؤلاء لا يُمهَلون ليعتَذِروا؛ وإنَّما يسارَع لهم في العذاب دون تأجيل، بَدءًا من عذاب القبر، ثم يوم يقوم الأشهاد، ويستمرُّ أبدَ الآبِدين.

وفيها: أنَّ رحمة الله سبقَت غضبَه؛ ولذلك استثنى من الوَعيد: التائبين من الكُفر.

وفيها: فَتْحُ الباب لهؤلاء، وتذكيرهم بالفُرصة؛ ليعودوا عن ضلالهم، ويُصلِحوا ما أفسَدوه.

وفيها: أنَّ التوبة يجب أن تعظُم كلَّما عظُم الذنب.

وفيها: أنَّ المرتدَّ إذا تعدَّى شرُّه بدعوةِ غيره إلى الكُفر، وتزيينِه للآخرين؛ فإنَّ من شروط توبته: أن يُصلِح ما أفسدَه، ويبيِّنَ على الملأ ضلالَ ما كان عليه، ويرُدَّ على الباطل الذي كان قد اعتنقَه، ويدعوَ مَن أضلَّهم إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ التوبة إذا كانت في وقت القَبول -قبلَ حضور الأجل، وقبل طلوع الشمس من مغربها-؛ فإنها تنفع، ولو كانت توبةً من الرِّدَّة.

وفيها: سَعَةُ رحمة الله وكَرَمه وعَفْوه؛ فيجمعُ للتائب بينَ زوالِ المكروهِ -بمغفرةِ الذنب، وسَترِ أثَره- وحصولِ المطلوب -من الرحمةِ، والنِّعمة، والإحسان-.

وفيها: أنَّ مِن الكفَّار مَن يتوب توبةً صادِقةً تنفعه، ومنهم مَن توبته فاسدةٌ لا تنفعه، ومنهم مَن لا يتوب أصلًا.

وفيها: أنَّ التوبة التي لا أثرَ لها في العمل، لا تنفع صاحبَها.

وفيها: وجوب الاستقامة بعد التوبة، وألَّا تكون التوبة مؤقَّتة.

وفي الآية: جوازُ لَعْن الكفَّار والمرتَدِّين -على العُموم- لا على سبيل التعيين؛ فلا ندري بِمَ يُختَم لهم.

وفيها: أنَّ الخالدين في النَّار لا ينتَظِرون فَرَجًا، لا بالتخلُّص من العذاب، ولا بتخفيفِه.

وفيها: مُبادَرة الله تعالى للكفَّار بالعذاب، ومنهم مَن يُذيقه بعضَ العذاب في الدُّنيا، ثم عند الموت، وفي القبر، ثم يكون العذابُ الأكبرُ في الآخرة عند دخول النَّار، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وفيها: الثَّناء على المُصلِحين بعد توبتهم. ومن شروط المُصلِح: أن يكون صالحًا في نفسه، تائبًا إلى ربِّه، مُصلِحًا لغيرِه ما فسدَ بسببه.

وفيها: قَبول توبة المرتدِّ، إذا رجعَ إلى الإسلام مخلِصًا.

وفيها: أنَّ الله يغفر أكبرَ ذنبٍ إذا تابَ منه صاحبُه توبةً نصوحًا، مخلِصةً صادِقةً.

وفيها: أنَّ فَتْح الباب للمُفسِد ليتوبَ؛ فيه كفٌّ لشرِّه، وإنقاذٌ للناس من إفسادِه؛ فالمصلحة له، وللآخرين.

وفيها: عدَم اليأس من توبة أسوإِ وأشدِّ الناس جُرْمًا.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل، والعذاب يعظُم كلَّما عظُم الذنب.

وفيها: أنَّ عقوبة المرتدِّ هي: الخلود الدائم في النَّار، ولا راحة له فيها، لا بتخفيفٍ، ولا تأجيلٍ.

وفيها: أنَّ المرتدَّ الذي فوَّت الفُرصة على نفسه بالتوبة، ولم يستَفِد من إمهال الله له في الدُّنيا؛ يُبادِره الله بالعذاب، ولا يؤجِّله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى أهلَ التوبة الفاسدة؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ من المُرتدِّين، واستمرُّوا على ذلك إلى الممات.

وقيل: هم أهل الكتاب، الذين كفروا بعيسى والإنجيل، وموسى والتوراة.

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾؛ فصاروا ينحدِرون في دَرَكات الكُفر. وقيل: هم أهل الكتاب، الذين ازدادوا كُفرًا بجَحْد نبوَّة النبيِّ ﷺ، وما أنزلَ الله عليه من القرآن[1].

فهؤلاء ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ إذا غَرْغَروا وماتوا كفارًا، يعني: إذا أخَّروا التوبة إلى حضور الموت، فتابُوا حينئذٍ.

وهذا التفسير يشهَد له قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: ١٨].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾: الذين ضلُّوا عن سبيل الحقِّ، وتنكَّبوا طريقَه بعدما عرَفوه.

وقد وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ قومًا أسلَموا ثم ارتدُّوا، ثم أسلَموا ثم ارتدُّوا، فأرسَلوا إلى قومهم يسألون لهم؛ فذَكروا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾»[2].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المرتدَّ يزداد كُفرًا، كما أنَّ المؤمن يزداد إيمانًا.

وفيها: أنَّه كلَّما ازدادَ العبدُ كُفرًا؛ كان أبعدَ من التوبة.

وفيها: أنَّ كلَّ مَن اجتنب طريقَ الحقِّ؛ فهو ضالٌّ؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٥٧٨-٥٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).

وفيها: أنَّ المرتـدَّ مُنتكِسُ الفِطرة؛ لأنَّه عرَفَ الحقَّ، وذاقَ حـلاوة الإيمان، ثم رضيَ بأن يعودَ إلى ظُلُمات الكُفر، ويرتدَّ على عَقِبَيه.

وفيها: شناعة كُفر أهل الكتاب؛ فقد آمنوا بـما رَأوه في كتُبهم أولًا من نعت النبي ﷺ وصِفته، ثم كفروا به بعد بِعْثته، ثم ازدادوا كُفرًا بإصرارهم وعِنادهم وحَرْبهم له ﷺ وللمؤمنين، وصَدِّهم عن سبيل الله.

واليهود كفروا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وازدادوا كُفرًا بجَحْد نبوَّة النبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ النفس إذا توغَّل فيها الكُفر، وتمكَّن فيها الضلال، وأحاطَت بها الخطيئة؛ فيبعُد جدًّا أن تَرْجِع وتتوب؛ فلا يُوفِّق الله صاحبَها للعودة إلى الحقِّ -في الغالب- بل يُعاقِبها بمزيدٍ من الضلال، ويصرِفها عمَّا انصرَفت عنه من الحقِّ، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفيها: أنَّ مِن التوبة ما لا يقبَله الله، مثل: التوبة عند الموت ومعاينة المَلَك، وعند قيام الساعة، ومَن أظهر التوبة نِفاقًا، أو التوبة من كُفرٍ للدُّخول في كُفر آخر. والكافر لا تنفعُه توبتُه من بعض المعاصي -كالزِّنا والخمر- ما دام باقيًا على الكُفر.

وفيها: أنَّ مِن الناس مَن يسُدُّ على نفسه بابَ الخير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾:

ثم توعَّد اللهُ تعالى الكافرين المصرِّين على الكفر؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: استمَرُّوا على الكُفر إلى الموت، ولم يتوبوا. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ لو تصدَّق في الدُّنيا، أو قدَّمه في الآخرة فِدْيةً من العذاب ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أي: بوزن جبالها وتلالها، وتُرابها ورمالها، وسَهْلها ووَعْرها، وبرِّها وبَحْرها.

﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي: قدَّمه تخليصًا له من عذابِ يومِ القيامةِ. ومعلوم أنَّ الكافر لا يملِك شيئًا في الآخرة، ولكن جرى الكلامُ في الآية على سبيل الفَرْضِ والتقدير.

والمعنى مذكورٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مُوجِع ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله.

وفي «الصحيحين»، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ من شَيْءٍ، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ من هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ جميع أعمال البِرِّ التي يقدِّمها الكفَّار في الدُّنيا، ويبذُلون فيها أموالهم خدمةً للبَشَر -كمساعدة الفقراء والمحتاجين، وإطعام الطعام، وبناء المستشفيات والمؤسَّسات التعليميَّة، وتمويل الأبحاث الطبيَّة، والمساهمة في الأعمال الخيريَّة- لن يقبلَها الله منهم يومَ القيامة، ولن يُثيبَهم عليها، بل سيجعلها هباءً منثورًا؛ لأنَّها لم تقُم على أساسٍ صحيحٍ من الإيمانِ بالله وتوحيده.

وقد سُئِلَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عَبْدِ الله بنِ جُدْعان، وقد كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[2].

فتكذيبُ هذا الكافر بيوم الدِّين وشِركُه بالله؛ منعَه من الانتفاع بعمَله يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ الكافر لا يُقبَل منه يومَ القيامة التزلُّف، بتقديم مِلْء الأرض ذَهبًا لو كان معه، ولا يُقبَل منه إعطاؤه إيَّاه على سبيل المُعاوَضة والفِداء، لفكِّ نفسه من العذاب.

وفيها: أنَّ الكُفر يُحبِط الأعمال، ويَمحو الحسنات.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

وفيها: أنَّ المرتدَّ لا يُقبَل منه خيرٌ.

وفيها: رحمة الله بالناس، بأنَّه لم يطلب منهم تقديمَ ما لا يُطيقون دَفْعَه؛ بل كلَّفهم بأمر يستطيعونه، وهو: أن يعبدوه وحدَه، ولا يُشرِكوا به شيئًا.

وفيها: إذلال الله للكفَّار والمرتدِّين يومَ الدِّين، وإنزال الألم النفسيِّ بهم، حين لا يجدون أولياء ولا ناصرين يدفَعون عنهم العذاب، كما كانوا يجدون في الدُّنيا من الأقرباء والأصدقاء والأعوان.

وفيها: أنَّ الذَّهَب وكلَّ الأموال لا تنفع يوم القيامة؛ وإنَّما تنفع الحسنات.

وفيها: أنَّ مَن قام بالحقُوق والواجبات الماليَّة عليه، مع الإيمان والاستقامة؛ فإنَّ الله يقبَل ما قدَّمه ولو كان يسيرًا، وليست العِبرة عند الله بكثرة الإنفاق؛ ولكن العِبرة بقيمة العمل، وما قام في القَلْب من الإيمان.

وفيها: أنَّ الذَّهَب أَنْفَس الأموال، ومع ذلك يهون على الكافر بذلُه لو كان يستطيع؛ افتداءً لنفسه ممَّا يرى من هَوْل العذاب.

وفيها: شِدَّة عذاب الآخرة، الذي يُنسِي هؤلاء الكفَّار تعلُّقَ نفوسِهم بالمال.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾:

ولـمَّا ذكر الله تعالى ما لا يُقبَل من الكَفَرة ولا ينفعهم؛ ذكرَ ما ينفع أهلَ الإيمان ويُقبَل منهم؛ فقال:

﴿لَن تَنَالُوا۟﴾ أي: لن تُدرِكوا وتصيبوا ﴿ٱلْبِرَّ﴾ وهو: اسم جامع لكلِّ خير. والمعنى: لن تبلُغوا شرَف الدِّين، ومرتبةَ البِرِّ ودرجته، فتكونوا أبرارًا. أو: لن تبلغوا الجنَّة. أو: لن تنالوا بِرَّ الله ورحمته وخيرَه: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ وتُخرِجوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ من أنواع المال.

وقد قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، والنفس إذا تعلَّقت بالشيء وأحبَّته؛ شَحَّت به وبَخِلَت.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ، طيِّبٍ أو خبيثٍ، سواءً بإخلاص أو مِنَّة ورياء؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ فسيُجازيكم عليه بحَسَبه، وبحَسَب نيَّاتكم وإخلاصكم.

ولـمَّا نزلت هذه الآية؛ قام أبو طَلْحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وكَانَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مَالًا من نَخْلٍ- وقال: إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ (وهو اسم بُستان له)، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ».

فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[1].

وعن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْمِرُهُ فِيهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»، فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ[2].

ولأجلِ هذه الآية؛ أعتقَ عددٌ من السَّلَف جواريَهم، مع شِدَّة تعلُّق نفوسِهم بهنَّ؛ ومنهم: عمر وابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا من قوَّة امتثالهم لِـما رَغَّب الله فيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحثُّ على الإنفاق ممَّا يحبه الإنسان.

وفيها: أنَّ درجة البِرِّ تكون بحَسَب الإنفاق من المحبوبات.

وفيها: شَرَف الأبرار، وعُلُوُّ مَن بلغ تلك المنزلة.

وفيها: أنَّ بِرَّ الله يُنال ببرِّ خَلْقه.

وفيها: تغليب مَرضاة الله على شَهوات النفس.

وفيها: ذَمُّ مَن يُنفِق من أردإِ ما عنده من الأموال وغيرها.

وفيها: أنَّ من طُرُق مقاومة هوى النفوس: التصدُّق بكرائم الأموال، كما كان يفعل الصَّحابة والسَّلَف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

وفيها: سَعَة عِلْم الله، وأنَّه بصيرٌ بنيَّات عباده، عليمٌ بنفقاتهم.

وفي أول الآيـة ترغيـبٌ، وفي آخرهـا ترهيبٌ: لتُقْـدِمَ النفسُ على الإنفاق، وتحـذَر الرِّياء والإيذاء.

وفيهـا: جـواز إنفاق المرء جميعَ ماله، إذا كانت (مِـن) في قوله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ لبيان الجِنس، لكن هذا الإنفاق مشروطٌ باستطاعتِه الصَّبرَ هو وأهله، والأمانِ من سؤال الناس، وعدمِ النَّدَم في المستقبَل على هذا الإنفاق، وأن يكون عندَه من قوَّةِ التوكُّل على الله والأَخْذِ بالأسباب ما يُغنيه، كما كان هو حال أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي قوله ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾: دليلٌ على أنَّ الصَّدَقة لله تنفع صاحبها، مهما كانت قليلة.

وفيها: فَضْل الإنفاق في أوجه البِرِّ، من الصَّدَقات الواجبة والمستحبَّة.

وفيهـا: أنَّ الإنفاق من نفائِـس الأموال في حال تعلُّق النفس بها، وفي حال الحاجة إليها، وفي حال الصِّحَّة؛ يدلُّ على برِّ قَلْبِ المتصدِّق، وتَقوَى نفسِه.

وفيهـا: أنَّ الإنفاق من المحبوبات أعـمُّ من أن يكون بالأموال، فيدخل فيه: الإنفاق من أوقـات الراحة ومـن الصِّحَّة لقضاء حوائج النـاس، وإيثار التَّعـب في الطاعات على إجمام النفـس وتنزيهـا ومُتعتها، والإنفاق مـن الجاه، والعِلْم، والأخلاق، وقوَّة الجسـد، والرأي والخبرات -وهي تُقوَّم بالمبالغ الطائلة في عالم الاستِشارات-. فمَن فعلَ هذا؛ فقد نال درجةً عظيمةً من البِرِّ.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعـالى الإنفاقَ من محبوبات النفس ومُشْـتَهياتها؛ ذكرَ مثـالًا من عبادةِ مَن قَبلَنا، في نذرِهم لله تركَ بعضَ المحبوبات، فقال تعالى:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: مـن الطيِّبـات، ويدخـل فيـه الـشراب أيضًـا ﴿كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حـلالًا عـلى يعقـوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأولادِه، وشَـعْبِ بنـي إسرائيـل. ومعنـى (إسرائيل): عبد الله.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ بالنَّذْر. وكان لذلك الامتِناع من يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قِصَّة:

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ اليهودَ أقبلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ، واتَّبَعْناك.

فكان منها: قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وكَذَا -قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الإِبِلَ- فَحَرَّمَ لُحُومَهَا»، قَالُوا: صَدَقْتَ[1].

وفي رواية: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «أَنْشُدُكُم بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لله نَذْرًا: لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ تَعَالَى من سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمانُ الإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟»، قَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: «اللهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِم»[2].

﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فضيَّق الله على الذين هادوا بذُنوبهم، وحرَّم عليهم في التوراة أنواعًا من الطعام لم تكن محرَّمة عليهم في شريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وعلى هذا: فشريعة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أوسَع من شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في باب الأطعِمة.

﴿قُلْ﴾ -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدِّيًا لليهود-: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وأحضِروها ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾ واقرأوها عليَّ، لتكون حاكمة بيني وبينكم؛ حتى يتبيَّن لكم أنَّ ما جئتُ به هو الحقُّ ﴿إِن كُنتُمْ

---

(١) رواه أحمد (٢٤٨٣)، وحسنه محققو المسند.

(٢) رواه أحمد (٢٥١٤)، وحسَّنه محقِّقو المسند.

﴿صَـٰدِقِينَ﴾ فيما تدَّعونه بأنَّ التحريم قديمٌ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ لا يعلم خبرَ مَن قد سبق، وأنَّ الشرائع لا تتبدَّل، والأحكام لا تُنسَخ، ونحو ذلك من افتراءات اليهود.

وفي هذه الآية من الفوائد:

جواز النَّسْخ في الشرائع.

وفيها: إقامة الحُجَّة على أهل الكتاب من كتُبهم.

وفيها: مواجَهة المفتَري بأدلَّة كَذِبه.

وفيها: أنَّ الله يُحِلُّ ما يشاء ويُحرِّم ما يشاء، وأنَّه ينسَخ ما يشاء لِحكمة، وهو أعلم بمصالح العِباد، ومصالح العِباد تختلف من زمن إلى آخر.

وفيها: مُناظَرة الخَصْم، وإقامة الحُجَّة عليه بشيءٍ يعتَقِد صِحَّته.

وفيها: تحدِّي أهلِ الحقِّ للمُبطِلين.

وفيها: أنَّ كُتب الله المنزَّلة على أنبيائه يؤيِّد بعضُها بعضًا.

وفيها: إنصاف الخُصُوم، والاحتِجاج عليهم بكتُبهم.

وفيها: مُناظَرة أهل الكتاب، بأمور لا يعلمها إلَّا هُم.

وفيها: أنَّ الأصل في الأطعِمة الإباحة، إلَّا ما جاء النصُّ بتحريمِه.

وفيها: أنَّ المعاصي سببٌ لمُعاقَبة العِباد -شَرْعًا وقَدَرًا-.

وفيها: أنَّ تَرْك بعض الطيِّبات والامتِناع عنها -تقرُّبًا إلى الله- كان سائغًا في شَرْع مَن قبلنا. بخلاف شَرْعِنا؛ فإنَّ كلَّ الطيِّبات حلالٌ لنا، ولا يَصِحُّ النَّذْر بالامتناع عن بعضِها، ولم يُحرِّم الله علينا إلَّا الخبائث، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفيها: فَضْل الله على هذه الأُمَّة؛ حيث أحلَّ لها الطيِّبات، ولم يشرَع لها النَّذْرَ والتعبُّدَ بالامتِناعِ عنها، بل التعبُّدُ بالامتِناع عن الطيِّبات بِدعةٌ وضلالةٌ.

وفيها: أنَّ التحليل والتحريم في الشريعة والأحكام، حقٌّ خالصٌ لله تعالى.

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾:

ثـم قال تعالى -في بيان ظُلْم اليهود وكَذِبهم-: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ أي: اختلقَ. و(الافتِراء): هو التقوُّل بغير حقٍّ، وأن تنسِب إلى شخصٍ ما لم يقُلْه.

﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بـأن شرَعَ أو أخـبرَ بخلاف ما أنزل الله، كادِّعاء اليهود أنَّ التوراة لا تُنسَخ، وأنَّه لا نبيَّ يقضي على شريعة موسى، ونحو هذا من أكاذيبِهم وافتراءاتِهم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ظهور الحقِّ واتِّضاحه، وقيام الحُجَّة وظهورها.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُـصِرُّون عـلى الافـتِراء ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفُسِـهم بإيرادهـا المهالِـكَ، ولغيرهم فيما يُضِلُّونهم به، ويُورِدونهم معهم العذابَ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

خطورةُ الكَذِب على الله.

وفيها: أنَّ المفترِين على الله كذَبوا في الأخبار والأحكام.

وفيها: بيان أنَّ اليهود قد افترَوا بعد عِلْمهم بالحقِّ.

وفيهـا: أنَّ الافـتِراء عـلى الأنبياء هو افـتراءٌ على الله؛ لأنَّهم رُسُـلُه، والواسـطةُ بينه وبين خَلْقه، والطريقُ إلى معرفة شَرْعِه والأنباءِ التي يُخبِر بها.

وفيها: أنَّ مَن افترى على الله تعالى؛ فافتراؤه على أنبيائه أسهلُ عليه عنده.

وفيهـا: أنَّ الافـتِراء عـلى الله هـو رأس الظُّلْـم؛ لأنَّ ﴿هُمُ﴾ في الآية ضمـير فَصْل، يُفيد الحَصْر والتوكيد.

وفيها: حِرْص اليهود على الرِّئاسة الدِّينيَّة، ولو باستعمال الكَذِب على الله.

وفيها: حِرْص أهل الباطل على التمسُّك بباطِلهم، الذي يميِّزون به أنفُسَهم عن غيرهم، كما افترَت اليهود على الله بأنَّه شرَع لهم السَّبت.

وفيها: أنَّ الإصرار على الباطل -بعد قيام الحُجَّة- ظُلْمٌ عظيمٌ.

وفي الآية -مع التي قبلها-: دليلٌ عظيمٌ على صِحَّة ما جاء به النبي ﷺ، وأنَّه صادِقٌ فيما أخبرَ به.

وفيها: ظهورُ صِدق النبي ﷺ، مؤيَّدًا من كتُب خُصومه.

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾:

﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها النبيُّ ﷺ: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما شرَعه وأخبرَ به، ومن ذلك: ما أخبرَ به من حِلِّ الأطعمة على بني إسرائيل، وأنَّ تحريمَ بعضِها كان جزاءَ أفعالهم القبيحة. و(الصِّدق) هو: مطابَقة الخبر للواقع.

﴿فَٱتَّبِعُواْ﴾: الخِطاب لجميع الناس -بما فيهم المسلمون واليهود- ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي: دينَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو التوحيد والبراءة من الشِّرك؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفٗا﴾ أي: مائِلًا عن كلِّ شِرك ودين باطل، إلى التوحيد ودين الحقِّ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: تأكيدٌ لبراءة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهل الشِّرك.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثَّناء على الله تعالى بالصِّدق؛ كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيها: أنَّ الله تعالى صادِقٌ في كلِّ شيء أخبرَ به، كما قال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفيها: أنَّ أساس دين النبيِّ ﷺ هو أساسُ دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفي الآية: الثَّناء على إبراهيم ﷺ، بأنَّه إمامٌ، وحنيفٌ.

وفيها: وجوب اتِّباع الحقِّ أينما كان.

وفيها: وجوب الإيمان بالرُّسُل السابقين.

وفيها: أنَّ النبي ﷺ عرَف كَذِبَ اليهود بواسطة ما أخبرَه الله به من الوحي، وميَّز صِدقَهم من كَذِبهم -فيما يُحدِّثونه به عن أنبيائهم- بما أوحاه الله إليه في ذلك.

وفيها: أنَّ الأنبياء -وإن اختلفَت شرائعهم في بعض الأحكام، بحَسَب حاجات أُممهم ومصالحها- فإنَّ أصل شرائعهم واحد، وهو التوحيد الذي بعثَهم الله به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفيها: ذَمُّ الذين يُدخِلون الشِّرك في عباداتهم، والتعريض بشِرك اليهود -وهم الذين قالوا: «عزير ابن الله»-.

وفيها: إيراد هذه الكلمة العظيمة: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في مُناظَرةِ الخُصُوم.

وفيها: الرَّدُّ على المكذِّبين، وفَضْحُ المفترِين على الله.

وفيها: أنَّ أعظم الناس تصديقًا لله هم أكثرهم عِلمًا وعملًا، وتسليمًا بما جاء عن الله من الأخبار والأحكام.

وفي الآية: أنَّ اليهود ليسوا على مِلَّة إبراهيم، ولو ادَّعَوا ذلك.

وفيها: إلزامُ اليهود بالتوحيد، وأنَّهم إذا كانوا يعتَزُّون بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويدَّعون أنَّهم أولياؤه؛ فليتَّبعوا مِلَّته -إن كانوا صادِقين في ذلك-.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى باتِّباع مِلَّة إبراهيم؛ ذكر عَزَّوَجَلَّ أنَّ من أعظم شعائر مِلَّة إبراهيم: الحَجَّ إلى الكعبة، وكان اليهود يدَّعون أنَّ بيت المقدِس أفضلُ من الكعبة، وأحقُّ بالاستِقبال في الصَّلاة، وأنَّه قد بُنِيَ قبلَها؛ فرَدَّ الله عليهم بهذا، فقال:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ﴾ أي: بُنِيَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لعباداتهم ونُسُكهم، كالطواف، والصَّلاة، والاعتكاف ﴿لَلَّذِي﴾ البيت ﴿بِبَكَّةَ﴾ أي: بمكَّة. وسُمِّيت (بكَّة)؛ لأنَّه يبُكُّ بعضُهم فيها بعضًا، أي: يزدَحِمون فيها للطواف. وقيل: لأنَّها تبُكُّ أعناقَ الظَّلَمة، أي: تُهلِكهم.

وقيل: لأنَّ رقابهم تخضَع فيها وتَذِلُّ.

وقيل: (بكَّة) هي الكعبة والمسجد، و(مكة) هي ما وراء ذلك[١].

وقد سألَ أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المَسْجِدُ الأَقْصَى»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»[٢].

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: وُضِعَ وفيه البرَكة. وبركاته متعدِّدة؛ فمنها: مغفرة ذُنوب مَن حجَّ إليه، وأنَّ الحسنات فيه مُضاعَفة، وأنَّ مَن دخله كان آمنًا، وفيه الماء المبارك ماءُ زَمْزَم، وغير ذلك من البركات.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: منارًا يهتدي به العالَمُ؛ فهو قِبلَتهم، ويجتمعون فيه للصلاة، وهو مأوى أفئدتهم للحجِّ والعُمرة. فيحصُل فيه: هداية الضالِّ، وتعليم الجاهل، وإقامة العِبادات.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك البيت ﴿ءَايَٰتُۢ﴾: دلائل وعلامات ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ تدلُّ على حُرْمته وفَضْله. ويدخل في تلك العلامات: موضع المناسِك والمشاعر، كمِنى ومُزْدَلِفة، و﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو: الحَجَر الذي وقفَ عليه الخليلُ لبناء الكعبة، حينَ ارتفع البُنيان.

ومن المعجِزات: بقاءُ أثر قدمَيه في الصَّخرة الصَّمَّاء، وإلانةُ الصَّخرة لغَوصه فيها، وبقاء الأثر آلاف السنين!

وكان الحَجَر مُلتَصِقًا بالكعبة، فأخَّره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ناحية الشرق، لـمَّا كثُر المسلمون في الفتوحات؛ لئلَّا يتعارَض الطوافُ بالبيت مع الصَّلاة خلفَ المقام.

---

(١) انظر: الدرّ المنثور (٢/ ٢٦٧،٢٦٦)، تفسير الطبري (٦/ ٢٥،٢٤)، تفسير ابن كثير (٢/ ٧٨).
(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

وقال بعض المفسِّرين: المراد بـ(مقام إبراهيم): كلُّ مَقام قامَه الخليل في مناسِك الحج.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ أي: هذا البيت، والمراد: جميع الحَرَم؛ كما دلَّت على ذلك السُّنَّة ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: من السُّوء والأذى. وقيل: من النَّار، -يعني: إذا دخله معظِّما له، عارفا بحقّه، متقرّبا إلى الله-.

ومن هذا الأمن: أنَّ الطَّير والصَّيد فيه لا يُنفَّر، ولا يجوز أخذُه، وأنَّ الشجر والحشيش فيه لا يُقطَع، ولا يجوز قلعُه؛ ففي الحديث: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا الله، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»[1]، يعني: يقطعها.

وهذا الأمن في الحَرَم كان استجابةً لدعوة إبراهيم الخليل، عندما قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقد جعلَه الله تعالى آمِنًا شَرْعًا -قطعًا- وقدَرًا -في الغالب-؛ كما قال تعالى -ممتنًّا على قُريش-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولـمَّا كان تأمينُ الحَرَم وسيلةً لإقامة العِبادات فيه، ولـمَّا ادعى اليهود أنَّهم مسلمون؛ أمرَ الله تعالى بالحَجِّ؛ إظهارًا لفائدة الأمن، وكَشفًا لحقيقة مَن يدَّعي الإسلام، ثم لا يأتي بيته للحَجِّ، فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) للاستِحقاق، أي: يجب حقًّا لله ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: أن يَقصِدوا بيتَه لأداء المناسك، على الوَجْه الذي شرَعَه.

وقد خطبَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ»[2].

وفي حديثٍ آخر: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا، وَلَوْ لَمْ تَقُومُوا بِهَا عُذِّبْتُمْ»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٨٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٧٧).

وقوله تعالى ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ﴾ وأطاقَ وقدَر ﴿إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ أي: بلوغَ البيت، بوجود راحلةٍ وزادٍ ونفقةٍ لعياله، مع أمن الطريق، حتى يَرْجِع.

وقوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بهذه الفريضة، سواء كُفرًا أكبر بجَحْدها، أو كُفرًا أصغر بتَرْك أدائها مع الاستطاعة والإقرار بوجوبها؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: مُستغنٍ ﴿عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وعن حَجِّهم وعبادتهم.

وقال صَحَّ عن عمرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «مَن أطاقَ الحَجَّ، فلم يَحُجَّ؛ فسواءٌ عليه يهوديًّا ماتَ أو نصرانيًّا»[(١)].

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ أول بَيت وُضِع للعبادةِ، وإتيانِ الناس إليه في الأرض، هو الكعبة.

ودلَّ الحديث على أنَّ آخر بيت وُضِعَ، يأتيه الناس للعبادة، هو المسجد النبويّ، وبينهما بيت المقدِس، وهذه هي المساجد الثلاثة التي يجوز السفر وشَدُّ الرِّحال إليها للعبادة.

وفيها: أنَّ المسجد الأسبَق في الإقامة أفضل، ما لم يتميَّز الآخَر بفضائل أخرى؛ فالأوَّليَّة أحدُ أسباب التفضيل في المساجد.

وفيها: رَدٌّ على اليهود، الذين قالوا: إنَّ بيت المقدِس أولى من غيره بأن يكون قِبلَة تُستقبَل في الصَّلاة.

وفيها: أنَّه ينبغي على أهل الحَرَم المكيِّ السَّعْيُ في هداية الناس، والأَخْذُ بالأسباب التي تجعل من الحَرَم هدايةً للعالمين.

وفيها: أنَّ إقامة الشعائِر في المسجد الحرام، والتوجُّه إلى الكعبة في الصَّلاة؛ من أسباب الهداية.

وفيها: أنَّه لا تصلُح قُلُوب الناس إلَّا ببيت يجتمِعون عليه، وتهوي أفئدتهم إليه.

وفيها: أنَّ البيت الحرام قد حلَّت فيه البرَكة قَدَرًا وشَرْعًا؛ فينبغي التماسُها وإصابتُها هناك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥).

وفيهـا: فضيلةٌ عظيمةٌ للمسـجد الحرام؛ بـما جعلَ الله فيه من الآيـات البيِّنات، الظاهرة لكلِّ أحد، ومنها: الكعبة، ومَقام إبراهيم، وماء زمزم، وغيرها.

وفيها: فضيلة ظاهرة لإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ مقاماتِه في المناسِـك صارَت شـعائرَ لجميع الناس.

وفيها: وجوب الحِرْص البالغ على تأمين منطقةِ الحَرَم، ومَن يدخلها.

وفيها: قوَّة ورَهْبة هذا الحَرَم المكيّ، الذي أذلَّ أعناق الجبابِرة.

وفيها: بيان حقِّ الله على عباده بالحجِّ، ورحمة الله بهم؛ حيث قيَّد الوجوب بالاستِطاعة.

وفيها: أنَّ إطلاق (الاستِطاعة) في الآية، يُفيد شـمولها للبدَن والمال؛ فمَن استطاع بماله دون بدَنـه؛ وجـبَ عليه الحـجُّ عن طريق الاسـتِنابة. ويدخل في الاسـتطاعة: الاسـتطاعة الشرعيَّة، كأن تجد المرأةُ القادرةُ على الحجّ محْرَمًا.

وفيها: أنَّ تارك الحجِّ يكفر كُفرًا أكبر أو أصغر، بحَسَب حاله.

وفيها: أنَّ الله لم يأمُر عباده بالحجِّ لينتَفِع بذلك؛ فهو سـبحانه غنيٌّ عن العِباد وعبادتهم، كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[(١)].

وفيها: أنَّ استِغناء الله عن العالَم، يلزَم منه أن يكونوا جميعًا فقراءَ إليه.

وفي الآيتين: قِدَمُ الصَّلاة والحجِّ، وأنَّهما في شرائع الأنبياء السابقين.

وفيهـا: فَضْل الكعبة، فالآمِر ببنائها هو: المولى الجليل، بواسـطة الأمين جبريل، والقائم بالبُنيان: إبراهيم الخليل، والمساعد له: ولده إسماعيل.

وفيهـا: أنَّ إتيـانَ البيت للعبادة من أسـباب الأمن من الذُّنوب، والخـروج منها، وإتيانه للنُّسُك سببٌ للأمن من النَّار.

وفيهـا: أنَّ الغالِـب -واقعًـا- على حـال الحَرَم هـو الأمن، حتى إنَّ أهـل الجاهليَّة

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

-وهم أرباب شِرك- كان أحدهم لو وجدَ قاتِلَ أبيه أو أخيه في الحَرَم؛ لم يتعرَّض له بأذى(١).

وفيها: عِظَم جُرْم مَن خرق أمنَ الحَرَم، وخالفَ شَرْع الله، كالقرامِطة، والحجَّاج بن يُوسُف الثقفيّ الظالم.

وفيها: أنَّ الأشخاص يتفاوَتون في الاستطاعة، بُعدًا وقُربًا، غنىً وفقرًا، صِحَّةً ومَرَضًا، خَوفًا وأمنًا.

وفيها: فضيلة عظيمة للحَرَم؛ حيث اختُصَّ بعباداتٍ لا تؤدَّى في غيره، وأجرٍ وفَضْلٍ فيه لا يُكتسَب إلَّا فيه؛ كالطواف، وتقبيل الحَجَر الأسود، والصَّلاة فيه بمائة ألف صلاة.

وفيها: أنَّ مِن وسائل تحبيب الناس في العِبادة: الابتداء بذِكْرِ فَضْلها، وشَرَفِ مكانها؛ لتتشوَّق النفوسُ إليها، وتُسارِع إلى أدائها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

ثم أمرَ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن كُفرهم، توبيخًا؛ فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ أي: لأيِّ سببٍ تُعانِدون وتُنكِرون وتجحَدون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي دلَّتكم على صِدق النبيِّ ﷺ فيما جاء به، من وجوب الحجِّ وغيره.

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾: هذا تهديدٌ من الله تعالى، بأنَّه شاهدٌ على كُفرهم، ومطَّلعٌ على أعمالهم السيِّئة، وسيُجازيهم عليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مَن كفرَ بآيات الله؛ فهو مستَحِقٌّ للتوبيخ.

وفيها: خطورةُ الكُفر بآيات الله، وهذا يشمل: آياته الكونيَّة، والكُفر بها يكون: بإنكارِ أنَّ الله خالقُها، أو اعتقادِ أنَّ له شريكًا في إيجادِها، أو مُعينًا له فيها.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٢٩)، تفسير ابن كثير (١/ ٤١٣)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٢٦).

وآياتـه الشرعيَّـة، والكُفـر بها يكـون: بتكذيبِ مجيئها من عنـد الله، أو رَدِّهـا ومخالفتها. والمخالفةُ التامَّة لجميع الآيات الشرعيَّة كُفرٌ أكبر، وإذا خالفَ بعضَها -لهوًى ونحوه- فهو كُفر أصغر.

وفي الآية: إثبات شهادة الله تعالى على أعمال بني آدم، وأنَّه يُحصيها.

وفيها: أنَّ حديث النفس بالشرِّ لا يُؤاخَذ عليه الإنسان، إلَّا إذا عَمِلَ به بقَلْبِه اعتقادًا، أو بلسانِه وجوارحه.

وفيهـا: إقامـة الحُجَّة على أهل الكتاب، وإظهار عَجْزهم عـن إقامة العُذر على كُفرهم؛ لأنَّ من معنى الآية: هاتوا عُذرَكم بعدَم اتِّباعكم لآيات الله. فلم يأتوا بشيء.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

ولـمَّا أمرَ الله نبيَّه ﷺ بتوبيخ أهل الكتاب على كُفرهم -القاصرِ على أنفُسِـهم-؛ أمرَه -ثانيةً- بتوبيخهم على شرِّهم المتعدِّي إلى غيرهم؛ فقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ أي: لأيِّ شيء وبـأيِّ حُجَّـة تمنَعون وتَصرِفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينـه وشَرْعه -وهو الإسـلام-. وأُضيف (السَّـبيل) إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي وضعَـه للخَلْـق ليسـلُكوه، وهو الـذي يُوصِلهم إليه سـبحانه، فـ(سـبيل الله): هو الطريق المُوصِل إليه، وإلى جنَّته وثوابه.

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بالإسلام، من الرِّجال والنساء، فتَفتِنوهم عن دينهم ليكفروا، أو تُغروهم وتستَميلوا قلوبَهم ليتركوا دينَهم الحقَّ.

وقوله ﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي: تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ يعني: مائلةً عن الحقِّ ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي: والحال أنكم شُـهَداء على ما تفعلون، وشُهَداء ترَون وتسمَعون معجِزات النبيِّ ﷺ، التي تدُلُّ على صِدقه، وشُهَداء على الحقِّ، بما تشاهِدون من علاماته وآياته.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: ليـس بتاركٍ ولا سـاهٍ ولا ناسٍ ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفر والصَّدِّ، فيحصي عليكم أعمالكم، ثم يُجازيكم عليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من أقبحِ الأمور ألَّا يكتفي الكافر بالكُفر في نفسه، حتى يجرَّ غيرَه إليه، ويُوقِعَه فيه.

وفيها: خطورةُ الصدِّ عن سبيل الله، والعُدوان على الغير.

وفيها: أنَّ مَن ثبَّط غيرَه عن الخير ورغَّبه في الشرِّ؛ ففيه شَبَهٌ من اليهود والنصارى.

وفيها: خطورة الصدِّ عن سبيل الله بأيِّ وسيلة، سواءً كان بإعلان الجَحْد والإنكار، أو التشكيك وإلقاء الشُّبُهات، أو بفِتنة ضَعَفة المسلمين -بالسُّخرية منهم، أو اضطهادهم، أو استِمالتهم، أو إغرائهم ليهجُروا دينَهم- أو بتأليب بعضِ الأعداء على هذا الدِّين، أو بمَنْع مَن يريد الدُّخولَ فيه من الدخولِ فيه، أو القيام بتشويه سُمعة أهله، أو تنفير الآخَرين عنه بالدِّعايات الباطلة -بالمقالات والكتب والأفلام ونحوها-.

وفيها: خطورة الاعوِجاج عن الصِّراط المستقيم، بتَرْك ما أمرَ الله به، أو فِعْل ما نهى عنه: فالاعوِجاج في الأوامر يكون بالتهاون فيها والتفريط، أو الإفراط والغُلُوّ. والاعوِجاج في النواهي يكون بانتهاكها وارتكابها.

وفيها: الحثُّ على لزومِ الشَّرْع والتمسُّكِ به، ولو تكالبَ الأعداءُ على المسلمين.

وفيها: أنَّ رَفْع الخير أشدُّ قُبحًا وضَرَرًا من مَنعه.

وفيها: أنَّ التسبُّب في رِدَّة المسلم، أسوأُ من التسبُّب في بقاء الكافر على كُفره. وأنَّ رَفع الخير عن الغَير، أسوأُ من مَنع وصولِه إليه.

وفيها: أنَّ رؤساء أهل الكتاب يميِّزون الحقَّ من الباطل، ويعلمون صِحَّة دين الإسلام.

وفيها: توبيخُ أهل الكتاب جميعًا؛ لأنَّ عوامَّهم تَبَعٌ لكُبَرائهم وعُلمائهم ومُجرِميهم، المعانِدين والصادِّين عن سبيل الله.

وفيها: أنَّ أحبار أهل الكتاب أشدُّ جُرمًا من عوامِّهم؛ لأنَّهم مِن أكبر الشُّهَداء على الحقِّ، وأكثرِ الناس معرفةً به، ولأنَّهم مُوثوقون ومرضيُّون ومتَّبَعون عند عوامِّهم.

وفيها: قُبح جريمة مَن يكفر بالحقِّ وهو يَعقِل ويفهم، ويشهَد دلائلَه وآياتِه.

وفيها: كمالُ مُراقبة الله تعالى لخَلْقه؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وفيها: انتِفاءُ الغَفلة عن الله تعالى، وتنزيهُه عن تَرْك مُجازاة المُجرِمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾:

ولـمَّا كان أهل الكتاب بهذه الخطورة، وهذا القَدْر من الشرِّ؛ حذَّر الله تعالى عبادَه المؤمنين من طاعتهم؛ فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: النِّداء بالإيمان إغراءٌ لقَبول ما يأتي من خبرٍ للتصديق به، أو أمرٍ ونهيٍ لامتِثاله.

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾ أي: تُوافِقوا وتتَّبِعوا ﴿فَرِيقًا﴾ جماعة وطائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم: اليهود والنصارى، والمقصود: رؤساؤهم وأحبارهم، ورؤوس الشرِّ منهم؛ ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ بما يَسْعَون إليه من تشكيكِكم، وإلقاءِ الشُّبُهات بينكم، أو جرِّكم إلى تقديم تنازُلات تُخرِجكم عن الإسلام، أو بما يُريدون من إشعالِ الفِتنة بينكم وإغرائِكم بالاقتِتال.

وقد رُوي أنَّ شاسَ بنَ قَيْس اليهوديَّ -وكان عظيمَ الكُفر، شديدَ الطَّعْن في الإسلام- قد تمالأَ مع بعض مَن معه، لتذكير الأَوْس والخَزْرَج بما كان بينَهم من الحروب والثارات أيَّام الجاهليَّة؛ تهييجًا لهم على الاقتِتال أو الفِتنة عن الدِّين؛ فنزلَت هذه الآيةُ[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحذير المؤمنين من مَكْر اليهود والنصارى، وأنَّهم يسعَون في إخراجنا عن ديننا، بل يوَدُّون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ومَن ودَّ شيئًا سعَى في تحقيقه بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ طائفةً من أهل الكتاب يَسْعَون لتحقيق أسوإ ما يُمكِن فِعْله بالمسلمين، وهو الرِّدَّة، بإخراجِهم من الإيمان إلى الكُفر.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٦)، تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيها: التحذير من طاعة الكفَّار، وأنَّ الاستجابة لهم ستؤدِّي إلى الهلاك، إمَّا في الدُّنيا -كالاقتِتال بين طوائف المسلمين- أو في الآخرة -بالعذاب على الرِّدَّة-.

وفيها: تحذير المسلمين من سَعْي أهل الكتاب لإخراجهم عن دينهم، وإن أظهَروا المُسالَمة والمُداهَنة، والصَّداقة والولاية؛ لأنَّهم يستَعمِلون سائر الوسائل لاستِدراج المسلمين إلى الكُفر، بالتمويهِ والتلبيسِ بالشِّعارات الكاذِبة، والطعْنِ والتشكيكِ في التشريعات، والتدرُّج في ذلك.

وفيها: أنَّ حِرْص أهل الكتاب على إخراج المسلمين من دينهم، إنَّما هو لأجل ما يَرون من تمسُّك المؤمنين بإيمانهم ووَحدَتهم.

وفيها: بيان أنَّه قد يوجد في أهل الكتاب مَن لا يشتَغِل بالسَّعْي في رِدَّة المسلمين، لكن كثيرًا منهم يعمَلون على ذلك؛ بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، وهم مستَتِرون يخفَون علينا؛ فوجبَ الحَذرُ من الجميع.

وفيها: أنَّ هؤلاء المفسِدين لا يرضَون منَّا بما دون الكُفر. ولو أظهروا القَبول بشيءٍ دونه؛ فإنَّما يفعلون ذلك استِدراجًا للمسلمين، لإيقاعهم في الرِّدَّة، وهي أعظمُ غاياتِهم ومَطالِبهم.

وفيها: الحذَر من التبعيَّة لليهود والنصارى، والتشبُّه بهم، ووجوب ممانعتِهم وعدم طاعتهم.

وفيها: الحذَرُ من أساليب أهل الكتاب الخبيثة في إضلال المسلمين وإغوائهم؛ ومنها: الدَّعوة إلى دينهم في قالب النُّصح والترغيب والترهيب، والتنوُّع في الدعوة إلى القَبول بمبادِئهم وأفكارِهم؛ كالدعوة إلى الدِّيمقراطيَّة والحريَّة المُطلقة، ومُساواة المرأة بالرجل، والدَّعوة إلى التبرُّج والسفور والاختِلاط، واعتِماد القوانين الجاهليَّة الوضعيَّة الأرضيَّة المُصادِمة للشريعة، والدَّعوة إلى حُريَّة الاعتِقاد، والتقارُب بينَ الأديان، وإزالة الفوارِق بينَ المسلم وغيره، وفَصْل الدِّين عن الحياة العمليَّة، وتَرْك بعض التشريعات -كالحجاب، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، والجهاد- والحدّ من التعليم الدِّينيّ الشرعيّ، واعتماد التفسير الماديّ في الأحداث والحياة.

ومن ذلك: إطلاق حريَّة التجارة من جِهَتهم، بما يمكِّنهم من السَّيطرة والهَيمنة على اقتصاد المسلمين، وإيقاعهم في الرِّبا، والدَّعوة إلى البَعْثات الخارجيَّة -خاصَّة للطُّلاب، وللنِّساء من غير مَحْرَم-؛ ليتشبَّعوا بأفكارِهم وثقافاتِهم ومعتقداتِهم، ثم يعودوا لبَثِّ السُّموم ونشر الأفكار الهدَّامة في المجتمعات المسلمة.

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى استِبعادَ وقوع الكُفر من أصحاب نبيِّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يُعاينون تنزيله ويتعلَّمون تأويلَه؛ فقال:

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ﴾: الاستِفهام للاستِبعاد والتعجُّب، يعني: أنَّ الكُفر بعيدٌ منكم -يا أصحاب النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحاشاكم منه.

﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزِل ليلًا ونهارًا، فيتلوها عليكم نبيُّكم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويبلِّغكم إيَّاها غضَّةً طريَّةً، فيها البيان والهدى. ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥ﴾ أي: معكم، يعلِّمكم الكتاب والحِكمة.

وقد قال النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا لأصحابه: «أَيُّ الخَلْقِ أَعْجَبُ إِيمانًا؟»، قَالُوا: الملائِكَةُ، قَالَ: «المَلائِكَةُ كَيفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قَالَ: النَّبِيُّونَ، قَالَ: «النَّبِيُّونَ يُوحَى إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ؟!»، قَالُوا: الصَّحَابَةُ، قَالَ: «الصَّحَابَةُ يَكُونُونَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، فَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ؟! وَلكِن أَعْجَبَ النَّاسِ إِيمانًا: قَوْمٌ يجيؤون من بَعْدِكُمْ، فَيَجِدُونَ كِتَابًا من الوَحْيِ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَهُ، فَهُمْ أَعْجَبُ النَّاسِ -أَوِ الخَلْقِ- إِيمانًا»[1].

فمن أين يَتطرَّق الكُفر إلى الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والحال أنَّ آيات الله تُتلَى عليهم، ونبيُّهم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير بها فيهم، ويمتثِلها، ويبيِّنها لهم؟!

﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يتوكَّل عليه، ويستَعِنْ به، ويلجأْ إليه، ويَسْتَمسِكْ بدينه وكتابه؛ ﴿فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: طريق واسعٍ غيرِ مُعْوَجٍّ، وهو الإسلام المؤدِّي إلى الجنَّة.

(١) رواه البزار (٧٢٩٤)، وهو في الصحيحة (٣٢١٥).

وقد قال النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

تيئيس أهل الكتاب -مهما حاولوا- من نَيل مُرادهم في ارتداد أصحابِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولذلك كانت الرِّدَّة في عَهده صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نادرةً، وإنَّما ارتدَّ بعضُ الناسِ بعد موته.

وفيها: رَدٌّ على بعض المبتدِعة، الذين يقولون: إنَّ أصحابَ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ارتدُّوا بعدَه وكفروا -إلَّا أربعة، أو سبعة-! وهذا من أعظم الظُّلْم للنبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نفسِه؛ لأنَّ فيه اتِّهامًا له بالفَشَل في تربية أصحابه -وحاشاه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- بل فيه اتِّهام لله تعالى بأنَّه اصطفى لنبيِّه وخير خلقه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابًا، يعلَم أنَّهم لن يثبُتوا على الدِّين، وسيقعوا في الرِّدَّة! سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عمَّا يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا.

وفيها: أنَّ الاعتِصامَ بكتاب الله، والإقبالَ على حديث رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ أعظمُ مانعٍ يمنع من الكُفر.

وفيها: فَضْل الله تعالى على الصَّحابة، بأن جعلَ نبيَّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم وبينهم، وقد قال عبدُ الله بنُ رَوَاحَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذه النِّعمة:

وفينا رَسُولُ الله يَتْلُو كتابَهُ ... إذا انشَقَّ مَعْروفٌ منَ الفِجْرِ ساطِعُ
أَرَانا الهُدَى بعدَ العَمَى، فقُلُوبُنا ... بـهِ مُوقِناتٌ أنَّ ما قالَ واقِعُ
يَبِيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عَنْ فِراشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكِينَ المَضاجِعُ[2]

وفيها: أنَّ العيش والمُخالَطة للقُدوات العظيمة، من أسباب الثَّبات على الدِّين.

وفيها: أثرُ أهل العِلْم والقُدوة في دفعِ الشُّبَه، وتثبيتِ الناس على الدِّين.

وفيها: أنَّ بقاء أنوار الكتاب والسُّنَّة بينَ الناس -ببيان تفسير القرآن، وشروح الحديث- يُثبِّتهم، ويُبْعِدهم عن الرِّدَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (١١٥٥).

وفيها: أنَّ اللُّجوءَ إلى الله واللِّياذَ به، من أعظم وسائل الثَّبات على الدِّين.

وفيها: أنَّ مَن لجأ إلى الله عند الشُّبُهات، وفَزِعَ إليه عند وَسْوَسة شياطين الإنس والجنِّ؛ فإنَّ الله يَعْصِمه ويُثَبِّته.

وفيها: ضمانُ الهداية وتأكيدُ وُقوعِها لمن يعتَصِم بالله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى ثباتَ أصحاب نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدِّين؛ أمرَهم بالتَّقوى، وأوصاهم بالاستِمرار على الثَّبات حتى الممات؛ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فسَّر ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّقوى بقوله: «أن يُطاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، ويُشكَر فلا يُكفَر»[(١)].

وقوله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: أبلَغ التَّقوى وأدوَمُها وأكمَلُها، باستِفراغ الوُسْعِ في اتِّخاذ وقاية من عذاب الله، بِفِعْل أوامره، واجتِناب نواهيه.

وقال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: «أن يُجاهِدوا في سبيله حقَّ جِهاده، ولا تأخذهم في الله لومةَ لائِم، ويقوموا لله بالقِسْط ولو على أنفُسِهم وآبائهم وأبنائهم»[(٢)].

وقد قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال آخرون: ليست منسوخة؛ بل هي مقيَّدة ومفسَّرة بهذه الآية، يعني: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: حافِظوا على الإسلام في حال صِحَّتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه؛ فإنَّ الكريم سبحانه قد أجرى عادته أنَّ مَن عاش على شيءٍ مات عليه، ومَن مات على شيءٍ بُعِث عليه؛ ولذا قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٢٩٧)، والحاكم في المستدرك (٣١٥٩)، وإسناده صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»(٢).

وذكرَ الله تعالى من أدعية الصالحين: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١].

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب العِناية والاهتِمام بالتَّقوى، وأنَّها من مُقتَضيات الإيمان.

وفيها: وجوب المبادَرة إلى الإسلام، والبقاء عليه.

وفيها: أنَّ مَدار المصير على الخاتمة، وأنَّ على المسلِم ألَّا يُغيِّر ولا يبدِّل. وبهذا تظهر العَلاقة بينَ هذه الآية، وقوله تعالى في آيةٍ قبلَها: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وفيها: الاستِعداد للموت بعمل الصالحات؛ ليحصُلَ التوفيق، للثَّبات على الإسلام حتى المَمات.

وفيها: إشارةٌ وتحذيرٌ ممَّا بعد الموت.

وفيها: أنَّ التَّقوى في القُلُوب تتفاوَت.

وفيها: بيان العَلاقة بينَ التَّقوى وحُسن الخاتمة.

وفيها: أنَّ مَن كان في حال صِحَّته ونشاطه مُداوِمًا على تقوى الله وطاعته والإنابة إليه؛ ثبَّته الله عند موته، ورزقَه حُسنَ الخاتمة.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣﴾:

ثم بيَّن الله تعالى وسيلةَ الثَّبات على الدِّين حتى المَمات؛ فقال:

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تمسَّكوا بدينه الذي شرَعه -وهو الإسلام- وبكتابه -وهو القرآن-. و(حَبْل الله): هو عَهده وكتابه وشَرْعه، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه المُوصِل إليه، وأُضيف إلى (الله)؛ لأنَّه هو الذي أنزلَه.

وقوله ﴿جَمِيعٗا﴾ أي: كلُّكم، فكونوا مجتمِعين على التمسُّك به. وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ...» الحديث[١].

وفي روايةٍ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ من الآخَرِ: كِتَابُ الله، حَبْلٌ مَمْدُودٌ من السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي...»[٢].

قال عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «حَبْل الله: القرآن»[٣]، وقال أبو العالية رحمه الله: «اعتصِموا بالإخلاص لله وحدَه»[٤].

وقوله ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي: كما تفرَّق الذين من قبلِكم شِيَعًا وأحزابًا، ولا تختَلِفوا اختِلافَ أهل الجاهليَّة -يقتُل بعضهم بعضًا-. والنهيُ عن التفرُّق هنا يتضمَّن الأمر بالاجتِماع. فالمعنى: لا تفرَّقوا، وعليكم بالجماعة.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ»[٥].

ومن مزايا هذه الأُمَّة: أنَّها لا تجتمِع على ضلالةٍ، وإجماعها معصومٌ؛ كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي -أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ- عَلَى ضَلَالَةٍ»[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٨٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٣) رواه الدارمي في سننه (٣٣١٧)، بإسناد صحيح.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٤).

(٥) رواه مسلم (١٧١٥).

(٦) رواه الترمذي (٢١٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨).

﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ بألسِنتكم وقُلُوبكم، وتذكَّروا ما كنتُم فيه في الجاهليَّة من العداوة والتفرُّق، وما أصبحتُم عليه في الإسلام من الأُلْفة والاجتماع. وهذه هي ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ومِنَّته وفَضْله ﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ تتقاتَلون بينكم، في حروبٍ وفِتَن وثارات.

وقد قال النبيُّ ﷺ للأنصار -وهم الأَوْس والخَزْرَج-: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟»[(١)].

وهذا معنى قوله ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: جمعَها على المحبَّة؛ ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ صِرْتم ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ وهي: نِعمة الإسلام، الذي أنعمَ اللهُ به عليكم ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ في الدِّين، متحابِّين مجتَمِعين.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ...» الحديث[(٢)].

﴿وَكُنتُمۡ﴾ -يا معشر الأَوْس والخَزْرَج- قبل الإسلام ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ أي: طَرَف وحَرْف ﴿حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ من جهنَّم، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلَّا أن تموتوا على كُفركم؛ ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ ونجَّاكم.

قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي: يُظهِر ويُفصِّل ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وهي: العلاماتُ الدالَّة على رُبوبيَّته ووحدانيَّته وحِكمته، سواءً في ذلك الآيات الكونيَّة، أو الشرعيَّة.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ هدايةَ الدّلالة والإرشاد، وهدايةَ التوفيق إلى الحقِّ، فتخرُجوا من الضَّلالة، وتسلُكوا سبيل الاستِقامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوبُ الاجتماع على طاعة الله.

وفيها: وجوب التحاكُم إلى شَرْع الله.

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) -واللفظ له-.

(٢) رواه مسلم (١٨٤٨).

وفيها: أنَّ اجتِماع الأُمَّة عِصمةٌ لها من الباطل، وعِصمةٌ لها من الأعداء، وإذا تفرَّقت: وقعَت في البِدعة والضلالة، وتسلَّط عليها أعداؤها.

وفي الآية: تحريم تفرُّق القُلُوب، أما تفرُّق الأبدان والاجتِهادات: فلا بأس به، لكن بلا هِجران، ولا تعصُّب.

وفيها: استِحضار نِعَم الله على العبد، والتحدُّث بها.

وفيها: أنَّ التفرُّق سبَبٌ لسَلْب النِّعمة.

وفيها: فَضْل الله تعالى على الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ النَّارَ فيها حُفَرٌ للعذاب.

وفيها: تحريم الابتِداع في الدِّين.

وفيها: النهي عن كلِّ سبَب يؤدِّي إلى التفرُّق، كالتعصُّب للقبيلة، أو البلد، أو الجنسيَّة.

وفيها: خطورة الموت على الكُفر.

وفيها: أنَّ الاختِلاف في الرأي لا بأس به، إذا كان لا يؤدِّي إلى تنافُر القُلُوب.

وفيها: أنَّ الجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذاب.

وفيها: أنَّ الجماعة من أعظم نِعَم الله على العبد، بعد الهداية إلى الإسلام.

وفيها: أنَّ الاعتِصام بشَرْع الله، وشُكر نِعمته؛ من أسباب الهداية.

وفيها: مِنَّة الله تعالى على المؤمنين، بالتأليفِ بينَ قُلُوبهم، والإنقاذِ من النَّار، وتبيينِ الآيات.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى مِنَّته على الصَّحابةِ والمُؤمنين؛ ذكَّرهم بما يجب عليهم تجاه دينِهِ؛ فقال:

﴿وَلۡتَكُن﴾ (اللام) للأمر، أي: ولْتوجد ﴿مِّنكُمۡ﴾ يا معشر المُؤمنين. والمعنى: بعضكم، أو: ولتكونوا أنتم جميعًا ﴿أُمَّةٞ يَدۡعُونَ﴾ أي: جماعةٌ قائمةٌ ومُنتَصِبةٌ يَدْعُون الناس ﴿إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾: يشمل خيرَ الدُّنيا والآخرة، وما فيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم.

﴿وَيَأۡمُرُونَ﴾ الناس ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (المعروف): كلُّ ما استحسنَه الشَّرْع وأقرَّه، وهو معروفٌ عند العُقلاء وأصحاب الفِطَر السليمة.

﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ (النهي): طلَب الكفِّ عن الشيء، أي: يطلبون من الناس أن يكُفُّوا ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾. و(المُنكَر): ما أنكرهُ الشَّرْع، وعرَفَ قُبحَه العُقلاءُ، وأصحابُ الفِطَر السليمة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدَّاعون إلى الخير، الآمِرون بالمعروف، الناهُون عن المُنكَر ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الذين أدرَكوا ما طلَبوا، ونجَوا من شرِّ ما منه هرَبوا؛ فجمَعوا بينَ السَّلامة والغنيمة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه يجب أن يكون في الأُمَّة مَن يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، فإن لم يحصُل الاكتفاءُ ببعضِهم؛ وجبَ على جميع الأُمَّة القيام بذلك، وإلَّا أثِموا جميعًا، وكان الجزاء كما قال النبيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْه، ثُمَّ تَدْعُونَه فَلَا يُسْتَجابُ لَكُمْ»[1].

وفيها: فضيلةُ الدَّعوة إلى الخير، والترغيبُ فيه، والحثُّ عليه، وأنَّ هذا من صفات أهل الفلاح.

وفيها: أنَّه يجب إعداد مَن يقوم بفريضة الدَّعوة، والأمر، والنهي، ويُحسِن ذلك.

وفيها: أنَّه يجب الاستِمرار في العمل بهذه الواجبات الثلاثة -الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، و النهي عن المُنكَر-؛ حتى يتحقَّق البلاغُ والمقصودُ الشرعيُّ.

وفيها: أنَّ فضيلة هذه الأُمَّة وشَرَفها؛ نابعٌ من القيام بهذه الواجبات الثلاثة.

(١) رواه الترمذي (٢١٦٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وفيهـا: أنَّ هـذه الأمور الثلاثة فـرضٌ على الكفاية؛ بدليل: (لام الأمــر) في قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن﴾.

وفيهـا: أهميَّـة الإخلاص في الدَّعـوة؛ لأنَّ هؤلاء الدُّعاة يَدْعون النـاس إلى الخير، لا إلى أنفُسِهم.

وفيهـا: وجـوب تعلُّم الخير -لأجـل الدَّعوة إليه-؛ فـلا بُدَّ للداعية مـن العِلْم بالشَّرْع، والعِلْـم بالحال، وهذا يشـمل: معرفة شُـؤونِ المدْعُوِّين، ولُغَتِهم، والوسـائلِ والأسـاليبِ الناجِحة، والمُناسِبة في دعوتهم.

وفيها: أنَّ الدَّعوة الصحيحة هي الدَّعوة إلى الكتاب والسُّنَّة، لا إلى آراء الرِّجال، ولا إلى مُوافَقة الدَّاعي على ما هو عليه.

وفيهـا: نُصرة الدُّعـاة والآمِرين بالمعـروف والناهين عن المُنكَـر، وتأييدهم وإعانتهم، وإكرامهم؛ لأنَّهم من أهل الفلاح، القائِمين بأمر الله.

وفيها: الدَّعوة إلى الخير بالقول والعمَل، والكَلِمة والقُدْوة.

وفيهـا: أنَّ هـذه الأمـور الثلاثة المأمـور بها، تُبـيِّن هُويَّة هـذه الأُمَّة، وتُجلِّي شـخصيَّتها، وتميُّزها.

وفيها: فضيلة الأمر بالمعروف، سواءً كان المعروف واجبًا أو مُستحبًّا، وأمَّا المُنكَر: فإنَّه كلَّه محرَّم.

وفيهـا: أنَّ أولى النـاس بهذه الآية هـم: أصحاب العِلْم، وأصحاب السُّـلطان؛ لقُدرتهم على القيام بهذا الواجب العظيم.

وفيها: أهميَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر؛ فمع أنَّهما يدخلان في الدَّعوة إلى الخير، لكن خصَّهما الله تعالى بالذِّكر؛ لخطورةِ شأنهما.

وفيهـا: أنَّه لا تعـارُض في الجَمْع بينَ خيرِ الدُّنيا -كالبيع والـشِّراء والنِّـكاح- والآخرة -كالصَّلاة والصيام والحَجِّ-.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى عبادَه بالاجتماع، وإقامةِ الدِّين بالدَّعوة إليه؛ حذَّرهم من التفرُّق والاختِلاف؛ فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾ -يا معشرَ المؤمنين- ﴿ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ ﴾ وتنافَرت قُلُوبهم بالعداوة، كاليهود والنصارى ﴿ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ في الدِّين، وكانوا شِيَعًا وأحزابًا ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: الآيات الواضِحات، الدالَّة على الحقِّ.

وفي الحديث: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ من أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»(١).

وفي رواية: «كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢).

ثم ذكرَ تعالى عاقبةَ المختَلِفين؛ فقال: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ دلالةً على انحِطاط مرتَبتهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدُّنيا: بالاقتِتال والضَّعْف والذُّلِّ، وفي الآخرة: بالعذاب الأليم في النَّار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

النهي عن التشبُّه بأهل الكتاب.

وفيها: التحذير من الوقوع فيما وقعَت فيه الأُمَم قبلَنا، من التفرُّق والاختِلاف.

وفيها: إقامة الله الحُجَّةَ على الناس، ببيان الآيات لهم.

وفيها: أنَّ التفرُّق لم يحصُل فيمَن قبلنا بسبَب الجهل؛ وإنَّما حصلَ بسبَب اتِّباعِ الهوى، وإعجابِ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، وبسببه نشأت البِدَع.

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وفيها: أنَّ التفرُّق في المناهِج والمسالِك يؤدِّي إلى اختلاف القُلُوب، والشَّحناء والبغضاء، والاقتِتال.

وفيها: خطورة الابتِداع في الدِّين، ثم التعصُّب للبِدعة.

وفيها: أنَّ البِدَع من أسباب تفرُّقِ الأُمَّة وهزيمتِها، وإراقةِ دمائها، وطَمَعِ الأُمَم الأخرى فيها.

وفيها: التحذير من الاختِلاف في أصل الدِّين. وأمَّا المسائل الاجتهاديَّة: فإنَّ اختِلاف آراء العلماء فيها ليس عيبًا، ولا مذمومًا؛ لأنَّ الله تعالى فاوتَ بينَ عقول العِباد، فلا يُمكن اتِّفاقُهم على رأيٍ واحد في كلِّ الأمور.

وفيها: أنَّ التفرُّق بعد بيان الحقِّ، أشدُّ قبحًا من التفرُّق بسبَب خفائه.

وفيها: وَعيدٌ من الله للمُبتدِعة في الأُمَم السابقة، وفي هذه الأُمَّة، بالعذاب العظيم.

ويؤخَذ من هذه الآية -مع التي قبلها-: أنَّ تَرْك الدَّعوةِ إلى الخير والأمرِ بالمعروف والنهي عن المُنكَر، من أسباب التفرُّق؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الخير تمنَع نُشوء البِدَع، وإنكار المُنكَر يقضي عليها إذا نشأت.

وفيها: أنَّ تَرْك البِدَع، والتمسُّك بالكتاب والسُّنَّة؛ سببٌ للوقاية من العذاب، وإنقاذ الغير منه.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾:

ثم بيَّن الله تعالى زمانَ وقوع هذا العذاب؛ فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ﴾ أي: فاذْكُروا يومَ القيامة، الذي تستنير فيه وتتلألأ ﴿وُجُوهٌ﴾ وهي: وجوه المؤمنين، ممَّا يرونَه من الفرَح والسُّرور بحسَناتهم.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي: وجوه الكفَّار، وأهل البِدَع المكفِّرة، بسبَبِ ما تراه من الكآبة والغَمِّ بسيِّئاتها.

وقد قرأ أبو أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآية، حينما رأى رؤوسَ الخوارج منصوبةً على دَرَج مسجدِ دمشق، بعد قَتْلِهم(١).

وهذا البياض والسَّواد الذي يقع للوجوه على حقيقته؛ وهو بسبَبِ ما يُبَشَّر به هؤلاء، وهؤلاء.

﴿فَأَمَّا﴾ (أمَّا) للتفريع والتفصيل ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ من المرتدِّين والمنافِقين والمبتَدِعة -أصحاب البِدَع المكفِّرة- ومَن كان مؤمنًا من أهل الكتاب ثم ارتدَّ بعد بِعْثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ كافر بعد الإيمان: فيُلقَون في النَّار، ويقول لهم الله تعالى وملائكتُه الزَّبانيَة: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: استِفهام توبيخي؛ أي: هل كان كُفركم إلَّا بعد إيمانِكم وظهورِ ما يوجب الإيمان -من دلائل التوحيد والنبوَّة-؟!

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ وادخُلوه. وفي هذا جَمْعٌ لهم بينَ الألم البدَنيِّ بالإحراق، والألم القَلْبيِّ النفسيِّ بالتوبيخ والإهانة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالله، ورسوله، وما أُنزِلَ عليه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقِسام الناس في الآخرة، كما انقسَموا في الدُّنيا.

وفيها: الجَمْع بينَ العذاب البدَنيِّ والنفسيِّ للكفَّار في الآخرة.

وفيها: أنَّ ما يقع يومَ القيامة للكفَّار بعضه أشدُّ وَطْأة من بعض؛ فمِن الشَّدائد والأهوال التي تصيبُهم: رؤية الأهوال بعد القيام من القبر، وعند قراءة الصُّحُف، وعند وزن الأعمال، وعند فتح أبواب النَّار.

وفيها: المُقابَلة بذِكر حال أهل الجنَّة وأهل النَّار، والمقارَنة بينهما؛ ليعظُم في نفس المؤمن رجاءُ رحمة الله، والخوفُ من عذابه.

وفيها: أنَّ نور الحقِّ الذي كان عليه صاحبُه في الدُّنيا، يُكْسِبه يومَ القيامة نورًا في وَجْهه، ونورًا على الصِّراط، ونورًا في الجنَّة. كما أنَّ ظُلْمة الباطل تُكْسِب صاحبَها ظُلْمةَ الوجه يومَ البَعْث، وظلمةً في النَّار.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٠٠)، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي: «حسن صحيح».

وفي هذه الآية: أنَّ سببَ سواد الوَجه هو الكُفر والبِدعة.

وفي آيةٍ أخرى: أنَّ سببه الكَذِب على الله، فقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي آية أخرى: أنها السيِّئات، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: ٢٧].

وفي آية أخرى: أنَّ سببه الفُجور أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢]، و(القَترة) هي: السَّواد.

وفي الآية: أنَّ الجزاء من جِنس العمل.

وفيها: أنَّ تبديل اللَّون يحصُل تبَعًا لتبديل الاعتقاد؛ فالتحوُّل من حال الإيمان إلى الكُفر في الدُّنيا، سيُقابِله تحوُّلٌ إلى السَّواد والعذاب يومَ القيامة، ولو كان صاحبُه في الدُّنيا أبيضَ مُنعَّمًا.

وفيها: أنَّ الناس يومَ القيامة يُعرَفون ويُميَّزون في السعادة والشَّقاء بألوانهم، خلافًا لحالهم في الدُّنيا؛ فلا فَضْل لأبيض على أسود ولا غيره، إلَّا بالتَّقوى.

وفيها: انكِشاف المجرِمين وافتِضاحهم يومَ القيامة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ الذين اسودَّت وجوهُهم من أهل الكُفر والبِدعة، وابتدأ بهم للتحذير من حالهم؛ عقَّب ذلك بذِكر حال أهل الإيمان؛ فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾: وهذا البياض حقيقيٌّ، وهو من استنارتها بالفَرَح والسُّرور؛ لِـما يرون من حسناتهم وثوابها. وهذا البياض عامٌّ لأهل الإيمان، من هذه الأُمَّة ومَن سبقها، ولكن لمؤمني هذه الأُمَّة زيادة بياضٍ خاصٍّ ونورٍ في أعضائهم؛ من أثَر الوُضوء.

ثم قال تعالى عن مصير المؤمنين جميعًا: ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ والمراد بها: الجنَّة ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون، لا يموتون، ولا يتحوَّلون ولا يُخرَجون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمنين لا يدخلون الجنَّة إلَّا برحمة الله، وأنَّ مِن رحمة الله: نجاتَهم من النَّار.

وفيها: فَضْل اتِّباع السُّنَّة.

وفيها: أنَّ خُلُود المؤمنين في الجنَّة يُراد به هنا: التأبيد؛ فهو خلودٌ أبديٌّ.

وفيها: إطلاق (الرحمة) على الجنَّة، والجنَّة أثر من آثار رحمة الله تعالى؛ فالرحمة رحمتان: رحمة مخلوقة، ومنها: الجنَّة، والرحمة التي أنزلها الله إلى الأرض يتراحَمُ بها العِباد والبهائم، والرَّحَمات التِّسع والتسعون التي أمسَكها الله عنده، والرحمة بالمطر.

ورحمة غير مخلوقة، وهي الرَّحمة التي هي صفة من صفات الله تعالى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾:

قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: حُجَجه وبيِّناته التي أنزلها، وهي: الآيات الشرعيَّة في كتابه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾: نقرؤها عليك -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بواسطة جبريل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نازلةً ومصحوبةً به، صِدقًا في الأخبار، وعَدْلًا في الأحكام، فهي من عند الله حقًّا بلا شكٍّ، ومتضمِّنة للحقِّ فيما اشتملَت عليه.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فلا يظلِم الذين ابيضَّت وجوهُهم ولا الذين اسودَّت وجوهُهم من عباده، ولا يأخذ أحدًا بغير جُرْم منه، ولا يزيد في عقابِ أحدٍ بغير ذنب، ولا يُنقِص من ثواب المُحسِن. وهو سبحانه ما أرادَ بها أنزلَه عليهم إلَّا هدايتهم. و(الظُّلْم): وضع الشيء في غير موضعه.

و(العالَمون): كلُّ شيء سوى الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إضافة (الآيات) إلى الله، والمقصود: آيات القرآن -وهي غير مخلوقة- وهذا من باب إضافة الصِّفة إلى الموصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلى خالِقه.

وفيها: أنَّ القرآن حقٌّ، نزل من الحقِّ تعالى، فلا شُبهة فيه، ولا باطلَ، ولا تناقُضَ، ولا اختلافَ.

وفيها: مَدحُ عظيمٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وبيان فَضْلِه على عباده؛ بأن حرَّم الظُّلْم على نفسه، ونفى إرادةَ الظُّلْم بعباده، ولو أرادَ سبحانه أن يُعَذِّب خَلْقه جميعًا؛ لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم؛ لأنَّه مالِكهم، يفعل فيهم ما يشاء.

وفي الآية: أنَّه إذا انتفَت إرادةُ الظُّلْم منه تعالى؛ انتفى الظُّلْم؛ لأنَّ الله لا مُكْرِه له، وما أرادَه فلا بُدَّ أن يكون.

وفيها: أنَّ تنعيمَ الأبرار وتعذيبَ الكفَّار لا ظُلْمَ فيه؛ بل هو من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ وعَدْله.

وفيها: إرشاد العِباد إلى مُجازاة المُحْسِن والمسيء، بما يستوجبُه عملُ كلٍّ منهما.

وفيها: إيماءٌ إلى أنَّ الكَفَرة هم الذين يظلِمون أنفُسَهم، بتعريضها للعذاب.

وفيها: نفي الظُّلْم القليل والكثير عن الله تعالى؛ لقوله في الآية: ﴿ظُلۡمٗا﴾، والنَّكِرة في سياق النفي تُفيد العُموم.

وفيها: أنَّ الله لا يُريد ظُلْمًا بالعِباد، لا فيما شرَعَه لهم من الأوامر والنواهي، ولا فيما يَصيرون إليه من الثواب والعقاب.

وفيها: أنَّ بيان الوَعْد والوَعيد قبل إقامة دار الثواب والعقاب؛ يدلُّ على تمامِ عَدْل الله، وعدمِ إرادته الظُّلْمَ بعباده.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه لا يُريد ظلمًا للعالَمين؛ بيَّن سَعَة مُلكه واستغناءَه عنهم. والظالم إنَّما يظلِم غيرَه، ويُنقِصه حقَّه أو يعتَدي عليه؛ ليزدَاد هو مالًا أو سُلطانًا، والله مُستَغنٍ عن ذلك؛ لأنَّ له مُلك السماوات والأرض.

فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: تقديم الخبر على المبتدأ هنا يُفيد الحَصْر؛ أي: أنَّها له لا لغيره. وهذا يشمل ما فيهما من: الملائكة، والجنّ والإنس، وجميع المخلوقات. فهي له مُلكًا، وخَلْقًا وإيجادًا، وتدبيرًا، ومصيرًا.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: تصير إليه أمورُ الخلائق وشُؤونها، فيحكُم فيها بما يشاء، ولا مفرَّ لأحدٍ من حُكمه، ولا مُعقِّب له، وإليه يُرْجَعون يومَ القيامة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عُمومُ مُلك الله تعالى لِـما في السماوات وما في الأرض، وانفرادُه عَزَّوَجَلَّ بذلك.

وفيها: أنَّ مرجع شُؤون الخَلْق إلى الله؛ لأنَّه هو الذي خلقَهم، ومِن حقِّه أن يُشَرِّع لهم ما يشاء، ومَن حاولَ التشريع للخلق بخلافِ ما شرَعه الله؛ فقد جعلَ نفسَه شريكًا مع الله، فويلٌ له!

فالحُكم والتشريع فَرْعٌ عن الإيجاد والخَلْق؛ إذ إنَّ الذي خلقَ أعلمُ وأبصرُ بخَلْقه؛ فهو أحقُّ وأجدَر بأن يُشَرِّع لهم من الأحكام ما يُنَظِّم أمورَهم، ويكون فيه صلاحُهم وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

وفي الآية: سَعَة عِلْم الله، وعظيم قُدرته؛ فكلُّ الأمور -دقيقها وجليلها- لجميع المخلوقات -صغيرِها وكبيرِها- تَرْجِع إليه عَزَّوَجَلَّ؛ فيدبِّر أمورَها، ويُجْري فيها قدَرَه.

وفيها: أنَّ على العِباد أن يسألوا ربَّهم ويَعبُدوه، ما دام هو الذي يملِكهم، وإليه تَرْجِع أمورُهم.

وفيها: أنَّ لله الحُكم المطلَق في عباده، فتصدُر عنه الأحكام الشرعيَّة، والقدَريَّة، والجزائيَّة -من الثواب والعقاب-.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بالاعتِصام بحَبله، وذكرَ مِنَّته على المؤمنين بتأليف قُلوبهم، وحذَّر من التفرُّق في الدِّين، وذكرَ فسادَ أهلِ الكتاب الذين ادَّعوا أنَّهم خيرُ الناس؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ مزيدًا من فَضْله على هذه الأُمَّة، وأنَّهم خيرُ الأُمَم، لا غيرهم؛ فقال:

﴿كُنتُمْ﴾ أي: في عِلْم الله السابق، وفي اللَّوح المحفوظ، وهذا مذكورٌ أيضًا في كتب الأُمَم السابقة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أفضل جماعة وطائفة ﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرَها الله وأبرزَها ﴿لِلنَّاسِ﴾، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خير النَّاس للنَّاس»[١].

وقد قيل: إنَّ المقصود بهذه الآية هم أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: الذين هاجَروا معه.

والصحيح: أنَّ هذه الآية عامَّة في جميع الأُمَّة، كلُّ قَرْنٍ وزمانٍ منها بحَسَبه، وخيرُ القرون مَن بُعِثَ فيهم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أولى الناس بهذه الآية.

ثم ذكر عَزَّ وَجَلَّ أسبابَ خيريَّة الأُمَّة؛ فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو: ما عرفَه الشَّرْع، وعلى رأسه: توحيد الله ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو: ما أنكرَه الشَّرْع، وعلى رأسه: الشِّرك بالله.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ربًّا واحدًا، لا تعبُدون غيره، وتُصدِّقون بشَرْعه وما أنزلَه، فتعمَلون بذلك.

وقدَّم (الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر) على (الإيمان) -مع أنَّه داخلٌ فيه ومن شُعَبه-؛ للدلالة على أهميَّته وفَضْله، وأنَّه من أسباب تفضيل هذه الأُمَّة.

وقد وردَت عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديثُ كثيرة صحيحة، في فَضْل هذه الأُمَّة على غيرها من الأُمَم؛ ومنها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ -وفي رواية: تُتِمُّون- سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ»[٢].

ومن مزايا هذه الأُمَّة وفضائِلها: أنَّهم أول الأُمَم في الحساب، وأول مَن يجوز الصِّراط، وأول الأُمَم دخولًا الجنَّة، وهم ثُلُثا أهل الجنَّة، وأعظم الأُمَم شفاعةً، ويدخل الجنَّة منهم سبعون ألفًا بلا حساب ولا عذاب، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفًا، وثلاثُ حَثَيات من حَثَيات الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

وأنَّهم شُهَداء الله في الأرض، ويشهَدون على الأُمَم الأخرى يومَ القيامة، وصفوفهم كصفوف الملائكة في الصَّلاة، ولا يجتَمِعون على ضلالة، وهم الأقصر عُمرًا، والأكثر أَجْرًا.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٢٠٠١٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

وتميَّزوا بوقت صلاة العِشاء، وبالسُّحُور، والتيمُّم، وبيوم الجمعة، ويُعذَرون بالإكراه، وسياحتهم الجهاد، وأُحِلَّت لهم الغنائم.

ولا يُحاسَبون على الوَسْوَسة، ولهم أسهل توبَة، وأكثر عقوبتهم مُعَجَّلةٌ في الدُّنيا، وقد وضعَ الله عنهم الآصارَ والأغلالَ التي كانت على غيرهم.

وهم أُمَّة الإسناد، وليس لبقيَّة الأُمَم أسانيد معروفة، وقد تكفَّل الله لهم بحِفظ كتابهم، وحِفظ سُنَّة نبيِّهم ﷺ -التي تبيِّن الكتاب-.

ونبيُّهم ﷺ خير الخَلْق وخير الأنبياء؛ له المقام المحمود، والشفاعة العُظمَى يوم القيامة، إلى غير ذلك من الفضائل.

وكلُّ هذه الفضائل وهذه الخيريَّة؛ لأنَّهم كمَّلوا أنفُسَهم بالإيمان، وكمَّلوا نقصَ غيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر.

ولـمَّا مدحَهم الله تعالى بذلك؛ ذمَّ مَن خالفَهم في الإيمان والأمر والنهي -من أهل الكتاب-؛ فقال:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بنبوَّة النبيِّ ﷺ، وما جاء به من شريعة الإسلام؛ ﴿لَكَانَ﴾ إيمانُهم ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ من بقائهم على الكُفر واليهوديَّة والنصرانيَّة، ولكن حملَهم حبُّ الرِّئاسة والهوى والحَسَدُ والكِبرُ على البقاء على الكُفر، ولم يُسلِم منهم إلَّا القليل.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ -كعبدِ الله بنِ سلَام، وعديِّ بن حاتم، والنجاشيّ- ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المراد بـ(الفِسْق) هنا: الخروج الكُلِّيّ عن طاعة الله، وهو الكُفر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

فَضْل أُمَّة النبيِّ ﷺ.

وفيها: أنَّ الفاضِل عليه أن يسعَى في المحافظةِ على الخيريَّة، والأَخْذِ بأسبابها؛ لتستمرَّ له هذه المنزِلة.

وفيها: السَّعْي في إصلاح الغير، بعد إصلاح النفس.

وفيها: أنَّ خيرَ الناس أنفعُهم للناس.

وفيها: تميُّز هذه الأُمَّة على الأُمَم السابقة، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر.

وفيها: أنَّ مَن زالَ عنه الوَصف الذي فُضِّلت به هذه الأُمَّة -وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر-؛ خرجَ من الخيريَّة.

وفيها: أنَّه متى قامَ الأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المُنكَر؛ قامَ الخير واشتدَّ، وإذا ضَعُفَ ضَعُفَ.

وفيها: أنَّ مَن كان أشدَّ سَعيًا في الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر؛ كان أكثرَ فَضْلًا وخيرًا.

وفيها: الـرَّدُّ على أهل الكتاب، الذين زعَموا أنَّهم خيرُ الناس، مع العَدْل فيهم، والثَّناء على مَن آمنَ منهم.

وفيها: تيئيس أهل الكتاب من إضلال هذه الأُمَّة.

وفيها: تثبيت أهل الإيمان من هذه الأُمَّة، بذِكر فَضْلهم وشرَفهم؛ ليزدادوا طاعةً وشُكرًا للنِّعمة.

وفيها: الإشادة بالفاضِل، وإبراز خبره؛ وفاءً بحقِّه، وتشجيعًا للغير على الاقتِداء به.

وفيها: أنَّ المؤمن من أهل الكتاب يجمَع بينَ خيرِ الدُّنيا والآخرة، ويؤتَى أجرَه مرتين؛ ففي الحديث: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»(١).

وفيها: دعوة المعانِد، بأسلوب يجمَع بينَ التوبيخ والنُّصح؛ فالشِّدَّة والتوبيخ لأجل عِناده، والإغراء والنُّصح لأجل ترغيبه في الحقِّ.

وفيها: عدمُ الاغترارِ بالأكثريَّة، والحضُّ على اتِّباع الحقِّ -وإن كان أقلَّ أتْباعًا-. قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: «ذمَّ الله أكثرَ الناس»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) -واللفظ له-.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٠٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٣٤).

وفيها: ذَمُّ مَن منعَتْه الدُّنيا من الإيمانِ واتِّباعِ الحقِّ.

وفيها: أنَّ الخيريَّة لا تتوقَّف على الأسبقيَّة في الزمن؛ فقد يفوق المتأخِّرُ بما كتبَ الله له من الفَضْل.

وفيها: أنَّ خيريَّة هذه الأُمَّة تعُمُّ جميعَ طبقاتها وقُرونها، وقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ، أَمْ آخِرُهُ»[(١)].

وفيها: عِلْم الله بالغَيب، وأنَّ هذه الأُمَّة تستَحِقُّ التفضيلَ على سائر الأُمَم، بقيامها بما أمرَها الله به.

وفيها: عدم الاغترار بالانتِسابِ إلى الشيء اسمًا، أو الوجودِ فيه زمنًا؛ لأنَّ العِبرة بالاختِصاص بالأوصاف، والالتِزام بأسباب التفضيل.

وفيها: أنَّ الخيريَّة المذكورة لهذه الأُمَّة تزداد بإيمانِ أفرادها وعمَلِهم، وهذا يعني أنَّ المؤمن يزداد فَضْلًا وشَرَفًا بانضِمام أمثاله إليه، وأنَّ الاجتماع على الخير يُكْسِب كلَّ واحد منهم أجرًا لا يَكْسِبه لو انفردَ بنفسه، ولو قام بنفس العمل. فأجر المُصَلِّين في جماعة -مثلًا- يزيد عن مجموعِ أجورِهم مُنفَرِدين.

وفيها: أهميَّة الاجتِماع والاشتِراك والتعاون في إقامة فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، خاصَّةً إذا قلَّ المعروفُ، وكثُر المُنكَرُ.

وفيها: تلمُّس أسبابِ الفَضْل والخيريَّة، والعمل بها.

وفيها: أهميَّة البَدء بالخير، والاستِمرار عليه؛ كما تدلُّ عليه صيغة الفِعْل المضارع: (تُؤمِنون)، و(تأمُرون)، و(تَنهَون).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾:

ولـمَّا كانت مخالَفة الأكثريَّة الفاسِقة جالبةً للضَّرَر؛ خفَّف الله ذلك عن عباده المؤمنين؛ فقال:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ أي: هؤلاء اليهود وأهل الكتاب **﴿إِلَّآ أَذًى﴾** بألسِنتهم، كالطَّعْن

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤).

في دين الإسلام، وإثارة الشُّبُهات، وبالسِّباب والشَّتْم، والتخويف والإرهاب، وهذا كلُّه يمكن للمسلمين أن يتحمَّلوه بالصَّبر والتَّقوى.

لكن لن يستطيعَ هؤلاء الكفَّارُ الوصولَ إلى ما يُريدون، من استِئصالِ المسلمين والقضاءِ عليهم، أو إخراجِهم عن دينهم، أو إلحاقِ الضَّررِ التامِّ بهم، ما داموا مُسْتَمسِكين بحَبْل الله.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ويُقابِلوكم في مَيْدان المعركة؛ ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ مُنهزِمين، جاعِلين ظهورَهم إليكم، ﴿ثُمَّ﴾ بعد تولِّيهم وانهزامِهم ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ عليكم أبدًا، ولا يجدون قوَّةً ولا منَعَةً تُمكِّنهم منكم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

بِشارة للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِه، والمؤمنين مِن بعدهم، ومَن التحقَ بهم ممَّن أسلمَ من أهل الكتاب، بأنَّ الكَفَرة الفَسَقة لن يستطيعوا استئصالَهم ولا القضاءَ عليهم، وإنَّما غايةُ ما يمكن أن يصِلوا إليه هو (شيءٌ) من الإيذاء.

وفيها: أنَّه لا يلزَم من الإيذاء وقوعُ ضَررٍ؛ وهذا كما جاء في الحديث القُدْسيّ: «يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ»(١)، مع قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله تعالى في الحديث القُدْسيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(٢).

وفي الآية: أنَّ وَعْدَ الله لهذه الأُمَّة بألَّا ينالها ضَرَرٌ من أعدائها، مشروطٌ بقيامِ صفات الخيريَّة فيها وتحقُّقِها، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، والإيمان بالله، فإذا تخلَّفت عن تحقيق الشَّرط؛ تسلَّط عليها الأعداءُ وأضرُّوا بها.

وفيها: أنَّ المواجَهة القتاليَّة إذا حصلَت بينَ المسلمين الصادِقين، وأعدائهم من أهل الكتاب؛ فلا بُدَّ أن يولِّي الكفَّارُ أدبارَهم مُنهزِمين.

وفيها: نفيُ وقوع الانتصار للكفَّار، إذا صدقَ المؤمنون.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وفيها: أنَّ الكُفر من أسباب الخِذلان والهزيمة.

وفيها: تبشيرُ المسلمين بالنَّصْر والظَّفَر، وبثُّ الثقة في نفوسِهم.

وفيها: انحِطاط وخِسَّة مَن يُولِّي دُبُرَه منهزِمًا عند القتال.

وفيها: تأييد الله للمؤمنين، وعدم تخلِّيه عن أوليائه، عند مواجَهتهم الكفَّارَ.

وفيها: إعداد المؤمنين لمواجَهة إيذاء الكفَّار، اللِّساني والنفسيّ.

وفيها: حَنَق الكفَّار وغَيظهم من المسلمين؛ حيث لم يستطيعوا الإضرارَ ولا إيقاعَ النِّكاية بهم، وغاية ما استطاعوا أن يظفَروا به هو مجرَّد الإيذاء -بالهجو القبيح، والطَّعن في دين المسلمين، والخوض في أعراضهم، ونحو ذلك-.

وفيها: أنَّ وَعْدَ الله باقٍ إلى قيام الساعة، ما دام المؤمنون على إيمانِهم وخَيرهم، والكفَّار على فِسْقهم.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾:

ثم زادَ الله تعالى في بِشارة المؤمنين بهزيمة أعدائِهم الكافرين من أهل الكتاب، وذكَر سبَب انهزامِهم؛ فقال:

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ أي: جُعِلَت عليهم مطبوعةً مستمِرَّةً ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ وهو: الصَّغار والهوان، فلا تخرج هذه الذِّلَّة من قُلوبهم -لأنَّ الله ألزمَهم إيَّاها- ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾: حيثما وُجِدوا في جميع البلاد ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بذِمَّةٍ وعَهدٍ منه، وهو عَقْد الذّمّة لهم، وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة. و(الحَبْل): هو السَّبَب، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُوصَل به إلى المقصود. وهو هنا: الأمن وزوال الخوف.

وقيل: المقصود بقوله تعالى ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: الإسلام، أي: أنَّ هؤلاء الكفَّار سيبقون أذِلَّاء، إلَّا أن يُسْلِموا، فتزولَ عنهم الذِّلَّة.

﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعَهدٍ من المؤمنين وأمانٍ، كما في المُعاهَد والأسير إذا أمَّنه واحدٌ من المسلمين، ودخولهم في عَقدٍ مع المسلمين يَحميهم.

وقال ابنُ عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: «﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بعهد من الله، وعهد من الناس».

وهكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وعَطَاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبيع ابن أنس(١).

﴿وَبَآءُو﴾ أي: استوجَبوا واستحقُّوا، وانصرَفوا ورجَعوا ﴿بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولَعْنَته وعقوبته، ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أي: الفَقر والخضوع، فصار عليهم كالبَيت الذي ضُرِب على أهله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما باءُوا ورجَعوا به، من غَضَب الله والذِّلَّة والمَسْكنة ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ أي: بسبَبِ كونهم ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحَدون هذه البيِّنات ويُنكِرونها، ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي: عمدًا وإجرامًا، بلا سبَبٍ ارتكبَه الأنبياء. وهذا ممَّا يُرجِّح أنَّ المقصود بالآية: اليهود؛ فإنَّهم المعروفون عبر التاريخ بقَتْل الأنبياء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكُفر والقَتل ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ أي: بسبَبِ تمرُّدهم ومخالفتهم أمرَ الله ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾: يتجاوَزون حدودَ الله، ويَغْشَون معاصيه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اليهود في أكثر الأوقات، وعلى مرِّ الأزمان -في عَهد هذه الأُمَّة المباركة- كانوا أذِلَّاء صاغِرين، فقراء مساكين، مُشرَّدين، ومغلوبين، وما حصلَ لهم في هذا الزمن المتأخِّر من قيام دولة مغتصَبة، وجَوْلةٍ وصَوْلةٍ، وغنًى وثَرْوة، وهيمنةٍ اقتصاديَّة وعسكريَّة وإعلاميَّة؛ إنَّما هو استثناءٌ من الأصل، وما حصلَ إلَّا بسبَبِ ما أصاب المسلمين من الضَّعْف والبُعد عن شَرْع الله.

وهذه القوَّة والغَلَبة -المؤقَّتة- مستَمَدَّةٌ من حبلِ الناس، المذكورِ في الآية: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فبينَهـم وبين الناس حبلٌ، بواسـطة المُعاهَـدات والاتفاقيَّات التي قامـت بـينَ اليهود والصَّليبيِّـين الذين نصَروهم؛ فاسـتمدَّ منهم اليهودُ أسـبابَ القوَّة -من سلاحٍ، ومالٍ، ومُساندات سياسيَّة وإعلاميَّة، وغيرها-.

ولأنَّ وَعْدَ الله لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، والله لا يُخلِف الميعاد؛ فسيعود هؤلاء اليهودُ إلى الذِّلَّة والصَّغار، ولن يطولَ أمدُ دولتهم، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

هـذا مـع أنَّ الذِّلَّة لا تزال موجـودةً في قُلوبهم، ظاهرةٌ لِمَن تأمَّلها، وبينهم وبينَ أنفسِـهم عداوات واختلافات، أخبارُها بارِزةٌ للعِيان، ولايزالون جُبَناء، يَبنون الأسوار، ولا يعيشون إلَّا في المستوطَنات المحُصَّنة -ولو كانوا أقوى سلاحًا- ولو صارَت مواجَهة حقيقيَّة لفرُّوا؛ من ذُلِّهم وجُبْنهم وهوانهم عند أنفُسِهم.

وفيها: انتقام الله من اليهود؛ لاجترائهم عليه؛ فجعلَ الذِّلَّة في بواطنهم هَوانًا، والمَسْكنة في ظواهرهم فَقرًا، وكتبَ عليهم الهزيمة والتشريد.

وفيها: أنَّ عَهد المسلمين متينٌ، فإذا أَعطَوه لأحدٍ صار في حمايةٍ وأمنٍ.

وفيها: أنَّ المعصيةَ والاعتداءَ سببٌ لعقوبات الله.

وفيها: ترغيبُ الكافر في الإسلام، بأنَّه إذا أسلَمَ حُقِنَ دمُه، وصارَ له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم.

وفيها: إثبات صفة (الغضَب) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: عظيمُ مكانـة الأنبياء عنـد ربِّ العالمين؛ حيث انتقـمَ الله لهم مـن أعدائهم هذا الانتقامَ الطويلَ الأليمَ.

وفيها: جواز تعليل حُكم واحد بعِلَل متعـدِّدة؛ فالعقوبات التي ذُكِرت متعدِّدة؛ وهي: (الذِّلَّـة)، و(الغَضَـب)، و(المَسْكَنة)، والسَّبَب أو الحُكم واحد، وهـو المعصية، لكن له أنواع وصُوَر متعدِّدة؛ منها: الاعتِداء، والكفر، وقَتْل الأنبياء. ويجوز أن تكون العِلَّة واحدة، والأسباب أو الأحكام متعدِّدة.

وفيها: أنَّ الاعتِداء على الغير، قد يكون أشدَّ من المعصية التي تقتصِر على النفس.

وفيها: أنَّ ضَرْب الجِزْية على اليهود وغيرهم من الكفَّار، هو لَونٌ من الذِّلَّة والهَوان، الذي يُعاقَبون به في الدُّنيا على كُفرهم، وقد يَدفَعُهم إلى الدُّخول في الإسلام؛ ابتغاءَ الحُصولِ على العِزَّة، والتخلُّصِ من الألَم النفسيِّ للذُّلِّ والمَهانة.

وفيها: أنَّ اليهود المتأخِّرين ينالهم نصيبٌ من عقوبة آبائهم المتقدِّمين، ما داموا راضينَ بأفعالهم، متَّبعين لسيرَتهم، مقلِّدين لمن سبقَهم.

وفيها: أنَّه كلَّما عظُمَ الجُرْم؛ عَظُمَت العقوبة، وأنَّ قَتْل أنبياء الله ليس كقَتْل أحدٍ من الناس، وانتقامُ الله فيه أشدُّ.

وفيها: شُؤْم المعصية، وأنَّ أثرَها يكون في الظاهر والباطن.

وفيها: أنَّ اليهود قد باءُوا بنصيبٍ كبيرٍ من غَضَب الله، وقد وصفَهم في كتابه بـ (المغضوب عليهم)، كما في سُورَة «الفاتحة»: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وفي الحديث: «إِنَّ (المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ) اليَهُودُ، وإِنَّ (الضَّالِّينَ) النَّصَارَى»[1].

وفيها: أنَّ أهل الباطل ينصُر بعضُهم بعضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإنه يدخُل فيه تحالُف اليهود مع دُوَل الكُفر القويَّة، وما يستَمِدُّونه منهم من أسباب القوَّة والمنَعَة، التي يستَعينون بها على العُدوان على الناس.

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

ولـمَّا ذمَّ الله تعالى أهلَ الكتاب عُمومًا على كُفرهم ومعصيتهم واعتدائهم، أثنى على طائفةٍ منهم؛ لِـما فيهم من الخير والدِّين، كالقلائل الذين كانوا قبل بِعْثة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الذين آمنوا من أهل الكتاب بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد بِعْثته؛ فقال تعالى:

---

(١) رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٦٣).

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾ أي: ليس جميعُ أهل الكتاب مُستَوين؛ بل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسِقون. هذا هو المشهور عند كثيرٍ من المفسِّرين.

واستَدلُّوا بما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لـمَّا أسلَمَ عبدُ الله بن سلَام، وثَعْلَبة بن سَعْية، وأُسَيْد بن سَعْية، وغيرهم ممَّن أسلَمَ مِن اليهود معهم، فآمَنوا وصدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام؛ فقالت أحبارُ يهودَ وأهلُ الكُفر منهم: ما آمن بمحمَّد وتَبِعَه إلَّا أشرارُنا، ولو كانوا من خِيارنا ما تركُوا دينَ آبائهم وذهبوا إلى غيره! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾»(١).

أي: لا يستَوي مَن تقدَّم ذِكرُهم بالذَّمِّ من أهل الكتاب -في الآيات السابقة- وهؤلاء الذين أسلَموا؛ فليسوا كلُّهم على حدٍّ سواء؛ بل منهم المؤمِن ومنهم المُجرِم، ولذا قال بعدَها: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ أي: منهم جماعة مستقيمة على الحقِّ، قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعِه، آمَنت بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـمَّا بُعِث، ومنهم أُمَّةٌ مذمومةٌ كافرةٌ، مُصِرَّةٌ على الكُفر.

وقال بعضُ المفسِّرين -منهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في معنى المقارَنة المذكورة في الآية: «ليس أهلُ الكتاب وأُمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -القائمة بحقِّ الله- سواءً عند الله»(٢).

واستَدلُّوا بما رواه ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَخَّرَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاة العِشَاء ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِد، فَإِذَا النَّاس يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاة؛ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَيسَ من أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُر الله هَذِهِ السَّاعَة غَيْرُكُمْ»، قَالَ: وأُنزِلَت هَذِهِ الآيَات: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، حتَّى بلغَ: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾(٣).

وقد ذكرَ الله تعالى في هذه الآية وما بعدَها ثمانيةَ صفات وأوصاف للأُمَّة المؤمِنة:

أولها: أنَّها ﴿أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ أي: ثابتة، مُستقيمة على أمر الله.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٣٣).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٢٢)، تفسير القرطبي (٤/ ١٧٥).

(٣) رواه أحمد (٣٧٦٠)، وحسَّنه محققو المسند.

وثانيها: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقرأون القرآن، ويقومون به ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: في أوقاته وساعاته.

والصِّفة الثالثة: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يُصَلُّون، وهذا من باب تسمية الشيء ببعَضِ أجزائه وأفضلِ ما فيه. وخَصَّ (السُّجود) بالذِّكر؛ لفَضْله من بينَ أركان الصَّلاة، ولدلالته على كمال الخُضوع والخُشوع.

أو يكون المعنى: أنَّهم جمَعوا بينَ التلاوة -حال القيام- والسجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]؛ فوفَّقهم الله لتلاوةِ أفضلِ الذِّكر، ووصفَهم بأفضل الحالات.

والصِّفة الرابعة: قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: بوجوده ورُبوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائه وصفاته، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه لا يومَ بعده، وهو منتهَى الخلائق، وهو يومٌ واحدٌ، لا ليل فيه ولا نهار، ولا شمس ولا قمر، فهو مستقرُّ العِباد، وآخِرُ ما يكونون فيه، إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النَّار.

والصِّفة الخامسة: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ويُرْشِدون غيرَهم إلى ما ينبغي عليهم فِعلُه ممَّا عرَفه الشَّرْع، فهم لـمَّا كمَّلوا أنفُسَهم عِلمًا وعملًا؛ سعوَا في تكميل غيرِهم.

والصِّفة السادسة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ فيَزْجُرون ويمنَعون غيرَهم من الوقوع فيما أنكرَه الشَّرْع، بعد أن كفُّوا أنفُسَهم ومنَعوها من معصية الله.

والصِّفة السابعة: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يُبادِرون فيها ويعمَلون، غيرَ مُتثاقِلين، وهذا مِن رغبتهم في الحسَنات، وحُبِّهم لِـما يُرضي الله عنهم. و(الخيرات): كلُّ ما يحبُّه الله من الأقوال والأفعال.

ولفظ (المسارَعة) في الآية أبلَغُ من (العَجَلة)؛ لأنَّ (المسارَعة) هي: التقدُّم فيما ينبغي تقديمُه، وضِدُّها الإبطاء، أمَّا (العَجَلة) فهي: التقدُّم فيما لا ينبغي التقدُّم فيه، وضِدُّها التأنِّي، فالمسارعة محمودةٌ، والعَجَلة مذمومةٌ.

وقوله ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أبلغ من (ويُسارِعون إلى الخيرات)؛ لأنَّ استعمال

حرف الجرِّ (في) يُفيد المسارَعة إليها وإتمامها -وكأنَّ (الخيرات) طريقٌ يُسارِعون في قطعه- والسَّعْي إلى غيرِها من الخيرات أيضًا أثناءَ القيام بها، لا أن يُسارِعَ إليها ثم إذا وصلَ توقَّف؛ فهم ينتقِلون من طاعة إلى طاعة، فيُسارِعون إلى الطاعة، وهم متلبِّسون بطاعة أخرى.

والصِّفة الثامنة: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: الذين صَلَحت أحوالهم، وحسُنت أعمالهم، وقاموا بحقِّ الله، وحقِّ عباده.

ثم ذكرَ الله تعالى جزاءَهم وثوابهم؛ فقال: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ إيمانًا وطاعة. و(الخير): كلُّ ما يقرِّب إلى الله ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: فلن يُحرَموا ثوابَه، ولن يُمنَعوا جزاءَه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ فيُجازيهم على تقواهم، ويُثيبهم بحَسَب ما يَعْلَمُ من أحوالِهم وسرائرِهم.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

العَدْل والإنصاف مع أهل الكتاب، والثَّناء على أهل الخير منهم.

وفيها: الإشادة بمَن يقوم بطاعة الله؛ ترغيبًا في الاقتداء به.

وفيها: أنَّ تلاوة الآيات تذكِّر باليوم الآخر، وتُثبِّت الإيمان به، ولذلك جاء ذِكر (الإيمان) بعد ذكر (التِّلاوة).

وفيها: فَضل المسارَعة في أنواع الطاعات، والتسابُق إليها، والشُّروع فيها وإكمالها، والانتقال إلى غيرها؛ فمِن طاعة إلى طاعة، فيُسارِع إلى طاعة وهو متلبِّس بطاعة أخرى.

وفيها: فَضْل الصَّلاح، وهو يدور على العِلْم والعمل، وضِدُّه: الجهل والكُفر والتمرُّد. وأصلُ الصَّلاح فِطريٌّ، ولكنَّه يُكتسَب أيضًا.

وفيها: أنَّ مِن أسباب الصلاح: تلاوةَ آيات الله، وكثرةَ الصَّلاة، والإيمانَ بالله واليوم الآخر، والقيامَ بفريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر.

وفيها: ثبوت الثواب على عمل الخير -قليلًا كان أو كثيرًا-؛ لقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾.

وفيها: أنَّ عَقْد المقارنة بينَ الحَسَن والقبيح، يَزيد بيانَ هذا وهذا؛ فبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياء.

وفيها: ذِكر خبر الصالحين مِن قبلنا؛ للاقتداءِ بهم، وقيامِ رابطة المحبَّة الإيمانيَّة بينَ الإخْوة في الله من جميع الأُمَم.

وفيها: أنَّ للإيمان ثمراتٍ وأعمالًا صالحة، تدُلُّ على وجوده وقوَّته.

وفيها: أنَّ الصلاح منه ما يقوم بالقَلْب، ومنه ما يقوم بالبدَن.

وفيها: أنَّ الصالحين لا يتثاقَلون ولا يتباطَؤون في عمل الخير.

وفيها: الارتباط بينَ الإيمان باليوم الآخر، وحصول الثواب والجزاء في ذلك اليوم.

وفيها: أنَّ ذِكر أحد طرَفَي المقارَنة يُغنِي عن ذِكر الآخر، وهذا على أحد الأقوال في تفسير قوله: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾.

وفيها: انتِهازُ الفُرصة لعملِ الخير، والقيامُ به في أول وَقته.

وفيها: الثَّناء على أصحاب الهِمَم العالية في عمل الخير؛ ليكونوا قُدوةً ومِثالًا لغيرهم.

وفيها: تحفيز نفوس المؤمنين إلى العمَل، بذكر سِيَر أسلافهم؛ كي يتشبَّهوا بهم، ويسيروا على مِنوالهم.

وفيها: أنَّ معرفةَ فوائدِ الشيء وحُسنِ عوائده؛ يدفَع إلى فِعْله.

وفيها: أنَّ الله تعالى شكورٌ، لا يَكْفُر أعمالَ الصالحين، ويستُرها؛ بل يُظْهِرها يومَ الدِّين، ويجزيهم بها الجزاءَ الأَوْفى.

وفيها: أنَّ ثواب الأعمال لا يتوقَّف على الظاهر؛ وإنَّما لا بُدَّ من أساسٍ من التَّقوى يقوم عليه، وحيث إنَّ أصل التَّقوى باطنٌ لا يعلمه إلَّا الله؛ قال في الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وفيها: بَركة الاشتِراك في الطاعة.

وفيها: التنافُس في الخيرات مع الصالحين، والاشتِراك في ذلك بينَ المؤمنين؛ كما تدلُّ عليه لفظة ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾، التي تفيد وقوعَ الاشتراك في الفِعْل بينَ جماعةٍ.

وفيها: أنَّه لا يكفي أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه، بل لا بُدَّ أن يسعَى في إصلاح غيره؛ لأنَّ الصالحين الذين أثنى الله عليهم في الآية يأمرون بالمعروف وينهَون عن المُنكَر، وهذا معناه: أنَّ خيرهم يتعدَّى إلى غيرهم، ولا يقتصِر على أنفسِهم.

وفيها: فَضيلة الكتابيِّ إذا أسلمَ وحَسُن إسلامُه، وقد قال النبي ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ من أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ...»[(١)].

وفيها: أنَّ المسارَعة في الخيرات أشدُّ مرضاةً للربّ، وأكثر أجرًا في ميزان العبد.

وفيها: تحفيز الغير إلى فعل الخير.

وفيها: القيام بالعمَل قبل حضور الأجل، ونزول ما يقطَعه -من مرض أو شُغْل-.

وفيها: إشغال النفس بالطاعة عن المعاصي.

وفيها: حُسن الثواب في البَرْزخ؛ فإنَّ العملَ الصالحَ -كما في الحديث- يأتي العبدَ في قبره، في صورة رجلٍ حَسَنِ الوَجْه، طيِّب الرِّيح، حَسَنِ الثِّياب، ويقول: «أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ»، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ؛ مَنْ أَنْتَ؟ فيقول: «أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ -واللهِ- سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا»[(٢)].

وفيها: الجَمْع بينَ حُسن القول وحُسن الفعل؛ لِما ورد في صفة الصالحين من الجَمْع بينَ التلاوة والسُّجود.

وفيها: الحثُّ على إخفاء العمل، وأنَّه من شواهد الإخلاص؛ كما في قوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ فهم يستَتِرون بظُلْمة اللَّيل عن عيون الخَلْق.

وفيها: أنَّ أعمال الصالحين تتنوَّع وتتعدَّد، ضارِبين في كلِّ وادٍ من الخير بسَهْم ونَصيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ مؤمني أهل الكتاب وجزاءَهم؛ عقَّب بذِكر حال الكفَّار وعاقبتهم؛ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) -واللفظ له-.

(٢) رواه أحمد (١٨٦١٤)، وصحَّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٥٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذا يشمل كلَّ كافرٍ، كتابيٍّ وغيرِ كتابيٍّ ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لن تدفَع عنهم ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ مهما كثُرت. وقد جرَت عادة الناس أن يفتَدوا بالأموال أنفُسَهم في مواطن الحَرَج.

﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ من الذُّكور والإناث. وخصَّهم بالذِّكر؛ لأنَّهم أشـدُّ الناس قرابةً، وقد جرَت العادة أنَّهم أشدُّ الناس دفاعًا عن آبائهم وأُمَّهاتهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من عذابه وبَطْشه. وهذا الرَّدُّ والبيان لنفي ما زَعَموه فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ثـم أكَّد الله تعالى وقوعَ العذاب عليهـم؛ فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: مُلازِموها ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: دائِمون وماكِثون.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله إذا أراد بقوم سوءًا؛ فلا مَردَّ له.

وفيهـا: أنَّ الكفَّـار لا ينتَفِعون بشيء من أموالهم وأولادهم يـومَ القيامة، وكما أنَّها لا ترُدُّ عنهـم عذابَ الله؛ فهي لا تقرِّبهم إليه؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

وفيها: عدم الاغتِرار بقوَّة وغِنى الكفَّار، مهما بلغَت.

وفيها: تمام قُدرة الله على عباده.

وفيهـا: التحذير من الاغـترار بالنِّعَم، ومن الظنِّ بأنَّ متاع الدُّنيا ينفع ويقرِّب في الآخرة من الله.

وفيهـا: أنَّ من أنواع العذاب في الآخـرة: أن يزول عن الكافر فائدةُ كلِّ ما كان منتَفِعًا به في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ متاع الدُّنيا قد يكون سببًا للعذابِ ودخولِ النَّار.

وفيها: خلودُ الكفَّار في النَّار، وتيئيسُهم من أن يَجِدوا شيئًا يدفَع عنهم العذاب يوم القيامة.

وفيهـا -مع ما قبلها-: الجمع بينَ الوَعْـد والوَعيد، والترغيب والترهيب، بذِكر ما أعدَّ الله للمؤمنين، وما أعدَّ للكافرين.

وفيها: تسخير الأموال والأولاد في طاعة الله؛ لتكون سببًا للنَّجاة يوم القيامة.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾:

ولـمَّا كان الكفَّار يُنفِقون أموالهم ليصُدُّوا عن سبيل الله، وبعضهم يُنفِق ماله في بعض وجوه الخير؛ ضربَ الله تعالى مَثَلًا لمصير هذه النَّفَقات بقوله:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ مـن الأموال والجهـود والأوقـات ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: في وجـوه الخير والصَّدَقات، ككَفالـةِ الأيتام والأرامل، والقيامِ على أمور العَجَزة والمُسِـنِّين، وعلاجِ الأمراض والأوبئة، والإحسانِ إلى الحيوانات، ونحو ذلك.

أو ما يُنفِقونه في الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، في مُحاربة الإسـلام والمسـلمين، كالحملات الصَّليبيَّـة -قديـمًا وحديثًـا- وفي حملاتهـم العسـكريَّة والإعلاميَّة، ومُسـاندةً لأعوانهم من المنافِقـين الطاعِنـين في ظهـور المسـلمين، ونحو ذلـك، وبعضهم يفعـل ذلك تقرُّبًـا وتعبُّدًا بحَسَب معتقداتهم.

فـإنَّ إنفاقَهم في كلِّ هـذه الأمور، مَثَله ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ﴾ شـديدةٍ عاتيةٍ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بـردٌ شـديدٌ وجليـدٌ، أو: فيها نـارٌ مُحرِقـة، أو: لها صريرٌ وصـوتٌ مُزعِجٌ مخيفٌ، مِن شِـدَّتها ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ﴾ أي: زُروعَهم وبساتينَهم وثمارَهم ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بأنواع المعاصي ومَنْعِ حقِّ الله ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾: أحرقَتْه ودمَّرَتْه وأفسدَتْه، وأعدمَت زُروعَه وثمارَه، مع عِظَم حاجة أصحابِه إليه.

فهـذا مَثَل خَيبة الكفَّـار في الدُّنيا، عندما يُنفِقون أموالهم للصدِّ عن سـبيل الله، ثم ينتَشِر الإسـلام ويَعْلُـو، ويَتِمُّ نـورُ الله رغمًا عنهم، وتفشَـل مُخطَّطاتُهم، وتذهـب جهودُهم أدراج الرِّياح.

وفي الآخـرة تزداد الحَسْرة والخَيبة، إذا وجَـدوا أنَّ ثواب أعمالهم الخيريَّة -من الإطعام

والإيـواء والعـلاج ونحوها- قد ذهبَـت هَباءً منثورًا، وليس لهم عليها حسَـنةٌ واحدةٌ؛ لأنَّ الله محَقَ ثوابَ أعمالهم الخيريَّة، بسـبَبِ كُفرهم وشِركِهـم؛ لأنَّهم لم يَبنُوها على أصلٍ صحيحٍ وأساسٍ سليمٍ، وهو الإيمان بالله وتوحيده.

وقـد سُـئِلَ النبي ﷺ عن عَبْدِ الله بنِ جُدْعان، وقـد كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِـمُ المِسْكِينَ، فَهَـلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُـهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًـا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَـوْمَ الدِّينِ»[1]؛ فتكذيـبُ هذا الكافر بيوم الدِّين وشرِكُه بالله؛ منعَـه من الانتفاع بعمَله يومَ القيامة.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ حـين أذهبَ ثمرةَ أعمالهم، ولم يَبْخَسْـهم ويُنقِصْهم حقَّهم؛ ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشِّرك والكُفر، والذُّنوب والمعاصي.

وفي هذه الآية من الفوائد:

استِعمال التشبيه البليغ في بيانِ المعنى، وإيصالِه للأذهان.

وفيها: بلاغة القرآن العظيمة، بإيراد التشبيه التمثيليِّ أو المركَّب؛ حيث شبَّه إنفاقَ الكفَّار بالـزَّرْع الذي أصابَتْـه الرِّيح العاصفـة البارِدة، فدمَّرتـه وجعلَتْه حُطامًا؛ لبيـان عدمِ انتفاع الكفَّار بثَمَرة أعمالهم.

وفيهـا: عِـبرةٌ للمُرائي، وعِظةٌ لمـن أرادَ بعمله الدُّنيا؛ فما يتمُّ إنفاقُـه في المفاخِر والمكارِم وكَسْبِ الثَّناء، يَذْهَب هَباءً مَنثورًا؛ لأنَّه فقدَ الإخلاصَ وإرادةَ وَجْه الله.

وفيهـا: أنَّ الكُفر مُحبِطٌ لجميـع أعمال البِرِّ، وأنَّ زَمْهرِيرَ الشِّرْك ونارَ الكُفر مُهلِكةٌ ومُحرِقة لثمَرات النَّفقات والصَّدَقات.

وفيها: خَيبة الكافر عندما تذهب حسناتُه، أحوَج ما يكون إليها.

وفيهـا: أنَّ الجوائِـح قد تنزِل بأموال النـاس، وتُهْلِك حرثَهم ونَسْـلَهم؛ عقوبةً على ظُلْم أنفُسِهم، بما يقترِفونه من الذُّنوب.

---

(١) رواه مسلم (٢١٤).

وفيهـا: انتصـارٌ للنبـيِّ ﷺ، وخِـزيٌ لأعدائه، حيث ذهبَـت نفقاتُهـم في عداوَتِه هَبـاءً منثـورًا، كنَفَقات مُشرِكي مكـة واليهود والمنافِقين، في التآمر وشَـنِّ الحَرْب على النبيِّ ﷺ وأصحابه، ثم كان للمسلمين النصرُ والتمكين والسِّيادة عليهم.

وفيها: أنَّ ما بُنِيَ على فاسِدٍ وباطلٍ؛ فهو فاسِد.

وفيها: حِفظ الله لحسناتِ أهل التوحيد وأُجورِ أعمالهم.

وفيها: تسبيحُ الله وتنزيهُه، ونفيُ النقائص عنه.

وفيهـا: أنَّ مَن بذل الأسـبابَ الشرعيَّة؛ جاءتـه النتائج على ما يُحِـبُّ، ومَن خالفَ ذلك خابَ أملُه.

وفيها: مُعاقبة النفوس بظُلْمِها، بأنواع المعاصي ومَنْعِ حق الله.

وفيها: أنَّ انتفاعَ الكفَّار بأعمالهم الخيريَّة في الدُّنيا، لا يمنع عنهم عذابَ الله يومَ القيامة.

وفيهـا: الفَرْق بينَ المؤمن والكافر في مصائب الدُّنيا؛ فـإنَّ المؤمن يصبِر فيؤجَر، والكافر لا يرجُو عند الله شـيئًا؛ بل يكون ما أصابَه عقوبةً، بخلاف ما يُصيب المؤمنَ؛ فهو له تطهيرٌ وكفَّارة.

وفي قولـه تعالى ﴿**وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ**﴾: بيان أنَّ للعبـد الحريَّة والاختيار في عمَله، وعليه تكون المُجازاة يومَ الدِّين.

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨**﴾:

ثـم حذَّر الله تعالى عبـادَه المؤمنين من شرِّ الكفَّار والمنافِقـين، ونهاهم عن ائتِمانهم وإقامة الأحلاف معهم؛ فقال تعالى:

﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾: النِّـداء بالإيـمان للدَّلالة عـلى أهميَّة الخِطاب، ولإغـراءِ المؤمنين بالامتِثال ﴿**لَا تَتَّخِذُواْ**﴾ وتجعَلوا لأنفُسِـكم ﴿**بِطَانَةٗ**﴾ أي: خواصًّا وأصفياءَ، يَسْـتَبْطِنون

أمورَكم، وتُطْلِعونهم على أسرار المسلمين، وتستشيرونهم في خاصَّة شُؤونكم. و(البِطانة): مأخوذة من «بِطانة» الثوب؛ لأنَّها أقرب إلى البدَن من ظاهره.

﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أي: من غيركم، من الكفَّار والمنافِقين.

سبَب نزول هذه الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان رجالٌ من المسلمين يُواصِلون رجالًا من اليهود؛ لِما كان بينهم من الجِوار والحِلْف في الجاهليَّة؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ فيهم -ينهاهُم عن مُباطَنتِهم تخوُّفَ الفِتنة عليهم منهم-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾، إلى قوله ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾»[١].

وقال مجاهد: «نزلَت في المنافِقين من أهل المدينة، نهى الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين أن يتولَّوهم»[٢].

ثم وصفَ الله تعالى هذه البِطانة الخبيثة بأربع صفات:

الأولى: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ أي: لا يقصِّرون، بل يجتَهدون في مضرَّتِكم وعداوتِكم وإفسادِ أموركم، وهذا شأنهم ودَيْدَنهم. و(الألْو): التقصير، يُقال: «لا آلو جُهدًا» يعني: لا أقصِّر بحَسَب الجهد. و(الخَبال): هو الفساد في الرأي والعقل.

والصفة الثانية: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ أي: أحبُّوا وتمنَّوا المشقَّة عليكم، والإضرار بكم.

الصفة الثالثة: ﴿قَدۡ بَدَتِ﴾: ظهرَت ﴿ٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ العداوةُ لكم ﴿مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وألسِنَتِهم، بالوقيعةِ فيكم، وشَتْمِكم، وتكذيبِ نبيِّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتقاصِ دينِكم.

وقد ظهرَت هذه البغضاءُ أيضًا من أفواه المنافِقين إلى إخوانهم من الكفَّار، يُخبِرونهم بغِشِّهم الإسلامَ وأهلَه، وبُغْضِهم المسلمين.

الصفة الرابعة: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ﴾ أي: ما تشتَمِل عليه وتُضْمِره من الحِقْد والغيظ ﴿أَكۡبَرُ﴾: أعظمُ وأشدُّ ممَّا يظهر على اللِّسان.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٨)، تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ١٤١).

ثم بيَّن الله تعالى أنَّه قد امتنَّ على عباده المؤمنين، بأن أنزلَ عليهم في كتابه التحذيرَ الواضحَ من هؤلاء؛ فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: أظهرنا لكم العلاماتِ الدَّالَّة على عداوتهم وحَسَدهم، وحُكمَ موالاتهم، وعرَّفناكم الحقَّ والصواب في هذه الأمور.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لن يظهَر هذا البيانُ إلَّا لأصحاب العقول وذوي الألباب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ اجتِنابَ اتِّخاذ الكفَّار بِطانةً هو من مقتَضيات الإيمان، والإخلالَ به نقصٌ في الإيمان.

وفيها: أنَّ بِطانة الخير إذا قُيِّضَت لشخص؛ فإنَّها من توفيق الله له، وبِطانة الشرِّ إذا قُيِّضت لشخص فهو من مَكْر الله به. وقد تجتمع على الشخص بِطانتان من الأخيار والأشرار؛ ففي الحديث: «مَا بَعَثَ الله من نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ من خَلِيفَةٍ؛ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالمعْصُومُ مَنْ عَصَمَ الله تعالى»[١].

وفيها: أنَّه لا يجوز ائتمانُ الكافر على أسرار المسلمين ومصالحهم العامَّة مهما كان فيه من المِيزات الشخصيَّة والمؤهِّلات الدُّنيويَّة.

وقد قيلَ لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إنَّ هاهنا رجلًا من نصارى الحِيرَة، لا أحدَ أكتبَ منه ولا أخطَّ بقلمٍ، أفلا يكتُب عنك؟ فقال: لا آخُذُ بطانةً من دون المؤمنين[٢].

وقد أنكر عمرُ على أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا اتِّخاذه رجلًا نصرانيًّا كاتبًا -رَغْم إتقانه الكتابة- وقال له: «لاَ تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ الله، وَلاَ تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ الله، وَلاَ تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

ولذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولو عَلِمَ ملوكُ الإسلام بخِيانةِ النصارى الكُتَّاب، ومكاتبتِهم الفِرنج أعداء الإسلام، وتمنِّيهم أن يستأصِلوا الإسلامَ وأهلَه، وسعيهِم في ذلك بجَهد الإمكان؛ لثَناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ١٧٩).

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٢٧).

(٤) أحكام أهل الذِّمَّة (١/ ٤٩٩).

وفيها: أنَّ التغايُر في الدِّين يدفع إلى العداوة.

وفيها: أنَّ اتِّخاذ البِطانة من الأعداء مُخالِفٌ للعقل والحِكمة.

وفيها: أنَّ عداوة أهل الكتاب والمنافِقين للمسلمين في الباطن، أشدُّ من الظاهر، ولو تمكَّنوا منهم لأظهَروا أضعافَ ما كانوا يُظْهِرونه من قبلُ من العداوة، كما شَهِدَ بذلك التاريخ:

فقد قام اليهودُ بظُلْم المسلمين، لـمَّا تولَّت الدولة الفاطميَّة الباطنيَّة الحاقدة، وصار العِزُّ فيها لليهود على المسلمين!

وكان هؤلاء الكَفَرة يحرِّضون إخوانَهم والمُشرِكين على غزو المسلمين، كما فعلت يهودُ المدينة في تحريض قُرَيش على قتال المسلمين.

وكان لِخيانة الوزير ابن العَلْقَميّ سنة ٦٥٦هـ دورٌ كبير في تمكين التتار من دمار بغداد والمشرق الإسلامي والعربي، فسقَطَت الخلافة العبَّاسيَّة، وقُتِلَ أكثر من ثمانمائة ألف من المسلمين، بما فيهم الخليفة المستعصِم بالله وأركان دولته[(١)]!

وعندما غزا التتارُ دِمشقَ سنة ٦٥٨هـ؛ استطالَ النصارى على المسلمين فيها، واستخرَجوا من هولاكو قانونًا بإظهار دينهم، فشَرِبوا الخمر عَلَنًا في نهار رمضان، وكان يرُشُّونها على ثياب المسلمين في الطُّرُقات، وصبُّوها على أبواب المساجد! وألزَموا المسلمين بالقيام لهم إذا مرُّوا بصليبهم في الشوارع! وكانوا يقولون جهرًا: «ظهر الدِّين الصحيح، دينُ المسيح»[(٢)]!

وكان النصارى في بلاد الشام يدُلُّون إخوانهم الغُزاة في الحملات الصَّليبيَّة على عَوْرات المسلمين؛ ليدخُلوا من خلالها، وعلى أموال المسلمين لينهَبوها، وشارَكوا في القَتْل والأَسْر والسَّبي والنَّهْب والإحراق!

وفي الآية: أنَّ مَن يُغايرك في الدُّنيا، أسهلُ ممَّن يُغايرك في الدِّين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٧/ ٣٥٦).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٤٨/ ٥٩)، البداية والنهاية (١٧/ ٣٩٨)، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (١/ ٥١٢).

وفيها: أنَّ الكفَّار يتمنَّون للمسلمين التعَب والإرهاق، ويعملون على إنهاكِهم -فكريًّا وبدنيًّا وماليًّا-.

وفيها: أنَّ الكفَّار يحرِصون على كَتْم بُغْضهم وعداوتهم، إذا كان في المسلمين قوَّة، ولكن الله تعالى يكشِف حالهم للمسلمين من فَلَتات ألسِنَتهم؛ كما يدُلُّ عليه قولُه: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

وفي الآية: عِناية الله بعباده المؤمنين، حيث حذَّرهم ممَّا قد يخفَى عليهم.

وفيها: أنَّ أعداءنا يعملون على إلحاق الضرَر بديننا ودُنيانا، ويُريدون تدميرَ عقيدتنا، كما يسعَون لتدمير قوَّتنا الاقتصاديَّة والعسكريَّة والبشريَّة، ويعملون على بثِّ الهزيمة النفسيَّة في نفوسنا، بما يُشيعونَه فينا من أجواء الإحباط واليأس والاستِسلام؛ ليُصاب المسلمون بالكآبة والحزن.

وفيها: أنَّ آيات الكتاب العزيز تُعين على التفريق بينَ النافع والضارِّ، والوليِّ الحميم والعدُوِّ المبين.

وفيها: أنَّ استشارة الكفَّار في أمور المسلمين العامَّة، وإطْلاعهم على الأسرار، أخطر بكثير من استشارتهم في الأمور الشخصيَّة والفرديَّة، كاستشارة الطبيب الكافر في العلاج والدواء، واستشارة الخبير الاستشاريّ الكافر في التجارة والصناعة والزراعة والبناء، ونحوها من الخَدمات الاستشاريَّة التي تقدِّمها بعض الشَّرِكات والخبراء لأفراد المسلمين ومؤسَّساتهم الشخصيَّة.

وفيها: التعاون بينَ المنافِقين والكفَّار، واجتماعهم على حَرْبِ المسلمين والإضرارِ بهم.

وفيها: أن التأكُّد من خُلُوِّ بعض الكفَّار من هذه الصِّفات أمرٌ صعب جدًّا؛ لوجود بعضها في الباطن، وهو ما لا يطَّلِع عليه إلَّا الله؛ ولذا فالاستعانة بأهل الذِّمَّة وغيرهم من الكفَّار ينبغي أن تقيَّد بالقيود والحذَر.

فمن شروط جواز الاستعانة: ألَّا يترتَّب عليها تولِّي الكافرين في ولاية على المسلمين فلا يُجعل الكافر رئيسًا أو مديرًا على مسلمين تحتَه.

وأن يكون حسن الرأي في المسلمين، كبعض من خالطنا من الكفَّار أو درس ديننا وتبين له من محاسنه ما غَيَّرَ رأيه في هذه الشريعة.

وكذلك ألا يستعان بهم إلَّا عند الحاجة إليهم، وقد استأجر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الهجرة دليلًا مشرِكًا خبيرًا بالطرق، ولكنه كان مأمونًا.

وفيها: أنَّ بُغض الكافرين لنا بلغَ مبلغًا عظيمًا، كما يظهر في التعبير بـ ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ بدلًا من «ألسِنَتهم»، والتعبير بـ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ بدلًا من «قُلُوبهم»؛ وذلك لبيان امتلائهم بُغضًا وغَيظًا على المسلمين.

وفيها: الحِرْص على تولية الأمور واتِّخاذ المستشارِين، من الأتقياء المُخلِصين، الخبراء، الأُمناء، الثِّقات.

وفيها: أنَّه لا يجوز أن تَدفَع المصالِحُ الشخصيَّةُ المسلمَ إلى فِعْل ما يضرُّ بإخوانه المسلمين؛ لأنَّ الله نهى المسلمين في المدينة عن اتِّخاذ اليهود والمنافِقين أولياءَ، تحت تأثير القَرابة والصَّداقة والحِلْف والجوار والرَّضاع -الذي حصلَ بينهم في السابق-.

وفيها: الحِرْص على مصلحة المسلمين، وتسهيل أمورهم، وإزالة ما يشقُّ عليهم، وابتغاء الخير لهم، وتقديم النصيحة الخالِصة المفيدة لتحسينِ أحوالهم، ودفعِ الضَرَر عنهم.

وفيها: سُفولُ منزلة الكفَّار وانحطاطها؛ لقوله تعالى في الآية: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾.

وفيها: أنَّ العداوة الدِّينيَّة تدفَع إلى الاجتهادِ في الإضرار بالخَصْم، وعدم التقصيرِ في ذلك بكلِّ سبيل.

وفيها: أنَّ التحذير من الشيء ينبغي أن يقترِن بالعِلَّة؛ حتى يكتَمِل الاقتِناع.

وفيها: أنَّ كلَّ بِطانة مُفسِدة لها نصيبٌ من الذمِّ الوارد في هذه الآية، بحَسَب درجة الإفساد.

وفيها: أنَّ صاحب النِّيَّة الحسَنة الصافية، ينبغي ألَّا يغفُل عن عداوةِ الأعداء وكيدِ الكائدين.

وفيها: دليلٌ على عدم قَبول شهادة أصحاب العداوة على بعضهمُ البعض، فإذا تبيَّن للقاضي وجودُ عداوة بينَ الشاهد والمشهود عليه؛ وجبَ عليه أن يمتَنِع عن قَبول شهادته.

وفيها: أنَّ اطِّلاع صاحب العداوة على الأسرار، يُفضِي إلى ضرَر بالغ.

وفيها: أنَّ استِشارةَ الكفَّار والأَخذَ بآرائهم، دون تمحيص؛ فيه ضررٌ بالغٌ على المجتمع المسلِم، وإن أخلصَ بعضُهم فيها؛ فإنَّ مقصودَه -في الغالب- هو كَسْب الثِّقة لأجل الرِّبح وتحصيل المال، وقد يُخلِص بعضُهم في الدراسة المبدئيَّة والمشورة الأوليَّة، ليحصُل على ما بعدها من العقود الكبيرة والمصالح المُرْبِحة، فإذا تمكَّن غشَّ وخدعَ، وألحق الضرَر البالغ بالمسلمين.

ولا يَقْلِب هذا الميزانَ النوادرُ من الكفَّار، الذين يُخْلِصون في النصيحة حقيقةً دون مُقابِل؛ فالشاذُّ لا حُكمَ له.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾:

ثم استمرَّ تحذيرُ ربِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ عبادَه المؤمنين، من اليهود والمنافِقين؛ فنهى عن محبَّتهم -بعد أن نهى عن اتِّخاذهم بِطانة-؛ فقال تعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ﴾ -يا معشر المؤمنين- ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾، وكان ذلك في أول الأمرِ قبل انكِشافِ الحقائق، وظهورِ خيانات اليهود والمنافِقين، وكانت المحبَّة مبنيَّة على حُسن الظن؛ لِما كان يُظهِره المنافِقون من الإسلام، واليهودُ من المهادَنة، وكان ذلك أيضًا لأسباب القرابة والمُصاهَرة والحِلْف والمُشارَكات ونحوها.

وقيل: (المحبَّة) هنا بمعنى: الرحمة لهم؛ لِما يفعَلون من المعاصي التي يُقابِلها العذابُ الشديد.

وقيل: إنَّ (المحبَّة) هنا بمعنى: إرادة الإسلام لهم، وهم يُريدون المسلمين على الكُفر.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ أي: لا باطنًا ولا ظاهرًا، بسبَبِ اختلافِ الدِّين، واستقرارِ الكُفر في بواطنهم، والحَسَد.

﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: مع أنَّكم -يا معشر المؤمنين، تؤمِنون بكتابِهم وكتابِكم، ونبيِّهم ونبيِّكم، بينما هم يكفُرون بكتابِكم ونبيِّكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ﴾، واجتمعَ معكم هؤلاء اليهود والمنافِقون في المجالِس؛ ﴿قَالُوٓاْ﴾ نِفاقًا ومُداهنةً: ﴿ءَامَنَّا﴾ بما أنزل الله من القرآن، وبما بَعث به محمَّدًا ﷺ!

﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ أي: انفردَ بعضُهم ببعض، ورجَعوا إلى حيث لا يَراهم المؤمنون؛ ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ أي: أظهروا شِدَّة العداوة، حتى بلغ الأمرُ أنْ عَضُّوا أطرافَ أصابِعهم من شِدَّة الغيظ عليكم؛ لِـما رَأَوا من ائتلافِكم، واجتماعِ كلمتِكم، ونصرِ الله لكم.

﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها النبيُّ ﷺ، وكلّ مؤمن. والانتِقال من صيغة الجمع إلى صيغة المفرَد؛ للتفنُّنِ في الخِطاب، واستِجلاب الانتباه.

فقولوا لهم جميعًا: ﴿مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾، وهذا دُعاءٌ عليهم بالموت في حال الغَيظ والحَنَق، قبل بلوغ ما يتمنَّونه، ورُبَّما يموتون غمًّا من ازديادِ الخيرِ والنصرِ للمسلمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلَم ما في القَلْب من خيرٍ أو شرٍّ، وما انطوى عليه من الأمور المضمَرة والخواطِر، والله يُجازي على ما في القَلْب من الاعتقاد، وما يقوم بالقَلْب من الأعمال، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

و(ذات الصُّدور): صاحبة الصُّدور، وهي: النوايا والخواطِر والأحوال القائمة بالقَلْب، من الدَّواعِي والصوارِف الموجودة فيه. سُمِّيت بذلك؛ لملازَمتِها القَلْبَ وعدمِ انفِكاكها عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِنايةُ الله بالمؤمنين في كَشْف ما خفيَ عنهم من كَيد عدوهم، سواءً في مجالس الأعداء الخاصَّة، أو في نفوس الأعداء وقُلوبهم.

وفيها: شَفَقة المؤمن، ومحبَّته الخيرَ لأعدائه -مع كُرهِهم له-.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «فوالله، إنَّ المؤمن ليُحِبُّ المنافِقَ، ويأوي إليه ويَرْحمه، ولو أنَّ المنافِق يَقْدِر على ما يقدِر عليه المؤمن منه؛ لأبادَ خَضراءَه»[(١)].

والمراد بكلامه: محبَّة الهدايةِ والخيرِ للمنافِق.

وفيها: أنَّ خوف المنافِقين على دمائهم وأموالهم، يدفعُهم إلى المصانَعة ومجامَلة المؤمنين بإظهار الإيمان.

وفيها: أنَّ على المؤمن ألَّا يغترَّ بما يُظْهِره الأعداءُ من الموافَقة والمداهَنة؛ بل عليه أن يكون حَذِرًا فَطِنًا.

وفيها: أنَّ العداوة الدِّينيَّة لا تحمل المؤمن على التكذيب بشيءٍ من الحقِّ، وأنَّ مُقابَلة إيذاء الأعداء لا تكون بجَحْد ما أُوتيَ أجدادُهم من الكتاب. ولذا، فمن أركان الإيمان: الإيمان بكتب الله المنزَّلة جميعًا.

وفيها: أنَّ بُغضَ المسلِم لكُفر أهل الكتاب، لا يحمِله على جَحْد ما أنزل الله على أنبيائهم.

وفيها: أخذ الحَيطة من خَلْوة الكفَّار ببعضهم.

وفيها: الدُّعاء على الأعداء ببقاء الغَيظ إلى الموت، والتعجيل بموتهم بسببِ الغَيظ. ومِن المُشاهَد المعروف: أنَّ اشتداد بعض الحالات النفسيَّة على الإنسان قد يقتُله؛ كشِدَّة الحزن والكَمَد، وشِدَّة الغَيظ والحَنَق، وشِدَّة الغَضَب والانفعال، وشِدَّة الخوف والفزَع، بل ربَّما مات من شِدَّة الفرَح والدهشة!

وفيها: أهميَّة القَلْب، وأنَّه محلُّ العقل والإدراك والتدبير للجَسَد.

وفيها: النظر إلى الأفعال، وعدم الاكتِفاء بالأقوال، عند الحُكم على شخص ما.

وفيها: أنَّ هذه الأُمَّة أولى بالحقِّ؛ لإيمانها بما كفرَ به غيرُها ممَّا أنزله الله.

وفيها: القوَّة والحَزْم مع الأعداء، والتجلُّد لهم، وعدم إظهار الخوف منهم، ومواجَهة المعانِدين والمنافِقين بمثل عبارة: ﴿**مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ**﴾.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١).

وفيها: تنبيه المؤمنين بأنَّه: لا يَصِحُّ أن يكون الكفَّارُ أصلبَ في الباطل، من أهل الإيمان في الحقِّ.

وفيها: أنَّ من أعظم ما يَغيظ المنافِقين: ازديادَ قوَّة المسلمين.

وفيها: بِشارة للمؤمنين، بأنَّ هؤلاء الذين يَقصِدون الإضرارَ بهم لن يضرُّوا إلَّا أنفُسَهم.

وفيها: الفَرْق بينَ راحةِ المؤمن في انشِراح صدره، ومحبَّةِ الخير للآخَرين، وخُبثِ نَفْس الكافر والمنافِق، وتعاسةِ قَلْبه، ونَكَدِ نفسه، وتألُّمه بالغَيظ والحَسَد.

وفيها: أنَّ في قُلُوب الكفَّار غيظًا ما هم ببالغيه، ولا يقدِرون على إنفاذه.

وفيها: أنَّ مَن اغتاظ من المؤمنين لأجلِ إيمانهم واتِّباعهم للسُّنَّة؛ فهو من جِنس المنافِقين والكفَّار، وقد وقع مثلُ هذا من بعضِ أصحاب البِدَع الكُفريَّة، في عداوتهم وحِقدهم وغَيظهم على أهل السُّنَّة، كالخوارِج.

قال ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الصِّفة قد تترتَّب في أهل بِدَع من الناس، إلى يوم القيامة»[1].

وفي هذه الآية: ردٌّ عظيم على أرباب مبدإ «التقريب بينَ الأديان»، وما زعَموه من أنَّ طوائف البشريَّة يمكن أن تعيش مع بعضها في سلام ومحبَّة، وتقارُب وإخاء! فكيف يمكن أن نعيشَ مع أعدائنا، وقد أخبرنا الله تعالى عنهم بما أخبر، من الكَيْد والمَكْر وإرادة الشرِّ لنا؟!

وفيها: مُعاتَبة الله المؤمنين، بعقد المقارنة بينهم وبين عدُوِّهم؛ ليتَّخذوا الموقف الصحيح منهم، ويُبغِضوهم في الله، وتزول محبَّتُهم من قُلُوبهم.

وفيها: أنَّ الغَيظ من قوَّة المسلمين من صفات الكفَّار.

وفيها: أنَّ اليهود والمنافِقين جُبَناء، لا يجرُؤون على المواجَهة.

وفيها: أنَّ النِّفاق كان من صفات بعض اليهود.

---

(١) المحرَّر الوجيز (١/ ٤٩٨).

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مزيدًا من عداوة أهلِ الكتاب وغَيظهم من المسلمين؛ فقال:

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ أي: إن يصِلكم -أيُّها المؤمنون- ﴿حَسَنَةٞ﴾ سواء كانت حسَنة دينيَّة أو دُنيويَّة، مثل: نزول الوحي، واجتماعكم على العِبادات العظيمة، والنصر من الله، والغنيمة من العدُوّ، وتتابُع دخول الناس في الإسلام، وحصول الخِصْب، وصِحَّة الأبدان، والقوَّة الماليَّة، ونحو ذلك. وكلمة ﴿حَسَنَةٞ﴾ نكِرة في سياق الشَّرْط، تفيد العُموم.

فإن حصلَ هذا؛ ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ أي: تُحْزِنهم.

﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ كمرضٍ، أو فقرٍ، أو حدوثِ اختلافٍ، أو هزيمة من عدُوٍّ، أو حصول جَدْب وقَحْط؛ ﴿يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ أي: اليهود والمنافِقون، فيُسَرُّون بذلك ويبتَهِجون.

فالمقصود: أنَّ مِثل هؤلاء لا يُمكِن أن يُتَّخذوا بِطانةً.

ثم أرشدَ الله تعالى المؤمنين إلى طريقة مواجَهة هؤلاء؛ فقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على عداوتهم وأذيَّتهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربَّكم فيما نهاكم عنه -من اتِّخاذهم أولياءَ وبِطانةً- وتجتَنِبوا أسباب سَخَطه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾ ومَكْرُهم وحِيَلهم. و(الكَيْد): هو التوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم، بالأسباب الخفيَّة.

وقوله ﴿شَيۡـًٔا﴾ يعني: قليلًا، أو كثيرًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ من العداوة والمَكْر ﴿مُحِيطٞ﴾: عليمٌ به، لا يَغيب عنه من ذلك شيء.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِناية الله بالمؤمنين، في دَلالتهم على ما يُنجيهم من كَيْد أعدائهم.

وفيها: أنَّه ينبغي على المسلمين ألَّا يتسبَّبوا في حُصول ما يبتهج به الكفَّار، ويكون سببًا لشماتتهم في المسلمين، كإظهار الخلافات فيما بينهم، وكثرة الشِّقاق والنِّزاع.

وفيها: أنَّ تَرْك مُوالاة الكفَّار هو من التكاليف الشاقَّة، التي تحتاج إلى صَبر.

وفيها: أنَّ مَن وفَّى لله بالعبوديَّة، فاتقى وصبر؛ فإنَّ الله يحفظه من الضرَر.

وفيها: ذَمُّ الكَيد الخبيث -وهو: الاحتيال لإيقاع الغير في مكروه- وأنَّه من أعمال الكفَّار.

وفيها: أنَّ مَن أراد أن يكْبِت عدُوَّه؛ فليجتهد في اكتِساب الفضائل.

وفيها: أنَّ من تربية النفوس: ذِكْرَ الصَّبر في كلِّ مقام يشُقُّ عليها احتمالُه.

وفيها: أنَّ الحذَر من الأعداء الذين يخالطهم المؤمِن ويعاشِرهم أمرٌ صعبٌ، يحتاج إلى مجاهَدة، خصوصًا إذا كانوا من عشيرته وأقاربه.

وفيها: أنَّ الله لم يأمُر بمُقابَلة الشرِّ بمثله؛ بل أمرَ بمُقابَلته بالصَّبر والتَّقوى.

وفيها: أنَّ اتِّقاء شرِّ العدُوِّ يكون بالأحسن، فإذا تعذَّر دَفْعه بالأحسن؛ جاز دفعُ السيِّئة بمثلها، من غير بَغْي.

وفيها: أنَّ صاحب الصَّبر والتَّقوى ينجِّيه ربُّه من كيد عدُوِّه.

ويؤخَذ من الآية: تعريف العدُوِّ، وهو: مَن سرَّه مَساءتُك، وغمَّه فرَحُك. ويذكر العلماءُ هذا التعريف في باب «الشهادات» من كتب الفقه[1].

وفيها: أنَّ الكفَّار مهما أظهَروا لنا من الصَّداقة فهم كاذِبون؛ لأنَّ الذي تَسُوءه حسنَتُنا وتسُرُّه مُصيبتُنا لا يمكن أن يكون صديقًا؛ فكيف يُوَلَّى على شيء من أمور المسلمين؟!

وفيها: أنَّ المؤمن مُطالَبٌ في معاملة أعدائه بأمرَين: الصَّبر على ما فعَلوا، وأن يتقيَ الله فيما يَفْعَل بهم.

وفيها: أنَّ المتدرِّع بالصَّبر والتَّقوى لا يُبالي بكَيد عدوِّه، وهذا يُكسِبه القوَّة في مواجَهته.

وفيها: أنَّ العدوَّ الذي تُفرِحه مُصيبتُنا، إذا ولَّيناه شيئًا من أمورنا؛ سيسعَى لإيذائنا، ثم يفرح بذلك!

---

(١) انظر: الإنصاف للمَرداوي (١٢/ ٧٤)، كشَّاف القناع للبُهُوتي (٦/ ٤٣٢)، روضة الطالبين للنَّووي (١١/ ٢٣٧).

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمنين أن يتجلَّدوا ويتماسكوا إذا نزلَت بهم مُصيبة؛ لئلَّا يُعطوا لعدُوِّهم فرصةَ الشماتة بهم.

وفيها: أنَّ أدنى حسنَة تحصُل للمسلمين فهي تسُوء الكفَّار؛ كما يدُلُّ عليه التعبير بـ ﴿تَمۡسَسۡكُمۡ﴾، فإنَّ (المَسَّ): أدنى درجات الإصابة.

وفي المقابل: فهم يفرحون بتمكُّن المصائب من المسلمين؛ كما يدُلُّ على ذلك التعبير بـ ﴿تُصِبۡكُمۡ﴾.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى كَيْدَ الكفَّار وعداوتَهم، وفرحَهم بما يصيب المسلمين من مصائب؛ أعقبَ ذلك بمِثالٍ عمليٍّ ومُصيبةٍ كبيرةٍ ألـمَّت بالمسلمين، نتيجةَ كَيْدِ الكفَّار وعداوتِهم.

وذكرَ سبحانه مثالًا للالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في مواجَهتهم، وكيف كانت عاقبتُه النصر، كما حصلَ في غزوة بدر.

ومثالًا آخر لعدم الالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في المواجَهة؛ فكانت نتيجته المُصيبة والهزيمة، كما حصلَ في غزوة أُحُد.

فبدأ سبحانه بذِكر أمر الهزيمة في غزوة أُحُد؛ فقال تعالى:

﴿وَإِذۡ﴾ أي: واذكر -يا أيُّها النبيُّ ﷺ- إذْ ﴿غَدَوۡتَ﴾ أي: خرجتَ في أول النهار ﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾: من بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، خارِجًا إلى غزوة أُحُد، وكان ذلك صباح يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة خلَتْ من شهر شوال، سنة ثلاثٍ للهجرة.

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: تُنزِلهم وتُهيِّئ لهم ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ أي: أماكن ومراكز، يثبُتون فيها لقتال عدُوِّهم، فعيَّن ﷺ مراكزَ للرُّماة، وللفُرْسان، ولسائرِ جيش المسلمين.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِ المؤمنين، وهم يقدِّمون مشورتَهم لنبيِّه ﷺ، ويدْعُون ربَّهم سبحانه. وسميعٌ لأقوال المنافِقين، وهم يُشيرون بما يُشيرون به جُبنًا وهَلَعًا، ويتآمَرون، ويُعِدُّون للنُّكوص والانسحاب. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنِّيَّات والأحوال.

وكانت قريشٌ قد اغتاظَت من انتِصار المسلمين في بَدْرٍ، وما غَنِموه من أموالهم، ورجَعَت جيوشُـهم مقهورةً إلى مكة. فعقَدوا العَزْمَ وتعاهَدوا على أن يجتمعوا لحَرْب المسـلمين، فلمَّا استعَدُّوا وتكاملَ جَمْعُهم في ثلاثة آلاف، خرَجوا حتى نزلوا أُحُدًا يومَ الأربعاء.

وانتهـزَ النبيُّ ﷺ فُرصةَ اجتِـاعِ أصحابه يومَ الجمعة، فشـاورَهم، وقصَّ عليهم رؤيـا رآها، فأشـارَ بعضُهم بالمُقام في المدينة والتحصُّن بها للقتـال، ورأى بقيَّتهم الخروج؛ فأخـذَ النبـيُّ ﷺ برأيهـم، ولَبِـسَ لَأْمَته (دِرْعَـه)، وظاهـرَ بـينَ دِرْعَـين (يعني: لبسَ أحدَهما فوق الآخر).

فلمَّا رَأَوه لَبِسـها نَدِموا، وقالوا: يا رسـولَ الله، أقِمْ، فالرَّأي رأيُك! فقَالَ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَع أَدَاته بَعْد أَنْ لَبِسَهَا، حَتَّى يَحْكُم اللهُ بَيْنه وَبَيْن عَدُوّهُ»[١].

واسـتعرضَ النبـيُّ ﷺ أصحابَـه، فَـرَدَّ مَـن اسـتصغرَه منهـم -مثل: ابـن عمر، والبراء- وأجازَ مَن رآهم مُطيقين للقتال -كرافِع بن خَدِيج، وسَمُرَة بن جُندُب-.

وخرجَ ﷺ في نحوٍ من ألف مقاتل.

فلمَّا بلغ ثَنيَّة الوداع؛ لَحِقَت به كتيبةٌ من اليهود للقتال معه؛ فردَّهم ﷺ، وقال: «إنا لا نَسْتَعينُ بالمُشرِكينَ على المُشرِكين»[٢].

ولـمَّا بلغ ﷺ الشَّوْط -وهو موضعٌ بينَ المدينة وأُحُد-؛ رجعَ رأسُ النِّفاق عبدُ الله ابن أُبَيٍّ بثُلُث الجيش، وانسحبَ مُغضَبًا، يزعُم أنَّه لم يُؤخَذ برأيه.

وتهيَّـأ النبيُّ ﷺ للقتال في سَـبْعِمائة من أصحابه، وجعلَ خمسـين رجلًا من الرُّماة فوقَ الجبل، وأمَّر عليهم عبدَ الله بنَ جُبَير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال لهم: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا»[٣].

وفي هذه الآية من الفوائد:

حُسن تدبير النبيِّ ﷺ في الحَرْب، وبراعته في ذلك.

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٤١)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم (٩/ ١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في فقه السيرة (ص٢٥٧).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٤٨)، والحاكم (٢/ ١٣٣)، وانظر: الصحيحة (١١٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٠٤٣).

وفيهـا: أنَّه ينبغي على القائد تعيينُ أماكن المقاتِلين، وترتيبُ الجيش، وتعريفُ كلِّ واحد بمهامه، وأنَّ الأفضل أن يتولَّى ذلك بنفسه.

وفيها: شهادة الله بالإيمان لمن شهد أُحُدًا؛ لأنَّ المنافِقين انخذَلوا قبل أن يَصِلوا إلى مكان القتال.

وفيهـا: فَضْل عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنَّ الله تعالى نصَّ على أنَّها من أهـل نبيِّه، وقد خرجَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عندها للقتال.

وفيها: استحباب الخروج للقتال من أول النهار؛ لقوله: ﴿غَدَوْتَ﴾.

وفيهـا: حـثُّ المقاتِلين المسـلمين على الثبات في الأماكـن التي عيَّنها الإمـام لهم للقتال، وعدم تغييرها إلَّا بإذنه، فَضْلًا عن التولِّي والانسحاب. ومعلومٌ أنَّ المقاتِل يحتاج إلى الحركة والتقدُّم والتأخر عند القتال؛ فكان المقصود بـ(المقاعد): ثبات المقاتِلين ولزومهم أماكنهم.

وفيها: معيَّة الله تعالى للمؤمنين؛ فهو سبحانه يَسْمَع كلامهم، ويعلَم حالهم، ويُثَبِّتهم، ويجيب دعاءَهم.

وفيهـا: أنَّ محبَّـة الأهـل ينبغي ألَّا تمنع من الخـروج للقتال في سـبيل الله، ولا تَحُول دون التضحية.

وفيهـا: تذكيرُ النبـيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بهذا الموقف العظيم، وقصُّهُ على مَن بعدَهم في الكتاب العزيز؛ لأخذ العِبرة والعِظة منه.

وفيها: إطلاق (الأهل) على الزوجة.

وفيها: اتِّخاذ الأسباب لملاقاة العدو.

وفيهـا: أنَّ الجهـاد يلزَم بالشروع فيـه، وأنَّ الأصل فيمَن تهيَّأ وخرجَ أنَّـه لا يَرْجِع، ولذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن لَبِسَ دِرْعَه: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَع أَدَاته بَعْد أَنْ لَبِسَـهَا، حَتَّى يَحْكُم الله بَيْنه وَبَيْن عَدُوِّه»(١).

(١) رواه الحاكم (٢/ ١٤١)، وعلَّقه البخاري بصيغة الجزم (٩/ ١١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في فقه السيرة (ص٢٥٧).

وفيها: أنَّ الله مُطَّلِعٌ على قُلُوب المنافِقين، عليمٌ بما فيها، يَسْمَع كلامهم وما يُحيكونه ويدبِّرونه من مؤامرات. كما أنَّه عليمٌ بما في نفوس المؤمنين، وسيُجازِي هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ بنيَّته وعمَله.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

لـمَّا انخذلَ رأسُ النِّفاق عبدُ الله بنُ أبيٍّ ومَن معه، ورجعَ بثُلُث الجيش؛ همَّت جماعتان من المسلمين أن يتخلَّفوا ويَرْجِعوا معه، ولكنَّ الله عصمَهم من ذلك، وثبَّتهم، وامتنَّ عليهم وعلى نبيِّه ﷺ وعلى المؤمنين بهذا؛ فقال تعالى:

﴿إِذْ هَمَّت﴾ أي: واذكر -يا أيُّها النبيُّ ﷺ- إذْ قصدَتْ وأرادَتْ ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ وهم: بنو حارِثة من الأَوْس، وبنو سلِمَة من الخَزْرج، وكانا جناحَي عسكر رسول الله ﷺ ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تَضعُفا وتجْبُنا، وتَرْجِعا عن القتال. و(الفَشَل): هو الكَسَل والضَّعْف، والتراخي، والخَوَرُ والجُبْن. و(الهمُّ): يُطلَق على مجرَّد حديث النفس، ويُطلَق كذلك على العَزْم والتصميم. ولعلَّ المقصود هنا الأول؛ لأنَّه لم يصِل إلى حَدِّ العِصيان.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: يَعْصِمهما، ويتولَّى أمورهما. وهذه الولاية خاصَّة بالمؤمنين، تقتضي العِناية والحماية والنُّصرة.

ولذا قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾: بَنِي سَلِمَةَ وبَنِي حارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنزِلْ، والله يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[1].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليعتمِدوا عليه، وليَثِقوا به في أمورهم، لا بحَولهم ولا بقوَّتهم. و(التوكُّل) على الله: هو تفويض الأمر إليه، ثقةً بحُسْن تدبيره، مع الأخذ في الأسباب المشروعة.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المؤمن قد يعتَريه الضَّعْف في بعض الأحوال؛ فينبغي عليه أن يعتَصِم بالله.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥١)، ومسلم (٢٥٠٥).

وفيها: أنَّ المثبِّطين والمتخاذِلين لهم تأثيرٌ سيءٌ في نفوس غيرهم؛ فينبغي عدمُ الاغترار بمواقِفهم، وتَرْكُ تقليدِهم واتِّباعِهم.

وفيها: لُطف الله بالمؤمنين، في تثبيتهم على الحقِّ.

وفيها: أنَّ من مقتَضيات ولاية الله للمؤمن: أن يَعْصِمَه ربُّه من الشرِّ والوقوعِ في الحرام.

وفيها: أنَّ على المؤمن أن يتوكَّل على الله، خاصَّة في أحوال الشِّدَّة.

وفيها: أنَّه كلَّما قويَ الإيمانُ؛ قويَ التوكُّل.

وفيها: تحريم تقليد الغير في المعصية.

وفيها: إعانة الله للمؤمنين على إتمام العِبادة والقيام بالطاعة.

وفيها: أنَّ صِدق الاعتِماد على الله والتوكُّل عليه، يقتضي الأَخْذ بالأسباب.

وفيها: أنَّ مجرّد حديث النفس بالمعصية، لا يُخرج صاحبَه عن ولاية الله تعالى.

وفيها: أنَّ مَن عرض له عارضُ نَقْصٍ أو نُكوص؛ فإنَّه ينبغي عليه أن يُقاوِمَه بالتوكُّل على الله.

وفيها: إطلاق (الفَشَل) على مَن تولَّى عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وهذا هو المثال الذي ذكرَه الله تعالى للالتِزام بالصَّبر والتَّقوى في مواجَهة الأعداء، وكيف كانت عاقبتُه النصر.

فلـمَّا ذكر تعالى مَطلَع غزوة أُحُد، وكان فيها ما كان من التنازُع والعِصيان، وإرادة الدُّنيا، والمُصيبة الكبيرة التي حصلَت بسبَبِ ذلك؛ ذكَّر المؤمنين بغزوة بَدْرٍ، وما كان فيها من التوكُّل عليه والصَّبر والتَّقوى، فكان النصرُ.

فذكَّرهم بمِنَّته عليهم فيها؛ ليُخفِّف عنهم ما وقعَ عليهم في أُحُد؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ -أيُّها المؤمنون- بصبركم وتوكُّلكم ﴿بِبَدْرٍ﴾.

و(بَـدْر): اسـم موضع بينَ مكة والمدينة، سُـمِّيت على اسم بئـرٍ فيها، تُنسَـب إلى رجلٍ حفرَها، يُقال له: «بدر بن قُرَيش»[١].

وكانـت عندَهـا الموقعـة العظيمـة، التي خرجَ فيها رسـولُ الله ﷺ، مـع ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا من المسـلمين، فيهم فَرَسـانِ وسـبعون بعيرًا، وأكثرهم مُشاة، حتى لقُوا كفَّار قريش في السـابع عشر من رمضان، سنة اثنتين من الهجرة، وكان العدُوُّ بينَ التِّسْعمائة إلى الألـف، مـع عُـدَّة كاملة، مـن الحديـد والأَدْرَاع والخيل المسـوَّمة، والحُلِـيّ، والفَخْر والخُيَلاء.

لكـن الله تعـالى أعَزَّ نبيَّـه ﷺ، وأظهرَ دينَـه، وأخزى الشَّـيطانَ وجنـدَه، فنكَصَ الشَّيطانُ على عَقِبَيه، وولَّى الكفَّار مُنهزِمين، والمسلمون يقتُلون فيهم ويَأْسِرون.

هذا مع أنَّ المسلمين كانوا ضُعَفاء أذِلَّاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ أي: ضُعَفاء بقِلَّة الحـال والمال، والسِّـلاح والعدَد، فلم يتجاوز عددُ المسـلمين ثُلُث عـدَد المشركين؛ لتعلَموا أنَّ النـصر إنَّما هـو من عند الله، لا بكثرة العدَد ولا العُدَد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفِعْـل مـا أمرَكم به عنـد القتال، من: الصَّـبر، والتـوكُّل، وطاعة الأمير، والثَّبات، وعدم التولِّي، وإرادة الآخرة، لا إرادة الدُّنيا.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: تقومون بشُكر نِعمة النصر، التي حصلَت لكم بالتَّقوى والأَخْذِ بالأسباب، ولا تُصابون بالأَشَر والبَطَر إذا انتصرتُم.

ولـذا: لـمَّا جاءَ عُمرَ بـنَ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطـابٌ من بعضِ أمرائـه في معركة اليرموك، يطلُب منه المدَدَ؛ قال: «إنَّه قد جاءَني كتابُكم تستَمِدُّوني، وإنِّي أدُلُّكم على مَن هو أعزُّ نصرًا وأحـضرُ جُندًا: الله عَزَّ وَجَلَّ، فاستَنصِروه؛ فـإنَّ محمَّدًا ﷺ قد نُصِرَ يومَ بَـدْرٍ في أقَلَّ من عِدَّتكم، فإذا أتاكُم كتابي هذا فقاتِلوهم، ولا تُراجِعوني». فقاتَلوهم فهزَمُوهم[٢].

---

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ٣٥٤)، البداية والنهاية (٣/ ٢٢٤).

(٢) رواه أحمد (٣٤٤)، وصحَّح إسنادَه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير (٢/ ١١١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَقد المقارَنات، وإجراء التعقيبات على الأحداث؛ لتربية النفوس.

وفيها: تذكير الله لعباده بمِنَّته؛ ليشكروه عليها.

وفيها: أنَّ النصرَ في بَدْرٍ نِعمةٌ على جميع الأُمَّة؛ لأَنَّه كان من أسباب بقاء دِينها.

وفيها: أنَّ النصر من عند الله، لا بكثرة العَدَد والعُدَد.

وفيها: أنَّ الضعيف إذا توكَّل على الله نصرَه؛ فاستعمال جمع القِلَّة في قوله: ﴿أَذِلَّةٌ﴾، يدلُّ على ما كان عليه المسلمون في بَدْرٍ من ضَعف الحال، وأنَّه كلَّما كان الإنسانُ أذلَّ لله؛ كان أقربَ إلى نَصْر الله، وإذا شعرَ أنَّه مستغنٍ عن ربِّه؛ عاقبَه وأذلَّه.

وفيها: أنَّ تقوى الله من شُكره سبحانه.

وفيها: استخراج عبوديَّة نفوس المؤمنين في السَّرَّاء والضَّرَّاء، بما يتوالى عليهم من الانتصار، والانكسار.

وفيها: أنَّ العِبرة بعِزَّة التَّقوى والإيمان، لا بقلَّة المال وذِلَّة الحال.

وفيها: تحقيق ولاية الله تعالى، والافتِقار إليه، قبل إعداد السلاح والعَدَد والعُدَّة.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى عن نبيِّه ﷺ، أنَّه وعدَ المؤمنين بمَدَد من الله يأتيهم، وهو ثلاثة آلاف من الملائكة، وإذا صبَروا واتقَوا وجاء الكفَّار من فَوْرِهم؛ يزيد العدد إلى خمسة آلاف؛ كَبْتًا للكفَّار وخِزيًا لهم.

وقد اختلفَ المفسِّرون في هذا الوَعد: هل كان في غزوة بَدْر أم في أُحُد؟

فقيل: كان هذا في غزوة بَدْرٍ؛ ويدلُّ على هذا أنَّ قول الله تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وهي الغزوة التي قطعَ الله فيها طَرَفًا من الكفَّار، وقتلَ منهم سبعين، وأخزاهم وردَّهم خائبين.

فإن قيل: فما وَجْه الجَمْع بين قول الله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] وبين هذه الآية؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى أمدَّ المؤمنين يومَ بَدْرٍ بألفٍ من الملائكة، بمقدار جيش المشرِكين، وكان المسلمون قد سَمِعوا أنَّ المشرِكين سيمُدُّون إخوانَهم بزيادةٍ عن الألف، فشقَّ عليهم؛ فوعدَهم الله تعالى -في آية «آل عمران» هذه- بالمَدَد إن فعلوا إلى ثلاثة آلاف، ثم إلى خمسة آلاف؛ بِشارةً من الله وتثبيتًا للمؤمنين.

وقوله تعالى في آية «الأنفال» ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ يدُلُّ عليه أيضًا؛ لأنَّ معناه: أنَّه يُرْدِفهم غيرَهم، ويُتبِعهم ألوفًا مثلَهم.

والقول الثاني: أنَّ هذا الوَعْدَ كان في غزوة أُحُدٍ، واحتَجُّوا على هذا بأنَّ سِياق الآياتِ في سُورَة «آل عمران» إنَّما هو عن غزوة أُحُد، وجاء ذِكرُ يوم بدرٍ عَرَضًا، ثم رجعَ السِّياق إلى غزوة أُحُد؛ فقوله تعالى ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾.

قالوا: وقد وعدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين بأنَّ الله سيُمِدُّهم بثلاثة آلاف من الملائكة -على عدد الكفَّار الذين كانوا في أُحُد- وأنَّ العدد سيزيد إلى خمسة آلاف إذا صبَروا واتقَوا؛ فهو وَعْدٌ مشروط.

فلمَّا وقعت المعصيةُ وحصلَ الفِرارُ من المسلمين، وتخلَّف الشَّرْطُ؛ لم يحصُل الإمداد، فلم يُمَدُّوا بملَكٍ واحدٍ.

قالوا: والطَّرَف الذي قُطِعَ من الكفَّار هو قتلاهُم في أُحُد، وخَيْبتُهم بعدَمِ قَتْلِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدَمِ استِئصال المسلمين.

واحتَجُّوا على هذا القول أيضًا: بأنَّ إنزالَ الملائكة في بَدْرٍ كانَ غير مشروط -كما في آية «الأنفال»- بينما هو هنا -في سُورَة «آل عمران»- مشروط، وكان الوَعْد هناك من الله مباشرةً، وهُنا من نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين، وأنَّ المشرِكين في بَدْر لم يأتُوا من فَوْرِهم.

وأكثر المفسِّرين على القول الأول -أنَّ هذه الآيات نزلَت في بَدْرٍ-. وعلى هذا؛ فيكون

ابتداءُ عَوْد السِّياق القرآني إلى غزوة أُحُد هو من قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧] -كما سيأتي-.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ -أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم: الصَّحابة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ (الكِفاية): سَدُّ الخَلَّة، والقيام بالأمر. والاستِفهام للإنكار؛ أي: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنكِر عليهم عدمَ اكتِفائهم بذلك المَدَد من الملائكة.

وقيل: الاستِفهام للتقرير بما استقرَّ في نفوسِهم واعتَقدوه، من كِفاية المَدَد بهؤلاء الملائكة.

﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ ويُعينكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء لنُصرتكم. والله هو المُنْزِل؛ لأنَّهم لا ينزِلون إلَّا بأمره.

﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف إثبات؛ أي: بلى، يكفيكم الإمداد بهم.

ثم وعدَهم الله تعالى بزيادةٍ، لكنَّها معلَّقة على شَرْط، فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟﴾ مع نبيِّكم على لقاء العدُوِّ، وتثبُتوا، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ معصية الله، بعدمِ مخالفة أمرِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعدمِ التولِّي يومَ الزحف.

﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من ساعَتهم هذه، أو من جِهَتهم التي جاءوا منها، أو من الغَضْبة التي غَضِبوها.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ فورًا وحالًا، من غير تراخٍ ولا تأخير ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مددًا من عِنده ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلَّمين بعلامات القتال، إمَّا في خيولهم -في نواصيها وأعرافها، أو أذنابها- وإمَّا أن تكون العلامة للملَك نفسِه -بصُفرةٍ في اللَّون مثلًا- وهكذا الشُّجعان يجعَلون لهم علامات في الحَرْب ليُعرَفوا بها.

وفي الآيتَين من الفوائد:

حِرصُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعزيز نفوس المؤمنين، بنقل البِشارة إليهم من الله.

وفيها: حِرْص القائد على بَعْث الأمل والتفاؤل، في نفوس جنوده.

وفيها: تذكير الخارجين إلى الجهاد في سبيل الله بوَعد الله بالنصر؛ ليزدادوا إقدامًا.

وفيها: شاهدٌ لقوله تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفيها: خطورة المعصية على الجيش.

وفيها: أنَّ تقوى الله من شروط النصر.

وفيها: أنَّ المَعونة من الله على قَدْر المَئُونة؛ لقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾، فإذا زادَ الخطرُ بسُرعة قدومِ الكفَّار؛ زادَ المَدَدُ للمسلمين من الله.

وفيها: تأييد الله للمجاهِدين في سبيله بالملائكة -ولهم وظائفُ في هذا-.

وفيها: تثبيت المؤمنين، وتكثير عدَدهم، ومباشرة القتال ضد الكفَّار، وزَلْزَلة قُلُوب الكافرين، وهذا التأييد مستمرٌّ إلى قيام الساعة.

وفيها: عدم الاكتِفاء بالأسباب الظاهرة من العَدد والعُدد، وعدم اليأس بسببِ القِلَّة والذِّلة.

وفيها: أنَّ الملائكة أجسامٌ، ويُحصَوْن بالعَدَد.

وفيها: أنَّ مَوْطِن الملائكة في السماء.

وفيها: أنَّ المدَد الأعظم والمُرجِّح للنصر، قد لا يكون مرئيًّا، كما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وفيها: استِعمال الشارَة والعلامة؛ لتمييز المقاتِلين وكتائبِهم.

وفيها: أنَّ قوَّة الملائكة أكبر من قوَّة البشر.

فإن قيل: إذا كان الملَك الواحدُ كافيًا لقَلْبِ موازين المعركة؛ فلماذا أنزلَ الله ألفًا، ووعد بثلاثة آلاف وخمسة آلاف؟

فالجواب: أنَّ ذِكر العدَد الكثير أعظمُ في التأييد، وأمكنُ في التثبيت، ويكون الملائكة كالمدَد، بينما يتولَّى المجاهِدون مباشرة القتال بأنفُسهم.

وفيها: أنَّ التوكُّل على الله لا يُنافي الأَخْذَ بالأسباب. ومع أنَّ الأصل هو الاعتماد الكامل على الله؛ إلَّا أن اتِّخاذ الأسباب يَزيد نفوسَ المؤمنين طُمأنينة، ويوافِق سُنَّة الله القدريَّة والكونيَّة

في ارتباط النتائج بالأسباب، ولذلك فالمطلوب من العبد: اتِّخاذ ما أمكنَه من الأسباب -ولو كانت ضعيفة- والسَّبَب الضعيف يكون له نتيجةٌ وأثرٌ كبيرٌ بالتوكُّل على الله.

وفيها: أنَّ الأقوياء والضُّعَفاء مطالَبون جميعًا بالأَخْذ بالأسباب.

وفيها: أنَّ بَعْثَ المَدَد شيئًا بعد شيءٍ، أبلغُ من إرساله جميعًا في وقت واحد.

وفيها: أنَّ النصر مع الصَّبر، وأنَّ مع العُسر يُسرًا، وأنّ الفَرْج بعد الشِّدَّة.

وفيها: أنَّ البِشارةَ المشروطة -بتعليقَ المَدَد والنصر على شروطٍ-؛ لا تتحقَّق إلَّا بتحقيق هذه الشُّروط.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾:

ثم قال تعالى عن الحِكمة من البِشارة، وإخبار المؤمنين بها:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: الإمداد بالملائكة، والوَعْد بذلك، والإخبار من نبيِّه ﷺ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وتطييبًا لقُلُوبكم، وتطمينًا، ولتكونوا أنشطَ وأقوى في قتال العدُوِّ. و(البُشرى): هي الخبر بما يَسُرُّ.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: تثبُت وتَسْكُن، ويزول عنها الخوف.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ على الأعداء ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، لا من عند غيره ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: القويّ، الذي لا يُغلَب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذو الحِكمة والإحكام، في قدَرِه وشَرْعِه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إدخال السُّرور على قُلُوب المؤمنين.

وفيها: لُطف الله بأوليائه، في تثبيت قُلُوبهم.

وفيها: أنَّ إمداد المؤمن بما يُعينه على الطاعةِ وتحقيقِ مُراد الله، هو مِن أسباب طُمأنينتِه وسُرورِه.

وفيها: أنَّ رجاء النصر مِنَ الله، لا مِن غيره.

وفيها: نَقل الأخبار السارَّة إلى المقاتِلين في سبيل الله، وعدم التشويش عليهم وتكدير خواطرهم بالأخبار المُحزِنة والمُقلِقة، وهذا من التعبئة النفسيَّة للمُجاهِدين في سبيل الله.

وفيها: أنَّ الله لا ينصُر إلَّا مَن اقتضَت حِكمتُه نصرَه.

وفيها: أنَّ القوَّة بلا حِكمة قد تكون طَيشًا وسَفَهًا، والحِكمة بلا قوَّة ضَعفٌ ونقصٌ، والسَّفيه الضعيف أسوأ المراتب. وأمَّا أفعال الله تعالى: فهي مبنيَّة على حِكْمته وقوَّته.

وفيها: أنَّ تخلُّف النصر عن المسلمين -أحيانًا- فيه حِكمةٌ بالغةٌ؛ كالتمحيص، والابتلاء، واتِّخاذ الشُّهَداء.

وفيها: عدم الاعتِماد على الأسباب مع اتِّخاذها، وجَعْل التوكُّل والتفويض الكُلِّي والاعتِماد التامّ: على الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

وفيها: عدم اليأس من النصر، ولو فُقِدت أسبابُه الدُّنيويَّة.

وفيها: أنَّ المؤمنين لا يعتَمِدون في النصر على المَدَد -ولو كان نزولَ الملائكة-؛ وإنَّما يعتَمِدون على الله عَزَّوَجَلَّ، القادِر على نصرِهم بأمرِه، وقد قال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وفيها: مجاهَدة النفوس لتجريد التوحيد؛ فإنَّ أكثر الناس كلَّما اشتدَّ اتِّخاذُهم للأسباب، وإعدادُهم وإحكامُهم لها؛ ازدادوا اعتِمادًا عليها.

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى المقصودَ والعِلَّة من فَرْضِ الجهادِ، والإمدادِ بالملائكة، وإنزالِ النصر؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (الطَّرَف): هو منتهى الشيء، من أسفله أو من أعلاه. والمراد هنا: المحارِبون من الكفَّار، أو: طرَف المشركين القريب من المسلمين، أو: هم الذين يبدأ الجهادُ والقتالُ معهم.

والمعنى: إنَّما أمَركم اللهُ بالجهاد ومقاتَلَة الأعداء؛ ليُهلِك طائفةً من الكفَّار.

فـإنْ كانت الآية في غزوة بَـدْر؛ فالأمر واضحٌ بما حصل من قَتْل صناديدهم. وإن كانت الآية في غزوة أُحُد؛ فالمقصود: الثمانية عشر من الكفَّار الذين قُتلوا يومَها.

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أي: يُخـزي، ويُحـزِن، ويَغيـظ هـؤلاء الكَفَـرة؛ ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ أي: يَرْجِعـوا إلى بلادهـم ﴿خَآئِبِينَ﴾: لم ينالـوا خـيرًا، كـما حصلَ يوم بَـدْرٍ مِن عودتهم فارِّيـن منهَزِمين، وكـما حصلَ يـوم أُحُد مِن عودتهم دونَ حصولِ مقصودِهم الـذي خرَجوا من أجلِه -وهو استئصال المسـلمين والقضاء التامّ عليهم- وكما حصلَ يوم الخَنْدَق من رجوعِهم دونَ أن ينالوا شيئًا من مقصودِهم، ودون أن يتحقَّق شيءٌ ممَّا أمَّلوه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ أحـكام الله وتشريعاتـه إنَّما فرضَها لِحِكَم عظيمة، ومن أسـمائه سـبحانه: (الحكيم)، ومن صِفاتـه: (الحكمة)، و(اللَّام) في قوله ﴿لِيَقۡطَعَ﴾ للتعليل، والتعليل: هو بيان الحِكْمة من الشيء.

وفيهـا: أنَّ القضـاءَ بالهلاك لن يكـون على جميع الكفَّار، ولكن على طَـرَفٍ منهم، ويُبقي الله منهـم مَن يُبقـي لإبقاء سُـنَّة التدافُعِ بينَ الإيـمان والكُفر، والصراعِ بينَ الحـقِّ والباطل. وفي ذلك حِكَم عظيمة؛ منها: تبيينُ أهل الإيمان، وكَشْـفُ أهل النِّفاق، والتمحيصُ، واتِّخاذُ الشُّهَداء، وغير ذلك.

وفيها: أنَّ الله ينتَقِم من أعدائه: إمَّا بإهلاكهم، أو إذلالهم وخِذلانهم.

وفيها: أنَّ إهلاكَ أعداء الله وكَبْتَهم، هو عادةٌ لربِّ العالمين معهم؛ كما يدلُّ عليه استعمال الفِعْل المضارع (يَقْطَع) و(يـكْبِت).

وفيها: البَدْء بقتال الذين يَلُون المسـلمين من الكفَّار قبل غيرهم؛ لأنَّهم الأخطرُ والعدُوُّ الأقـرب، ولأنَّ المسـلمين مُطالَبون بفَتْح بلاد الكفَّـار بلدًا بلدًا، مبتَدِئـين بأقربِها إليهم، ثمَّ تتوسَّع الفتوحات.

وفيها: شِـدَّة وَقع الخَيبة على نفوس الكفَّـار؛ لأنَّ الخَيبة لا تكون إلَّا بعد أملٍ، فتذهَب آمالُهم، وتخيب مساعيهم.

وفيها: أنَّ الحزن الشديدَ يُصيب الكَبِدَ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾، وأصلُه -عند كثيرٍ من أهل العلم-: «يَكْبِدَهم»، أي: يُصيبهم بالحُزن والغَيظ في أكبادِهم، فأُبْدِلَت (الدال) تاءً[١].

وفيها: أنَّ الله تعالى يقضي على الكفَّار بتجرُّع الآلام النفسيَّة، كما يصيبُهم بالآلام الجسديَّة أيضًا.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾:

وردَ في سبَب نزول هذه الآية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[٢] يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾[٣].

وقد ورد سببٌ آخر في نزول هذه الآية: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ من الرُّكُوعِ من الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ من الفَجْرِ يَقُولُ: «اللهُمَّ العَنْ فُلانًا وَفُلانًا وَفُلانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾[٤].

وقد جاء في بعض الرِّوايات ذكرُ أسماء مَن وردَ لعنُهم، وقد أسلَموا يومَ الفَتْح؛ فقد كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهُمَّ العَنْ أَبَا سُفيَانَ، اللهُمَّ العَنِ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللهُمَّ العَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ»... فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِم، فأَسْلَمُوا، فَحَسُنَ إسلامُهم.

وفي رواية: «فتيبَ علَيْهِم كُلِّهم»[٥].

ولعلَّ هذا هو السَّبَب في مُعاتبة الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بقوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، يعني: إنَّ أمرَ هؤلاء كلَّه بيدِ الله وحدَه.

---

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن للقيسي (١/ ١٧٤)، تفسير البغوي (٢/ ١٠١)، تفسير القرطبي (٤/ ١٩٨).
(٢) وهي: السِّنّ التي تلي الثنيَّة من كل جانب، وللإنسان أربع رباعيَات.
(٣) رواه مسلم (١٧٩١).
(٤) رواه البخاري (٤٠٦٩).
(٥) رواه الترمذي (٣٠٠٤)، وأحمد (٥٦٧٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

ويمكن الجَمْع بين روايات سبَب النزول: بأنَّ النبي ﷺ لـمَّا أُوذيَ في أُحُد، دعا عليهم في صلاته؛ فنزلَت الآية في الأمرَين معًا.

وقولـه تعـالى ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ -أيُّـها النبـيُّ ﷺ- ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أي: مـن حُكـمِ هـؤلاء في الدُّنيا والآخرة، وحسـابِهم وتدبـيرِ أمرِهم، وليس لك أن تدعـوَ عليهم بالهلاك؛ فرُبَّما يهديهم الله، ويتجاوَز عنهم.

فلذلك قال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بإسلامهم بعد الكُفر.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إذا أصرُّوا على الكُفر؛ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: من أجل بَغيهم وعُدوانهم سيَحيق بهم العذاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ مصيرَ الأشـخاص بيَـد الله وحدَه، وليس لأحدٍ من النـاس -كائنًا مَن كان- الحُكم في ذلك.

وفيهـا: أنَّ النبي ﷺ لا يملِك شـيئًا من الأمر الكـونيِّ، ومن ذلك: هداية التوفيق والإلهام.

وفيها: أنَّ الله قد يتوب على أعتَى الناس وأشدِّهم كُفرًا، ويهديه.

وفيها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعذِّب إلَّا بذنب.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية البلاغ والدَّعوة، وأمَّا تدبير أمور العِباد وحسابهم: فعَلَى الله تعالى، كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وفيهـا: عـدَم لَعن الكافر الحيِّ المُعيَّن؛ لأنَّه قد يُسْـلِم، ولا ندري بِمَ يُختَم له. لكن يجوز لَعْـنُ جِنـس أصحاب الكُفـر والمعصية، فنقول: «لعنـة الله على الكافريـن»، و«لعنة الله على الظالمين»، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ المُصِرَّ على الكُفر ظالمٌ لنفسه، مستَحِقٌّ للعذاب.

وفيها: أنَّ العبد قد يختار شيئًا، والمصلحة في غيره.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلَم الغَيب.

وفيها: أنَّ على صاحب الدَّعوة المستَجابة أن يجعل دعاءَه فيما ينفع الخَلْق، كالدُّعاء بهدايتهم.

وفيها: عدم استِبعاد هداية صناديد الكُفر.

وفيها: أنَّه مهما اشتدَّ أذى الكفَّار؛ فإنَّ المسلم لا يدعو على أعيانهم باللَّعْن، ولا يقطع بعدَم فلاحهم؛ فقد يُسلِمون ويهتَدون، ولكن له أن يدعوَ الله بأن يكُفَّ شرَّهم وبأسَهم، وأن يَرُدَّ كيدَهم في نَحْرهم.

وفي الآية: سَعَة رحمة الله، وأنَّها يمكِن أن تُدرِك صناديد الكُفر، فيدخلون في دين الإسلام، ويتوب اللهُ عليهم من أذيَّتِهم لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَتْلِهم المؤمنين.

وفيها: أنَّ هدايةَ الله لهؤلاء وتوبتهم إليه، هو فَضْلٌ خالصٌ منه تعالى، ومِنَّةٌ وكرمٌ، ولذلك أسندَ الفِعْل إليه فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُسْنِده إليهم بقوله: «يتوبوا».

وأيضًا: فيمكن أن يعذِّب هؤلاء الكافرين عذابًا مباشرًا من عنده، لا بأيدي المؤمنين، كما قال: ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، بخلاف ما جاء في آيةٍ أخرى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يقع منه ما هو خلاف الأولى والأفضَل، ولكن الله -مِن محبَّته له- يُرْشِده إلى الأفضل والأكمل؛ ليصيرَ دائمًا في الكمال اللَّائِق به، ولبيانِ بشريَّته، وليكون قُدوةً لمن بعده. وفي هذا: ردٌّ على الغُلاة، الذين يرفَعون الأنبياء والأولياء فوق منزلتهم التي أنزلَهم الله إيَّاها.

وفيها: ردٌّ على كلِّ مَن أعطى أحدًا من البشر الحقَّ في التشريع في الدِّين -بالنقص، أو الإضافة، أو النَّسخ، أو التغيير- كما فعل الغُلاة بالأئمة الاثني عشَر، وغيرهم.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية أن يَعْلَم أنَّه يدعو إلى الله، لا إلى نفسه؛ فمهما اشتدَّت عداوةُ المدعُوِّين وإيذاؤهم له؛ فلا ينبغي أن يدعوَ عليهم بالهلاك والاستِئصال واللَّعن؛ فقد يهديهم الله.

ولا يدعو على أعيانهم باللَّعْن، ويقطَع بعدم فلاحهم، ولو كانوا كُفَّارًا؛ فقد يأذَن الله بإسلامهم، أو يُخرِج من أصلابهم مَن يعبُده لا يُشرِك به شيئًا؛ فليدعُ لهم بالهداية والصلاح، وله أن يدعوَ على مَن آذى المسلمين منهم، بأن يكُفَّ الله شرَّه وبأسَه، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه ليس كلُّ مستَحِقٍّ للعقوبة يُعاقَب فورًا، وقد يكون في تأخيرها أو عدم إيقاعها صلاحٌ له، ورجوعٌ عن الباطل.

وفيها: أنَّ النِّعمة قد تحصُل للعبد من غير سبَب منه؛ رحمةً من الله، لكن العذابَ لا يحصُل إلَّا بظلمٍ من العبد.

وفيها: أنَّ ولاية الله للعبد، لا تمنَع حصولَ الأذى له.

وفيها: أنَّ قَبول توبة التائب خاصٌّ بالله تعالى وحدَه، وليس لأحدٍ من البشر قَبولُ ذلك أو ردُّه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾:

ثم أكَّد الله تعالى أنَّ بيدِه الأمرَ كلَّه، وأنَّ جميع ما في السماوات وما في الأرض هو تحتَ حُكمه وتصرُّفه، ليس لأحدٍ نصيبٌ في ذلك؛ فقال:

﴿وَلِلَّهِ﴾ (اللام) هنا للاستِحقاق والمُلك والاختِصاص ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الأملاك، والجنِّ والإنس، والجمادات، وجميع المخلوقات، يتصرَّف فيها كما يشاء، ويقضي في خَلْقه بما يشاء.

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بفَضْله ورحمته ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعَدْله وحِكمته.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٞ﴾ يَعفو ويَصْفَح سبحانه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله يتصرَّف في خَلْقه كيف يشاء، ولا مُعَقِّب لحُكمه.

وفيها: أنَّ مغفرة الذُّنوب حقٌّ لله تعالى، لا يُشارِكه فيه غيرُه.

وفيها: إثبات تعدُّد السَّماوات.

وفيها: إثباتُ تمامِ سُلطانِ الله تعالى في مُلكه، وأنَّ له الأمر في التعذيب والمغفرة، وهذا مقرون بالحِكمة.

وفي تقديم ذِكر (المغفرة) على (العذاب) في الآية: دليلٌ على أنَّ رحمته تسبِق غضَبه.

وفيها: أنَّ مغفرة الله على سبيل التفضُّل، لا على سبيل الوجوب، ولا يجب على الله إلَّا ما أوجبَه سبحانه على نفسه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾:

ثم نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن أَكْلِ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، كما كانت عادةُ المشرِكين في هذا الوقت.

وقد اختلف المفسِّرون في مُناسبة ذِكر تحريم الرِّبا، في سياق آيات غزوة أُحُدٍ، أو بَدْر.

فقيل: لا يلزَم وجود مُناسَبة؛ وإنَّما هو انتِقال من موضوع لآخر، ثم رجوع له، بحَسَب نزول الآيات، ثم كتابتها في المصحَف.

وقيل: لـمَّا كان سياق الآيات السابقة هو في الجهاد ومحاربَة الكفَّار؛ نهى الله تعالى عن الرِّبا، الذي فيه مُحارَبة الله ورسوله لِمَن أصرَّ عليه.

وقيل: لـمَّا كان الجهاد يحتاج إلى نفقات، وكان المشرِكون قد أنفَقوا على جيوشهم أموالًا جمَعوها من الرِّبا؛ نهى الله تعالى المؤمنين عن اتِّباع سبيلهم -وسبيل اليهود- ولو في تجهيز الجيش للجهاد.

وقيل: لـمَّا أرشدَ الله تعالى المؤمنين إلى الأصلح في أمر الدِّين والجهاد؛ أَتْبعَ ذلك بشيءٍ من الأمر والنهي والتكاليف الشرعيَّة؛ فنهى عبادَه عن الرِّبا.

وقيل: لـمَّا كرَّر الله تعالى الأمرَ بالتَّقوى -فيما سبق- وبيَّن أثرَ التَّقوى في حصول النصر في الجهاد؛ نهى عن بعضِ ما يُخالِف التَّقوى من الذُّنوب التي هي سبَبٌ للهزيمة في المعركة، ومن أعظمها: الرِّبا.

وقيل: إنَّه لـمَّا أمرَ عبادَه بالجهاد، الذي فيه إنفاقُ المال في سبيله؛ نهاهم عن الرِّبا، الذي فيه أكلُ المال بالباطل.

وقيل غير ذلك.

ومن لطائف ما يُذكَر هنا: ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ عَمْرَو بْنَ أُقَيْشٍ، كَانَ لَهُ رِبًا فِي الجاهِلِيَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُسْلِمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ، فَجَاءَ يَوْمُ أُحُدٍ، فَقَالَ: أَيْنَ بَنُو عَمِّي؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَالَ: فَأَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ، وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ قِبَلَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ المُسْلِمُونَ، قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو! قَالَ: إِنِّي قَدْ آمَنْتُ، فَقَاتَلَ حَتَّى جُرِحَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ لِأُخْتِهِ: سَلِيهِ: حَمِيَّةً لِقَوْمِكَ، أَوْ غَضَبًا لَهُمْ، أَمْ غَضَبًا للهِ؟ فَقَالَ: بَلْ غَضَبًا للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَمَاتَ فَدَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَا صَلَّى للهِ صَلَاةً»[1].

وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: النِّداء لإيقاظ المخاطَب وتنبيهِه. وتوجيه النِّداء إلى المؤمنين فيه إغراءٌ وحثٌّ لهم، على الالتزام بما سيأتي من الأحكام.

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ (الرِّبا) في اللُّغة: الزِّيادة، وشرعًا: هو ربا نسيئة وربا فَضْل، وربا النَّسيئة: الزِّيادة في الدَّيْن نظير الأَجَل أو الزِّيادة فيه، بأن يُقرِضه إلى أَجَل، فإذا جاء الأَجَل يقول له: «إمَّا أن تقضيَ ما عليك، أو أؤجِّلك وأزيد عليك».

وربا الفَضْل: هو التفاضُل في الجِنس الواحد من الأصناف الرِّبويَّة -الذَّهَب بالذَّهَب، والفِضَّة بالفِضَّة، وغيرها- كبَيْع دِرْهَم بدِرْهَمَين، أو صاع قَمْحٍ بصاعَين.

فإنْ كان بغير تقابُض فهو ربا نسيئة -وإن كان متماثِلًا في الوَزْن والكيل-.

وقد يجتمع نوعا الرِّبا في بعض العقود.

﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ أي: زيادات مكرَّرة، بسبَبِ تأجيل القضاء، مُدَّة بعد مُدَّة، كلَّما زاد في الأجل زادَه في النقد.

(١) رواه أبو داود (٢٥٣٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).

وليس قوله تعالى ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ قَيْدًا في التحريم؛ بل كلُّ زيادة على القَرْض فهي ربًا -قلَّت أو كثُرت- وإنَّما خرج الكلامُ هنا مخرجَ الغالِب، وما كان يجري عليه عملُ أهل الجاهليَّة، من استِمرار المضاعفات كلَّما طالت المُدَّة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتِناب الرِّبا، وغيره من أسباب عذاب الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فتظفَرون بثواب الله، وتنجون من عقابه. و(الفلاح): كلمة جامعة لحصول المطلوب، وزوال المكروه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّه كلَّما قويَ الإيمان؛ كان أعونَ لصاحبه على تَرْك ما حرَّم الله.

وفيها: أنَّ أكْلَ الرِّبا يضادُّ الإيمان ويُنقِصه، وقد دلَّت النصوص على تحريمِه.

وفيها: أنَّ الرِّبا من الكبائر؛ لأنَّ الله توعَّد عليه بالنَّار.

وفيها: أنَّ أَكَلَة الرِّبا متوعَّدون بالنَّار.

وفيها: أنَّ الكلامَ إذا خرجَ مخرجَ الواقِع والغالِب؛ فالقَيدُ لا مفهوم له.

وفيها: تخويف المُرابين بعذاب الله.

وفيها: أنَّ تَرْك الحرام من أسباب الفلاح.

وفيها: شناعة الإضرار بالغير، وأكل المال بالباطِل دون تَعَب.

وفيها: أنَّ الرِّبا كلَّما زاد؛ كان أفحَش، وما يُسَمَّى بـ«الفوائد المركَّبة» أشدُّ فُحْشًا وسوءًا من النسبة القليلة الثابتة، وكلاهما حرام.

وفيها: التدرُّج في التشريع؛ فقد جاءت الإشارةُ -قبل نزول هذه الآية- إلى أنَّ الرِّبا لا ينفع عند الله، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩].

ثم نزل النهيُ عن أكل الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة -بهذه الآية- ثم نزلَ تحريمُ الرِّبا بالكليَّة -مهما كان مقدارُه- في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وفيها: أنَّ الانتِفاع بالرِّبا حرامٌ، سواءً كان أكلًا، أو لُبسًا، أو مسكنًا، أو مركبًا، أو غيرَ ذلك، لكن في الآية عبَّر بـ (الأكل)؛ لأنَّه أشدُّ أنواع الانتِفاع وأسوؤها، والجسَد إذا نبتَ منه؛ فالنَّار أولى به.

وفيها: أنَّ المعصية التي يتعدَّى ضررُها، أشدُّ -غالبًا- من المعصية التي يقتصِر ضررُها على مُرتكِبها، وهذا الرِّبا -خاصَّة في الفوائد المركَّبة والأضعاف المضاعفة- يتعذَّر سدادُه في النهاية، ويصل ضررُه إلى الأفراد والمؤسَّسات والدوُل، فتصبِح مَدينة للأطراف المُرابية الجَشِعَة.

وفيها: بَذل المال في سبيل الله، والإحسان إلى عباد الله دون مُرابَاة.

وفيها: أنَّ الفلاح يتوقَّف على التَّقوى.

وفيها: أنَّ الرِّبا محرَّم بجميع أنواعه، وقد يجتمع نوعا ربا الفَضْل والنسيئة في عَقد واحد، مثل: بيع الشيك المؤجَّل بأقلَّ من القيمة المدوَّنة فيه.

وفيها: أنَّ مَن استحلَّ الرِّبا يكفُر، ويكون مصيره التخليد في النَّار التي أُعِدَّت للكافرين.

وأمَّا آكِل الرِّبا غيرُ المستَحِلِّ: فإنَّه مستَحِقٌّ للنار، وإذا ماتَ على التوحيد؛ فهو في مشيئة الله: إن شاء الله عذَّبه بمقدار ذَنبه، ثم يكون مصيرُه الجنَّة، وإن شاء غفرَ له. وعذابه -على كلِّ حال- يختَلِف عن عذاب المستَحِلّ؛ فالنَّار -وإن كانت واحدة- لكنَّ العذاب يُخَفَّف ويُثقَّل، وينقَطِع ويستمرُّ، بحَسَب عملِ مَن دخلَ النَّار.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بتقواه -التي معناها: فِعْل الأوامر تعبُّدًا لله، وتَرْك النواهي تذلُّلًا له، وخوفًا منه-؛ أمرَ عَزَّوَجَلَّ بتقوى داخلةٍ في التَّقوى الأولى، ومؤكِّدة لها؛ وهي: اتقاء النَّار -التي هي عذاب الله الأكبر-؛ فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي: اتَّخذوا ما يَقيكم منها. والفَرق بينَ هذه التَّقوى وتقوى الله: أنَّ تقوى الله فيها تذلُّل وتعبُّد، بخلاف تقوى النَّار.

وهـذه النَّار هي ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾ وهيِّئـت ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجاحِدين المكذِّبين. فاتقُوها بتَرْك مُتابَعتِهم، والابتعادِ عن أفعالهم.

قـال الإمـام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه أخـوَف آيةٍ في القرآن؛ لأنَّ الله أوعـدَ المؤمنين بالنَّار المعدَّة للكافرين، إن لم يتَّقوه في اجتِناب محارمه»[1].

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى التخويفَ؛ أتْبعَه بفَتْحِ باب الرَّجاء، وذكرِ سبيل الرحمة؛ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: امتَثِلـوا أمرَه، واترُكـوا ما نَهى عنه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ طاعتـه داخلـةٌ في طاعة الله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (لعلَّ) هنـا: وَعْدٌ من الله واجبٌ؛ أي: إذا حصلَـت التَّقـوى منكم؛ فلا بُـدَّ أن تحصُل لكم الرحمـة؛ لأنَّ الله تعالى وعدَ بذلك، وهو لا يُخلِف الميعاد.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ مَن تركَ مأمورًا به أو فعل منهيًّا عنه؛ فليس بطائعٍ لله ولا رسوله.

وفيها: أنَّ الانقياد من علامات الإيمان.

وفيهـا: أنَّ النَّـار مخلوقة وموجـودة الآن؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ﴾، والـذي أعدَّها هو الله عَزَّ وَجَلَّ. وهذا فيه: ردٌّ على الجهميَّة الذين يقولون: إن النَّار لم تُخلَق بعد، وأهل السُّـنَّة يقولون: قد خُلِقَت قبل خَلْق العِباد.

وفي إخبارنا بأنَّ النَّار مخلوقة: زيادةُ تخويفٍ؛ ليتَّقيَها العِباد.

وفيها: جواز اقتِران اسـم الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسـم الله تعالى، في الأمر المشـترَك -وهو الأمر الشرعيّ- ويجوز العطف بـ (الواو) في هذه الحالة، فتقول مثلًا: «الله ورسوله أعلم».

وأمَّا في الأمور الكونيَّة القدَريَّة، المتعلِّقة بمشـيئة الله تعالى؛ فلا يجوز العطف بـ (الواو)؛ فالأمر لله وحدَه. فإذا سـأل شـخصٌ عن مكان إنسـان، أو عن أمرٍ غيبيٍّ: متى يحدث كذا؟ فلا يجوز أن نقول: «الله ورسوله أعلم»؛ لأنَّ هذا في باب القَدَر والمشيئة، ولا يمكن أن يُجعَل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشارِكًا لله في ذلك، خاصَّة بعد وفاته.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٣/ ٥٨).

ولـذا: لـمَّا قال رجـل للنبيِّ ﷺ: مَا شَـاءَ الله وَشِـئْتَ! قَالَ لَـهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا -وفي رواية: ندًّا-؟ بَلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[١].

وفيها: أنَّ طاعة الله ورسوله سببٌ للرحمة، والمقصود بها: الرحمة الخاصَّة، التي بها سعادة الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ الرحمة العامَّة تشمل الجميع.

وفي هاتين الآيتين: ردٌّ على طوائف من أهل البِدَع، كالمرجئة الذين يقولون: «لا يضرُّ مع الإيـمان ذنب»، والمعتزلـة الذين يقولون: «لم تخلَق النَّار بعد»، والممتَنِعين عن الأَخْذ بالسُّنَّة الذين يقولون: «لا نأخذ إلَّا بما في القرآن، ولا يعنينا الحديث».

وفيها: رَدٌّ على الملاحِدة، الذين يقولون بعدَم وجود النَّار أصلًا!

وفيها: تهديدٌ للمُرابين وتخويفٌ؛ لضبط شَهْوة المال.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه أعـدَّ النَّار للكافرين؛ ذكرَ أنَّه أعدَّ الجنَّة للمتَّقين، وذكرَ شـيئًا من أوصافِهـم؛ فقـال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: وهو معطوف على قوله ﴿وَأَطِيعُواْ﴾. أي: سـابِقوا وبادِروا. و(المسارَعة) مُفاعلَة، تقتضي اشتراكًا بين اثنين فأكثر، بخلاف «أسرِعوا».

﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ (المغفرة): سَـتْر الذنب، ومَحْو آثاره؛ بالتجـاوُز عنه وعدم العقوبة عليه. وتنكـير كلمة ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾؛ لبيان أنَّها عظيمـة. فندَبَهم إلى المبادرة إلى الأعمال التي تحصُل بها المغفرة.

فقيل في هذه الأعمال: الإسلام؛ لأنَّه يمحو ما قبلَه. وقيل: التوبة؛ لأنَّها تُوجِب المغفرة.

وقيـل: تكبيرة الإحرام، وقيل: الإخلاص في الأعـمال. وقيل: الهجرة أو الجهاد. وقيل: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، وقيل غير ذلك.

والمقصود بالآية: عموم الطاعات والأعمال الصالحة، التي تشمل هذا كلَّه وغيرَه[٢].

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٣).

فالمسارَعة إلى مَغفرة الله وجنَّته تكون بالسَّعي إلى أسباب المغفرة؛ من: التوبة النَّصوح، والاستِغفار النافع، والبُعد عن الذُّنوب ومظانِّها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحِرص على ما يُرضي الله على الدوام، من: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخَلْق بجميع وجوه النَّفع.

ولهذا ذكرَ الله تعالى الأعمالَ الموجبة لذلك في آيةٍ أخرى؛ فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، والإيمان بالله ورُسُله يدخُل فيه أصول الدِّين وفروعه.

وقوله ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ لا من غيره، وهذا يبيِّن شرَف المغفرة، وأنَّها صادرةٌ من الله تعالى مباشرة.

﴿وَجَنَّةٍ﴾: ذكَر إيصالَ الثواب بعد إزالة العقاب. و(الجنَّة): هي البُستان كثير الشجر، والمقصود: جنَّة الآخرة، وهي الدَّار التي أعدَّها الله لأوليائه وعباده المؤمنين.

﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وهو كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]؛ فليس المعنى أنَّ الجنَّة تحوي السماء والأرض؛ بل هي كعَرْضِهما، وإن كانت في محلٍّ آخر: فوقَ السماوات والأرض.

والمقصود: بيان عِظَم سَعَتها، وقد ذكرَ العَرْضَ على المُبالَغة؛ لأنَّ طولَ كلِّ شيء -في الأغلَب- أكثر من عَرْضه، وكأنَّه يقول: هذه صِفة عرضِها، فكيف طولُها؟ فلو جُعِلَت السموات والأرض بعضُها إلى بعض، كما تُبسَط الثِّياب ويُوصَل بعضها ببعض؛ لكانت مثلَ عَرْض الجنَّة؛ فكيف بطولها؟!

ولذلك لـمَّا أثار بعضُ أهل الكتاب شُبهةً حول هذا الآية، فسألوا: إن كان عَرْضُ الجنَّة هو السماوات والأرض؛ فأين النَّار؟ كان الجواب: «سبحان الله! فأين اللَّيل إذا جاء النهار؟!» وقد رُوي هذا مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

(١) رواه أحمد (١٥٦٥٥)، وضعفه محققو المسند. وروى ابن حبان (١٠٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْض، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ قد كان، ثُمَّ لَيْسَ شَيْءٌ، أَيْنَ جُعِلَ؟» قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٩٢) على شرط مسلم.

وجاء موقوفًا عن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ ناسًا من اليهود سألوه عن ذلك؛ فأجاب بهذا[١].

والمعنى: أنَّه لا يلزَم من عدَم مُشاهدتنا اللَّيل أثناء النهار، ألَّا يكون للَّيل مكان. وإذا كانت الجنَّة في أعلى علِّيِّين؛ فإنَّ النَّار في أسفَل سافِلين.

ثم قال تعالى عن الجنَّة: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ أي: هُيِّئت، وهذا معناه أنَّها مخلوقةٌ موجودةٌ الآن.

﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: الذين يتَّقون عذاب الله، بامتِثال المأمورات واجتِناب المنهيَّات.

والنِّداء في الآية يشمل جميعَ المؤمنين؛ لتنهضَ هِمَمُهم، ويتسابقوا في الخيرات التي تحصُل بها المغفرة.

وتشمل الآيةُ العُصاةَ أيضًا؛ فيكون المعنى: سارِعوا إلى توبةٍ، تحصُل بها مغفرة الذُّنوب والخطايا.

ويدخل في الأمر أيضًا: الكفَّار؛ فيكون المعنى: وسارِعوا إلى الدُّخول في الإسلام، الذي يمحو ما سبقَ، وتُغفَر بدخوله الذُّنوب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إثارة التنافُس بينَ المؤمنين في عمل الخيرات؛ وفي هذا استفراغٌ لقواهم وهِمَمهم؛ للازدياد من الطاعات.

وفيها: ترغيبٌ للعباد في السَّعْي إلى الجنة، بذِكر وَصْفِها وطولها واتِّساعها؛ فإنَّ النفوس إذا عرَفت الوَصف الجميل للجائزة تاقتْ واشتاقتْ؛ فعَمِلَت.

وفيها: أنَّ مَن نافسك في الآخرة فنافِسْه، فإذا بكَّر إلى الصَّلاة: بكِّر قبلَه، وإذا أطعمَ مسكينًا: أطعِم اثنَين، وإذا حفظ سُورَة: فاحفَظ أكثر. أمَّا مَن نافسَك في الدُّنيا: فألقِها في وَجْهه؛ لأنَّ مجال التنافُس في الآية هو في أعمال الآخرة، المؤديَة للمغفرة.

وفيها: الحثُّ على الاستِغفار؛ لأنَّه مِن أولى ما تحصُل به المغفرة.

وفيها: شَرَفٌ عظيمٌ للمؤمنين؛ بحصول المغفرة من ربِّهم. وبيان مصدر المغفرة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يحثُّ على المزيد من العمل، ويقوِّي التوحيد.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦/ ٣٩١).

وفيها: ازدياد محبَّة الله في نفس المؤمن، وهو يُوقِن أنَّ المغفرة من ربِّه، وأنَّه يحقِّق له ما هو محبوبٌ ومرغوبٌ ومطلوبٌ.

وفيها: المبادَرة إلى الأعمال قبل الموت، وقبل نزول المانع، كما قال الشاعر:

لَيْسَ في كلِّ ساعَةٍ وأوانِ تتهيأ صَنائِعُ الإِحْسانِ
فإذا أمكَنَتْ فبادِرْ إلَيْها حَذَرًا مِن تَعَذُّرِ الإمكانِ[1]

وفيها: مخالَطة الأخيار، ومصاحَبة الصالحين؛ ليتمكَّن من مُنافَستهم.

وفيها: أنَّ السعادة لا تتِمُّ إلَّا بأمرَين: زوال المكروه -وهو هنا بالمغفرة- وحصول المطلوب -وهو جنَّة الخُلد-.

وفي الآية: بيانُ سَعَة الجنَّة. وقد فَهِمَ بعضُ العلماء أنَّ طولها أكثرُ من عَرْضها. وقال آخرون: بل عَرْضها وطولها واحد؛ لأنَّها مستَديرة، والفِرْدَوس أوسَط الجنَّة وأعلى الجنَّة، وفوقَه عَرْشُ الرحمن عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: كَرْم الله تعالى، الذي أعطى عبادَه هذه الجنَّة العظيمة -على سَعَتها- بأعمالٍ لا تُكافِئها، ولا توفِّي ثمنَها.

وفيها: ذِكر السَّبَب الموصِل إلى الشيء، قبل ذِكر الشيء نفسِه؛ لأنَّه ذكرَ (المغفرة) قبل (الجنَّة).

وفيها: أنَّ سَعَة الدار من أسباب السعادة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّ الجنَّة أُعِدَّت للمتَّقين؛ شرع في تفصيلِ حالهم، وبعضِ أوصافِهم؛ فقال:

---

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر (ص٧٥).

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ أموالهم في وجوه البِرِّ والخير. وفي ذكر (الإنفاق) هنا بعد ما تقدَّم من تحريم أكل الرِّبا: إشارةٌ إلى أنَّه يجب إعانة المحتاج، لا استغلال حاجته. و(الإنفاق) هنا ضِدُّ الرِّبا، فلـمَّا ذمَّ آكِل الرِّبا؛ مدحَ المنفِق والمتصدِّق، وشتَّانَ بينَ المعطِي في الخير، والآخِذ من الحرام والشرِّ.

﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾: السَّعة والرَّخاء، والصِّحَّة والمنْشَط.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الفقر والضِّيق، والحُزن، والشِدَّة، والمرض، ونحوه.

ولـمَّا مدحَ الله تعالى هؤلاء المتَّقين، بتطهير باطنهم من الشُّحِّ -وهو من الأخلاق الذميمة-؛ ذكرَ مِن أخلاقهم الحسَنة: كَظْمَ الغَيظ؛ فقال:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾ (الكَظْم): هو المنع والكفُّ، وحَبْس الشيء عند امتلائه. ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ وهو: أشدُّ الغَضَب. فيرُدُّ هؤلاء المتَّقون غيظَهم في أجوافِهم، ولا يُظْهِرونه بقول ولا فِعْل؛ بل يصبِرون، ويكتُمون ويكفُّون شرَّهم، ويحتَسِبونَ الأجر في كلِّ هذا.

وقد وردَ في فَضْل كَظْم الغَيظ عن النبيِّ ﷺ أحاديثُ كثيرة؛ فمنها:

قوله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ؛ دَعَاهُ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ الله من الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ»[(١)].

وحديث: «مَا من جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ الله، من جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله»[(٢)].

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على عدم الغضَب؛ فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[(٣)].

وفي وصيَّته ﷺ للرجُل الذي قال له: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»[(٤)].

---

(١) رواه أبو داود (٤١٤٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٥٢) لغيره.

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) رواه البخاري (٦١١٦).

وورد أيضًا توجيهُ مَن غَضِبَ إلى أنَّ يكون في أسكَن حال؛ فقال ﷺ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»[١].

قوله تعالى ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يُسامحونهم، ويَعفون عمَّن ظلمَهم، ولا يبقى في نفوسهم شيءٌ عليهم. و(العَفْو): هو تَرْك المُؤاخَذة على الإساءة. وأعلاه: ما يكون مع القُدرة على الانتِقام.

ثم هم لا يكتَفون بذلك؛ بل يُحسِنون إلى مَن أساء إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إلى الناس عُمومًا، فيتفضَّلون على الخَلْق مُخلِصين لله.

وقد رُوي أنَّ جاريةً لعليِّ بن الحُسَين رَحِمَهُ اللَّهُ جعلَت تسكُب عليه الماء، ليتهيَّأ للصلاة، فسقطَ الإبريقُ من يدِها، فشجَّه، فرفعَ عليٌّ رأسَه إليها، فقالت: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾؛ فقال لها: قد كظمتُ غيظي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فقال لها: قد عفا الله عنكِ. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ فقال: اذهبي فأنتِ حُرَّة[٢].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ ذِكرَ صفات المُجاوِرين الطيِّبة، ممَّا يُرغِّب في السَّعْي لسُكنى الدار.

وفي الآية: أن الصَّدَقة من صفات المتَّقين، وأنَّ مِن علامات التَّقوى: بَذْل المال.

وفيها: المداوَمة على الصَّدَقة؛ كما يفيده الفعل المضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾.

وفيها: عُموم الإنفاق؛ كما دلَّ عليه حذفُ المفعول به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾؛ فلم يذكر ما يُنفِقون، وهذا يدلُّ على أنَّهم ينفِقون من كلِّ شيء يُنتفَع به -كالمال، والطعام، والثِّياب، والوقت، والجاه، والراحة-.

وعُموم الإنفاق يشمل القليل والكثير، كما وردَ عن بعض السَّلَف التصدُّق بحبَّة عِنَب، وبالتمرة، وبالبَصلة، ونحو ذلك ممَّا تيسَّر لهم.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) شُعَب الإيمان للبيهقي (١٠/ ٥٤٥).

وفيها: ذِكر ما يُعانيه كاظِم الغَيظ من الشِّدَّة، ولهذا يكون أجرُه كبيرًا.

وفيها: فَضْل كَظْم الغيظ؛ لأنَّه يَدرأ شرًّا كثيرًا، ويمنع الآثامَ والمصائب، مثل: اللَّعْن، والقذف، والضرب والاعتداء، والإتلاف، والطلاق.

وفيها: عدم مُقابَلة الإساءة بالإساءة.

وفيها: الرحمة بالخَلْق.

وفيها: الإحسان إلى الكافر -غير الحَرْبِيِّ-؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وفيها: الترقِّي في الأحوال من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنَّه لـمَّا ذكر (العَفو) -وهو إسقاط الإنسانِ حقَّه-؛ ذكَرَ حالًا أخرى أكملَ منها، وهي (الإحسان).

وفيها: أنَّ الإحسان سببٌ لمحبَّة الله.

وفيها: أنَّ كَظْم الغَيظ والعَفو، من الإحسان.

وفيها: إيصال النفع إلى الغير، ودَفْع الضرَر عنه، وهذا من تعريفات (الإحسان).

وفيها: مُقاوَمة ما يُلهِي عن طاعة الله، ومن ذلك: الإنفاق في السَّرَّاء؛ لأنَّ السَّرَّاء مَدعاةٌ للَّهْو والانشِغال عن الطاعات.

وفيها: الاستِمرار في الطاعات، مهما اشتدت الأحوال؛ فإنَّ الغُموم والهُموم والأحزان -وغيرها من أحوال الضَّرَّاء- قد تُقْعِد العبدَ عن الطاعة وتُشغِله عنها.

وفيها: أنَّ على ابن آدم أن يغلِب الشرَّ بالخير.

وفيها: أنَّ الإنفاق، وكَظم الغيظ، والعَفو، والإحسان -مع التَّقوى- كلّها من أسباب دخولِ الجنَّة، التي عرضُها السماوات والأرض.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى صفاتِ المتَّقين، ومعاملتَهم الحسَنة للخَلْق؛ أتْبعَهم بصِنف آخر دونهم، لكنَّهم يَلْحَقون بهم في المأوى إلى الجنَّة العريضة؛ وهم: التائبون من ذُنوبهم.

وقيل: بل هم أنفُسُهم المتَّقون، المذكورون في الآية التي قبلَها؛ فهم بشرٌ يُذْنِبون ويُخطِئون، لكنَّهم سَرْعان ما يعودون إلى ربِّهم ويتوبون، فذكرَ الله تعالى حالَهم عند وقوع الذنب منهم.

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟﴾ أي: وقَعوا واقترفوا ﴿فَٰحِشَةً﴾ أي: ذنبًا قبيحًا، وهو: ما يُستَفْحَش شرعًا، ويتعدَّى أثرُه للغير -كالزِّنا والغِيبة-.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بذُنوبٍ يقتَصِر أثرُها عليهم.

وقيل: المراد بـ (الفاحشة): الكبائر، و(ظُلْم النفس): هو الصغائر.

فهؤلاء إذا وقعوا في الذُّنوب؛ ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بقُلُوبهم، وألسِنَتهم، وجوارحهم، وتذكَّروا عظمتَه ووَعده ووَعيده؛ ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: سألوا ربَّهم أن يغفِرَها، ويتجاوزَ عنها، ويستُرَها.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ ولذلك رجَعوا إليه لا إلى غيره، وسألوه وحدَه.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟﴾ ويُقيموا ويُداوِموا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ وارتكبوا، من الفواحِش والآثام ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الإصرار يَحْرِم من المغفرة.

أو: يعلَمون أنَّها معصية؛ فالمعنى: أنَّهم لا يُصِرُّون على ذنوبهم عامِدين للمُقام عليها، وهم يعلَمون أنَّ الله نهى عنها وأوعدَ عليها العقوبة.

وقيل: وهم يعلَمون أنَّ لهم ربًّا يغفِر الذُّنوب، وأنَّ الله لا يتعاظَمُه العفو عن الذُّنوب، وإن كثُرَت.

وقد ثبتَ في الحديث، أنَّ النبي ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ، الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(١).

وفي الحديث: «مَا من رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ؛ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾(٢).

---

(١) رواه أحمد (٦٥٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٨٠).

وفي هذه الآية من الفوائد:

عِظَم شأنِ الاستغفار ومنزلتِه عند ربِّ العالمين، ودلالته على التوحيد؛ لأنَّ فيه لجوء العبد إلى الرَّبِّ في طلَب مغفرة الذنب. ولذلك جاء في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١).

وفيها: أنَّه لا بُدَّ أن يكون لأسماء الله تعالى أثرٌ ومعنى في الخَلْق؛ فلو لم يكن مِن خَلق الله مَن يُذْنِب، فكيف سيظهَر أثرُ أسمائه: (الغفور)، و(التوَّاب)، و(السِّتِّير)، و(العَفُوّ)، ونحوها؟

وفيها: أنَّه ليس من شرط المتَّقي أن يكون معصومًا.

وفيها: تفاوت الذُّنوب، وأنَّ منها كبائر وصغائر، والكبائر بعضها أشدُّ من بعض، والصغائر بعضها أهون من بعض.

والكبيرة: كلُّ ذنبٍ وردَت عليه عقوبةٌ خاصَّة -دُنيويَّة أو أُخرويَّة-. وقيل: كلُّ ذنبٍ تُوُعِّد عليه بلَعْن، أو غضب، أو نار، أو عذاب، أو حدٍّ في الدّنيا، أو أيِّ وعيدٍ في الآخرة.

وفي الآية: سُرعة انتباه المتَّقين عند فِعْل الذنب، وأنَّ من المُذنِبين مَن تتيقَّظ قُلوبُهم سريعًا.

وفيها: أنَّ على المُذنِب أن يستغفِر لذنبه مباشرةً، بعد وقوعه في الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾، و(الفاء) تُفيد التعقيب بلا تراخٍ.

وفيها: أنَّ ذِكر الله سبَبٌ للتوبة.

وفيها: أنَّ العِلْم يمنَع صاحبَه من فِعْل الذنب، أو الإصرار عليه.

وفيها: أنَّ معرفة ما حرَّم الله، ومعرفة الوَعيد المترتِّب على ذلك؛ يُعين كثيرًا في اجتِناب المحرَّمات.

وفيها: أنَّ المُصِرَّ على الذنب مع العِلْم، أسوأ ممَّن ارتكبَ الذنب وهو لا يَعْلَم حُكمه.

وفيها: خطورة الإصرار على الذنب، وهذا معنى ما يُروى عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

كبيرةَ مع استغفار، ولا صغيرةَ مع إصرار»[(١)]، وقد عنون البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية: «باب: خوفُ المؤمن مِن أن يحبَط عملُه وهو لا يَشْعُر»[(٢)].

وفيها: أنَّ النفس عند الإنسان أمانةٌ، يجب عليه رعايتها، ولا يجوز له أن يَظْلِمَها.

وفيها: أنَّ ذِكر القَلْب، يُورِث استغفارَ اللِّسان.

وفيها: أنَّ التوبة إلى الله واجبةٌ، ولو كان الذنبُ متعلِّقًا بمخلوق، ولو سامحَ أو عفا عمَّن ظلمَه؛ لأنَّ المعاصي المتعدِّية فيها حقَّان: حقُّ الله -ويخرج منه بالتوبة- وحقُّ المخلوق -ويخرج منه بأداء الحقوق، أو العَفو والمسامَحَة-.

وفيها: أنَّه لا مَفْزَع للمذنِبين إلَّا إلى الله ورحمته وعَفوه؛ ولذلك يَفِرُّون إليه من ذُنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وفيها: أنَّ مَن عصى الله جاهِلًا بحُكمِ ما فعلَ؛ يُعذَر، إلَّا إذا كان مقصِّرًا في التعلُّم، فيأثَم على تجهيله لنفسه.

وفيها: أنَّه قد ينجو مُرتكِب الكبيرة بحُسن توبته، ويَهْلِك مُرتكِب الصغيرة بإصرارِه واستهانتِه.

وفيها: أنَّ الإصرارَ على فِعْل المعصية، والعزمَ التامَّ عليها، مع العمل بالأسباب الموصِلَة إليها؛ يأثم به صاحبُه، ولو لم يَفْعَلْها؛ لحديث: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[(٣)].

ولحديث: «... وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٤٥).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٣) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦) لغيره.

وفيها: أثر الجملة الاعتراضيَّة في التنبيه على المعاني العظيمة؛ كما جاءت جملة: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معترِضةً في سياق وَصْف حال المذنِبين التائبين، وأفادَت معنى عظيمًا.

وفيها: أنَّ ذِكرَ الله، ومعرفةَ وَعده ووَعيده؛ هو الباعث القويُّ على التوبة.

وفيها: أن الجمْع بينَ هذه الآية وقوله تعالى في سُورَة «الحديد»: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، يفيد بأنَّ: الإيمان يستلزِم العمل الصالح.

وفيها: أنَّ مَن تكرَّرت ذُنوبُه، وتكرَّرت توبتُه بعد كلِّ ذنب، وكانت توبةً صحيحةً بشروطها؛ فإنَّه لا يعتبَر من المُصرِّين على الذنب.

وفيها: أنَّ الإصرار ذنبٌ، يجب الاستغفارُ والتوبةُ منه.

وفيها: أهميَّة استحضار الذنب، عند الاستغفار منه.

وللتوبة من الذنب أحوال:

فمنها: أن يتوبَ بعد فِعْل الذنب مباشرةً.

ومنها: أن يبقى مُدَّة لا يتوب، ثم يهديه الله، فيتذكَّر ذنبَه الماضي، ويتوب منه.

ومنها: ألَّا يتذكَّر الذنبَ أصلًا، لكنَّه يعلم أنَّه أذنبَ. فهذا يفزَع إلى التوبة العامَّة من جميع الذُّنوب، وعليه بجوامع أدْعية الاستغفار والتوبة؛ كدُعاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في سُجودِه: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

(٢) رواه مسلم (٤٨٣).

وعلى المسلم كلَّما تذكَّر ذنبَه أن يستغفِر منه -ولو تذكَّره مِرارًا- وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن كلامِه الذي اعترضَ به على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ الحُديبيَة: «فَعَمِلتُ لذلكَ أعمالا»[١].

وفي الآية: أنَّ العلاجَ النفسيَّ بجَعْل المذنِب ينسى الماضي -وفيه ذُنوبه-؛ منعًا للاكتئاب؛ هو علاجٌ فاسدٌ، مُصادِمٌ لقوله تعالى: ﴿**ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ**﴾.

والواجب على المسلم: أن يذكُر ذنبَه، ويذكُر ربَّه، وأن يُقِرَّ بالذنب، كما جاء في حديث سيِّد الاستغفار: «وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي»[٢].

وأمَّا الحالة التي تحتاج إلى علاج؛ فهي حالة مَن يصل إلى اليأس من رحمة الله -والعياذ بالله- عند التفكير في ذُنوبه؛ فهذا لا يُنصح بنِسيان الذُّنوب، لكنَّه يُنصَح بأن يرجوَ رحمة الله وعَفوه، ويؤمِّل في مَغفرته، ويستحضِرَ وَعْدَ الله بمغفرة الذُّنوب جميعًا لِمَن تاب منها، لا أن يتجاهلَ ما مضى ويتناساه؛ فإنَّ الله تعالى قال عن أهل الغفلة، الذين يغفُلون عن ذُنوبِهم: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي هذه الآية -مع التي قبلها-: ذِكر حال المؤمنين مع الله، بعد ذِكر حالهم مع الخَلْق؛ تذكيرًا بالحقَّين: حقّ الله وحقّ العِباد.

وفيها: أنَّه لا يَصِحُّ الاستغفار مع الإصرار، وهذا معنى قول بعض السلف: «استِغفارنا يحتاجُ إلى استِغفار»[٣].

وفيها: أنَّ ذِكر الله عند الذنب، يكون بالقَلْب واللِّسان والجوارح:

فبالقَلْب: بتذكُّر عَظَمته، وحقوقه، ووَعده ووَعيده.

و باللِّسان: كالاستِغفار، والتهليل، ونحوه.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١) في أثناء حديث الحديبية عن الزهري قال: قال عمر ... فذكره. قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٤٦) : «وهو منقطع بين الزهري وعمر ... والمراد به: الأعمالُ الصالحةُ ليكفّر عنه ما مضى من التوقّف في الامتثال ابتداءً».

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦).

(٣) الأذكار للنووي (ص٤٠٥)، جامع العلوم والحِكَم لابن رجب (٢/ ٤١٠).

وذِكـر الله بالفِعْل وأعمال الجوارح: كالقيام بالأعمال التي تكفِّر الذُّنوب والخطايا، مثل: الصَّدَقة التي تُطفئ الخطيئة، والوضوء الذي يُخرِج الخطايا من الأعضاء، وصلاة ركعتَين لا يُحدِّث فيهما نفسَه بعد إسباغِ الوضوء، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ النفي بصيغة الاستِفهام -كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ -أبلغ من النفي المجرَّد، فالأول يحمِل معنى التحدِّي؛ كأنَّه يقول: «ائتِ لي بأحدٍ غيرِ الله يغفر الذُّنوب»؛ فلو اجتمعَ أهل الأرض ما استطاعوا أن يغفِروا ذنبًا لإنسان، ولو سامَحوه في حقوقِهم فيبقى حقُّ الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى المتَّقين وثوابهم وصفاتهم؛ ثم ذكر التائبين الذين لا يُصِرُّون؛ ذكر جزاءَهم جميعًا؛ فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بالصِّفات السابقة ﴿جَزَآؤُهُم﴾ ثوابهم ومكافآتهم على أعمالهم: ﴿مَّغْفِرَةٞ﴾ أي: عَفْوٌ وتجاوزٌ عن الذُّنوب، وسَترٌ لها عن الخَلْق ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: وفي هذا زيادةُ ثقةٍ وتأكيدِ حصولِ المغفرة؛ لأنَّها صادرةٌ من الله تعالى.

﴿وَجَنَّٰتٞ﴾: جاءت هنا بصيغة الجمع -مع أن الجنَّة في الأصل واحدة-؛ لأنَّها درجات كثيرة، ومنازل متنوِّعة.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقُصورها ومساكِنها، على وَجْه الأرض، من غير أخاديد، وهي أنهارٌ متعدِّدةٌ، وقد جاء في القرآن ذِكرُ بعض أنواعها، من الماء العَذب، واللَّبن، والخَمْر، والعَسَلِ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فلا يموتون، ولا يُخرَجون.

﴿وَنِعۡمَ﴾ هذا مدحٌ للجنَّة ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾: أعطاهم الله إيَّاها في مُقابَلة أعمالهم، وجزاءً وثوابًا على طاعاتهم، فَضْلًا منه سبحانه ونِعْمة؛ فالأعمال ليست ثمنًا للجنَّة، لكنَّها شرطٌ لدخولها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحفيز العِباد للارتِقاء بالطاعات، والازدياد في الخيرات؛ وذلك بتنبيهِهم على أنَّ الجنَّة مراتب ودرجات -بصيغة الجمع- كما في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾.

وفيها: تحفيز هِمَم العِباد؛ بحيث لا يقتَصِر مطلوبُهم على دخول الجنَّة، بل على تحصيل الدرجات العُلى منها.

وفيها: ذِكر الثواب والأجر؛ ليطمئنَّ العاملون، ويزدادوا عملًا وسَعيًا لنَيْل الأجر العظيم.

وفيها: الجَمْع في المكافأة بينَ زوال المكروه وحصول المطلوب، كما في قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، وقوله ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾.

وفيها: أنَّ المغفرة من أعظم الثواب.

وفيها: أنَّ الجنَّة عظيمة؛ لأنَّ الله تعالى إذا أثنى على شيءٍ ومدحَه؛ فلا بُدَّ أن يكون عظيمًا. بخلاف البشر؛ فرُبَّما مدَحُوا ما ليس بعظيم -كما يصنع كثيرٌ من الشُّعراء-.

وفيها: فَضْل الله العظيم على عباده التائِبين؛ حيث جعل هذه الجنَّات جزاءهم، مع أنَّ أعمالهم لا تُكافئ الجنَّة، لكنَّه جعلَ هذه الأعمال سببًا لنَيْلها، ثم مِن كرمِه عَزَّوَجَلَّ: أنَّه أعطاهم أضعافَ أضعافِ ما يُقابِل أعمالهم.

وفيها: عِظَم وفخامة ثوابِ الله وفَضْله، وما يأتي مِن عنده؛ كما يدلُّ عليه قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

وفيها: أنَّ نعيم الجنَّة لا يَحُول ولا يَزُول، وأنَّه شيءٌ كثيرٌ في مُقابِل عملٍ قليلٍ.

وفيها: أنَّ دخول الجنَّة لا بُدَّ له من عَمَل؛ كما يدُلُّ عليه التعبير بـ ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾؛ فالأجر لا يُستحَقُّ إلَّا بعد عمَل، ولكنَّ الكريم يُضاعِف الأجرَ ويُنَمِّيه، ويدَّخِره لصاحبه.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾:

ثم رجعَ السِّياق لبيان ما حصلَ في غزوة أُحُد؛ فقال تعالى -مخاطِبًا عبادَه المؤمنين، الذين أُصيبوا بمُصيبة عظيمة في تلك الموقِعة-:

﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي: مضت. وهذه جملة محقَّقة؛ لأنَّ (قد) إذا دخلت على الفِعْل الماضي؛ أفادت التحقيق ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ في الأُمَم الماضية ﴿سُنَنٞ﴾: جمع «سُنَّة»، وهي: الطريقة. والمراد: عادةُ الله الجارية في الناس.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (السَّير): هو المشي، ويشمل سير الأقدام بالتنقُّل، وسَير القُلُوب بالفَهم والتفكُّر.

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بعَين البصر والبصيرة، وتأمَّلوا وتفكَّروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: مآلهم، ونتيجة أعمالهم، لـمَّا كذَّبوا الرُّسُل؛ فجرى عليهم من الله الهلاك والدَّمار.

وفي هذه الآية من الفوائد:

المعالَجة النفسيَّة للمُصيبة العظيمة، التي كان حصولها مفيدًا في تربية المسلمين -مع شِدَّة ألمِها-؛ فجاء التأكيدُ من الله تعالى بأنَّ له سُننًا في الأُمَم وفيمَن مضى من عباده، وأنَّها تجري على السابِقين واللَّاحِقين، وأنَّ أتباع الأنبياء يُبتَلَون ويُصابون بالمصائب العظيمة، ثم تكون لهم العاقبةُ والنصر على أعدائهم.

ولذا لـمَّا سُئِل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيهما أفضل للعبدِ: أن يُمكَّن أو يُبتلَى؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُمكَّن حتى يُبتلَى»[(١)].

وفيها: الاستفادة من الأحداث -خاصَّة الكبار والعظام منها- بذِكر ما يتعلَّق بها من الدُّروس والعِبَر.

وفيها: السَّير في الأرض لأخذ العِبَر؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

ومن وظيفة الإعلام الإسلامي: أن تتنقَلَ العدَساتُ ليرى المشاهِدون والمشاهِدات ما حصل للسابِقين، مع ذكرِ الآيات المناسِبة لتلك الأيام الماضية.

وفيها: أهميَّة عِلْم التاريخ، ومعرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأُمَم وفسادها، وهذا من التنقُّل المعنويُّ -وهو النظر في كتب التاريخ-.

---

(١) زاد المعاد لابن القيِّم (٣/ ١٣).

وفيها: الإرشاد إلى العِلْم الصحيح، المبنيّ على المُشاهَدة.

وفيها: أنَّ الصراع بينَ الحقِّ والباطل قد حصلَ في الأُمَم السالفة.

وفيها: أنَّ العاقبة والغَلَبة تكون دائمًا لأهل الحقِّ على أهل الباطل.

وفيها: أنَّ الاستفادة من آثار الأُمَم الماضية لا يكون ببَيْعِها كُنوزًا، وجَعْلِها في المتاحف للتسلية؛ وإنَّما هي للعِظَة والاعتِبار.

وفيها: تسلية المؤمنين إذا أُصيبوا على يدِ أعدائهم، بما حصل لأمثال هؤلاء الأعداء في الماضي، من الأَخْذ والإهلاك.

وفيها: أنَّ السَّيْر بالقدَم في مواقع مَن بادُوا واندَثروا، قد يكون أشدُّ وقعًا من السَّير بالقَلْب؛ لأنَّه يجتمع فيه عَينُ اليقين وحقُّ اليقين.

وفيها: أنَّ السَّير في الأرض ينبغي أن يكون لأغراضٍ شرعيَّة، لا لأغراضٍ محرَّمة، أو لإضاعة الوقت والمال، أو لمجرَّد التسلية والسِّياحة -كحال كثيرٍ ممَّن يضيِّعون أوقاتَهم وأموالَهم وأعمارَهم في السفر إلى بلاد الكفَّار، ولا يسلمون من الحرام-.

وفيها: أنَّ الأمر بالسَّير والنظَر للاستحباب، لا للوجوب؛ فلو حصلَ بالوَصف أو القراءة أو النَّقل والسَّماع، على سبيل التفكُّر والاتِّعاظ؛ فقد حصلَ المقصود، ولكن يبقى لمن شاهد فَضْلٌ ومِيزة.

وفيها: أنَّ تحويل أماكن العذاب والاتِّعاظ والاعتِبار إلى مناطق سياحيَّة، تشمل: فنادق ومطاعم وملاعب وملاهي؛ يُنافي مُرادَ الله تعالى من عباده.

وفيها: أنَّ الخِطاب بالسير للاتِّعاظ -وإن كان موجَّهًا للمؤمنين- لكنَّه يشمل غيرَهم؛ ليتَّعظوا بما أصاب أسلافَهم، بل حاجة المكذِّبين الجُدُد للاتِّعاظ بما أصاب أسلافهم، ربما تكون أشدَّ وأولى.

وفيها: خطورة التكذيب بآيات الله، وما أنزله تعالى على المكذِّبين، وأنَّ عاقبة ذلك الهلاك.

وفيها: لَفْت أنظار المكذِّبين الجُدُد -عند دعوتهم- إلى ما حصلَ من أسلافهم، وأنَّ العِلَّة المشترَكة التي أدَّت إلى إهلاك أولئك، حاصلةٌ وقائمةٌ في هؤلاء؛ فليحذَروا، وليتوبوا، وليرجعوا إلى الحقِّ.

وفيها: أنَّ نزول العقوبات الدّنيويَّة، وخَواء الدِّيار، وحصول الهلاك، كلّها شواهد على صِدق ما أخبر الله به، وهذا ممَّا يَزيد الإيمان -أن تجد الواقعَ مطابِقًا للخبر-.

وفيها: الجَمْع بين التسلية والتحذير، والجَمْع بينَ الخبر والنظَر.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى من شواهد النظَر، ما يدلُّ على صِدق الخبر الذي جاء من عنده؛ قال عن مصدَر الخبر:

﴿هَٰذَا﴾ القرآن الذي أنزلَه الله على النبيِّ ﷺ، بخبرِه، وأمرِه ونهيِه، ووَعدِه ووَعيدِه ﴿بَيَانٌ﴾ إيضاحٌ وجلاءٌ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عامَّة؛ فهو دلالة ظاهرة، تبيِّن للناس الحقَّ من الباطل، بما فيه من الحُجَج والبراهين الساطعة.

وهو أيضًا (بيانٌ) للمؤمنين، يبيِّن لهم دينَهم: عقيدةً، وأحكامًا، وتفصيلًا في الحلال والحرام.

﴿وَهُدًى﴾ ودلالةٌ وإرشادٌ، ومُنقِذٌ من الضلالة والغَواية، ومُخرِجٌ من الظُّلُمات إلى النُّور.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ تَلين به القُلُوب، فتحصُل الطاعة والامتِثال ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّهم هم الذين يستَفيدون منه، ويعملون به، امتِثالًا لأمره واجتِنابًا لنهيه؛ ليَدْرَءُوا عن أنفسِهم عذابَ الله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ القرآن صالحٌ لهداية المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر.

وفيها: أنَّ القرآن عِلْمٌ، لكن لا ينتَفِع به إلَّا المتَّقون؛ فمَن لم يتَّعِظ بالقرآن فليَتَّهِم نفسَه.

وفيها: فضيلة التَّقوى، وأنَّها سبَب للاتِّعاظ بالقرآن، وكلَّما زادت زادَ الانتِفاع بكتاب الله.

وفيها: أنَّ القرآن بيانٌ لجميع الناس -على اختلاف ألسِنَتهم-. وأولو العِلْم من العرَب

يَعْقِلونـه قبـلَ غيرهم، وأمَّـا ترجمة معانيه للأعاجـم -للُغاتهم المختلفة- ففيـه البيان الكافي لقيام الحُجَّة عليهم، وعليهم أن يتعلَّموا لغة القرآن؛ ليتدبَّروا آياته.

وفيهـا: اشـتمال القـرآن على التخويـف والتذكرة، التي تحيـا بها القُلُـوب؛ فالقرآن ليس مصدرًا للمعرفة فحسبُ؛ بل هو هدايةٌ للقُلُوب، وفيه ما يُعين على استقامة النفوس، وينير الطريقَ في كلِّ الأحوال، وينقل الناس من حال إلى حال.

وفيها: إشعار الناس بأهميَّة القرآن، ولَفْت الانتِباه إلى عَظَمَتِه، والتدبُّرِ في معانيه.

وفيها: أنَّ القرآن عامٌّ ببيانه للناس جميعًا، وخاصٌّ بهُداه وموعظته للمتَّقين.

وفيها: أنَّ القرآن تقوم به الحُجَّة، ويُهتدَى به إلى المَحجَّة.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾:

ولـمَّا مدحَ الله كتابَه، وبيَّن ما فيه من البيان والهدى؛ قال -مسلِّيًا عبادَه المؤمنين، الذين نزلَت بهم المُصيبة العظيمة في معركة أُحُد-:

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تَضْعُفـوا عـن جهـاد عدوِّكم، لأجل مـا أصابكم **﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾** وتغتَمُّـوا لِـما وقعَ بكم مـن القَتْل والجِراح، وما فاتكم من الغنيمة. فـلا تَضْعُف أبدانُـكم، ولا تحـزَن قُلُوبكـم **﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾** أي: الغالِبون، المنتَصِرون عـلى عدوِّكم في آخر الأمر **﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** أي: مُصَدِّقين ومُوقِنين بوَعْد الله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «يُعزِّي أصحابَ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما تسمَعون- ويحثُّهم على قتالِ عدُوِّهم، وينهاهم عن العَجْز والوَهْن في طلَب عدُوِّهم في سبيل الله»[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المسـلم إذا حصلَـت له مُصيبةٌ في الماضي، أو فاتَه خيرٌ؛ فـلا ينبغي أن يمنعَه حُزنُه من العملِ والاجتهادِ في المستقبَل.

وفيها: بِشارة من الله للمؤمنين، بأنَّ العاقبة والغَلَبة والنصر ستكون لهم.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

وفيها: نهيُ المؤمنين في حال إقدامهم في الجهاد عن الضَّعْف، وفي حال إدبارهم عن الحُزن.

وفيها: الإعراض عمَّا مضى من الغُموم، والالتِفات إلى استِدراكِ الأمر، وتحصيلِ ما ينفع.

وفيها: أنَّ الأعلى لا يَليق به أن ينخَفِض ويذِلَّ.

وفيها: إعادة شَحْذِ هِمَم المحزونين.

وفيها: تشجيعُ الأُمَّة، وبثُّ روح الأمل.

وفيها: أنَّ العِبرة بغَلَبة النهاية، والنصر الحاسم.

وفيها: أنَّ الإيمان شَرْطٌ للعُلُوِّ.

وفيها: أنَّ العلاج النفسيّ لا يقِلُّ أهميَّة عن العلاج البدَنيِّ، هذا إذا لم يكن مقدَّمًا عليه.

وفيها: أنَّ الاستِسلامَ للحُزن والقُعودَ عن العمل خلافُ العقل؛ لأنَّه لا يرُدُّ الفائِت، بل يُضعِف العزيمة، ويجلِب التَّعب، وينغِّص العَيش.

وفيها: أنَّ الوَهْن يمنع من مُقابَلة الأمور بجِدٍّ وحَزْم؛ فلا بُدَّ من تَرْك الاستِسلام له.

وفيها: أثر الإيمان في تقوية العزائِم.

وفيها: صَرْف المؤمنين عمَّا لا يليق بهم.

وفيها: أنَّ الإيمان يُوجِب قوَّةَ القَلْب، والثقةَ بنصر الله، وعدمَ التهيُّب من الأعداء.

وفيها: أهميَّةُ التدبيرِ للقتال، ووضعِ الخُطَط للمستقبَل، وأثرُ التصديق بوَعد الله في إنجاز ذلك.

وفيها: معالَجَة النفس بالمجاهَدة، والتكلُّف والتناسي، وإخراجها من نَفَق الإحباط.

وفيها: الحثُّ على تعويض الخسائِر، واستِدراك ما فات، والإفاقة بعد المُصيبة.

وفيها: أهميَّة سلامة القَلْب والبدَن، في مواجَهة الأعداء.

وفيها: النهي عن الاستِسلام لليأس، والاستِسلام للأعداء.

وفيها: أنَّ المؤمنين أولى بالعَودة إلى مُغالَبة العدُوِّ بعد مُصيبة أُحُد، من قريشٍ الذين عادُوا إلى مهاجَمة المسلمين بعد هزيمة بَدْرٍ.

وفيها: أنَّ عُلُوَّ الغَلَبة المؤقَّتة يشترِك فيه المؤمن والكافر، وأمَّا عُلُوُّ الإيمان: فهو خاصٌّ بالمؤمنين، باقٍ لهم، سواءً غَلَبوا، أو غُلِبوا.

وفيها: البِشارة للمُصاب، بما يخفِّف عنه أثَرَ المُصيبة، ويدفَعه للعَمَل؛ كما في قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾:

ولـمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ له سُننًا ماضيةً في ابتلاءِ المؤمنين، وإهلاكِ المُكذِّبين، ولَفَتَ النظرَ إلى ما في كتابه من البيان والهدى، ونهى المُصابين في أُحُد عن الضَّعف والحُزن، وبشَّرهم بالعُلُوِّ والغَلَبة: أتى بمزيدٍ من المُواساة للصحابة رَضِيَ اللهُ عَنهُم؛ فقال:

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ﴾ أي: يُصِبكم ﴿قَرۡحٞ﴾ قال مُجاهد: «جِراحٌ وقَتلٌ»[(١)]؛ ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ وهم كفار مكة ﴿قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ كما حصلَ في بَدْرٍ من قَتْل سبعينَ، وأَسْرِ سبعين، وما حصلَ في أول معركة أُحُد مِن قَتْل نَحْوِ عشرين منهم، وجَرْح كثيرين.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ﴾ أي: أيَّام الغلبَة والنصر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نُصرِّفها ونُناوِبها ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ المؤمنين والكفَّار، والقُدَماء والجُدد؛ فيومٌ لهم، ويومٌ عليهم.

وقد قال أبو سُفيان يومَ أُحُد -وكان مُشرِكًا-: «يومٌ بيَومِ بَدْرٍ، والحَرْبُ سِجالٌ»[(٢)].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليظهَر عِلمُه في الواقع، ظهورًا تقوم به الحُجَّة،

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٧).

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٩).

ويترتَّب عليه الجزاء في الآخرة، ويظهَر إيمانُ المؤمنين، ويُعرَف فَضْلُهم، ويقتَدِي بهم مَن بعدهم.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وهذا من حِكَمه تعالى أيضًا؛ فإنَّه يُقدِّر القَتْل والجِراح في المسلمين؛ لينالَ بعضُهم مرتبة الشَّهادة، ويفوز الجريح بثواب الكَلْم، وسيلان الدَّم في سبيل الله.

و(الشُّهَداء): جمع «شهيد»، وهو: مَنْ مَاتَ مِنَ المسْلِمِينَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ، وَبِسَبَبِه. وسُمي بذلك؛ لكونه مشهودًا له بالجنَّة، أو: لكونه كالمشاهِد للجنَّة، أو: لأنَّ قتْلَه شاهدٌ على إيمانه وصِدقه، وقيل غير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين نقَصوا حقَّه وحقَّ عِباده.

وقوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: معطوفٌ على قوله ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾؛ أي: أنَّ مِن حِكمة الإصابة بالقَتْل والجِراح أيضًا: التمحيص. وهو التطهير والتصفية، وتخليص الشيء من كلِّ عيب. وهذا يكون من الذُّنوب والدواخِل الرَّديئة في النفس، وتنقيتها من الشوائِب؛ لتكون خالصةً لله تعالى.

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يُهلِكهم ويستأصِلهم؛ لأنَّهم إذا انتصَروا بغَوا واستكبَروا وبَطِروا؛ فيكون ذلك سبَب دمارِهم وهلاكِهم، ومَحْقِهم وفَنائِهم.

وفي الآيتَين من الفوائد:

أنَّ وقوع المُصيبة على المؤمنين والكافرين معًا، لا يعني أنَّ النتيجة والأثر واحدٌ؛ لأنَّ ذلك يكون عقوبةً للكافرين، ورَفْعًا وتطهيرًا للمؤمنين.

وفيها: تناول المُصيبة بالجَمْع بينَ علاجِ آثارها النفسيَّة، وأخذِ العِبَر والعِظات والدُّروس منها. وهذا نهجٌ فريدٌ.

وفيها: أنَّ المسلم المُصاب إذا علِمَ أنَّ عدُوَّه قد أصابَه مثلُ الذي أصابَه، هانَتْ عليه المُصيبة.

وفيها: حِكمة الله العظيمة، في تنقُّل الغَلَبَة بينَ الناس -مؤمنهم وكافرهم-؛ فلو بقيَت دائمًا للمؤمنين؛ لأصابَهم العُجْب والغُرور، وحُرِموا من منزلة الشَّهادة العظيمة. ولو بقيَت الغَلَبة للكافرين؛ لأصبحَ دينُ الله مقهورًا مغلوبًا، وصارَ أتباعُه في هوان، ولا تقوم لهم قائمة، ورُبَّما أدَّى ذلك إلى عدمِ انتشار الدِّين في الأرض، أو زوالِه وانقراضِه.

وفي الآية: بيان شيءٍ من حِكمة الله البالغة، في تقدير هذه المُصيبة.

وفي ذكر الظالمين في الآية: إشارةٌ للمنافِقين، الذين ظلَموا أنفُسَهم بالتخلُّف عن غزوة أُحُد، والانسحِاب منها. وفيها أيضًا إشارةٌ إلى الكافرين، الذين ظلَموا المؤمنين الشُّهَداء، فقتلُوهم بغيًا وعُدوانًا بغير حقٍّ.

وفي الآيتَين: أنَّ الابتلاء طريق التمكين.

وفيها: أنَّه لا ينبغي للمسلمين أن تُقعِدَهم المصائب عن مواصلة الطريق، لإقامة دينِ الله في الأرض.

وفيها: أنَّ الأعداء إذا كانوا يعمَلون رَغْم ما يُصيبهم من جَهد ونفقات -وهم على باطِلِهم-؛ فالمؤمنون أجدَر بمواصلة العمل بقوَّة وعزيمة منهم؛ ليقينِهم بحُسن العاقبة، وإيمانِهم بوَعْد الله تعالى.

وفيها: أنَّ مِن حال الدُّنيا: ألَّا تدوم أفراحُها، ولا أحزانُها.

وفيها: أنَّ الناس لا يبقَون على حال واحدة، وأنَّ النصر لا يستمرُّ مُلازِمًا أحدَ الفريقَين دون الآخر؛ فالنصر منصبٌ شريفٌ، لا يَليق أن يكون للكافر دائمًا وأبدًا، ولا يدوم للمؤمنين أيضًا؛ لئلَّا تفوتَ حِكمةُ الابتلاءِ والتمحيصِ وامتحانِ الثبات، واصطِفاء الشُّهَداء.

وفيها: أنَّ مُداوَلة الغَلَبَة بينَ المُحِقِّ والمُبطِل، من سُنَن الله في البشر. وأنَّ رجوعَها إلى أهل الحقِّ يكون بسبَب بَذْلهم وتضحيتهم، وأنَّهم أهلٌ لها. وذهابها إلى أهل الباطل يكون بسبَب معصية أهل الحقِّ، وتنازُعِهم، وعدَم رعايتهم لِما أمرَهم الله به.

وفيها: أنَّه لا مُحاباة في السُّنَن الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ الابتلاء له جانبُ إكرام، كاتِّخاذِ الله الشُّهَداءَ.

وفيها: أنَّ الظالم ليس أهلًا لمقام الشَّهادة، ولا لدوام السُّلطة وثبات الدولة؛ بل قوَّته سريعة الزوال، قريبة الانحِلال.

وفيها: تعزية المُصابين، بذِكر شيءٍ من فوائد المُصيبة، وما انطوَت عليه من الحِكَم الإلهيَّة، وأنَّ أثرها يضعُف بالنظَر إلى ما أصاب الأعداءَ منها.

وفيها: أنَّ استِعادة النصر والغَلَبة من الأعداء، لا بُدَّ له من عملٍ دَؤوب وتضحيات، ولو دام النصرُ للمؤمنين؛ لرَكنوا إلى الدُّنيا، وأصابَهم الكَسَل والدَّعَة.

وفيها: أنَّ عِلْم الله يشمل: عِلْمَه بما مضى، وعِلْمَه السابق بما سيحدُث مستقبَلًا، وعِلْمَه بالشيء حين حصولِه ووقوعِه.

وفيها: أنَّ الله يُقدِّر من الحوادث، ما يظهَر بسبَبِه عِلْمُه السابق، ويراه الناس واقعًا حاضرًا.

وفيها: أنَّ الله لا يُقدِّر المكروهَ ولا غيرَه عبثًا؛ وإنَّما لحِكَم بالغة.

وفيها: فَضْل الشُّهَداء؛ لقوله ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ**﴾؛ أي: يتَّخِذهم ويختارهم لنفسه.

وفيها: فَضْل شُهَداء أُحُد.

وفيها: أنَّ الله لا يُوَفِّق الظالمين للثبات، ولا لعمل الطاعات.

وفيها: أنَّ الله قد يستَدْرِج بالنِّعم، ويحرِّك النفوس بالمصائب.

وفيها: أنَّ مُداوَلة الأيَّام والغَلَبة بينَ الناس لها فوائد كثيرة؛ منها: إحداث حَراك بين المسلمين، ودَفْعُهم للعمل، واستنهاضُ الهِمَم، والإحساس بالتحَدِّي، والعمل للإعداد، وحشد الطاقات، وبذل الجهود والتضحيات، وطَرْد الكسَل، والعَزْم على التفوُّق، وتطوير القُدرات، وحصول البرَكات، ومُراغمة الأعداء، ومعالَجة أدواء النفوس، وحصول المواجَهة بين المسلمين والكافرين؛ فيكون بها النصرُ والأجر العظيم.

وفيها: إثارة الانتِباه إلى أهميَّة الشيء، بأسلوب الالتِفات البلاغيّ، بالانتقال من الحاضر في قوله: ﴿**نُدَاوِلُهَا**﴾، إلى الغَيبة في قوله: ﴿**وَلِيَعْلَمَ**﴾، و﴿**وَيَتَّخِذَ**﴾.

ومن الأساليب البلاغيَّة أيضًا: ذِكر الشيءِ وضِدِّه، كما وقع في ﴿شُهَدَآءَ﴾، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا يَزيد في البيان.

وفيها: أنَّه شتَّانَ بينَ مَن يصيبه القَرْحُ في طاعة الله ورسوله، ومَن يصيبه القَرْحُ في عداوة الله ورسوله.

وفيها: أنَّ الله ينتَقِم لعباده المؤمنين، في نهاية الصِّراع بينهم وبينَ الكافرين.

وفيها: أنَّ تصفية النفوس من شوائِب الرِّياء والنِّفاق، والعُجْب والغُرور، وحُبِّ الدُّنيا، وحُظوظ النفس، وذُنوبها، لا بُدَّ منه؛ ليكون أهلُ الإيمان مؤهَّلين للنصر.

وفيها: أنَّ الإنسان كثيرًا ما يشتَبِه عليه أمرُ نفسه، ولا تتجلَّى له الحقيقة، إلَّا بالامتِحان بالشدائد العِظام.

وفيها: أنَّ الكافرين لا يثبُت لهم حالٌ، ولا تستقرُّ لهم الأمور، إلَّا في حال غياب مَن يواجههم ويُقاوِمهم -من أهل الحقِّ والعَدْل والإيمان-.

وفيها: أنَّ الكفَّار إذا انتصَروا في أول الأمر؛ أصابهم الفَخْر والكِبْر، فيُغريهم هذا بإعادة الكرَّة لقتال المسلمين، فيكون في ذلك هلاكُهم ودمارُهم.

وفيها: أنَّ الابتِلاء إذا أصابَ أهلَ الإيمان؛ كان ذلك كفَّارةً لذُنوبهم، فإن لم يكن لهم ذُنوبٌ؛ رُفِعَت درجاتهم، بحَسَب شِدَّة ابتلائِهم وما أصابهم.

وفيها: أنَّ نِعمة التغلُّب، قد تكون سببًا لنِقمةٍ قاصِمة الظَّهْر.

وفيها: أنَّ مَحْق الكافرين يكون بعد تمحيص المؤمنين.

وفيها: حِكمة الله تعالى، في تخليصِ صفوف المؤمنين من المنافِقين المختلِطين بهم، وتمحيصِ مواقف أهل الإيمان، واختبارِ صَبْرهم على مُناجَزة الأعداء.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾:

ثم خاطبَ الله تعالى المؤمنين، الذين انهزَموا وعصَوا في غزوة أُحُد:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ أي: هل ظننتم. والاستِفهام للإنكار والتقريع والعَتْب ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بَنعيمها، دون اختبارٍ وابتلاءٍ.

ولذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي: لم يظهَر عِلْمُه في الواقع بعدُ. فهذا عِلْم الوقوع والظُّهور ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ بالقتال في سبيله ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعته بالخروج للجهاد، وعن معصيته بعدَمِ التولِّي والفِرار، وعلى أقداره من القَتْل والجِراح والشِّدَّة.

والمعنى: أظننتُم -يا معشر المؤمنين- أن تنالُوا كرامةَ ربِّكم، دون ابتلاءٍ يظهَر به في الواقع عِلْمُ الله السابق بالمجاهدين حقًّا، والصابرين على البأساء والضرَّاء وحين البأس؟! وهل ظنَنتُم -أيُّها المنهَزِمون- أن تدخلوا الجنَّة، كما دخلَها الذين قُتِلوا في سبيل الله، وبذَلوا نفوسَهم لأجله، وصبَروا على ما أصابَهم، إلَّا بعد أن تُقَدِّموا كما قدَّموا، وتبذُلوا أنفُسَكم لله؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ محبَّة الله للمؤمنين لا تمنَع من مُعاتَبتِهم، وبيانِ تقصيرهم، وتوضيحِ معصيَتِهم.

وفيها: أنَّ دخول الجنَّة لا يتِمُّ إلَّا بالجهاد والصَّبر.

وفيها: الصَّبر على عواقِب الجهاد، من الجِراح، والألم والشِدَّة، والخوف، وكلِّ المكروهات.

وفيها: تربية النفوس على مواجَهة شدائدِ الحَرْب.

وفيها: وجوب سُلُوك طريق أهل الإيمانِ والصَّبرِ، من السابقين والحاضرين.

وفيها: أنَّ سِلْعة الله غالية، فلا تُنال إلَّا باقتِحام المكارِه؛ ولذلك حُفَّت الجنَّة بها؛ كما في الحديث: «حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[(١)].

وفيها: تحمُّل ما يحدُث في ذات الله وسبيله، من الآلام والمكارِه.

وفيها: أنَّ عِلْمَ الله الأزليَّ السابقَ لا يترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ وإنَّما يترتَّب الثواب

(١) رواه مسلم (٢٨٢٢).

والعقـاب على عِلْـم الظُّهور -وهو عِلْم الشيء عند حصوله ووجـوده- وهو الذي تقوم به الحُجَّـة عـلى العِباد؛ لأنَّ الله سـبحانه لو حاسـبَهم بحَسَـب عِلْمه السـابقِ الأزليِّ لقالوا: ما عَمِلنا، فلِمَ نُعاقَب ونؤاخَذ؟

وفيهـا: أنَّ الصَّـبر مطلـوبٌ قبـل القِتـال وبعدَه، وهـو بعد القتـال أصعبُ وأشـقُّ على النفوس؛ فقد يظنُّ البعضُ من نفسه صبرًا، فإذا رأى بارقةَ السُّيوف فرَّ وأصابه الفزَع.

وفيها: أنَّ الله تعالى يمتَحِن عبادَه؛ ليظهَر صبرُهم أو ضَجَرُهم.

وفيها: أنَّ راحة الآخرة لا تُدرَك إلَّا بتَرْك شيء من راحة الدُّنيا، وأنَّ نعيم الآخرة لا يُنال إلَّا بتَرْك نعيم الدُّنيا، المُشغِل عن العمل للآخرة.

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾:

ولـمَّا كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين لم يخرُجوا في بَدْرٍ، قد رَأَوا ما فاتهم من المشاهِد العظيمةِ والمناقـبِ الشريفةِ لمن حضرَ بدرًا، من رضوان الله تعالى، والمغفرة، وقتال الملائكة، والنصر، ورَأَوا الغنائِمَ وأَسْرَى قُرَيش مع العائدين من بَدْر، وسَمِعوا أخبار مَن قُتِل من الكفَّار؛ صار ذلك دافعًا عظيمًا لهم ليلقَوا العدُوَّ، وينالُوا مثل تلك المناقِب والفضائِل.

ولم يكن ذلك ليتمَّ إلَّا بمعركةٍ ولقاءٍ آخر معهم، فلمَّا حصل ذلك في أُحُد، وهم يترقَّبونه، وقد تشوَّقوا إليه، وأصرُّوا على الخروج من المدينة لأجلِه، ثم حصلَ ما حصلَ من العِصيان والتنازُع والتولِّي؛ قال الله لهم:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي: كنتُـم -أيها المؤمنون- تتمنَّون لقاءَ العدُوِّ قبل هذا اليوم، وتوَدُّون مُنازلته ومُصابَرته، وكنتُم تطلبون القَتْلَ والشَّهادةَ في سبيل الله.

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ وأبصرتُم أسبابَه، في لَـمَعانِ السُّيوف وحدِّ الرِّماح واشتباكِ الصُّفوف، ورأيتُم مِن إخوانكم مَن يُقتَل أمامَكم ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك حقيقةً لا خيالًا.

فما دامت قد حصلَت لكم الفُرصة لنَيْل الشَّـهادة في سـبيل الله؛ فلماذا لم تصبِروا وتثبُتوا وتُقاتِلوا لنَيل ذلك؟!

وفي هذه الآية من الفوائد:

الحِرْص على استِدراك ما فات.

وفيها: السَّعْي لنَيل الشَّهادة في سبيل الله، وأنَّ تمنِّي ملاقاةِ العدُوِّ لأجل هذه الغاية أمرٌ حسنٌ محمودٌ. لكن إذا كان التمنِّي باستِهانة واستِخفاف، واغترار بالنفس؛ فيكون -حينئذٍ- مذمومًا؛ ولذلك نهى النبيُّ ﷺ عنه بقوله: «لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[1].

وفيها: تنبيه المؤمنين إلى اتِّقاء الغُرور، بمجرَّد حديث النفس، والأمانيِّ الكاذِبة والتشهِّي، بلا إعدادٍ ولا صبرٍ.

وفيها: أنَّ الله يبتلي النفوسَ بالمواقِف الصعبة والأعمال الشاقَّة؛ لتظهر حقيقةُ الأمنيَّات.

وفيها: أنَّ مَن تمنَّى الشيء وسعى إليه؛ لا ينبغي أن يُحزِنَه وقوعُه، أو أن يسوءَه لقاؤه.

وفيها: أنَّ شِدَّة الأهوال تُري المرءَ الشيء المعنويَّ الغائبَ، محسوسًا حاضِرًا.

وفيها: أنَّه ينبغي على المؤمن أن يفيَ بما عاهدَ اللهَ عليه.

وفي الآية: تربية عظيمةٌ لمن ظنَّ بنفسه خيرًا، واتَّخذَ لها مكانًا عاليًا، وزعمَ ما لا يقدِر عليه، بأنَّ ذلك كلَّه سيتكشَّف ويتجلَّى إذا حقَّت الحقائِق.

وفيها: أنَّ تمنِّي الشَّهادة في سبيل الله أمرٌ محمودٌ؛ ولذلك أقرَّ الله عليه الصَّحابة رضي الله عنهم -كما في الآية- وإنَّما المذموم عدمُ العمل بمقتَضيات هذه الأمنيَّة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

ولـمَّا كانت الغَلَبةُ للمُسلمين في أول المعركة، وفرَّ المشركون، وسقطَ لِواؤهم؛ خالفَ بعضُ الرُّماة أمرَ رسول الله ﷺ، فنزَلوا وجعَلوا يأخُذون الغنائِمَ، والتقت صفوفُ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

المسلمين بعضُهم مع بعض والتبَسوا، ففاجأتهم خيلُ المشركين من الخَلْف، فوقعوا فيهم قَتْلًا، واضطربَ أمرُ المسلمين، حتى جعلَ بعضُهم يضرِب بعضًا، وقُتِلَ من المسلمين كثيرون!

فعند ذلك صاح الشَّيطانُ: قُتِل محمَّد!

فوقع ذلك الخبر في قُلوب كثير من المؤمنين، ولم يشُكُّوا فيه أنَّه حقٌّ، واضطرب أمرُهم، فصاروا ثلاثَ فِرَق: ثُلُثٌ جريح، وثُلُثٌ مقتولٌ، وثُلُثٌ مُنهَزِم.

فعاتبَ الله تعالى المؤمنين على ما حصلَ منهم من الوَهن والضَّعْف، والتأخُّر عن القتال بسبَبِ تلك الإشاعة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ بشرٌ، مُرْسَلٌ إلى الناس كافَّة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: مضَتْ وانقرضَتْ، فماتُوا أو قتلَهم أقوامُهم وأعداؤهم، فهو سيموت كما ماتوا قبلَه، وسيخلو كما خلَوا.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ كما ماتَ نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وغيرُهم ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ كما قُتِلَ زكريّا ويحيى وغيرُهما؛ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ رجعتُم ونكَصتُم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ وأدبارِكم، وارتدَدتُم عن الدِّين، وتولَّيتُم عن نُصرته؟! أفلا تقتَدون بأتباعِ الأنبياء السابقين، الذين بَقوا على دينِهم بعد رحيلِ أنبيائهم؟

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ويَرْجِع إلى الشِّرك، ويتولَّى عن نُصرة الله ورسوله؛ ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّ الله لا ينتَفِع بطاعة الطائعين، ولا يتضرَّر بمعصية العاصين، وإنَّما يضرُّ المنقلِبُ نفسَه، ويتعرَّض لسَخَط الله وعذابِه.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: سيُكافئهم على شُكرهم نِعمَه، وعلى رأسها: الهداية لدين الإسلام، بثباتهم عليه، وعمَلهم به، وبَذْلهم من أجله.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرٌ، يَلْحَقه الموت، كما لَحِق جميعَ الرُّسُل من قبله.

وفيها: إمكان مَوْت النبيِّ ﷺ شهيدًا بالقَتْل.

وفيها: رَدٌّ على مَن زعم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يمُت.

وفيها: انتِفاء الضرَر عن الله تعالى.

وفيها: الحثُّ على شُكر النِّعَم.

وفيها: تربية الله لعباده المؤمنين، على التعلُّق به، وبدينه، وأن يستمرَّ عمَلُهم بعد موت نبيِّه ﷺ، ولا يكون مقتَصِرًا على وجوده بينَهم، ولو مات النبيُّ ﷺ فإنَّ الله -المعبودَ بحقٍّ- حيٌّ لا يموت.

وفيها: التأسِّي بمَن سلفَ من الأنبياءِ وأتباعِهم.

وفيها: قياس الحاضر على الماضي، في السُّنَن الإلهيَّة.

وفيها: أنَّ الرسول ليس مقصودًا لذاته؛ ولكنَّه مقصودٌ لِما أُرسِلَ به من الدِّين والهداية، وأنَّه مُبلِّغٌ لا معبود، والمُبلِّغ يموت، والمعبود حيٌّ باقٍ لا يموت.

وفيها: التحذير من الرُّجوع عن الدِّين، إذا مات المُبلِّغ أو الدَّاعية، وأنَّ مَن اهتدى على يدَيه فعليه أن يُكمِلَ الطريق.

وفيها: أنَّه يجب أن ترتَبِطَ الاستقامة والثبات بالدِّين، لا بالأشخاص.

وفيها: إرشادٌ من الله تعالى، بأن يكون عبادُه المؤمنون على حالةٍ، لا يُزَعْزِعهم فيها عن إيمانهم فقْدُ كبيرٍ أو قُدوةٍ -مهما علَتْ منزلتُه- وذلك بالاستعداد في كلِّ أمرٍ من أمور الدِّين بعدَدٍ من أهل الكفاءات، بحيث إذا فُقِدَ أحدُهم قامَ بالأمر مَن بعدَه.

وفي هذا: أهميَّة إعداد الصف الثاني في العِلْم والدَّعوة، بحيث يكون لكلِّ عمل مُهِمٍّ وخطيرٍ رجالٌ كثيرون مُجرَّبون للقيام به، فإذا فُقِدَ مَن يتولَّاه قامَ غيرُه مقامَه. وبهذا لا تنفَرط الأمور، ولا تحدُث الثَّغْرات.

وفيها: الثبات على الحقِّ.

وفيها: وجوب الاستِمرار في مُناجَزة الأعداء.

وفيها: عدم المبالاة بارتِداد الضُّعفاء والمنافِقين.

وفيهـا: أنَّ المصائِب التي تحلُّ بالإنسـان، لا عَلاقة لها بكونه عـلى الحقِّ أو الباطل؛ فأهل الحقِّ أصحاب مصائب وابتلاءات.

وفيهـا: أنَّـه لا يُعتمَد في معرفة الحقِّ على غَلَبة أهلِه الماديَّـة؛ فقد يكونون على حقٍّ لكنَّهم مُستضعَفون.

وفيها: أنَّ الحِكمة من إرسال الرُّسُل هي تبليغ الدِّين، فإذا تمَّ البلاغ فقد حصلَ المقصود من الإرسال.

وفيها: أنَّ القتال في الجهاد لا يَصِحُّ أن يرتَبِطَ ببقاء القائد أو حياته؛ فيجب إكمالُ المعركة، ولو قُتِلَ أو أُصيبَ القائد.

وفيها: أنَّ جميع الرُّسُل قد ماتوا؛ فليس منهم أحدٌ حيٌّ على الأرض، لا الخَضِر ولا النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا غيرهما. أما عيسـى عَلَيْهِالسَّلَامُ: فقد رُفِعَ إلى السماء، وهو حيٌّ، وسينزل في آخر الزمان.

وفيهـا: أنَّ محمَّـدًا صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هـو خاتَـم المُرسَـلين؛ لقولـه تعـالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ**﴾؛ أي جميعًا.

وفيها: أنَّ رسالة النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا تنقَطِع بموته.

وفيهـا: أنَّ المنتَكِس يسـير إلى غير هُدًى؛ بل يسـقط على قفاه، ولا يتقدَّم ولا يسـتقيم؛ فقد شُـبِّه في الآية بـ (المنقلِب على عَقِبَيه)، و(العَقِب): هو العُرقوب في مؤخّرة القدَم، ومَن ينقَلِـب عـلى عَقِبَيـه فهو كالذي يمـشي مُكِبًّا على وَجْهه، يسـير بغير هُدًى، وعـلى غير الهيئة المعتادة، فيسقط، أو لا يستقيم في مِشيته.

وفيهـا: أنَّه ينبغـي أن تكون المصالح العامَّة جاريةً على نظام ثابت، ومصيرُها غيرَ مرتَبِط بأشخاص.

وفيها: أنَّ الحُزن على المُصيبة العظيمة، لا يَصِحُّ أن يمنَع من مواصلة الطريق في نُصرة الدِّين.

وفي الآية: إعدادُ الأُمَّة لِـما سيأتي من الأحداث العِظام، ومنها: وفاة النبيِّ ﷺ؛ ولذلك استشهدَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالآية في هذا المقام العظيم؛ فقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾».

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «واللهِ، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا، حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا»(١).

وكذلك جرى إعدادُ الأُمَّة بهذه الآية، لمواجَهة رِدَّة العرَب بعدَ وفاة النبيِّ ﷺ؛ فثبتَ الصَّحابةُ الذين تلَوا هذه الآية، وعرَفوا حقيقتَها.

وفي الآية مع سبَب نزولها:

الحذَر من الإشاعات المثبِّطة؛ لأنَّها تفُتُّ في العَضُد، وتُقعِد عن العمَل.

وفيها: أنَّ الشَّيطان يُشيع الإشاعات.

وفيها: الحذَر من أخبار المجاهيل.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى أنَّ وفاة نبيِّه ﷺ -أو غيره من الناس- إنَّما هي بأمرِ الله وإذنِه وقدَرِه عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّه إذا بقيَ من عُمره ﷺ بقيَّة -لإكمال إبلاغِ الدِّين-؛ فلا يمكن أن يموتَ قبل ذلك؛ لأنَّ آجال النفوس مكتوبة، ولا بُدَّ أن تُستوفَى، والله تعالى هو الذي قضى بذلك.

فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: يُمتنَع غاية الامتناع، وليس من شأن النفوس ولا من سُنَّة الله فيها ﴿أَن تَمُوتَ﴾ مهما حاولَ الناس ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمرِه،

(١) رواه البخاري (١٢٤١).

وقضائِـه وقدَرِه، وعِلْمِه، وإرادته ومشـيئته. والمقصود بــ (الإذن) هنا: الإذن الكونيُّ، لا الشرعيُّ.

﴿كِتَٰبٗا﴾ كتبَه الله ﴿مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ أي: لأجَل معيَّن، فلا يزيد ولا ينقُص.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يكـون عمُلـه لهـا ومـن أجلهـا، ولِـحَظِّهـا ومنفعَتِها؛ ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي: نُعطِـه جـزاءَ عمَله مـا قدَّرنا له مـن الدُّنيا، قليلًا أو كثـيرًا، وليس له في الآخرة من نصيب.

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ويقصِـد بعمَلـه الصالـح أَجْـرَ الله ونعيـمَ الآخرة؛ ﴿نُؤۡتِـهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ الأضعافَ المضاعَفة.

وهذه القاعدة -وإن كانت قد نزلَت في سياق آياتِ الجهاد-؛ لكنَّها تعُمُّ سائرَ الأعمال.

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ونثيب الثَّابِتين، المقرِّين له بفَضْله، الشاكرينَ لنِعَمه، المستعمِلين لها في طاعته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ذِكْر قضاءِ الله في الموت، وقَبْضِ أرواح العِباد.

وفيها: أنَّه مهما اجتمعَ الناسُ على قَتْلِ أو إماتةِ أحدٍ لم يأذَن الله بموته؛ فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

وفيها: تشـجيع المقاتِلين في سبيل الله على خَوض غِمار الحروب، واقتِحام الأهوال، وأنَّ هـذا لن يـؤدِّي بالضرورة إلى المـوت؛ فقد يعيش الشّـجاع ويُقتَل الجبَان، ويموت الشـابُّ ويمتَدُّ العمر بالشيخ الضعيف؛ فللأعمار آجالٌ، وللآجالِ أقدارٌ.

وفيها: أنَّه لا عُذرَ في الوَهْن والضَّعْف.

وفيهـا: تشـجيع المؤمنين على لقاء العدُوِّ، وأنَّ آجالهم لـن تنتهيَ قبل الوقت المعلوم عند الله، والعمر مقدَّرٌ مكتوبٌ.

وفي الآية: إشارةٌ إلى حِفظ الله لنبيِّه ﷺ، مع غَلَبَةِ العدو، والتفافِهم عليه في غزوة

أُحُد، وقَتْلِ مَن قُتِلَ من المسلمين، وهزيمةِ مَن انهزم، وجُرْحِ مَن جُرِحَ، ولم يبقَ إلَّا القِلَّة من المؤمنين، والكافرون كثرة، ولكنَّ الله إذا حَفِظَ أحدًا فلن يضرَّه شيءٌ.

وفيها: أنَّ الله إذا أراد حِفظَ أحدٍ من الموت؛ هيَّأ لذلك أسبابًا.

ومن أسباب حفظ نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معركة أُحُد:

أنَّه أخفى مكانَه عن أعيُن الكفَّار وصرفَهم عنه تارةً، وجعلَ مِن الصَّحابة مَن يقاتل دونَه تارةً أخرى، وجعلَ منهم مَن اتَّخذ من جسَدِه دِرْعًا يقيه سهامَ العدُوِّ، حتى وقعَت في ظهور بعضهم -وقد شَلَّت يدُ طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا وقاه سَهمًا- وتارةً كان الحِفظُ بإنزال جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يقاتِلان عن نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو بينهما-.

فهذه كلُّها أسبابٌ في حِفظ الله نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكِلائته له.

وفيها: أنَّ العِبرة بالأعمال هو نيَّة العبد. فمَن أرادَ بعمَله الدُّنيا؛ أعطاه تعالى منها ما شاء، ومَن أراد بعمَله الآخرة؛ جعلَ غِناه في قَلْبه، وآتاه من الدُّنيا ما يكفيه، وأوفى له أجرَه في الآخرة.

وفيها: أنَّ المؤثِّر في جَلْب الثواب والعقاب هو: الدواعي والنيَّات والمقاصِد، وليس ظواهرَ الأعمال فقط.

وفيها: أنَّ مُبتَغِي الدُّنيا لا يُشترَط أن يحدُث له كلُّ ما يريد؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ فقد لا يحصُل له إلَّا النزْرُ اليسيرُ، والشيءُ التافِه.

وفيها: أنَّ مَن أراد الآخرة؛ فهو من الشاكِرين.

وفيها: أنَّه يجب الاستِسلام لِما قدَّره الله من الآجال.

وفيها: أنَّ الناس لهم مشارِب ومسالِك مختلفة في الدوافِع.

وفيها: تحذير مَن انشغل بالغنائمِ ومتاعِ الدُّنيا عن طاعة الله ورسوله، والتعريض به في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

وفيها: عظيم جزاء الشاكرين؛ لأنَّ الله تعالى لم يذكُر له مقدارًا ولا حدًّا، وهذا يدُلُّ على عِظَمه.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾:

ثـم ضربَ الله تعـالى مَثَـلًا للمؤمنين المُصابـين في أُحُد، بحال المؤمنـين الذين كانوا مع الأنبياء الماضين؛ ليتأسَّـى اللَّاحِقون بالسـابقين، ويقتَدوا بهم، ويصـبِروا كصبرهم، ويثبُتوا كثباتهم، ويكون في ذلك أيضًا تسليةٌ لهم عمَّا أصابهم.

فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبيٍّ. والمقصود: أنَّهم كثير ﴿قَٰتَلَ﴾ لإعلاء كلمـة الله، وفي سـبيل الله ﴿مَعَهُۥ﴾ مـن أصحابه وأنصاره ﴿رِبِّيُّونَ﴾ يعبُـدون الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، ومنهم الفقهاء والعلماء، وقد ربَّاهم الأنبياء وتعاهَدوهم ﴿كَثِيرٌ﴾ ألوفٌ، وجموعٌ كثيرة.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: مـا جَبُن ولا فتَر هؤلاء الرَّبَّانيُّون ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ ولا عجَـزُوا عـن قتـال عدُوِّهـم بسـبَب ما أصابَهـم من جـراح، أو وَصَـب ونَصَب، ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ أي: ما ذَلُّوا ولا خضَعوا، ولا استَسْلموا لعدُوِّهم، ولا ارتدُّوا.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقِّ الجهاد، وشدائدِ التكاليف، وعلى ما أمرَهم به ربُّهم عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية من الفوائد -مع ما قبلها وما بعدها-:

الجَمْع بينَ المواساةِ في المُصيبة، واللَّومِ على التقصير.

وفيها: تسلية اللَّاحِقين بما أصاب السابِقين، وتصبير المتأخِّرين بمصائب المتقدِّمين.

وفيهـا: ضَرْب المثَـل للحاضِرين بثبـات مَن مضى من أهل الإيـمان؛ ليفعلوا فِعْلَهم، ولا ينهَزِموا أو يفِرُّوا.

وفيهـا: عِتـابٌ من الله لمن انهـزمَ في أُحُد، وترَكَ القتال لـمَّا سَـمِعَ الصائِح: «إنَّ محمَّدًا قد قُتِل»؛ فقيل لهم: إنَّ أصحاب الأنبياء السـابِقين قـد ثبَتوا رَغْم قَتْلِ أنبيائهم، ولم يَضْعُفوا ولم يجبُنوا؛ بل واصَلوا الطريق واستمرُّوا في العمل.

وفيها: أنَّ العِلْم والفِقه والتربية، هي السَّبَب العظيم في الصَّبر والتثبيت.

وفيها: اجتماع أهل الإيمان على نُصرةِ الأنبياء، والمواصلةِ في تحقيق ما أمرَ به الرحمن.

وفيها: أنَّ البصيرة تمنَع من الارتِداد.

وفيها: أنَّ صاحب الإيمان لا يَذِلُّ ولا يستكين.

وفيها: أنَّ عبادة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ تُورِث الصَّبرَ عند اللِّقاء، والاستمرارَ في العطاء.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ يقدِّمون التضحيات الكبيرة، والشُّهَداء، في سبيل نصر الحقِّ والدِّين.

وفيها: أنَّ الجهادَ والاستمرارَ فيه من وسائل إعزازِ الدِّين.

وفيها: مُعاتَبة قِصار النَفَس، الذين تقعُد بهم المصاعِب والمصائِب.

وفيها: النهي عن الذُّلِّ والخُنوع.

وفيها: إثراء هذه الأُمَّة بخِبرات وتجارِب مَن سبقَها.

وفيها: أنَّ الجهاد كان مشروعًا لمَن كان قبلَنا.

وفيها: أنَّ ذِكر النماذج العظيمة يُشَجِّع الإنسانَ على الاقتِداء بمَن سلَفَ من الرَّبَّانيِّين، ويُغريه للَّحاق بهم.

وفيها: انحِطاط مرتبة الذين يَذِلُّون لأعداء الله، كما يؤخَذ من قوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾، وأنَّه لا ينبغي للمسلِم أن يَذِلَّ أمام عدُوِّه.

وفيها: أن أتْباع الأنبياء يبقَون أوفياء.

وفيها: أنَّ المؤمن عزيزٌ بدينه.

وفيها: أنَّ نُصرة الدِّين تحتاج إلى قوَّة القَلْب، بالإضافة إلى قوَّة البدَن والسِّلاح.

وفيها: كَثْرة مَن قُتِلَ من الأنبياء في سبيل الحقِّ، وذلك على قراءة مَن قرأ: (وَكَأَيِّن من نَّبيٍّ قُتِلَ).

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى بعضَ كلام هؤلاء، الذين ثبَتوا عند لقاء العدُوِّ -ممَّن سبقونا في الإيمان-؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ﴾ في تلك الشَّدائد والأهوال، وساحات القتال، أو عندما قُتِلَ أنبياؤهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ -وهذا شأنهم، ودَأْبهم وعادتهم-: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: استُر وتجاوز ﴿ذُنُوبَنَا﴾ كبيرَها وصغيرَها ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ أي: تجاوُزَنا الحدَّ في أمرِ دينِنا وشأنِنا، بغُلُوٍّ أو تقصير.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ عند مُلاقاة الأعداء، وأفرِغ علينا صبرًا، واربط على قُلوبنا؛ حتى لا نفرَّ منهم ﴿وَٱنصُرۡنَا﴾ أي: واجعَل لنا الغَلَبَة ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بك، وبمَن أرسلتَه، وبما أنزلتَه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تواضُع المؤمنين بذِكر ذُنوبهم.

وفيها: أهميَّة التوبة والاعتِراف بالذنب، في وقتِ الشِّدَّة وقيامِ المعركة.

وفيها: اللُّجوء إلى الله عند القتال.

وفيها: اعتياد الدُّعاء عند مواجَهة الأعداء.

وفيها: طلَب النصر بالاعتِراف بالذنب.

وفيها: هَضْم النفس، بالاعترافِ بتقصيرها وتجاوزِها، وإضافة الذُّنوب والإسراف إليها، مع أنَّ أصحابها من الرَّبَّانيِّين.

وفيها: اقتِران الدُّعاء بالمُصابَرة والمُجاهَدة.

وفيها: المواظَبة على اللُّجوء إلى الله، وعدم الجَزَع والتزَلْزُل، وأنَّ ذلك يَحْمِي من الفَشَل والهزيمة.

وفيها: أنَّ الذُّنوبَ والإسرافَ من عوامل الخِذلان والفِرار.

وفيها: أهميَّة الدُّعاء المذكور عند القتال.

وفيها: أهميَّة طلَب الثبات عند مواجَهة الأعداء، وعند الشُّبُهات والشَّهوات.

وفيها -مع التي قبلها-:

اقتِران كمال الأقوال، بكمال الأفعال والأحوال.

وفيها: إشارةٌ إلى أنَّ الرُّعبَ من نتائج الذنب، والثباتَ من ثمرات الطاعة.

وفيها: أنَّ الدُّعاء عند التِقاء الصفوف لا يُرَدُّ؛ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ -أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ-: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

وفي طلب (المغفرة) قبل طلَب (تثبيت الأقدام): تقديمٌ لطلَب التَّخْلية على طلَب التَّحْلية.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾:

ولـمَّا حسُنَت النوايا، وصدَقَت الأقوال، وصحَّت الأفعال من هؤلاء المؤمنين الرَّبَّانيِّين؛ كان جزاؤهم في الدَّارين كاملًا موفورًا؛ ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: بالنصر على الأعداء، والظَّفَر بالغنيمة، والتمكين في الأرض، والعِزَّة والكرامة، والأمن، والثَّناء الجميل.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: برِفعة الدَّرجات في جنَّات النعيم، والنجاة من عذاب الجحيم.

وإنَّما خصَّ (ثواب الآخرة) بـ(الحُسن)؛ إعلامًا بشرَفه وفَضْله، وأنَّه خالصٌ نقيٌّ من كلِّ شائبة، لا يُخالِطه عَناءٌ ولا يَلْحقه فَناء، وهو ثواب مُضاعَفة. فجمَعَ ثوابُ الآخرة بينَ الحُسن والفَضْل.

بخلاف (ثواب الدُّنيا)؛ فهو لا يخلو من عَناءٍ وكدَر، وهو ثواب مُكافأة لا مُضاعَفة.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادتهم لربِّهم، ونُصرتهم لأنبيائه، وإقامةِ دين الله في الأرض، ومعاملتِهم للخلْق.

وفي هذه الآية من الفوائد:

إجابةُ الله دعاءَ المؤمنين، وإعطاؤهم أكثرَ ممَّا سألوا.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٩).

وفيها: الجَمْع للمؤمنين بينَ الحسَـنتَيْن، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى عن دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفيها: رَدٌّ على الغالين المتنطِّعين، الذين يُحرِّمون طيباتِ ما أحلَّ الله لهم، ويظنُّون أنَّ هذا منافٍ للتقوى، وقد قال الله تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وفيها: تسمية حسَنة الدُّنيا بـ (الثواب)؛ لأنَّه جزاءٌ مُعجَّل على الطاعةِ وامتِثالِ أوامر الله تعالى.

وفيها: صفاء ثواب الآخرة، وأنَّه لا يشـوبه أذًى ولا تنغيصٌ، بخلاف ثواب الدُّنيا؛ فإنَّه مهما كَثُر يُعَدُّ قليلًا سريعَ الزوال.

وفيها: أنَّ الاستِمتاع بما أفاء الله على المؤمنين من ثواب الدُّنيا -كالمغانم وغيرها- لا يُنافي الزُّهْدَ فيها، ولا يتعارَض مع رِضوانِ الله، ومضاعَفةِ ثواب الآخرة.

وفيها: أنَّ من صفات المُحسِـنين: الاعتِراف بالإسـاءةِ والتقصيرِ، فقد كان من دُعائهم -كما في الآية السابقة-: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾.

وفيها: أنَّ الإحسان سبيلٌ إلى محبَّة الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

وفيهـا: أنَّ ثـواب الدُّنيا لهذه الأُمَّة أعلَى من ثواب غيرهـا؛ لأنَّ المغانِم أُحِلَّت لنا ولم تُحَلَّ لمن قبلَنا، وإنَّما كان ثواب الدُّنيا لهم بالنصر والأمن والتمكين، دون غنائم المعركة.

وفيها: سَـعَة رحمةِ الله وكَرْمِه؛ فإنه يُثيب المطيـعَ بثوابَيْن في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا العاصي إذا أُقيمَ عليه الحدُّ في الدُّنيا؛ فلا يُعاقَب به في الآخرة.

وفيها: إثبات صفة (المحبَّة) لله، وأنَّها حقيقيَّة، وهي من الصِّفات الاختياريَّة لله عَزَّوَجَلَّ المتعلِّقة بمشيئته، ولا يجوز تأويلُها إلى: الإثابة والإكرام والرِّضا ونحوها من المعاني؛ بل هذا من لوازِمها وما يترتَّب عليها، فنُثبِت (المحبَّة) لله، ونُثبِت لوازِمَها -من الإثابة والإكرام وغيرها-.

ففيها رَدٌّ على المُنكِرين لهذه الصِّفة، الذين قالوا: إنَّ الحُبَّ لا يكون إلَّا بينَ المتجانِسَـيْن -كالبشر مع بعضهم البعض-!

والجواب: أنَّ الحُبَّ متُبادَلٌ بين الأجناس المختلفة، كالحبِّ بين المؤمنين والملائكة، وقد قال النبيُّ ﷺ عن جَبَل أُحُدٍ -وهو جماد-: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[(١)].

فما يفعلُه نُفاة الصِّفات من تأويل المحبَّة وغيرها، بحُجَّة تنزيهِ الله عمَّا لا يليق به؛ هو في الحقيقة تعطيلٌ للصِّفات، وتحريفٌ لها عن معانيها، وجَحْدٌ لِما أثبتَه الله تعالى لنفسه.

وفيها: دليلٌ لمن قال: إن المَغنمَ الدُّنيويَّ لا يؤثِّر على الثواب الأُخرويّ، إذا خلَصَت النِّيَّة، ولم تتعلَّق قُلُوب المقاتِلين بالدُّنيا، فما يحصل لهم دونَ إرادةٍ منهم لا يُنقِص شيئًا من أجورِهم الأُخرويَّة. بخلاف مَن كان قصدُه السعيَ إلى تلك الغنائِم، وتعلَّقَ قلبُه بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المقتَدِين بالأنبياء؛ حذَّر -الصحابة والمؤمنين- من اتِّباع سبيل الكفَّار والأعداء -وهم مصادِر الخطر الخارجيّ على الدِّين- في مسيرة جهادِهم المبارَك؛ فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: نداءٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، تنبيهًا لهم على الاعتِناء بما سيُحَذِّرهم منه. وناداهم بوَصْف الإيمان؛ إغراءً لهم على الالتِزام بذلك.

﴿إِن تُطِيعُواْ﴾ وتُتابِعوا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أنزلتُ وبمَن أرسلتُ ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾ عن الإيمان ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ وأدبارِكم ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ أي: تَرْجِعوا. و(الانقِلاب): هو التحوُّل من حال إلى حال ﴿خَٰسِرِينَ﴾: مَغبونين في الدُّنيا والآخرة؛ فأمَّا خُسران الدُّنيا: فبخُضوعكم لسُلطانهم، وذِلَّتكم لهم، وحِرمانكم من السعادة والتمكين. وأمَّا خُسران الآخرة: فبالحِرمان من الثواب، والوقوع في العذاب.

ولا يبعُد أن يكون الخُسرانُ الأول واقعًا في زماننا، والله المستعان، ونسأل الله تعالى التوبة والإنابة وإصلاحَ الأحوال.

(١) رواه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي: لا تُطيعوهم؛ فإنَّ لكم مَن هو خيرٌ منهم، يتولَّاكم إذا تولَّيتُموه، وينصُركم إذا أطعتُموه؛ وهو ربُّكم سبحانه.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ وأقواهم وأفضَلهم؛ فلا حاجة معه إلى نُصرة أحدٍ، كائنًا مَن كان.

وفي الآيتَين من الفوائد:

التنبيه بالنِّداء، للعِناية بالشيء والاهتِمام به، والنِّداء بصفة الإيمان فيه إغراءٌ للمؤمِنين وتشجيعٌ لهم، على الالتزامِ بما يأمرهم الله به، وتَرْكِ ما ينهاهم عنه.

وفيها: أنَّ طاعة الكفَّار تخالِف مقتَضيات الإيمان.

وفيها: التحذير من مُتابَعةِ اليهود والنصارى والمشرِكين، والرُّكونِ إليهم، سواءً كان خوفًا منهم، أو إعجابًا بهم، أو انجِذابًا لِـما زيَّنوه من الكلام والآراء.

وفيها: أنَّ التحذير من متابعة المشرِكين إنَّما هو في أمور الدِّين والعِبادة، وأمَّا الانتِفاع بهم في أمور الدُّنيا المحضة -كالصِّناعات، وأسباب القوَّة الدُّنيويَّة، والتقدُّم التكنولوجي، ونحو ذلك-: فلا حرجَ فيه؛ بل هو مطلوبٌ، وهو من الأَخْذ بالأسباب، ويُستعان به على جِهادِهم ومُواجَهتهم.

وفيها: التحذير من الرِّدةِ، والتحوُّلِ من الإسلام إلى الكُفر.

وفيها: تحذير المؤمنين من طاعة المنافِقين، الذين قالوا لهم يوم أُحُد: «ارْجِعوا إلى دين آبائكم، واترُكوا دينَ محمَّد»!

وفيها: أنَّ الله تعالى يتولَّى المؤمِنين، ويخذُل الكافرين.

وفيها: أنَّ مَن نصرَه الله وتولَّاه؛ فلا يُخذَل، ولا يُغلَب.

وفيها: أنَّ طاعة الكافرين وسيلةٌ إلى الكُفر والرِّدَّة.

وفيها: أنَّ الكُفر خسارةٌ، والإيمان رِبحٌ.

وفيها: تكريم المؤمنين بالولاية الخاصَّة من ربِّ العالمين.

وفيها: أنَّ نصر المؤمنين في الدُّنيا، قد يكون بالغَلَبة في معارك السِّلاح والقتال، أو في المناظَرات بظهور الحُجَّة والبيان. وقد يكون في حياة بعض المؤمِنين ممَّن شاركَ في القتال، أو بعدَ موتهم -فيراه مَن بعدَهم مِن إخوانهم-. والنصر يومَ القيامة لهم، لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وفيها: ذِلَّة مَن استنصر بالأعداء، وأنَّ الخِذلان عاقبتُه -ولو بعد حين-.

وفيها: أنَّ الثبات على الدِّين ومخالَفة الكافرين، هو انتصارٌ بحَدِّ ذاته.

وفيها: التحذير من شُبُهات الكافرين. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «لا تستَنْصِحوا اليهود والنصارى، وتَقْبلوا منهم؛ لأنَّهم كانوا يستغوون المؤمنين، ويُوقِعون لهم الشُّبَه في الدِّين، ويقولون: لو كان نبيًّا حقًّا لـمَا غُلِبَ، ولـمَا أصابَه وأصحابُه ما أصابَهم، وإنَّما هو رجلٌ حاله كحال غيره من الناس: يومًا له، ويومًا عليه»[1].

وفيها: عدَم الاستكانةِ للكفَّار، أو النزول على حُكْمِهم، أو استشارتهم، والحذَر من استئمانِهم؛ فالغِشُّ طبعُهم، وخِيانة الأمانة من صفاتهم.

وفيها: تَرْكُ الاستِنصار بغير الله، وطلَبُ النصرِ منه وحدَه سبحانه.

وفيها: أنَّ المؤمنين لا يحتاجون إلى نصر أحدٍ مع نصر الله. وأنَّ ما يقيِّضه الله لهم من نُصرة بعض الخَلْق لهم، أو دفاعهم عنهم، أو إعانتهم -بأيِّ وجه من الوجوه-؛ فهو سبَبٌ من الله، وتوفيقٌ منه.

وفيها: دَفْع توهُّم نَيْل العِزَّة بالدُّخول مع الكفَّار الأقوياء؛ لأنَّ هؤلاء الكفَّار لن يُسلِّموا مقاليدَ الأمور للمؤمنين، ولن يتركوا لهم القيادة؛ بل سيُدخِلونهم معهم في تحالُفاتِ ذُلٍّ وصَغارٍ وتبعيَّةٍ، يُلزِمونهم فيها بما يرَونه، ويأمرونهم بما يريدونَه، ويُذِلُّونهم ويتسلَّطون عليهم، ويتحكَّمون فيهم. وهذا واقعٌ، فالكفَّار يُذِلُّون إخوانَهم الكفَّار (وهم على دينهم ممَّن هم أقلُّ قوَّة -إذا دخلوا معهم في تحالُفات سياسيَّة-؛ فإذلالهم للمسلمين من باب أولى.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ٨٢).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

ولـمَّا انصرفَ المشرِكون من أُحُد؛ راجعَ بعضُهم بعضًا في طريق العودة: لماذا لم يستأصِلوا المسلمين؟ ويُجهِزوا على مَن بقيَ منهم، وأرادوا الرُّجوع لهذا الغرَض، وسَمِعَ المسلمون بالأمر، فأصابهم الخوفُ؛ فطَمْأَنهم الله تعالى بأنَّ قُريشًا لن يَرْجِعوا، وأنَّه سيُلقِي في قلوبِهم الرُّعْب؛ لئلَّا يفعَلوا ما أرادُوا.

فقال تعالى ﴿سَنُلْقِي﴾: ذَكرَ الفِعْل هن بصيغة الجَمْع للتعظيم، و(السين) تدُلُّ على قُرْبِ وقوع الإلقاء، وتأكيدِه وتحقيقِه.

﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في تقديم ذِكْر مكان الإلقاء -وهو القَلْب- على المُلقَى؛ اهتِمامٌ بالمحلِّ ﴿الرُّعْبَ﴾ وهو أشدُّ الخوف. والقَلْب إذا دخلَه الرُّعب؛ فلا يمكن للبدَن أن يثبُت.

وقد ثبتَ في «الصحيحَين»(١)، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...» الحديث.

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ (الباء) للسَّببيَّة، أي: بسببِ شِرْكهم بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ولا بُرهانًا، ولا حُجَّة.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مَرْجِعهم، والدَّار التي أُعِدَّت لتعذيبهم ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (المثوى): هو مكان الإقامة الطويلة. وذِكْرُ (المثوى) بعد (المأوى) للترتيب؛ لأنَّ الإنسان يأوي إلى المكان، ثم يَثْوي فيه؛ فالنَّار مصيرُهم ومقرُّهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

نُصرة الله لنبيِّه ﷺ والمؤمنين، بإلقاء الرُّعْب في قُلُوب أعدائهم.

وفيها: أنَّه إذا نزلَ الرُّعْب في القُلُوب؛ حصلَت الهزيمة.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وفيها: حَيلولة الله تعالى بينَ المشرِكين، وبين الوصول إلى تحقيق مآرِبهم.

وفيها: أنَّ الإشراك بالله سبَبٌ لحصول الرُّعْب.

وفيها: أنَّ الكفَّار أشدُّ تأثُّرًا بالرُّعب من غيرهم؛ لأنَّهم يكرَهون الموت، ويؤْثِرون الحياة الدُّنيا، ولا آمال لهم في الآخرة.

وفيها: فساد مذهب المشرِكين، الفاقِد للحُجَّة والبرهان، وأنَّه تقليدٌ أعمى.

وفيها: إلقاء الله هيبةَ المؤمنين في نفوس أعدائهم؛ لتُصبِحَ مضطربةً، ممتلئةً بالهَلَع.

وفيها: أنَّ القَلْب هو أشدُّ الأعضاء تأثُّرًا وتأثيرًا.

وفي ذِكْر إلقاء الرُّعب، بعد قوله ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: بيانٌ بأنَّ الرُّعْب أقوى أسباب النصر، وهو تأييدٌ من الله تعالى، يعُمُّ المؤمنين في وقت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعدَه.

ومفهوم الآية يدلُّ على: أنَّ الأمن يُلقَى في قُلُوب المؤمنين -لتوحيدِهم-؛ لأنَّ ما ثبتَ لشيءٍ، ثبتَ ضِدُّه لضدِّه.

وفيها: بُطلان الشِّرك -عقلًا وحِسًّا-.

وفيها: قُبح وبُؤْس مساكِن المشرِكين يومَ القيامة.

وفيها: أنَّ النصر الذي وقعَ للمسلمين في بداية المعركة، ثم أعقبَتْه الهزيمة؛ قد أعقبه نصرٌ آخر من الله تعالى؛ فكانت الهزيمة بينَ نصرَين -سابقٍ ولاحقٍ-. وفي هذا: تخفيفٌ لوقوع الهزيمة، ومداواةٌ للنفوس، وفيه شيءٌ من التعويض.

وفيها: تسميةُ الحُجَّة (سُلْطانًا)، وفي ذلك دليلٌ على قوَّتِها ونفوذِها وسُطوعِها.

وفيها: أنَّ الكفَّار لـمَّا عطَّلوا عقولَهم عن استعمالها في الحقِّ؛ أصابها الله بالرُّعْب.

وفيها: أهميَّة الحَرْب النفسيَّة.

وفيها: أنَّ العِبرة بالحُجَّة هو البُرهانُ الإلهيُّ، النازل من عنده سبحانه، دون آراء البشر المجرَّدة؛ فما لم يعتبِره الشَّرْع من الحُجَج: فلا قيمة له.

وفيها: أنَّ إلقاء الرُّعْب في نفوس الكفَّار نصرٌ للمؤمنين، بلا كُلْفة، ولا خسائر.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى كيف بدأت معركةُ أُحُد، وما حصلَ بعد ذلك من التغيير، بسبب تقصيرِ المؤمنين ومعصيتهم، وما نتجَ عن ذلك من الهزيمة، ثم ذكرَ صَرْفَه الكفَّارَ عن العودة لاستِئْصال المؤمنين، ثم ذكر مِنَّته وفَضْلَه على عباده؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ﴾: تأكيدٌ بالقَسَم و(اللَّام) و(قد)؛ فالتقدير: «وعزَّتي وجلالي، لقد صدقَ الله المؤمنين وعدَه».

﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ أي: أنجزَه وحقَّقه، بنصركم على عدُوِّكم في أول المعركة؛ ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتُلونهم قَتْلًا شديدًا ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾: بإرادته، ومعونته، وتسليطه إياكم عليهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾: جَبُنْتم وعجزتُم ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ اختلفتُم ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ أمْرَ النبيِّ ﷺ بالثَّبات في مواقعكم، وعصيتُم ربَّكم بالتولِّي والفِرار ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ في أول النهار وأول المعركة، رأيَ عَيْنٍ ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظَّفر، وانهِزام العدُوِّ، وتَرْكِه المغانِم.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بقتاله -حينئذٍ- ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ والمقصود: الغنائم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ بجِهاده ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: ثوابها.

قال ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يُريد الدُّنيا، حتى نزلَ فينا ما نزل يوم أُحُد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾»(١).

ولـمَّا غابَ أنسُ بنُ النَّضْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن غزوة بَدْرٍ؛ عاهدَ الله قائلًا: لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَني قِتالَ

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٨٨).

المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ! فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ؛ قال: الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ!

فقاتَلَ وقُتِل، وضحَّى بنفسه، حتى إنَّهم وجدوا به بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، ومثَّل به المشركون، فما عرفته إلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ!

يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»(١).

قوله تعالى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بالهزيمة، التي حصلَت لكم، فردَّكم عن الكفَّار؛ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم، ويمتحن صبرَكم في المصائب، وثباتَكم على الإيمان.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وتجاوزَ، مع قُدرته على العقوبة، ومنعَ الكفَّار من العودة لاستئصالكم، وأبقى مَن أبقى منكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ وإحسانٍ ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: في مغفرةِ ذُنوبهم، وحِفظِ نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبقاء دولتهم، وتربيتهم بالأحداث.

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا من الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله بنَ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا».

فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُ الله: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لاَ تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا.

وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ»، فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ»، فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا!

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ! قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِيبُوهُ»، قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ».

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الله تعالى لا يُخلِف الميعاد، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ قد صدق وعدَه المؤمنين.

وفيها: أنَّ انتصار المسلمين في أول معركة أُحُد، كان قويًّا وكاسحًا، وأنَّه قُتِلَ من الكفَّار عددٌ لا بأس به.

وفيها: الحثُّ على اجتِماع الكَلِمة، وخصوصًا في المعارك، وخطورة تنازُع الجيش في وقت الحَرْب.

وفيها: شُؤْم معصية الأمير، ووجوب التِزام المواقِع التي حدَّدها لأفراد الجيش.

وفيها: خطورة إرادة الدُّنيا، وتأثير ذلك في الهزيمة، وأنَّه يُضْعِف الرأي والعمل.

وفيها: أنَّ بعض المسلمين لم يستَطِع حبسَ نفسِه عن إغراء الدُّنيا، رَغْم أنَّه في قتالٍ وجهادٍ.

وفيها: أنَّ المعصية تقلِب النصر إلى هزيمة.

وفيها: أنَّ النِّزاع والمعصية سببٌ للخِذلان.

وفيها: أنَّ المعصية بعد النِّعمة، أشدُّ من المعصية قبل النِّعمة؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣).

وفيها: أنَّ الله يبتلي؛ ليميِّزَ الصادِقَ من المنافِق، وأهلَ الصَّبر من أهل الجَزَع.

وفيها: أنَّ المؤمن قد يرتَكِب الكبيرة.

وفيها: بُعْدُ نظَرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحُسنُ معرفتِه بإدارة المعارِك.

وفيها: الاجتِهاد في سَدِّ الثَّغْرة، التي يُمكِن أن يأتي منها العدُوُّ.

وفيها: أنَّ المؤمنين رَأَوا النصرَ بأعيُنهم.

وفيها: أنَّ إغراءات الدُّنيا تُحدِث الانقِسامَ في صفوف المؤمنين.

وفيها: فَضْل الله تعالى على المؤمنين؛ حيث عفا عن جميع المؤمنين، الذين عصَوا أو فرُّوا من معركة أُحُد، وأنَّه لا يجوز التثريبُ عليهم، ولا تعييرُ أحدٍ منهم بذلك.

وفيها: شِدَّة الصَّحابة على أعداء الله؛ كما حدثَ في أول المعركة، من إيقاعهم القَتْلَ الشديد فيهم، وقد وصفَهم الله تعالى في آيةٍ أخرى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفيها: ضرَر النِّيَّات المختلَطة بإرادة الدُّنيا مع الآخرة.

وفيها: سَتْر العاصي؛ لأنَّ الله تعالى خاطبَ الصَّحابة جميعًا بمعصيةِ بعضهم، فقال: ﴿فَشِلْتُمْ﴾، ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾، ﴿وَعَصَيْتُم﴾.

وفيها: أنَّ الواجب على مَن أنعمَ الله عليه، أعظمُ ممَّا يجب على غيره.

وفيها: الاستِفادة من المُصيبة، في أخذ الدُّروس والعِبَر والفوائِد.

وفيها: تربية المؤمِنين من خلال الأحداث التي تقع لهم.

وفيها: أنَّ معصية بعض المسلمين تكون سببًا لوقوع القَتْل فيهم، ولكن لا يلزَم أن يكون المقتول مُقصِّرًا، أو أن يكون القَتْل عقوبةً؛ فقد قُتِلَ عبدُ الله بنُ جُبَير أميرُ الرُّماة -مع ثباته- بسبَبِ تولِّي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ الله يتفضَّل على المؤمنين، ولو في المُصيبة؛ بتكفير الذُّنوب، والرحمة في الابتلاء، وتطهير النفوس من المعايب، وأن يجعلَها تذكرةً لهم، وآيةً وعِبرة في المستقبَل.

وفيها: أنَّ الفَضْل لا يمنَع العُقوبة.

وفيها: التحذير البليغ من الاستِهانة بالمعصية؛ فقد أصابَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما أصابَهم من البلاء والغَمِّ والقَتْل والجِراح والهزيمة بسبَبها، وهم أصحاب النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا معه، وخرجوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله. فما بالُ بعض العُصاة والفاسِقين اليومَ، يرتكب الذُّنوبَ والجناياتِ، ويُصِرُّ عليها، ولا يخشى آثارَها، ويحتَجُّ بعفو الله وسَتره؟! وهذه استهانةٌ وجُرأة على الله.

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾:

ثُم قالَ الله تعالى، في وَصْف الهزيمة التي حصلَت يومَ أُحُد: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾: أي تَهرُبون سِراعًا في الصَّعيد -وهو الأرض المستوية- وهذا هو (الإِصْعاد).

والمقصود بالآية: مَنْ وَلَّى من المُسلمين مُنهزِمًا، ثُم رجَعوا وتابَ الله عليهم. فالتقدير: ولقد عفا الله عنكم، إذْ تُصْعِدون هارِبين. أو: صرفَكم عنهم إذ تُصْعِدون هارِبين.

وقيلَ: إنَّ بعض المُسلمين لـمَّا ضيَّقَ عليهُم الكُفار في الوادي؛ صعَدوا الجبل.

وقوله ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي: لا تلتفِتون وراءكُم -هَرَبًا وفِرارًا- ولا يلتفِت بعضُكم إلى بعض، ولا يقف الواحد منكم للآخر، من شِدَّة الدَّهشة والخوف.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ قائلًا: «إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله»، ويُنادِيكم لِترْجِعوا ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ من ورائِكم، وهو واقِفٌ في جماعَتِكم المُتأخِّرة، وفي ساقة الجيش. وهذا موقف الأبطال في أعقاب الناس.

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصَّة أُحُد، قال: «فَقالَ أَصْحابُ عَبْدِ الله بْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ، أَيْ قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ، فَما تَنْتَظِرُونَ؟ فَقالَ عَبْدُ الله بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: والله، لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ من الغَنِيمَةِ! فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ،

فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ...»[١].

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ (ثاب) أي: رجعَ، و(الثواب): كلُّ ما يعود على الفاعل من جزاء فِعْله -خيرًا أو شرًّا-.

فإذا كانت (الإثابة) هنا بمعنى: العقاب على الهرَب والفِرار: فالغَمُّ الأول: هو: الهزيمة وما فاتَهم من الظَّفَر والغنيمة، والغَمُّ الثاني هو: ما نالَهم من القَتْل والجِراح والهزيمة.

وإذا كان المقصود بـ(الإثابة): المِنْحة، والمُواساة على المصيبة؛ فيكون الغَمُّ الأول هو: الهزيمة وما أصابَهم من القَتْل والجِراح وفوات الغنيمة، والغمُّ الثاني هو: صَدمَتهم بإشاعة مقتَل النبي ﷺ، فأنساهُم الغمُّ الثاني الغمَّ الأول! فلمَّا تبيَّن لهم عدمُ صِحَّة الإشاعة؛ انكشفَ الغمُّ الثاني، وكان الغمُّ الأول قد هانَ!

﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي: من أجل ألَّا تحزنوا وتتأسَّفوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من النصر والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من القَتْل والجِراح والهزيمة.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: عليمٌ ببواطن الأمور، وبمقاصِدِكم، ونيَّاتكم، ومُطَّلِعٌ على أعمالكم -من خيرٍ أو شرٍّ-.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تذكيرُ الله المؤمنين بنِعَمه عليهم في أوقات الشِّدَّة؛ ليشكروه، وتذكيرُه لهم بعقوبته إيَّاهم على تقصيرهم؛ ليستَدْرِكوا ولا يعودوا لمثله أبدًا.

وفيها: ثبات النبيِّ ﷺ في المعركة، وتذكيرُ المؤمنين بذلك؛ ليقتَدوا به.

وقد ثبت في الصحيحين[٢]، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، قَالَ: «رَأَيْتُ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنْ شِمَالِهِ يَوْمَ أُحُدٍ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابُ بَيَاضٍ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ»، يَعْنِي: جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عليهما السلام.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).

وفيها: تذكير الذين ولَّوا مُدبِرين بهيئتهم المذمومة؛ تنفيرًا منها، وحتى يستحيي المنهزِم؛ فلا يعود لمثلها أبدًا.

وفيها: أنَّ خيار الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعتَريهم ما يعتَري بقيَّة البشر، من الخوف ونحوه، لكنَّهم سَرْعان ما يَؤوبون، ويتوبون، ولا يعودونَ لمثله.

وفيها: حِكمة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في اللُّجوء إلى الجبل، في مكانٍ يجتمع فيه مَنْ رجعَ من جنوده.

وفيها: أنَّ الغُموم يُنسِي بعضُها بعضًا، وأنَّها من طبيعة هذه الدُّنيا؛ لئلَّا يتعلَّق بها الإنسان.

وفيها: أنَّ المسلمين في أُحُدٍ قد اجتمعَت عليهم مصائبُ متعدِّدة؛ منها: القَتْل، والجِراح، والهزيمة، وفَوات الغنيمة، وإشاعة مَقتل النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما حصلَ من إصابته وجَرْحه.

وفيها: تواضُع النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قيادته للجيش؛ حيث كان يسيرُ خلفَهم أحيانًا.

وفيها: تَسلية المؤمنين، والمعالَجة النفسيَّة لِـما أصابَهم.

وفيها: نداء القائد جنودَه الشارِدين؛ ليَفيؤوا إليه، ويقاتِلوا معه.

وفيها: تمرينٌ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على المصائِبِ، واحتمالِ الشَّدائد.

وفيها: منقبةٌ عظيمةٌ لمن استجابَ لدُعاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقاتَلَ دونه، كطَلْحةَ، وسَعْدٍ، والأنصارِ السَّبعةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ التذكير بعِلْم الله ببواطن الأمور، موعظةٌ تمنعُ أهلَ الإيمان من الوقوع في العِصيان.

وفيها: تربية النفوس على عدَم التأسُّفِ على ما فاتَ من الدُّنيا.

وفيها: تجاوز أثرِ المُصيبة؛ استعدادًا للعمَل في المستقبَل.

وفيها: اغتِمام الصَّحابة بعُلُوِّ المشرِكين عليهم فوقَ الجبل، وهذا من إبائِهم، وحَميَّةِ نفوسِهم للإسلام، وبُغْضِهم للكُفر وأهله.

وفيها: أنَّ لله أسرارًا وحِكَمًا في ثنايا البلايا والمِحَن.

وفيها: شِدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ، حتى كان خبرُ قَتْلِه أشدَّ عندهم من كلِّ مُصيبة، وكانوا يَفدونه بأنفُسِهم.

وفي إشاعة قَتْله ﷺ:

تربيةٌ لهم على تقبُّلِ خبر موته، واستمرارِهم للعمَل لدين الله بعد وفاته.

وفي تلك الإشاعة أيضًا: إرجافُ الشَّيطان، والمشرِكين بالمؤمنين.

وفي الآية: أنَّ ظهور كَذِب إشاعة مَقتل النبيِّ ﷺ، كان علاجًا عظيمًا لمصائِب الصَّحابة في تلك المعركة؛ فقد كان فَرَحُهم بكَذِب الإشاعة طاغيًا على ما أصابهم من الأحزان.

وفيها: أنَّ المُصيبةَ بالنَّبيِّ ﷺ تُنسي المؤمنين جميعَ مصائِبهم.

وفيها: أنَّ اختِفاء القائد سببٌ لظهور الإشاعات.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

ولـمَّا نزلَت بالمسلمين المُصيبةُ العظيمةُ، بالقَتْلِ والجِراحِ وعُلُوِّ الأعداء عليهم؛ أصابهم غمٌّ كبيرٌ بسببِ ذلك، وكانوا يخافون أيضًا أن يتوجَّه المشرِكون إلى المدينة بعد انصِرافهم من المعركة؛ فكان من رحمة الله تعالى بهم: أن خفَّف عنهم هذا الغمَّ ونَفَّسه، بنُعاسٍ غشيَهم في آخر المعركة، كان سببًا في إراحة أجسادِهم المُنهكةِ، وطَمْأنةِ نفوسِهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾ أي: طُمأنينة في القَلْب.

ومن الفروق بينَ (الأمن) و(الأَمَنَة): أنَّ (الأمن) يكون مع زوال أسباب الخوف، و(الأَمَنَة) طُمأنينة مع بقاء أسباب الخوف. وكان سببُ الخوف لا يزال باقيًا؛ لأنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يخشَون من عودةِ المشرِكين لاستِئصالهم، أو ذهابِهم لاجتياح المدينة.

﴿نُّعَاسًا﴾ أي: غشيَهم نُعاسٌ؛ ليستَرِدُّوا ما فقَدوا من القوَّة، ويذهَب عنهم الإرهاقُ والتعبُ الذي أصابهم بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾: هم المؤمنون الذين بقُوا واجتمَعوا في مَيْدان المعركة -من المهاجرين والأنصار-.

وقد قال أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِن يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ»(١).

وفي رواية عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ(٢) من النُّعَاسِ»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾(٣).

﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ أي: جماعة من المنافِقين، أو من ضِعاف الإيمان ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: كلُّ همِّهم في خَلاص أنفُسِهم، ونجاتها من القتْل، فأذهَلَهم الخوفُ، حتى صاروا مشغولين عمَّا سواهم.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ويعتقِدون اعتقادًا سيِّئًا وفاسدًا ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: من الباطل، بأنَّ الله لا ينصر نبيَّه محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ونحو ذلك- وظنُّهم هذا ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: قول أهل الجَهْل، كقولهم: لو كان محمَّدٌ نبيًّا حقًّا؛ ما سلَّط الله عليه الكفَّار!

﴿يَقُولُونَ﴾ بناءً على ظنِّهم الجاهليّ: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: هل لنا من نصر أو فتح، ممَّا وعدنا به محمَّد؟ أي: لا نصيبَ لنا من ذلك.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهؤلاء المنافِقين: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ﴾ من النصر والغَلَبة، أو الهزيمة والمُصيبة، وغيرها من الأمور التي هي من قدَر الله ﴿لِلَّهِ﴾: يقضي به كما يشاء، ويُدبِّره ويُصرِّفه كيف يشاء.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٢) أي: يتحرَّك ويميل من جانب إلى جانب، تحت تُرْسه.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٠٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ يعني اعتقادَهم الباطل، وما سبق من كلامهم ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: ما لا يجرؤون على إظهاره لك.

﴿يَقُولُونَ﴾ أيضًا في الخفاء: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ من التدبير والرأي والاختيار؛ ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: في أرض المعركة. والمعنى: لو أنَّ محمَّدًا جعلَ لنا منزلةً، وأعطانا نصيبًا في اتِّخاذ القرار، وأخذَ برأينا عندما أشرنَا عليه بعدم الخروج من المدينة؛ لـمَّا حصلَت هذه المقتلة الكبيرة في أرض أُحُد!

فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُل﴾ لهم -يا أيُّها النبيُّ ﷺ-: ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ بقيتُم ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: في المدينة، ولم تخرُجوا إلى أُحُد؛ ﴿لَبَرَزَ﴾ أي: ظهرَ وخرجَ ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ -في اللَّوح المحفوظ- من بيوتهم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: المواضع التي قدَّر الله تعالى أن يُقتَلوا فيها.

والمعنى: أنَّ مَن قدَّر الله موتَه وقَتْلَه بموضعٍ؛ فسيُهيِّئ، ويقدِّر له سببًا يخرج به من بيته، إلى هذا المكان الذي قدَّره الله عليه. و(المضاجع) أيضًا: القبور؛ لأنَّ الأموات يُضجَعون فيها.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّما قدَّر الله هذه الأقدارَ والأحداثَ؛ ليختبر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: القُلُوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والمقصود بـ(ابتلاء القُلُوب): إظهار ما فيها من السَّرائِر والاعتِقادات، وما انطوَتْ عليه من الإخلاص أو النِّفاق.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ أي: يُصَفِّي ويُطَهِّر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من وساوس الشَّيطان، والشَّكِّ والارتياب.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مُطَّلعٌ على السرائر والضمائر، وما فيها من الخفايا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

انقِلاب الموازين عند المنافِقين، فيظنُّون أنَّ المنتَصِر دائمًا على حقٍّ، والمهزومَ دائمًا على باطل! وهذا باطلٌ؛ فقد يبتلي الله أهلَ الحقِّ بمُصيبةٍ في معركة، ويستَدْرِج أهلَ الباطل بانتِصارهم فيها.

وفي الآيـة: كَشْـفُ الله خبيئـات نفـوس المنافِقين؛ بإظهـار ما أخفَـوه في صدورهم، وما أسرُّوه فيما بينَهم من الكلام، كقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾.

وفيها: أنَّ إساءة الظنِّ بالله من خِصال المنافِقين.

وفيها: أنَّ إساءة الظنِّ بالله من الجاهليَّة. فمَن ظنَّ بأنَّ الله لا يُعلِـي دينَه، ولا ينصُر عبادَه المؤمنين؛ ففيه لَوْثَة من لَوْثات الجاهليَّة؛ أي: أنَّه جاهلٌ بالله، جاهلٌ بسُنَنه في العِباد.

وفيها: أنَّ صاحب الجَزَع لا يهنأ بنوم ولا راحة. وأمَّا المؤمن بقدَر الله، المُطمَئِنَّ لوَعده؛ فيُـكافئه الله براحةِ نفسِه، وينام قريرَ العَين.

وفيها: أنَّ مصير دين الإسلام لا تُحدِّده معركة واحدة.

وفيها: أنَّ من سُنَّة الله: إظهارَ أقوالِ المنافِقين، وأفعالِهم، وكَشْفَها للمؤمنين.

وفيهـا: أنَّ الله يبتـلي عبادَه؛ لاستخراج مـا في صدورهم من الإيـمان أو الكُفر والنِّفاق، وليتبيَّن للناس ما انطوَتْ عليه من حُسن الظنِّ أو سوء الظنِّ بالله.

وفيها: أنَّ الله لا يدَعُ أهلَ الأخلاط؛ حتى يُميِّز الخبيث من الطَّيِّب.

وفي الآيـة: أنَّ شَرَف منزِلـة النُّبوَّة، لا يُنافي ابتـلاءَ النَّبيِّ ﷺ بأذًى في جسَـدِه، أو نفسِه.

وفيها: أنَّ الحذَر لا يدفَع القدَر، والتدبير لا يمنع التقدير.

وفيهـا: أنَّ الأسـباب -مهـما عظُمَـت- إنَّما تنفـع إذا لم يُعارِضهـا القدَر والقضـاء، فإذا عارَضَهـا القدَر لم تنفَع شـيئًا، بل لا بُدَّ أن يمضيَ الله ما كتـبَ في اللَّوح المحفوظ، من الموت أو الحياة.

وفي الآية: رحمة الله بالمؤمنين، في إذهابِ غُموم نفوسِـهم وإراحةِ أبدانهم، بإلقاء النُّعاس عليهـم. وقـد قال ابـن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «النُّعـاس في القتال أمَنَـة مـن الله، وفي الصَّلاة من الشَّيطان»[1].

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٤٩٩)، والطبري في تفسيره (٧/ ٣١٩).

وفيها: أنَّ شديد الخوفِ والغَمِّ لا يكاد ينام.

وفيها: إثبات الكرامات لأهل الإيمان.

وفيها: تقديم مصلحة الإسلام على مصلحة النفس، وأنَّ المنافِقين قد خالَفوا ذلك.

وفيها: وجوب الوثوق بوَعد الله، وأنَّ المنافِقين قد شكُّوا في ذلك.

وفيها: تمييز الصفِّ بالابتِلاء.

وفيها: استِخراج ما في نفوس المنافِقين من الباطل، ولِيظهَر أمرُهم وينكشفَ؛ فيحذَرهم المؤمنون.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ قد لا ينتَصِرون في بعض المعارك؛ اختبارًا من الله لهم ولأعدائِهم.

وفيها: أنَّ النصر بيَد الله، يؤتيه مَن يشاء.

وفيها: أنَّ الغَلَبة للحقِّ في النهاية، وإن صار للباطل قبلَ ذلك صَوْلات وجَوْلات.

وفيها: جُبْن المنافِقين، وعدم تصريحهم عَلَنًا بما في نفوسهم.

وفيها: انتهاز أهلِ النِّفاق للمُصيبة؛ ليطعَنوا في الدِّين.

وفيها: عِلْم الله بما لم يكن، لو كان كيف كان يكون.

وفيها: أنَّ اختِبارَ القَلْب وتنقيتَه، من أعظم المقاصِد الرَّبَّانيَّة في الابتِلاءات.

وفيها: ترهيب الله لعباده، بأنَّه يَعْلَم ما يُخفونَه.

وفيها: أنَّ الأمر الشرعيَّ والأمر الكونيَّ لله.

وفيها: إشارةٌ إلى دَفْن الشُّهَداء في مكان قَتْلِهم؛ في قوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾، وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ بردِّ الشُّهَداء من المدينة إلى أُحُد ليُدفَنوا فيه.

وفيها: أنَّ الله يَعْلَم ما في نفوس العِباد، دون حاجةٍ إلى ابتلائِهم واختبارِهم، ولكن الابتلاء لفائدةِ عبادِه ومصلحتِهم.

وفيها: أنَّ لفظة (لو) بعد حصول المكتوب والمقدَّر، لا تفيد شيئًا.

وفيها: أنَّ استعمال (لو) الشرطيَّة إذا كان للاعتراض على الشَّرع، أو على أقدار الله تعالى، أو للاحتجاج بالقدَر على المعصية؛ فاستعمالها على هذا الوَجْه محرَّمٌ أشدّ التحريم.

ومنها قولُ المنافِقين هنا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ومثله قولُهم فيما يأتي: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ فهذا اعتِراضٌ على أقدار الله تعالى.

ومثله: قول المشركين احتِجاجًا بالقدَر على المعصية: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزُّخرُف: ٢٠].

وأيضًا، إذا كانت (لو) للنَّدم والتحسُّر على شيءٍ فاتَ -كأن يقولَ على سبيل النَّدَم: «لو بعتُ هذا السِّلعة لربحتُ»-؛ فاستعمالها محرَّم؛ لأنَّها تفتح بابَ الحُزن والنَّدم وعملَ الشَّيطان؛ كما في الحديث: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

أما استعمال (لو) لمجرَّد الخبر -كقول: «لو زُرتَني لأكرمتُك»-؛ فلا حرجَ فيه، فإن كان الخبر صِدقًا فهو صدق، وإن كان كَذِبًا فهو حرامٌ.

وكذا استعمالها لتمنِّي أمرٍ مُباحٍ -كأن يقولَ: «لو رَزقني الله عِلمًا؛ لنفعتُ به الناس»- فلا حرجَ فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المنافِقين؛ أعقبَه بتوجيه الخِطاب إلى المسلمين؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أدبَروا وهرَبوا، وانسَحبوا من مواقعهم ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المسلمون. وقد انهزمَ أكثرُ جيش المسلمين، حتى لم يبقَ مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلَّا نحو ثلاثة عشر رجلًا ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهما: جَمْع المسلمين وجَمْع الكفَّار، في غزوة أُحُد.

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

إنَّ هـؤلاء الذيـن تولَّـوا وهربـوا ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: أوقعهـم في الزَّلـل والخطيئـة ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: بسـبَبِ بعـضِ ما وقـعَ منهـم من الذُّنـوب، والعِصيان والمخالَفة لأمر النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾: سـامحَ وتجـاوزَ. وأعادَ ذِكرَ (العَفْو) هنا -مـع ما تقدَّم قريبًا من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾-؛ لتأكيد العَفْو.

و(العَفْو): تَرْك المؤاخَذة على الذنب، ويكون غالبًا في تَرْك الواجبات. و(المغفرة) تكون لمن وقعَ في المحرَّمات.

فعفـا الله تعالى عن عقوبة المسـلمين الأُخرويَّـة، وجعلَها مقتَصِرةً على مـا وقعَ فيهم من القَتْل والجِراح، والمُصيبة، والتمحيص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: ذو مغفرة، وستر للذنب، وتجاوُز عنه وعن أثره. ﴿حَلِيمٞ﴾: يُمْهِل عِبادَه، ولا يُعاجِلهم بعقوبته.

وفي هذه الآية من الفوائد:

مغفرة الله لجميع الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذي فرُّوا يوم أُحُد؛ فلا يجوز الطَّعْن فيهم بهذا الأمر.

وفيها: أنَّ الشَّـيطان يسـتَجِرُّ المسـلمَ لإيقاعه في الخطيئة، ويوالي عليـه الذُّنوب والخطايا الواحدة بعد الأخرى.

وفيها: أنَّ المصائِب التي تقع للناس، إنَّما هي آثارٌ طبيعيَّة لمعاصيهم.

وفيهـا: أنَّ الإنسـان قد يُعاقَب بوقوعـه في معصية، لأجل معصية أخـرى ارتكبَها، وأنَّ الذنب يتولَّد من الذنب؛ فالرُّماة الذين عصَوا انهزَموا أيضًا، وتولَّوا يوم التقى الجَمْعان.

وفيهـا: أنَّ العقوبـة لا تختَصُّ بألم البدَن، أو خسـارة المال والولد، ونحـو ذلك؛ وإنَّما قد تكـون بخِذلانٍ عن الطاعات، كما قال الحسـن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الرجل ليُذنِب الذنب، فيُحرَم به قيام الليل»[1].

(١) المجالَسة وجواهر العلم (٢/ ٢٦٢) للدِّينَوَري.

وفيها: حِلْم الله تعالى، بعَفوه عن عُقوبة مَن يستَحِقُّ العُقوبة.

وفيها: أنَّ الشَّيطان ليس له مَدْخلٌ على مَن اعتصم بالله، ولا يستطيع أن يتسلَّط عليه إلَّا إذا أدخلَه العبد على نفسه بنفسه، وفتح له الثَّغْرة، بتَرْك واجبٍ، أو فِعْلِ محرَّم.

وفيها: أنَّ مَن صدق في توبته، ونَدِمَ على تفريطه؛ فإنَّ الله يُحْسِن إليه، ويفتَح له باب التوبة والأَوْبَة.

وفيها: أنَّ المعاصي تقع من الصالحين ومن الفاسقين، ولكنَّها تختَلِف من جِهة: الإكثار، والإصرار، والدرَجة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾:

ثم نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن مُشابهة الكافرين، الذين أفسدَ الشَّيطانُ قُلوبهم بالوَساوس والمعتَقدات الباطلة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لا تتشبَّهوا بالكافرين، أو المنافقين في اعتقادِهم الفاسد ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: عن إخوانهم -في الكُفر أو النَّسَب- ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سافَروا فيها للتجارة والكَسْب، فماتوا ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ أي: خرجوا في الغَزْو، فقُتِلوا.

قالوا: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي: مُقيمين لم يخرُجوا؛ ﴿مَا مَاتُواْ﴾ في سفرهم ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ في غزوهم.

﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: اعتقادَهم وقولَهم وظنَّهم الباطل ﴿حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: ندَمًا وحُزنًا، وغمًّا وأسَفًا، يتعذَّبون به على موتِ إخوانهم وقَتْلِهم.

ثم قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: بيده الأمر والخَلْق، فلا يحيا أحدٌ، ولا يموت إلَّا بمشيئتِه وقدَرِه، ولا يُزاد في عُمر أحدٍ، ولا يُنقَص منه إلَّا بقضائِه وقدَرِه.

فاعتِقـاد أنَّ «القِتال يقطَع الآجال» اعتقادٌ باطلٌ؛ فقـد يُحيي الله الغازي، ويُميت القاعِد في البلد.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ ﴿بَصِيرٌ﴾ أي: مُطَّلعٌ عليه، فيُجازيكم به.

وفي هذه الآية من الفوائد:

تحريم التشبُّه بالكفَّار.

وفيها: أنَّ المسلم يتميَّز عن غير المسلم بقولِه، وعمَلِه، واعتقادِه.

وفيهـا: أنَّ الإيمان بالله وقضائِه وقدَرِه يمنَع الحَسْرة، ويُعين على مواجَهة المصائِب؛ لأنَّ مَن يُؤمِن بالله يهدِ قَلْبَه، فيَثْبُت، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

وفيها: أنَّ الاعتِقادات الباطلة سبَبٌ للشَّقاء النَّفسيِّ، والألم والحَسْرة.

وفيهـا: معالَجَة نفسـيَّة للمُصابين في أُحُد، بـما يمنَع من زيادة آلامهـم، وبما يُخَفِّف عنهم المُصيبة، بالأمر بالرِّضا بالقضاء، والتسليم بأنَّ الحياة والموت قدَرٌ من الله، لا بُدَّ أن يقع كما يريد عَزَّوَجَلَّ، فلا تَبْتَئِسـوا -أيُّها المؤمنون- بما حصلَ من موت أقارِبكم؛ فإنَّ أجَل الله إذا جاء لا يؤخَّر، والموت مكتوبٌ مقدَّرٌ، وليس السبَبُ في حصوله الخروجَ من المدينة.

وفيها: تعذيب الله للكافرين في الدُّنيا قبل الآخرة، بالغَمِّ، والحَسْرة، والندامة على فوت المحبوب.

وفيها: أنَّ قِلَّة اليقين بالله سبَبٌ للحَسْرة.

وفي الآيـة: النهي عن القول الباطل، وأنَّه ينشـأ عن اعتقاد باطـل؛ فمقولات أهل البِدَع -مثلًا- ناشِئة عمَّا وقرَ في قُلُوبهم من اعتقاداتهم الفاسدة.

وفيها: أنَّ الإقامة والسفر ليستا مؤثِّرتَين في الحياة والموت؛ فقد يُحيي الله المسافِر، ويُميت المقيم، ويُحيي الغازي، ويُميت القاعد.

وفيها: اطِّلاع الله على العقائد المُخبَّأة في الصدور.

وفيهـا: سُـوء مقصد المنافِقيـن وخُبثهم، في إرادتهـم تنفيرَ المؤمنين عن الجهـاد، بمقولة: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾، فكأنَّهـم يقولون لهـم: لا تخرُجوا للغزوات القادمة حتى لا تموتوا!

وفيها: أنَّ مَن يموت في الجهاد، ويستوجِب الثواب؛ خيرٌ ممَّن يموت في بيته موتةَ البعير.

وفيهـا: أنَّ النَّـدَمَ على ما وقع من القضاء، لا يُغَيِّر الواقِع، ولا ينفع النادِم، بخلاف النَّدَم على التفريط؛ فهو موجِبٌ للتوبةِ، واستِدراكِ ما فاتَ.

وفيها: ذَمُّ استِعمال (لو)، في الاعتراض على الشَّرع، أو على أقدار الله تعالى، أو للاحتجاج بالقدَر على المعصية، أو التحسُّر والتَّندُّم على أمرٍ قد فاتَ.

وفي الآية: توجيهٌ بعدَم النَّدَم على ما لم يفرِّط فيه الإنسان.

وفيها: تحفيز المؤمنين للجهاد في سبيل الله، وتشجيعهم على قتال أعداء الله، والنهي عن التأثُّر بكلامِ مَن يثبِّطهم عن ذلك.

وفيهـا: أنَّ الموعظة باطِّلاع الله على الأعمال، تتضمَّن تهديدًا لمن يُشـابِه الكفَّار والمنافِقين في أقوالهم واعتقاداتهم الباطلة.

وفيهـا: أنَّ الأَجَـل المكتـوب إذا لم ينتهِ بسـبَبٍ معيَّن؛ فلا بُـدَّ أن ينتهيَ بسـبَبٍ آخر، كما قيل: «تعدَّدت الأسبابُ، والموت واحد». لكن شَرَف المِيتات ومواقعها يتفاوَت، فما دام الموت سيأتي بكلِّ حال؛ فليحرِص الإنسان أن تأتيَه مَنيَّته على عمل صالح، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾:

ثم بشَّر الله تعالى مَن يُقتَل من المؤمنين أو يموت في سـبيل الله، بحُسـن الجزاء والعاقبة؛ فقـال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ﴾: هذا يحمِل معنى القَسَـم، وتقدير الـكلام: «وعِزَّتي وجلالي، لئن قُتِلتم» ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد. أو خرجتُم مُهاجِرين، أو حُجَّاجًا، أو معتَمِرين، أو دعاةً في سبيله، فقُتِلتُم.

﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾ في بيوتكم، أو في أيِّ مكان آخر، وكنتُم على التوحيد مخلِصين لله، عامِلين بطاعته.

﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يستُر بها ذُنوبكم، ويتجاوز بها عنكم ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ منه يشمَلُكم بها؛ ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ من الأموال وحُطام الدُّنيا الفاني.

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾ في حَضَرٍ أو سَفَرٍ ﴿أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾ في الجهاد أو في غيره؛ ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون، فتُلاقونه ليُجازيَكم على أعمالكم.

وتقديم ذِكر (القَتْل) في الآية الأولى على ذِكر (الموت)؛ بيانًا لشرَفه ومنزلته؛ لأنَّه شهادةٌ في سبيل الله.

وتقديم ذِكر (الموت) على (القَتْل) في الآية الثانية؛ إشارةً إلى أنَّه أكثر وقوعًا من القَتْل.

وفي الآيتَين من الفوائد:

الموعظة بعد الترغيب؛ فإنَّه قال في الآية الأولى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ﴾، وقال في الثانية: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

وفيها: أنَّ المنافِقين والكفَّار حريصون على جَمْع الأموال.

وفيها: فَضل القَتل في سبيل الله -وعلى رأسه: الجهاد-. ويدخل فيه: مَن قُتِلَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، وفي بيان الحقِّ، وفي الدَّعوة إلى الله، وفي طريقه لطلَب العِلْم، وكلُّ مَن قُتِلَ في مصلحة الدِّين.

وفيها: فَضل مَن مات في سبيل الله في سَفَر الجهاد، ولو كان مِمَّنْ مَاتَ بغير أيدي الكفَّار، كمَن ماتَ من مرضٍ أو سقوطٍ عن دابَّة، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّ انقِضاء الأجل في سبيل الله، ينتَقِل به الإنسانُ إلى ما هو خيرٌ من الدُّنيا.

وفيها: تسلية الله للمؤمنين المُصابين، والجَمْع بينَ المغفرة والرحمة لتكتَمِلَ سعادةُ الشُّهَداء.

وفيها: أنَّ المرجِع إلى الله، مهما طالَتْ حياةُ الإنسان.

وفيها: تحقير أمر الدُّنيا؛ ليسهُلَ على طلَّاب الشَّهادة التنافسُ لنَيل الشَّهادة، والخروجُ من الدُّنيا.

وفي ذِكْر (المغفرة) قبل (الرحمة): التَّخْلية قبل التَّحْلية، وفيها إشارةٌ إلى الجَمْع بينَ: الخوف من العقاب، وطلَب الثواب.

وفي الآيتين: فَضْل الصَّحابة الذين قدَّموا أرواحهم في سبيل الله، والبِشارة لقتلى أُحُد من المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفيها: أنَّ القَتْل والموت في سبيل الله ليس ممَّا يُحذَر؛ وإنَّما هو ممَّا يُطلَب، ويُحرَص عليه.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾:

ولـمَّا كان ما حصلَ في أُحُد من الهزيمة: مُصيبةً عظيمةً، خالفَ فيها الجنودُ أمرَ قائدهم، وانهزمَ أكثرُهم، فثبتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاهم إلى الرُّجوع؛ ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ هنا مكانةَ هذا القائد، وفَضْلَه، وحُسنَ خُلُقه، وما ينبغي عليه تجاه جنودِهِ، الَّذين تسبَّبوا في الهزيمة؛ فقال سبحانه:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (الباء) سببيَّة، أي: بسبَبِ رحمة الله العظيمة؛ صارَ اللِّين من طبعك، والسُّهولة من أخلاقك ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: في قولك، ومُعاملتك، وتحمَّلتَ ما جرى منهم.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي: جافيًا في كلامك، عنيفًا شديدًا ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ وقاسيًا؛ ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: ما تحمَّلوك، ولتفرَّقوا عنك، وتباعَدوا.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: سامِحْهم، وتجاوَزْ عن زلَّاتهم وما قصَّروا فيه من حقِّك.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: ادعُ لهم بالمغفرة، عن تقصيرهم في حقِّ الله تعالى.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي: استَطْلِع رأيهم في أمور الدِّين والدُّنيا، التي تَرِدُ عليك، ممَّا ليس لله فيه حُكمٌ، مثل: أمور الحَرْب ولقاء العدو، وإرسال البُعوث، ونحوها.

وقد عمِلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الوصيَّةِ الرَّبَّانيَّة؛ فشاورَ أصحابَه في بَدْرٍ، وأُحُد، والخندق، والحُديبية، واستشار عليًّا وأسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في حادثة الإفك[1]، وعلى رأس مَن كان يستشيرهم: وزيراه: أبو بكر وعمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»[2].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ وجزمتَ على فِعْل شيءٍ -بعد المشاورة- وقصدتَ إمضاءَه؛ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ واعتَمِد عليه، وثِق به سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والمعتَمِدين عليه، في جميع أمورهم، فيُرشِدهم إلى ما فيه الخير والصلاح لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ لِين جانب النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو من توفيق الله له، ومن إكرامه تعالى لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وفي الآية: الثَّناء على قيادة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه في معركة أُحُد وغيرها.

ويؤخَذ منها: براءته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أيِّ سبَب في الهزيمة.

وفيها: أنَّه كان في المسلمين مَن يستَحِقُّ المَلامة والتعنيف على ما صدرَ منه من المُخالَفة والهزيمة، ومع ذلك أُمِرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعاملتهم جميعًا بالحُسنى.

وفيها: العَفو عن الأصحاب، وعدم مؤاخذتهم؛ حتى لا ينفِروا، ولا ينفَضُّوا عن الصاحب.

وفيها: أنَّ الفظَّ: غليظَ القَلْب، لا يجتمع حولَه أحدٌ.

وفيها: أنَّ سُوء الخُلُق من أسباب انفِراط عَقْد الجماعة.

وفيها: استِغفار الإمام والعالِم لأصحابه.

وفيها: أهميَّة الشُّورى وفضلها؛ حيث أُمِرَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمُشاوَرة أصحابه، مع استغنائه بالوحي، وكمالِ العقل الذي وهبَه الله إيَّاه، ولو استغنى أحدٌ عن الشُّورَى، لكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغنى الناس عنها.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٠).

وفيها: أهميَّة معرفة مقادير العُقول والأفهام، وصالح الآراء؛ لانتخاب أصلَحِها، أو الجَمْع بينها.

وفيها: أنَّ من فوائد الشُّورى: عدم الاستِبداد بالرأي، واجتِماع القُلوب، وحصول المطلوب، ودَفْع لَوم النَّفس والغير عن المستَشير.

وفيها: تحصيل الأجر والثواب، بامتِثال الأمر، وإزالة ما يقع في القُلُوب عند حدوث المكروب.

وفيها: تواضُع المستَشير، وتطييب خواطر المستَشارين، وظهور منزلتهم عند المستَشير.

وفي الآية: أنَّ السَّيِّد ينبغي أن يكون ليِّنًا.

وفيها: تدريب الأفراد على استِنباط الصواب، وتنشيط النفوس واستِجلاب الحماس للمُشاركة في الأمر؛ لأنَّهم صاروا شُركاء فيه لـمَّا بذَلوا رأيَهم.

وفيها: مُحارَبة التَّردُّد والتَّذبذُب، وأنَّ على القائد أن يَجْمَع بينَ الحَزْم والعَزْم واللِّين.

وفيها: أنَّ الرئيس والقائد إذا شرَعَ في العمل -تنفيذًا للشورى-؛ فلا يَصِحُّ أن ينقُضَ عزيمتَه، ما لم يتبيَّنْ وُجودُ مُعارِضٍ راجحٍ؛ لأنَّ التَّراجُع ضررٌ، وضَعْفٌ، وفَشَلٌ.

وفيها: فَضْل التوكُّل على الله، ومحبَّة الله لأهل التَّوكُّل.

وفيها: أنَّ تفويض الأمر إلى الله لا يُنافي الأَخْذَ بالأسباب، والاستِشارة سبَبٌ من الأسباب.

وفيها: أنَّ أَمْرَ النبيِّ ﷺ بالمشاوَرة هو دعوةٌ لمن دونه -من الأئِمَّة والقادة- إليها؛ لأنَّ صُدورَ الأمر إلى الأعلى شأنًا -مع استغنائه عنه- يدلُّ على أنَّ الأدنى مقصودٌ بذلك من باب أولى.

وفيها: عَفو الله عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنَّه أمرَ نبيَّه ﷺ بالعَفو عنهم، والآمِر أولى بفِعْل ما أمرَ به.

وفيها: استِشارة مَنْ هو أهلٌ للاستِشارة؛ فإنَّ الله تعالى أمرَ نبيَّه ﷺ باستِشارة

أصحابه -وهم العُدول الثِّقات-؛ فينبغي عند الاستِشارة في المسائل الشرعيَّة الدِّينيَّة أن يكون المستَشار عالِـمًا، ثقةً، صاحبَ دين، وفي أمور الدُّنيا عليه أن يستَشير عاقِلًا مجرِّبًا. فيستشير -مثلًا- قادة الجيش فيما يتعلَّق بالحَرْب، وأعيان النَّاس فيما يتعلَّق بالمصالح العامَّة.

وفي الآية: النَّهي عن الفَظاظة في الأقوال، وغِلَظ القَلْب في الأفعال.

وفيها: الجَمْع بينَ الأَخْذ بالأسباب، والاعتِصام بمُسَبِّبها وخالِقها.

وفيها: أنَّ القَلْب إذا شردَ عن الله؛ فإنَّه قد يُعيده إليه بمُصيبة، أو بهداية، أو يتخلَّى عنه -والعياذ بالله-.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

ولـمَّا حصلَت الهزيمةُ في أُحُد؛ بسبَبِ تقصير بعض المسلمين ومعصيتهم؛ حذَّرهم الله تعالى من فِعْل أسباب الخِذلان، وبيَّن لهم أنَّهم إذا عادُوا إليه نصرَهم، وإذا تولَّوا عنه خذلهم؛ فقال تعالى:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يهَبْ لكم النَّصرَ، ويُعِنْكم عليه؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولا يَقْهَرْكم أحدٌ، مهما كانت قوَّته.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي: يتخلَّ عنكم، ويَتْرُكْ نُصرتكم. و(الخِذلان): ضِدّ النصر. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: استِفهام بمعنى النَّفي؛ أي: لا أحدَ ينصُركم من بعد خِذلانه لكم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ الغالِب القاهِر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ويخصُّوه بالاعتِماد، ولا يصرِفوا شيئًا من التوكُّل إلى غيره.

وفي هذه الآية من الفوائد:

وجوب تعليق القَلْب بالله وحدَه في طلَب الانتِصار.

وفيها: وجوب الأَخْذ بأسباب النصر، وقد جاء ذكرُها في الآيتَين ٥٥، ٥٦ من سورة النُّور والآيتَين ٤٠، ٤١ من سورة الحَجِّ. ومجمَلُها: الإخلاص لله، وطاعة رسوله ﷺ، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر.

وفيها: التحذير من فِعْل أسباب الخِذلان، وقد جاء ذكرُها في آياتٍ أخرى؛ ومنها: تولِّي الكفَّار ومُناصَرتهم.

وفي الآية: إفراد الله تعالى بالتوكُّل عليه، ووجوب ذلك؛ كما في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصْر، بخلاف ما لو قيل: «فليتوكَّل المؤمنون على الله».

وفيها: خطورة الخِذلان على المؤمنين؛ لأنَّ (الخِذلان) هو: التخلِّي والتَّرْك في مواطِن الاحتياج. ولذا فالتوكُّل أعظم ما يكون في مقام الحاجة؛ كما يظهر جليًّا في طلب النصر، والرِّزق، والشِّفاء، كما قيل في تعريف (التوكُّل): «ألَّا تطلُب لنفسك ناصِرًا غير الله، ولا لرِزقك خازِنًا غير الله، ولا لعمَلِك شاهِدًا غير الله»، وطلب الرِّزق بمعصية الله مُنافٍ للتوكُّل، كما فعل الرُّماة في تَرْك مواقِعهم، طلبًا للغنائِم؛ فكانت الهزيمة.

وفيها: بلاغة القرآن. ومن أمثلته في الآية: إيرادُ الاستِفهام بمعنى النفي؛ ليكون أبلغ في النفي؛ كقوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: لا أحدَ ينصركم.

ومنها: استعمال النفي المقتَضِي للعُموم، في قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾، و(لا) نافية للجنس، و(غالِب) نكِرة، والنَّكِرة في سياق النفي تُفيد العُموم.

ومنها: تقديم ما حقُّه التأخير؛ ليُفيد الاختِصاص والحَصْر، كما في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ومنها: استِعمال المُقابِل وذِكْر الضِّدِّ؛ لأنَّ الكلمة تزداد ظهورًا في المعنى إذا قُرِنَ معها ضِدُّها، كما جاء في ذِكر (الخِذلان) مُقابِل (النصر).

ومنها: استِعمال الالتِفات، وهو: الانتقال من الخِطاب إلى الغَيبة، أي: من أسلوب المخاطَب إلى الغائِب، أو العكس؛ للتنبيه. فقد خاطبَهم في أول الآية بقوله: ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾،

وبقوله: ﴿يَخۡذُلۡكُمۡ﴾، ثم انتقل إلى الغائب في آخر الآية فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾، ولم يقل: «فتوكَّلوا».

ومنها: استِعمال أسلوب النفي الأشدِّ، في قوله: ﴿فَلَا غَالِبَ﴾؛ ليطمئنُّوا. واستِعمال أسلوب النفي بالاستِفهام -وهو أقل شِدَّة- في قوله: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم﴾؛ وذلك تلطُّفًا بالمؤمنين.

وفي الآية -مع التي قبلها-: التأكيد على التوكُّل، والحثُّ عليه؛ فإنَّه قد أمرَ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ به فقال: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثم أمرَ المؤمنين عُمومًا به فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولبيان أنَّه من أعظم أسباب النصر.

وفيها: أنَّ التَّوكُّل على الله من مقتَضيات الإيمان، وكما يزيد الإيمان وينقُص؛ فكذلك يزيد التوكُّل وينقُص -تبَعًا له-.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حُسنَ خُلُقِ نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ ذكرَ هنا براءتَه ممَّا اتهمَه به بعضُ المنافِقين، من أنَّه غلَّ من غنيمةٍ قبل قِسْمَتها؛ فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي: لا يَليق ذلك بمَقامه الشريف ﴿أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخون، لا بالأَخْذِ من غنائم المعركة خِفيةً لنفسه، ولا بإخفاء شيءٍ من الوَحي المنزَّل عليه.

وأيضًا، فلا يجوز أن يُغَلَّ، بأن يخونَه أحدٌ.

﴿وَمَن يَغۡلُلۡ﴾ أي: يَخُن، بالأَخذِ من الغنيمة؛ ﴿يَأۡتِ بِمَا غَلَّ﴾ كما هو، يَحمِله على عُنُقه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ ليكونَ له فضيحةً على رؤوس الأشهاد.

و(الغُلول) لغةً: أَخْذُ الشيء خِفيةً، والخِيانة فيه. وشرعًا: الخِيانة في الغنيمة. ويدخل فيه: الاختِلاس من بيت مال المسلمين.

وهو من كبائر الذُّنوب، قد جاء الوَعيدُ الشديدُ في عقوبة الغالِّ يومَ القيامة؛ فعن أبي

هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَـرَ الغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُـمَّ قَـالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِـيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَـلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَـهُ رُغَاءٌ (وهو صوت البعير)، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُـمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ (صوت الفرس)، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ (صوت الشاة)، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ!...»، ثم ذكرَ الشاة، والنَّفس، والثِّياب، والذَّهب والفِضَّة[1].

وفي الحديـث: «مَـنِ اقْتَطَعَ شِـبْرًا مِـنَ الأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَـهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[2].

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ أي: تُجازَى وتُعطَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ سواءً كانت غالَّـةً أو غير ذلك ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: ما اقترفت وفعلت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

الإشـارة إلى مُعاتَبـة الرُّماة؛ فكأنَّه يقول لهم: لماذا تركتُـم مواقِعكم لتصيبوا من الغنائِم؟ أكنتُم تخشَـون أن تُحرَموا من نصيبكم منها؟ أوَ ما علِمتُم أنَّ نبيَّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخون، ولا يأخذ منها شيئًا، وسيعطيكم نصيبكم؟ فلماذا عصيتُموه وتركتُم مواقِعكم؟

وفيهـا: أنَّ النبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَليق به غُلول المال، ولا غُلول العِلْـم، وأنَّ الغُلول دناءَة وخِسَّـة؛ فـلا يليق هـذا بمقام الأنبيـاء، وليس من شِـيَمهم الخِيانة بجميع أنواعهـا؛ فالنُّبوَّة والخِيانة لا تجتمِعان.

وفيها: تحريـم الغُلـول، وأنَّه مـن الكبائِـر، وأنَّ الفضيحةَ يـومَ القيامة زيـادةٌ في عذاب صاحبه.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١) -واللفظ له-.

(٢) رواه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) -واللفظ له-.

وفيها: أنَّ الأَخْذ من غنائِم المعركة قبل قِسْمَتها خِيانةٌ للمسلمين، سواءً لأفراد الجيش، أو لجميع المسلمين -بالخُمُس الذي يذهب لبيت المال- وتزداد إثـمًا إذا أُخِذَت وهي عند نبيٍّ يُشرِف على قِسْمتها.

وفيها: أنَّ الغُلول يزداد قُبحًا في حقِّ أصحاب المناصب الدِّينيَّة. وليس الغُلول خاصًّا بغنائِم المعركة؛ فكلُّ مَن أخذَ من مالٍ عامٍّ بغير حقٍّ؛ فهو داخلٌ فيه. ويدخل فيه أيضًا: غُلول الكتُب، باستعارتها ثم مَنعِ رَدِّها إلى أصحابها.

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل؛ لقوله: ﴿**وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ**﴾.

وفيها: إثبات قُدرة الله تعالى؛ فإنَّ المغلول يكون قد فنيَ في الدُّنيا؛ فيأتي به الله عَزَّوَجَلَّ يومَ الدِّين.

وفيها: أنَّ الإنسان لا ينتَفِع بثواب ما لم يَكْسِبه؛ فلا فائدة من إهداء ثواب الطاعات للأموات أو الأحياء. ويُستثنَى من هذا: ما دلَّ الدليل على وصوله، كالحجِّ والعُمرة عن الميِّت، والدُّعاء، وصيام النَّذْر عنه، والصَّدَقة، وغيرها.

وفيها: تعظيم حقِّ المسلم على المسلم، وحُرْمة أموال المسلمين.

وفيها: أنَّ بعض مَن يذهب للجهاد يقع في الخِيانة والمعصية؛ كالانتِحار، وشقِّ عصا الطاعة على أميره، والتولِّي يومَ الزَّحْف، أو الرِّياء بالقتال -ليُقال: شُجاعٌ- أو القتال عصبيَّة، لا بنيَّة إعلاء كلمة الله، ونحو ذلك من المعاصي والكبائر، الَّتي تحدُث حتى في الأحوال العصيبة الخطيرة.

﴿**أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢**﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى توفيتَه كلَّ نفس ما كسبَت -على وجه العُموم-؛ أردفَ ذلك بالتفصيل والمقارَنة، وأنَّ جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين؛ فقال تعالى:

﴿**أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ**﴾ أي: سعى في تحصيل رِضاه، بفِعلِ الطاعات وتَرْكِ المعاصي -ومنها الغُلول- ﴿**كَمَنۢ بَآءَ**﴾ ورجعَ ﴿**بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ (السَّخَط): هو الغضب الشديد

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ مَرْجِعه ومَسكنه ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهو اسمٌ من أسماء النَّار. قيل: مشتقٌّ من (الجَهْم)، وهو الكراهة، يُقال: «جَهَمَه» إذا عبسَ في وَجْهِه وقطَّبه، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تلقى مَن يدخُلها بوَجه عابس متجَهِّم -والعياذ بالله-.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: قَبُح، وساءَ هذا المرجِع والمُنقلَب.

وفي هذه الآية من الفوائد:

عَدْل الله تعالى، وأنَّه لا يُساوِي بينَ أوليائه وأعدائه.

وفيها: وجوب السَّعْي لتحصيل مرضاة الله، بفِعْل ما أمرَ به، وتَرْكِ ما نهى عنه.

وفيها: الموعظة والتحذير من أسباب دخول النَّار، ومنها الغُلول المذكور في الآية السابقة.

وفيها: إثبات صفةِ (الرِّضا)، وصفةِ(السَّخَط) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته. وهما من الصِّفات الفعليَّة الاختياريَّة الثابتة لله تعالى، فلا يجوز نفيُها، أو تحريفُها، أو تأويلها.

وفي الآية: دليلٌ على خطأ قول بعضِ الناس، إذا مات الميِّت ودُفِنَ في قبره: «شُيِّعَ إلى مثواه الأخير»؛ فالمثوى الأخير هو المنقلَب والمصير، وهو إمَّا الجنة أو النَّار، أما القبر فهو مزارٌ، ودار ممرٍّ لا دار مقرٍّ.

وفيها: أنَّ التفصيل في المصير، وعَقد المقارنة بين مصيرَين؛ أبلغ في الزَّجْرِ عن المعاصي، والتحريضِ على الطاعات.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾:

ثم قال تعالى في الفريقَين -مَن اتبع رِضوان الله، ومَن باءَ بسَخَطه-:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني: أهلَ الخير وأهلَ الشرِّ درجاتٌ، أي: أصحاب طَبَقات ومراتب مختلفة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي حُكمه، يتفاوتون في درجات الثواب والعقاب، بحَسَب درجاتهم في الطاعات والمعاصي، من الرَّفيق الأعلى إلى الدَّرْك الأسفل.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩].

وهذا بحَسَب عِلْمه تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾: عليمٌ بأعمالهم، وسيُوَفِّيهم إيَّاها، ويُجازيهم عليها، لا يظلِمهم خيرًا ولا يَزيدهم شرًّا.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وأنَّ الأقوال والأفعال تتفاضَل.

وفيها: أنَّ أهل الخير كما هم درجاتٌ فيه، فأهل الشرِّ دَرَكاتٌ فيه.

وفيها: إحاطة الله تعالى بأعمال العِباد.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾:

ولـمَّا نفى الله تعالى الغُلول والخِيانة عن نبيِّه ﷺ؛ مدحه وبيَّن منَّة الله به على المؤمنين؛ فقال سبحانه:

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: أنعمَ وتفضَّل عليهم، وأحسنَ إليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ﴾ وأرسلَ إليهم. وأصل (البَعْث): الإنشاء، وسُمِّيت (الرِّسالة) بَعْثًا؛ لأنَّها تُخرِج الناس من حال إلى حال، فكأنَّهم بُعِثوا، وأُنشِئوا خَلْقًا جديدًا ﴿رَسُولٗا﴾ مُرسلًا من عنده.

وقوله ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: من جِنسِهم، عربيًّا مثلهم، نشأ بينهم، يعرِفون حالَه، ويتمكَّنون من مخاطَبته وسؤاله، ومجالَسته، والانتفاع به.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: كتابه وقرآنه ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: يُربِّيهم، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكَر؛ لتزكوَ نفوسُهم، وتتخلَّصَ من النَّجاسات المعنويَّة، ودَنَس الشِّرك، وخَبَث الجاهليَّة. ويُطَهِّرهم أيضًا من النَّجاسات الحِسِّيَّة، بما أمرَهم به من الاستِنجاء والوضوء والغُسْل.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: معاني القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهي: السُّنَّة والحديث، وهي بيانٌ للكتاب.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: قبل بِعْثته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ وغيٍّ وجهلٍ، يُحيط بهم ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهرٍ، جليٍّ لكلِّ أحد.

وفي هذه الآية من الفوائد:

التأكيد على بِعْثة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بالقَسَم المقدَّر، و(لام) التأكيد، و(قد) التي تفيد التحقيق، في قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وتقدير الكلام: «والله، لقد مَنَّ الله على المؤمنين»، وفي هذا بيانٌ لقَدْر النِّعمة وأهميَّتها؛ ليرعَوها، ويتعلَّقوا بها، ويستَفيدوا منها، ويحِرصوا عليها، لا لشكٍّ أو إنكارٍ منهم.

وفيها: أنَّ أهل الإيمان تتبيَّن لهم مِنَّةُ الله، بينما الكفَّار يُنكِرونها، ويُعرِضون عنها، ولا يرفَعون بها رأسًا، فيُحرَموا خيرَها.

وفيها: أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فخرٌ للعرَب، وشَرَفٌ لهم. وإذا كان إبراهيمُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قد اشتركَ فيه اليهود والنصارى والعرَب، وموسى قد افتخرَ به اليهود، وعيسى قد افتخرَ به النصارى؛ فإنَّ أعظَمَ شَرَفٍ للعرَب: أن بُعِثَ فيهم النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنفَسُ العرَب -نسَبًا وحَسَبًا- وما خلقَ الله نفسًا هي أكرَمُ عليه من النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بُعِثَ معروفَ الحال، قد استبانَ أمرُه لمن حولَه؛ ولذا قال: ﴿بَعَثَ فِيهِمۡ﴾؛ فلم يكن أمرُه ليخفى عليهم، والشخص المعروف عند قوم إذا جاءَهم بشيءٍ؛ كانت معرفتُهم السابقة له سببًا في تصديقِه وقَبولِ ما جاءِ به.

وفيها: أنَّه ينبغي التأكيد على اختيار الدُّعاة المعروفين في أقوامِهم وقبائِلهم، والاهتمام بتعليمهم وتدريبهم وتربيتهم؛ ليقوموا بالواجب المطلوب، ويكونوا أقدرَ على تحقيقه، وأنَّ قيام المعروفين في الأقاليم والقبائل بدعوة مَن حولهم؛ يختصِر الوقتَ والجهدَ.

وفيها: أنَّ اختيار الله لنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بَشَرًا من جِنس العرَب، أدعَى إلى مُتابعتِه والإيمانِ به؛ لأنَّه لو كان من الملائكة أو الجنِّ؛ ما أَلِفَه الناس، ولا استطاعوا الاقتِداء به، وإنَّما كان

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثلَهم يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وجعلَه عربيًّا؛ لأنَّه لو كان أعجميًّا لـمَا فَقِه قومُه منه، وما فَهِموا عنه.

وفيها: أهميَّة التِّلاوة اللَّفظيَّة للقرآن -بإقامة حروفه وتجويده- والتلاوة الحُكميَّة -بالعمل بأحكامه-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ الطهارة الحِسِّيَّة -من النجاسات والأخباث- والطهارة المعنويَّة -من الشِّرْك، والنِّفاق، وسُوء الأخلاق-.

وفيها: أهميَّة الجَمْع بينَ قراءة القرآن والسُّنَّة النبويَّة، والعمل بهما.

وفيها: أنَّ من وظائف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووَرَثَته من أهل العِلْم: الجَمْع بينَ تلاوةِ القرآن على الناس، وتعليمِهم إيَّاه. والتعليم أخصُّ من التلاوة؛ فإنَّ مَن قرأه ولُقِّنه يكون تاليًا له، أما التعليم فيشمل: تعليم اللَّفظ، وتعليم المعنى، وتعليم الحُكم والعمَل.

وفيها: أنَّ تعليم القرآن سببٌ لفُشُوِّ الكتابة. والقرآن مكتوبٌ في اللَّوح المحفوظ، وفي صحائف الملائكة -بأيدي السَّفَرة- ومكتوبٌ في المصاحف التي بينَ أيدي المسلمين.

وفيها: تعليم الناسِ وضعَ الأشياء في مواضِعها، وأسرارَ التشريع، ومصالِحَه، وعِلَل الأحكام. وكلُّ هذا من معاني (الحِكمة).

وفي الآية: وجوب شُكر نِعْمة إرسال النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بالإيمان به، واتِّباعه، والاقتداء به، ونشر سُنَّته، ونُصرته.

وفيها: أنَّ شَرَف الرَّسول بحَسَب مَن أرسلَه.

وفيها: أنَّ مماثَلة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن بُعِثَ فيهم، إنَّما هي في الجوانب البشريَّة، والطبَعيَّة؛ كالنَّسَبِ، واللُّغة والوطن، ويَفوقهم بالوحي، وما خصَّه الله تعالى به من الخصائص العظيمة الشريفة.

وفيها: تخفيفُ مُصيبة وَقعة أُحُدٍ على الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بذِكر مكانة النَّبيِّ العظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذي سلَّمه الله من المشرِكين، فرجعَ مع المؤمنين إلى المدينة.

وفيها: أنَّ ذِكر شَرَفِ وفَضْلِ المتَّهم البريء، يُعين على إبعاد التُّهمة عنه.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾:

ثم عادَت الآياتُ إلى أَخْذِ العِظَة والعِبرةِ منْ هزيمة أُحُد، وبيانِ سبَب حصولها، وكان في الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دهشةٌ لِما وقع، ويتساءلون عن سببه؛ فقال تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ﴾ يعني: أوَحين، و(الهمزة) للاستِفهام، وهو استِفهامُ إنكار وتقريع.

﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ وهي هزيمة المسلمين، وغلَبة المشركين، وقَتْل السَّبعين، وما حصلَ من الجِراح يوم أُحُد ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يومَ بَدْرٍ، حينما قتلتُم منهم سبعين، وأَسَرْتُم سبعين -وهم في حكم المقتولين؛ لقُدرتكم على قَتْلهم-.

لـمَّا حصَلَ هذا تساءلتُم و﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: تتساءَلون مُتعجِّبين: كيف حصلَ لنا القَتْل والهزيمة، ولعدُوِّنا الغَلَبة، ونحن مُسلمون على الحقِّ، وأعداؤنا كفَّار على الباطل، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معنا، أفلَسْنا أحقَّ بالنصر؟!

﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جوابًا عن هذا التساؤل وهذه الشُّبهة: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾. وقد جاء تفصيلُه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

فالمعنى الإجماليُّ: إذَن، لا ينبغي لكم أن تتعجَّبوا مـمَّا حلَّ بكم؛ فأنتُم السَّبَب في ذلك، بمعصيتِكم وفِرارِكم.

ثم هل نسيتُم فَضْل الله عليكم في بَدْرٍ، وقد كان نصرُه لكم أعظمَ من الهزيمة التي حلَّت بكم في أُحُد؟ فإنَّكم يومَ بَدْرٍ قد قتلتُم سبعين وأَسَرْتُم سبعين، بينما في أُحُد قُتِلَ منكم سبعون فقط.

وهل نسيتُم أنَّكم اخترتُم أخذَ الفِداء في بَدْرٍ، فقُتِلَ منكم سبعون رجلًا بعِدَّتهم؟

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: أنَّ الله تعالى قادرٌ أن يهزِم هؤلاء المشركين، وينصركم عليهم، ولكنَّه قضى وقدَّر ما جرى لِحكمة يُريدها عَزَّ وَجَلَّ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد: ٤].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ سبَب مُصيبة أُحُدٍ مُركَّبٌ من أمرَين: اختيار الصَّحابةِ أخذَ الفِداء في بَدْرٍ -وما يترتَّب عليه- ومعصية مَن عصى في أُحُدٍ.

وفيها: أنَّ الأَسْرَ قد يكون مِثلَ القَتْل في الذُلِّ، أو أشَدّ.

وفيها: أنَّ أمور الدُّنيا لا تدوم على حالٍ واحدٍ؛ حتى أهل الإسلام ينتَصِرون تارةً، وينهَزِمون أخرى.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ لا يُشترَط أن ينتَصِروا في كلِّ المعارك.

وفيها: أنَّ أهل الحقِّ إذا حقَّقوا شروط النصر؛ فلا بُدَّ أن ينتَصِروا، ولا يتخلَّف النصر عنهم إلَّا بذنبٍ عَمِلوه، والعُقوبات آثارٌ لازمة للأعمال، والله تعالى إنَّما وعدَ بالنصر بشَرْطِ تَرْك المعصية؛ كما قال في آيةٍ أخرى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وفيها: التَّحذير من شُؤْم المعصية، وأنَّ شُؤْمَها قد يَطال الأبرياء الذين لا ذنبَ لهم، ويكون ما أصابهم رِفعةً لهم عند الله؛ فالنبيُّ ﷺ قد ابتُلِيَ بسبَبِ معصيةِ بعض أصحابه؛ فقد كُسِرَت رَباعِيَتُه، وهُشِمَت البَيْضة على رأسه، وسال الدمُ على وَجْهِه الشريف ﷺ.

وفيها: أنَّ الحِرْص على الدُّنيا يؤثِّر في الأمر المستقبَليّ، وليس في الحاليّ وحدَه؛ فقد كان أخذُ الفِدْية في بدرٍ سببًا من أسباب مُصيبة أُحُد.

وفيها: أنَّ مجرَّد وجود النبيِّ ﷺ بينَ الناس، لا يمنع عنهم المُصيبة، كما حصلَ في أُحُد، ولكنَّه يمنع عنهم العذابَ العامَّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أصابَتْه مُصيبةٌ؛ فعلَيه أن يُعَزِّي نفسَه بما نالَه من النِّعمة من قبل.

وفيها: أنَّ الإنسان إذا أصابَتْه مُصيبةٌ؛ فعلَيه أن يبحث عن السَّبَب أولًا فيما كَسَبتْه يداه.

وفيها: أنَّ من فوائد البلاء: التَّنبيهَ على الأخطاء؛ للحذَر من الوقوع فيها مستقبَلًا، ولإصلاح مكامِن الخلَل وهوى النُّفوس.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾:

ثم ذكَّر الله تعالى عبادَه المؤمنين، بأنَّ كلَّ ما حصلَ يوم أُحُد من المصائب إنَّما هو بتقديره وقضائه، وإذنه ومشيئته؛ فقال سبحانه:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من الهزيمة والقتْل والجِراح ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: تقابَل جَمْعُ المسلمين وجَمْعُ المشركين ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإذن القدَريّ، والله هو الذي قدَّره.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (اللَّام) للتعليل، أي: أنَّ الله تعالى قدَّر هذه المُصيبة؛ ليظهَر عِلْمُه بأهل الإيمان، ويتبيَّن رِضاهم بقضائه.

وفي هذه الآية من الفوائد:

السَّعْي في تخفيف المُصيبة. ومِن رحمة الله تعالى بالمؤمنين: أنَّه أنزلَ عليهم ما يُعالِج أثرَ المُصيبة في نفوسهم.

وفيها: الإيمان بقضاءِ الله وقدَرِه، وأنَّه لا يحصُل شيءٌ في العالم إلَّا بإذنه ومشيئته، وهذا من أعظم ما يخفِّف وَقْع المصائِب.

وفيها: ذِكْرُ إذن الله القدَريِّ، وهو المتعلِّق بالتكوين والخَلْق. ومما ورد بشأنه في القرآن أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وأمَّا الإذن الآخر، فهو الإذن الشرعيُّ، المتعلِّق بما شرَعه الله لعباده، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والإذن الكونيُّ لا بُدَّ أن يقع، ويكون فيما يحبُّه الله، وفيما لا يحبُّه. بخلاف الإذن الشرعيِّ؛ فلا يكون إلَّا فيما يحبُّه الله، ويرضاه، وقد يقع أو لا يقع -على حسَب أحوالِ العباد واستِجابتِهم أو إعراضِهم-.

وفيها: أنَّ عِلْمَ الله الأزليَّ السابقَ -ومنه عِلْمه بالمؤمنين- لا يترتَّب عليه الثواب والعقاب؛ وإنَّما يترتَّب الثواب والعقاب على عِلْم الظُّهور -وهو عِلْم الشيء عند حصوله ووجوده- وهو المذكور في الآية. وهو الذي تقوم به الحُجَّة على العِباد؛ لأنَّ الله سبحانه لو حاسبَهم بحَسَب عِلْمه السابقِ الأزليِّ، لقالوا: ما عَمِلنا، فلِمَ نُعاقَب ونؤاخَذ؟

وفيها: تربيةُ أهل الإيمان، من خلال المصائِب.

وفي الآية: الرَّدُّ على القدَريَّة، الذين يقولون: إنَّ الله تعالى لا يخلُق الشرَّ، ولا يُقَدِّره! فكلُّ ما يجري في العالَم -من خير أو شرٍّ-؛ فإنَّما هو بتقدير الله ومشيئته.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

ثم ذكَرَ الله تعالى من حِكمة تقديره لمُصيبة أُحدٍ أيضًا: أنْ يظهَرَ أهلُ النِّفاق، وينكَشِفَ حالهم؛ فقال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أي: ليَظهَر عِلْمُه بهم، وتتبيَّن أحوالهم للمؤمنين، فيحذَروهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قال بعضُ المسلمين -كعبد الله بن عمرو بن حَرَام، والد جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره- للمنافِقين، يُحرِّضونهم على الرُّجوع بعدما انسحبوا:

﴿تَعَالَوْا۟﴾ معنا إلى أُحد ﴿قَٰتِلُوا۟﴾ المشرِكين ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته، ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ حميَّةً عن أنفسِكم، وأهليكم، وأموالِكم، وبلدِكم. أو: ادفعوا المشرِكين بتكثير سواد المسلمين -وإن لم تقاتلوا-؛ فإنَّ السَّواد إذا كثُر كان أرهبَ للعدُوِّ.

﴿قَالُوا۟﴾ -أي: المنافِقين- في جواب مَن دعاهم لمواصلة المسير: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ أي: لو نعلَم أنَّكم ستلقَون العدُوَّ وتُقاتِلونهم، أو: لو كنَّا نعرف القتال ونُحْسِنه، ونقدِر عليه؛ ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي: ذهبنا معكم.

﴿هُمْ﴾ أي: المنافِقون ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: في ذلك اليوم الذي

انخذَلوا ورجَعوا فيه، كانوا للكُفر أقرب -وإن كان معهم شيءٌ من الإيمان- بما يُشاهَد من أحوالهم، ويُستَدَلُّ به على أنَّهم يُبْطِنون الكُفر، فأعذارُهم ظاهرة الكَذِب.

وقيل: هم لأهل الكُفر -يومئذٍ- أقرب نُصرةً منهم لأهل الإيمان.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ كلامًا -كالنُّطْق بالشهادتَين- ويُظهرون من الإيمان ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حقيقةً؛ لأنَّ قُلُوبهم قد خالطَها الكُفر.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: أعلَم من غيره سبحانه، وهو عليمٌ بما يُخفون في أنفُسهم من: الكُفرِ، وتوقُّعِ القتال، والعداوةِ للمؤمنين.

وفي هذه الآية من الفوائد -مع التي قبلها-:

أنَّ الإيمان هو الأصل في النُّفوس، والنِّفاق طارئ على مَن نافقَ؛ ولذلك عبَّر عن أهل الإيمان بالوَصف؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وعبَّر عن أهل النِّفاق بالفِعْل؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾.

وفيها: تمييز الخبيث من الطَّيِّب، وتمييز أهل النِّفاق من أهل الإيمان؛ وممَّا يدُلُّ على ذلك: إعادة الفِعْل وتكريره؛ فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾؛ لئلَّا يَرْجِعَ نفسُ الفِعْل (وليعلم) إلى المنافِقين والمؤمنين معًا؛ ليكتَمِلَ التمييزُ بينَ هؤلاء وهؤلاء، وتنزيهًا وتشريفًا وتكريمًا للمؤمنين من الانتِظام في سِلْك المُنافِقين.

وهكذا حصل في الواقع؛ فقد انفصلَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بمَن معه من المنافِقين، عن جيش أهل الإيمان!

وفيها: أهميَّة العوامل النَّفسيَّة في القتال؛ فإنَّ كثرة عدَد الجيش في نظَر عَيْنِ العدُوِّ يُرْهِبه، ويكون أبلَغ في دَفْعه وصَدِّه.

ومثلها: المُرابطة على الخيل مع الجيش؛ فهي تُرْهِب الأعداء -ولو بغير قتال-؛ لأنَّ المرابِطَ مُدافِع.

وفيها: استِعمال المنافِقين للأعذار الواهية في التَّخلُّف عن الجهاد، ومن ذلك: زَعْمهم أنَّ

الحَرْب غير متوقَّعة، أو أنَّهم لا يُحْسِنون القتال -فيكون خروجُهم بزَعمهم من باب إلقاء النفس إلى التَّهلُكة-.

وقد عَلِموا في أنفُسِهم أنَّهم يَكْذِبون؛ فإنَّ كلَّ الدلائل كانت تُشير إلى وقوع حَرْب؛ لأنَّ قريشًا قد خرجَت في جيشٍ كبيرٍ، تريد الثأر ممَّا أصابهم يومَ بَدْرٍ، وقد نصبوا عَسْكرَهم، ونزلوا قُربَ المدينة، أفَبَعْد هذا كلِّه لا يكون القتال متوقّعًا؟!

ثم إنَّ عامَّة رجال العرَب كانوا يعرِفون فنون القتال، ويستَعمِلونه في الغارات فيما بينهم، وفي الدِّفاع عن أنفُسِهم، ونحو ذلك!

ثم لو كانوا صادِقين؛ لخرَجوا مع المسلمين، فإن حصل قتالٌ قاتَلوا، وإلَّا فلن يكلِّفَهم الرُّجوعُ شيئًا.

وفي الآية: أنَّ الشخص قد تتقلَّب به الأحوال، فيكون في حالٍ أقربَ إلى الكُفر، وفي حالٍ أقربَ إلى الإيمان.

وفيها: أنَّ المنافِقين أنواع؛ فمنهم: مَن نفاقه خالصٌ ليس معه إيمانٌ ألبتة، ومنهم مَن يكون معه شيءٌ من الإيمان يُخالِطه بعضُ النِّفاق -يقِلُّ ويكثُر بحَسَب حاله-.

وفيها: أنَّ المنافِقين يقومون بالأعمال التي هي في صالح أهل الكُفر، وأنَّهم يَخذُلون المسلمين في المواقف الحَرِجة؛ لأنَّ انسِحابهم بعد الخروج أسوأ من عدَم خُروجِهم أصلًا.

وفيها: أنَّ الأحداث والمِحَن تكشِف المنافِقين.

وفيها: وجوب مُواطأة الظاهِر للباطِن، والقَلْب للِّسان، في الإيمان.

وفيها: أنَّ العليم بمَكنونات قُلُوب المنافِقين، قادرٌ على أنْ يَهتِك أستارَهم، ويُظهر أسرارَهم، ويفضَح بواطِنَهم، ويكشف أمرَهم للمؤمنين.

وفيها: أنَّ الكَذِبَ منْ صفات المنافِقين الملازِمة لهم.

وفيها: أنَّ خروج الكفَّار منْ بلدهم، وجَمْعهم لعسكرهم، ونزولهم قُربَ المسلمين بجيشهم؛ دليلٌ واضحٌ على رغبتهم وعَزْمهم على القتال.

وفيها: أنَّ القول المعتبَر هو ما كان له في القَلْب أساسٌ، وأنَّ مَن نطق بقولٍ دون قَصْدِ قَلْبه؛ فيعتبَر قولُه لَغْوًا.

وفيها: أنَّ المنافِق لا يُفيد المسلمين، في قليل ولا كثير.

وفيها: أنَّ الإيمان يزيد وينقُص، وكذلك الكُفر يزيد وينقُص.

وفيها: أنَّ الإيمان والكُفر يجتَمِعان في قَلْبٍ واحدٍ -مع أنَّهما ضِدَّان- ولكن إيمانٌ جزئيٌّ وكفرٌ جزئيٌّ، فأمَّا الإيمان المطلَق، والكُفر المطلَق فلا يجتَمِعان معًا في قَلْبٍ واحدٍ أبدًا.

وفيها: أنَّ للإيمان خِصالًا، وللكُفر خصالًا، وقد يجمع الشخصُ الواحد بينَ شيءٍ من خصال الإيمان وشيءٍ من خصال الكُفر.

وفيها: الدِّقَّة والعَدْل في إطلاق الحُكم على الأشخاص.

وفيها: أنَّ قوله ﴿أَعْلَمُ﴾ -وإنْ كان يعني الاشتِراك في بعض العِلْم بينَ الخالق والمخلوق- لكن المُماثَلة ممتنعة، فأين هذا من ذاك؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال الخَضِر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -وقد جاء عُصفورٌ فنقرَ في البحر نَقْرة-: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْ هَذَا البَحْرِ»(١).

وفيها: فِعْل أدنى المصلحتَينِ عند العَجْز عن أعلاهما؛ فمَن لم يستطِع القتال -مثلًا- فليخرُج لتكثير عدَد الجيش.

ولا يؤخَذ من الآية: جوازُ الاستِعانة بالكفَّار في القتال؛ لأنَّ طلَب القتال ممَّن انسحَب إنَّما كان لإظهارِهم الإسلام، والمعامَلة تكون بناءً على الظاهر.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى مقولةَ أهلِ النِّفاق: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهم: عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابه ﴿قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: الذين هم على شاكِلَتهم في النِّفاق ﴿وَقَعَدُواْ﴾ عن القتال، وتخلَّفوا عن الجهاد.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

ثـم أضافوا لإثـم القُعود إثـمًا آخر، وهو: إلقـاء الشُّـبُهات، فكانوا يتباهَون بسـلامتهم وقُعودهـم، ويَشْـمَتون بمَن خالفَهم من المؤمنين وقُتِـلَ، ويقولون عنهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في عدمِ الخروج، والانسِحاب كما انسحَبْنا ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ يومئذٍ، ولَسلِموا كما سَلِمنا.

ويحتمَـل أن يكـون المعنـى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: المنافِقيـن ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: عن إخوانهم في النَّسـب مـن الخزرَج، من الشُّـهَداء الذيـن قُتلوا في أُحُـد، يتحسَّرون عـلى فَقْدهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ في عدَم الخروج مع النَّبيِّ ﷺ: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾.

فدحـضَ الله حُجَّتهـم، وأبـانَ كَذِبهـم؛ فقال لنبيِّـه ﷺ ليرُدَّ عليهـم: ﴿قُلۡ﴾ -يا أيُّهـا النبـيُّ ﷺ- في جواب هـذه الشُّـبهة: ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ أي: ادفعُوا ﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: إنْ كان القعـود يُنجِّي مـن المـوت -كما زعمتُـم- فينبغـي ألَّا تموتوا! ولكن الواقع أنَّ الموت يأتيكم حتى في حال القُعود؛ فادْفَعوه إذا جاءكم!

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ الحذَر يُغني من القدَر، وأنَّ القاعِد سالـمٌ، وممتنِعٌ عن الموت.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ المنافِقيـن لا يكتَفـون بالتَّبطِئـة والتَّعويـق عـن الجهاد قبـل الخروج؛ بل يَشْـمَتون في المُسْلِمين، ويُلْقون الشُّبُهات بعد الرُّجوع.

وفيها: أنَّ المنافِقين يتناجَون فيما بينهم -في مجالسـهم السِّرِّيَّة والخاصَّة- بشـأن ما حصلَ للمؤمنين، لكنَّ الله تعالى لهم بالمِرْصاد؛ فيَهْتِك أستارَهم، ويكشِف للمؤمنين أسرارَهم.

وفيها: أنَّ المنافِق لا يخلُو من شماتةٍ بالمؤمنين عند مُصيبتهم، أو حَسْرةٍ عند مُصيبة نفسِه.

وفيها: أنَّ الإثم يجُرُّ إلى الإثم؛ فقعود المنافِقين جرَّهم إلى إلقاء الشُّبُهات. وهكذا العاصي تجـرُّه معصيتُه إلى معصية أخرى، كالكَذِب سـترًا لنفسـه وتسـويغًا لمعصيتـه -وهكذا فعلَ المنافِقون، تسويغًا لقعودهم عن القتال-.

وفيها: تلقين المؤمنين الحُجَج في الرَّدِّ على شُبُهات المنافِقين.

وفيها: أنَّ القعود عن الجهاد لا يعني بالضرورة السلامة؛ فإنَّ للموت أسبابًا كثيرة، ومَن

يموتـون مـن غير قتالٍ في حـال الأمن -لمرض أو حادث- قد يكونون أكثـرَ ممَّن يُقتَلون مع الجيش إذا خرجَ لجهادٍ وغزْوٍ.

وفيها: أنَّ المنافِقين يجْمَعون بينَ قُبح الفِعْل وقُبح القول.

وفيهـا: اعـتِراض المنافِقيـن على القـدَر، في قولهـم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، وفيـه مخالَفة صريحةٌ لحديثِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

وفيها: قَهْر الله لعباده بالموت، وتحدِّيه للمنافِقين أن يدْرَءُوه عن أنفُسِهم.

وفيها: أنَّه لا يُمكن دَرْءُ الموت؛ لأنَّ ما جاء التحدِّي به في القرآن لا يُمكِن وقوعه، وإلَّا لم يكن للتحَدِّي به فائدةٌ، ولدلَّ ذلك على عَجْز المتحدِّي -وحاشاه سبحانه-.

وفيها: أنَّ الحذَر -مع أهميَّته- لا يمنَع القدَر.

وفيها: أهمِّيَّة تصدِّي الدُّعاة لشُبُهات المنافِقين، خاصَّةً التي ينشرونها في وسائل الإعلام؛ حتى لا تنطلي على العامَّة.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾:

ثـم عزَّى الله عَزَّ وَجَلَّ نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأولياءَه المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أحسـنَ تعزية، عمَّن قُتِلَ من المسلمين في المعركة، وبيَّن حالَ الذين تحسَّر المنافِقون أو شَمِتوا بمقتَلِهم؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ أي: لا تظُـنَّـنَّ -يا أيُّها النبـيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويدخل غيرُه في هذا الخِطاب تبَعًا ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يشمل: شُهَداء أُحُد، وبئر مَعُونَة، وغيرهم ممَّن قُتِلَ في المعركة مع الكفَّار، سـواءً بيد العدُوِّ، أو مَن قُتِلَ متحرِّفًا -كمَن ارتدَّ عليه سـهمُه فقتلَه- ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾ أي: لا تظُنَّ أنَّهم لا يُحِسُّون، ولا يتنعَّمون.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ حيـاةَ الأرواح، يُحِسُّـون ويتنعَّمون ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فهم قـد فارَقوا الدُّنيا، فصـاروا عند الله، وهـذه (العِنديَّة) شرَفٌ وتكريمٌ لهـم ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ أي: يُعطَون من النَّعيم. وأصل (الرِّزق): العطاء.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلَت في حمزة وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من قتلى أُحُد.

وقد جاء في سبَب نزول هذه الآية:

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لـمَّا أُصِيبَ إخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ؛ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِن ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِن ذَهَبٍ مُعلَّقةٍ فِي ظِلِّ العَرْشِ، فلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ وَمَقيلِهم؛ قَالُوا: مَن يُبَلِّغُ إخْوانَنا عنَّا، أَنَّا أحياءٌ في الجَنَّة نُرْزَقُ؛ لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الجِهَادِ، وَلا يَنْكُلُوا عِندَ الحَرْبِ (أي: يجبُنوا ويتأخَّروا)! فَقَالَ اللهُ سبحانه: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنكُمْ. فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية»(١).

وعن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّهم سألوا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية؛ فقال: «أَرْواحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ القَنادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاعَةً، فقالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قالُوا: أَيَّ شيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنا؟ فَفَعَلَ ذلكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قالُوا: يا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرواحَنا فِي أَجْسادِنَا، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لهم حاجَةٌ تُرِكُوا»(٢).

وفي هذه الآية من الفوائد:

التعزية بعد المُصيبة، وهي: تخفيفُ أثرِها على المُصاب.

وفيها: فَضْل الشُّهَداء في سبيل الله، ومن كرامَتِهم: أَنَّهم أحياءٌ، ولله بهم عِنايةٌ خاصَّةٌ؛ فهم عندَه يتنعَّمون.

وفيها: الترغيب في الجهاد؛ للحصول على الشَّهادة.

وفيها: إثبات نعيم البَرْزَخ، ومنزلة الشُّهَداء العالية فيه.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٢٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٧).

وفيها: ثبوت نعيم الشُّهَداء في البَرْزخ، وهو دون نعيمهم بعد قيام الساعة؛ لأنَّ النعيمَ بعد عودة الأرواح إلى أجسادها -بلا مفارقةٍ بعد ذلك- أكملُ من النَّعيم الذي يقع للجَسَد إذا فارَقَتْه الرُّوحُ بعد الموت.

وفيها: أنَّ الشُّهَداء يُرزقون وهم أمواتٌ، بلا أسبابٍ يبذُلونها.

وفيها: شَرَف (العِنديَّة) الخاصَّة، وهي أن يكون أَحدٌ من أهل الإيمان عند الله.

وفيها: استِمرار رِزق الشُّهَداء، وأنَّه يبدأ من حين القَتْل.

وفيها: أنَّ فَناء الجسَد لا يلزَم منه فناء الرُّوح. وقد تأكل الأرضُ أجسادَ الشُّهَداء، وقد لا تأكل بعضَهم. أمَّا الأنبياء فالأرض لا تأكُل أجسادُهم أبدًا.

وفيها: إكمالٌ للرَّدِّ على المنافِقين، الذين شَمِتوا بمقتل شُهَداء المسلمين، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هؤلاء -الذين هم في مَوضِع الشماتة أو التَّحسُّر- في حالٍ عظيمٍ من النعيم.

وفيها: أنَّ الرِّزق المذكور للشُّهَداء رِزقٌ حقيقيٌّ، وليس أمرًا نفسيًّا أو معنويًّا فقط؛ وقد ثبتَ في الحديث الصحيح: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ -نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ- فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[1].

وفيها: أنَّ التَّعزية تُقوِّي الرِّضا بالقضاء.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

ثم ذكرَ الله تعالى أنَّ للشُّهَداء نعيمًا نفسيًّا -بالإضافة إلى النعيم المحسوس المتقدِّم-؛ فقال عن حالهم:

﴿فَرِحِينَ﴾ (الفَرَح): ضِدُّ الحُزن، وهو قريبٌ من معنى السُّرور، ومنه المحمود والمذموم ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: بالذي أعطاهم وتفَضَّل عليهم، من الكرامة وألوان النعيم. و(الفَضْل) في اللُّغة: الزِّيادة.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٩٠)، وابن حبَّان (٤٦٥٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يبشِّر بعضهم بعضًا مسرورين. و(البُشرى): الخبر السارّ ﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ في القتْل والشَّهادة من إخوانهم ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أي: ممَّن بقيَ في الدُّنيا بعدَهم، ثابتين على الدِّين، يُريدون اللَّحاق بإخوانهم الذين سبقوهم.

أو يكون المقصود بقوله ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾: الذين لم يُدرِكوا فضْلَهم ومَنزلتهم.

﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: يَسْتَبْشِرون بعدَم الخوف والحُزن على إخوانهم الأحياء؛ لثباتِهم على الإيمان، ورغبتِهم في الشَّهادة.

أو: لا يخافون ممَّا أمامَهم -من المصير- ولا يحزنون على ما تركوه وراءَهم.

والفَرْق بينَ (الخوف) و(الحُزن): أنَّ (الخوف): غمٌّ بما يتوقَّعه الإنسان من السُّوء في المستقبَل، و(الحُزن): غمٌّ نتيجة فَوْت منفعةٍ، أو حصول مضرَّة، في الماضي أو الحاضر.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اجتماع الفَرَح والاستبشار للشُّهَداء.

وفيها: اجتماع الأمن بزوال المحذور، والنِّعمة بحصول المأمول، لمن سلكَ سبيل الشُّهَداء.

وفيها: ظهور فَضْل الله على الشُّهَداء؛ لأنَّ الاستبشار والفَرح كلاهما تظهَر آثارُه على الوَجْه والبَشَرة.

وفيها: أنَّ من مقتَضيات الأُخُوَّة الإيمانيَّة: محبَّة شمول الفَضْل والنِّعمة لأهل الإيمان الآخَرين، وتمنِّي السابق حصولَ الشَّهادة للَّاحِق؛ ليحصُل له من النعيم مثلُ ما حصلَ للأول.

وفيها: احتِمال أن يُعرِّف اللهُ الشُّهَداءَ بمَن سيقدُم عليهم، من نُظرائِهم وأشباهِهم.

وفيها: تمنِّي الخير لأهل الإيمان.

وفيها: استِحباب تبشير المؤمن لأخيه المؤمن.

وفيها: أنَّ غير الشُّهَداء لو عرَفوا ما حصل للشُّهَداء؛ لأقدَموا على بَذْلِ نفوسِهم في سبيل الله.

وفيها: أنَّ العَلاقة بينَ الأحياء والأموات من أهل الإيمان، لا تنقَطِع بالموت؛ فالأحياء يَدْعُون الله للأموات: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، والأموات يستَبْشِرون للأحياء بالنِّعمة والفَضْل.

وفيها: أنَّ الشُّهَداء والمؤمنين في البَرْزخ؛ لهم لقاءٌ ببعضهم، وحديثٌ متبادَلٌ.

وفيها: أنَّ سرورَ المؤمنين يكتمِل باجتِماعهم بإخوانهم.

وفَهِـمَ بعضُ المفسِّرين من الآية: أنَّ فيها بِشـارة لمن بقـيَ حيًّا في غزوة أُحُد، أنَّه لا تُصيبه نكبةٌ بعدَ ذلك اليوم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى استِبشـارَ الشُّـهَداء بإخوانهم؛ أكَّد استِبشـارَهم بما حصلَ لأنفُسِهم، فقال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بما وعدَهم الله به من دار الخُلد، وبما سيُبشَّرون به من الخُلود الذي لا موتَ بعده. ومعنى (استبشَرَ) أي: بشَّر غيره -فهم يُهَنِّي بعضُهم بعضًا بأعظم مُهنًّأ به- أو: دخلَت عليه البُشرى بتبشير غيرِه له.

﴿بِنِعْمَةٍ﴾ قيـل: ثواب أعمالهم، وقيل: الجنَّـة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بيانٌ لمصدر النِّعمة ﴿وَفَضْلٍ﴾ قيـل: (الفَضْل) داخلٌ في (النِّعمة)، بمعنى: الزيـادة فيها. وقيل: كرامةٌ زائدةٌ عليها، وقيل: النظَر إلى وَجْه الله.

وقـال بعـض المفسِّرين في المـراد بـ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: هـم الأحياء، الذيـن نصرَهم الله في الجهـاد، فيُبَشِّر بعضُهم بعضًا بما حصلَ لهم مـن (النِّعمة) وهي: النصر والغَلَبة، و(الفَضْل) وهو: الغنيمة، وما وقعَ بأيديهم من أموال العدُوِّ وأسراهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتركهـم هَمَلًا وسُـدًى؛ بل لا بُـدَّ أن يُثيبَهم على أعمالهـم، فيفرَحـون أنَّ الله لم يَبْخَسْـهم أجرَهـم، ولم يُضَيِّـع جُهدَهم وعملَهـم؛ بل كافأهم بالنِّعمةِ، والفوزِ المبين، وحُسنِ الخاتمة، وجنَّاتِ النعيم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

اجتِماع البِشـارات للشُّـهَداء، وأنَّهم يستَبشِرون لأنفُسِهم، ويسـتَبشِرون لغيرهم، وأنَّهم فَرِحون بما حصلَ، ويستَبشِرون بالذي سيحصُل.

وفيها: الترغيب في الجهاد في سبيل الله؛ للحصول على الشَّهادة.

وفيها: أنَّ ثواب الشَّهادة عظيم؛ لأنَّه من الله، والثواب يعظُم بعِظَم المُثيب.

وفيها: الفَضْل لله في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: سلامة الشُّهَداء من الحُزْن على ما مضى، ومن الغَمِّ بما يحصُل، ومن الخوف من المستقبَل.

وفيها: نِسبة النِّعمة إلى خالِقها، وإسنادُها إلى مصدَرِها، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيها: البِشارة لأهل الإيمان عُمومًا، بالإضافة إلى الشُّهَداء.

وفيها -مع التي قبلها-: تقديمُ الاستِبْشار للغير على الاستِبْشار للنَّفس، وهذا من كمال الأُخُوَّة. وأين هذا ممَّن يتمنَّى زوالَ النِّعمة عن الغير، بل ويفرَح إذا زالَتْ عنه؟! نعوذ بالله من الحَسَد، ومن شرِّ الحاسِدين.

وفي الآية: حُبوط أعمالِ فاقدِ الإيمان، وأنَّه لا ثواب له عليها عند الله تعالى.

وفيها: أنَّ المِحْنة التي أصابَت المسلمين في أُحُد، هي مِنْحةٌ لمن قُتِلَ منهم في سبيل الله.

وفيها: أنَّ الشَّهادةَ أعظَمُ من الغنيمة.

وفيها -مع الآيتَين قبلها-: مجموعة من مزايا الشُّهَداء؛ ومنها: الحياة الدَّائمة، والقُرب من الله، والكرامة بأنَّهم عِندَه، وجَريان الرِّزق المستمرّ عليهم، وفَرَحهم واستِبشارهم.

ومن فوائد آيات التَّعزية:

من قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، **إلى قوله**: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أنَّ الله تعالى ذكَّر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعظيم نِعمته عليهم، في إرسال هذا الرسول، الذي كان من أنفُسِهم، يُعلِّمهم، ويُزكِّيهم، ويُخرِجهم من الضلالة إلى الهداية، ومن الظُّلْمة إلى النُّور، فتَهُون كلُّ بليَّة ومِحْنة بجانب هذه النِّعمة.

ثم أخبرَهم سبحانه عن سبَبِ المُصيبة -ليحذَروا أنفُسَهم- وأنَّ المُصيبة بقضائِه وقدَرِه؛ ليُوَحِّدوه، ويتوكَّلوا عليه، ولا يخافوا غيره.

وأخبرَهـم ببعـض ما فيها مـن الحِكَم؛ لئلَّا يقـع في النُّفوس شيءٌ -مـن اتِّهامه في قضائهِ وقدَرِه- وأنَّه أعطاهم أعظمَ ممَّا فاتَهم.

وعزَّاهم عن قتلاهم، بذِكر ما نالَه الشُّـهَداء من ثوابه وكرامَته؛ ليُنافِسـوهم، ولا يحزَنوا عليهم؛ فله الحمدُ سبحانه، وله الحِكمة البالغة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى ما أعَدَّه للشُّـهَداء، وحُسْـنَ مآبِ شُـهَداء أُحُدٍ؛ أثنى على الذين بقُوا أحيـاءً يُواصِلـون الجهادَ بعـد تلك الغزوة، رغـمَ ما أصابَهم مـن جِراحٍ وتَعَـبٍ -طاعةً لله ورسوله-؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ﴾ أي: أطاعُوا وانقادُوا ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ في الأمر بالخروج إلى الغَزْو، في اليوم التالي ليوم أُحُد، جهةَ حَمْراء الأَسَد؛ مطاردةً للمشرِكين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ ووقعَ بالمسلمين ما وقعَ، من الجِراح، والألم، والقَتْل. فلبُّوا النِّداء، بلا توانٍ ولا تباطُؤ.

و(القَرْح): أثر السِّلاح في البدَن، والجُرْح الذي اجتمع فيه القَيْح.

وقد نَدبَ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المسـلمين إلى النُّهوض في طلَـب العدُوِّ؛ إرهابًا لهم، وليريَهم أنَّ بهم قوَّة وجلَدًا -رغم ما أصاب المسلمين في أُحُد من جِراح وإصابات- وأمرَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألَّا يخرج معه إلَّا مَن حضرَ أُحُدًا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإجابـة والخـروج، علـى الرَّغـم ممّـا بهم من إصابـات وجِراح ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ العـذاب، بعدَمِ تخلُّفِهم وقُعودِهم -وأتـمُّوا العملَ على أكملِ وَجْهٍ؛ فهؤلاء لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ كبيرٌ، وأجرٌ جزيلٌ.

وروى البخـاري في صحيحه(١)، عن عائشـةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قالَـتْ لِعُـروَةَ: يا ابنَ أُختِي، كَانَ

---

(١) برقم (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨) مختصرًا.

أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ، لـمَّا أَصَابَ رَسُولَ الله ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ المُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟»، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ.

وفي هذه الآية من الفوائد:

ثناء الله على الصَّحابة رضي الله عنهم.

وفيها: فَضْل مَن خرجَ إلى غزوة حَمْراء الأَسَد.

وفيها: أنَّ الخروج إلى حَمْراء الأسد كان بأمرٍ من الله.

وفيها: الاستجابة لله ورسوله، مهما كان التعَب البدَنيُّ والنفسيُّ.

وفيها: عدم القعود بعد المُصيبة، والعمَل على تلافي آثارِها، والتَّغلُّبِ على نتائجها.

وفيها: تحدِّي المشرِكين بمواصَلة العمل والجهاد؛ حتى لا تهنأ نفوسُهم بأيِّ إنجاز.

وفيها: خِذلان الله للمشركين، الذين انسَحبوا بعد غزوة أُحُد، دون أن يستأصِلوا المسلمين، ويكرُّوا على المدينة -كما كانوا يتمنَّون-.

وفيها: استِعمال أساليب الحَرْب النَّفسيَّة مع الكفَّار، والقيام بالأعمال التي تُرْعِبهم، وتُبيِّن أنَّ المسلمين لا يزالون على استِعدادٍ كبيرٍ لمواجَهتهم.

وفيها: أنَّ القيام بالأعمال عند المُصيبة يمنَع من الاستِسلام لها، ويخفِّف من آثارِها.

وفيها: فضيلة الجَمْع بينَ الإحسان والتَّقوى، وأنَّ مَن اجتمعا فيه كان له أَجْرٌ عظيمٌ عند الله.

وفيها: أنَّ المصائِب مِحَكُّ الرِّجال.

وفيها: أنَّ الطَّاعة في وقت الشِّدَّة لها أَجْرٌ خاصٌّ.

وفيها: أنَّ المُصيبة البدَنيَّة والنفسيَّة لا تَحُول بينَ العبد وبين قيامه بمواصلة العمَل في نُصرة الدِّين.

وفيها: أنَّ الإحسان والتَّقوى يُعينانِ العبدَ على تحمُّل التكليف في وقت الشِّدَّة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾:

ولـمَّا كان أبو سُفيان -وكان مُشرِكًا- قد أغرى رَكْبًا لقيَهم في الطريق -بعد الرجوع من أُحُد- بإبلاغ المسلمين، أنَّه ومَن معه قد عزموا على الرُّجوع إلى المسلمين لاستِئصالهم، وأنَّه يجمع الجموع ليَكُرَّ عليهم، ووصلَ الخبرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد ذكرَ الله تعالى ما جرى من النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لـمَّا سمعوا الخبر.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أهل الإيمان ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وهم مَن بلَّغوا خبرَ أبي سفيان: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفَّار قريش ﴿قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ الجموعَ والجيوشَ، لقتالِكم واستِئصالكم؛ ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ أي: خافُوهم واحذَروهم، وارْجِعوا؛ لأنَّه لا طاقة لكم بهم.

﴿فَزَادَهُمۡ﴾ أي: زادَ المؤمنين ذلك الخبرُ والقولُ المنقولُ ﴿إِيمَٰنٗا﴾ وتصديقًا بوعد الله، وثقةً به، فلم يلتَفِتوا إلى التَّخويف، وثبَتوا.

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: كافينا أمرَ هؤلاء المشرِكين، وهو قادرٌ على رَدِّ شَرِّهم، وبَغيهم، وكَيدهم.

﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾: نتوكَّل عليه في أمورِنا كلِّها، ونلجأ إليه بالنصر على أعدائنا.

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾»(١).

وفي هذه الآية من الفوائد:

الثِّقة بالله تعالى، واليقين بوعده عَزَّ وَجَلَّ، وهذا يدعو إلى الثَّبات، ويدفَع نفوسَ المؤمنين إلى العَزْم والتصميم.

وفيها: فَضل التَّوكُّل على الله، واللُّجوء إليه في الشَّدائِد.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

وفيها: قوَّة إيمان النَّبيِّ ﷺ وأصحابه بربِّهم، وحُسن ظنِّهم فيه، وأنَّه يكفيهم جميعَ الشُّرور.

وفيها: أنَّ الكفَّار يستَعمِلون الحروب النَّفسيَّة في تخويفِ المسلمين، وتسريبِ الأخبار المُرعِبة إليهم، وأنَّ طريقة مُواجهة ذلك تكون بالتَّوكُّل على الله.

وفيها: أنَّ الإيمان يزيد، وينقُص.

وفيها: العَلاقة بينَ التَّوكُّل والإيمان.

وفيها: فَضْل الذِّكر العظيم «حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل»، واستعماله في وقت الشِّدَّة، وعند سماع الأخبار المُخيفة.

ولـمَّا أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أصحابَه عنِ النَّفْخِ في الصُّور، فقال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ، مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟»، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»[1].

وفيها: أنَّ المؤمنين إذا قويَ إيمانهم؛ لم تُرْهِبْهم جموعُ الكفَّار مهما كانت قوَّتهم.

وفيها: أنَّ الله وكيلُ عباده، وإليه يلجأون في الشَّدائدِ والمُلِـمَّات.

وفيها: إثبات (الوكيل) من أسماء الله تعالى، ومعناه: المتكفِّل بشُؤون عباده، وليس معناه: أنَّه يقوم بالأمرِ نيابةً عنهم.

وفيها: أنَّ (حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوكيل) أمانٌ لكلِّ خائفٍ؛ فهي تُذْهِب الرَّوع، وتُزيل الخَوفَ.

﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾:

ولـمَّا قال المؤمنون ذلك، وصدَقوا مع الله، وتوكَّلوا عليه، وفوَّضوا أمرَهم إليه سبحانه؛ كفاهم ما أهمَّهم، وردَّ عنهم بأسَ مَن أرادَ كَيْدَهم؛ فقال تعالى:

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: رجعَ الذين استجابوا لله ورسوله إلى بلدِهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سلامة وعافية، لم يلقَوا عدُوًّا ﴿وَفَضۡلٖ﴾ أَجْر وثواب، وما حصل من ربح التجارة.

قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «النِّعمة: أنَّهم سَلِموا، والفَضْل: أنَّ عِيرًا مرَّت -وكان في أيَّام الموسِم- فاشتراها رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فربِحَ فيها مالًا، فقسَمه بينَ أصحابه»[1].

وقوله تعالى ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ أي: لم يُصِبْهم ما يَسُوؤهم، لا في ذهابهم ولا في عودتهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: امتثلوا أمره، فنالوا رِضاه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ أي: صاحب مِنَّة كبيرة، فتفضَّل على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ برُجوعهم سالِمين مأجُورين.

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآيات نزلَت في غَزْوة حَمْراء الأَسَد.

وقال بعضُهم: بل نزلَت في غزوة بَدْر الصُّغرى -التي تُسَمَّى (بَدْر المَوْعِد)، أو (بَدْر الثانية)- ذلك أنَّ أبا سفيان قال للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بعد أُحُد: مَوْعِدك مَوْسِم بدر، حيث قتلتُم أصحابَنا، فأخذ المسلمون أُهْبة القتال، ورجع جيش قُرَيش! وأتَى المسلمون مَوْسِمَ بَدْرٍ -حسَبَ الموعِد- فلم يجدوا به أحدًا، فابتاعُوا؛ فذلك قولُه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من عاقبة التَّوكُّل على الله: السلامة والعافية.

وفيها: فَضْل الاستجابة لله تعالى ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: إثبات صفة (الرِّضا) لله تعالى، كما يليق بجلاله وعَظَمته.

وفيها: اجتماع خيرِ الدُّنيا والآخرة، لمن استجابَ لله، وتوكَّلَ عليه.

وفيها: أنَّ الله يُوَفِّق العبدَ للعمل الصالح، ثم يُثيبه عليه، وهذا محضُ فَضْلٍ منه عَزَّ وَجَلَّ.

وفيها: أنَّ أَجْرَ الغزو يحصُل لأصحابه، ولو لم يلقَوا عدوَّهم.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١٨). قال المحقق: وإسناده صحيح، تفسير ابن كثير، طبعة أولاد الشيخ.

وفيها: أنَّ المشركين جُبَناء؛ فحينما لحِقَهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه ولَّوا الأدبار هارِبين!

وفيها: أنَّ الله قد يجعل خيرًا كثيرًا فيما تَكرَهُه النَّفسُ، ويشُقُّ عليها.

وفيها: أنَّ المسلمين لـمَّا أطاعوا الله ورسولَه في حَمْراءِ الأسد؛ غَنِموا وسَلِموا، ولـمَّا عصَوا في غزوة أُحُد؛ أُصيبوا وهُزِمُوا.

وفيها: أنَّ رِبح التجارة إذا حصلَ في سفر الجهاد تَبَعًا؛ فإنه لا يُذْهِب أجرَه.

وفيها: أنَّ حصول النِّعمة والفَضْل يكون بالإيمان، والتوكُّل على الله، واتِّباع مرضاته.

وفي الآية: تحسيرُ مَنْ تخلَّف عن الغزو من المنافِقين، بأنَّهم لم ينالوا خيرًا، وقد فاتَتْهم النِّعمة والفَضْل.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾:

ثم بيَّن الله تعالى أنَّ أخبار التخويف التي نقلَها المشرِكون، إنَّما هي من كَيْد الشَّيطان؛ لتخذيلِ المسلمين.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أي: المثبِّط الذي نقلَ الخبرَ، وما نشأ عنه من التخويف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: مِن فِعل الشَّيطان وكَيْده ووَسْوَسته ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوِّفكم بأوليائه ويعظمهم في أعينكم؛ لتتركوا الخروجَ إليهم، وتجْبُنوا عن مُقاتَلتهم.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي: لا تتأثَّروا بهم، ولا تقعُدوا عن قتالهم، ولا تكترِثوا بالأقوال المنقولة لتخويفكم.

﴿وَخَافُونِ﴾ أي: ليكن خَوفُ الله دافِعًا لكم للجهادِ في سبيله، وعدمِ القعود عن مُقاتَلة أعدائه.

وقوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: مُصَدِّقين بالله، ووَعْدِه بالنصر، وتأمينِه عبادَه وحِفظِه لهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ من كيد الشَّيطان: تعظيم الأعداء في صُدور المؤمنين؛ ليخافوهم، ويترُكوا الجهاد.

وفيها: أنَّ كلَّ عدُوٍّ للمؤمنين، ومُـخَذِّلٍ لهم، ومثبِّطٍ لِهِمَمِهم، وناقلٍ لِـما يُخيفهم؛ هو من أولياءِ الشَّيطان وأعوانه.

وفيها: أنَّ من وسائل الشَّيطان: إرعابَ المؤمنين.

وفيها: أنَّ الشَّيطان يُهاجِم بأوليائه، ويستَعمِلهم في التخويف.

وفيها: أنَّ مَنْ يُثَبِّط المسلمين عن الجهاد؛ إنَّما هو من أتباع الشياطين.

وفيها: أنَّه لا يجوز تَرْك الجهاد لأجل الشائعات المُخيفة.

وفي قولـه تعـالى ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: دليلٌ عـلى أنَّه كلَّما قويَ إيمانُ الإنسـان بالله؛ قويَ خوفُه منه، وضَعُفَ خوفُه من أعدائه.

وفي الآيـة: النَّهـي عن الخـوف الطبيعي، إذا كان يـؤدِّي إلى تَرْك واجـب، أو فِعْل محرَّم؛ فالخوف قسمان:

الأول: خـوف عِبـادة، وهو خوف السِّرِّ. فهذا لا يجوز صرفُه إلَّا لله؛ فلو خافَ شـخصٌ من ميِّتٍ -مثلًا- لكان شِرْكًا.

والخـوف الثـاني: الخوفُ الطَّبيعـيُّ الجِبِلِّيُّ. وهو الذي يعتَري الإنسـانَ بسـبَبِ وجودِ ما يُخيف حقيقةً -كسَبْعٍ وعدُوٍّ-؛ فهذا لا يُلام عليه العبدُ، إلَّا إذا أدَّى إلى تَرْك واجب أو فِعْل محرَّم.

وهناك خوفٌ ثالث، وهو خوف الجُبناء، الذين رُبَّما يخاف الواحدُ منهم من ظِلِّه! وهذا أقرب إلى المرض، فيحتاج إلى علاجٍ.

وفي الآية: أنَّ مَن تولَّى الله؛ فإنَّه سيُجاهِد في سبيله، ويكون له من الله نصرٌ وحِفظٌ.

وفيها: أنَّ التصديق بوَعد الله يثبِّت في الجهاد.

وفيـهـا: أنَّ أسـباب الخوف إذا قامَت؛ فعـلى العبد أن يُواجِهَها بالإيـمان بقوَّة الله وقُدرته -التي لا يقف أمامها شيء-.

وفيها: أنَّه لا يخاف الشيطانَ إلا وليُّ الشيطانِ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾:

ولـمَّا نهى الله تعالى عبادَه المؤمنين عن الخوف من أولياء الشَّيطان؛ نهى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحُزن على حالِ مَن سارع في الكُفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ولا يُهِمَّنْك ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يُبادِرونه، ويدخلون فيه بسُرعة، ويجمعون الجُموع لمحاربَتك ومَن معك؛ فـ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: مهما فعَلُوا، وجمَعُوا، وكادُوا؛ فلن يُلحِقوا ضرَرًا بالله تعالى، ولن يُبطِلوا دينَه، ولن يكْبِتوا نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه؛ بل إنهم لا يضُرُّون إلَّا أنفُسَهم.

قيل: المقصود كفار قريش، وقيل: المنافقون، ويؤيده آية المائدة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي: نصيبًا. و(الحظُّ) في اللُّغة: هو النَّصيبُ، من شيءٍ نافع ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في الجنَّة، وذلك لأجل كُفرهم وطُغيانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عقوبةٌ شديدةٌ في النَّار، وبئس المصير.

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللهُ: «هم المُنافِقون»(١)، وكذا قال في الآية التي تليها.

وفي هذه الآية من الفوائد:

شَفَقة النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكفَّار، وحِرْصه على هدايتهم.

وفيها: أنَّ الدَّاعية لا ينبغي أن يقعُد به الحزنُ، وتتسلَّط عليه الغُموم؛ بسبَب مخالفَةِ الآخَرين للحَقّ، وعِصيانِهم، وتمرُّدِهم.

وفيها: أنَّ حِكمة الله اقتضَت حِرمانَ الكفَّار من الخير في الآخرة، ودخولَهم في العذاب الأليم؛ إذا عاندَوا وأصرُّوا على الكُفر، وماتوا على ذلك.

وفيها: أنَّ التَّأمُّل في حِكمة الله، يُعين على علاج الغَمِّ الذي يُصيب نُفوسَ الدُّعاة؛ بسبَب مُسارعة كثير من الناس في الكُفر.

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٥٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٢).

وفيها: اجتِهاد كثير من الكفَّار في حَرْبِهم للإسلام، ومُسارعتهم في ذلك، وحِرْصهم على التَّمسُّك بالكُفر، والمقاتَلة من أجله.

وفيها: أنَّ الإيمان بتعذيب الكفَّار في الآخرة، يخفِّف على نفوس المؤمنين ما يلقَونه من كَيدهم.

وفيها: محبَّة الدَّاعيةِ المسلمِ الخيرَ لجميع الخَلْق.

وفيها: أنَّ بعض سُفَهاء بني آدم يُسارِعون فيما يضُرُّهم، ويُهْلِكهم.

وفيها: أنَّ الله تعالى لا تضُرُّه معصيةُ العاصين ولا كُفرُ الكافرين، كما لا تنفعُه طاعةُ الطائعين؛ كما قال في الحديث القُدْسِيّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(١).

وفيها: أنَّ مَن يُسارِع مع الغير، أشدُّ اجتهادًا ممَّن يُسْرِع وحدَه. ولذا يتعاونُ الكفَّار، ويتناصَرونَ، ويجتَمِعونَ لنَشْرِ كُفرهم، والقتالِ من أجله.

وفيها: أنَّ الكُفر أعظمُ سبَبٍ للحِرمان من الخير.

وفيها: أنَّ الكافر قد يكون له حظٌّ في الدُّنيا، ولكن لا يُمكِن أن يكون له حظٌّ في الآخرة؛ بل ليس له إلَّا العذاب الأليم.

وفيها: تسلية الله لنبيِّه وسيِّد المؤمنين ﷺ، والاعتِناء بشُؤونه، وتبشيره، وإلقاء الطُّمأنينة في نفسه، بأنَّ دينه باقٍ لا يزول -مهما كادَ الكفَّار-.

وفيها: أنَّ بعض الناس يقع في الكُفر سريعًا؛ لافتِتانه به، وحِرْصه عليه؛ ولذا جاء التعبيرُ في الآية بـ(المسارَعة في الكُفر)، وهو أبلَغُ من (المسارعة إلى الكُفر)؛ من جهة الانغِماسِ التامِّ، والتَّلبُّسِ الكاملِ.

وفيها: ذِكرُ الإرادة الكونيَّة لله تعالى. وأما النوع الآخر من نوعَي الإرادة هو: الإرادة الشرعيَّة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

وقـد تجتَمِع الإرادتـان -كوقوع هداية مؤمِن وطاعـة مُطيع- وقد تقـع الإرادة الكونيَّة دون الشرعيَّة -كإرادته كُفرَ كافرٍ ومعصيةَ عاصٍ-.

وقـد تنفـرِد الإرادة الشرعيَّـة، كإرادة الله إيمانَ الكافـر أو طاعةَ العاصي، مـع أنَّ الكفر والمعصيـة واقـعٌ ولا بُدَّ؛ فكونها محبوبة لله فهي شرعيَّة، وكونها لم تقع -مع أمرِ الله بها ومحبَّتِه لها- دليلٌ على أنَّها شرعيَّة فحسب؛ فهي مُرادة محبوبة لم تقع.

وقد تنتَفِي الإرادتان، ككُفر المؤمِن الذي ماتَ على الإيمان؛ فهذا لا يحبُّه الله، ولم يقع لهذا المؤمن.

وفيهـا: أنَّ النفـوس الكامِلة قـد يعتَريها ما يعتَري النَّفسَ البشريَّة، من الحُـزن، والهَمِّ، والغَمِّ.

وفيهـا: تسـلية الدُّعاة، بألَّا تذهبَ أنفُسُـهم حسراتٍ عـلى مَن ضلَّ وكفرَ، ولا يَبْتَئِسـوا بـما يصنَعـه هؤلاء من إيذائِهم وحَرْبِهم؛ فـإنَّ المؤمن إذا ثبتَ سـينجُو، والكافر -مهما كادَ- سيَهْلِك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾:

ولـمَّا ذكـرَ الله تعالى عاقبةَ المُسـارِعينَ؛ ذكـرَ بعدَها عذابَ مَـنِ اختارَ الكُفـر، وقدَّمه، وآثرَه؛ فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: قدَّمـوه عليه، واختارُوه، وتركُوا الإيمان؛ فشبَّه الكُفر بالسِّلْعة، والكافر بالمشتري الذي يُفضِّل، ويختار.

و(الإيمان) لغةً: هو التصديق، وشرعًا: هو الإقرار، المستلزِم للقَبول والإذعان، ويشمل: اعتقاد القَلْب، وقول اللِّسان، وعمل الجوارح؛ فالإيمان قول وعمل واعتقاد.

فكان جـزاء هؤلاء الكفَّار، أنَّهـم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ بتَفضيلهـم الكُفرَ على الإيمان الـذي يُحِبُّه الله، وتكـرار ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ في الآية التي قبلها عـن المنافقين وهذه عن الكفار، وقيل التكرار للتأكيد، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ موجِع، يخلُص إلى قُلُوبهم.

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ الذي يشتري الكُفر بالإيمان؛ راغبٌ فيما أخذَ، مُعرِضٌ عمَّا تركَ.

وفيها: أنَّ الكافر لا يقدِر على أن يضُرَّ الله مِثقال ذرَّةٍ؛ لأنَّ قوله ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةٌ في سياق النفي بـ (لن)؛ فهي تفيد العُموم، يعني: لا يضُرُّ اللهَ قليلًا، ولا كثيرًا.

وفي الآية: غَباء الكفَّار، وحماقتهم؛ لأنَّهم سيَرَون في الآخرة أنَّهم كانوا مَغبونينَ في اشترائِهم الكُفرَ في الدُّنيا، ومن عادة المغبون أن يتألَّم؛ ولذلك ناسبَ أن يكون لهم في الآخرة عذابٌ أليمٌ.

وفيها: شِدَّة عذاب الراغِب في الكُفر.

وفيها: أنَّ أخذ الكُفر بدلًا عن الإيمان، أخسرُ صفقة على وَجْه الأرض.

وفيها: أنَّ تقديم الكُفر على الإيمان انتِكاسٌ للفِطرة؛ لأنَّ الأصل في البشر أنَّ الله فطرَهم على الإيمان، فإذا كفرَ أحدُهم؛ فقد قدَّم الكُفر -الذي زيَّنه له إبليس- واختارَه على الإيمانِ الذي فطرَه الله عليه.

وفي الآية -مع التي قبلها والتي بعدها-: تكريرٌ للتأكيد.

وفيها جميعًا: أنَّه لـمَّا تعدَّدت صفاتُ الكفَّار، وتنوَّعت أعمالهم؛ جعلَ الله تعالى لهم أنواعًا مختلفةً من العذاب:

فجعل للَّذين (يُسارِعون في الكُفر) عذابًا (عظيمًا).

وللَّذين (اختارُوا الكُفر وقدَّموه) عذابًا (أليمًا).

وللَّذين (كفَروا، واستحبُّوا الحياة الدُّنيا، وازدادُوا من عمل الكُفر) عذابًا (مُهينًا).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حُكمَ المُسارِعين إلى نُصرةِ الكُفر والدِّفاعِ عنه، ومُقاتلةِ المؤمنين لأجله، وأرشد أنَّه لا يُؤْبَه بهم؛ لأنَّهم يحارِبون الله، والله غالبٌ.

وذكرَ عاقبةَ تقديم الكُفر على الإيمان؛ بيَّن بعد ذلك أنَّ رغبة الكافرين في الحياة ليست خيرًا لهم، إذا استمرُّوا على الكُفر؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: ينهى الله الكفَّار أن يظنُّوا ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أنَّ إمهالَنا لهم، بتأخيرِ الأَجَل وإطالة العمر، وعدمِ مُعاجَلتهم بالعقوبة في الدُّنيا ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ وفي مصلحتهم.

كلَّا؛ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ونؤخِّرهم، ونُمَتِّعهم برغَد العيش؛ ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ وذنبًا وطُغيانًا في أنفُسهم، وإضلالًا لغيرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُذِلُّهم الله به، كما استكبَروا في الأرض، وعلَوا فيها.

وقد ذكَرَ الله تعالى في آيات أخرى، أنَّه يأخذ الكفَّار أولًا بالبأساء والضَّرَّاء لعلَّهم يتضرَّعون. فإذا لم يُؤْمِنوا يفتح عليهم من السَّرَّاءِ وأبوابِ كلِّ شيء؛ حتى إذا فَرِحوا بما أُوتُوا؛ أخذَهم بغتةً وهم لا يَشْعُرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٥].

وهذا الإمهال والاستِدراج من كَيْدِ الله المتين؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقد قال عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما من نَفْسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ، إلَّا والموتُ خيرٌ لها»، وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، وقرأ: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[1].

وفي هذه الآية من الفوائد:

أنَّ تأخير الله للكافر ليس عِنايةً به؛ بل ليزدادَ إثمًا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٩)، والطبري في تفسيره (٧/ ٤٢٣).

وفيها: أنَّ إمهال الكفَّار من أسباب غُرورهم، واستِرساِلهم في فُجورهم.

وفيها: أنَّ من الناس مَن يزداد كُفرًا بطول العُمر.

ويؤخَذ من مفهوم الآية: أنَّ زيادة عُمر المؤمن خيرٌ له؛ ليزدادَ من الطاعات، وتزكوَ نفسُه بالاستِمرار في عمل الصالحات، فتكثُرَ حسناتُه، ويتضاعفَ أجرُه عند ربِّه، وقد سُئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ النَّاسِ خيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، قيل: فأيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[(١)].

وفي الآية: أنَّ إمهال الكافرين والفاسِقين ليس عَبَثًا؛ وإنَّما هو لِحكمة من الله.

وفيها: أنَّ على الإنسان أن يعتبِر في عُمره: هل أمضاه في طاعةٍ؟ وهل تزوَّد فيه من الخير؟ وليحذَر من الانشِغال بالمعاصي.

وفيها: أنَّ الإنسان قد يغترُّ بظاهر الحال، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفيها: أنَّ الجزاء من جِنس العمل؛ فالله تعالى يُهين ويُذِلُّ في الآخرة مَن تكبَّر وعلا في الدُّنيا.

وفيها: تقريع الكفَّار العائِدين من أُحُد، بأنَّ سلامتهم وعودتهم إلى مكة ليستَ في صالحهم -كما ظنُّوا-؛ بل هي شرٌّ لهم، إذا ازدادوا كُفرًا، بمُعاندةِ الحقِّ والاستِمرارِ في مُحاربة أهله.

وفيها: تنبيه مَنْ عاش من الكفَّار، وسَلِمَ في رَغَد العيش، أنَّ هذا ليس إكرامًا من الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾.

وفيها: أنَّ العطاء في الدُّنيا لا يدُلُّ على رِضا الله عن صاحبه.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٧).

عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾:

ثُمَّ بيَّن اللهُ تعالى حِكَمًا عظيمةً أخرى، لِـمَا حصلَ للمسلمين في أُحُدٍ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: يتركهم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾: مِنَ اختلاطِ المنافِقين بهم، ووجودِ الكُفر في بعضِ القُلوب ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾، أي: يُفرِّق ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: المنافِق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: المؤمن؛ فيزول الالتِباسُ، وتظهرُ الحقائقُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «فيَميزُ أهلَ السَّعادةِ منْ أهلِ الشَّقاءِ»[1]، وقال قتادة: «يُميِّز بينهم بالجهادِ والهجرةِ»[2].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنَّه استأثرَ بعِلْمه؛ فلا يكْشِفه لكم سَلَفًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي﴾ أي: يختار ويستخلص ويختصُّ ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ فيُطْلِعه بالوحي على بعضِ الغَيب الذي يشاؤه، ومنْ ذلك: أسماءُ المنافِقينَ.

وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾: بوجوده، ورُبوبيَّته، وإلهيَّته، وأسمائه وصفاته ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: تصديقًا بالوحي الذي أخبَروا به عن الله، وعملًا بما جاءُوا به من شَرْع الله.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ بما جاء من الغَيب بقُلُوبكم، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ بجوارحكم، فتمتَثِلوا أوامرَ الله، وتجتَنِبوا نواهيه؛ ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ وثوابٌ جزيلٌ على ذلك.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ -(وهي من كنوز القرآن)-:

أنَّ الشَّدائِدَ مِحَكُّ صِدقِ الإيمان.

وفيها: أنَّ الله لا يترُك المنافِقين المندَسِّين وسْط المؤمنين، دونَ كَشْف أحوالهم، وأنَّ

---

(١) دلائل النبوة -للبيهقي (٣/ ٧٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٢٥).

حِكمته تعالى تمنَع بقاءَ الأمور مختَلِطة؛ بل إنَّه يُجري من الأحداث ما يَكْشِفُ الخفايا، ويبيِّنُ المنافِق منَ المؤمن.

وفيها: أنَّ الله تعالى قد يُبقِي الأمورَ مُلتَبِسةً بعضَ الوقت؛ لِحكمة جليلةٍ، كتمحيصِ الأمورِ، وإجراءِ الأحداثِ التي يحصُل بها امتحانُ العِباد.

وفي الآية: أنَّ الله تعالى يَعْقِد أسبابًا من المِحْنة؛ ليُظْهِر أولياءَه، ويَفْضَحَ أعداءَه.

وفيها: أنَّ المِحَن تكشِفُ الصَّابرينَ، وتُميِّزُهم عن المنافِقينَ.

وفيها: فَضْلُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الَّذين ظهرَ إيمانُهم وثباتُهم وطاعتُهم يومَ أُحُدٍ. وهُتِكَت فيه أستارُ المنافِقين؛ فظهرَت مخالفتُهم ونُكوصُهم وخيانتُهم.

وفي الآية: الرَّدُّ على المنافِقين، الذين قالوا: «إنْ كانَ محمَّدٌ صادِقًا؛ فليُخبِرنا بمَن يؤمن به منَّا ممَّن يكفُر به»؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآية. وفي هذا: إثباتُ نبوَّة النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها: أنَّ الحقائق تُعرَف بالقرائِن، والمواقِف، وأفعالِ الأشخاص عند الشَّدائِد.

وفيها: أنَّ الشَّدائِد تُبيِّنُ للمؤمنينَ حقائقَ أنفُسِهم، فيطمئنَّ المؤمنُ لسلامةِ حالِه وصِحَّةِ عمَله، وتُظهِر أيضًا حالَ المنافِق؛ فيحذَرُه أهلُ الإيمانِ، ولا يُوَلُّونه عملًا، ولا يأخذونَ بكلامِه، ولا يعتَمِدون على رأيه؛ لأنَّه عدُوٌّ.

وفيها: أنَّ الله لا يُطْلِع عامَّة الناس على الغَيب، وليس من طبيعة البَشَر معرفةُ الغَيب.

وفيها: أنَّ انكِشاف الحقائقِ، لا يكون إلَّا بشدائِد الامتِحاناتِ.

وفيها: أنَّ معرفةَ بعض الغَيب مَنصِبٌ جليلٌ، لا يُؤتاه إلَّا مَن شرَّفه الله تعالى بذلك.

وفي الآية: قَطْع أملِ النفوس من المعرفة اليقينيَّة بالغَيب، إلَّا ما جاء عن طريق الوحي؛ وبذلك يوفِّرُ المؤمنُ جُهدَه، ووقتَه، ومالَه منْ أن يُصرَفَ في الدَّجَلِ والشَّعوذةِ، وإتيانِ الكُهَّانِ، ويدَعُ الاشتغالَ بما يستحيلُ معرِفتُه.

وفيها: التنبيه على احترامِ الرُّسُل، وإنزالِهم منازِلَهم؛ لأنَّنا ما عَلِمنا الشَّرْعَ وبعضَ الغَيب إلَّا من طريقهم.

وفيها: الارتباطُ بينَ الإيمانِ والتَّقوى، واستِلزام كلٍّ منهما للآخر.

وفيها: أنَّ الله تعالى يُبيِّنُ لأهلِ الإيمانِ ما تدعُو حاجتُهم إلى بيانه؛ فالمؤمن معروف والكافر معروف، لكنَّ العدُوَّ الخفيَّ المشتبِه أمرُه هو مَن يحتاجون إلى معرفته وتبيينه.

وفيها: أنَّ بواطنَ القُلُوب وحقائقَ ما في الصُّدور؛ مِنْ الغَيب الذي لا يعلمه إلَّا الله.

وفيها: أنَّ الله يبتلي عبادَه؛ ليستَخرِجَ ما في صُدورهم، ويُظْهِره للعلَنِ.

وفيها: أنَّ الله راضٍ عن أنبيائه ورُسُله.

وفيها: أهميَّة تحقيق الإيمان، والانقياد لله، والإذعان، وعدَم الاعتراض على القدَر والشَّرْع، وأنَّه إذا نزل الابتلاءُ بالعِباد؛ فالواجب على المسلم الثبات والانقياد لأمر الله، وأن يُريَ ربَّه من نفسه خيرًا.

وفيها: أنَّ أعيانَ المنافِقينَ إذا كانوا يُعلَمون بالوحي يقينًا -في زمن النَّبيِّ ﷺ-؛ فإنَّهم ينكَشِفون بعد انقطاعِ الوحي بالقرائن، ولَحْن القول، ومواقف الأشخاص.

وفيها: انقِسامُ النَّاس إلى خبيثٍ، وطيِّبٍ، -والخُبْثُ والطِّيبُ في النُّفوسِ متفاوتٌ-؛ فالبَعض يغلِب عليه الخُبث، وآخَرون يغلِب عليهم الطِّيب.

وفيها: أنَّ الله يفضَح ما يقوله المنافِقون، إذا غابوا عن الناس.

وفيها: أنَّ الله يعذِّبُ المنافِقين في الدُّنيا -بالفضيحة وغيرها- وعذاب الآخرة أشَدُّ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾:

ولـمَّا حرَّضَ الله تعالى المؤمنين على بَذْل النُّفوس في سبيله؛ أعقبَ ذلك بالتحريض على بَذْل الأموال في ذلك، وذمَّ مَن أملَى لهم -ليزدادوا إثمًا- والمنافِقين في بُخلهم، وذكرَ عاقبتَهم في الآخرة؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا يظُنَّنَّ ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ويمنَعون حقَّ الله -عُمومًا-. و(البُخل): هو منع الحقِّ الواجب ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أعطاهم ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وخيره. و(الفَضْل)

في الأصل: هو الزِّيادة ﴿هُوَ خَيۡرًا لَّهُم﴾ أي: ليس جمعهُم المالَ، واستمتاعُهم به، وادِّخارُه، ومَنْعُهم حقَّ الله فيه؛ خيرًا من إخراجِ الحقِّ والبَذْلِ والعطاءِ.

﴿بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ﴾ وضررٌ عليهم في الحقيقة؛ لأنَّ أموالهم ستَزول عنهم، وهم سيزولون عنها، ويبقى وَبالُ البُخْل عليهم.

فالجزاء: أنَّهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أي: ستُجعَل أموالهم التي منَعوها طَوقًا يُحيط بأعناقِهم، ويُلازِمهم، فيُعَذَّبون بها يومَ الحساب.

كما جاء في الحديث: «مَنْ آتاهُ الله مالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يومَ القِيامَةِ شُجاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يومَ القِيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْني: بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ الآية[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: له ما فيهما، ممَّا يتوارثه أهلُها، من مالٍ وغيره، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه، كما قال تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا﴾ [مريم: ٤٠].

و(الميراثُ): انتِقال المال من سابقٍ إلى لاحِقٍ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: مُطَّلعٌ على أعمالِكم، ونيَّاتِكم وضمائرِكم، ومَنْعِكم وعطائِكم، فيُجازيكم على كلِّ ذلك.

وفي هذه الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

مضرَّة البُخل في الدِّين والدُّنيا والآخرة: ففي الدِّين بنَقْصه، وفي الدُّنيا بالسُّمعة السيِّئة ونحوها، وفي الآخرة بالعذاب.

وفيها: عدمُ الاغتِرارِ بتكثيرِ المالِ، وحَبْسِه، وزيادتِه.

وفيها: مُعاقبة البخيل يومَ القيامة بجزاءٍ من جِنس عمله؛ فالثُّعبانُ -الذي يتحوَّل إليه مالُه- يبدأ بقَضْم يدِه المغلولة التي بَخِلَت!

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣).

وفي الآية: تحريم مَنْعِ الواجبات الماليَّة، سواءً كانت زكاةً، أو نفقةً، أو ضيافةً، أو إطعامَ جائع مُشرِفٍ على الموت، أو صدًّا لعدُوٍّ يجتاح البلد، أو إنفاقًا على أمرٍ ضروريٍّ لا يقدِر على إزالته إلَّا صاحبُ المال، أو أيِّ بَذْلٍ واجبٍ للمال.

وفيها: انفراد الله تعالى بالسَّماواتِ، والأرض، بعد فَناء الخَلْق.

وفيها: أنَّ إنفاقَ المال في سبيل الله؛ خيرٌ من التمتُّعِ به في اللَّذَّات، وادِّخارِه لدفعِ الغوائِل والمصائِب والآفات.

وفيها: أنَّ ما هو ميسورٌ في الدُّنيا -كبذل المال- سيكون معسورًا في الآخرة؛ فلْيُبادِر العبد.

وفيها: أنَّ سُوء العمل يُحيط بصاحبه يومَ القيامة، ويُهلِكه، وأنَّ التطويق في التعذيب حقيقيٌّ.

وفيها: وجوب بَذْلِ ما أفاء الله على العبد من فَضْلٍ؛ كمالٍ، وجاهٍ، وعِلْمٍ، وقوَّة، وراحةٍ، ونحوها.

وفيها: أنَّ كلَّ مالٍ وفَضْلٍ في السماء والأرض لا يستَقِرُّ في يد أحد، ولا ينفَرِدُ به إلَّا ربُّ العالمين.

وفيها: بقاء المُلك لله وحدَه، وتحوُّل جميع الممتلكات إليه.

وفيها: تحفيز الناس للإنفاق، بكون المال عاريةً مستَرَدَّةً، خارجةً عن مُلكهم، وراجعةً لله.

وفيها: أنَّ العاقل لا يَسْتَبْقي ما يفنَى.

وفيها: أنَّ العطاء خيرٌ، والمنع شرٌّ.

وفيها: مُعاقبة البخيل بنقيضِ مقصوده؛ فإنه يظُنُّ أنَّ ما يبخَل به سيبقَى له، وهو في الحقيقة سيخرج منه.

وفيها: أنَّ أسرارَ الناس -بما فيها: ممتلكاتهم وأرصدتهم الماليَّة- معلومةٌ عند الله، وهو مطَّلِع عليها.

وفيها: عدم الاستجابة لداعِي الشَّيطان، الذي يقول للعبد: لا تُنفِق حتى لا يفنَى المال!

وفيهـا: عـدم الاغترار بما يحصُل للإنسـان من مـالٍ أو متـاعٍ؛ لأنَّه من إيتـاء الله له؛ فهو مَصدَرُه ومالِكُه على الحقيقة.

وفيها: أنَّ كَنز المالِ: سببٌ للعذابِ، وقد يضطر البخيلُ للإنفاقِ منه ببلايا يبتَليه الله بها.

وفيها: أنَّ الرَّصيدَ الحقيقيَّ للإنسانِ، هو: ما أنفقَه في سبيل الله.

وفيها: حماقة البخيل، الذي يظُنُّ أنَّ كَنز المال سيُبقي المالَ، ولو أرادَ بقاءَه حقيقةً لأقرضَه ربَّه.

وفيها: أنَّ ادِّخار المال وكَنزَه ليس مذمومًا، إذا أخرجَ حقَّ الله فيه.

وفيهـا: أنَّـه ينبغـي على مَـن يتـولَّى أمـورَ النـاس أن يُلْزِمَهـم بالواجبـاتِ، ويُرَغِّبَهم في المستحَبَّاتِ، ولا يُلزِمهم بما لا يجب عليهم شرعًا.

وفيها: تحريضُ العبدِ على الإنفاقِ؛ لكونِه سيُفارِق مالَه.

وفيها: أنَّ إيتاءَ الله للعبد لا يدلُّ على رِضاه عنه.

وفيها: أنَّه لا أمرَ وسَطٌ بينَ الخيرِ والشرِّ؛ فإمَّا أنْ يكونَ الشَّيءُ خيرًا، أو شرًّا.

وفيها: فضيحة البخيل بحقِّ الله في أرض المَحْشر، حينما يرى عذابَه الأولون والآخِرون، وهو يَفِرُّ من كَنزه.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى كَيْد المشركين في مُحارَبة المسـلمين بالسِّـلاح؛ أتبعَه بذِكر شيءٍ من كَيد اليهود في مُحارَبة المسلمين، بالتشكيك وإلقاء الشُّبُهات.

وذكَرَهـم الله عَزَّوَجَلَّ بعـد ذمِّ البُخـل؛ لأنَّهم هم أهـلُ البُخْل بالمال، وأهـلُ البُخْل بالعِلْم؛ فكتموا صِفة نبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسَعَوا في قَتْله -كما قتلُوا الأنبياء من قبل-.

فلـمّا تحبَّب الله تعالى إلى عباده المؤمنين، بتسـميته صَدَقاتهم (قَرْضًا)؛ استغلَّ اليهودُ ذلك في سَبِّ الله تعالى ووَصْفِه بالفَقر؛ فقال عَزَّوَجَلَّ -حاكيًا قولهم ورادًّا عليهم-:

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ وعَلِـمَ، وأحصى ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ﴾ -وهم أحبار اليهود- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ ومُحتاجٌ إلينا ﴿وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ لا نحتاجُ إليه!

سببُ نزولِ الآيةِ:

قـالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ قالتِ اليهودُ: يا محُمَّدُ، افتقرَ ربُّك، يَسـألُ عبادَه القَرْضَ؟! فأنزلَ الله: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ الآية»[1].

ويـروى عن ابن عباس أنه قال: دخـل أبوبكرٍ الصّدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بيت المدارس، فوجد من يهود ناسًـا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له فنحاصٌ، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبرٌ يقال له أشيع فقال أبوبكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لفنحاصٍ: ويحك يا فنحاص، اتّق الله وأسـلم، فوالله إنّك لتعلم أنّ محمّدًا رسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التّـوراة والإنجيـل، قال فنحـاصٌ: والله يا أبا بكرٍ ما بنا إلى الله من فقـرٍ، وإنّه إلينا لفقيرٌ، ومـا نتـضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنّا عنـه لأغنياء، ولو كان عنّا غنيًّا ما اسـتقرضنا أموالنا كـما يزعـم صاحبكم، ينهاكم عن الرّبا ويعطيناه، ولـو كان غنيًّا عنّا ما أعطانا الرّبا، فغضب أبوبكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فضرب وجه فنحاصٍ ضربةً شـديدةً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدوّ الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاصٌ إلى رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا محمّد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكـرٍ: مـا حملـك على مـا صنعت؟ فقال: يا رسـول الله إنّ عـدوّ الله قال قـولاً عظيـمًا، زعم أنّ الله فقيرٌ، وأنّهم عنه أغنياء، فلمّا قال ذلك غضبت لله ممّا قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاصٌ، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاصٌ ردًّا عليـه وتصديقًا لأبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، وفي قـول

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٦٠).

أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

وقولُه تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ أي: منْ هذه المقالةِ الشَّنيعةِ، ونُثْبِته في صُحُف

ملائكتِنا ونَحفظُه؛ لنُقرِّرَهم به يومَ القيامة، ونعاقبَهم عليه، وعلى جريمتهم الأخرى، وهي: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ فقد اعتدَوا على حقِّ الله، وعلى حقِّ أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم يعلَمون شناعةَ جريمةِ قَتْلِ الأنبياءِ، فسنُعاقِبُهم على أقوالِهم وأفعالِهم.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وباشِروه، وادخُلوا أبواب جهنَّم، في العذابِ الأليمِ الشَّديدِ، المُحْرِقِ. و(الحَريقُ) في اللُّغة: هو النَّار المُضطَرِمة ذات اللهب.

وفي هذهِ الآيةِ منَ الفوائدِ:

تهديدُ الله لليهودِ، بأنَّه سَمِعَ كلامَهم، وكتَبتْه ملائكتُه.

وفيها: أنَّ الله يُدْرِك الأصواتَ مهما خفيَتْ.

وفي الآية: مثالٌ لسَمْع التَّهديدِ، بخلافِ سَمْع التأييد؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وفيها: جُرأة اليهود على الله، مع تكبُّرهم؛ فهم يَصِفون الله بالنَّقْص وأنفُسَهم بالكمال! ويجمَعون في أفعالهم بينَ الاعتِداء على مقامِ التوحيد ومقامِ الرِّسالة.

وفيها: أنَّ دَأْبَ اليهودِ، هو: انتِهازُ ما يظُنُّونه فُرصةً؛ لإلقاء الشُّبُهاتِ بينَ المسلمين، وأنَّ معرفةَ أهلِ الإسلامِ بمعاني ما أنزلَ الله؛ يُفوِّت على اليهودِ غرضَهم هذا.

وفي الآية: استعمالُ الكتابةِ للإثباتِ.

وفيها: أنَّ الكتابةَ تُقيمُ الحُجَّةَ عند المُحاسَبةِ.

وفيها: أنَّه يجوزُ نِسبةُ الفِعْل لجماعةٍ، ولو كانَ الفاعلُ بعضَهم، إذا كانوا مُقرِّين به،

(١) رواه الطبري (٧/ ٤٤١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧)، وإسناده ضعيف.

وراضينَ عنه، أو مشـارِكين ومُعينين؛ كما دلَّ عليه حديثُ: «إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ؛ مَنْ شَـهِدَهَا فَكَرِهَهَا -وفي رواية: أَنْكَرَهَا- كَانَ كَمَنْ غَـابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَـهِدَهَا»(١)، وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن العلاء بن بدر أنه سُـئِل عن قولـه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهـم لم يدركوا ذلك (أي اليهـود في العهد النبوي) فقال: بموالاتهم مَن قتلَ الأنبياء.

وفيهـا: مُقابلَـة المجرِمِ بـما يُماثِل جريمتَه؛ فكـما أنَّ اليهودَ جمَعـوا في جريمَتِهم بينَ القولِ والفِعْل؛ فقد جمعَ الله عليهم في العذابِ بينَ القولِ والفِعْل.

وفيها: شَـناعةُ جَريمةِ عُلماءِ اليهودِ، مع أنَّ الأصلَ في عالمِ الدِّينِ: أنْ يكونَ أشـدَّ توقيرًا وتعظيمًا وخشـيةً لله منْ سـائرِ النَّـاسِ، ولكِنَّ عُلماءَ اليهـودِ وأحبارَهم كانوا أشـدَّ كُفرًا منْ عامَّتِهم، وأكثرَ استهزاءً بالله تعالى منهم!

وفيهـا: أنَّ اليهودَ مترسِّـخٌ فيهم الكُفـرَ، وأنَّ مَنْ قتلَ الأنبياءَ؛ فليس بمُسـتَغْرَبٍ منه أنْ يفتريَ على الله، ويَشْتُمَه.

وفيهـا: أنَّ كُفرَ اليهـودِ، كانَ بالقولِ، والفِعْل؛ فسـبُّوا الله تعالى واتَّهمُـوه بالفَقرِ، وقتلوا أنبياءَه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد حاولوا قَتلَ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أكثر من مرَّة؛ كما في قِصَّة الشَّاةِ المسمومةِ، وفي قِصَّـةِ خـروجِ ثلاثةٍ منَ اليهودِ قد اشـتملوا على الخَناجِرِ، وأرادُوا الفَتْكَ بهِ -في سـبَب غزوة بني النَّضير-.

وفيها: أنَّ التَّعذيبَ بالإحراقِ بالنَّار حقيقيٌّ؛ ولذلك فإنَّهم يذوقونه، وهذا أشدُّ منْ مجرَّد الإحساسِ.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢﴾:

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تعالى سبَب هذا العذابِ الشَّديدِ لهؤلاء اليهودِ؛ فقال:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحريـق ﴿بِمَا﴾ بسـببِ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مـا عَمِلْتُمـوه، والآثـامُ

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩).

والجرائِمُ، تُكتسَب باليد -كالقَتْل والبطش- وبالرِّجلِ، واللِّسان، والفَرْجِ، والعين، وغيرها. وإنَّما ذكر (الأيدي) تغليبًا؛ لأنَّ أكثرَ الجرائمِ تُرتكَب بها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذي ظُلْمٍ لخَلْقِه، لا في قليلٍ، ولا كثيرٍ، كما قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

نَفْيُ الصِّفاتِ المذمومةِ عنِ الله، فكما نُثبِت الكمالَ لله تعالى؛ فإنَّنا نُنَزِّه عَنْه ما لا يَليقُ به.

وفي نَفْيِ الظُّلْم عنِ الله: تَطمينٌ للخَلْقِ، الَّذينَ يذوقونَ ظُلْمَ بعضِهم لبعضٍ في الدُّنيا.

وفي الآية: إطلاقُ (البعضِ) على (الكُلِّ)؛ كما في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: بسببِ ما اقترَفتموه، وعَمِلتُموه بكلِّيتكم، و(الأيدي) منْ وسائلِ العمَل.

وفيها: أنَّ تَرْكَ الظُّلْمِ اختيارًا -مع القُدرةِ عليه- هو نوعٌ مِنَ المَدْحِ، ونفيُ الظُّلم عنِ الله؛ ليس لعدَمِ قُدرتِه عليه -حاشا وكلا-؛ بل لعدَمِ رضاهُ بِه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾:

ولـمَّا ذَكَرَ الله تعالى موقفَ اليهودِ مِنْ ربِّهم في شَتْمِهم له، وموقفَهم من أنبيائه في قَتْلِهم لهم؛ أتْبعَ ذلك بِذِكرِ موقِفهم منْ رَفضِ اتِّباعِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإبائِهم عليه؛ فقالَ تَعالى:

﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهُمْ جماعةٌ منَ اليهودِ: منْ زُعَمائِهم، وأحبارِهم، قِيلَ: منهم كَعْبُ بنُ الأَشْرَفِ، وحُيَيُّ بنُ الأَخْطَبِ.

قالوا للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾ أي: أمرَنا وأوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ ولا نُصدِّق ﴿لِرَسُولٍ﴾ في دعواه الرِّسالة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: بنارٍ، تأكُل ما نقرِّبه إلى الله. وكان أنبياءُ بني إسرائيل إذا جمَعوا صدَقاتِ القوم، وغنائِمَ المعاركِ؛ تنزلُ نارٌ مِنَ السَّماءِ فتأكُلها.

﴿قُلْ﴾ -يا أيُّها النَّبيُّ- في جوابهم: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ كزكريّا ويحيى وغيرهما ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: الآياتِ الواضِحات على صِدقِهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ مِنَ النَّارِ الَّتي تأكُلُ القَرابينَ.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، والقَتْلُ يتضمَّن التَّكذيبَ، وزِيادةً ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتِكم، أنَّكم تُؤمنونَ بالرَّسُولِ، الَّذي يأتيكم بما اقترَحْتُموه؟!

فما أنتُم -يا مَعشر يهود- إلَّا كأسلافِكم، في التعنُّتِ، ورَفْضِ الحقِّ!

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

استِمرارُ مُسَلْسَلِ التَّكذيبِ لدى اليهود، منْ عهدِ أنبيائِهم إلى عَهْدِ نبيِّنا.

وفيها: أنَّه ينبغي في الرَّدِّ على الخَصْم دَحْضُ حُجَّته التي أتى بها؛ لأنَّه إذا خُوصِم بما يقوله لا يبقى له حُجَّة.

وفيها: أنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد أُعطُوا من الآيات ما آمن على مِثله البَشَر؛ كما قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وفيها: أنَّ معرفة تاريخ الكفَّار يُعين في الرَّدِّ عليهم.

وفيها: أنَّ من جُرأة الكفَّار على الله وأنبيائه، أنَّهم يقترِحون المعجِزات ويُطالِبون بها، وكان الواجب عليهم الانتِظار، وأن يرضوا بما يأتيهم به نبيُّهم من المعجِزات -من عند الله- إذا شاءَ اللهُ، وأرادَ.

وفي الآية: إشارةٌ إلى الفَرْق بينَ طلَب المعجِزة استرشادًا وتثبيتًا، وبين طلَبها تعنُّتًا وعِنادًا.

وفيها: نِسْبة الفِعْل إلى اللَّاحِقين، مع أنَّ الذي اقترفه هم السابقون؛ وذلك لإقرارِهم ورِضاهم به.

وفيها: أنَّ من الإفحام في المُناظَرة -أحيانًا-: العُدول عن مُناقشة الخَصْم في صِحَّة ما

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

يقولُه، إلى مُناقَشته في مُخالَفته لِما يقوله، ويكون هذا من باب التنزُّل معه، والانتقال للأهمِّ المُفحِم. وهذا إلزامٌ لهم بعدَم صِدقهم في قولهم بشيءٍ يَعْرِفونه.

وفيها: أنَّ المعجِزات ضروريَّة للرسول -الذي يأتي بشريعة جديدة مستقلَّة- ولكنَّها ليست ضروريَّة للنبيِّ -الذي يأتي لتقرير شريعة رسولٍ قبلَه-.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾:

ثم قالَ اللهُ تعالى، مُسَلِّيًا نَبِيَّه ﷺ فيما يُواجِهه منْ تكذيبِ اليهودِ:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في نُبوَّتك، وشريعتِك، وما جئتَهم به منَ المعجِزاتِ الواضِحاتِ -وعلى رأسها: القرآنُ، الهادِي إلى سواءِ السَّبيلِ-؛ فلا تحزَنْ ولا تفزَعْ منْ هذا التَّكذيبِ، ولا تحزنْ وتأسَ عليهم.

ولك أُسْوَةٌ فيمَنْ مضى؛ ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، فجحدَت أقوامُهم ما أُوحيَ إليهم، منَ الشَّرْعِ الَّذي أُمِروا بتبليغه.

وقد ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والآياتِ الشَّرعيَّةِ، والحِسِّيَّة الواضِحةِ.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ قال قتادة: كتب الأنبياء.

(الزُّبُر) في اللُّغةِ: الكلام والكتاب، و(الزَّبُور) بمعنى: المزبور، أي: المكتوب. وهو الصُّحُف المشتَمِلة على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والمواعِظ والزواجِر. وسُمِّي الكتاب (زَبورًا)؛ لأنَّه يَزْبرُ عنِ الباطل، ويَدْعُو إلى الحقِّ.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ للظُّلُماتِ، المُزيلِ للجَهْلِ والضَّلالِ، والمنيرِ لطريقِ الحقِّ سبيلَ النجاة.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائِدِ:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ بمَن مضى قبلَه من الأنبياء، الذين جاءُوا بالمعجِزاتِ، والآيات البيِّنات، ومع ذلك كُذِّبوا منْ أقوامهم، وجحَدوا رسالتَهم، فصبَروا على ما نالَهم مِنَ الأذى.

وفيها: بِشارة للنبيِّ ﷺ، بأنَّ الله تعالى سينصُره على كلِّ مَن يكذِّبه ويؤذيه، كما نصرَ مَنْ قبلَه مِنَ الأنبياء.

وفيها: مواجَهةُ النبيِّ ﷺ لأصنافٍ كثيرةٍ مِنَ المكذِّبينَ، مِنْ مُشرِكي قُريش، واليهود والنصارى وغيرهم.

وفيها: أنَّ الإنسانَ إذا علِمَ أنَّ غيره أُصيبَ بما أُصيبَ به؛ كانَ في ذلك تخفيفٌ عنه، وتسليةٌ له.

وفيها: أنَّ مِنْ أشَقِّ الأمورِ على الرُّسُل: الإيذاءُ بالتَّكذيبِ؛ لأنَّهم أصدَقُ البشرِ.

وفيها: أنَّ على الدَّاعية المسلمِ أنْ يصبرَ على ما يُلاقيه منْ أذًى في سبيلِ دعوته؛ اقتداءً بنبيِّهِ ﷺ، والأنبياءِ قبلَه.

وفيها: أنَّه ما منْ رسولٍ إلَّا نزلَ عليه كتابٌ مِنَ الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فنؤمِنُ بجميعِ هذه الكتبِ إجمالًا، سواءً عرفنا بعضَ تفاصيلِها، أمْ لم نعرِفْ.

وفيها: أنَّ كُتُبَ الله تعالى تُنيرُ السَّبيل لمن أراد المسير، وتهدي إلى الحقِّ بإذن الله.

وفيها: أنَّه ينبغي على مَنْ يُواجِه الظُّلُماتِ، والاضطرابَ، والحَيرةَ، والتَّشكيكَ، والتَّشويشَ، وعدمَ الوضوحِ في الآراءِ والمواقفِ؛ أنْ يعودَ إلى القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه يُنيرُ له الطَّريقَ، ويهديه سواءَ السَّبيل، ويقضي على كلِّ شكٍّ وشُبْهةٍ، ويُضيءُ له طَريقَ الحقِّ، بينَ ظُلُماتِ الجهلِ والضَّلالة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾:

ثُمَّ أخبرَ اللهُ تعالى عنِ الخليقة عُمومًا، بأنَّه حكمَ عليهم بالفَناءِ، وهدَّدَ المُسيءَ، وبشَّر المُحسِنَ، ووعظَهم بزوالِ الدُّنيا؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أي: كُلُّ رُوحٍ ستذوقُ طعمَ الموتِ، بخروجها مِنْ جسَدها، وكذلك البدَن يذوقُه، ولكنَّ الرُّوحَ لا تفنَى. و(كُلُّ) منْ ألفاظ العُموم؛ فيدخل في هذا: كلُّ ذات رُوحٍ من الأحياء، جنًّا وإنسًا وغيرهم، حتى الملائكة يموتون.

ويُستثنَى من ذلك: كلُّ مَن خُلِقَ للبقاء؛ كالوِلدانِ المُخلَّدون، والحُور العينِ في الجنَّة، وخَزَنةِ الجنَّة والنَّارِ -فإنَّهم لا يموتون-.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾ أي: تُعطَون جزاءَ أعمالِكم كاملًا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾: وهو اليوم الذي يَبتدئُ بعد النَّفخةِ الثَّانية، بقيامِ النَّاسِ مِنَ القبورِ.

والمرادُ بِـ(التَّوفيةِ) هنا: توفيةُ الكمالِ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يُوفَّى بعضَ أَجْرِه في الدُّنيا، أو في البرزخ.

﴿فَمَن زُحۡزِحَ﴾ أي: أُبْعِدَ وأُزِيلَ. و(الزَّحْزَحة) في اللُّغة: الإبعادُ ببُطءٍ، ومشقَّةٍ ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾؛ لأنَّه نجا مِنَ المرهوبِ، وحصلَ على المطلوبِ، وظَفِر بالمحبوبِ.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ؛ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ سُمِّيت بـ(الدُّنيا)؛ لدُنُوِّها زمنًا وقدْرًا؛ فهي قبل الآخرة، ولا نِسبة بينها وبين الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ فمُتعة الدُّنيا مُتعةٌ عابرةٌ، تَغُرُّ صاحبَها وتخدَعه، والمتاع ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى.

وفي الحديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ؛ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَأوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٠١٣)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٩٧٨).

والحديث ثابتٌ في صحيح البخاري[(١)] -من حديث سَهْل بن سَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بدون زيادةِ الآية.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

تَعزيةُ المؤمنينَ، الَّذينَ نالَتْهم مُصيبةٌ في أُحُدٍ، بأنَّ الموتَ مصيرُ الجميعِ.

وفيها: تسليةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأنَّ الله سيُعاقِب كلَّ مَنْ عانده مِنْ كفَّارِ اليهودِ وغيرِهم.

وفيها: أنَّ الرُّوح تذوق طَعْمَ مُفارَقةِ البدَنِ، وتُحِسُّ به.

وفيها: أَنَّ كلَّ نفسٍ ستموتُ. ويُستثنَى مِنْ ذلك: كلُّ مَنْ خُلِقَ للبقاءِ؛ كالوِلدانِ المُخلَّدون، والحُور العين في الجنَّة، وخَزَنة الجنَّة والنَّار -فإنَّهم لا يموتون-.

وفيها: أنَّ الذَّوقَ يَحصُل به درجةٌ منْ درجاتِ اليقينِ، وينتَقِلُ الذَّائقُ مِنَ عِلْم اليقينِ إلى حَقِّ اليقينِ، بعد مروره بعَينِ اليقينِ.

وفيها: أنَّ بعضَ الجزاءِ قد يَحصُل في الدُّنيا والبَرْزَخِ -وهو القيامة الصُّغرى- وأمَّا التوفية الكاملة فتُدَّخرُ إلى القيامةِ الكُبرى.

وفيها: أنَّ النُّفوسَ تَميلُ، وتندَفِعُ إلى الشَّهَواتِ، الَّتي حُفَّتْ بِها النَّارُ، وتنجَذِبُ إليها؛ فلا تَكادُ تنصَرِفُ عنها إلَّا بزَحْزَحةٍ مشتَمِلَةٍ على الشِّدَّة والمشقَّةِ.

وفيها: أنَّ الفوزَ الحقيقيَّ لا يكونُ إلَّا بالنَّجاةِ مِنَ النَّارِ، ودخولِ الجنَّة.

وفيها: أنَّ متاعَ الدُّنيا زَائلٌ لا يَبْقى؛ فلا يَصِحُّ أن يُشْغِلَ الإنسانَ عنِ العملِ للآخرة.

قالَ قتادةُ في قوله تعالى ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: «هي متاعٌ متروكٌ، أوشَكَتْ -والله الَّذي لا إله إلَّا هو- أن تَضْمَحِلَّ عنْ أهلِها، فخُذُوا من هذا المتاع طاعةَ الله -إنْ استطعتُم- ولا قوَّة إلَّا بالله»[(٢)].

وفيها: تهديد ووعيد لمن قال: إن الله فقير، وسائر المكذبين.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٣٣).

وفيها: وعد حسن للمؤمنين.

وفيها: أنَّ الدُّنيا تخدَع أهلَها، بما تُـمَنِّيهم بهِ مِنْ طُولِ الدَّوامِ، والبقاءِ، وبِما تُلْهيهم بِه مِنَ اللَّذَّاتِ العَاجِلةِ.

وفيها: تَصْغيرٌ لشأنِ الدُّنيا، وتَحقيرٌ لأَمْرِها، وأنَّهَا دَنِيئةٌ زَائِلةٌ.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾:

ثُـمَّ زَادَ اللهُ تعالى في تَسـليةِ المؤمنين، عمَّا أصابهم في أُحُـدٍ، ودَعَاهُمْ إلى الصَّبرِ على الأذى الَّـذِي يَلقَونـه مِنْ أهلِ الكتـابِ، وأخبرَهـم -وأخبرَ المؤمنينَ من بعدِهم- أنَّهم سـيُبتَلَونَ في أموالِهم وأنفُسِهم.

فقـالَ تعـالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: منَ النَّفقـاتِ الواجبةِ، والمُسـتحبَّة، ومنَ التعرُّضِ لإتلافها في سبيلِ الله، وتعرُّضِها للجوائحِ، والفَقدِ، والسَّرِقةِ، ونحوِ ذلك.

و(الـلَّامُ) في قولِـه ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ للتأكيـدِ، وفيـه معنى القَسَـم، و(النُّـونُ) لتأكيدِ القَسَمِ.

﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾: بأعباءِ التَّكاليفِ الثَّقيلةِ على كثيرٍ من النَّاسِ؛ كالجهادِ في سـبيلِ الله، والتَّعـرُّضِ فيـه للتَّعبِ، والقَتْلِ، والأَسْرِ، والجِراحِ- وبالأمـراضِ الَّتي تُصيبكم في النَّفسِ، وفيمَنْ تُحِبُّونَ، وبالمصائِبِ.

وهـذا كقولـه تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قولُـه تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾: مِنَ الطَّعنِ فيكم، وفي دِينِكم، وكتابِكم، ورسولِكم.

وقدْ سـلَّى اللهُ تعالى المؤمـنينَ بهذِهِ الآيةِ -عند مَقْدَمِهم المدينةَ، قَبـل وقعة بَدْرٍ- عمَّا نَالهم

مِـنَ الأذى مِنْ أهلِ الكتـابِ، والمشرِكينَ، وأمرَهم بالصَّبرِ والصَّفْحِ والعَفْوِ؛ حتَّى يفرِّجَ اللهُ عَنْهُمْ.

وقـد روى البخاري[1]، عنْ أُسامةَ بـنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّبِـيُّ وَأَصْحَابُـهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾... وَكَانَ النَّبِيُّ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ».

وقـد أخبرَهم ربُّنا بهذا قبل وقوعه؛ ليُوَطِّنوا أنفسَـهم على وقـوعِ ذلك، والصَّبرِ عليه إذا وقعَ، فيهونَ في أنفُسِهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾: أي: إن تصبروا على ما نالَكم في أموالِكم وأنفسِكم، مِـنَ الابتلاءِ، والامتحـانِ، وعلى أذيَّةِ الظَّالمينَ، وتتقُوا اللهَ في ذلك الصَّبرِ، بأنْ تنووا به وَجه الله، والتقرُّبَ إليه، ولم تتعدَّوا في صَبركم الحدَّ الشَّرعيَّ مِنَ الصَّبرِ، في موضعٍ لا يحِلُّ لكم فيه الاحتِمالُ؛ بلْ وظيفتُكم فيهِ: الانتِقامُ مِنْ أعداءِ الله.

إن فعلتُم هذا؛ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مِنَ الأمورِ الَّتي يُعزَم عليها، ويُنافَس فيهـا، ولا يُوفَّـق لها إلَّا أهـلُ العزائِم والهِمَـمِ العاليةِ؛ كما قالَ تعـالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فُصِّلَت: ٣٥]، وعزم الأمر: أي شدَّه وأصلحه.

وعن كَعْبِ بْنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ كَعْبَ بنَ الأَشْرَفِ اليَهُودِيَّ كانَ شـاعِرًا، وكانَ يَهْجُو رَسُـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُحرِّضُ عَلَيْهِ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي شِعْرِهِ، وَكانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ المَدِينَةَ، وَأَهْلُها أَخْلاطٌ، مِنْهُمُ المُسْلِمُونَ الَّذِينَ تَجْمَعُهُمْ دَعْوَةُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْهُمُ المُشْـرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَوْثانَ، وَمِنْهُمُ اليَهُودُ، وَهُمْ أَهْلُ الحَلْقَةِ والحُصُونِ، وَهُـمْ حُلَفـاءُ لِلْحَيَّـيْنِ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، فَأَرادَ رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَـدِمَ المَدِينَةَ اسْتِصْلاحَهُمْ كُلَّهُـمْ، وَكانَ الرَّجُلُ يَكُونُ مُسْـلِمًا وَأَبُوهُ مُشْرِكٌ، والرَّجُلُ يَكُونُ مُسْـلِمًا وَأَخُوهُ مُشْرِكٌ، وَكانَ المُشْرِكُونَ واليَهُودُ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْذُونَ رَسُـولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحابَهُ أَشَـدَّ الأَذَى، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ والمُسْلِمِينَ بِالصَّبرِ

(١) برقم (٤٥٦٦).

عَلَى ذَلِكَ، والعَفْوِ عَنْهُمْ، فَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٩]، فَلَمَّا أَبَى كَعْبُ بنُ الأَشْرَفِ أَنْ يَنْزِعَ عَنْ أَذَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَذَى المُسْلِمِينَ، أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعاذٍ رضي الله عنه أَنْ يَبْعَثَ رَهْطًا لِيَقْتُلُوهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ الأَنْصارِيَّ، وَأَبا عَبْسٍ الأَنْصارِيَّ، والحارِثَ ابْنَ أَخِي سَعْدِ بْنِ مُعاذٍ، فِي خَمْسَةِ رَهْطٍ، وَذَكَرَ الحَدِيثَ فِي قَتْلِهِ. قالَ: فَلَمَّا قَتَلُوهُ فَزِعَتِ اليَهُودُ وَمَنْ كانَ مَعَهُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَغَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحُوا فَقالُوا: إِنَّهُ طُرِقَ صاحِبُنا اللَّيْلَةَ، وَهُوَ سَيِّدٌ مِنْ سادَتِنا، فَقُتِلَ. فَذَكَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ الَّذِي كانَ يَقُولُ فِي أَشْعارِهِ، وَيَنْهاهُمْ بِهِ، وَدَعاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ كِتابًا، يَنْتَهُوا إِلَى ما فِيهِ، فَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ عامَّةً صَحِيفَةً[(١)].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

أنَّه لا بُدَّ أن يُبتلَى المؤمنُ في شيءٍ منْ مالِهِ، أو نفسِه، أو ولدِه، أو أهلِه.

وفيها: أنَّ المؤمن يبُتلَى على قَدْر دينِه؛ وأن الصلاح لا يمنع البلاء، فعن سَعْدٍ قالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قالَ: «الأَنْبِياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ ما عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[(٢)].

وفيها: أنَّ مَنْ قام بحقٍّ، أو أمرَ بمعروفٍ، أو نهى عنْ مُنكرٍ؛ فلا بُدَّ أنْ يؤذَى؛ فما له دواءٌ إلَّا الصَّبرُ في الله، والاستعانةُ بالله، والرُّجوعُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) رواه أبوداود (٣٠٠٠)، والطبراني في الكبير (١٥٤)، والبيهقي في سننه (١٨٦٢٨) -واللفظ له-، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٤٣).

وفيها: أنَّ من حِكمة الله تعالى في عبادِه: أن يبتليَهم في أموالهم وأنفُسِهم، وبأذيَّة المشرِكين لهم؛ ليتميَّزَ المؤمن الصادِق من غيره، وليكون في ذلك رفعة لدرجاتهم.

وفي إخبار الله تعالى المسلمينَ بأذيَّة الكفَّار لهم قبل وقوعها: زيادةٌ لإيمانهم ويقينهم؛ فإنَّه إذا أخبرَهم بذلك ووقعَ كما أخبر ﴿**قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا**﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧**﴾:

ولـمَّا أمرَ الله تعالى بالصَّبر على إيذاء أهل الكتاب؛ بيَّن عَزَّوَجَلَّ أنَّه أمرَهم ببيانِ الحقِّ، وعدمِ كَتْم العِلْم، فكتموا الحقَّ، وزادوا على ذلك أذيَّة أهله!

فقال سبحانه: ﴿**وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ**﴾ أي: واذكُر -يا أيُّها النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- لأُمَّتك قِصَّة هؤلاء.

﴿**مِيثَٰقَ**﴾ (الميثاق): هو العَهد الثقيل، المؤكَّد باليمين ﴿**ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ وهم: أحبارهم ورهبانهم ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ**﴾ أي: لتُظهِرُنَّ للناس جميعَ ما فيه مِنَ الأحكامِ، والأخبارِ ـ الَّتي مِنْ جملتها: نُبوَّة النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-.

﴿**وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ**﴾: ولا تُخفونَه، سواء بكِتمانِ بعضه، أو بتحريفِ معانيه.

قال الحسن البَصْرِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «لَيَتَكَلَّمُنَّ بالحقِّ، ولَيُصَدِّقُنَّه بالعَمَل»(١).

وقالَ قتادةُ رَحِمَهُٱللَّهُ: «هذا ميثاقٌ أخذَه الله على أهلِ العِلْم، فمن عَلِم شيئًا فليُعَلِّمْه، وإيَّاكم وكِتمانَ العِلْم؛ فإنَّ كِتمان العِلْم هَلَكَةٌ، ولا يتكلَّفَنَّ رجلٌ ما لا عِلْمَ له به، فيخرُج من دين الله، فيكون من المتكلِّفين.

كان يُقال: مَثَلُ عِلْمٍ لا يُقال به؛ كمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنفَقُ منه. ومَثَلُ حِكْمةٍ لا تخرُج، كمَثَلِ صَنَمٍ قائمٍ لا يأكُل ولا يشرَب.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٦٢).

وكان يُقال: طُوبى لعالِمٍ ناطِقٍ، وطوبى لمستَمِعٍ واعٍ؛ هذا رجلٌ عَلِم عِلْمًا فعلَّمَه، وبذَلَه، ودعَا إليه، ورجلٌ سَمِعَ خيرًا فحَفِظَه، ووعَاه، وانتفعَ به»(١).

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي: طرَحوه وألقوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ زيادةً في الإعراض؛ فإنَّهم لم يُلقُوه أمامَهم؛ وإنَّما ألقَوه خلفَهم؛ دلالةً على أنَّهم كَرِهوه، واستكبَروا عنه، وأهمَلوه، ولم يبالوا به.

قالَ الشَّعبيُّ: «إنَّهم قد كانوا يقرأونه، إنَّما نَبَذُوا العملَ به»(٢).

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: استبدَلوا به متاعًا دُنيويًّا زائلًا منْ حُطامِ الدُّنيا، وأموالِها، وشَهَواتِها؛ كالرِّئاسةِ، والجاهِ، وأيضًا فعلوا ذلك؛ حتى لا تذهبَ أُعْطِيَاتُهُم، ومنزلتُهم ومناصبُهم عند قومِهم.

﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ أي: قَبُحَ هذا الثَّمنُ، وهذا الشِّراءُ.

قالَ مجاهدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: تبديلُ اليهودِ التوراةَ»(٣).

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

خَطرُ تَأثيرِ العُلماءِ، وأنَّ زَلَّتَهم مُضِلَّةٌ للنَّاسِ.

وفيها: وجوبُ إظهارِ العِلْم، وتحريمُ كِتمانه، وأنَّه يدخلُ في إظهارِه: تَوضيحُ معانيه -لا تبليغَ ألفاظه فحسبُ- ويدخل في كِتمانه: تحريفُ معانيه.

وفيها: بيانُ الكتابِ للنَّاسِ -مؤمنهم وكافرهم-؛ فتبيينُه للمؤمنين لهدايتِهم وإرشادِهم، وتبيينه لغيرِ المؤمنينَ بدَعوتِهم إليه.

وفيها: أنَّ منْ أهلِ الكتابِ مَنْ يَبيعُه بثَمنٍ بَخْسٍ، ويستهينُ به، ويُعْرِضُ عنه؛ كما أنَّ منهم مَنْ يُحرِّفه عنْ مواضعِه، ولا يَعْلَمُ مِنْهُ إلَّا أمانيَّ يتمنَّاها، ومَنْهم مَن لا يستفيدُ منه شيئًا، فهو كالحِمارِ يحمِلُ أسفارًا.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٦١)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٣)، تفسير ابن المنذر (٢/ ٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٤٦٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٣٧).

وفي الآية: تحذيرٌ لعلماءِ السُّوء في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وفيها: التَّحذيرُ منَ الأسباب الباعِثة على كِتمانِ الوحي وتحريفِ معناه؛ طمعًا في اللَّذَّاتِ الفانيةِ، والشَّهواتِ الفاسدةِ، والمالِ والجاهِ، أو خوفًا مِنَ الحُكَّامِ، وسعيًا في إرضائهم، أو موافقةً لأهواء النَّاسِ، ونحوَ ذلك.

وفيها: أنَّه كلَّما زادَ عِلْم الإنسانِ؛ ازدادَ ثِقَلُ العَهْدِ المأخوذِ عليهِ.

وفيها: أنَّه يجبُ على أهلِ العِلْم توضيحُه، ببيانٍ، لا لبسَ فيه.

وفيها: شَرَفُ الصَّفقةِ، والعَهدِ، الَّذي بينَ الله والعالِمينَ بهِ، وبشَرْعه.

وفيها: أنَّ شرَفَ العِلْم لا بُدَّ أن يُقابِلَه التَّكليفُ؛ ببَذْلِه وتعليمِه.

وفيها: خَطرُ الرِّئاسةِ والجاهِ، وأنَّ خوفَ زوالهما رُبَّما دفعَ صاحبَهما إلى كِتمانِ العِلْمِ، وإخفاءِ الحقِّ.

وفيها: أنَّه يجب الأَخْذُ بكلِّ وسيلة لتبليغ العِلْم، سواءً بالقول، أو الكتابة، أو عَقد المجالس، وباغتِنام واستِثمار الوسائل التقنيَّة الحديثة -التي تُسَهِّل إبلاغَه للقريب والبعيد-.

وفيها: أنَّ الهِمَم الدَّنيئةَ، والنُّفوسَ الخسيسةَ، ترضَى بالأدنى، بدلًا من الأعلى.

وفيها: تحريم مُحاباة الرُّؤساء والوجَهاء والأغنياء، على حساب الحقِّ وبيانِه. وفي الحديث: «أَفْضَلُ الجِهَادِ: كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ -أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ-»(٢).

وفيها: أنَّ مجرَّد إيتاءِ الله العِلْمَ للعالِم، يتضمَّن ميثاقًا غليظًا مؤكَّدًا بالبيانِ، وعدَمِ الكِتمان.

وفيها: أنَّه يحرُم على أهل العِلم كِتمانُ ألفاظ الوحي، أو كِتمانُ معانيه، كالامتِناع عن تفسيره، أو تحريفِ معناه، وتفسيرِه على غير مُراد الله، كقول بعض النصارى: إنَّ الذي بشَّر به عيسى مِن بعدِه اسمه أحمد، وهذا محمَّد؛ فليس هو! مع أنَّه معلومٌ أنَّ (أحمد) و(محمَّد) اسمان للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وحسَّنه، وابن ماجه (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٠١١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٩).

وفيها: أنَّ تَرْك العمل بالوحي هو مِن نَبْذِه، والإعراضِ عنه.

وفيها: احتِساب الأجر في تعليمِ العِلْم، والنَّشاطِ في تبليغه.

قال أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «واللهِ لَوْلا آيَتانِ في كِتابِ الله، ما حَدَّثْتُكُم شَيْئًا أَبدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] إِلَى قَوْلِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]»[١].

وفيها: أنَّه يجب على العالِـم بذلُ العِلْم للناس، سواءً سألوا عنه، أم لم يسألوا.

وفيها: أنَّ ما لا يتِمُّ الواجبُ إلَّا به؛ فهو واجبٌ.

المسلمين؛ لاتِّحاد جِنس الحُكم، والعِلَّة فيه.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾:

ثُمَّ ذَمَّ الله تعالى اليهودَ -ومَنْ وافقهم- في فَرَحِهم بالمعاصي، ومُراءاتِهم، وتشبُّعِهم بما ليس عندَهم، وتوعَّدهم على ذلك؛ فقال تعالى:

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ أي: لا تَظُنَّنَّ **﴿ٱلَّذِينَ﴾** مِنَ اليهودِ، وغيرهم **﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾** يُسَرُّون بما فعَلوه من تحريف ألفاظ التوراة ومعانيها، وبالأعمال الفاسدة التي يتقرَّبون بها إلى الله -على زَعْمهم- ويفرَحون فَرَحَ أَشَرٍ وبطَرٍ، ومِنَّةٍ على الله ورسولِه!

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ﴾ أي: يُوصَفوا ويُذكَروا ويُمدَحوا **﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾** وما ليس فيهم، كالصِّدق والفَضْل والدِّين، وكقول الناس عنهم: «علماء»، وليسوا هم أهلَ عِلْم.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ﴾ أي: ناجين. و(المفازة): مكان الفوز والنجاة من المكروه **﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾** في الدُّنيا: بالحَرْب، والقَتْل، والأَسْر، وضَرْب الجِزْية، والذِّلَّة والصَّغار، ونحو ذلك.

أمَّا في الآخرةِ؛ فقد قال تعالى: **﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾** أي مؤلِمٌ موجِع. والمعنى: لا يحسبنَّ هؤلاء أنَّ فرَحهم مُنجٍ لهم من العذاب.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٠).

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية:

عـن ابـن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إِنَّمَا أُنْزِلَـتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ الكِتَابِ»، ثُـمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الآيـةَ، وتَـلَا ابْنُ عبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَـأَلَهُمُ النَّبِـيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَـنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّـاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَـيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَـدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا من كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ»[(١)].

وجاء أيضًا أنَّ هذهِ الآيةَ نَزلتْ في المنافِقينَ:

فعـن أبي سـعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رِجَـالًا من المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُـولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْـهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا»، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الآية[(٢)].

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

التَّحذيرُ من فَرَحِ اليهود بكِتمانِ العِلْم وتحريفِه، والتقرُّب إلى الله بعِصيانه، وفَرَحِ المنافقين بالغَدْرِ والخِيانة، والتخلُّف عن الجهاد.

وفيها: أنَّ بعض الناس لا يكتَفِي بالمعصية، حتى يُضيفَ إليها معصيةً أعظمَ منها؛ وهي الفَرَح بها.

وفيهـا: تحذيرُ الإنسـانِ مِـنْ محبَّةِ حَمْدِ النَّاس لَه عـلى شيءٍ لم يَفْعَلْـه، كالتَّظاهُر بالصَّلاحِ، أوِ إيهـامِ السـامعِ أنَّه فعـلَ خيرًا لم يفعَلْـه؛ ليُقال عَنْهُ: مُؤْمِـنٌ، وصَاحِبُ دِيـنٍ! أو التَّصريح كاذبًـا بأنَّـه عَمِلَ عملًا صالحًـا؛ ليمدَحه النَّاسُ! وهذا مِنْ أعظمِ التَّسـميعِ، وقـد قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ»[(٣)]، أي: فضحَه يومَ القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٨)، ومسلم (٢٧٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

ولا يدخل في الذَّمِّ: مَنْ أحبَّ أن يُحمَد على خيرٍ فعلَه، ولكنَّه لم يتظاهَر بشيءٍ، ولم يتكلَّم بـه. وكذا مَنْ فعلَ خـيرًا، وأخفاهُ، ثُمَّ أظهرَهُ اللهُ؛ فإنَّ فَرَحه من عاجِل بُشْرى المؤمن؛ كما في الحديـث، أنَّـه قِيلَ لِرَسُـولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُـلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَـيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ»(١).

وفي الآية: التَّحذيرُ مِنْ تَشبُّعِ الإنسـانِ بما ليسَ لَهُ، ولم يُعطَه، وقد قال النبي ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(٢).

ويدخلُ في هذا: مَن يتظاهَر بالتديُّن لإقناعِ أهلِ المخطوبة بتزويجه، ومَنْ يُسَمِّع بعملٍ لم يَعْمَلْه.

ويدخـل فيـه أيضًا: مَن يَسْرِق عملَ غيره، وينتَحِله لينالَ بـه مغنمًا من الدُّنيا، كمَنْ يدفع مالًا لَمن يكتُب له رسالةَ ماجستيرٍ، أو دكتوراه؛ لينالَ بها شهادةَ زُورٍ، يفتخِر بها على الناس، ويزيدُ بها منصِبُه ومالُه!

ومثله: مَنْ يَسْرِق مؤلَّفًا أو بَحثًا علميًّا، فينسِبه إلى نفسه، ليشتَهِر به بينَ الناس! أو يسرق إنجـازًا أو اختراعًـا لغـيره؛ لينالَ عليه ترقيةً، أو جائزةً! أو ينسِـب إلى نفسِـه أعمالًا بطوليَّةً، ومواقفَ رجولةٍ، لم يقُم بها، ابتغاءَ الشُّهرةِ والرِّفعةِ بين النَّاسِ!

ومنَ العجيبِ السَّيِّءِ: أنَّ البعضَ يقعُ في البِدَع والشِّركيَّاتِ، ثُم يُحِبُّ أن يُحْمَدَ، ويُوصَفَ بأنَّه منْ أهل السُّنَّة والجماعة!

وفي الآيـة: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَـن لا يكتفي بالمُراءاة فيما يفعلُه؛ حتَّى يرائي بما لم يَفْعَلْه. وإذا كان الأول يُحْبِط العملَ؛ فهذا عذابُه أعظمُ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾:

ثُـمَّ ذكـرَ الله تعالى عُمومَ مُلكِه، وقُدرتِه المُطلَقة، التي لو شـاء أن يُعذِّب بها مَنْ تقدَّمت أقوالهم وأفعالهم -منْ أعداءِ الدِّينِ- لفعلَ ذلكَ؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠).

﴿وَلِلَّهِ﴾ أيْ: لهُ، وليس لغيرِهِ ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتدبيرُهما، وخزائنُهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فلا يُعجِزه شيء، فخافُوه ولا تُخالِفوه، واحذَروا غضبَه ولا تَعْصُوه. و(القُدرة): هي التمكُّن من الفِعْل بلا عَجْزٍ، كما أنَّ (القوَّة): هي التمكُّن من الفِعْل بلا ضَعْفٍ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

ردٌّ على اليهودِ، الَّذين قالوا: إنَّ الله فقير.

وفيها: قُدرة الله تعالى على عِقاب هؤلاء الكفَّار والمنافِقين -الَّذين تقدَّم ذِكرُهم-.

وفيها: تقويةٌ للمؤمنين، في الصَّدْعِ بالحقِّ، وبيانِ العِلْم، وعدمِ الخوف مِنَ الخَلْق؛ فإنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء؛ فهو يكفيهم ويُغنيهم، ومِنَ اليسيرِ عليه: التَّعجيلُ بعذابِ خُصومِهم -من أهل الكتاب والمشرِكين-.

وفيها: أنَّ المُلك المطلَق لله وحدَه؛ كما أفاده تقديم الخبر على المبتدأِ، في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحَصْر.

وفيها: كمال قُدرة الله؛ فإنَّه يتصرَّف فيما يملِك. بخلاف البشر؛ فالبعض يملِك ولا يستطيع التصرُّف في مُلكه؛ بسبَب حَجْرٍ، أو حَبْسٍ، أو مرَضٍ، ونحو ذلك.

وفيها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يتصرَّف في مُلك الله، إلَّا بإذنه وشَرْعه تعالى.

وفيها: أنَّ مُلك المخلوق للأشياء ناقصٌ ومحدودٌ، والله تعالى هو الذي له المُلك التامُّ والمطلَق لكلِّ شيء.

وفي الآية: علاجٌ لليأس؛ فإنَّ مَن آمن بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير؛ فلا يقعُد عن العمل، ولا يُصيبه يأسٌ من حصول المأمول؛ لأنَّه يُوقِن أنَّ ربَّه قادرٌ على تحقيق ذلك.

وفيها: علاجٌ عظيمٌ للوَسْوَسةِ، والشُّبُهاتِ، الَّتي تثورُ في نفْسِ الإنسانِ، والاستِشكالاتِ، الَّتي تَعْرِض لمنْ يبتَدِئُ في طلبِ العِلْم، وقراءةِ النُّصوص؛ فقد يُخَيَّل إليه -مثلًا- استحالة بعضِ المُعجِزاتِ، وبعضِ الكراماتِ، وبعضِ الأخبارِ، الَّتي لا تُدْرِكها العقولُ -مِنْ أُمورِ الغَيبِ- وبعضِ أفعالِ الله تعالى.

فالجوابُ عَنْهَا دائمًا: «إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير».

وفي الآية: الرَّغبةُ فيما عند الله؛ لأنَّه يملِك السَّماوات والأرضِ، والخوفُ منه؛ لأنَّه قادرٌ على العذابِ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّه مَالِكُ السَّماوات والأرض؛ ذكر أنَّ في خَلْقهما دلالاتٍ واضحةً لذوي العقولِ.

ولـمَّا كانَ في بدايةِ هذهِ السُّورَةِ: الرَّدُّ على شُبُهات نصارى وَفْد نَجْرانَ -وغيرِهم منْ أهلِ الباطلِ- في شِرْكهم وكُفرِهم؛ ختمَها عَزَّوَجَلَّ بذِكرِ ما يدلُّ على التَّوحيدِ والألُوهيَّة.

وقد روى ابنُ حِبَّانَ(١)، عنْ عطاءٍ، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ، فقالَ ابن عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَـمَّا كَانَ لَيْلَةٌ من اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ.

قَالَتْ: فَقَامَ فَتطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ.

فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾».

وقد ثبت أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ، فَجلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِمَ من سُورَةِ آل عمران، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي...»(٢)، و(الشَّنُّ): الوعاء والقِربة(٣).

(١) برقم (٦٢٠)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) ينظر: فتح الباري (١/ ٢٨٨).

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في إيجادِهما وإنشائِهما على هذه الصِّفات، منَ الإبداعِ، والإحكامِ:

فالسَّماوات: في ارتفاعها واتِّساعها، وما فيها منَ الشَّمسِ، والقمرِ، والنُّجومِ، والكواكبِ السَّيَّارةِ، والثَّابتة، والزِّينةِ.

والأرض: في انخِفاضها، وبَسْطها، وتَذليلها، وما فيها مِنَ البحارِ، والجبالِ، والقِفارِ، والنَّباتِ، والأشجارِ، والثِّمارِ، وأنواعِ المعادنِ، والحيوانِ، وغيرِ ذلك.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقُبهما، وتفاوتُهما، في الظُّلْمة والنُّور، والطُّول والقِصَر، واختلافهما: حرًّا وبردًا، ورخاءً وشِدَّةً، وعِزًّا وذُلًّا، وهزيمةً ونصرًا، وسَعةً وضيقًا، وصِحَّةً ومَرَضًا.

﴿لَءَايَٰتٍ﴾ واضحةٍ، وبراهينَ قاطعةٍ ساطعةٍ، على قُدرته ورُبوبيَّته سبحانه.

واللَّيل والنهار هما مُستودعا الأعمال، وخزائن ما يُفعَل فيهما من خيرٍ أو شرٍّ. ويقصُر النهار، فيُعين على الصيام، ويطول اللَّيل فيُتَلَذَّذ بالقيام.

﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: لأصحاب العقول الصافية النقيَّة. وسُمِّي (العقل) لُبًّا؛ لأنَّه خالِصُ الإنسانِ؛ كما أنَّ اللُّبَّ خالصُ الحبَّة.

وأولو الألباب: هم الذين يعلَمون الحقَّ فيتَّبِعونه، فلا يكونُ للرَّجُلِ لُبٌّ؛ حتَّى يستجيبَ للحقِّ، ويتَّبِعه؛ وإلَّا فلو عرَفَه، وعصاه لم يكن ذا لُبٍّ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

الاستدلالُ بالصَّنعةِ على عَظَمةِ الصَّانِع، وأنَّ خَلْقه تعالى هو ابتِداعٌ على غير مثالٍ سابقٍ.

وفيها: أنَّ السَّماوات آيةٌ، منْ وجوهٍ متعدِّدة؛ منها: «عُلُوُّها، وسَعَتُها، واستدارتُها، وعِظَمُ خلقها، وحُسنُ بنائها، وعجائِبُ شمسِها وقمرِها وكواكبِها، ومقاديرُها، وأشكالُها، وتفاوتُ مشارقِها ومغارِبها، فلا ذرَّةَ فيها تنفكُّ عَن حِكْمَةٍ.

بَلْ هِيَ أَحْكمُ خَلْقًا، وأتقنُ صُنعًا، وأَجْمعُ للعجائبِ مِنْ بدَنِ الإنسانِ، بل لا نِسبةَ لجميعِ

ما في الأرضِ إلى عجائبِ السَّمَوَاتِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

فالأرضُ، والبحارُ، والهواءُ، وكلُّ ما تحتَ السَّماواتِ، بالإضافةِ إلى السَّماواتِ؛ كقطرةٍ في بحرٍ.

ولهذا قلَّ أنْ تجيءَ سُورَةٌ في القرآن إلَّا وفيها ذِكرُها، إمَّا إخبارًا عن عِظَمها وسَعَتها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظر فيها، وإمَّا إرشادًا للعباد أن يستَدِلُّوا بها على عِظَم بانيها ورافِعها سبحانه، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقها على ما أخبرَ به منَ المعادِ، والقيامةِ.

وإمَّا استِدلالًا منه بربوبيَّتِه لها على وحدانِيَّتِهِ، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إله إلَّا هُو، وإمَّا استِدلالًا منه بحُسْنها، واستوائِها، والتئامِ أجزائِها، وعدَمِ الفُطورِ فيها، على تمامِ حِكمتِه وقُدرتِه.

وكذلك ما فيها مِنَ الكواكبِ، والشَّمسِ، والقمرِ، والعَجائبِ، الَّتي تتقاصَر عُقولُ البشرِ عنْ قليلها»(١).

وفيها: أنَّ في الأرض آياتٍ؛ في تنوُّع قِطَعها -مع تجاورِها- وما سلكَ اللهُ فيها مِنَ الأنهارِ، وبَثَّ فيها مِنَ الدَّوابِّ، وما أحاطَها مِنَ البحارِ، وأعدَّها للسُّكنى، وما فيها مِنَ المنافعِ العظيمةِ، وما أَودعَ اللهُ فيها مِنْ مصادرِ الرِّزقِ، والمالِ، وطعامِ النَّاسِ.

وفيها: أنَّه لا يستفيدُ، ويعتبِرُ مِنْ آياتِ اللهِ الكَونيَّة إلَّا أولو العقولِ الخالِصةِ -مِنْ أصحابِ عُقولِ الرُّشْدِ- وهم أيضًا الَّذين ينتفِعونَ بآياتِ اللهِ الشَّرعيَّةِ.

والعقلُ عقلانِ: عَقلُ إدراكٍ، وتدبيرِ المعيشةِ، وعقلُ رُشْدٍ، يُهتدَى بِه للحقِّ. وقدْ يكونُ الرَّجُلُ منَ الأذكياءِ، لكنْ ليس عِندَهُ عَقْلُ رُشْدٍ، يهتدي بِه للحقِّ، ويقبلُه، ويستجيبُ له، وينتَفِعُ به مِنَ الآياتِ.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾:

ثُمَّ ذَكرَ اللهُ تعالى أنَّ أُولي الألباب يعبُدونه: فِكرًا، وذِكرًا، قيامًا، وقعودًا، وعلى سائر أحوالهم؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فلا يقطَعون له ذِكرًا، بسرائِرهم، وضمائرهم،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٦) لابن القيِّم، باختصار وتصرُّف.

وبقلوبهم: باستحضارِ خَشيتِه، وعَظَمتِه سبحانه، وألسِنَتهم: بِالتَّهليلِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ، ونحوِه، وبِالجوارِحِ: بالعملِ على طاعتِه، واجتِنابِ معصيتِه، فيذكُرونَ أمرَه، ونهيَه.

وأَفضلُ الذِّكر: ما تَواطأَ عليهِ القَلْبُ واللِّسان معًا.

وهـم يذكُرون اللهَ تعـالى ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ أي: حالَ كونِهـم مُضطجِعِينَ، ومُستَلقِيَن؛ فلا يغفُلونَ عَنْ ذكرِه.

قـالَ قتـادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه حالاتُك كلُّها -يا ابنَ آدمَ- اذكُر اللهَ وأنتَ قائمٌ، فإنْ لم تَسْتَطِعْ فاذكُره وأنتَ قاعدٌ، فإنْ لم تَسْتَطِع فاذكُره وأنتَ على جنبِك، يُسْرٌ من الله وتخفيفٌ»(١).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ (الفِكـر): هـو نظرُ العقـلِ، وتردُّد القلـبِ، بالنَّظـرِ، والتَّدبُّر لطلب المعاني، وترتيبِ أمورٍ في الذِّهنِ، يُتوَصَّلُ بها إلى مطلوبٍ، يكونُ علمًا، أو ظنًّا.

﴿فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استِدلالًا واعتِبـارًا، في صُنعِهـما وإتقانِهـما، وما أبدعَ اللهُ فيهما، فيقودهم هذا إلى تَعظيمِ خالقِهما، وليدُلَّهم على كمالِ قُدرتِه، فيُعَظِّموه ويخشَوه.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا﴾ الذي نُشاهِده في السماء والأرض ﴿بَٰطِلٗا﴾ أي: عَبَثًا ضائِعًـا بـلا حِكمة؛ بل خلقتَه لأمرٍ عظيمٍ جليلٍ، وخلقتَه بالحقِّ؛ لتجزيَ الذين أساءُوا بما عَمِلوا، وتجزيَ مَن عَمِلَ صالحًا بالحُسنى.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: نُنزِّهـك عـنْ هذا العَبَث والباطِل، وأن تخلُقَ شيئًا باطلًا، ونُنزِّهُك عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ. وأصلُ (التَّسبيحِ): هو التَّنزيهُ، والتَّقديسُ، والتَّبرِئةُ مِنَ النَّقائِصِ والعُيوبِ.

وتسبيحُ هؤلاء المتفكِّرينَ: فيه طلَبُ التوفيق للعمل الصالح، والهداية إليه، ليهديَهم في النِّهايـةِ إلى جنَّـاتِ النَّعيم، ويقيَهم عذابَ الجحيم؛ ولذا قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: حتَّى يكون ما وفَّقتنا إليه واقيًا وحاميًا، ودافِعًا عنَّا عذابَ النَّار.

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أَنَّه بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مِـنْ آخِـرِ اللَّيـل، فَخَـرَجَ فَنظَرَ فِي السَّـماءِ، ثُـمَّ تَلَا هَـذِهِ الآيَةَ فِي آل عمـران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ

(١) تفسير الطبري (٧/ ٤٧٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حتَّى بَلَغَ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى البَيْتِ فتَسَوَّكَ وَتَوضَّأَ، ثُمَّ قامَ فَصلَّى ثُمَّ اضْطَجَعَ ثُمَّ قامَ، فخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّماءِ فتَلَا هَذِهِ الآيَةَ، ثُمَّ رَجعَ فتَسَوَّكَ فتَوضَّأَ، ثُمَّ قامَ فصَلَّى»(١).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾:

ولـمَّا ذكرَ اللهُ تعالى دُعاءَ المؤمنينَ بالوقايةِ مِنَ النَّارِ؛ أتْبعَه بذِكرِ التَّعليلِ لهذا الدُّعاءِ؛ فحكى عن دُعائِهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ منادى، أي: يا ربَّنا ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أي: أهَنْتَه وأذلَلْتَه غايةَ الإذلالِ.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يمنَعون عنهم عذابَ اللهِ.

وفي الآيتَينِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيانُ السَّبَبِ الذي حمَلَ المؤمنين على الدُّعاءِ بالوقايةِ من النَّارِ.

وفيها: أنَّ الظُّلْمَ سببٌ لدخولِ النَّارِ.

وفيها: أنَّ خالقَ الأكوانِ لا يُمكِن لأحدٍ أن ينتَصِرَ عليه.

وفيها: أنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ، وظُلْمَ الغيرِ، عاقبتُه وخيمةٌ.

وفيها: أنَّ أهلَ النَّارِ لا يجِدون أعوانًا يُجيرونهم منها، ولا يصرِفون عنهم عذابَها، ولا يُخرِجونهم إذا سقطوا فيها.

وفيها: شيءٌ من آدابِ الدُّعاءِ وفِقهِه؛ مثل: التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بأسمائه، وصفاته الحُسنى، وبالعملِ الصَّالحِ الَّذِي يَعملُه العبدُ، والاستِعاذةِ باللهِ تعالى مِنَ النَّارِ، وعدَمِ الاعتداءِ في الدُّعاءِ.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾:

ولـمَّا سألوا اللهَ الوقايةَ مِنَ النَّارِ؛ أتْبعوا ذلك بسؤالِ مغفرةِ الذُّنوبِ وتكفيرِ السَّيِّئاتِ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦).

متوسِّلين في دُعائهم بإيمانهم؛ فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾ يدعُو إلى الله، وبلَّغنا ما نادى به. و(النِّداء): هو رَفْع الصوت. ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾: هذا تفسيرٌ لنداء المُنادِي.

و(اللَّام) في قوله ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾ للإلصاق. والتعبير بـ(اللَّام) بدلًا من (إلى)؛ دلالةً على قُرْب الإيمان، و(إلى) تدُلُّ على البُعد.

﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ (أن) تفسيريَّة، يعني: صدِّقوا به ووَحِّدوه. والإيمانُ بالله هو: الإقرارُ، المتضمِّنُ للقَبُولِ والإذعانِ، وهُوَ: قولٌ، وعملٌ، واعتقادٌ.

قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: استَجَبْنا للنِّداءِ، واتَّبَعْنا المُنادِي، فيما أمرَنا به مِنَ التوحيد والطاعة، وأقرَرْنا مع الانقياد.

وأكثر المفسِّرين على أنَّ المنادِي هو: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد سمَّاه الله تعالى في القرآن (داعيًا) في قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

ولـمَّا اكتملَ التَّوسُّل بالإيمانِ؛ جَاءَ الطلَبُ في الدُّعاء؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: اعفُ عنها، وتجاوز، وامحُ آثارَها. و(الذُّنوب): هي المعاصي، وتشمل الكبائر.

﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: استرْها.

و(الغَفر) و(الكَفر) مُتقارِبان، وهما يدُلَّان على: السَّتر والتغطية.

وقيل في الفرقِ بين (الذُّنوب) و(السيِّئات):

أن (الذُّنوب): هي الكبائرُ، و(السَّيِّئات): هي الصغائر.

وقيل: (الذُّنوب) ما تقدَّم في الماضي، و(السيِّئات) ما سيكونُ في المستقبَل.

وقيل: (الذُّنوب) ما كان في حقِّ الله، و(السَّيِّئات) ما كانَ في حقِّ العِبادِ.

وقيل: (الذَّنبُ) ما يفعلُه العبدُ مع عِلْمه بتحريمِه، و(السَّيِّئة): ما يفعلها مع الجهلِ بحُكمها.

وقيلَ: بلِ (الذُّنوب) و(السَّيِّئاتُ) واحدةٌ؛ والتَّكرارُ للمُبالغة والتَّأكيد.

وقدْ طلَبُوا مِنْ ربِّهم مَغفرةَ الذُّنوبِ؛ لأنَّه لا بُدَّ فيها مِنَ التَّوبةِ، وتكفيرِ السَّيِّئات؛ لأنَّها تزول بالحَسَناتِ الماحيةِ، والمصائبِ المكفِّرةِ، ودعاءِ المؤمنينَ، ونحوِ ذلك.

ولـمَّا كانتِ الوفاةُ على الدِّينِ، والسُّنَّةِ، وعَمَلِ الخير أمرًا عظيمًا؛ فإنَّهم سألُوها ربَّهم؛

فقالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أي: اقبِضنا إليك ﴿مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي: اجعَلْنا في حُكمهم، وجُملَتهم، وعلى أعمالهم، ومُصاحِبين لهم.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

تَصدير الدُّعاء بالنِّداءِ؛ دلالةً على كمالِ التَّوجُّه إلى الله.

وفيها: التَّحدُّث بنِعمةِ الله تعالى في مُقدِّمة الدُّعاءِ.

وفيها: دليلٌ على نوعٍ من أنواع التَّوسُّل المشروع في الدُّعاء، وهو التوسُّل إلى الله بالعمل الصالح، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومِنْ التوسُّل المشروع أيضًا: التوسُّل إليه تعالى بدعاء الصالحين الأحياء، والتوسُّل إلى الله بحال الداعي؛ كذِكر الافتقارِ إلى الله تعالى، كما قال موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القَصَص: ٢٤]، وكقولِ أيوبَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وفيها: أهميَّة النِّداء بالخير؛ لِـما يترتَّب عليه من استِجابة المدعُوِّين وهدايتهم.

وإذا كان المقصود بالمنادِي في قولهم ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾: رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ قول أولي الألباب ﴿سَمِعۡنَا﴾ يشمَل: السَّماع المباشر -كما حصل للصحابة والجِنِّ- والسَّماع غير المباشر -كالسماع من ورَثة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهم العلماء والدُّعاة إلى سبيله-.

وفيها: أنَّ الإيمانَ ليس هو: الإقرارَ فقط؛ بل لا بُدَّ فيه من الانقياد والإذعان.

وفيها: أنَّ تكفيرَ السَّيِّئةِ يَشملُ: الكفَّارةَ العامَّةَ -كالتَّكفيرِ بالصَّلاةِ، والوضوءِ، والجمعةِ إلى الجمعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ- والكفَّارةَ الخاصَّةَ -ككفَّارةِ الظِّهارِ، والجماعِ في نهارِ رمضانَ، وصيدِ المُحْرِم، وإلقاءِ النُّخامةِ في المسجدِ (وكفَّارتها دفنها)، ونحوِ ذلك-.

وفي الآية: فَضْل صُحبة الأخيار بعد الموت؛ كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وفيها: فَضْل الموت على مِثل أعمال الصالحين، وقد قال يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وفيها: أنَّ الاستِجابة للرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واتِّباع سُنَّته؛ سببٌ لمغفرة الذُّنوب وتكفير السيِّئات.

وفيها: حذَر المؤمنين الشديد منَ الفضيحةِ في الآخرة.

وفيها: بَذْل الجُهدِ في الدَّعوةِ إلى الله، ومنْ ذلكَ: رفعُ الصَّوتِ لإسماعِ النَّاسِ.

وفيها: أنَّ الكلماتِ الجامِعةَ يُستغنَى بمَضمونها عنْ تفصيلها؛ فإنَّ قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ يتضمَّن: كلَّ أركانِ الإيمانِ الأخرى، ويتضمَّنَ أيضًا: قولَ القَلْب وعملَه، وقولَ اللِّسان، وعملَ الجوارح.

وفيها: أنَّ سؤالَ الموتِ على عَمَل الأخيار؛ ليس استِعجالًا بطلَب الموت.

وفيها: فَضْل المبادَرةِ والسَّبقِ إلى الإيمان؛ كما تدُلُّ عليه الفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾.

وفيها: العَلاقة بينَ التفكُّر والخوف من الله؛ لذلك قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وفيها: أنَّ المؤمنين يذكُرون الله، ويتفكَّرون في خَلْقه، ويُسَبِّحون له، ويَدْعُونه.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾:

ولـمَّا سأل أُولو الألباب غُفران الذُّنوب المتقدِّمة، وتكفير السيِّئات المُستقبَلة، وأنْ تكونَ وفاتهم مع الأبرار؛ سألوا ربَّهم المزيدَ من فَضْله؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ -يتلذَّذون بتكرار ندائه- ﴿وَءَاتِنَا﴾: أعطِنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ أي: ما تعهَّدتَ به من حُسن الجزاء، كالنَّصرِ في الدُّنيا، والنَّعيمِ في الآخرةِ ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: الذين نقَلوا وَعْدَك إلينا، ونحن صدَّقناهم وتيقَّنَّا بالوَعْد.

﴿وَلَا تُخۡزِنَا﴾ أي: لا تَفْضَحْنا على رؤوس الخلائق، ولا تُذِلَّنا ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: الذي يقوم فيه النَّاسُ مِنْ قبورِهم، ويقومُ فيه الأشهادُ، ويُقام فيه بالعَدْل.

﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ الَّذي وعدتَ به عبادكَ المؤمنينَ، سواءً بالسِّيادةِ في الدُّنيا، أو بسعادةِ الآخرةِ.

وفي هذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

تَكرارُ لفظةِ ﴿رَبَّنَا﴾ أو (رَبِّ) عندَ السؤالِ؛ مبالغةً في التَّضرُّع.

وفيها: كمالُ إيمانِ المؤمنينَ بوَعْد الله.

وفيها: الإيمانُ بالرُّسُل، وتصديقُهم جميعًا فيما جاءُوا به، وأنَّهم قد اشتركوا في أشياء كثيرة ممَّا أخبروا به، ومنها: وَعْد الله للمؤمنين بحُسن الجزاء والعاقبة في الدُّنيا والآخرة.

وفيها: شَناعةُ موقفِ الفضيحةِ، والخِزي يومَ القيامةِ؛ حَتَّى رُبَّما يتمنَّى بعضُ المفضوحينَ أن يُؤمَر به إلى النَّار، ولا يطول مقامُه في الخِزي!

وفيها: كمال وَعْد الله وصِدقه، مع كمال قُدرته؛ فإنَّ الواعِد يُخلِف إمَّا لكَذِبه أو لعَجْزِه، وهما منتفيان في حقِّ الله.

وفي الآية: تصديق المؤمنين بوعد الله؛ فإنَّهم لو لم يُصَدِّقوا بذلك ما سألوه.

وفيها: ثقة المؤمنين بربِّهم، وبكمال قُدرته.

وفيها: التعلُّم من أدعية الصالحين، التي قصَّها الله تعالى علينا في كتابه.

وفيها: استِنجاز وَعْد الله، وسؤالُه التعجيلَ به.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾:

ولـمَّا جمعَ أُولو الألباب شُروطَ الاستِجابة في دُعائهم لربِّهم، مِنَ الإقبالِ على الله بالعِبادةِ، والتَّفكُّرِ، وطَلَبِ الوقايةِ مِنْ عذابِه، وتوسَّلوا في دُعائهم بإيمانِهم بربِّهم، وسألوه مغفرةَ الذُّنوبِ، وتكفيرَ السَّيِّئات، والوفاةَ مع الأبرارِ، وسألوه إنجازَ وَعْدِه، والنَّجاةَ مِنْ خِزيِ يومِ القيامةِ، وجمَعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ استجابَ الله تعالى دُعاءَهم.

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: أجابهم ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ لا أُبطِل ولا أُحبِط ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾، سواءً كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: الذُّكورُ والإناثُ في الثَّواب سواءٌ؛ فهم يشترِكون في الدِّينِ، والنُّصرةِ، والموالاةِ، والأَصْلِ.

ثُمَّ ذكرَ اللهُ تعالى لهم خمسةَ أوصافٍ:

الوصف الأول: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وتركوا دار الشِّرك إلى دار الإيمانِ، وفارَقُوا الأموال والأحباب، والخِلَّانَ، والجيرانَ، في مرضاة الله.

الوصف الثاني: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾، بمضايقةِ الكفَّار، وقَهْرِهم لهم؛ حتَّى ألجأوهم للخروجِ منها.

الوصف الثالث: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بأنواعِ الإيذاءِ، بسبَبِ الإيمانِ.

الوصف الرابع: ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أعداءَ الله، جهادًا في سبيلِه، وإعلاءً لكلِمته.

الوصف الخامس: ﴿وَقُتِلُواْ﴾، وفي قراءةٍ أُخرى بفَتح القاف (قَتَلوا). وكلُّ ذلك في المعركةِ، وكانوا صابرينَ.

فكانَ جزاؤُهم: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ وأَمْحُوَنَّ ذُنوبهم، وأستُرها ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أي: خلالها، وتحتَ أشجارِها، وقصورها، ومساكنها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بأنواعِ المشارِب، مِنَ الماءِ، واللَّبَنِ، والعَسَلِ، والخَمرِ.

﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِنْ فَضْلِه، وإحسانه.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي: الجزاءُ الموفورُ في الجنَّةِ. و(الثواب): هو ما يُعْطاه الإنسانُ.

سبَبُ نُزولِ الآيةِ:

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: يا رَسُولَ الله، لا أَسْمَعُ الله ذكرَ النِّساءَ في الهِجْرَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعالَى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾[1]، وكانت أُمُّ سلمةَ، أَوَّلَ ظَعينَةٍ (امرأة)، قَدِمتِ المَدينَةَ مُهاجِرَةً[2].

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

سُرعة استِجابة الرَّبِّ تعالى للدُّعاء.

وفيها: كَرَم الله، وسَعَة عطائه، بإيتاء المؤمنينَ كلَّ ما سألوه -على كَثْرة مطلوباتهم-؛ كما تدُلُّ عليه لفظة (استَجاب)، التي تَزيد في حروفها ومبناها على لفظة (أجابَ).

وفيها: أنَّه لا يَضيع عملُ عاملٍ عند الله، وأنَّه تعالى يضمَن الأجور.

وفي الآيةِ: فَضْلُ الهِجرة؛ لِما فيها مِنَ الألَمِ، والمشقَّةِ، والتَّضحيةِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٢٣)، وصحَّحه لغيره الألبانيُّ في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٢٢).

والهِجـرة الشرعيَّـة تَشـملُ: هَجْرَ ما حرَّم اللهُ، والهِجـرةَ مِنْ بلدِ الكُفرِ إلى بلدِ الإسـلامِ، والهِجرةَ مِنْ بلدِ الفِسْقِ إلى بلدِ الطَّاعةِ.

فـالأول: واجـبٌ على الجميع، والثاني: واجبٌ على مَن عجـزَ عن إظهار دينه، والثَّالث: واجبٌ على مَنْ خشيَ على نفسه الفِتنة.

وفيهـا: أنَّ مُفارَقـة الإنسـانِ دارَه -بإيـذاء الغير- سـواءً طُـرِد منها مبـاشرةً، أو ضايقَه الأعداء حتى خرجَ منها؛ فيه تجرُّعُ مرارةِ الظُّلْم، وألـمُ تَرْك ما يألفه ويُحِبُّه.

وفي الآية: أنَّ الهِجرةَ مِنْ دارِ الكُفر إلى دار الإسلام أجرُها عظيمٌ، سواءً حصلَت اختيارًا أو اضطرارًا.

وفيها: احتِساب أَجْرِ الإيذاءِ في سبيل الله؛ فإنَّه مهما تنوَّع، واشتدَّ فلا يَضيع أجرُه عند الله.

وفيها: فَضْلُ الجهادِ، والثَّباتُ في المعركةِ، ومُقاتَلةُ الكفَّار، سواءً قتلَ منهم، أو قتَلوه.

وفيها: أنَّ الأعمالَ العظيمةَ تُكفِّر السَّيِّئات بأنواعها.

وإذا اجتمعَ ذِكْرُ (مغفرةِ الذُّنوبِ)، و(تكفيرِ السَّيِّئات) في سِياقٍ واحدٍ؛ فإنَّ (المغفرةَ) تَكونُ في الكبائرِ، و(التَّكفيرَ) يكونُ في الصَّغائرِ.

وإذا أُفرِدَ ذِكر (السيِّئات) في السِّياق، ولم تُقرَن بها (الذُّنوب)؛ فيُحتمَل أنْ يُرادَ بها: كلّ أنواع السيِّئات.

وفيها: أنَّ الجنَّاتِ أنواعٌ، وكذلك الأنهار.

وفيها: تفخيمُ الثَّوابِ وتعظيمُه؛ إذا كان من عند الله.

وفيها: استواءُ الذَّكرِ والأنثى في الجزاءِ والحسناتِ، وفي إجابةِ الدَّعَواتِ.

وفيها: أنَّ الذَّكرَ لا يَزيدُ على الأنثى في الثَّوابِ، إذا كانَ عملُهما واحدًا.

وفيها: أنَّ لكلِّ واحدٍ مِنَ الأعمالِ الخمسةِ الشَّريفةِ المذكورةِ في الآيةِ -وهي: الهجرةُ، والإخراجُ مِنَ الدِّيارِ، والإيذاءُ، والقِتالُ، والقَتْلُ- تأثيرًا في حُصولِ الأجرِ العظيمِ المرتَّبِ عليها.

وفيهـا: أنَّ معرفةَ الأجر وذِكـرَه، يَزيد المؤمن صبرًا وإقدامًا عـلى الأعمال الصالحة، ولو كانت شاقَّة.

وفيها: فَضْلُ القَتْل والقِتال في سبيل الله.

وفي الآية: التَّشويقُ إلى الجنَّة، بذِكر الدَّرجات والأنواع.

وفيها: أنَّ العطيَّةَ تعظُم بحَسَب مُعطِيها.

وفيها: أنَّ على الرجل ألَّا يغترَّ بقوَّتِه، ورئاسته على المرأة.

وفي قوله ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾: بيانُ نوعٍ من المساواة بين الرجل والمرأة، وأنَّ الجنسَين لا فرقَ بينهما في البشريَّة، وبعضهما من بعضٍ؛ فالرَّجلُ مولودٌ مِنَ المرأة، والمرأةُ مولودةٌ مِنَ الرَّجلِ.

وفيها: رَفْعُ قَدْرِ النِّساءِ المسلِماتِ، في أنفُسِهنَّ، وفي نُفوسِ الرِّجال.

وفيها: أنَّ تفوُّق الرِّجالِ على النِّساءِ، في العَقلِ، وقوَّةِ الجسدِ، والميراثِ، ونحوِ ذلك؛ لا دخلَ له في التَّفاضُل عند الله في الثواب.

وفيها: أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يقترِن بالعملِ الصَّالح.

وفيها: فَضْلُ المهاجِرينَ الأوَّلينَ، والمهاجِراتِ مِنَ الصَّحابةِ.

وفيها: فَضْلُ مَن جمعَ بينَ الهجرةِ، والجِهادِ، والشَّهادةِ -كمُصعَبِ بنِ عُمير-.

وفيها: أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ مِنْ أعظَمِ أسبابِ استِجابةِ الدُّعاءِ.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾:

ولـمَّا ذكرَ اللهُ تعالى إيذاءَ الكفَّار للمسلمينَ، وإخراجَهم من ديارهم، وقتالَهم إيَّاهم، وكان كفَّار مكة في الحَرَمِ الذي تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، وكان فقراءُ المهاجِرين في المدينة -ليس عندهم شيء- وذَكرَ اللهُ تعالى أيضًا ما أعدَّ للمؤمنينَ مِنَ الثَّوابِ؛ كانَ مِنَ المناسِبِ أن يُتبِعَ ذلك بذِكْرِ ما أعدَّ للكافرينَ في الآخرةِ مِنَ العذابِ.

فقال عَزَّوَجَلَّ، مُسَلِّيًا نبيَّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمؤمنين عمَّا هم فيه مِنَ الشِّدَّةِ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ أي: لا يَخدَعنَّك -وأنت ترى حالَ الفريقَينِ- ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: تنقُّلُهم فيها للمكاسِبِ والتجاراتِ، وحُسنِ المعايشِ واللَّذَّاتِ. ولا تنظُروا -أيُّها المؤمنونَ- إلى تَرَفِ هؤلاء الكفَّارِ، ولا يَخدَعنَّكم ألوانُ النَّعيمِ، والغِبطة والسُّرور التي

فيها يتقلَّبونَ؛ فاللهُ الذي مكَّنهم مِنْ هذا التَّقلُّبِ، والتنقُّلِ في عالَمِ الصِّناعاتِ، والماديَّات؛ قادرٌ على إفقارِهم وسَلْبِهم إيَّاه، وأَخْذِهم وما يملِكون، وإذهابِ نعيمِهم، ومَحْقِ ثَرْواتِهم.

ثُمَّ وصفَ الله تعالى ما هم فيه منْ نعيم الدُّنيا، بقوله: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ (المتاع): ما تحصُل به المُتعة واللَّذَّة والانبساط، سواء كان مُتعةً نفسيَّة، أو جسديَّة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

ووَصْفه عَزَّوَجَلَّ لـ(متاع الدُّنيا) بأنَّه (قليل)؛ يعني: أنَّه زائلٌ لا يدوم، وهو قليلٌ في قَدْره، قليلٌ في وقته، مُقارَنةً بما أعدَّه الله تعالى لأصحابه في الآخرةِ مِنَ العذابِ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: مَرْجِعهم ومَنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ ينتَقِلون إليها بعد تقلُّبهم في الدُّنيا، ويستَقِرُّون فيها.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: الفِراش، و(المِهاد) أيضًا هو: مكان الاستِقرار، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾.

وفي الآيتَينِ مِنَ الفَوائِدِ:

بيان النظرة الصحيحة لمتاع الدُّنيا؛ لئلَّا يحصُل به الاغتِرار، ولا يُعطَى حجمًا أكبر من حَجمه، ولا ينشَغِل به الإنسان عن العمل للآخرة.

وفيها: جوابٌ عن بعض الشُّبهات، وشفاءٌ للصدور.

كقول بعضهم: لقد أنعمَ الله على الكفَّار بالمال، والثَّروات، والتقدُّم، والازدِهار، ورَغَد العيش، والبيئة الصِّحِّيَّة، والتطوُّرِ التكنولوجيِّ، والاختراعاتِ الحديثةِ، مع أنَّهم يُشرِكون بالله، ويجعلونَ له الولدَ، ويُكذِّبونَ نبيَّه، ويسُبُّونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ!

وأهل الإسلام يؤمنون بالله تعالى وبنبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ويُصلُّون، ويُقيمونَ شعائرَ الإسلامِ، ومع هذا؛ فهم يعيشونَ في فقرٍ، وجوعٍ، وتخلُّفٍ، ومصائبَ، وابتلاءاتٍ عظيمةٍ، وأوضاعٍ مَعيشيَّة صعبةٍ! فأينَ الحِكْمة في هذا؟

والجواب عنْ هَذهِ الشُّبهةِ في هاتَينِ الآيتَينِ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ فاللهُ تعالى ما أعطاهم إلَّا استِدراجًا لهم؛ ليغترُّوا بما هم

فيه، ولِيكونَ مِنْهم العُلُوُّ والفسادُ في الأرضِ، وهذا يُؤذِنُ بهلاكِهم وزوالِهم، وأَخْذِ الله لهم، وبَطْشِه وانتقامِه منهم. وليشتَغِلوا بما هم فيه من نعيم الدُّنيا عن أمور الآخرة؛ فيكون عذابُهم يومَ القيامة موفورًا، وبئس المِهاد! وأيُّ نعيمٍ من نعيم الدُّنيا سيبقَى بعد عذابِ الآخرةِ، وغَمْسةٌ واحدةٌ في النَّار تُنسِي كلَّ نعيمٍ كانَ للكفَّارِ؟! وما قيمة التقلُّبِ في البلادِ، والتَّرفِ، والنَّعيم الدُّنيويِّ، بجانبِ هذا العذابِ المُهينِ، المقيمِ، العظيمِ، الأليمِ؟! فما هم فيه الآن ما هو إلَّا متاع قليلٌ زائلٌ.

أَضِفْ إلى ذلك: أنَّ الكفَّار في الدُّنيا لا يخلو أمرُهم من شِدَّةٍ تصيبهم، وقارِعةٍ تَحُلُّ بهم، وقَحْطٍ، ومرَضٍ، وأَعاصيرَ، وأنَّ ما يتمتَّعون به مِنَ الأموالِ، والأولادِ، لَيسَ خالصًا لهم؛ وإنَّما يكونُ أحيانًا وبالًا عليهم في الدُّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

كما أنَّ أهل الإيمان -في المُقابِل- لا يخلو أمرُهم في الدُّنيا من: التمكين والنصر، والعُلُوِّ، والغِنى، والفَتح، والحياة السعيدة الهانئة.

والإسلامُ مع بلاءِ الدُّنيا، ثُمَّ النَّعيمُ في الآخرةِ؛ خيرٌ من الكُفر مع النَّعيم الزَّائلِ، ثُمَّ العذابُ الأبديُّ في الآخرةِ.

وهذه الشُّبهة فيها اعتراضٌ على قضاءِ الله، وقدَرِه، وقِسمَتِه، واتِّهامٌ له تعالى بالظُّلْم؛ فنعوذُ بالله منَ الخِذلان، ولله سبحانه الحِكمةُ البالغةُ، والحُجَّةُ الواضحةُ.

وفي الآيتَين: أنَّ عطاءَ الله للعبدِ في الدُّنيا -مِنَ الرَّخاءِ، وسَعَة الرِّزقِ، ونحوِه- لَيسَ دليلًا على رِضاه عَنْهُ؛ فَقدْ يَستَدْرِجُ اللهُ المرءَ بإغداقِ النَّعيم عَليهِ؛ فِتنةً لَهُ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفيهما: أنَّه مهما أُعطيَ الإنسانُ مِنَ الدُّنيا؛ فإنَّه قليلٌ.

وفيها: أنَّ «الابتلاءَ قبلَ التَّمكينِ» مِن سُنَّة الله تعالى في المؤمنينَ، والله تعالى قد يُعطي الكافر في الدُّنيا الأمنَ، والرَّخاء، والصِّحَّة، والمال؛ زيادةً له في الإثم، ويُقدِّر على المؤمنينَ التضييقَ، والخوفَ، والابتلاءاتِ؛ تمحيصًا لهم، ورِفعة لدرجاتهم، وتكفيرًا عنْ سيِّئاتهم، ثُمَّ تكونُ الغَلَبةُ لهم.

وفيها: أنَّ الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ، وجنَّةُ الكافرِ؛ فالكافرُ ينتقِل مِنْ نعيمِ الدُّنيا إلى عذابِ النَّارِ، والمؤمِنُ ينتقلُ مِنْ ضيقِ الدُّنيا، وشِدَّتها إلى سَعَة الجنَّة ونعيمِها.

وفيها: أنَّ التَّحذيرَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو تحذيرٌ لغيره -مِنْ باب أولى-.

وفيها: أنَّ تحذيرَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الاغترار بالدُّنيا، لا يعني أنَّه وقعَ فيه، ولا أنَّه سيقعُ فيه؛ وإنَّما هو تربيةٌ منَ الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأكيد.

وفيها: أنَّ مَنْ ظنَّ الشيءَ الضارَّ نافعًا؛ فهو مغرورٌ.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾:

ولـمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مـآلَ الكفَّار، وأنَّه إلى النَّار؛ ذكرَ بعدَه مـآلَ المؤمنين، وأنه إلى الجنَّة؛ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَٰكِنِ﴾ (لكن) تأتي في اللُّغة للاستِدراكِ، ودَفْعِ التوهُّم. والمعنى: أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لو حصلَ لهم في الدُّنيا مِثلَ ما حصلَ للكفَّارِ، منَ التَّقلُّبِ في البلادِ، والسَّفَرِ للتِّجاراتِ، والتَّمكينِ في الأرضِ؛ فـإنَّ ذلـكَ لا يضُرُّ أجرَهـم في الآخرة؛ بلْ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ وبسـاتين ﴿تَجۡرِي﴾ أي: تَسيل ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بأنواعها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ فلا يموتون، ولا يُخرَجون منها.

﴿نُزُلٗا﴾ أي: ضِيافةً، وعطاءً، وإكرامًا ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كرمًا، وفَضْلًا منه سبحانه؛ لأنَّ النَّازلينَ في الجنَّاتِ: هم ضُيوفُه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِـنَ الكرامـة -فوقَ ما تقدَّم، كرؤيـة وَجْهه عَزَّوَجَلَّ- ﴿خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ الذين يُكثِرون فِعْلَ الخيراتِ، ويبرُّونَ غيرَهم -كالآباءِ والأبناءِ- ولا يُؤذُونَ حَتَّى صِغارَ الحيواناتِ.

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفوائدِ:

أنَّ مـا يَكتُـبُ اللهُ للمؤمنـين مِنَ النَّـصرِ، والمكاسـب في الدُّنيا، لا يضُرُّهـم، ولا يُنقِصُ أجرَهم وثوابَهم، ما داموا بررَة أتقياء.

وفيها: فَضْلُ الجَمْعِ بينَ البرِّ والتَّقوى، وأنَّهما سببُ اكتمالِ الأجرِ، ونفاسَتِه.

وفيها: أنَّ البارَّ يتعدَّى خيرُه إلى غيرِه، مِنَ القريبينَ، والبعيدينَ، حتَّى الدَّوابِّ.

وفيها: أنَّ الموتَ خيرٌ للبارِّ، مِنْ جهة أنَّ ما عند الله له -من الأجر والثواب- أفضلُ ممَّا في الدُّنيا.

وفيها: أنَّ سـيرةَ المؤمنين في الأرضِ تُخالِف سـيرةَ الكفَّار فيها تمامَ المخالفةِ؛ لأنَّ المؤمنينَ إذا حكَموا وتمكَّنوا؛ صاروا خيرًا، ورحمةً على العِبادِ والبلاد.

وفي الآية: أنَّ الجنَّة عاليةٌ؛ لأنَّ الأنهارَ تجري مِنْ تحتِها؛ وهذا يدُلُّ على عُلُوِّ قُصورِها وأشجارِها.

وفي الآية: إكرامُ الضَّيْفِ، بتعجيلِ شيءٍ لَهُ عند قُدومِه؛ لأنَّ (النُّزُل) في اللُّغةِ: يُطلَق على: أول ما يقُدَّم للضيفِ منَ الطَّعامِ.

وفيها: إكـرامُ الله تعالى لمَنْ جاورَه في دار كرامته، ونزلَ به في محلِّ ضِيافته، وهو سـبحانه أكرَم الأكرَمينَ، وأجوَد الأجوَدين.

وفيها: أنَّ نعيم الجنَّة أعظمُ وأفضلُ من أرباحِ الدُّنيا، وتجاراتِها، ومكاسِبِها، ومن التسلُّطِ والعُلُوِّ فيها.

وفيها: أنَّ مَنِ اتقى، وخافَ عِقابَ ربِّه، بفِعْلِ المأموراتِ، واجتِناب المنهيَّاتِ؛ ستَحْسُـنُ سيرتُه في التِّجارةِ، وابتِغاء المكاسِب.

وفيها: أنَّ مَنْ حصلَ لهم سَعَةٌ في الدُّنيا، بما لا يُخالِف الشَّرْعَ؛ فليسَ بمذموم، كما قالَ الشَّاعِرُ:

ما أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيا إذا اجتمَعَا ... وأقبحَ الكُفرَ والإفلاسَ بالرَّجُلِ(١)

وفيها: إعدادُ الكرامةِ والضِّيافةِ، وتهيئةُ النُّزُلِ للضَّيف قبل قدومه.

وفيها: الحثُّ على حُسن العملِ، وهذا معنى (البِرِّ)، وهو ضِدُّ (الفُجُور).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩٩﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعـالى ما أعدَّ للمتَّقينَ من الثَّوابِ؛ بـيَّنَ أنَّ بعض أهل الكتاب لهم نصيبٌ من هذا الثواب؛ لأجل إيمانهم.

---

(١) هذا البيت منسوب لأبي دلامة الأسدي. ينظر: ديوان أبي دلامة الأسدي (ص٣٣)، إعداد: رشدي علي حسن.

ولـمَّا كانت بدايةُ هذه السُّورَة موجَّهةً لدَعْوَة أهل الكتاب -من نصارى نَجْران وغيرهم-؛ فقد بيَّنت خاتِمَتُها أنَّ بعضَهم قد استجابَ لذلك؛ فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: طائفةٌ مِنَ اليهود والنصارى -كعبدِ الله بنِ سلامٍ، والنَّجاشيِّ- ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ حقَّ الإيمانِ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِنَ القرآنِ، وهذا لا يَتِمُّ إلَّا بالإيمانِ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ التَّوراةِ، والإنجيلِ، وما فيهما مِنْ صِفةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبوَّته.

وحالهم أنَّهم: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مُطيعين له، خاضِعين، متذلِّلين بينَ يديه.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا يأخذونَ، ولا يطلُبونَ بدَلًا عنْ آياتِ الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا كثيرًا مِنَ الدُّنيا، مِنْ جاهٍ، أو رئاسةٍ، أو مالٍ؛ فهم لا يُحرِّفونَ كتُبهم، ولا يكتُمونَ شأنَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أجلِ رِشْوَةٍ، أوْ محافظةٍ على رِئاسةٍ. و(الشِّراءُ) هُنا بمعنى: الأَخْذُ.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كامـلًا موفورًا؛ لأنَّهم لم يأخذوا من الدُّنيا بدَلًا عنْ طاعةِ الله، والإيمانِ به، وآثَروا ما عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُوصِل الأجرَ والثَّوابَ إلى صاحبِه بسُرعةٍ، ويُحاسِب الناس جميعًا يومَ القيامة في وقتٍ قصيرٍ؛ حتى إنَّه عَزَّوَجَلَّ ليُحاسِبُ الخلائِقَ كلَّهم في نِصْف يومٍ؛ فتكونُ قيلولةُ أهلِ الجنَّة في الجنَّة، وأهلِ النَّار في النَّار، و(القيلولة) إنَّما تكون في نِصْف النَّهار، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

سبَب نُزولِ الآيةِ:

عَنْ جابرِ بنِ عبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اخْرُجُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ» فَصَلَّى بِنَا، فَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، فَقَالَ: «هَذَا النَّجَاشِيُّ أَصْحَمَةُ»، فَقَالَ المنَافِقُونَ: انْظُرُوا هَذَا يُصَلِّي عَلَى عِلْجٍ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾[1] [آل عمران: ١٩٩].

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائِدِ:

الثَّناءُ على مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ، والإشادةِ بهم؛ لأنَّهم آثَروا ما عند الله على الدُّنيا وما

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٧)، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على التفسير.

فيها. وقد وردَ مدْحُهم في آياتٍ أخرى مِنَ القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآية [القصص: ٥٢-٥٤].

وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة ١٢١]، وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وغيرها مِنَ الآياتِ، الَّتي يُناسِبُ ذِكرُها؛ كمَدْخَل مُهِمٍّ في دعوةِ أهلِ الكتابِ.

وفي الآيةِ: عِظَمُ أجرِ مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ بالنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الحديثِ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ من أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ...»(١).

وفي الآيةِ: أنَّ مِنَ اليهودِ والنَّصارى مَنْ يدخلُ في دينِ الإسلامِ، ويُؤمنُ بالنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُنزِلَ عليه، لكِنْ مَنْ يدخلُ الإسلامَ مِنَ النَّصارى أكثرُ ممَّن يدخلُه مِنَ اليهودِ؛ حتَّى إنَّه لم يُؤمِنْ بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أحبارِ اليهود ورؤسائهم إلَّا أقلُّ مِنْ عَشرةٍ؛ كما في الحديث: «لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ؛ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ»(٢).

وفي الآيةِ: أنَّ الإيمانَ يَقودُ إلى الخُشُوعِ. وقدْ ثبَتَ في الحديثِ، أنَّ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لـمَّا قرأ سُورةَ مَريمَ بحضْرةِ النَّجاشيِّ، مَلِكَ الحَبَشةِ، وعندَه البطارِكةُ والقَساوِسةُ؛ بكى وبكَوا معه، حتى أخضلوا لحاهم(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وذلك لِـما رَأوا أنَّ ما في القرآن مُصدِّقٌ لِـما معهم؛ ففَرِحوا بالوحي الجديد.

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣) - واللفظ له -.

(٣) رواه أحمد (١٧٤٠)، وحسَّن إسنادَه الألبانيُّ في صحيح السيرة (ص ١٨٠).

فمِثل هؤلاء جديرٌ أن يُشادَ بهم، ويُذكَر فَضْلُهم -وقد كادَ النَّجاشيُّ أن يَفْقِدَ مُلكه من أجل الإسلام-.

ولذا ثبتَ في الصحيحَين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا[١].

وفي الآية: أنَّ أهل العِلْم الصادِقين لا يأخُذون على تبليغ العِلْم شيئًا مِنَ الدُّنيا؛ بل يبذُلونه مجانًا، ولا يكتُمون ما عندَهم مِنَ العِلْم؛ بل يُبيِّنونه للنَّاسِ.

وفيها: أنَّ مُسلِمة أهل الكتاب هُم إخواننا في الدِّين، يهتَدون بهدي الأنبياء، ويُضيفون إلى الهداية بالكُتب السابقة -ممَّا لم يُحرَّف منها- الاهتداءَ بهذا القرآن.

وفيها: الرَّدُّ على مَن زعمَ أنَّ أهل الكتاب -بعد بِعْثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من المؤمنين، وأنَّهم سيدخلون الجنَّة، ولو بقَوا على دينهم المحرَّف!

فقد شَهِدَ القرآن بعدم إيمانهم حتى يؤمنوا بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أُنزِلَ عليه، وقد أقسمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا؛ فقال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ من أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

وفيها: سُرعة حساب الله تعالى للبَشَر، مع كَثْرة عددِهم، ومع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخلو بكلِّ واحدٍ منهم، وذلك على الله يسيرٌ.

وفيها: أنَّ العِلْم بما في كُتب الله ينفع صاحبَه، إذا كان عندَه خشيةٌ لله.

وفيها: تعريضٌ بمَن تركَ اتِّباع الحقِّ من أجل الدُّنيا، كما فعلَتْه الطائفة المرذولة من أهل الكتاب، الذين كتَموا ما عندَهم من العِلْم؛ لئلَّا يخسَروا بعضَ متاعِ الدُّنيا الزائِل! وقد ذمَّهم الله تعالى في آيةٍ سبقَت، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

(٢) رواه مسلم (١٥٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠ ﴾:

ولـمَّا ذكرَ الله تعالى حالَ المؤمنين، وحالَ الكافرين، وما كان من قتالِ أعداء الله لأهل الإيمان، وعداوتِهم الشديدة لهم، وصدِّهم عن سبيل الله؛ ختمَ الله عَزَّوَجَلَّ هذه السُّورَة بوصايا عظيمةٍ جامعةٍ، فيها: الأمر بالصَّبرِ على الدِّين، والمُصابَرة عند لقاء الكفَّار، وحِراسةُ ثُغورِ المسلمينَ في سبيلِ الله؛ فقال عَزَّوَجَلَّ -مستَنْهِضًا هِمَمَ المؤمنينَ، وباعِثًا للحماسِ في نفوسهم-:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: النِّداءُ للتنبيهِ، ولبيانِ أمورٍ منْ مقتَضياتِ الإيمانِ، ولإغراءِ مَن يُناديهم بالمحافَظة عليها.

﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على أداءِ ما أوجبَه الله عليكم، والقيامِ بتكاليف دينِكم، وعلى تَرْكِ ما نهاكم الله عنه، وعلى قضاءِ الله وقدَرِه، وآلامِ الدُّنيا ومصائبِها -كالمرض والفقر والخوف-. والصَّبر إنَّما يكون في كلِّ ما يخالِف هوى النفس.

﴿وَصَابِرُواْ ﴾ (المُصابَرة) مُفاعَلة، تقتضي اشتراكًا بين اثنين فأكثر. وعلى هذا؛ فالمُراد بها: الصَّبرُ على الأذى الذي يحصُل من الغير، وتَرْكُ الانتقامِ؛ فـ(المصابرة) تكون مع شخص يُضادُّك.

﴿وَرَابِطُواْ ﴾ أي: أقيموا على الطاعاتِ، ومنْ ذلك: انتِظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ.

وأعظمُ الرِّباطِ: ما يكونُ في الجهادِ، في سبيلِ الله، برَبْطِ الخيلِ في الثُّغورِ والحدودِ مع الأعداءِ، والأماكنِ المشترَكةِ مع الكفَّارِ، وفي السَّواحلِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ، والأَخْذِ بالأسبابِ لمَنْعِ العدُوِّ مِنَ المُباغتَةِ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ واحذَروا مخالفةَ أمرِه ونهيِه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي: تظفَرون بالسَّعادة الأبديَّة في الدُّنيا والآخرة.

وفي هَذهِ الآيةِ مِنَ الفَوائدِ:

أنَّ الصَّبر، والمُرابَطة، والتَّقوى مِنْ صفات المؤمنين؛ ولذلك ناداهم بلَفْظ الإيمانِ، وأغراهم بهذه الأعمالِ.

وفيها: فَضْل مُخالَفةِ هوى النَّفسِ، وتحمُّلِ المشقَّة إرضاءً لله تعالى.

وفيها: مُغالَبَةُ النَّفسِ، بالصَّبرِ عند لقاءِ الأعداءِ؛ لأنَّ المصابَرة (مُفاعلة)، فلا تكونُ إلَّا بين اثنَينِ. بخلافِ الصَّبرِ؛ فإنه يكونُ بحَبْس النَّفْس عَنِ الشَّيءِ.

وفي الآية: فَضْلُ الثَّباتِ أمامَ مَنْ يُضادُّ الدِّينَ، ويُعانِد الشَّريعةَ.

وفيها: فَضْل (الرِّباط).

ومعناه العامُّ: المداوَمةُ في مكانِ العِبادة والثَّباتُ. ويشمل: انتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، والإقامة في نَحْر العدُوِّ -حِفظًا لثغور الإسلام، وصيانتها عن دخولِ الأعداء واقتحامِهم لها-.

وقد احتاج المسلمون إلى المرابَطة لـمَّا فُتِحَت الفتوحاتُ، أمَّا في عهد النبيِّ ﷺ فكانت المرابَطة قليلة؛ لأنَّه ﷺ كان يخرُج إلى العدُوِّ ويغزوه، ثم يَرْجِع.

وفيها: أنَّ العاقبةَ الحميدةَ -وهي الفلاحُ- تكون لمن قامَ بأوامر الله، من: الصَّبر، والمصابَرة، والمرابَطة، والتَّقوى.

وفيها: فَضْل الرِّباط وعِظَم أجره؛ لِـما يشتمل عليه من تَعَبِ الحراسة، والخوف والقَلَق من هجوم العدُوِّ، والاحتِباس عن المصالح الدُّنيويَّة -كالتجارة وطلبِ الرِّزق ونحوها-، والبقاء مُنتبِهًا طيلةَ الوقت، ومُراغمة أعداء الله، والعمل الطويل الشاقّ.

وقد جاء في الحديثِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «رِباطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله؛ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»(١).

وإذا ماتَ المُرابِطُ في الرِّباطِ؛ جرى عليه عملُه، ويُكتَب له أَجْرُ الرِّباط إلى يومِ القيامةِ، ويُجرَى عليه رِزقُه، وهو في قبره، ويَأمنُ فِتنة القبرِ.

ففي الحديثِ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ خَيْرٌ من صِيَام شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ؛ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ»(٢).

و(الفَتَّان) يعني: فِتنة القبرِ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٩١٣).

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٦١).

وفي الآية: فَضْلُ الحراسةِ في سبيلِ الله، وقد جاءَ في الحديثِ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»(١).

وفيها: أنَّ مَن اتقى ربَّه؛ أفلحَ إذا لقيَه.

وفيها: التدرُّج مِنَ الأخفِّ إلى الأثقلِ؛ فـ(المصابَرةُ) أشدُّ مِنَ (الصَّبرِ)، و(المرابَطةُ) تَشتملُ عليهما.

وفيها: أنَّ أفعالَ الترجِّي مِنَ الله -(لعلَّ) و(عسى) ونحوها- تُفيد التَّحقيقَ والوقوعَ -إذا تحقَّقَ الشَّرطُ-؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُخلِف الميعادُ.

وأمَّا الترجِّي مِنَ البشرِ؛ فقد يَقعُ الموعودُ بِه، وقد لا يقع.

وفيها: ذِكْرُ ما يلزَم لجهادِ الكفَّارِ، وشَياطينِ الإنسِ.

وأمَّا شيطان الجنِّ؛ فإنَّ المصابَرة والمرابَطة معه تَقتضي حِراسةَ الثُّغورِ، التي يُمكن أنْ ينفُذَ منها؛ كالسَّمعِ، والبصرِ، وأنْ يحرُسَها صاحِبُها؛ لئلَّا يَنْفُذَ إليها شيءٌ؛ ممَّا حرَّمه الله، فيدخلَ الشَّيطانُ مِنْها للإفسادِ والخرابِ.

والله المستعانُ، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا به.

انتهى تفسيرُ سُورَة آل عمران

وبه تَمَّ تفسير الزَّهْراوَين

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ

---

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢).

تَفْسِيرٌ أَثَرِيٌّ تَرْبَوِيٌّ مُعَاصِرٌ
تَسْهِيلًا لِلتَّدَبُّرِ وَالعَيْشِ مَعَ ٱلقُرْآنِ

مجموعة زاد
ZAD GROUP